الرافدين على الجلالين

بسم الله الرحمن الرحيم

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى

١٤٣٦هـ-٢٠١٥م

رقم الإيداع: ٢٠١٣/٨٣٤٠م

الترقيم الدولي: ٩٧٨-٩٧٧-٦٢٥٤-٢٥-٨

ISBN 978-977-6354-99-9

الدار العلمية

العالمية للثقافة الدولية

002-0122-165-3339

Email: abdallaelnady@gmail.com

الرافدين على الجلالين

تأليف

محمد بن نصر أبي جبل

الجزء الثالث والثلاثون

بسم الله الرحمن الرحيم

إِنَّ هَؤُلَاءِ لَيَقُولُونَ (٣٤).

{إن هؤلاء} أي كفار مكة {ليقولون}.

إِنْ هِيَ إِلَّا مَوْتَتُنَا الْأُولَى وَمَا نَحْنُ بِمُنْشَرِينَ (٣٥).

{إنْ هِيَ} مَا الْمَوْتَة الَّتِي بَعْدهَا الْحَيَاة {إِلَّا مَوْتَتنَا الْأُولَى} أَيْ وَهُمْ نُطَف {وَمَا نَحْنُ بِمُنْشَرِينَ} بِمَبْعُوثِينَ أَحْيَاء بَعْد الثَّانِيَة.

فَأْتُوا بِآبَائِنَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٣٦).

{فَأْتُوا بِآبَائِنَا} أَحْيَاء {إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ} أَنَّا نبعث بعد موتنا أي نحيا.

أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ (٣٧).

قال تعالى {أهم خَيْر أَمْ قَوْم تُبَّع} هُوَ نَبِيّ أَوْ رَجُل صَالِح {وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلهمْ} مِنْ الْأُمَم {أَهْلَكْنَاهُمْ} بِكُفْرِهِمْ وَالْمَعْنَى لَيْسُوا أَقْوَى مِنْهُمْ وَأُهْلِكُوا {إنهم كانوا مجرمين}.

وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ (٣٨).

{وما خلقنا السماوات وَالْأَرْض وَمَا بَيْنهمَا لَاعِبِينَ} بِخَلْقِ ذَلِكَ حَال.

مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٣٩).

{مَا خَلَقْنَاهُمَا} وَمَا بَيْنهمَا {إلَّا بِالْحَقِّ} أَيْ مُحِقِّينَ فِي ذَلِكَ لِيُسْتَدَلّ بِهِ عَلَى قُدْرَتنَا وَوَحْدَانِيّتنَا وَغَيْر ذَلِكَ {وَلَكِنَّ أَكْثَرهمْ} أَيْ كُفَّار مكة {لا يعلمون}.

إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ مِيقَاتُهُمْ أَجْمَعِينَ (٤٠).

{إنَّ يَوْم الْفَصْل} يَوْم الْقِيَامَة يَفْصِل الله فِيهِ بَيْن الْعِبَاد {مِيقَاتهمْ أَجْمَعِينَ} لِلْعَذَابِ الدَّائِم.

يَوْمَ لَا يُغْنِي مَوْلًى عَنْ مَوْلًى شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ (٤١).

{يَوْم لَا يُغْنِي مَوْلَى عَنْ مَوْلَى} بِقَرَابَةٍ أو صداقة أي لا يدفع عنه {شَيْئًا} مِنْ الْعَذَاب {وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ} يُمْنَعُونَ منه ويوم بدل من يوم الفصل.

إِلَّا مَنْ رَحِمَ اللهُ إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (٤٢).

{إلَّا مَنْ رَحِمَ الله} وَهُمْ الْمُؤْمِنُونَ فَإِنَّهُ يَشْفَع بَعْضهمْ لِبَعْضٍ بِإِذْنِ الله {إنَّهُ هُوَ الْعَزِيز} الْغَالِب فِي انْتِقَامه مِنْ الْكُفَّار {الرَّحِيم} بالمؤمنين.

إِنَّ شَجَرَتَ الزَّقُّومِ (٤٣).

{إنَّ شَجَرَة الزَّقُّوم} هِيَ مِنْ أَخْبَث الشَّجَر الْمُرّ بِتُهَامَة يُنْبِتهَا الله تَعَالَى فِي الْجَحِيم.

طَعَامُ الْأَثِيمِ (٤٤).

{طَعَام الْأَثِيم} أَبِي جَهْل وَأَصْحَابه ذَوِي الْإِثْم الكبير.

كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ (٤٥).

{كَالْمُهْلِ} أَيْ كَدُرْدِيِّ الزَّيْت الْأَسْوَد خَبَر ثَانٍ {تغلي فِي الْبُطُون} بالْفَوْقانية خَبَر ثَالِث وبالتَّحْتَانِيّة حَال من المهل.

كَغَلْيِ الْحَمِيمِ (٤٦).

{كَغَلْيِ الْحَمِيم} الْمَاء الشَّدِيد الْحَرَارَة.

خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ إِلَى سَوَاءِ الْجَحِيمِ (٤٧).

{خُذُوهُ} يُقَال لِلزَّبَانِيَةِ خُذُوا الْأَثِيم {فَاعْتِلُوهُ} بِكَسْرِ التَّاء وَضَمّهَا جُرُّوهُ بِغِلْظَةٍ وَشِدَّة {إلَى سَوَاء الْجَحِيم} وَسَط النَّار.

ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ (٤٨).

{ثُمَّ صُبُّوا فَوْق رَأْسه مِنْ عَذَاب الْحَمِيم} أَيْ مِنْ الْحَمِيم الَّذِي لَا يُفَارِقهُ الْعَذَاب فَهُوَ أَبْلَغ مِمَّا فِي آيَة {يُصَبّ مِنْ فوق رؤوسهم الحميم}.

ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ (٤٩).

وَيُقَال لَهُ {ذُقْ} أَيْ الْعَذَاب {إنَّك أَنْتَ الْعَزِيز الْكَرِيم} بِزَعْمِك وَقَوْلك مَا بَيْن جَبَلَيْهَا أعز وأكرم مني.

إِنَّ هَذَا مَا كُنْتُمْ بِهِ تَمْتَرُونَ (٥٠).

ويقال لهم {إنَّ هَذَا} الَّذِي تَرَوْنَ مِنْ الْعَذَاب {مَا كُنْتُمْ بِهِ تَمْتَرُونَ} فِيهِ تَشُكُّونَ[1].

---

(١) ذكر سبب النزول.

عن أبي مالك؛ قال: إن أبا جهل كان يأتي بالتمر والزبد، فيقول: تزقموا بهذا الزقوم الذي يعدكم به محمد؛ فنزلت: {إِنَّ شَجَرَتَ الزَّقُّومِ (٤٣) طَعَامُ الْأَثِيمِ (٤٤)}.

ذكره السيوطي في "لباب النقول" (ص ١٩٠)، و"الدر المنثور" (٧/ ٤١٨) ونسبه لسعيد بن منصور. وسنده ضعيف؛ لإرساله.

وعن عكرمة؛ قال: لقى النبي ﷺ أبا جهل، فقال أبو جهل: لقد علمت أني أمنع أهل البطحاء، وأنا العزيز الكريم، فقتله الله يوم بدر وأذله وعيره بكلمته؛ ونزل فيه: {ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ (٤٩)}.

أخرجه الواحدي في "أسباب النزول" (ص ٢٥٣)، والأموي في "مغازيه"؛ كما في "تفسير القرآن العظيم" (٤/ ١٥٧) -من طريق أسباط بن محمد عن أبي بكر الهذلي عن عكرمة به.

وهذا إسناد ضعيف جدًا؛ فيه علتان:

الأولى: الإرسال.

الثانية: أبو بكر الهذلي؛ متروك الحديث.

وعن قتادة في قوله: {ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ (٤٨)}؛ قال: نزلت في عدو الله أبي جهل، لقى النبي ﷺ؛ فأخذه، فهزه، ثم قال: "أولى لك يا أبا جهل =

=

فأولى، ثم أولى لك فأولى، ذق إنك أنت العزيز الكريم"، وذلك أنه قال: أوعدني محمد، والله لأنا أعز من مشى بين جبليها، وفيه نزلت: {وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ آثِمًا أَوْ كَفُورًا} [الإنسان: ٢٤]، وفيه نزلت: {كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ (١٩)} [العلق: ١٩]، وقال قتادة: نزلت في أبي جهل وأصحابه الذين قتلهم الله تبارك وتعالى يوم بدر: {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ (٢٨)}.

أخرجه الطبري في "جامع البيان" (٢٥/ ٨٠) من طريق معمر وسعيد بن أبي عروبة عن قتادة به.

وهذا مرسل صحيح الإسناد.

وذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٧/ ٤١٩) وزاد نسبته لعبد بن حميد.

وأخرج ابن المنذر عن -هكذا في المطبوع-؛ أنه قال: أخبرت أن أبا جهل قال: يا معشر قريش! أخبروني ما اسمي؟ فذكرت له ثلاثة أسماء: عمرو، والجلاس، وأبو الحكم، قال: ما أصبتم اسمي، ألا أخبركم؟ قالوا: بلى، قال: اسمي العزيز الكريم؛ فنزلت: {إِنَّ شَجَرَتَ الزَّقُّومِ (٤٣)}.

ذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٧/ ٤١٩).

* اسم الإشارة في قوله تعالى: إِنَّ هَؤُلَاءِ لَيَقُولُونَ يعود إلى مشركي مكة، الذين سبق الحديث عنهم في قوله تعالى: بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ إلخ.

وذكر سبحانه قصة فرعون وقومه في الوسط، للإشارة إلى التشابه بين الفريقين في التكذيب للحق، وفي الإصرار على الضلال.

وكانت الإشارة للقريب، لتحقيرهم والتهوين من شأنهم.

وإِنْ في قوله تعالى: إِنْ هِيَ إِلَّا مَوْتَتُنَا الْأُولَى ... نافية. أى: إن هؤلاء الكافرين ليقولون على سبيل الجزم والتكذيب للبعث: ما الموتة التي نموتها في نهاية حياتنا

=

=

الدنيوية، إلا الموتة النهائية لا حياة بعدها ولا بعث ولا نشور.

ومرادهم من الأولى: السابقة المتقدمة على الموعد الذي يوعدونه للبعث والنشور.

قال بعض العلماء: وذلك أنهم لما وعدوا بعد الحياة الدنيا حالتين أخريين.

الأولى منهما الموت، والأخرى حياة البعث، أثبتوا الحالة الأولى وهي الموت، ونفوا ما بعدها.

وسموها أولى مع أنهم اعتقدوا أنه لا شيء بعدها، لأنهم نزلوا جحدهم على الإثبات فجعلوها أولى على ما ذكرت لهم...

وقوله: وَما نَحْنُ بِمُنْشَرِينَ تأكيد لما سبقه. أى: قالوا ليس هنا من موت سوى الموت المزيل لحياتنا، ثم لا بعث ولا حساب ولا نشور بعد ذلك.

يقال: أنشر الله تعالى الموتى نشورا، إذا أحياهم بعد موتهم، فهم منشرون.

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره مخبراً عن قيل مشركي قريش لنبي الله ﷺ: إن هؤلاء المشركين من قومك يا محمد {لَيَقُولُونَ إِنْ هِيَ إِلا مَوْتَتُنَا الأولَى} التي نموتها، وهي الموتة الأولى".

قال مقاتل:" يعني: كفار مكة.. وذلك أن النبي ﷺ قال لهم إنكم تبعثون من بعد الموت فكذبوه".

قال ابن كثير:" يقول تعالى منكرًا على المشركين في إنكارهم البعث والمعاد، وأنه ما ثم إلا هذه الحياة الدنيا، ولا حياة بعد الممات".

قال السمعاني:" معناه: أنا نموت مرة ولا نبعث بعد ذلك".

قال الزمخشري:" معناه: أنه قيل لهم: إنكم تموتون موتة تتعقبها حياة، كما تقدّمتكم موتة قد تعقبتها حياة، وذلك قوله ﷻ: {وَكُنْتُمْ أَمْواتًا فَأَحْياكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ}، فقالوا: {إِنْ هِيَ إِلَّا مَوْتَتُنَا}، الْأُولى يريدون: ما الموتة التي من

=

=

شأنها أن يتعقبها حياة إلا الموتة الأولى دون الموتة الثانية، وما هذه الصفة التي تصفون بها الموتة من تعقب الحياة لها إلا للموتة الأولى خاصة، فلا فرق إذا بين هذا وبين قوله إِنْ هِيَ إِلَّا حَياتُنَا الدُّنْيا في المعنى".

قوله تعالى: {وَمَا نَحْنُ بِمُنْشَرِينَ} [الدخان: ٣٤ - ٣٥]، أي:" وما نحن بعد مماتنا بمبعوثين للحساب والثواب والعقاب".

قال مقاتل:" يعني: بمبعوثين من بعد الموت".

قال ابن قتيبة:" أي: بِمُحْيَيْن".

قال الطبري: أي:" بعد مماتنا، ولا بمبعوثين تكذيبا منهم بالبعث والثواب والعقاب".

قال ابن كثير: أي:" ولا بعث ولا نشور".

عن قتادة:" {إِنَّ هَؤُلاءِ لَيَقُولُونَ إِنْ هِيَ إِلا مَوْتَتُنَا الأولَى وَمَا نَحْنُ بِمُنْشَرِين}، قد قال مشركو العرب {وَمَا نَحْنُ بِمُنْشَرِينَ}، أي: بمبعوثين".

قال الزجاج:"معنى {بِمُنْشَرِينَ}: بمبعوثين، يقال: أنشر الله الموتى فَنَشَرُوا هُمْ. إِذا حَيُوا".

ثم بين سبحانه مطالبهم المتعنتة، وأدلتهم الباطلة فقال: فَأْتُوا بِآبائِنا إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ.

والفاء للإفصاح، والخطاب للرسول ﷺ وللمؤمنين الذين كانوا يؤمنون بالبعث.

أى: إن هؤلاء الكافرين قالوا- أيضا- للرسول ﷺ وللمؤمنين: إن كان الأمر كما تقولون من أن هناك بعثا وحسابا.. فأعيدوا الحياة إلى آبائنا الأولين، واجعلوهم يخرجون إلينا مرة لنراهم.

قال الطبري: " قالوا لمحمد ﷺ: فأتوا بآبائنا الذين قد ماتوا إن كنتم صادقين، أن الله باعثنا من بعد بلانا في قبورنا، ومحيينا من بعد مماتنا، وخوطب ﷺ هو وحده

=

خطاب الجميع، كما قيل: {يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ} وكما قال {رَبِّ ارْجِعُونِ}".

قال مقاتل:" وذلك أن أبا جهل بن هشام قال في «الرعد»: يا محمد إن كنت نبيا فابعث لنا رجلين أو ثلاثة ممن مات من آبائنا، منهم: قصي بن كلاب فإنه كان صادقا، وكان إمامهم فنسألهم فيخبرونا عن ما هو كائن بعد الموت أحق ما تقول أم باطل؟ إن كنت صادقا بأن البعث حق، نظيرها في «الجاثية» قوله: {وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ} [الجاثية: ٢٤]، وما البعث بحق".

قال الزمخشري:" كانوا يعدونهم النشور: من رسول الله ﷺ والمؤمنين، أى: إن صدقتم فيما تقولون فعجلوا لنا إحياء من مات من آبائنا بسؤالكم ربكم ذلك حتى يكون دليلا على أنّ ما تعدونه من قيام الساعة وبعث الموتى حق، وقيل كانوا يطلبون اليهم أن يدعوا الله وينشر لهم قصىّ بن كلاب ليشاوروه، فإنه كان كبيرهم ومشاورهم في النوازل ومعاظم الشئون".

قال ابن كثير:"يحتجون بآبائهم الماضين الذين ذهبوا فلم يرجعوا، فإن كان البعث حقًا {فَأْتُوا بِآبَائِنَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ} وهذه حجة باطلة وشبهة فاسدة، فإن المعاد إنما هو يوم القيامة لا في هذه الدار، بل بعد انقضائها وذهابها وفراغها يعيد الله العالمين خلقًا جديدًا، ويجعل الظالمين لنار جهنم وقودًا، يوم تكون شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدًا".

وقوله سبحانه: أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ ... تهديد لهم على جهالاتهم وإصرارهم على كفرهم.

والمراد بتبع: أبو كريب أسعد بن مليك، ويسمى بتبع الحميرى. وهو أحد ملوك حمير.

=

وكان مؤمنا، وقومه كانوا كافرين فأهلكهم الله. وإليه ينسب الأنصار، ولفظ تُبَّعٍ يعد لقبا لكل ملك من ملوك اليمن، كما أن لقب فرعون يعد لقبا لمن ملك مصر كافرا...

وكان تبع هذا ـ كما ذكر المفسرون ـ أحد ملوك اليمن، وكان مشركا ثم أسلم، وكان يعبد الله على شريعة موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، وقد توقف نبينا ﷺ في شأنه، في بادئ الأمر، هل كان رجلا صالحا أم لا؟ ثم بعد ذلك نزل عليه الوحي بأنه كان رجلا صالحا، فنهانا عن سبه فقال ﷺ: (لا تسبوا تبعا، فإنه قد كان أسلم) رواه أحمد عن سهل بن سعد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

قال الحافظ ابن كثير في تفسيره: كانت حمير – وهم سبأ – كلما ملك فيهم رجل سموه " تبعا "، كما يقال: كسرى: لمن ملك الفرس، وقيصر: لمن ملك الروم، وفرعون: لمن ملك مصر كافرا، والنجاشي: لمن ملك الحبشة، وغير ذلك من أعلام الأجناس، ولكن اتفق أن بعض تبابعتهم خرج من اليمن، وسار في البلاد حتى وصل إلى سمرقند، واشتد ملكه وعظم سلطانه وجيشه، واتسعت مملكته وبلاده، وكثرت رعاياه، وهو الذي مصر الحيرة، فاتفق أنه مر بالمدينة النبوية وذلك في أيام الجاهلية، فأراد قتال أهلها فمانعوه وقاتلوه بالنهار، وجعلوا يقرونه بالليل، فاستحيا منهم وكف عنهم، واستصحب معه حبرين من أحبار يهود كانا قد نصحاه وأخبراه أنه لا سبيل له على هذه البلدة؛ فإنها مهاجر نبي يكون في آخر الزمان، فرجع عنها وأخذهما معه إلى بلاد اليمن، فلما اجتاز بمكة أراد هدم الكعبة، فنهياه عن ذلك أيضا، وأخبراه بعظمة هذا البيت، وأنه من بناية إبراهيم الخليل، وأنه سيكون له شأن عظيم على يدي ذلك النبي المبعوث في آخر الزمان، فعظمها وطاف بها، وكساها الملاء والوصائل والحبير، ثم كر راجعا إلى اليمن، ودعا أهلها إلى التهود معه، وكان إذ ذاك دين موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، فيه من يكون على

=

=

الهداية قبل بعثة المسيح عليه السلام، فتهود معه عامة أهل اليمن.

وقد ذكر القصة بطولها الإمام محمد بن إسحاق في كتابه السيرة، وقد ترجمه الحافظ ابن عساكر في تاريخه ترجمة حافلة، أورد فيها أشياء كثيرة مما ذكرنا ومما لم نذكر، وذكر أنه ملك دمشق، وأنه كان إذا استعرض الخيل صفت له من دمشق إلى اليمن.

ثم ساق من طريق عبد الرزاق، عن معمر، عن ابن أبي ذئب، عن المقبري، عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (ما أدري الحدود طهارة لأهلها أم لا ؟ ولا أدري تبع لعينا كان أم لا ؟ ولا أدري ذو القرنين نبيا كان أم ملكا)، وقال غيره: (أعزيرا كان نبيا أم لا؟) رواه أبو داود وكأنه - والله أعلم - كان كافرا ثم أسلم وتابع دين الكليم على يدي من كان من أحبار اليهود في ذلك الزمان على الحق قبل بعثة المسيح عليه السلام، وحج البيت في زمن الجرهميين، وكساه الملاء والوصائل من الحرير والحبر، ونحر عنده ستة آلاف بدنة، وعظمه وأكرمه. ثم عاد إلى اليمن.

وقد ساق قصته بطولها الحافظ ابن عساكر من طرق متعددة مطولة مبسوطة، عن أبي بن كعب، وعبد الله بن سلام، وعبد الله بن عباس، وكعب الأحبار، وإليه المرجع في ذلك كله، وإلى عبد الله بن سلام أيضا، وهو أثبت وأكبر وأعلم.

وكذا روى قصته وهب بن منبه، ومحمد بن إسحاق في السيرة، كما هو مشهور فيها.

وقد اختلط على الحافظ ابن عساكر في بعض السياقات ترجمة " تبع " هذا بترجمة آخر متأخر عنه بدهر طويل، فإن " تبعا " هذا المشار إليه في القرآن أسلم قومه على يديه، ثم لما مات عادوا بعده إلى عبادة الأصنام والنيران، فعاقبهم الله تعالى كما ذكره في سورة سبأ.

وقال سعيد بن جبير: كسا " تبع " الكعبة، وكان سعيد ينهى عن سبه.

=

=

و " تبع " هذا هو تبع الأوسط، واسمه أسعد أبو كريب بن ملكيكرب اليماني، ذكروا أنه ملك على قومه ثلاثمائة سنة وستا وعشرين سنة، ولم يكن في حمير أطول مدة منه، وتوفي قبل مبعث رسول الله ﷺ بنحو من سبعمائة عام، وذكروا أنه لما ذكر له الحبران من يهود المدينة أن هذه البلدة مهاجر نبي في الزمان اسمه أحمد قال في ذلك شعرا واستودعه عند أهل المدينة، وكانوا يتوارثونه ويروونه خلفا عن سلف، وكان ممن يحفظه أبو أيوب خالد بن زيد الذي نزل رسول الله ﷺ في داره، وهو:

شهدت على أحمد أنه... رسول من الله باري النسم...

فلو مد عمري إلى عمره... لكنت وزيرا له وابن عم...

وجاهدت بالسيف أعداءه... وفرجت عن صدره كل غم...

وذكر ابن أبي الدنيا أنه حفر قبر بصنعاء في الإسلام، فوجدوا فيه امرأتين صحيحتين، وعند رءوسهما لوح من فضة مكتوب فيه بالذهب: " هذا قبر حبي ولميس - وروي: حبي وتماضر- ابنتي " تبع "، ماتتا وهما تشهدان أن لا إله إلا الله ولا تشركان به شيئا، وعلى ذلك مات الصالحون قبلهما.

قال قتادة: ذكر لنا أن كعبا كان يقول في "تبع ": نعت نعت الرجل الصالح، ذم الله تعالى قومه ولم يذمه، قال: وكانت عائشة تقول: لا تسبوا " تبعا "؛ فإنه قد كان رجلا صالحا " انتهى باختصار.

أى: إن هؤلاء الكافرين المعاصرين لك- أيها الرسول الكريم- ليسوا خيرا من قوم تبع، الذين كانوا أشد منهم قوة وأكثر جمعا، فلما لجوا في طغيانهم أهلكهم الله تعالى وإن مصير هؤلاء المشركين- إذا ما استمروا في عنادهم- سيكون كمصير قوم تبع..

فالمقصود من الآية الكريمة تحذير الكافرين من التمادي في الضلال، لأن هذا

=

=

التمادي سيؤدي بهم الى الخسران، كما هو حال قوم تبع الذين لا يخفى أمرهم عليهم.

والمراد بمن قبلهم في قوله تعالى: وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ أَهْلَكْناهُمْ إِنَّهُمْ كانُوا مُجْرِمِينَ: الأقوام السابقون على قوم تبع، كقوم عاد وثمود وغيرهم. أو على هؤلاء الكافرين المعاصرين للنبي ﷺ.

أى: والذين من قبل قوم تبع أو من قبل قومك من الظالمين، أهلكناهم لأنهم كانوا قوما مجرمين.

ثم لفت سبحانه أنظار الناس إلى التفكر في خلق السموات والأرض فقال: وَما خَلَقْنَا السَّماواتِ وَالْأَرْضَ وَما بَيْنَهُما.. من مخلوقات لا يعلمها إلا الله تعالى ما خلقنا ذلك لاعِبِينَ أى: عابثين أو لغير غرض صحيح.

وقوله تعالى: ما خَلَقْناهُما إِلَّا بِالْحَقِّ استثناء مفرغ من أعم الأحوال.

أى: ما خلقناهما إلا خلقا ملتبسا بالحق مؤيدا بالحكمة..

وَلكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ ذلك، لانطماس بصائرهم، واستحواذ الشيطان عليهم.

قوله تعالى: {وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ} [الدخان: ٣٩]، أي:" وما خلقنا السموات والأرض وبينهما لعبًا".

قال مقاتل:" يعني: عابثين لغير شيء، يقول: لم أخلقهما باطلا ولكن خلقتهما لأمر هو كائن".

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره: {وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ} السبع والأرضين وما بينهما من الخلق لعبا".

قال ابن كثير:" يقول تعالى مخبراً عن عدله وتنزيهه نفسه عن اللعب والعبث والباطل، كقوله: {وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالأرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلا ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ} [ص: ٢٧]، وقال {أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ

=

=

عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لا تُرْجَعُونَ فَتَعَالَى اللهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لا إِلَهَ إِلا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ} [المؤمنون: ١١٥، ١١٦]".

قال السعدي:" يخبر تعالى عن كمال قدرته وتمام حكمته وأنه ما خلق السماوات والأرض لعبا ولا لهوا أو سدى من غير فائدة".

قال البيضاوي:" وإنما خلقناها مشحونة بضروب البدائع تبصرة للنظار وتذكرة لذوي الاعتبار وتسببا لما ينتظم به أمور العباد في المعاش والمعاد، فينبغي أن يتسلقوا بها إلى تحصيل الكمال ولا يغتروا بزخارفها فإنها سريعة الزوال..، وهو دليل على صحة الحشر".

قال الشوكاني:" {وما بينهما}، أي: بين جنسي السماء والأرض {لاعبين}، أي: لغير غرض صحيح"، أي: لم نخلقهما عبثا ولا باطلا، بل للتنبيه على أن لهما خالقا قادرا يجب امتثال أمره، وفيه إشارة إجمالية إلى تكوين العالم".

قوله تعالى: {مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ} [الدخان: ٣٩]، أي:" ما خلقناهما إلا بالحق الذي هو سنة الله في خَلْقِه وتدبيرُه".

قال الطبري:" يقول: ما خلقنا السموات والأرض إلا بالحقّ الذي لا يصلح التدبير إلا به. وإنما يعني بذلك تعالى ذكره التنبيه على صحة البعث والمجازاة، يقول تعالى ذكره: لم نخلق الخلق عبثا بأن نحدثهم فنحييهم ما أردنا، ثم نفنيهم من غير الامتحان بالطاعة والأمر والنهي، وغير مجازاة المطيع على طاعته، والعاصي على المعصية، ولكن خلقنا ذلك لنبتلي من أردنا امتحانه من خلقنا بما شئنا من امتحانه من الأمر والنهي: {لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى}".

قال البيضاوي: أي:" إلا بسبب الحق الذي اقتضاه الدليل من الإيمان والطاعة، أو البعث والجزاء".

=

=

قال السعدي:" أي: نفس خلقهما بالحق وخلقهما مشتمل على الحق، وأنه أوجدهما ليعبدوه وحده لا شريك له وليأمر العباد وينهاهم ويثيبهم ويعاقبهم".

قوله تعالى: {وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ} [الدخان: ٣٩]، أي:" ولكنَّ أكثر الناس لا يعلمون ذلك فينكرون البعث والجزاء".

قال الطبري: يقول: " ولكن أكثر هؤلاء المشركين بالله لا يعلمون أن الله خلق ذلك لهم، فهم لا يخافون على ما يأتون من سخط الله عقوبة، ولا يرجون على خير إن فعلوه ثوابا لتكذيبهم بالمعاد".

قال مقاتل:" يعني: كفار مكة {لا يعلمون} أنهما لم يخلقا باطلا".

قال السعدي:" فلذلك لم يتفكروا في خلق السماوات والأرض".

قال البيضاوي:" ولكن أكثرهم لا يعلمون لقلة نظرهم".

ثم بين سبحانه أن يوم القيامة آت لا ريب فيه، وسيحكم سبحانه في هذا اليوم بين الناس بحكمه العادل فقال: إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ وهو يوم القيامة الذي يفصل فيه الله - ﷻ بين المحق والمبطل، وبين المهتدى والضال..

هذا اليوم مِيقاتُهُمْ أَجْمَعِينَ أى: وقت اجتماعهم للحساب جميعا دون أن يتخلف منهم أحد.

ثم وصف سبحانه هذا اليوم بقوله: يَوْمَ لا يُغْنِي مَوْلًى عَنْ مَوْلًى شَيْئًا وَلا هُمْ يُنْصَرُونَ.

قال الطبري: يقول:" إن يوم فصل الله القضاء بين خلقه بما أسلفوا في دنياهم من خير أو شرّ يجزي به المحسن بالإحسان، والمسيء بالإساءة، ميقات اجتماعهم أجمعين".

قال ابن كثير:" {إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ} وهو يوم القيامة، يفصل الله فيه بين الخلائق، فيعذب الكافرين ويثيب المؤمنين. وقوله: {مِيقَاتُهُمْ أَجْمَعِينَ}، أي: يجمعهم

=

=

كلهم أولهم وآخرهم".

عن قتادة، قوله: " {إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ مِيقَاتُهُمْ أَجْمَعِينَ}، يوم يُفْصَل فيه بين الناس بأعمالهم".

قال البيضاوي:" {يوم الفصل}: فصل الحق عن الباطل، أو المحق عن المبطل بالجزاء، أو فصل الرجل عن أقاربه وأحبائه".

قال الشوكاني:" أي: إن يوم القيامة الذي يفصل فيه الحق عن الباطل ميقاتهم، أي: الوقت المجعول لتمييز المحسن من المسيء والمحق من المبطل، أجمعين لا يخرج عنهم أحد من ذلك".

وقرئ: «ميقاتهم» بالنصب على أنه الاسم، أي: إن ميعاد جزائهم في يوم الفصل.

وقوله: يَوْمَ لا يُغْنِي ... بدل من يوم الفصل. والمولى: يطلق على القريب والصديق والناصر..

أى: في هذا اليوم، وهو يوم الفصل، لن يستطيع قريب أن ينفع قريبه، أو صديق أن ينفع صديقه شيئا من النفع، ولا هم ينصرون من عذاب الله تعالى إذا ما أراد سبحانه إنزال عذابه بهم.

وقوله: إِلَّا مَنْ رَحِمَ اللهُ ... في محل رفع على أنه بدل من ضمير يُنْصَرُونَ. أو في محل نصب على الاستثناء منه أى: لا يستطيع صديق أن يدفع العذاب عن صديقه، ولا قريب أن ينفع قريبه أو ينصره، إلا من رحمه الله تعالى-، وذلك بأن يعفو سبحانه عنه، أو يقبل شفاعة غيره فيه.

إِنَّهُ سبحانه هو الْعَزِيزُ الذي لا يغلب الرَّحِيمُ الذي وسعت رحمته كل شيء.

قوله تعالى: {يَوْمَ لَا يُغْنِي مَوْلًى عَنْ مَوْلًى شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ (٤١) إِلَّا مَنْ رَحِمَ اللهُ} [الدخان:٤١ - ٤٢].

قال الطبري:" يقول: لا يدفع ابن عمّ عن ابن عمّ، ولا صاحب عن صاحبه شيئا

=

من عقوبة الله التي حلَّت بهم من الله، ولا ينصر بعضهم بعضا، فيستعيذوا ممن نالهم بعقوبة كما كانوا يفعلونه في الدنيا، إلا من رحم الله منهم، فإنه يغني عنه بأن يشفع له عند ربه".

قال ابن كثير:" أي: لا ينفع قريب قريبًا، كقوله: {فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلا يَتَسَاءَلُونَ} [المؤمنون: ١٠١]، وكقوله {وَلا يَسْأَلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا. يُبَصَّرُونَهُمْ} [المعارج: ١٠، ١١] أي: لا يسأل أخًا له عن حاله وهو يراه عيانًا. وقوله: {وَلا هُمْ يُنْصَرُونَ}، أي: لا ينصر القريب قريبه، ولا يأتيه نصره من خارج. ثم قال: {إِلا مَنْ رَحِمَ اللهُ}، أي: لا ينفع يومئذ إلا من رَحْمَةِ الله، ﷻ، لخلقه".

قال السعدي:" ولا ينفع مولى عن مولى شيئا لا قريب عن قريبه ولا صديق عن صديقه، {وَلا هُمْ يُنْصَرُونَ} أي: يمنعون من عذاب الله ﷻ لأن أحدا من الخلق لا يملك من الأمر شيئا، {إِلا مَنْ رَحِمَ اللهُ..} فإنه هو الذي ينتفع ويرتفع برحمة الله تعالى التي تسبب إليها وسعى لها سعيها في الدنيا".

قال قتادة: "انقطعت الأسباب يومئذ يا ابن آدم، وصار الناس إلى أعمالهم، فمن أصاب يومئذ خيرا سعد به آخر ما عليه، ومن أصاب يومئذ شرّا شقي به آخر ما عليه".

قوله تعالى: {إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ} [الدخان: ٤٢]، أي:" إن الله هو العزيز في انتقامه مِن أعدائه، الرحيم بأوليائه وأهل طاعته".

قال الطبري:" يقول جلّ ثناؤه واصفا نفسه: إن الله هو العزيز في انتقامه من أعدائه، الرحيم بأوليائه، وأهل طاعته".

قال ابن كثير:" أي: هو عزيز ذو رحمة واسعة".

قال محمد بن إسحاق: "العزيز في نصرته ممن كفر إذا شاء".

عن سعيد بن جبير، قوله: " {الرحيم}، يعني: رحيما بالمؤمنين".

=

قال قتادة:" قوله: {رحيما}، بعباده". وفي رواية: "بهم بعد التوب".

ثم بين سبحانه طعام أهل النار وحالهم يوم القيامة فقال: إِنَّ شَجَرَةَ الزَّقُّومِ. طَعامُ الْأَثِيمِ. كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ، كَغَلْيِ الْحَمِيمِ ...

والمراد بشجرة الزقوم: الشجرة التي خلقها الله تعالى في جهنم، وسماها الشجرة الملعونة، ليكون طعام أهل النار منها.

ولفظ الزقوم: اسم لتلك الشجرة، أو من الزقم بمعنى الالتقام والابتلاع للشيء.

والأثيم: الكثير الآثام والسيئات. والمراد به الكافر لدلالة ما قبله عليه.

والمهل: هو النحاس المذاب، أو رديء الزيت الحار.

أى: إن الشجرة الملعونة التي هي شجرة الزقوم، خلقها الله تعالى لتكون طعاما للإنسان الكافر، الكثير الآثام والجرائم..

فتنزل في بطنه كما ينزل النحاس الحار المذاب، فيغلي فيها كغلي الماء البالغ نهاية الحرارة.

فقوله: كَغَلْيِ الْحَمِيمِ نعت لمصدر محذوف. أى: غليا كغلي الحميم.

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره: {إِنَّ شَجَرَت الزَّقُّومِ} التي أخبر أنها تَنْبتُ في أصل الجحيم، التي جعلها طعاما لأهل الجحيم، ثمرها فى الجحيم طعام الآثم في الدنيا بربه، والأثيم: ذو الإثم، والإثم من أثم يأثم فهو أثيم. وعنى به في هذا الموضع: الذي إثمه الكفر بربه دون غيره من الآثام".

قال الفراء:" فهذا أيضًا عذاب فِي بطونِهم يُسيغونه".

قال مقاتل: {الأَثِيمِ}، " يعني: الآثم بربه، فهو أبو جهل بن هشام".

قال ابن قتيبة:" {طَعَامُ الأَثِيمِ}، أي: طعام الفاجر".

قال ابن زيد، في قوله: " {إِنَّ شَجَرَةَ الزَّقُّومِ طَعَامُ الأثِيمِ}، قال: أبو جهل".

قال ابن كثير:" {الأثيم}، أي: في قوله وفعله، وهو الكافر. وذكر غير واحد أنه أبو

=

=

جهل، ولا شك في دخوله في هذه الآية، ولكن ليست خاصة به".

قال يحيى: "بلغني أنها في الباب السادس وأنها تحيا بلهب النار كما يحيا شجركم ببرد الماء، قال: فلا بد لأهل النار من أن ينحدروا إليها، يعني: من كان فوقها، فيأكلون منها".

عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: "يا أيها الناس اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون، فلو أن قطرة من الزقوم قطرت لأفسدت على أهل الدنيا دنياهم فكيف من ليس له طعام إلا الزقوم".

واختلف في شجرة «الزقوم»، على قولين:

أحدهما: أنها معروفة من شجر الدنيا، ومن قال بهذا اختلفوا فيها، فقال قطرب: "إنها شجرة مرّة تكون بتهامة من أخبث الشجر، وقال غيره بل كل نبات قاتل".

القول الثاني: أنها لا تعرف في شجر الدنيا.

قال قتادة:" لما نزلت هذه الآية [{إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِلظَّالِمِينَ}] دعا أبو جهل بتمر وزبد فقال: تزقموا فما نعلم الزقوم إلا هذا، فأنزل الله: {إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ} [الصافات: ٦٤] إلى قوله: {ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِنْ حَمِيمٍ {٦٧} ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى الْجَحِيمِ {٦٨}} [الصافات: ٦٧ - ٦٨]".

قال السدي:" قال أبو جهل لما نزلت: {إِنَّ شَجَرَتَ الزَّقُّومِ} [الدخان: ٤٣]، قال: تعرفونها في كلام العرب: أنا آتيكم بها، فدعا جارية، فقال: ائتيني بتمر وزبد، فقال: دونكم تزقموا، فهذا الزقوم الذي يخوفكم به محمد، فأنزل الله تفسيرها: {أَذَلِكَ خَيْرٌ نُزُلًا أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ (٦٢) إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِلظَّالِمِينَ (٦٣)} [الصافات: ٦٢ - ٦٣]، قال: لأبي جهل وأصحابه".

مالك بن أنس قال: "أقرأ عبد الله بن مسعود رجلا: {إن شجرة الزقوم طعام الأثيم}، فجعل يقول: طعام اليتيم، فقال له عبد الله: طعام الفاجر؛ قال: قلت

=

=

لمالك: أترى أن تقرأ كذلك، قال: نعم، أرى ذلك واسعا".

عن همام، قال: "كان أبو الدرداء يُقْرئ رجلا: {إِنَّ شَجَرَةَ الزَّقُّومِ طَعَامُ الأَثِيمِ}، قال: فجعل الرجل يقول: إن شجرة الزقوم طعام اليتيم؛ قال: فلما أكثر عليه أبو الدرداء، فرآه لا يفهم، قال: إن شجرة الزقوم طعام الفاجر".

قوله {كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ (٤٥) كَغَلْيِ الْحَمِيمِ}.

قال الطبري: يقول:" إن شجرة الزقوم التي جعل ثمرتها طعام الكافر في جهنم، كالرصاص أو الفضة، أو ما يُذاب فى النار إذا أُذيب بها، فتناهت حرارته، وشدّت حميته في شدّة السواد".

قال ابن قتيبة:" {الْحَمِيم}: الماء الحارّ".

قال ابن كثير:" {كَالْمُهْلِ} قالوا: كعكر الزيت {يَغْلِي فِي الْبُطُونِ. كَغَلْيِ الْحَمِيمِ}، أي: من حرارتها ورداءتها".

عن قابوس، عن أبيه، قال: "سألت ابن عباس، عن قول الله جلّ ثناؤه {كَالْمُهْلِ}، قال: كدرديّ الزيت". وروي عن سعيد مثل ذلك.

عن ابن عباس، قوله " {كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ}، يقول: أسود كمهل الزيت".

وقال ابن عباس:" ماء غليظ كدرديّ الزيت".

عن سعيد بن جبير-من طريق سالم-:" {كالمُهْلِ}، قال: كدُردِيِّ الزّيت".

وقال عكرمة:" كعكر القطران".

عن سعيد بن جبير:" {كالمُهْلِ}، قال: أشدُّ ما يكون حرًّا".

عن مجاهد، في قوله: " {كالمُهْلِ}،قال: القيح والدم أسود كعكر الزيت".

عن الضحاك، في قوله: " {كالمُهْلِ}،قال: أسود، وهي سوداء وأهلها سود".

عن يزيد بن أبي سمية، قال: "سمعت ابن عمر يقول: هل تدرون ما المهل؟ المهل مهل الزيت، يعني آخره".

=

=

عن أبي سعيد، عن النبيّ ﷺ في قوله: {بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ}: "كعَكر الزيت، فإذا قرّبه إلى وجهه، سقطت فروة وجهه فيه" أخرجه أحمد (٣/ ٧٠)، وابن المبارك في الزهد -زوائد نعيم بن حماد- (٣١٦)، وعبد بن حميد في المنتخب (٩٣٠)، والترمذي (٢٥٨١)، وأبو يعلى (١٣٧٥)، والطبراني فى الأوسط (٣١٣٧)، وابن حبان (٧٤٧٣)، والحاكم (٢/ ٥٤٤)، والبيهقي في البعث (٦٠٤) والحديث ضعفه الترمذي بقوله: لا نعرفه إلا من حديث رشدين بن سعد وقد تكلم فيه، وأقره الزيلعي في تخريج الكشاف (٢/ ٣٠٢)، وقال المنذري في الترغيب (٤/ ٣٤٨): فيه رشدين بن سعد عن عمرو بن الحارث عن دراج عن أبي الهيثم، وضعفه الشيخ في ضعيف الترمذي، وقال الأرنؤوط ومن معه في تحقيق المسند (١٨/ ٢١٠): إسناده ضعيف.

وعن ابن عباس:" أنه رأى فضة قد أُذيبت، فقال: هذا المهل".

ععمرو بن ميمون عن أبيه، عن عبد الله في قوله: " {كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ}، قال: دخل عبد الله بيت المال، فأخرج بقايا كانت فيه، فأوقد عليها النار حتى تلألأت، قال: أين السائل عن المهل، هذا المهل".

وقوله سبحانه خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ إِلى سَواءِ الْجَحِيمِ. ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذابِ الْحَمِيمِ، ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ ... مقول لقول محذوف، هذا القول موجه من الله تعالى لملائكة العذاب.

أى: يقول الله تعالى لملائكة العذاب في هذا اليوم العسير: خذوا هذا الكافر الأثيم، فجروه بغلظة، وسوقوه بشدة إِلى سَواءِ الْجَحِيمِ أى: إلى وسطها.

ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ على سبيل التنكيل به مِنْ عَذابِ الْحَمِيمِ صبا يذله ويوجعه ويجعل رأسه تغلى من شدة حرارة هذا الماء.

ثم قولوا له بعد ذلك على سبيل التهكم به، والتقريع له: ذُقْ أى: تذوق شدة هذا

=

=

العذاب فالأمر للإهانة.

إِنَّكَ كنت تزعم في الدنيا، بأنك أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ.

قال الطبري: أي:" يقال يوم القيامة: خذوا هذا الأثيم فسوقوه دفعا في ظهره، وسحبا إلى وسط النار".

قال مقاتل:" يقول: فادفعوه على وجهه {إلى سواء الجحيم}، يعني: وسط الجحيم وهو الباب السادس من النار".

قال ابن كثير:" أي: خذوا الكافر، وقد ورد أنه تعالى إذا قال للزبانية {خُذُوهُ} ابتدره سبعون ألفًا منهم، {فَاعْتِلُوهُ}، أي: سوقوه سحبا ودفعا في ظهره".

وفي قوله تعالى: {فَاعْتِلُوهُ} [الدخان:٤٧]، خمسة وجوه:

أحدها: فجروه، قاله الحسن.

الثاني: فادفعوه، قاله مجاهد، ومقاتل.

الثالث: فسوقوه، حكاه الكلبي.

الرابع: فاقصفوه كما يقصف الحطب، حكاه الأعمش.

الخامس: فرُدُّوه بالعنف، يقال: جيء بفلان يُعْتَلُ إلى السلطان؛ أي: يُقاد. قاله ابن قتيبة. قال الفرزدق:

لَيْسَ الكِرَامُ بِنَاحِلِيكَ أَبَاهُمُ... حتى تُرَدّ إلى عَطِيَّةَ تُعْتَلُ

قال الزجاج:" المعنى: يا أيها الملائكة خذوه فاعتلوه. والعَتْلُ: أن يؤخذَ فيمْضَى به بِعَسْفٍ وَشِدة".

قوله تعالى: {ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ}.

قال الطبري: يقول:" ثم صبوا على رأس هذا الأثيم من عذاب الحميم، يعني: من الماء المسخن الذي وصفنا صفته، وهو الماء الذي قال الله {يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ}".

=

=

قال السمعاني:" في التفسير: أنه يثقب وسط رأس أبي جهل ويصب فيه الحميم، فتخرج أمعاؤه من أسفله".

قال مقاتل:" {ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ} : أبي جهل، وذلك أن الملك من خزان جهنم يضربه على رأسه بمقمعة من حديد فينقب عن دماغه فيجري دماغه على جسده ثم يصب الملك في النقب ماء حميما قد انتهى حره فيقع في بطنه".

قال ابن عباس:" الحميم: الحار الذي يحرق، الغساق: الزمهرير البارد".

قال السدي:" الحميم: الذي قد انتهى حَرُّه".

قال ابن زيد: " الحميم: دموع أعينهم، تجمع في حياض النار فيسقونه".

القرآن

قوله تعالى: {ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ} .

قال قتادة:" لما نزلتْ: {خُذُوهُ فاعْتِلُوهُ إلى سَواءِ الجَحِيمِ} ؛ قال أبو جهل: ما بين جَبليها رجلٌ أعزّ ولا أكرم مني. فقال الله: {ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ العَزِيزُ الكَرِيمُ} ".

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره: يقال لهذا الأثيم الشقيّ: ذق هذا العذاب الذي تعذّب به اليوم {إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ} في قومك {الكَرِيمُ} عليهم.. [وهذا] تقريع منه له بما كان يصف به نفسه في الدنيا، وتوبيخ له بذلك على وجه الحكاية، لأنه كان في الدنيا يقول: إنك أنت العزيز الكريم، فقيل له في الآخرة، إذ عذّب بما عُذّب به في النار: ذُق هذا الهوان اليوم، فإنك كنت تزعم إنك أنت العزيز الكريم، وإنك أنت الذليل المهين، فأين الذي كنت تقول وتدّعي من العزّ والكرم، هلا تمتنع من العذاب بعزّتك".

قال ابن كثير:" أي: قولوا له ذلك على وجه التهكم والتوبيخ".

قال الزمخشري:" يقال: {ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ} على سبيل الهزؤ والتهكم بمن كان يتعزز ويتكرم على قومه".

=

=

قال مقاتل:" ثم يقول له الملك: ذق العذاب أيها المتعزز المتكرم، يونجه ويصغره، بذلك فيقول: إنك زعمت في الدنيا {أنت العزيز}، يعني: المنيع، {الكريم}، يعني: المتكرم، قال: فكان أبو جهل يقول في الدنيا: أنا أعز قريش وأكرمها".

عن ابن عباس، قوله: " {ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ}، يقول: لست بعزيز ولا كريم".

قال القشيري:" أنت كذلك عند قومك، ولكنك عندنا ذليل مهين".

قال الطبري:" يقال له: إنَّ هذا العذاب الذي تعذّب به اليوم، هو العذاب الذي كنتم في الدنيا تَشُكُّون، فتختصمون فيه، ولا توقنون به فقد لقيتموه، فذوقوه".

ثم ختم سبحانه هذه الآيات بقوله: إِنَّ هذا ما كُنْتُمْ بِهِ تَمْتَرُونَ أى: إن هذا العذاب الذي نزل بكم أيها الكافرون، هو ما كنتم بشأنه تجادلون وتخاصمون في الدنيا، فمنكم من كان ينكره، ومنكم من كان يشكك في صحته. فها هو ذا قد أصبح حقيقة واقعة فوق رءوسكم.

قال الطبري:" يقال له: إنَّ هذا العذاب الذي تعذّب به اليوم، هو العذاب الذي كنتم في الدنيا تَشُكُّون، فتختصمون فيه، ولا توقنون به فقد لقيتموه، فذوقوه".

قال البغوي: {تَمْتَرُونَ}، أي:" تشكون فيه ولا تؤمنون به".

قال الزمخشري:" أى: تشكون، أو تتمارون وتتلاجون".

قال مقاتل:" يعني: تشكون في الدنيا أنه غير كائن، فهذا مستقر الكفار".

قال ابن عطية:" يقال للكفرة عند عذابهم، أي: هذه الآخرة وجهنم التي كنتم تشكون فيها".

(منبهة): قوله تعالى: وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ (٣٨).

هذه الآية توضح أن كل ما خلقه الله تعالى فله فيه حكمة، والحكمة تتضمن

=

=

شيئين:

أحدهما: حكمة تعود إليه تعالى، يحبها ويرضاها. والثاني: حكمة تعود إلى عباده، هي نعمة عليهم، يفرحون بها، ويلتذون بها، وهذا يكون في المأمورات وفي المخلوقات.فهو "سبحانه حكيم، لا يفعل شيئا عبثا ولا بغير معنى ومصلحة وحكمة، هي الغاية المقصودة بالفعل، بل أفعاله سبحانه صادرة عن حكمة بالغة لأجلها فعل، كما هي ناشئة عن أسباب بها فعل، وقد دل كلامه وكلام رسوله على هذا وهذا في مواضع لا تكاد تحصى"، وقد ذكر ابن القيم بعضها.

وقد وقع الخلاف في مسألة تعليل أفعال الله على أقوال:

١ - قول من نفى الحكمة وأنكر التعليل، وهؤلاء يقولون: إن الله تعالى خلق المخلوقات، وأمر المأمورات، لا لعلة ولا لداع ولا باعث، بل فعل ذلك لمحض المشيئة، وصرف الإرادة، وهذا مذهب الجهمية والأشاعرة وهو قول ابن حزم وأمثاله.

٢ - إن الله فعل المفعولات وخلق المخلوقات، وأمر بالمأمورات لحكمة محمودة، ولكن هذه الحكمة مخلوقة، منفصلة عنه، لا ترجع إليه، وهذا قول المعتزلة ومن وافقهم.

٣ - قول من يثبت حكمة وغاية قائمة بذاته تعالى، ولكن بجعلها قديمة غير مقارنة للمفعول.٤ - إن الله فعل المفعولات وأمر بالمأمورات لحكمة محمودة، وهذه الحكمة تعود إلى الرب تعالى، لكن بحسب علمه، والله تعالى خلق الخلق ليحمدوه ويثنوا عليه ويمجدوه، فهذه حكمة مقصودة واقعة، بخلاف قول المعتزلة فإنهم أثبتوا حكمة هي نفع العباد. وهذا قول الكرامية الذين يقولون: من وجد منه ذلك فهو مخلوق له وهم المؤمنون، ومن لم يوجد منه ذلك فليس مخلوقا له.

=

=

٥ - قول أهل السنة وجمهور السلف وهو أن لله حكمة في كل ما خلق، بل له في ذلك حكمة ورحمة

هذه خلاصة الأقوال في هذه المسألة، ويلاحظ أنها تنتهي إلى قولين أحدهما: نفاة الحكمة، وهو قول الأشاعرة ومن وافقهم. والثاني: قول الجمهور الذين يثبتون الحكمة. وهؤلاء على أقوال: أشهرها قول المعتزلة الذين يثبتون حكمة تعود إلى العباد ولا تعود إلى الرب، وقول جمهور السلف الذين يثبتون حكمة تعود إلى الرب تعالى.

ويلاحظ أن من نفى الحكمة والتعليل - كالأشاعرة - دفعه ذلك إلى الميل إلى الجبر وإثبات الكسب والقدرة غير المؤثرة للعبد. ومن إثبات حكمة تعود إلى العباد، جعلوا هذه الحكمة لا تتم إلا بأن تكون العباد هم الخالقين لأفعالهم وهذا قول المعتزلة.

أما أهل السنة فلم يلزمهم لازم من هذه اللوازم الباطلة، ولذلك جاء مذهبهم وسطا في باب القدر - كما سيأتي إن شاء الله.

* فهذا الموضوع يتناول قضية من أهم القضايا المتصلة بالفلسفة الطبيعية والعقدية على السواء لدى مدرسة ذاع صيتها ألا وهي مدرسة الأشعري -رَحِمَهُ ٱللَّهُ- وهذه القضية أسماها الأشاعرة (بالعادة) وهي تعني أنه لا شيء يؤثر في شيء ولا علة تؤثر في معلولها فالنار مثلًا ليس لها أثر في الإحراق، وما يراه الناس من إحراق إنما هو عادة وإلف فقط وليس ناشئًا عن علة في النار والله الخالق له بإطراد كلما التقت النار مع ما تحرقه دون أن يكون للنار أثر يُذكر وهكذا لا حقيقة لطبائع الأشياء وحكموا على أنها فارغة من القوى ومن ثم التأثير في غيرها أو التأثير بقدرة الله -سبحانه- باعتبارها وسائط وهذا معناه أيضًا إنكار لعلاقة الأسباب بمسبباتها وأن التلاقي بينهما ما هو إلا عادة فليس هناك أي علاقة ترابطية إلا ما يشاهده

=

=

الإنسان بعينه والمشاهدة ليست حجة. بمعنى: أن اطراد الموجودات وتسلسلها ليس قائمًا على الترابط (العليّ) بل إن العادة وجريانها هما السبيل في إحساسنا بالتعاقب بين ما يقال أنه سبب وما يقال أنه مسبب، وإن وجود أحدهما في الذهن يلزمه -بالتداعي - وجود الآخر دون أن يكون هناك في الواقع رابطة (عليه) حقيقة والذي دفع الأشاعرة إلى هذا القول، مجادلتهم للطبائعيين الذين ينسبون للطبيعة كل التأثير والاستقلال بالفعل فردوا عليهم هذا الاعتقاد بأن نزعوا من الطبائع صفة الفاعلية وغلوا حتى صادروا ما للطبائع من صفات جوهرية بها تتمايز وتتغاير كالفرق بين الخد والبصر، مع أن القول بأنها لا تفعل استقلالًا وإنما بإذن الله وهو القول الذي كان يجب أن يتوقفوا عنده دون الذهاب إلى آخر الشوط وإنكار حقائق الأشياء الأساسية مما أفسد عليهم طرقهم في إثبات التوحيد.

* مفهوم العادة عند الأشاعرة: ليس هناك تلازم ضروري بين الأسباب والمسببات أو العلة والمعلول، يقول الغزالي: (الاقتران بين ما يعتقد في العادة سببًا، وبين ما يعتقد مسببًا، ليس ضروريًا عندنا) بل ليس هناك علاقة تسببية بين السبب والنتيجة (بل كل شيئين ليس هذا ذاك، ولا ذاك هذا، ولا إثبات أحدهما متضمنًا لإثبات الآخر ولا نفيه متضمنًا لنفي الآخر).

وإذا احتج عليهم إنسان بأنه يرى دائمًا الاحتراق يعقب النار، والإسكار يعقب الخمر، تعللوا في ذلك بأنه لا يرجع إلى تلازم بين الأسباب الطبيعية، وإنما هو نتيجة الاعتياد من رؤيتهما معًا وفي ذلك يقول الباقلاني: (إن ما هو مشاهد في الحس لا يوجد ضرورة ولا وجوبًا وإنما هو يجري مجرى العادة، بمعنى وجوده وتكراره على طريقة واحدة)، ثم يأتي بعده الغزالي ويتوسع في إرجاع التلازم بين الأسباب الطبيعية ومسبباتها إلى حكم العادة ويرى أن (اللازمات.. يجوز أن تنفك عن الاقتران بما هو لازم لها، بل لزومه لحكم العادة).

=

=

وقال البغدادي: (.. وأجازوا ـ أي الأشاعرة أن يجمع الإنسان بين النار والقطن والحلفاء فلا تحرقها على نقض العادة..) فليس لأية ظاهرة طبيعية فعل خاص يصدر عنها فليس في الخمر إسكار مثلًا وأنه لا مقوم داخلي لأي جسم يجعل منه فاعلًا إذ أن الأجسام منفصلة إلى أجزاء فهي جواهر فردة لا يربط بينها إلا بالقدرة الإلهية والسبب في الحقيقة لا أثر لها البتة بدليل إمكان انفكاك المسببات عن أسبابها ولكن اعتاد الناس وألفوا هذا الاقتران بينهما فحكموا بالضرورة وليس لديهم من حجة إلا المشاهدة يقول الغزالي (فإن اقترانها بما سبق من تقدير الله ـ سبحانه، يخلقها على التساوق لا لكونه ضروريًا في نفسه.. بل في المقدور خلق الشبع دون الأكل، وخلق الموت دون جز الرقبة، وإدامة الحياة مع جز الرقبة) وإن كان الناس لم يألفوا هذه الأمور أو ألفوا بعضها، ولم يألفوا جز الرقبة مع بقاء الحياة (فأما النار وهي جماد، فلا فعل لها، فما الدليل على أنها الفاعل، وليس لهم دليل إلا مشاهدة حصول الاحتراق) فهي العادة لا أكثر وإلا فلا شيء يفعل في شيء.

* دوافع القول بعقيدة العادة: أولًا: يقول الشهرستاني: (صار أبو الحسن الاشعري – رحمه الله تعالى – إلى أن أخص وصف للإله هو القدرة على الاختراع، فلا يشاركه فيها غيره، ومن أثبت فيه شركه فقد أثبت إلهين) ولهذا أراد الأشاعرة أن يحافظوا على أخص وصف لله تعالى فلا ينسبوا لغيره صفة القادرية ولا الفاعلية ولا الإحداث لأن كل ذلك لا يليق إلا بالله ـ سبحانه ـ ولهذا يسوي الإمام أبو الحسن الأشعري بين هذه الألفاظ في المعنى، فالخلق، والفعل، والإحداث، والاختراع كلها بمعنى واحد وهي لا تليق إلا بالله وإذا أطلقت على الإنسان فإنه لا يراد بها إلا معنى الكسب لا حقيقة الفعل فهو يقول: (لا قادر عليه ـ أي على الفعل ـ أن يكون ما هو عليه من حقيقة أن يخترعه إلا الله) بمعنى لا أثر لقدرة

=

=

الإنسان في فعله إلا الاكتساب ولهذا ذهب الأشاعرة إلى أن (القدرة الحادثة على رأينا، فإنها لا تؤثر، وليست مبدأ لأثر) إذن لا شغل لقدرة العبد إلا الاقتران أما أن يؤثر فلا (وعندنا لا فرق إلا ما يعود إلى جريان العادة) هذا المبدأ الذي اهتم به الأشاعرة ـ وهو لا فاعلية ولا خالقية ولا إحداث ولا اختراع ـ كان الأساس في القول بعقيدة العادة وأنه لا أثر لشيء في شيء البتة وإلا ثبت الشرك فالعادة هي الكسب وكلاهما معناه اقتران شيء بشيء ويستدل الأشاعرة على ذلك بكثير من الآيات القرآنية، وأن الله أسند لنفسه الخلق فقال: (ذالكم الله ربكم لا إله إلا هو خالق كل شيء فاعبدوه) فاستحق العباد لاستحقاقه الخلق.

ويلاحظ ابن رشد أن من جملة الدوافع التي دفعت الأشاعرة إلى القول بالتجويز: (الهروب من القول بفعل القوى الطبيعية، والخوف من أن يدخل عليهم في القول بالأسباب الطبيعية أن يكون العالم صادرًا عن سبب طبيعي).

ولا شك فإن الأشاعرة ردوا على الطبائعيين اعتقادهم بأن الطبيعة خالقة أو أن لها أثرًا في الأشياء بل الخالق الفاعل المحدث هو الله سبحانه يقول البوطي: (الواقع أن هذا القول لا يعتمد إلا على وهم مجرد، ذلك لأن الطبيعة لا تعطيك من واقعها إلا هذا الاقتران وهو بحد ذاته ليس أكثر من الاقتران مهما كان ثابتًا ومستمرًا). فلا شيء له أثر في شيء من نفسه بل ما يراه الناس إنما هو اقتران وانسجام.

ويقول آخر: (.. ولا يقول لشيء من الأشياء في الكائنات بخاصة ناشئة من ذاته غير قابلة للانفكاك عنه إلا طبيعي منكر للإله بالمرة) وهذا يعني القول بعدم تأثير الطبائع أو السبب أو إلغاء عملها في الوجود. فلا سببية ولا طبيعية. ويقول الأشاعرة (إن الكائنات بأجمعها مستندة إلى الله من غير واسطة) أي لا مكانة لواسطة الأسباب والمسببات في خلق أو تأثير (فالاعتراف مثلًا بأن الشمس تعطي الحركة والحياة للأشياء يكون شركًا).

=

=

ثانيًا: رتب الأشاعرة على القول بعقيدة العادة ثبوت المعجزات الخارقة للعادة وعدم القول بها إنكار للمعجزات فقال الغزالي في معرض الرد على المخالفين: (وحكمهم بأن هذا الاقتران المشاهد في الوجود بين الأسباب والمسببات اقتران تلازم بالضرورة، وليس في المقدور، ولا في الإمكان إيجاد السبب دون المسبب، ولا وجود المسبب دون السبب ترتب عليه عدم إثبات المعجزات الخارقة للعادة مثل قلب العصا ثعبانًا، وإحياء الموتى وشق القمر، ومن جعل مجاري العادات لازمة لزومًا ضروريًا أحال جميع ذلك..).

* الحكم المترتب على مخالفة عقيدة العادة

لم يرَ الأشاعرة العذر لأحد خالف في إثبات هذه العقيدة رغم صعوبة فهمها بل لمخالفتها لما يراه الناس بعيونهم ويلمسونه في حياتهم أثناء إجراء تجاربهم وملاحظاتهم، فالمسألة جد دقيقة وتحتاج إلى بذل الجهد واستحضار الأفهام فضلًا على أن ظاهر القرآن والسنة ترجح كفة إثبات السببية وأن لا شيء يتحقق إلا بالسبب وأن من يخل بالأسباب يخالف الشرع.

فكيف يقفز هذا الفاهم لهذه الأمور والمعتقد لها إلى عقيدة مخالفة كلية ألا وهي عقيدة العادة حيث يقال له إن التوحيد والإيمان لا يتم إلا على طائلة إنكار السببية وأنه بالإمكان الفصل بين النار وفعلها، وبين الموت وجز الرقبة إلى ما كان هنالك من أمور قد يحيل فهم العقيدة إلى المستحيلات غير أن الأشاعرة رأوا أن يحكموا على المخالف فيها بالكفر والفسق والضلال ويدعون الإجماع على ذلك يقول البوطي: (.. وإذ قد ثبت الدليل القطعي على ما قلناه، فقد كان جحود ذلك كفرًا بإجماع المسلمين) والدليل القطعي الذي قاله هو ما ذكرناه من عدم نسبة التأثيرات إلى السببية وأن من يثبت السببية يترتب عليه الكفر بالمعجزات والنبوات.. إلخ. ويقول في مكان آخر: (.. ولعلك تسأل بعد هذا استعمال المسلم

=

=

ألفاظًا تعبر عن سببية بعض الأشياء وتأثيرها.. كقول القائل: لقد نفعني هذا الدواء وشفاني هذا الطبيب، وأينع الزرع بكثرة الأمطار.. فالجواب أن ذلك إذا صاحب اعتقادًا بتأثير واحد من هؤلاء فهو كفر بالاتفاق..) وهذا يعني أنه لا وسطية بين الله وهذه النتائج فالماء مثلًا وجوده كعدمه بالنسبة للإثبات ولكن هو موجود شكلًا وقس على ذلك في سائر الأسباب والمسببات.

وذهب بعض الأشاعرة إلى التفصيل في الحكم وكأنهم رأوا أن المسألة فيها من الغموض ما يفرض على الحاكم أن يكون مستبصرًا بمسائل الخلاف وبمجاري البحث والتحدي، قال إبراهيم بن محمد البيجوري: (.. فمن اعتقد أن الأسباب العادية كالنار والسكين والأكل والشرب تؤثر في مسبباتها كالحرق والقطع والشبع والري بطبعها وذاتها فهو كافر بالإجماع، أو لقوة خلقها الله فيها ففي كفره قولان، والأصح أنه ليس بكافر بل فاسق مبتدع.. ومن اعتقد أن المؤثر هو الله لكن جعل بين الأسباب ومسبباتها تلازمًا عقليًا بحيث لا يصح تخلفها فهو جاهل، وربما جره ذلك إلى الكفر، فإنه قد ينكر معجزات الأنبياء لكونها على خلاف العادة، ومن اعتقد أن المؤثر هو الله وجعل بين الأسباب والمسببات تلازمًا عاديًا بحيث يصح تخلفها الناجي إن شاء الله تعالى) فهذه أربعة فرق اختلفت وكل فرقة يحكم عليها بما تعتقده، فالفرقة الأولى تجعل الطبائع مستقلة ولعلها تنكر أي أثر لقدرة الله تعالى في المسببات فهؤلاء هم الطبائعيون الذين لا خلاف في كفرهم وهم الذين أشار إليهم الإمام الشاطبي في قوله: (فالالتفات إلى المسببات بالأسباب له ثلاث مراتب، إحداها، أن يدخل فيها على أنه فاعل للمسبب أو مولد له، فهذا شرك أو مضهاه له، والسبب غيرفاعل بنفسه (والله خالق كل شيء) ويؤكد ابن تيمية هذا المعنى بقوله: (وإن فسر التأثير بأن المؤثر مستقل بالأثر من غير مشارك معاون ولا عائق مانع، فليس شيء من المخلوقات مؤثرًا، بل الله وحده خالق كل

=

=

شيء فلا شريك له ولا ند له) إذن الطبائع بنفسها لا تفعل إلا بإذن الله.

أما الفرقة الثانية فهي التي تقول بأن كل شيء فيه قوة كافية أودعها الله فيه، فذكر أنهم اختلفوا فيه فمنهم من يكفروه، ومنهم من يفسقه وكلا الحكمين يعني بأنه ليس في الأشياء طبائع ومعاني يميزها عن بعضها البعض، وهناك حكم آخر أطلقه الغزالي ويفهم منه جواز اعتقاد ذلك دون تخوف على العقيدة. يقول البوطي: (غير أن الإمام الغزالي -رَحِمَهُ ٱللَّهُ- لا يرى تنافيًا بين أن تكون الأسباب الكونية جعلية وبين أن يكون فيها تأثير أودعه الله عَزَّ وَجَلَّ فيها يسلبه عنها عندما يشاء. وهو يرى أن هذا هو الحق أي فالمسألة ليست مسألة مقارنة مجردة) وهذا القول لا ينسجم البتة مع القول الذي يلغي طبائع الأشياء، فهو على نقيض مَنْ قال بالعادة فعقيدة العادة كما تبين هي مجرد مقارنة دون تأثير، وكلام الغزالي مقارنة مع التأثير، وهذا يدل على أن الغزالي متردد في قوله بعقيدة العادة وهو كما قال أبو ريان (.. وقد عبر الغزالي في قوة المذهب الأشعري حينما انتقد مبدأ السببية، وذكر أن اعتقادنا بالسببية إنما يرجع إلى العادة..) ويؤمن الغزالي بأن الأسباب مسخرة بعلم الله يقول: (والأدوية أسباب مسخرة لعلم الله تعالى كسائر الأسباب، فكما أن الخبز دواء الجوع، والماء دواء العطش وكل ذلك بتدبير مسبب الأسباب).

وأما الفرقة الثالثة، فهي الفرقة التي جعلت الاقتران ضروريًا بين الأسباب ومسبباتها وأن الأسباب لا تؤثر إلا بإذن الله تعالى وأنه متى صحت الأسباب ترتب عليها المسببات، ولا تتخلف المسببات إلا بنقص في الأسباب فهذه الفرقة جاهلة بهذا الاعتقاد وإن اعتقدت بناء على ضرورة الاقتران الحاصل من الأسباب امتناع المعجزات وعدم النبوات فهي كافرة؟ ولكن أليس بالإمكان أن يكسر الله سبحانه هذه الضرورة ويسلب هذا الاقتران بين الأسباب والمسببات وتكون الخارقة للعادة فلا يترتب على ذلك كفر ولا جهل.

=

=

أما الفرقة الرابعة: فهي الفرقة المرضي عنها وهي القائلة بعقيدة العادة، وهي التي لا ترى في الأشياء طبائع ولا معاني لها أي أثر. ولهذا قال الإمام الشاطبي: (أن يدخل في السبب على أن المسبب من الله تعالى لأنه المُسبِّب فيكون الغالب على صاحب هذه المرتبة اعتقاد أنه مسبب عن قدرة الله وإرادته، من غير تحكم لكونه سببًا.. وحاصله يرجع إلى عدم اعتبار السبب في المسبب من جهة نفسه واعتباره فيه من جهة أن الله مسببه وذلك صحيح) وهذا الذي ذكره الشاطبي هو في حالة الاقتران العادي بين الأسباب ومسبباتها والنظر إليهما على أنهما من الله سبحانه ولم يستقل السبب بنفسه وإن كان لا بد من وجود السبب حتى يوجد المسبب، لوجود المطر بالنسبة للزرع. فالأشاعرة تثبت السبب العام ولا تعترف بالأسباب الفاعلة بإذن الله ولهذا قال سليمان دنيا، وهو يفرق بين فهم الأشاعرة للأسباب وفهم الوضعيين -أصحاب المذهب الوضعي الذي لا يوقن إلا بالمحسوس-: (فالأشاعرة إذا كانوا ينفون سببية الأشياء بعضها في بعض؛ فإنهم لا ينفون السببية العامة) وهي أن الله خالق الأسباب والمسببات.

* والأشاعرة الذين نفوا الحكمة والتعليل، احتجوا على مذهبهم بعدة حجج أهمها:

أ- أن ذلك يستلزم التسلسل، فإنه إذا فعل لعلة، فتلك العلة أيضا حادثة فتفتقر إلى علة، وهكذا إلى غير نهاية وهو باطل.

وقد رد شيخ الإسلام على هذه الحجة من وجوه:

١ - يقال لهم في الحكمة ما يقولونه هم في "الفعل"، وذلك بأن يقال لهم: "لا يخلو إما أن يكون الفعل قديم العين أو قديم النوع، أو لا يمكن ذلك فإن جاز أن يكون قديم العين أو قديم النوع، جاز في الحكمة التي يكون الفعل لأجلها أن تكون قديمة العين أو قديمة النوع". ويلاحظ هنا أن القول بأن الفعل قديم

=

=

"العين" هو قول الفلاسفة، ومعلوم أن الفلاسفة نفاة للحكمة - فهم موافقون للأشاعرة في هذا - فهذا الإلزام صالح لهم. ومن قال هذا ممتنع - أي قدم العين أو النوع في العقل - قيل وكذلك الحكمة يمتنع تسلسلها."وإن لم يمكن أن يكون الفعل لا قديم العين ولا قديم النوع، فيقال إذا كان فعله حادث العين والنوع، كانت حكمته كذلك".فتبين أن معنى كونه تعالى يفعل لحكمة "أنه يفعل مرادا لمراد آخر يحبه، فإذا كان الثاني محبوبا لنفسه، لم يجب أن يكون الأول كذلك، ولا يجب في هذا تسلسل".

٢ - يقال لهم في الحكمة ما يقال في الأسباب، فإذا كان تعالى خلق شيئا بسبب، وخلق السبب بسبب آخر حتى ينتهي إلى أسباب لا أسباب فوقها فكذلك خلق لحكمة والحكمة لحكمة حتى ينتهي إلى حكمة لا حكمة فوقها.٣ - أن هذا التسلسل الذي يدعونه إنما هو تسلسل في الحوادث المستقبلة لا في الحوادث الماضية، فإنه إذا فعل فعلا لحكمة كانت الحكمة حاصلة بعد الفعل - والتسلسل في المستقبل جائز عند جماهير المسلمين وغيرهم، والجنة أكلها دائم.ب- والحجة الثانية للأشاعرة على نفي الحكمة والتعليل هي حجة الكمال والنقصان، ومعناها - عندهم - أن الله "لو خلق الخلق لعلة لكان ناقصا بدونها مستكملا بها، فإنه إما أن يكون وجود تلك العلة وعدمها بالنسبة إليه سواء، أو يكون وجودها أولى به، فإن كان الأول امتنع أن يفعل لأجلها، وإن كان الثاني ثبت أن وجودها أولى، فيكون مستكملا بها، فيكون قبلها ناقصا" وهذه الحجة أصلها مبني على نفي حلول الحوادث.

وقد سبق في عدة تعليقات مناقشة هذه الحجة في مسألة الصفات، عند مناقشة الصفات الاختيارية القائمة بالله التي يسميها الأشاعرة وغيرهم حلول الحوادث.

وقد ناقش شيخ الإسلام هذه الحجة هنا - في مبحث التعليل - من وجوه:١ -

=

=

"أن هذا منقوض بنفس ما يفعله من المفعولات، فما كان جوابا في المفعولات، كان جوابا عن هذا، ونحن لا نعقل في الشاهد فاعلا إلا مستكملا بفعله".٢ - أن قولهم "مستكمل بغيره" باطل، لأن هذا إنما حصل بقدرته ومشيئته، لا شريك له في ذلك، فلم يكن في ذلك محتاجا إلى غيره وإذا قيل: كمل بفعله الذي لا يحتاج فيه غيره، كان كما لو قيل كمل بصفاته، وبذاته".٣ - "أن العقل الصريح يعلم أن من فعل فعلا لا لحكمة، فهو أولى بالنقص ممن فعل لحكمة كانت معدومة، ثم صارت موجودة في الوقت الذي أحب كونها فيه، فكيف يجوز أن يقال: فعله لحكمة يستلزم النقص، وفعله لا لحكمة لا نقص فيه".٤ - "أنه ما من محذور يلزم بتجويز أن يفعل لحكمة، إلا والمحاذير التي تلزم بكونه يفعل لا لحكمة أعظم وأعظم...".

فيرى الأشاعرة أن أفعال الله وأحكامه لا تعلل بالعلل والأغراض ولا تتوقف على الحكم، إذ كل ذلك بمحض مشيئته وإرادته. قال الآمدي: "مذهب أهل الحق أن الباري تعالى خلق العالم وأبدعه لا لغاية يستند الإبداع إليها ولا لحمة يتوقف الخلق عليها!، بل كل ما أبدعه من خير وشر ونفع وضر لم يكن لغرض قاده إليه ولا لمقصود أوجب الفعل عليه".فتراه ينفي توقف الخلق على الحكمة، والأشاعرة لا ينفون ثبوت الحكمة، إذ لا ينكرون ترتب الحكم على أفعال الله، وإنما الممنوع عندهم أن تكون مقصودة سابقة للفعل، وهذا ظاهر من كلام الآمدي، أما إثباتها ففي مثل كلام الباجوري حيث قال معددًا صور المماثلة التي ينزه الله عنها: "أو يتصف بالأغراض في الأفعال والأحكام... "ثم قال": فلا ينافي أنه لحكمة وإلا لكان عبثًا وهو مستحيل في حقه تعالى".ومما ينبغي أن يعلم أن بعض الأشاعرة يثبت الحكم في الأحكام فيعلل بها، وهذه طريقة من تأثر منهم بالفقه كقول التفتازاني: "والحق أن تعللي بعض الأفعال لا سيما شرعية الأحكام

=

=

بالحكم والمصالح ظاهر... ولهذا كان القياس حجة إلا عند شرذمة لا يعتد بهم وأما تعميم ذلك بأن لا يخلو فعل من أفعاله عن غرض فمحل بحث" اهـ. وقال الرازي: "إن غالب أحكام الشرع معلل برعاية المصالح المعلومة" وهو قد ذكر أدلة كثيرة في كتبه على نفي تعليل أفعال الله بالحكمة ولكنه قد يذكر في بعض المواضع جواز ذلك تفضلًا من الله وإحسانًا لا وجوبًا عقليًا على الله. وهذا ينافي ما ساقه من أدلة تنفي جواز التعليل!.

وأصل هذا النزاع كان بين المعتزلة والأشاعرة، فالأولون أثبتوا العلل والحكم القائمة بالخلق ولا يثبتون ما قام بالخالق وجروا على عادتهم في الإيجاب على الله تعالى بعقولهم، فشبهوا أفعاله بأفعال خلقه، فقابلهم الأشاعرة وغلوا في نفي ذلك، فنفوا مع الباطل حقًا. وسأعرض الشبه الحاملة لهم على نفي الحكم التي يسمونها أغراضًا إن شاء الله، فمنها:-الشبهة الأولى:

قالوا: لو كان الباري فاعلًا لغرض لكان في ذاته مستكملًا بتحصيل ذلك الغرض، سواء قيل إن الغرض عائد حكمه إليه أو إلى خلقه. الجواب: وهو من وجهين:

الأول: من باب المعارضة: إن الأشاعرة يقولون: إن الأفعال حادثة بعد أن لم تكن، ولا يقولون إن الله كان ناقصًا قبل حدوثها، إذ أنه سبحانه فاعل بالقوة – أي أن الفعل ممكن له – فيقال لهم: ينبغي على قولكم هذا أن تحذوا بالحكمة حذو الفعل، فإن الله متصف بالحكمة أزلًا كسائر صفات ذاته، ثم تقع الأشياء حسب ما تقتضيه حكمته، وعليه فليس عدم كل شيء نقصًا، بل الصحيح أن يقال: حدوث ما لا تقتضيه الحكمة هو النقص كما أن عدم وجود ما تقتضي الحكمة وجوده هو نقص أيضًا.

الثاني: من جهة حل الشبهة: وهو أن قد أثبتنا الحكمة صفة لله تعالى، والصفات كلها الذاتية والفعلية قائمة بذات الله تعالى، فالحكمة إذن ليست منفكة عن الذات

=

=

حتى يقال إنه صار مستكملًا بغيره، وإنما هي صفة قائمة به - وعليه فلا إشكال إذا قيل أنه كمل بحكمته، إذ هو نظير قولنا كمل بذاته وصفاته.

الشبهة الثانية: قال الباقلاني: "لو كان تعالى فاعلًا للعالم لعلة أوجبته لم تخل تلك العلة من أن تكون قديمة أو محدثة، فإن كانت قديمة وجب قدم العالم لقدم علته وألا يكون بين العلة القديمة وبين وجود العالم إلا مقدار زمان الإيجاد، وذلك يوجب حدوث القديم، لأن ما لم يكن قبل المحدوث إلا بزمان أو أزمنة محدودة وجب حدوثه، لأن فائدة توقيت وجود الشيء هو أنه كان معدومًا قبل تلك الحال، فلما لم يجز حدوث القديم لم يجز أن يكون العالم محدثًا لعلة قديمة. وإن كانت تلك العلة محدثة فلا يخلو محدثها أن يكون أحدثها لعلة، أو لا لعلة، فإن كانت محدثة لعلة وعلتها محدثة وجب أن تكون علة العلة محدثة لعلة أخرى وكذلك أبدًا إلى غير غاية، وذلك يحيل وجود العالم جملة لتعلقه بما يستحيل فعله وخروجه إلى الوجود. وإن كانت العلة والخاطر والداعي والباعث والمحرك محدثة لا لعلة، وكانت بالوجود لما وجدت من فاعلها أولى منها بالعدم لا لعلة، وكان فاعلها حكيمًا غير سفيه جاز حدوث سائر الحوادث منه لا لعلة وكان حكيمًا غير سفيه... "

والجواب من وجوه: الوجه الأول: - قوله "فإن كانت قديمة وجب قدم العالم لقدم علته" ينتقض بصفة الإرادة، فالأشعرية يقرون بقدمها مع قولهم بحدوث المراد، فلما لم يلزم من القول بقدم الإرادة قدم المراد لم يلزم من قدم الحكمة قدم الفعل - أي المفعول -.

الوجه الثاني: وهو عن لزوم التسلسل إذا قيل إن العلة محدثة، وهي محدثة لعلة وهكذا... وجوابه، إن هذا التسلسل الصحيح أنه في المستقبل، لأن الحكمة من الفعل تحصل عقبه وإن كانت مقدمة عليه في التصور، ولا شك أن التسلسل في

=

=

الآثار المستقبلة جائز بل واقع كما هو الحال في نعيم الجنة وعذاب النار الدائمين، وهذا مما يسلم به الأشعرية فيلزم أن يسلموا به في الحكمة، وعليه فقولهم: "وجب أن تكون علة العلة محدثة لعلة أخرى... " قول ممنوع، وهو وارد على تعليل العلل، أي إذا فعل فعلًا لعلة فما هي علة هذه العلة وهكذا... فإنا نقول: الحكمة التي ذكروها هي التي يعود حكمها إلى الرب، وكل الحكم تعود على حكمة لا حكمة فوقها "فالمفعول لأجله مراد للفاعل محبوب له، والمراد المحبوب تارة يكون مرادًا لنفسه وتارة يكون مرادًا لغيره، والمراد لغيره لابد أن ينتهي إلى المراد لنفسه قطعًا للتسلسل، وهذا كما نقوله في خلقه بالأسباب: إنه يخلق كذا بسبب كذا، وكذا بسبب كذا حتى ينتهي الأمر إلى أسباب لا سبب لها سوى مشيئة الرب، فكذلك يخلق لحكمة، وتلك الحكمة لحكمة حتى ينتهي الأمر إلى حكمة لا حكمة فوقها".

الوجه الثالث:- وهو عن لزوم القول بوجود محدث أحدث ابتداء لا لعلة، ومن ثم لزوم نفي العلل كلها؛ وهو في قوله: "وإن كانت العلة والخاطر والداعي... إلخ" فالجواب: إنا قد قدمنا في الوجه الثاني أن الحكم تنتهي إلى حكمة لا حكمة فوقها، ولم نسلم بأنه لا توجد حكمة تعود إليها كل الحكم، ولذلك فهذا الاحتمال - وهو قوله: "محدثة لا لعلة" - احتمال غير وارد ولا نسلم به، مع ملاحظة أن استعمال ما جاء به الشرع من لفظ الحكمة هو الصحيح، ولا يجوز التعبير بما يوهم باطلًا كالمحرك والباعث والخاطر...

ثم إن قوله: "جاز حدوث سائر الحوادث منه لا لعلة" فكلام مبني على توهم وجود فعل خلا من الحكمة وقد منعناه، مع ملاحظة أن دعواه أعم من دليله، فهو قد جوز خلو الأفعال من الحكم بناءً على نفي علة العلة الأولى للفعل، فما ذكره فيه سلب العموم لا عموم السلب، كيف وقد بينا سابقًا أن الحكم كلها تعود إلى

=

=

حكمة لا حكمة فوقها فدليله من أساسه منهار، ومع انهياره فهو لا يدل على ما ادعاه. الشبهة الثالثة:

قالوا: لو كان شيء من الممكنات غرضًا لفعل الباري لما كان ذلك الممكن حاصلًا بخلق الله ابتداءً، وإنما بتوسط الغرض، والغرض هو إيصال اللذة إلى البعد أو دفع الألم عنه، وقد علم إجماعًا أن الله قادر على إيجادها ابتداءً فيكون إثبات هذه الوسائط عبثًا ينزه الله عنه.

الجواب: لا نسلم أن الحكمة منحصرة في الشيئين المذكورين فقط - لأن هذه الحكمة راجعة إلى المخلوق، ونحن نثبت حكمة أخرى - غير هذه معها - يعود حكمها إلى الله من حيث إنه يحبها ويرضاها، كما أننا ننكر تسمية الحكمة بالغرض - وعلى فرض التسليم - بحصر الحكمة فيما ذكروه - فإن غاية هذه الشبهة هو أن الله قادر على تحصيل الحكمة بدون هذه الوسائط وقادر على تحصيلها بها، والعدول عن أحد المقدورين إلى الآخر لا يسمى عبثًا إلا إذا كان المعدول إليه مساويًا للآخر من كل وجه أو كان دونه، وهذا ما لا يمكن إثباته، بل الشرع والعقل بخلافه، فإنه لا يمكن أحدًا أن يقول مثلًا: إرسال الرسل وعدم إرسالهم سواء، ومعلوم أن الشيء يكون عبثًا إذا كان لا فائدة منه، أما إذا كان وجود الوسيط سببًا أو شرطًا لحصول شيء لم يكن وجوده عبثًا كوجود آلات الإحساس التي هي شرط لتحصيل الحس، ولا يقول عاقل إن وجودها عبث، فإن وجودها ضروري، وما قال أحد بالعبث في إيجادها، فكذلك يقال في بقية الحكم المعلومة وغير المعلومة لنا.الشبهة الرابعة:

قالوا: لو كانت أفعاله معلقة بالأغراض والحكم ما خلا فعل منها، والمشاهد خلو بعضها عن ذلك، كإيلام الأطفال وخلق الشرور والكفر.

الجواب: لما أثبت أهل السنة الحكمة لم يدعوا علمهم بكل حكمة، وما أورده

=

=

الأشاعرة غاية ما فيه: عدم علمهم بالحكمة فيما ذكروه، وعدم العلم بالحكمة لا يعني عدمها - وهو واضح - وتمام الإجابة على هذه الشبهة وبالعلم بأن أفعال الله كلها خير، وكل خير فإنه داخل في أسماء الله وصفاته ومفعولاته بالذات وبالقصد الأول، والشر لا يدخل في أسمائه ولا في صفاته ولا في أفعاله، فهو إنما يدخل في معقولاته بالعرض لا بالذات، وبالقصد الثاني لا الأول دخولًا إضافيًا، وهذا مثل إنزال المطر والثلج وتصريح الرياح والشمس، فهذه كلها خيرات في نفسها وفيها حكم ومصالح وإن كانت شرًا نسبيًا إضافيًا في حق من تضرر بها.

ويلاحظ أن الأشاعرة قد استعملوا لفظ (الغرض) مكان (الحكمة) وهذا الاستعمال غير صحيح لإيهامه الباطل، ثم إن ما ذكر من الأدلة الدالة على إثبات الحكمة لله تعالى كثيرة لا يمكن دفعها، وقد تقدم ذكر شيء منها، وبمعرفتها والتيقن منها تزول الشبهات الواردة من نفاتها، إذ لا قرار للشبهات مع الحق المتيقن الثابت. إلزامات على نفاة الحكمة:

١ - من المعلوم أن الله يستحق الحمد بذاته وأسمائه وصفاته وأفعاله، فالله له الحمد على جميع ما خلقه ويخلقه لما له فيه من الحكم والغايات المحمودة المقصودة بالفعل، فيلزم من نفي الحكمة أن ينفي الحمد معها، إذ الحمد من لوازم الحكمة، والحكمة إنما تكون في حق من يفعل شيئًا لأجل شيء، وعندهم أن الله بخلقه ما ينفع العباد أراد مجرد وجوده لا نفعهم، فكيف يحمد على أصلهم على فعل ليست له فيه حكمة - وهي منفعة العباد -! ويتبين هذا بضرب مثال في فعل العدل وترك الظلم.

فالله تعالى حمد نفسه على فعل العدل وترك الظلم، وعباده المؤمنون يحمدونه على ذلك، وهذه من الحكم، أما الأشاعرة الذين يفسرون الظلم بأنه الممتنع الذي لا يدخل تحت المقدور فيقال لهم:

=

إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ (٥١).

{إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ} مَجْلِس {أَمِينٍ} يُؤْمَن فيه الخوف.

فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (٥٢).

{في جنات} بساتين {وعيون}.

=

من المعلوم أنه لا يمدح الممدوح بترك ما لو أراده لم يقدر عليه، وعندكم أن الظلم لا يقدر الله عليه فأي مدح له على شيء لم يفعله لعدم قدرته عليه؟! ونحن نقول: إن الله قادر عليه إلا أنه لا يفعله لتمام حكمته وعدله ورحمته سبحانه وتعالى، ومما يدل على قدرته عليه قوله في الحديث القدسي: (يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرمًا فلا تظالموا)، فقوله: (وجعلته بينكم محرمًا) يدل على أنه ظلم مقدور يستحق تاركه الحمد والثناء.

٢ - من اعتمد منهم إثبات العلل والمصالح في الأحكام الشرعية يقال له: لم فرقت بين إثبات العلل والحكم في أحكامه وبين إثباتها في أفعاله؟ ولن يجد لذلك جوابًا فإما أن يلتزم نفي الجميع فيكون الرد عليه بما تقدم، وإما أن يلتزم إثبات الجميع وهو الحق.

٣ - قالوا في دليل إثبات العلم لله بالعقل: "الله تعالى فاعل فعلًا متقنًا محكمًا بالقصد والاختيار، وكل من كان كذلك وجب له العلم".

فيقال لهم: قد استدللتم على إثبات علم الرب بما في مخلوقاته من الإحكام والإتقان بشرط قصد ذلك، فأثبتم له قصدًا، ونحن نقول إنه قصد حكمة أرادها من خلقه، فأثبتم قصده في العلم ونفيتموه في الحكمة، وكان اللازم إثباتهما حتى لا يحدث اضطراب وتناقض، وإلا لزم من نفي الحكمة نفي العلم. والصواب إثبات القصد في العلم والحكمة. فمن نفاه في الحكمة وأثبته في العلم كان متناقضًا.

يَلْبَسُونَ مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَقَابِلِينَ (٥٣).

{يَلْبَسُونَ مِنْ سُنْدُس وَإِسْتَبْرَق} أَيْ مَا رَقَّ مِنْ الدِّيبَاج وَمَا غَلُظَ مِنْهُ {مُتَقَابِلِينَ} حَال أَيْ لَا يَنْظُر بَعْضهمْ إلَى قَفَا بَعْض لِدَوَرَانِ الْأَسِرَّة بِهِمْ.

كَذَلِكَ وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ (٥٤).

{كَذَلِكَ} يُقَدَّر قَبْله الْأَمْر {وَزَوَّجْنَاهُمْ} مِنْ التَّزْوِيج أَوْ قَرَنَّاهُمْ {بِحُورٍ عِين} بِنِسَاءٍ بِيض وَاسِعَات الأعين حسانها.

يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَاكِهَةٍ آمِنِينَ (٥٥).

{يَدْعُونَ} يَطْلُبُونَ الْخَدَم {فِيهَا} أَيْ الْجَنَّة أَنْ يَأْتُوا {بِكُلِّ فَاكِهَة} مِنْهَا {آمِنِينَ} مِنْ انْقِطَاعهَا وَمَضَرَّتهَا وَمِنْ كُلّ مَخُوف حَال.

لَا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَى وَوَقَاهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ (٥٦).

{لَا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْت إلَّا الْمَوْتَة الْأُولَى} أَيْ الَّتِي فِي الدُّنْيَا بَعْد حَيَاتهمْ فِيهَا قال بعضهم إلا بمعنى بعد {ووقاهم عذاب الجحيم}.

فَضْلًا مِنْ رَبِّكَ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (٥٧).

{فَضْلًا} مَصْدَر بِمَعْنَى تَفَضُّلًا مَنْصُوب بِتَفَضُّلٍ مُقَدَّرًا {من ربك ذلك هو الفوز العظيم}.

فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٥٨).

{فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ} سَهَّلْنَا الْقُرْآن {بِلِسَانِك} بِلُغَتِك لِتَفْهَمهُ الْعَرَب مِنْك {لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ} يَتَّعِظُونَ فَيُؤْمِنُونَ لَكِنَّهُمْ لا يؤمنون.

فَارْتَقِبْ إِنَّهُمْ مُرْتَقِبُونَ (٥٩).

{فَارْتَقِبْ} انْتَظِرْ هَلَاكهمْ {إنَّهُمْ مُرْتَقِبُونَ} هَلَاكك وَهَذَا قبل نزول الأمر

بجهادهم[١].

---

(١) قوله تعالى: (إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ) أى: إن الذين اتقوا الله تعالى وصانوا أنفسهم عن كل ما لا يرضيه سيكونون يوم القيامة فِي مَقَامٍ أَمِينٍ أى: في مكان يأمن معه صاحبه من كل خوف.

فالمراد بالمقام- بالفتح- موضع القيام، أى: الثبات والملازمة. وقرأ ابن عامر ونافع، مَقام- بضم الميم- أى: موضع الإقامة. والمراد أنهم في مكان أو مجلس لا خوف فيه ولا مكروه.

قال الطبري: يقول:" إن الذين اتقوا الله بأداء طاعته، واجتناب معاصيه في موضع إقامة، آمنين في ذلك الموضع مما كان يخاف منه في مقامات الدنيا من الأوصاب والعلل والأنصاب والأحزان".

قال مقاتل:" فى مساكن آمنين من الخوف والموت".

قال قتادة:" إيْ والله، أمين من الشيطان والأنصاب والأحزان".

قال الضحّاك: "أمنوا فيه الجوع والسقم والهرم والموت وأمنوا الخروج منه".

قال الزجاج:" أي: قد أمنوا فيه الغِيَر".

قال ابن الجوزي:" أي: أمِنوا فيه الغِيَر والحوادث".

قال البيضاوي:" يأمن صاحبه عن الآفة والانتقال".

قال ابن قتيبة:" أي: في مجلس. ويقال للمجلس: مَقَامٌ ومقامةٌ. وقال في موضع آخر: {فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ} [القمر: ٥٥]، أي: في مجلسٍ".

قال ابن كثير:" لما ذكر تعالى حال الأشقياء عطف بذكر حال السعداء – ولهذا سُمّي القرآن مثاني – فقال: {إِنَّ الْمُتَّقِينَ}، أي: لله في الدنيا {فِي مَقَامٍ أَمِينٍ}، أي: في الآخرة وهو الجنة، قد أمنوا فيها من الموت والخروج، ومن كل هم وحزن وجزع وتعب ونصب، ومن الشيطان وكيده، وسائر الآفات والمصائب".

=

قال الشوكاني:" «المتقين»، أي: الذين اتقوا الكفر والمعاصي، وصف المقام بأنه أمين يأمن صاحبه من جميع المخاوف".

قال الزمخشري:" {أَمِينٍ} من قولك: أمن الرجل أمانة فهو أمين. وهو ضد الخائن، فوصف به المكان استعارة، لأنّ المكان المخيف كأنما يخون صاحبه بما يلقى فيه من المكاره".

وقرئ: «فِي مُقام»، بضم الميم.

قال الفراء:" و «المَقام» بفتح الميم أجود فى العربية لأن المكان، والمُقام: الإقامة وكلٌّ صواب".

وقوله: ي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ

بدل من مَقامٍ أَمِينٍ بإعادة حرف الجر أى: هم في مكان آمن، تتوسطه وتحيط به البساتين الناضرة، وعيون الماء المتفجرة.

قال مقاتل:" يعني: بساتين وأنهار جارية".

قال الطبري:" الجنات والعيون ترجمة عن المقام الأمين، والمقام الأمين: هو الجنات والعيون، والجنات: البساتين، والعيون: عيون الماء المطرد في أصول أشجار الجنات".

قال البيضاوي:" {جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ} بدل من «مقام»، جيء به للدلالة على نزاهته، واشتماله على ما يستلذ به من المآكل والمشارب".

قال ابن كثير:" {فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ} وهذا في مقابلة ما أولئك فيه من شجر الزقوم، وشرب الحميم".

يَلْبَسُونَ مِنْ سُنْدُسٍ والسندس هو أجود أنواع الحرير وأرقه، واحده سندسة.

وَإِسْتَبْرَقٍ وهو ما كان سميكا من الديباج والحرير.

مُتَقابِلِينَ أى: يجلسون في مجالس متقابلة، بحيث ينظر بعضهم إلى بعض.

=

قال الطبري:" يقول: يلبس هؤلاء المتقون في هذه الجنات من سندس، وهو ما رقّ من الديباج وإستبرق: وهو ما غلظ من الديباج".

قال ابن كثير:" {سُنْدُسٍ} وهو: رفيع الحرير، كالقمصان ونحوها، {وَإِسْتَبْرَقٍ} وهو ما فيه بريق ولمعان وذلك كالرياش، وما يلبس على أعالي القماش".

وفي قوله تعالى: {يَلْبَسُونَ مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ} [الدخان:٥٣]، وجوه:

أحدها: أن السندس الحرير الرقيق، والاستبرق: الديباج الغليظ، قاله عكرمة.

قال يحيى: السندس الذي قال عكرمة يعمل بالسوس، وهو الخز".

قال يحيى: "سمعت بعض أهل الكوفة يقول: هي بالفارسية: استبره".

وروي عن قتادة، " {من سندس وإستبرق} [الكهف: ٣١] قال: «هو غليظ الديباج»".

الثاني: السندس يعمل بسوق العراق وهو أفخر الرقم، قاله يحيى، والاستبرق الديباج سمي استبرقًا لشدة بريقه، قاله الزجاج.

الثالث: أن السندس ما يلبسونه، والاستبرق ما يفترشونه. حكاه الماوردي.

عن كعب، قال: "لو إن ثوبا من ثياب أهل الجنة نشر اليوم في الدنيا، لصعق من ينظر إليه وما حملته أبصارهم".

قوله تعالى: {مُتَقَابِلِينَ} [الدخان:٥٣]، أي:" يقابل بعضهم بعضًا بالوجوه، ولا ينظر بعضهم في قفا بعض، يدور بهم مجلسهم حيث داروا".

وفي قوله تعالى: {مُتَقَابِلِينَ} [الدخان:٥٣]، وجهان:

أحدهما: متقابلين بالمحبة لا متدابرين بالبغضة، قاله علي بن عيسى.

الثاني: متقابلين في المجالس لا ينظر بعضهم قفا بعض، قاله مجاهد، وعكرمة، ويحيى بن سلام.

قال الطبري:" يعني أنهم في الجنة يقابل بعضهم بعضا بالوجوه، ولا ينظر بعضهم

=

في قفا بعض".

قال مقاتل:" في الزيارة".

قال يحيى:" قال بعضهم: ذلك في الزيارة إذا تزاوروا".

قال ابن كثير:" أي: على السرر لا يجلس أحد منهم وظهره إلى غيره".

قال الماتريدي:" يخبر أن مجلسهم في الجنة نحو مجلسهم في الدنيا مقابل بعضهم بعضا، حيث قال: {كَذَلِكَ} على إثر ذلك، يكونون في الجنة كما كانوا في الدنيا من مقابلة بعض بعضًا، واجتماعهم في المجلس في الشراب وغيره".

كَذلِكَ أى: الأمر كذلك. من أن المتقين لهم كل هذا النعيم.

وَزَوَّجْناهُمْ بِحُورٍ عِينٍ أى: وزوجناهم بنساء يحار الطرف فيهم لجمالهن وحسنهن، والحور: جمع حوراء.. وهي التي يحار الطرف فيها لفرط جمالها. والعين: جمع عيناء. وهي التي اتسعت عينها في حسن وجمال.

قال الطبري: يقول:" كما أعطينا هؤلاء المتقين في الآخرة من الكرامة بإدخالناهم الجنات، وإلباسناهم فيها السندس والإستبرق، كذلك أكرمناهم بأن زوّجناهم أيضا فيها حورا من النساء، وهن النقيات البياض، واحدتهنّ: حَوْراء.. فأما «العين» فإنها جمع: عيناء، وهي العظيمة العينين من النساء".

قال مقاتل:" {بِحُورٍ} يعني: بيض الوجوه، {عِينٍ}، يعني: حسان العيون".

قال السمعاني:" أي: كما فعلنا بهم ما ذكرنا كذلك نزوجهم بالحور العين، والحور الجواري البيض، والعين: الحسان الأعين، وقيل: سمين الحور؛ لأن الأبصار تحار من جمالهن".

قال ابن كثير:" أي: هذا العطاء مع ما قد منحناهم من الزوجات الحور العين الحسان اللاتي {لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلا جَانٌّ} [الرحمن: ٥٦، ٧٤]، {كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ} [الرحمن: ٥٨]، {هَلْ جَزَاءُ الإحْسَانِ إِلا الإحْسَانُ}

=

[الرحمن: ٦٠]".

عن قتادة، قوله: " {كَذَلِكَ وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ}، قال: بيضاء عيناء".

عن مجاهد: قوله:" {وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ}، قال: أنكحناهم حورا. قال: والحُور: اللاتي يحار فيهنّ الطرف بادٍ مُخُّ سوقهنّ من وراء ثيابهنّ، ويرى الناظر وجهه في كبد إحداهنّ كالمرآة من رقة الجلد، وصفاء اللون".

قال الطبري:" وهذا الذي قاله مجاهد من أن الحور إنما معناها: أنه يحار فيها الطرف، قول لا معنى له في كلام العرب، لأن الحُور إنما هو جمع حوراء، كالحمر جمع حمراء، والسود: جمع سوداء، والحوراء إنما هي فعلاء من الحور وهو نقاء البياض، كما قيل للنقيّ البياض من الطعام الحُوَّارِي".

عن أنس - رفعه نوح - قال: "لو أن حوراء بَزَقَت في بحر لُجِّي، لعَذُبَ ذلك الماء لعذوبة ريقها".

وفي قراءة عَبْد الله: «وَأَمْدَدْناهُمْ بِعِيسٍ عين».

قال الطبري:" «العيس» -عند العرب- جمع: عيساء، وهي البيضاء من الإبل، كما قال الأعشى:

وَمَهْمَهٍ نَازِحٍ تَعْوِي الذّئابُ بِهِ... كَلَّفْتُ أَعْيَسَ تَحْتَ الرَّحْلِ نَعَّابا

يعني بالـ «أعيس»: جملا أبيض".

يَدْعُونَ فِيها أى: في الجنات بِكُلِّ فاكِهَةٍ آمِنِينَ.

أى: يطلبون ويأمرون غيرهم بأن يحضر لهم كل ما يشتهونه من فاكهة أو غيرها، فيلبي طلبهم وهم آمنون في أماكنهم من كل خوف أو ضرر.

قال السعدي:" {يَدْعُونَ فِيهَا} أي: الجنة {بِكُلِّ فَاكِهَةٍ} مما له اسم في الدنيا ومما لا يوجد له اسم ولا نظير في الدنيا، فمهما طلبوه من أنواع الفاكهة وأجناسها أحضر لهم في الحال من غير تعب ولا كلفة، {آمِنِينَ} من انقطاع ذلك وآمنين من

=

=

مضرته وآمنين من كل مكدر، وآمنين من الخروج منها والموت".

قال ابن عطية:" معناه: يدعون الخدمة والمتصرفين".

وفي قوله تعالى: {آمِنِينَ} [الدخان:٥٥]، قولان:

أحدهما: {آمِنِينَ} عن انقطاع فواكهها وثمارها وما ذكر.

قال الطبري:" يقول: يدعو هؤلاء المتقون في الجنة بكلّ نوع من فواكه الجنة اشتهوه، آمنين فيها من انقطاع ذلك عنهم ونفاده وفنائه، ومن غائلة أذاه ومكروهه، يقول: ليست تلك الفاكهة هنالك كفاكهة الدنيا التي نأكلها، وهم يخافون مكروه عاقبتها، وغبّ أذاها مع نفادها من عندهم، وعدمها في بعض الأزمنة والأوقات".

قال البغوي:" {آمنين} من نفادها ومن مضرته".

قال ابن كثير:" أي: مهما طلبوا من أنواع الثمار أحضر لهم، وهم آمنون من انقطاعه وامتناعه، بل يحضر إليهم كلما أرادوا".

قال الماتريدي:" تأويله - والله أعلم - أي: ثمار الجنة وفواكهها، ليس لها فساد ولا انقطاع، ولا نقصان، ولا زوال، {يَدْعُونَ}: يسألون أن أحضروها، لا يسألون كما يسألون في الدنيا هل بقي شيء، أو هل عندكم شيء من الفواكه؟ ونحو ذلك؛ لما ذكرنا أن لثمار الدنيا انقطاع وفناء، وليس لثمار الجنة وفواكهها كذلك، لذلك ما ذكرنا".

الثاني: أمنوا من الموت والأوصاب والشيطان. قاله قتادة.

وقال ابن عباس:" قد أمنوا الموت والأسقام والأوجاع والتخم".

قال الواحدي:" {آمنين} من التخم، والأسقام، والأوجاع".

ثم بين سبحانه أن بقاءهم في تلك الجنات بقاء دائم فقال: لا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولى، وَوَقاهُمْ عَذابَ الْجَحِيمِ.

أى: هم باقون بقاء دائما في تلك الجنات، بحيث لا يموتون فيها أبدا، إلا الموتة

=

=

الأولى التي ذاقوها عند نهاية آجالهم في الدنيا، ووقاهم سبحانه بعدها عذاب الجحيم، الذي حل بالكافرين.

قال الطبري:" لا يذوق هؤلاء المتقون في الجنة الموت بعد الموتة الأولى التي ذاقوها في الدنيا".

قال الزجاج:" المعنى: لا يذوقون فيها الموت ألبتَّة سوى الموتة الأولى التي ذاقوها في
الدنيا".

قال السعدي:" أي: ليس فيها موت بالكلية، ولو كان فيها موت يستثنى لم يستثن الموتة الأولى التي هي الموتة في الدنيا فتم لهم كل محبوب مطلوب".

قال ابن كثير:" هذا استثناء يؤكد النفي، فإنه استثناء منقطع ومعناه: أنهم لا يذوقون فيها الموت أبدًا، كما ثبت في الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال: «يؤتى بالموت في صورة كبش أملح، فيوقف بين الجنة والنار ثم يذبح، ثم يقال: يا أهل الجنة خلود فلا موت، ويا أهل النار خلود فلا موت»".

وعن أبي سعيد وأبي هريرة، رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، قالا قال رسول الله ﷺ: "يقال لأهل الجنة: إن لكم أن تصحوا فلا تسقموا أبدًا، وإن لكم أن تعيشوا فلا تموتوا أبدًا، وإن لكم أن تنعموا فلا تَبْأسوا أبدًا، وإن لكم أن تشبوا فلا تهرموا أبدًا".

عن أبي هريرة، رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قال: قال رسول الله ﷺ: "من اتقى الله دخل الجنة، ينعم فيها ولا يبأس، ويحيا فيها فلا يموت، لا تبلى ثيابه، ولا يفنى شبابه".

وعن أبي هريرة، عن النبي ﷺ، قال: «من يدخل الجنة ينعم لا يبأس، لا تبلى ثيابه ولا يفنى شبابه».

عن جابر بن عبد الله قال: سئل نبي الله ﷺ، فقيل: يا رسول الله، أينام أهل الجنة؟ فقال رسول الله ﷺ: «النوم أخو الموت، وأهل الجنة لا ينامون».

=

=

قوله تعالى: {وَوَقَاهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ}.

قال الطبري: يقول:" ووقى هؤلاء المتقين ربهم يومئذ عذاب النار".

قال ابن كثير:" أي: مع هذا النعيم العظيم المقيم قد وقاهم، وسلمهم ونجاهم وزحزحهم من العذاب الأليم في دركات الجحيم، فحصل لهم المطلوب، ونجاهم من المرهوب".

قال الآلوسى: وقوله: " لا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولى جملة مستأنفة أو حالية، وكأنه أريد أن يقال: لا يذوقون فيها الموت البتة، فوضع الموتة الأولى موضع ذلك، لأن الموتة الماضية محال ذوقها في المستقبل فهو من باب التعليق بالمحال، كأنه قيل: إن كانت الموتة الأولى يستقيم ذوقها في المستقبل فإنهم يذوقونها. ونظيره قول القائل لمن يستسقيه:

لا أسقيك إلا الجمر، وقد علم أن الجمر لا يسقى".

وقوله فَضْلًا مِنْ رَبِّكَ أى: أعطوا كل ذلك فضلا من ربك، فقوله فَضْلًا منصوب على المصدرية بفعل محذوف. أو على أنه مفعول لأجله. أى: لأجل الفضل منه سبحانه.

ذلِكَ الذي أعطيناهم إياه هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ الذي لا يدانيه ولا يساميه فضل.

قال مقاتل:" ذلك الذي ذكر في الجنة كان: فضلا من ربك".

قال الفراء:" أي: فعله تفضلا مِنْهُ".

قال البيضاوي:" أي: أعطوا كل ذلك عطاء وتفضلا منه".

قال الطبري: يقول:" تفضلا يا محمد من ربك عليهم، وإحسانًا منه عليهم بذلك، ولم يعاقبهم بجرم سلف منهم في الدنيا، ولولا تفضله عليهم بصفحه لهم عن العقوبة لهم على ما سلف منهم من ذلك، لم يقهم عذاب الجحيم، ولكن كان ينالهم ويصيبهم ألمه ومكروهه".

=

=

قال ابن كثير:" أي: إنما كان هذا بفضله عليهم وإحسانه إليهم كما ثبت في الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال: "اعملوا وسددوا وقاربوا، واعلموا أن أحدًا لن يُدخله عمله الجنة" قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: "ولا أنا إلا أن يتغمَّدني الله برحمة منه وفضل»".

قال السعدي:" أي: حصول النعيم واندفاع العذاب عنهم من فضل الله عليهم وكرمه فإنه تعالى هو الذي وفقهم للأعمال الصالحة التي بها نالوا خير الآخرة وأعطاهم أيضا ما لم تبلغه أعمالهم".

قال النحاس:" يقال: قد قال جلّ وعزّ: {بِما كانُوا يَعْمَلُونَ} [الأنعام:١٢٧، ويوسف: ١٢]، {وبِما كانُوا يَكْسِبُونَ} [الأنعام: ١٢٩]، فما معنى التفضل -هاهنا-؟

ففي هذا غير جواب، منها: أن تكليف الله جلّ وعزّ الأعمال ليس لحاجة منه إليها، وإنّما كلّفهم ذلك ليعملوا فيدخلوا الجنة فالتكليف وإدخالهم الجنة تفضّل منه جلّ وعزّ.

فأصحّ الأجوبة في هذا أنّ للمؤمنين ذنوبا لا يخلون منها، وإن كانت لكثير منهم صغائر فلو أخذهم الله جلّ وعزّ بها لعذّبهم غير ظالم لهم، فلما غفرها لهم وأدخلهم الجنة كان ذلك تفضلا منه جلّ وعزّ، وأيضا فإنّ لله جلّ وعزّ على عباده كلّهم نعما في الدنيا فلو قوبل بتلك النعم أعمالهم لاستغرقها فقد صار دخولهم الجنة تفضلا، كما قال ﷺ «ما أحد يدخل الجنّة بعمله» قيل: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: «ولا أنا إلّا أنا يتغمّدني الله منه برحمة»".

قوله تعالى: {ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ} [الدخان: ٥٧]، أي:" هذا الذي أعطيناه المتقين في الآخرة من الكرامات هو الفوز العظيم الذي لا فوز بعده".

قال الطبري: يقول:" هذا الذي أعطينا هؤلاء المتقين في الآخرة من الكرامة التي

=

=

وصفت في هذه الآيات، هو الظفر العظيم بما كانوا يطلبون من إدراكه في الدنيا بأعمالهم وطاعتهم لربهم، واتقائهم إياه، فيما امتحنهم به من الطاعات والفرائض، واجتناب المحارم".

قال مقاتل:" يعني: النجاة العظيمة".

قال البيضاوي:" لأنه خلاص عن المكاره وفوز بالمطالب".

قال السعدي:" وأي فوز أعظم من نيل رضوان الله وجنته والسلامة من عذابه وسخطه؟".

فَإِنَّما يَسَّرْناهُ بِلِسانِكَ أى: فإنما أنزلنا عليك- يا محمد- هذا القرآن، وجعلناه بلغتك ولغة قومك لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ما فيه من هدايات ويعتبرون بما اشتمل عليه من عبر وعظات.

قال مقاتل:" يقول: هوناه على لسانك، لكي {يتذكرون}، فيؤمنوا بالقرآن".

قال النحاس:" معنى {يسّرناه}: علمناكه وحفّظناكه وأوحينا إليك لتتذكّروا به وتعتبروا".

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: فإنما سهَّلنا قراءة هذا القرآن الذي أنزلناه إليك يا محمد بلسانك، ليتذكر هؤلاء المشركون الذين أرسلناك إليهم بعبره وحُججه، ويتّعظوا بعظاته، ويتفكّروا في آياته إذا أنت تتلوه عليهم، فينيبوا إلى طاعة ربهم، ويذعنوا للحقّ عند تبينهموه".

قال البيضاوي:" سهلناه حيث أنزلناه بلغتك وهو فذلكة السورة، لعلهم يفهمونه فيتذكرون به ما لم يتذكروا".

قال ابن كثير:" أي: إنما يسرنا هذا القرآن الذي أنزلناه سهلا واضحًا بينًا جليًا بلسانك الذي هو أفصح اللغات وأجلاها وأحلاها وأعلاها {لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ}، أي: يتفهمون ويعملون".

=

=

قال السعدي:" أي: سهلناه بلسانك الذي هو أفصح الألسنة على الإطلاق وأجلها فتيسر به لفظه وتيسر معناه. {لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ} ما فيه نفعهم فيفعلونه وما فيه ضررهم فيتركونه".

عن قتادة، قوله: " {فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ}، أي: هذا القرآن، {لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ} ".

عن ابن زيد، قوله: " {فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ}، قال: القرآن، و {يسّرناه}: أطلق به لسانه".

ثم ختم سبحانه السورة الكريمة بقوله: فَارْتَقِبْ إِنَّهُمْ مُرْتَقِبُونَ.

أى: فعلنا ذلك لعلهم يتذكرون، فإن لم يتذكروا ويتعظوا ويؤمنوا بما جئتهم به. فارتقب وانتظر ما يحل بهم من عذاب، وما وعدناك به من النصر عليهم، إنهم- أيضا- منتظرون ومرتقبون ما يحل بك من موت أو غيره، ونحن بفضلنا ورحمتنا سنحقق لك ما وعدناك به، وسنخيب ظنونهم وآمالهم.

قال قتادة:" أي: فانتظر إنهم منتظرون".

قال البيضاوي:" فانتظر ما يحل بهم. إنهم منتظرون ما يحل بك".

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: فانتظر أنت يا محمد الفتح من ربك، والنصر على هؤلاء المشركين بالله من قومك من قريش، إنهم منتظرون عند أنفسهم قهرك وغلبتك بصدّهم عما أتيتهم به من الحق من أراد قبوله واتباعك عليه".

قال السعدي:" {فَارْتَقِبْ} أي: انتظر ما وعدك ربك من الخير والنصر {إِنَّهُمْ مُرْتَقِبُونَ} ما يحل بهم من العذاب وفرق بين الارتقابين: رسول الله وأتباعه يرتقبون الخير في الدينا والآخرة، وضدهم يرتقبون الشر في الدنيا والآخرة".

قال النحاس:" أي: فارتقب أن يحكم الله جلّ وعزّ بينك وبينهم، {إِنَّهُمْ مُرْتَقِبُونَ}، فيه قولان:

=

=

أحدهما: أنه مجاز، وأن المعنى أنهم بمنزلة المرتقبين، لأن الأمر حال بهم لا محالة.

وقيل: هو حقيقة، أي: أنهم مرتقبون ما يؤمّلونه".

قال ابن كثير:" ثم لما كان مع هذا البيان والوضوح من الناس من كفر وخالف وعاند، قال الله تعالى لرسوله مسليا له وواعدًا له بالنصر، ومتوعدًا لمن كذبه بالعطب والهلاك: {فَارْتَقِبْ}، أي: انتظر {إِنَّهُمْ مُرْتَقِبُونَ}، أي: فسيعلمون لمن يكون النصر والظفر وعُلُو الكلمة في الدنيا والآخرة، فإنها لك يا محمد ولإخوانك من النبيين والمرسلين ومن اتبعكم من المؤمنين، كما قال تعالى: {كَتَبَ اللهُ لأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ} [المجادلة: ٢١]، وقال تعالى: {إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الأَشْهَادُ يَوْمَ لا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ} [غافر: ٥١، ٥٢]".

(تتمة): قال الغرناطي في ملاك التأويل القاطع: الآية الأولى منها - قوله تعالى: (وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ مَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ) (الزخرف: ٢٠)، وقال في الجاثية: (وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ) (الجاثية: ٢٤)، فأعقب في الأولى قوله: (مَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ) بقوله: (إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ)، وأعقب في الثانية قوله: (مَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ) بقوله: (إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ)، فللسائل أن يسأل عن وجه اختصاص كل من الموضعين بما به أعقب؟

والجواب عن ذلك، والله أعلم: أنهم لما قالوا: (لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ) فتعلقوا في احتجاجهم بقول الحق، وهو أنه سبحانه لا يجري في ملكه إلا ما يريده ويشاؤه، ثم في اختصصهم من أسمائه الرحمن عضد لتعلقهم وتقوية لما رأوا الاحتجاج به، وكأنهم قالوا: إذا كان متصفًا بالرحمة ولا استبداد لأحد من الخلق

=

=

بشيء من أفعالهم وإنما يجري ما يصدر عنهم بحسب مشيئته وإرادته، وقد جرى منا ما نحن عليه من عبادة أصنامنا وما اتخذناه من معبوداتنا، وليس لنا استبداد بما يصدر عنا فهو مراد له وبمشيئته وهو رحمة لأنه الرحمن، فلو كانت الرحمة في تركنا معبوداتنا لشاء ذلك (لنا) لأن الرحمن لا يكون منه إلا ما هو رحمة، وإنما الفعل له لا لنا، فلو شاء أن لا نعبدها ما عبدناها، فلما تعلقوا بما يبدو منه أن لديهم علمًا، أخبر تعالى نبيه ﷺ أنه لا علم عندهم، ولا قالوا ذلك عن معتقد تركن إليه قلوبهم، إنما هو تخرص قولي لا علم وراءه، ومن وحي الشياطين لأنهم أولياؤهم كما قال تعالى: (وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ) (الأنعام: ١٢١)، فكرمهم تخرص بالقول لا علم وراءه، إذ اللام في القدر وأحكامه، وإن الإدارة تخالف الرضا، وإن الآمر قد يأمر بما لا يريده، وإنه سبحانه قد يريد إيقاع ما لا يرضاه، وبيان ما تبني عليه التكاليف وتتعلق به الأوامر والنواهي من القدرة الكسبية التي بمعرفتها وثبوتها حصول السلامة من مذهب الجبر، وبإنكارها التورط في مذهب الاعتزال أو قول أهل القدر، وكلا المذهبين ضلال ونزوح عن الحق، وكل من المذهبين له تهجم سبقية إلى الأذهان، يدفعها التوفيق؟ إلى النظر الصحيح، وإلا كان التخرص المورط في الضلالات، وهنا بحار طامية من دقائق العلم والنظر لا شيء عند هؤلاء الكفار منها (بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ) (يونس: ٢٩)، (وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ) (يونس: ٦٦)، فقد وضح التناسب في هذا. وأما الآية الثانية فإنه تعالى لما حكى عنهم قولهم منكريم للبعث الأخراوي: (وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ) (الجاثية: ٢٤) أي وما يهلكنا إلا تعاقب الأيام والليالي، فلم ينسبوا الإحياء والإماتة لفاعل مختار يميت ويحيي، وبنوا على ذلك إنكار العودة، أخبر تعايل عنهم أنهم لا متعلق لهم إلا مجرد ظن لا مستند له فقال: (وَمَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ)

=

=

(الجاثية: ٢٤)، فأخبر تعالى أن مرجعهم إلى الظن، وإن الظن لا يغني من الحق شيئًا، وتناسب هذا واضح لا خفاء به.
الآية الثانية من سورة الزخرف قوله تعالى: (بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُهْتَدُونَ) (الزخرف: ٢٢)، ثم قال: (وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ) (الزخرف: ٢٣)، للسائل أن يسأل عن الفرق الموجب لقول الفريق الأول: (وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُهْتَدُونَ) وقول الفريق الثاني: (وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ) مع الاتفاق من جميعهم في قولهم: (إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ) أي على دين وملة، ثم وقع الاختلاف في وصف أنفسهم في اتباع آبائهم بالاهتداء والاقتداء؟
ووجه ذلك، والله أعلم: أن ما تقدم الآية الأولى حكاية قول كفار العرب المعاصرين لرسول الله ﷺ والسامعين منه القرآن المسمى هدى في غير موضع كقوله سبحانه: (هُدًى لِلْمُتَّقِينَ) (البقرة: ٢)، وقوله: (هَذَا هُدًى) (الجاثية: ١١)، وقوله: (هُدًى وَرَحْمَةً لِلْمُحْسِنِينَ) (لقمان: ٣)، فلما دعاهم ﷺ ليهتدوا بهديه قابلوا دعاءه بقولهم: إنهم مهتدون وإنهم وجدوا آباءهم على أمة وإن ما وجدوهم عليه هدى، فقالوا: (إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ) أي على دين وإنا على آثارهم مهتدون كهديهم، فلما دعاهم زعموا أنهم على هدى، وهذا أبين تناسب.
وأما الآية الثانية فحكاية أقوال قرون مختلفة، وقد ذكر تعالى من قول بعضهم: (قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ) (الأنبياء: ٥٣)، وفي موضع آخر: (كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ) (الشعراء: ٧٤)، فهذا اتباع مجرد عن ادعاء كونه هدى أو غير هدى، فهو اعتراف بتقليد واتباع تعظيم لفعل آباهم من غير ادعاء شبهة، فلم يكن ليطابق هذا إلا الوارد في قوله تعالى عنهم: (وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ)، فجاء كل على ما يناسب، والله أعلم. ا.هـ من ملاك التأويل (٢/ ٤٣٩-٤٤٠).

سورة الجاثية[(١)]

(١) قال ابن ابي زمنين:" هي مكية كلها".
وقال ابن عطية:" هذه السورة مكية لا خلاف في ذلك".
وقال الفيروزآبادي:" السورة مكية بالإجماع".
* آياتها سبع وثلاثون فى الكوفة، وست فى الباقين. كلماتها أَربعمائة وثمانون. وحروفها أَلفان ومائة وتسعون. مجموع فواصل آياتها (من).
* أسماء السورة.
سميت هذه السورة في كثير من المصاحف وكتب التفسير: «سورة الجاثية»؛ لقوله: {وَتَرَى كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً} [الجاثية: ٢٨].
وغلب هذا الاسم على هذه السورة؛ إذ الأصل أن تسمى السورة باسم أمر ذي بال مذكور فيها؛ لما جاء فيها من الأهوال التي يلقاها الناس يوم الحساب، حيث تجثو الخلائق على الركب في انتظار الحساب، ويغشاهم من الفزع ما لا يخطر على بال.
قال القاسمي:"سميت بها لتضمن آيها بيان سبب تأخير البعث إلى يوم القيامة، لأجل اجتماع الأمم محاكمة إلى الله تعالى، وفصله بينهم يوم القيامة، وهي من المطالب الشريفة في القرآن".
قال ابن عاشور:"واقتران لفظ «الجاثية» بـ «لام التعريف» في اسم السورة مع أن اللفظ المذكور فيها خُلِّيَ عن لام التعريف؛ لقصد تحسين الإضافة، والتقدير: سورة هذه الكلمة، أي: السورة التي تُذكر فيها هذه الكلمة، وليس لهذا التعريف فائدة غير هذه".
• وتسمى «حم الجاثية»، كما جاءت في كلام الصحابة -رضوان الله عليهم-.
• وتسمى «سورة الشريعة» -كما وردت عند السلف -، لوقوع لفظ «شريعة» فيها، =

=

وذلك في قوله تعالى: {ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِنَ الْأَمْرِ} [الجاثية: ١٨]، ولم يقع في موضع آخر من القرآن.

قال القاسمي: سميت بذلك" لتضمن آيها وجه نسخ هذه الشريعة، سائر الشرائع، وفضلها عليها. وهو أيضا من المطالب العزيزة فيه".

• وتسمى «سورة الدهر»، لوقوع لفظ «الدهر» فيها، وذلك في قوله تعالى: {وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ} [الجاثية: ٢٤]، ولم يقع هذا اللفظ في ذوات «حم» الأخر.

* معظم مقصود السّورة: بيان حُجّة التّوحيد، والشكاية من الكفار والمتكبرين، وبيان النفع، والضرّ والإساءَة، والإحسان، وبيان شريعة الإسلام والإيمان، وتهديد العصاة والخائنين من أهل الإيمان، وذَمّ متابعى الهوى، وذلّ الناس فى المحشر، ونَسْخ كُتُب الأعمال من اللّوح المحفوظ، وتأبيد الكفّار فى النّار، وتحميد الرّب المتعال بأَوجز لفظ، وأَفصح مقال، فى قوله: {فَلِلَّهِ الحمد رَبِّ السماوت وَرَبِّ الأرض} إلى آخر السورة.

* المتشابهات: {وَآتَيْنَاهُم بَيِّنَاتٍ مِّنَ الأمر} نزلت فى اليهود. وقد سبق.

قوله: {نَمُوْتُ وَنَحْيَا} سبق. وقيل: فيه تقديم وتأْخير، أَى نحيا ونموت. وقيل: يحيا بعض، ويموت بعض. وقيل: هذا كلام مَن يقول بالتناسُخ.

قوله: {ولتجزى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ} بالباءِ موافقة لقوله: {لِيَجْزِيَ قَوْمًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ}.

قوله: {سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا} لتقدّم {كُنْتُمْ تَعْمَلُوْنَ} و {وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ} قوله: {ذَلِكَ هُوَ الفوز المبين} تعظيما لإدخال الله المؤمنين فى رحمته. ا. هـ من بصائر ذوي التمييز (١/ ٤٢٦ - ٤٢٧).

بيم الله الرحمن الرحيم[١]

حم (١).

{حم} الله أَعْلَم بِمُرَادِهِ بِهِ[٢].

تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ (٢).

{تنزيل الكتاب} القرآن مبتدأ {من الله} خبره {الْعَزِيز} فِي مُلْكه {الْحَكِيم} فِي صُنْعه.

إِنَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِلْمُؤْمِنِينَ (٣).

{إِنَّ فِي السَّمَاوَات وَالْأَرْض} أَيْ فِي خَلْقهمَا {لَآيَات} دَالَّة عَلَى قُدْرَة الله وَوَحْدَانِيّته تَعَالَى {للمؤمنين}.

وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِنْ دَابَّةٍ آيَاتٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ (٤).

{وَفِي خَلْقكُمْ} أَيْ فِي خَلْق كُلّ مِنْكُمْ مِنْ نُطْفَة ثُمَّ عَلَقَة ثُمَّ مُضْغَة إِلَى أن صار إنسانا {و} خلق {ما يَبُثّ} يُفَرِّق فِي الْأَرْض {مِنْ دَابَّة} هِيَ مَا يَدِبّ عَلَى الْأَرْض مِنْ النَّاس وَغَيْرهمْ {آيَات لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ} بِالْبَعْثِ.

وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا أَنْزَلَ اللهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ رِزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ آيَاتٌ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (٥).

{وَ} فِي {اخْتِلَاف اللَّيْل وَالنَّهَار} ذَهَابهمَا وَمَجِيئُهُمَا {وَمَا أَنْزَلَ الله مِنَ السَّمَاء مِنْ رِزْق} مطر لأنه سبب الرزق {فأحيا به الْأَرْض بَعْد مَوْتهَا وَتَصْرِيف الرِّيَاح} تَقْلِيبهَا مَرَّة جَنُوبًا وَمَرَّة شِمَالًا وَبَارِدَة وَحَارَّة {آيَات لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ}

---

(١) تقدم تفسير البسملة في أول سورة الفاتحة.

(٢) تقدم القول في الحروف المقطعة بتوسع تحت الآية رقم (١) من سورة البقرة.

الدَّلِيل فَيُؤْمِنُونَ(١).

(١) قوله تعالى (تَنْزِيلُ الْكِتابِ مِنَ اللهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ) أى: هذا القرآن من الله تعالى صاحب العزة التي لا عزة سواها، وصاحب الحكمة التي لا تقاربها حكمة، فهو سبحانه القاهر فوق عباده وهو الحكيم في كل تصرفاته.

قال الطبري:" معناه: هذا تنزيل القرآن من عند الله {الْعَزِيزِ} في انتقامه من أعدائه {الحَكِيمِ} في تدبيره أمر خلقه".

قال ابن أبي زمنين:" يعني: القرآن أنزله مع جبريل على محمد ﷺ".

قال القرطبي:" «الكتاب»: القرآن. و {العزيز}: المنيع. {الحكيم} في فعله".

قال السمعاني:" {العزيز الحكيم}، أي: الغالب على الأمور، العدل في الأحكام".

قال الفخر الرازي:" قوله: {الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ}، يجوز جعلها صفة للكتاب، ويجوز جعلهما صفة لله تعالى، إلا أن هذا الثاني أولى".

قال الزجاج:" «الكتاب» -ههنا-: القرآن، ورفع تنزيل الكتاب من جهتين:

إحداهما: الابتداء ويكون الخبر من الله، أي نزل من عند الله.

ويجوز أن يكون رفعه على: هذا تنزيل الكتاب".

ثم ساق سبحانه ستة أدلة على وحدانيته، وكمال قدرته، وجلال عظمته ويتمثل الدليل الأول في قوله تعالى: إِنَّ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ لَآياتٍ لِلْمُؤْمِنِينَ أى: إن في خلق هذه السموات المزينة بالمصابيح، والتي لا ترى فيه من تفاوت، والمرفوعة بغير عمد ... وفي خلق الأرض الممهدة المفروشة المثبتة بالجبال.. في كل ذلك لبراهين ساطعة للمؤمنين، على أن الخالق لهما هو الله تعالى وحده، المستحق للعبادة والطاعة.

فالمراد بقوله تعالى: إِنَّ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ.. أى: إن في خلقهما، كما صرح سبحانه بذلك في آيات كثيرة، منها قوله تعالى: إِنَّ فِي خَلْقِ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ، =

=

وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهارِ، لَآياتٍ لِأُولِي الْأَلْبابِ.

والمراد بالآيات: الدلائل والبراهين الدالة على قدرته سبحانه ووحدانيته.

والدليل الثاني والثالث قوله تعالى: وَفِي خَلْقِكُمْ وَما يَبُثُّ مِنْ دابَّةٍ آياتٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ.

قال مقاتل:" {إن في السماوات والأرض} وهما خلقان عظيمان، {لآيات للمؤمنين}، يعني: المصدقين بتوحيد الله- ﷻ-".

قال الطبري: يقول:" إن في السموات السبع اللاتي منهنّ نزول الغيث، والأرض التي منها خروج الخلق أيها الناس، لأدلة وحججا للمصدّقين بالحجج إذا تبيَّنوها ورأوها".

قال القرطبي:" أي: في خلقهما {لآيات للمؤمنين}".

قال سهل:" العلامات لمن أيقن بقلبه واستدل بكونها على مكونها".

قال الشوكاني:" أي: فيها نفسها فإنها من فنون الآيات، أو في خلقها".

قال الزجاج:" المعنى - والله أعلم-: إن في خلق السَّمَاوَات والأرض لآياتٍ، ويدل عليه قوله: {وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِنْ دَابَّةٍ آيَاتٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ}".

قال المراغي:" أي: إن فى السموات السبع اللاتي منهن ينزل الغيث، وفى الأرض التي منها يخرج الخلق- لأدلة واضحة للمصدقين بالحجج إذا تأملوها وفكروا فيها تفكير من يسلك السبيل القويم، فيرتب المقدمات، ليصل منها إلى النتائج، التي هى لازمة لها بحكم النظام الفكري، والترتيب العقلي".

قال الراغب:" قوله تعالى: {إِنَّ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ لَآياتٍ لِلْمُؤْمِنِينَ} [الجاثية: ٣]، فهي من الآيات المعقولة التي تتفاوت بها المعرفة بحسب تفاوت منازل الناس في العلم".

قوله: وَفِي خَلْقِكُمْ جار ومجرور خبر مقدم، وقوله: آياتٌ مبتدأ مؤخر.

=

أى: وفي خلقكم- أيها الناس- من نطفة، فعلقة، فمضغة.. إلى أن نخرجكم من بطون أمهاتكم.. وفيما نبثه وننشره ونوجده من دواب لا تعد ولا تحصى على ظهر الأرض.

في كل ذلك آياتٌ بينات، وعلامات واضحات، على كمال قدرتنا، لقوم يوقنون بأن القادر على هذا الخلق، إنما هو الله تعالى وحده.

قوله تعالى: {وَفِي خَلْقِكُمْ} [الجاثية:٤].

قال مقاتل:" يعني: وفي خلق أنفسكم إذ كنتم نطفة، ثم علقة، ثم مضغة، ثم عظما لحما، ثم الروح".

قال الطبري: يقول:" وفى خلق الله إياكم أيها الناس".

قال ابن الجوزي:" أي: من تراب ثم من نُطْفة إِلى أن يتكامل خَلْق الإِنسان".

قوله تعالى: {وَمَا يَبُثُّ مِنْ دَابَّةٍ} [الجاثية:٤]، أي:" وفيما ينشره تعالى ويُفرقه من أنواع المخلوقات التي تدب على وجه الأرض".

قال الطبري: أي:" وخلقه ما تفرّق في الأرض من دابة تدّب عليها من غير جنسكم".

وفي معنى: «البث» -في الآية- وجوه:

أحدها: خلق. قاله السدي، ومقاتل بن حيان.

الثاني: أنه يعني: بسط. قاله مقاتل بن سليمان.

الثالث: معناه: فرق وبسط. قاله ابن عطية.

قال الواحدي:" «البث»: النشر والتفريق، ومنه قوله تعالى: {وبث منهما رجالا كثيرا ونساء} [النساء: ١]، ومنه: {كالفراش المبثوث} [القارعة: ٤]، ويقال: بثثته سري أبثثته، إذا أطلعته عليه؛ لأنك فرقت بين سرك وبينك، ويقال للحزن: بث؛ لأن صاحبه لا يصبر عليه حتى يظهره".

=

واختلف في تفسير {دَابَّةٍ} [البقرة:١٦٤]، على قولين:

أحدهما: أنها تجمع الحيوان كله. وهذا قول الأكثرين.

قال الماوردي:" يعني جميع الحيوان الذي أنشأه فيها، سماه {دابة} لدبيبه عليها".

الثاني: أن الدابة اسم لكل ذي روح كان، غير طائر بجناحيه لدبيبه على الأرض، وهو قول الطبري، وظاهر كلام الرازي.

وقد رد القول الثاني جماعة من أهل العلم كابن عطية، وأبي حيان، والقرطبي.

قال القرطبي: "وقد أخرج بعض الناس الطير، وهو مردود قال اللّه تعالى: {وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللهِ رِزْقُهَا} [هود: ٦] فإن الطير يدب على رجليه في بعض حالاته"، ومنه قول الأعشى:

نياف كغصن البان ترتجّ إنْ مشتْ... دبيب قطا البطحاء في كل منهل

وقال علقمة بن عبدة:

فكأنما صَابَتْ عليه سحابة... صواعقها لطيرهن دبيب

قال الحافظ ابن حجر: " الدابة: ما دبّ من الحيوان"، واستثنى بعضهم الطير لقوله تعالى: {وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ} [الأنعام: ٣٨]، ولقوله تعالى: {مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا} [هود: ٥٦]، وعرفًا: ذوات الأربع، وقيل: يختص بالفرس، وقيل: بالحمار، والمراد هنا المعنى اللغوي"، أي: كل ما دب على الأرض من كائن له روح ليفيد العموم.

قوله تعالى: {آيَاتٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ} [الجاثية:٤]، أي:" حجج وأدلة لقوم يوقنون بالله وشرعه".

قال الطبري:"يعني: حججا وأدلة لقوم يوقنون بحقائق الأشياء، فيقرّون بها، ويعلمون صحتها".

=

=

عن سعيد بن جبير، قوله: " {إن في ذلك لآيات}، قال: هو الرجل يبعث بخاتمه إلى أهله".

عن سعيد بن جبير، في قوله: " {إن في ذلك لآية}، قال:" هو كالرجل يقول لأهله: علامة ما بيني وبينكم أن أرسل إليكم خاتمي، أو آية كذا وكذا".

والدليل الرابع قوله تعالى: وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ.. والمراد باختلافهما: تفاوتهما طولا وقصرا، وتعاقبهما دون أن يسبق أحدهما الآخر كما قال تعالى: لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ، وَلَا اللَّيْلُ سابِقُ النَّهارِ، وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ.

وكون الليل والنهار يسيران على هذا النظام الدقيق المطرد الذي لا ينخرم، دليل على أن هذا الاختلاف، تدبير من إله قادر حكيم، لا يدخل أفعاله تفاوت أو اختلال.

قوله تعالى: {وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ} أي:" وفي اختلاف الليل والنار وتعاقبهما عليكم".

قال الطبري:" يقول تبارك وتعالى {وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ} أيها الناس، وتعاقبهما عليكم، هذا بظلمته وسواده وهذا بنوره وضيائه".

ويحتمل قوله تعالى: {وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ} [الجاثية:٥]، وجهان من التفسير:

أحدهما: يعني: اختلافهما بالطول والقصر، والنور والظلمة، والزيادة والنقصان. قاله ابن كيسان، وعطاء.

الثاني: اختلافهما بذهاب أحدهما ومجيء الآخر، فإذا ذهب الليل جَاء النهارُ بعده، وإذا ذهب النهارُ جاء الليل خلفه. ومن ذلك قيل: خلف فلانٌ فلانًا في أهله بسوء، ومنه قول زهير:

=

بِهَا العِينُ وَالآرَامُ يَمْشِينَ خِلْفَةً...... وَأَطْلاؤُهَا يَنْهَضْنَ مِنْ كُلِّ مَجْثَم.

والدليل الخامس قوله تعالى: وَما أَنْزَلَ اللهُ مِنَ السَّماءِ مِنْ رِزْقٍ فَأَحْيا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِها.

وقوله: وَما أَنْزَلَ اللهُ.. معطوف على اخْتِلافِ، والمراد من السماء: جهة العلو.

والمراد بالرزق: المطر الذي ينزل من السحاب، وسمى رزقا لأن المطر سبب لأرزاق العباد.

أى: ومن الآيات الدالة على قدرته سبحانه: إنزاله المطر من السماء فينزل على الأرض، فتهتز وتربو وتنبت من كل زوج بهيج، بعد أن كانت جدباء هامدة.

وأما الدليل السادس فهو قوله تعالى: وَتَصْرِيفِ الرِّياحِ: والمراد بتصريفها: تقليبها في الجهات المختلفة، ونقلها من حال إلى حال، وتوجيهها على حسب مشيئته سبحانه، فتارة تراها حارة، وتارة تراها باردة.

أى: ومن الآيات الدالة على وحدانيته وقدرته، تقليبه سبحانه للرياح كما يشاء ويختار.

وفي ذلك الذي بيناه لكم آياتٌ واضحات على قدرتنا لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ذلك.

قوله تعالى: {وَمَا أَنْزَلَ اللهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ رِزْقٍ} [الجاثية:٥]، أي:" وما أنزل الله من السماء من مطر".

عن ابن جريج، في قوله: " {وما أنزل الله من السماء من رزق} قال: المطر".

قال الطبري:" وهو الغيث الذي به تخرج الأرض أرزاق العباد وأقواتهم".

قال السمعاني:" أي: المطر".

قال البغوي:" يعني: الغيث الذي هو سبب أرزاق العباد".

قال البيضاوي: أي:" من مطر، وسماه «رزقا»، لأنه سببه".

قال ابن كثير:" وسماه رزقًا؛ لأن به يحصل الرزق".

=

قال أبو هريرة:"ما نزل قطر إلا بميزان".

قال عكرمة:" ينزل الله الماء من السماء السابعة فتسع القطرة منه على السحابة مثل البعير".

قال معاذ بن عبد الله بن حبيب الجهني: "رأيت عبد الله بن عباس، مر به تبيع بن امرأة كعب، فسلم عليه، فسأله ابن عباس: هل سمعت كعبا يقول في السحاب شيئا؟ قال: نعم. سمعته يقول: إن السحاب غربال المطر، لولا السحاب حين ينزل الماء من السماء، لأفسد ما يقع عليه، قال: سمعت كعبا يقول في الأرض: تنبت العام نباتا وعام قابل غيره؟ قال: نعم، سمعته يقول: إن البذر ينزل من السماء. قال ابن عباس: سمعت ذلك من كعب يقوله".

قوله تعالى: {فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا} [الجاثية:٥]، أي:" فأحيا به الأرض بعد يُبْسها، فاهتزت بالنبات والزرع".

قال الطبري:" يقول: فأنبت ما أنزل من السماء من الغيْث ميت الأرض، حتى اهتزّت بالنبات والزرع من بعد جدوبها وقحوطها ومصيرها دائرة لا نبت فيها ولا زرع".

قال السعدي: "أي: فأظهرت من أنواع الأقوات، وأصناف النبات، ما هو من ضرورات الخلائق، التي لا يعيشون بدونها".

قال قتادة:" كما أحيا الله الأرض الميتة بهذا الماء، كذلك [يحيي] الله ﷻ الناس يوم القيامة".

قال الواحدي:" أراد بموت الأرض: جدوبتها ويبوستها، فسماها موتا مجازا، وذلك أن الأرض إذا لم يصبها مطر لم تنبت، ولم تنم نباتا، وكانت من هذا الوجه كالميت، وإذا أصابها المطر أنبتت، ونحو هذا قوله: {وترى الأرض هامدة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت} [الحج: ٥]، فلما وصفت بالاهتزاز وهو الحركة

=

=

عند نزول الماء، توصف عند إمساك الماء بالسكون، والعرب تسمي السكون موتا، قال الشاعر:

إني لأرجو أن تموت الريح... فأسكن اليوم وأستريح

فيجوز أن يراد بالموت في هذه الآية: ضد الاهتزاز الذي وصفت به عند نزول الماء، ولما سمى ذلك موتا سمى إزالتها إحياء ليتجانس اللفظ".

قوله تعالى: {وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ} [الجاثية:٥]، أي:" وفي تصريف الرياح لكم من جميع الجهات وتصريفها لمنافعكم".

قال الطبري:" يقول: وفي تصريفه الرياح لكم شمالا مرّة، وجنوبا أخرى، وصبًّا أحيانا، ودبورا أخرى لمنافعكم".

قال ابن عثيمين:"أي: تنويعها في اتجاهها، وشدتها، ومنافعها".

وفي قوله تعالى: {وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ} [الجاثية:٥]، وجوه:

أحدها: تصريفها بإرسالها حيث يشاء. حكاه الماوردي.

الثاني: ينقل الشمال جنوبًا والجنوب شمالًا، قاله الحسن، والفراء.

قال الفراء:" تأتي مرة جنوبا، ومرة شمالا، وقبولا، ودبورا. فذلك تصريفها".

الثالث: أن يجعلها تارة رحمة وتارة نقمة؛ قاله قتادة، ومقاتل.

قال قتادة:" إذا شَاء [جعلها رَحمةً لواقح للسحاب ونشرًا بين يدي رحمته، وإذا شاء] جَعلها عذابًا ريحًا عقيمًا لا تُلقح، إنما هي عَذابٌ على من أرسِلتْ عليه".

قال أبي بن كعب: "كل شيء في القرآن من الرياح فهي رحمة، وكل شيء في القرآن من الريح فهو عذاب".

قال ابن الأنباري: "إنما سميت الريح ريحا؛ لأن الغالب عليها في هبوبها المجيء بالروح والراحة، وانقطاع هبوبها يكسب الكرب والغم، فهي مأخوذة من الروح. وأصلها: روح، فصارت الواو ياء؛ لسكونها وانكسار ما قبلها، كما فعلوا في

=

=

الميزان والميعاد والعيد، والدليل على أن أصلها الواو: قولهم في الجمع: أرواح. قال زهير:

قف بالديار التي لم يعفها القدم... بلى وغيرها الأرواح والديم

ويقال: رحت الريح أراحها، وأرحتها أريحها: إذا وجدتها، ومنه الحديث: "من استرعي رعية فلم يحطهم بنصيحة، لم يرح رائحة الجنة، وإن ريحها لتوجد من مسيرة مائة عام"".

قوله تعالى: {آيَاتٌ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ} [الجاثية:٥]، أي:" أدلةٌ وحججٌ لقوم يعقلون عن الله حججه وأدلته".

قال الطبري: يقول:" في ذلك أدلة وحجج لله على خلقه، لقوم يعقلون عن الله حججه، ويفهمون عنه ما وعظهم به من الآيات والعبر".

قال ابن عطية:" فهذه آيات أن الصانع موجود. والدليل العقلي يقوم أن الصانع للعالم لا يمكن أن يكون إلا واحدا لجواز اختلاف الاثنين فصاعدا".

قال ابن كثير:" قال أولا {لآيَاتٍ لِلْمُؤْمِنِينَ}، ثم {يوقنون} ثم {يعقلون} وهو تَرَقٍّ من حال شريف إلى ما هو أشرف منه وأعلى".

قال الجمل في حاشيته: وحاصل ما ذكر هنا من الدلائل ستة، على ثلاث فواصل: الأولى لِلْمُؤْمِنِينَ، والثانية يُوقِنُونَ، والثالثة، يَعْقِلُونَ.

ووجه التغاير بينها، أن المنصف من نفسه إذا نظر في السموات والأرض وأنه لا بد لهما من صانع آمن، وإذا نظر في خلق نفسه ونحوها، ازداد إيمانا فأيقن. وإذا نظر في سائر الحوادث عقل واستحكم علمه، فاختلاف الفواصل الثلاث، لاختلاف الآيات في الدقة والظهور ا.هـ.

وما ذكر في هذه الآيات الكريمة من أدلة ساطعة على قدرة الله ووحدانيته جاء في آيات كثيرة، من أجمعها قوله تعالى: إِنَّ فِي خَلْقِ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلافِ

=

تِلْكَ آيَاتُ اللهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ (٦).

{تِلْكَ} الْآيَات الْمَذْكُورَة {آيَات الله} حُجَجه الدَّالَّة عَلَى وَحْدَانِيّته {نَتْلُوهَا} نَقُصّهَا {عَلَيْك بِالْحَقِّ} مُتَعَلِّق بِنَتْلُو {فَبِأَيِّ حَدِيث بَعْد الله} أَيْ حَدِيثه وَهُوَ الْقُرْآن {وَآيَاته} حُجَجه {يُؤْمِنُونَ} أَيْ كُفَّار مَكَّة أَيْ لَا يُؤْمِنُونَ وَفِي قِرَاءَة بِالتَّاءِ.

وَيْلٌ لِكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ (٧).

{وَيْل} كَلِمَة عَذَاب {لِكُلِّ أَفَّاك} كَذَّاب {أَثِيم} كثير الإثم.

يَسْمَعُ آيَاتِ اللهِ تُتْلَى عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَنْ لَمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٨).

{يَسْمَع آيَات الله} الْقُرْآن {تُتْلَى عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرّ} عَلَى كُفْره {مُسْتَكْبِرًا} مُتَكَبِّرًا عَنْ الْإِيمَان {كَأَنْ لَمْ يَسْمَعهَا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيم} مُؤْلِم.

وَإِذَا عَلِمَ مِنْ آيَاتِنَا شَيْئًا اتَّخَذَهَا هُزُوًا أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ (٩).

{وَإِذَا عَلِمَ مِنْ آيَاتنَا} أَيْ الْقُرْآن {شَيْئًا اتخذها هزؤا} أَيْ مَهْزُوءًا بِهَا {أُولَئِكَ} أَيْ الْأَفَّاكُونَ {لَهُمْ عَذَاب مُهِين} ذُو إِهَانَة.

مِنْ وَرَائِهِمْ جَهَنَّمُ وَلَا يُغْنِي عَنْهُمْ مَا كَسَبُوا شَيْئًا وَلَا مَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللهِ أَوْلِيَاءَ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١٠).

{مِنْ وَرَائِهِمْ} أَيْ أَمَامهمْ لِأَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا {جَهَنَّم وَلَا يُغْنِي عَنْهُمْ مَا كَسَبُوا} مِنْ المال والفعال {شيئا ولا ما اتخذوا من دون الله} أي الأصنام {أولياء ولهم

=

اللَّيْلِ وَالنَّهارِ، وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِما يَنْفَعُ النَّاسَ، وَما أَنْزَلَ اللهُ مِنَ السَّماءِ مِنْ ماءٍ فَأَحْيا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِها وَبَثَّ فِيها مِنْ كُلِّ دابَّةٍ، وَتَصْرِيفِ الرِّياحِ وَالسَّحابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّماءِ وَالْأَرْضِ، لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ.

عذاب عظيم}.

هَذَا هُدًى وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِنْ رِجْزٍ أَلِيمٌ (١١).

{هَذَا} أَيْ الْقُرْآن {هُدًى} مِنْ الضَّلَالَة {وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبّهمْ لَهُمْ عَذَاب} حَظّ {مِنْ رِجْز} أَيْ عَذَاب {أَلِيم} مُوجِع(١).

---

(١) المراد بالآيات في قوله سبحانه: تِلْكَ آيَاتُ اللهِ نَتْلُوها عَلَيْكَ بِالْحَقِّ.. آيات القرآن الكريم، كما في قوله تعالى: تِلْكَ آياتُ اللهِ نَتْلُوها عَلَيْكَ بِالْحَقِّ، وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ.

وتِلْكَ مبتدأ، وآياتُ اللهِ خبر ونَتْلُوها عَلَيْكَ حال عاملها ما دل عليه تِلْكَ من معنى الإشارة.

وقوله بِالْحَقِّ حال من فاعل نَتْلُوها أو من مفعوله، أى: نتلوها محقين، أو ملتبسة بالحق.

أى: تلك- أيها الرسول الكريم- آيات الله تعالى المنزلة إليك، نتلوها عليك تلاوة ملتبسة بالحق الذي لا يحوم حوله باطل.

وكانت الإشارة للبعيد، لما في ذلك من معنى الاستقصاء للآيات، ولعلو شأنها، وكمال معانيها، والوفاء في مقاصدها.

وأضاف سبحانه الآيات إليه، لأنه هو الذي أنزلها على نبيه ﷺ، وفي هذه الإضافة ما فيها من التشريف لها، والسمو لمنزلتها.

وقوله سبحانه: فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللهِ وَآياتِهِ يُؤْمِنُونَ تعجيب من حالهم، حيث أصر هؤلاء الكافرون على كفرهم، مع وضوح البراهين والأدلة على بطلان ذلك.

أى: فبأى حديث بعد آيات الله المتلوة عليك يؤمن هؤلاء الجاهلون؟ إن عدم إيمانهم بعد ظهور الأدلة والبراهين على وجوب الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله، دليل على انطماس بصائرهم، واستيلاء العناد والجحود على قلوبهم.

=

=

قال الآلوسى: وقوله: فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ هو من باب قولهم: أعجبنى زيد وكرمه، يريدون أعجبنى كرم زيد، إلا أنهم عدلوا عنه للمبالغة في الإعجاب.

أى: فبأى حديث بعد هذه الآيات المتلوة بالحق يؤمنون، وفيه دلالة على أنه لا بيان أزيد من هذا البيان، ولا آية أدل من هذه الآية.

وقال الواحدي: فبأى حديث بعد حديث الله، أى: القرآن، وقد جاء إطلاقه عليه في قوله تعالى: اللهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ.. وحسن الإضمار لقرينة تقدم الحديث.

وقوله وَآيَاتِهِ عطف عليه لتغايرهما إجمالا وتفصيلا.. والفاء في جواب شرط مقدر، والظرف صفة حَدِيثٍ".

قوله تعالى: {تِلْكَ آيَاتُ اللهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ} أي:" هذه الآيات والحجج نتلوها عليك -أيها الرسول- بالحق".

قال الطبري: يقول:" هذه الآيات والحجج يا محمد من ربك على خلقه نخبرك عنها بالحقّ لا بالباطل، كما يخبر مشركو قومك عن آلهتهم بالباطل، أنها تقرّبهم إلى الله زُلْفَى".

قال ابن كثير:" يقول تعالى: هذه آيات الله - يعني القرآن بما فيه من الحجج والبينات - {نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ}، أي: متضمنة الحق من الحق".

عَنْ أبي عبيدة: {تِلْكَ آيَاتُ اللهِ} " أي: عجائب الله {نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ} نتلوها: نقصها".

عن أبي مالك، قوله: " {تلك}، يعني: هذه".

عن سعيد بن جبير، في قوله: " {آيات الله}، يعني: القرآن".

عبد الله بن المبارك، في قوله:" {تلك آيات الله}، قال: القرآن".

عن محمد بن إسحاق، قوله: " {عليك بالحق}، يقول: بالفضل". وفي رواية:"

=

=

بالصدق".

قوله تعالى: {فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ} [الجاثية:٦]، أي:" فبأي حديث بعد الله وآياته وأدلته على أنه الإله الحق وحده لا شريك له يؤمنون ويصدقون ويعملون؟".

قال الطبري: يقول:" فبأيّ حديث يا محمد بعد حديث الله الذي يتلوه عليك وآياته هذه التي نبه هؤلاء المشركين عليها، وذكرهم بها، يؤمن هؤلاء المشركون".

قال ابن كثير: أي:" فإذا كانوا لا يؤمنون بها ولا ينقادون لها، فبأي حديث بعد الله وآياته يؤمنون؟!".

قال ابن أبي زمنين:" أي: ليس بعد ذلك إلا الباطل".

قال النحاس:" المعنى: قل لهم «فبأيّ حديث بعد الله وآياته تؤمنون»، فهذا المعنى صحيح قال الله جلّ وعزّ وَالْمَلائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بابٍ سَلامٌ عَلَيْكُمْ [الرعد: ٢٣]، أي: يقولون".

وقرأ ابن عامر وحمزة والكسائي وعاصم في رواية يحيى عن أبى بكر «تؤمنون»، بالتاء على وجه الخطاب من الله بهذا الكلام للمشركين.

ثم هدد تعالى هؤلاء المشركين بقوله: وَيْلٌ لِكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ.

والويل: لفظ يدل على الشر أو الهلاك. وهو مصدر لا فعل له من لفظه، وقد يستعمل بدون حرف النداء كما هنا، وقد يستعمل معه كما في قوله تعالى: يا وَيْلَنا مَنْ بَعَثَنا مِنْ مَرْقَدِنا.

والأفاك: هو الإنسان الكثير الإفك وهو أشنع الكذب وأقبحه.

والأثيم: هو الإنسان المرتكب للذنوب والآثام بقلبه وجوارحه، فهو سيئ الظاهر وسيئ الباطن.

=

=

أى: هلاك وعذاب وحسرة يوم القيامة لكل إنسان ينطق بأقبح الأكاذيب ويفعل أسوأ السيئات.

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره: الوادي السائل من صديد أهل جهنم، لكلّ كذّاب ذي إثم بربه، مفتر عليه".

قال مقاتل:" {أَفَّاكٍ}، يعني: كذاب، {أَثِيمٍ}، يقول: آثم بربه، وكذبه أنه قال إن القرآن أساطير الأولين يعنى حديث رستم واسفندباز، يعني: النضر بن الحارث القرشي من بني عبد الدار".

قال ابن أبي زمنين:" {أفاك}، أي: كذاب، {أثيم}، يعني: المشرك".

قال ابن كثير:" أي: أفاك في قوله كذاب، حلاف مهين أثيم في فعله وقيله كافر بآيات الله".

قال الزمخشري:" الأفاك: الكذاب، والأثيم: المتبالغ في اقتراف الآثام يُصِرُّ يقبل على كفره ويقيم عليه. وأصله من إصرار الحمار على العانة وهو أن ينحى عليها صارّا أذنيه".

وفي معنى "الويل"، أقوال:

أحدها: أنه ما يسيل من صديد في أصل جهنم. قاله أبو العياض، وشقيق.

الثاني: أنه الحزن، قاله ابن كيسان.

يقال: تويل الرجل إذا دعا بالويل، وإنما يقال ذلك عند الحزن والمكروه، ومنه قوله: {فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ} [البقرة: ٧٩]، ومنه قول الشاعر:

تَوَيّل إذ ملأتُ يدي وكانَتْ... يميني لا تعلّلُ بالقليل

الثالث: أن الويل وادٍ في جهنم، وهذا قول عطاء بن يسار.

الرابع: أنه النار، قاله عمر مولى عفرة.

هذا الإنسان- أيضا- من صفاته أنه يَسْمَعُ آياتِ اللهِ تُتْلى عَلَيْهِ صباح مساء.

=

=

ثُمَّ بعد ذلك يُصِرُّ على كفره مُسْتَكْبِرًا أى: متكبرا عن الإيمان.
كَأَنْ لَمْ يَسْمَعْها أى: كأنه لم يسمع هذه الآيات، لأنها لم توافق هواه أو شهواته.
والتعبير بقوله: ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا للتعجيب من حاله، حيث يصر على كفره، بعد سماع ما يدعو إلى التخلي عن الكفر، ويحمل على الدخول في الإيمان.
والإصرار على الشيء: ملازمته، وعدم الانفكاك عنه، مأخوذ من الصر- بفتح الصاد- وهو الشد، ومنه صرة الدراهم، لأنها مشدودة على ما بداخلها.
قوله تعالى: {يَسْمَعُ آيَاتِ اللهِ تُتْلَى عَلَيْهِ}، أي:" يسمع آيات القرآن تُقرأ عليه، وهي في غاية الوضوح والبيان".
عن سعيد بن جبير، في قوله: " {آيات الله}، يعني: القرآن".
قال الطبري:" يقول: يسمع آيات كتاب الله تُقرأ عليه".
قال ابن كثير:" {تُتْلَى عَلَيْهِ}، أي: تقرأ عليه".
قوله تعالى: {ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَنْ لَمْ يَسْمَعْهَا} [الجاثية:٨]، أي:" ثم يتمادى في كفره متعاليًا في نفسه عن الانقياد لله ورسوله، كأنه لم يسمع ما تُلي عليه من آيات الله".
قال الطبري: يقول:" {ثُمَّ يُصِرُّ} على كفره وإثمه فيقيم عليه غير تائب منه، ولا راجع عنه {مُسْتَكْبِرًا} على ربه أن يذعن لأمره ونهيه، كأن لم يسمع ما تلي عليه من آيات الله بإصراره على كفره".
قال ابن كثير:" {ثُمَّ يُصِرُّ} على كفره وجحوده استكبارًا وعنادا كأنه ما سمعها".
قال الزمخشري:" {مُسْتَكْبِرًا} عن الإيمان بالآيات والإذعان لما ينطق به من الحق، مزدريا لها معجبا بما عنده".
قال ابن أبي زمنين:" أي: بلى قد سمعها، وقامت عليه الحجة بها".
قوله تعالى: {فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ}.

=

=

وقوله تعالى: فَبَشِّرْهُ بِعَذابٍ أَلِيمٍ تهكم بهذا الأفاك الأثيم.. واستهزاء به، لأن البشارة في الأصل إنما تكون من أجل الخبر السار، الذي تتهلل له البشرة.

أى: فبشره بعذاب أليم، بسبب إصراره على كفره، واستحبابه العمى على الهدى.

قال الطبري: يقول: فبشر يا محمد هذا الأفَّاك الأثيم الذي هذه صفته بعذاب موجع في نار جهنم يوم القيامة".

قال ابن كثير: أي:" فأخبره أن له عند الله يوم القيامة عذابا أليما موجعا".

قال مقاتل:" {فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ}، يعني: وجيع، فقتل ببدر".

قال أبو العالية:" الأليم: الموجع في القرآن كله"، وروي عن سعيد بن جبير، وأبي مالك، والضحاك، وقتادة، وأبي عمران الجوني، نحو ذلك.

قال صاحب الكشاف: فإن قلت: ما معنى ثُمَّ في قوله: ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا؟

قلت: كمعناه في قول القائل، يرى غمرات الموت ثم يزورها.

وذلك أن غمرات الموت خليقة بأن ينجو رائيها بنفسه، ويطلب الفرار عنها.

وأما زيارتها والإقدام على مزاولتها، فأمر مستبعد، فمعنى ثُمَّ: الإيذان بأن فعل المقدم عليها بعد ما رآها وعاينها، شيء يستبعد في الغايات والطباع.

وكذلك آيات الله الواضحة الناطقة بالحق، من تليت عليه وسمعها: كان مستبعدا في العقول إصراره على الضلالة عندها، واستكباره عن الإيمان بها.

ثم بين سبحانه صفة أخرى من صفات هذا الأفاك الأثيم فقال: وَإِذا عَلِمَ مِنْ آياتِنا شَيْئًا اتَّخَذَها هُزُوًا.

أى: وإذا بلغ هذا الإنسان شيء من آياتنا الدالة على وحدانيتنا وقدرتنا، بادر إلى الاستهزاء بها والسخرية منها، ولم يكتف بالاستهزاء بما سمعه، بل استهزأ بالآيات كلها لرسوخه في الكفر والجحود.

والتعبير بقوله: وَإِذا عَلِمَ زيادة في تحقيره وتجهيله، لأن اتخاذه الآيات هزوا بعد

=

علمه بمصدرها، يدل على إيغاله في العناد والضلال.

وقوله: أُولَئِكَ لَهُمْ عَذابٌ مُهِينٌ بيان لسوء عاقبته. أى: أولئك الذين يفعلون ذلك لهم في الآخرة عذاب يهينهم ويذلهم، ويجعلهم محل سخرية العقلاء واحتقارهم.

قال الطبري: يقول:" {وَإِذَا عَلِمَ} هذا الأفاك الأثيم {مِنْ} آيات الله {شَيْئًا} اتخذ تلك الآيات التي علمها هزوا، يسخر منها، وذلك كفعل أبي جهل حين نزلت {إِنَّ شَجَرَةَ الزَّقُّومِ طَعَامُ الأثِيمِ} إذ دعا بتمر وزبد فقال: تزقموا من هذا، ما يعدكم محمد إلا شهدا، وما أشبه ذلك من أفعالهم".

قال ابن كثير:" أي: إذا حفظ شيئًا من القرآن كفر به واتخذه سخريا وهزوا".

قال مقاتل:" يعني: استهزاء بها، وذلك أنه زعم أن حديث القرآن مثل حديث رستم واسفندباز".

قال الزمخشري:" ولم يقل: اتخذه، للإشعار بأنه إذا أحس بشيء من الكلام أنه من جملة الآيات التي أنزلها الله تعالى على محمد ﷺ: خاض في الاستهزاء بجميع الآيات".

قوله تعالى: {أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ} [الجاثية:٩]، أي:" أولئك لهم عذاب يهينهم، ويخزيهم يوم القيامة؛ جزاء استهزائهم بالقرآن".

قال الطبري: يقول:" هؤلاء الذين يفعلون هذا الفعل، وهم الذين يسمعون آيات الله تُتلى عليهم ثم يصرّون على كفرهم استكبارًا، ويتخذون آيات الله التي علموها هزوا، لهم يوم القيامة من الله عذاب مهين يهينهم ويذلهم في نار جهنم، بما كانوا في الدنيا يستكبرون عن طاعة الله واتباع آياته".

قال مقاتل:" {أولئك لهم}، يعني النضر بن الحارث وأصحابه وهم قريش، {عذاب مهين}، يعني: القتل في الدنيا يوم بدر".

قال مقاتل بن حيان:" يعني: المهين: الهوان".

قال ابن كثير:" أي: في مقابلة ما استهان بالقرآن واستهزأ به؛ ولهذا روى مسلم في صحيحه عن ابن عمر قال: «نهى رسول الله ﷺ أن يسافر بالقرآن إلى أرض العدو مخافة أن يناله العدو"".

قوله (مِنْ وَرائِهِمْ جَهَنَّمُ)أى: من قدامهم جهنم لأنهم يوجهون إليها بعد موتهم، أو هي من خلفهم لأنهم معرضون عنها، ومهملون لما يبعدهم عن دخولها.

والوراء: اسم يستعمل بمعنى الأمام والخلف، لأنه يطلق على الجهة التي يواريها الشخص، فتعم الخلف والأمام.

وَلا يُغْنِي عَنْهُمْ ما كَسَبُوا شَيْئًا أى: ولا يدفع عنهم ما كسبوه في الدنيا من أموال شيئا من العذاب، ولو كان هذا الشيء يسيرا، كما قال تعالى: إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوالُهُمْ وَلا أَوْلادُهُمْ مِنَ اللهِ شَيْئًا، وَأُولئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ.

فقوله وَلا يُغْنِي من الغناء- بفتح الغين- بمعنى الدفع والنفع، ومنه قول الشاعر:

وقل غناء عنك مال جمعته ... إذا صار ميراثا وواراك لاحد

وَلا مَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللهِ أَوْلِياءَ أى: ولا يغنى عنهم- أيضا- ما اتخذوه من دون الله تعالى من معبودات باطلة.

وما في قوله ما كَسَبُوا ومَا اتَّخَذُوا موصولة والعائد محذوف. ويصح أن تكون في الموضعين مصدرية.

وَلَهُمْ عَذابٌ عَظِيمٌ لا يعلم مقدار شدته وهوله إلا الله تعالى وحده.

قوله تعالى: {مِنْ وَرَائِهِمْ جَهَنَّمُ}، أي:" مِن أمام هؤلاء المستهزئين بآيات الله جهنم".

قال الطبري: يقول:" ومن وراء هؤلاء المستهزئين بآيات الله، يعني من بين أيديهم. وقد بينَّا العلة التي من أجلها قيل لما أمامك، هو وَرَاءك، فيما مضى بما أغنى عن إعادته؛ يقول: من بين أيدي هؤلاء المستهزئين بآيات الله نار جهنم هم

=

واردوها".

قال ابن كثير:" أي: كل من اتصف بذلك سيصيرون إلى جهنم يوم القيامة".

قال مقاتل:" يعني: النضر بن الحارث يقول لهم في الدنيا القتل ببدر ومن بعده أيضا لهم جهنم في الآخرة".

قال أبو عبيدة:" {مِنْ وَرائِهِمْ جَهَنَّمُ}، أي: من بين أيديهم".

قال ابن أبي زمنين:" {من ورائهم جهنم}، يعني: أمامهم وهي كلمة عربية، تقول للرجل: من ورائك كذا؛ لأمر سيأتي عليه".

عن قتادة: " {وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ}، قال قتادة: أمامهم، ألا ترى أنه يقول: {مِنْ وَرَائِهِمْ جَهَنَّمُ}، وهي بين أيديهم".

قوله تعالى: {وَلَا يُغْنِي عَنْهُمْ مَا كَسَبُوا شَيْئًا} [الجاثية:١٠]، أي:" ولا يغني عنهم ما كسبوا شيئًا من المال والولد".

قال مقاتل:" يقول: لا تغني عنهم أموالهم التي جمعوها من جهنم شيئا".

قال الطبري:" يقول: ولا يغني عنهم من عذاب جهنم إذا هم عُذّبوا به ما كسبوا في الدنيا من مال وولد شيئا".

قال ابن كثير:" أي: لا تنفعهم أموالهم ولا أولادهم".

قال الحسن:" مَا عمِلُوا من الْحَسَنَات، يبطل الله أَعْمَالهم فِي الْآخِرَة".

قال السمعاني: "قال بعض أهل التفسير: "الآية في عبد الله بن أبي بن سلول، وكسبه هو جهاده مع الرسول وصومه وصلاته وشفقته على أصحاب النبي وقوله: {ولا يغني} أي: لا يدفع، وإنما لم يدفع؛ لأنه كان منافقا يظهر الإسلام بلسانه ويعتقد الكفر، والأكثرون على أن هذه الآية في النضر بن الحارث أيضا، وهذا هو الأولى؛ لأن السورة مكية، وكسبه ما فعله من الخير على زعمه".

قوله تعالى: {وَلَا مَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللهِ أَوْلِيَاءَ} [الجاثية:١٠]، أي:" ولا تنفعهم

=

=

آلهتُهم التي عبدوها مِن دون الله".

قال الطبري:" يقول: ولا آلهتهم التي عبدوها من دون الله، ورؤساؤهم، وهم الذين أطاعوهم في الكفر بالله، واتخذوهم نُصراء في الدنيا، تغني عنهم يومئذ من عذاب جهنم شيئا".

قال ابن كثير:" أي: ولا تغني عنهم الآلهة التي عبدوها من دون الله شيئًا".

قال السدي: " {أولياء}، يعني: آلهة".

قوله تعالى: {وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ} [الجاثية:١٠]، أي:" ولهم عذاب عظيم مؤلم".

قال الطبري:" يقول: ولهم من الله يومئذ عذاب في جهنم عظيم".

قال مقاتل:" {عذاب عظيم}، يعني: كبير لشدته".

والإشارة في قوله تعالى هذا هُدىً تعود إلى القرآن الكريم. والهدى مصدر هداه إلى الشيء إذا دله وأرشده إليه.

أى. هذا القرآن الذي أوحيناه إليك يا محمد، في أعلى درجات الهداية وأكملها.

وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ الدالة على وجوب إخلاص العبادة له.

لَهُمْ عَذَابٌ مِنْ رِجْزٍ أَلِيمٌ والرجز: يطلق على أشد أنواع العذاب..

أى: لهم أشد أنواع العذاب، وأكثره إيلاما وإهانة.

وجمهور القراء قرأ أَلِيمٌ بالخفض على أنه نعت لقوله رِجْزٍ وقرأ ابن كثير وحفص عن عاصم أَلِيمٌ بالرفع، على أنه صفة لعذاب.

قوله تعالى: {هَذَا هُدًى}، أي:" هذا القرآن الذي أنزلناه عليك -أيها الرسول- هدى من الضلالة، ودليل على الحق، يهدي إلى طريق مستقيم مَن اتبعه وعمل به".

قال مقاتل:" يقول: هذا القرآن بيان يهدي من الضلالة".

=

اللهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (١٢).

{الله الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْر لِتَجْرِيَ الْفُلْك} السُّفُن {فِيهِ بِأَمْرِهِ} بِإِذْنِهِ {وَلِتَبْتَغُوا} تَطْلُبُوا بِالتِّجَارَةِ {من فضله ولعلكم تشكرون.

=

قال الطبري: يقول:" هذا القرآن الذي أنزلناه على محمد بيان ودليل على الحقّ، يهدي إلى صراط مستقيم، من اتبعه وعمل بما فيه".

قال ابن كثير:" {هَذَا هُدًى} يعني: القرآن".

قال السمعاني:" أي: القرآن هدى للخلق".

قال الزمخشري:" {هذا} إشارة إلى القرآن، يدل عليه قوله تعالى: {وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ}، لأنّ «آيات ربهم» هي القرآن، أي: هذا القرآن كامل في الهداية، كما تقول: زيد رجل، تريد كامل في الرجولية".

قوله تعالى: {وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِنْ رِجْزٍ أَلِيمٌ} [الجاثية:١١]، أي:" والذين جحدوا بما في القرآن من الآيات الدالة على الحق ولم يُصَدِّقوا بها، لهم عذابٌ مؤلم موجع مِن أسوأ أنواع العذاب يوم القيامة".

قال الطبري:" يقول: والذين جحدوا ما في القرآن من الآيات الدالات على الحقّ، ولم يصدقوا بها، ويعملوا بها، لهم عذاب أليم يوم القيامة موجع".

قال قتادة:" الرجز: سوء العذاب، الأليم: الموجع". وفي رواية:" الرجز هو العذاب الأليم الموجع".

وهذه الآيات تهديد لكل من كانت فيه هذه الصفات التي منها: كثرة الكذب، وكثرة اقتراف السيئات، والإصرار على الباطل.. ويدخل في هذا التهديد دخولا أوليا، النضر بن الحارث، الذي كان يشترى أحاديث الأعاجم ليشغل بها الناس عن سماع القرآن، والذي قيل إن هذه الآيات قد نزلت فيه.

وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (١٣).

{وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَات} مِنْ شَمْس وَقَمَر وَنُجُوم وَمَاء وَغَيْره {وَمَا فِي الْأَرْض} مِنْ دَابَّة وَشَجَر وَنَبَات وَأَنْهَار وَغَيْرهَا أَيْ خَلَقَ ذَلِكَ لِمَنَافِعِكُمْ {جَمِيعًا} تَأْكِيد {مِنْهُ} حَال أَيْ سَخَّرَهَا كَائِنَة مِنْهُ تَعَالَى {إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَات لِقَوْم يَتَفَكَّرُونَ} فِيهَا فَيُؤْمِنُونَ.

قُلْ لِلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللهِ لِيَجْزِيَ قَوْمًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (١٤).

{قُلْ لِلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ} يَخَافُونَ {أَيَّام الله} وَقَائِعه أَيْ اغْفِرُوا لِلْكُفَّارِ مَا وَقَعَ مِنْهُمْ مِنْ الْأَذَى لَكُمْ وَهَذَا قَبْل الْأَمْر بِجِهَادِهِمْ {لِيَجْزِيَ} أَيْ الله وَفِي قِرَاءَة بِالنُّونِ {قَوْمًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ} مِنْ الْغَفْر لِلْكُفَّارِ أَذَاهُمْ.

مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ (١٥).

{من عمل صالحا فلنفسه} عمل {ومن أساء فَعَلَيْهَا} أَسَاءَ {ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ} تَصِيرُونَ فَيُجَازِي الْمُصْلِح وَالْمُسِيء[1].

---

(١) قوله تعالى سَخَّرَ من التسخير بمعنى التذليل والتيسير. يقال: سخر الله تعالى الإبل للإنسان، إذا ذللها له، وجعلها منقادة لأمره.

أى: الله تعالى وحده، هو الذي بقدرته ورحمته سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ بأن جعلكم متمكنين من الانتفاع بخيراته، وبأن جعله على هذه الصفة التي تستطيعون منها استخراج ما فيه من خيرات.

وقوله: لِتَجْرِيَ الْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ، وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ.. بيان لبعض الأسباب التي من أجلها سخر الله تعالى البحر على هذه الصفة.

=

=

أى: جعل لكم البحر على هذه الصفة، لكي تتمكن السفن من الجري فيه بأمره تعالى وقدرته، ولتطلبوا ما فيه من خيرات، تارة عن طريق استخراج ما فيه من كنوز، وتارة عن طريق التجارة فيها.. وكل ذلك بتيسير الله تعالى وفضله ورحمته بكم.

وقوله: وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ متعلق بمحذوف. أى: أعطاكم ما أعطاكم من النعم، وجعل البحر على صفة تتمكنون معها من الجري فيه وأنتم في سفنكم، ومن استخراج ما فيه من خيرات.. لعلكم بعد ذلك تشكرون الله تعالى على هذه النعم، وتستعملونها فيما خلقت من أجله.

قوله تعالى: {اللهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ} [الجاثية:١٢]، أي:" الله تعالى بقدرته وحكمته هو الذي ذلَّل لكم البحر على ضخامته وعظمه".

قال الطبري: يقول:" الله أيها القوم، الذي لا تنبغي الألوهة إلا له، الذي أنعم عليكم هذه النعم، التي بيَّنها لكم في هذه الآيات، وهو أنه {سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ..}".

قال ابن كثير:" يذكر تعالى نعمه على عبيده فيما سخر لهم من البحر".

قوله تعالى: {لِتَجْرِيَ الْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ} [الجاثية:١٢]، أي:" لتسير السفنُ على سطحه بمشيئته وإرادته، دن أن تغوص في أعماقه".

قال مقاتل:" يقول: لكي تجري السفن في البحر {بأمره}، يعني: بإذنه".

قال الطبري: يقول:" {لِتَجْرِيَ} السفن {فيه بأمره} لمعايشكم".

قال ابن كثير:" {لِتَجْرِيَ الْفُلْكُ}، وهي السفن فيه بأمره تعالى، فإنه هو الذي أمر البحر أن يحملها".

عن مجاهد:" {ولِتَجْرِيَ الفُلْكُ بِأَمْرِهِ} قال: السفن في البحار".

عن مجاهد: " الفلك: السفينة".

قال الفخر الرازي:" اعلم أنه تعالى ذكر الاستدلال بكيفية جريان الفلك على وجه

=

=

البحر وذلك لا يحصل إلا بسبب تسخير ثلاثة أشياء:

أحدها: الرياح التي تجري على وفق المراد.

وثانيها: خلق وجه الماء على الملاسة التي تجري عليها الفلك.

ثالثها: خلق الخشبة على وجه تبقى طافية على وجه الماء ولا تغوص فيه.

وهذه الأحوال الثلاثة لا يقدر عليها واحد من البشر، فلا بد من موجد قادر عليها وهو الله سبحانه وتعالى".

قوله تعالى: {وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ} [الجاثية:١٢]، أي:" ولتبتغوا من فضله بأنواع التجارات والمكاسب".

قال الطبري: يقول:" وتصرّفكم في البلاد لطلب فضله فيها".

قال ابن كثير:" أي: في المتاجر والمكاسب".

قال السمعاني:" {من فضله}، من رزقه".

قال مجاهد: "طلب التجارة في السفن".

قال الزمخشري: أي:" بالتجارة أو بالغوص على اللؤلؤ والمرجان واستخراج اللحم الطري وغير ذلك من منافع البحر".

قال الفخر الرازي:" معناه: إما بسبب التجارة، أو بالغوص على اللؤلؤ والمرجان، أو لأجل استخراج اللحم الطري".

قوله تعالى: {وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ} [الجاثية:١٢]، أي:" ولعلكم تشكرون ربكم على تسخيره ذلك لكم، فتعبدوه وحده، وتطيعوه فيما يأمركم به، وينهاكم عنه".

قال الطبري: يقول:" ولتشكروا ربكم على تسخيره ذلك لكم فتعبدوه وتطيعوه فيما يأمركم به، وينهاكم عنه".

قال ابن كثير:" أي: على حصول المنافع المجلوبة إليكم من الأقاليم النائية والآفاق القاصية".

=

=

قال ابن عيينة: "الشكر واجب على كل مسلم؛ لأن الله تعالى قال: {لتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون}، فرزق العباد ليشكروه".

وقوله تعالى: وَسَخَّرَ لَكُمْ ما فِي السَّماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ.. تعميم بعد تخصيص.

أى: يسر لكم الانتفاع بما في البحر من خيرات، ويسر لكم- أيضا- الانتفاع بكل ما في السموات والأرض من نعم لا تعد ولا تحصى، وكلها منه تعالى وحده، لا من أحد سواه.

فقوله: جَمِيعًا حال من وَما فِي الْأَرْضِ، أو تأكيد له. والضمير في قوله تعالى مِنْهُ يعود إلى الله- عز وجل-، والجار والمجرور حال من ما أيضا، أى: جميعا كائنا منه تعالى لا من غيره.

قال صاحب الكشاف: فإن قلت: ما معنى مِنْهُ في قوله: جَمِيعًا مِنْهُ؟ وما موقعها من الإعراب؟.

قلت: هي واقعة موقع الحال. والمعنى: أنه سخر هذه الأشياء كائنة منه وحاصلة من عنده. يعنى أنه مكونها وموجدها بقدرته وحكمته، ثم سخرها لخلقه. ويجوز أن يكون خبر لمبتدأ محذوف تقديره: هي جميعا منه ا.هـ.

إِنَّ فِي ذلِكَ المذكور من تسخير البحر وما في السموات والأرض لكم لَآياتٍ ساطعات، وعلامات واضحات، ودلائل بينات، على وحدانية الله تعالى وقدرته وفضله لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ في هذه النعم، ويحسنون شكرها.

وخص المتفكرين بالذكر، لأنهم هم الذين ينتفعون بما بين أيديهم من نعم، إذ بالتفكر السليم ينتقل العاقل من مرحلة الظن، إلى مرحلة اليقين، التي يجزم معها بأن المستحق للعبادة والحمد، إنما هو الله رب العالمين.

قوله تعالى: {وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ} [الجاثية:١٣]، أي:"

=

=

وسخَّر لكم كل ما في السموات من شمس وقمر ونجوم، وكل ما في الأرض من دابة وشجر وسفن وغير ذلك لمنافعكم".

قال الطبري: يقول:" {وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ} من شمس وقمر ونجوم {وَمَا فِي الأَرْضِ} من دابة وشجر وجبل وجماد وسفن لمنافعكم ومصالحكم".

قال ابن كثير:" أي: من الكواكب والجبال، والبحار والأنهار، وجميع ما تنتفعون به، أي: الجميع من فضله وإحسانه وامتنانه".

قال السمعاني:" {وَسَخَّرَ لَكُمْ}، أي: ذلل، ومعنى: «التسخير والتذليل» خلقها على وجه ينتفع بها العباد، والانتفاع من السماء والأرض معلوم".

قوله تعالى: {جَمِيعًا مِنْهُ} [الجاثية:١٣]، أي:" جميع هذه النعم منة من الله وحده أنعم بها عليكم، وفضل منه تَفضَّل به، فإياه فاعبدوا، ولا تجعلوا له شريكًا".

قال الطبري":"يقول تعالى ذكره: جميع ما ذكرت لكم أيها الناس من هذه النعم، نعم عليكم من الله أنعم بها عليكم، وفضل منه تفضّل به عليكم، فإياه فاحمدوا لا غيره، لأنه لم يشركه في إنعام هذه النعم عليكم شريك، بل تفرّد بإنعامها عليكم وجميعها منه، ومن نعمه فلا تجعلوا له في شكركم له شريكا بل أفردوه بالشكر والعبادة، وأخلصوا له الألوهة، فإنه لا إله لكم سواه".

قال الواحدي:" أيْ: كلُّ ذلك تفضُّلٌ منه وإحسانٌ".

قال ابن كثير:" أي: من عنده وحده لا شريك له في ذلك، كما قال تعالى: {وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ} [النحل: ٥٣]".

قال ابن عباس:" يقول: كل شيء هو من الله، وذلك الاسم فيه اسم من أسمائه، فذلك جميعا منه، ولا ينازعه فيه المنازعون، واستيقن أنه كذلك".

قال الزمخشري:" المعنى: أنه سخر هذه الأشياء كائنة منه وحاصلة من عنده، يعني: أنه مكوّنها وموجدها بقدرته وحكمته، ثم مسخرها لخلقه".

=

=

عن عكرمة، قال: "لم يفسر ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا هذه الآية إلا لندبة القارئ: {وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ}".

عن أبي أراكة قال: "سأل رجل عبد الله بن عمرو قال: مم خلق الخلق؟ قال: من النور والنار، والظلمة والثرى. قال وائت ابن عباس فاسأله. فأتاه فقال له مثل ذلك، فقال: ارجع إليه فسله: مم خلق ذلك كله؟ فرجع إليه فسأله، فتلا {وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ}". قال ابن كثير:" هذا أثر غريب، وفيه نكارة".

عن ابن عباس أنه قرأ: «منة»، أي: سخر ما سخر نعمة من الله".

قوله تعالى: {إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ} [الجاثية:١٣]، أي:" إنَّ فيما سخره الله لكم لعلامات ودلالات على وحدانية الله لقوم يتفكرون في آيات الله وحججه وأدلته، فيعتبرون بها".

قال الطبري: يقول:" إن في تسخير الله لكم ما أنبأكم أيها الناس أنه سخره لكم فى هاتين الآيتين، لعلامات ودلالات على أنه لا إله لكم غيره، الذي أنعم عليكم هذه النعم، وسخر لكم هذه الأشياء التي لا يقدر على تسخيرها غيره لقوم يتفكرون في آيات الله وحججه وأدلته، فيعتبرون بها ويتعظون إذا تدبروها، وفكَّروا فيها".

قال السمعاني:" {يتفكرون}، أي: يتدبرون".

وفي الخبر: «تَفَكَّرُوا فِي الْخلق وَلَا تَفَكَّرُوا فِي الْخَالِق فَإِنَّكُم لَا تقدرون قدره».

ثم أمر الله تعالى نبيه ﷺ أن يحض المؤمنين على التجاوز والصفح، عما يصدر من المشركين من كلمات بذيئة، ومن أفعال قبيحة، حتى يأتى الله بأمره.. فقال تعالى:

قُلْ لِلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللهِ.

ومقول القول محذوف لأن الجواب دال عليه. والرجاء هنا: بمعنى الخوف.

=

=

والمراد بأيام الله: وقائعه بأعدائه.

أى: قل- أيها الرسول الكريم- لأتباعك المؤمنين، على سبيل النصح والإرشاد، قل لهم: اغفروا يغفروا للمشركين الذين لا يخافون من وقائع الله ونقمته بأعدائه، ولا يتوقعون أن هناك عذابا شديدا سينتظرهم، وأن هناك ثوابا عظيما سينتظر المؤمنين.

فالآية الكريمة توجيه حكيم للمؤمنين إلى التسامح والصبر على كيد أعدائهم، حتى يأتى الله تعالى بأمره، الذي فيه النصر للمؤمنين، والخسران للكافرين.

وقوله سبحانه: لِيَجْزِيَ قَوْمًا بِما كانُوا يَكْسِبُونَ علة للأمر بالصفح والمغفرة، وهو متعلق بما قبله، والمراد بالقوم: المؤمنون الذين أمروا بالتسامح والعفو.. والتنكير في لفظ قَوْمًا للتعظيم.

أى: أمر الله المؤمنين بذلك، ليجزيهم يوم القيامة بما كسبوا في الدنيا من الأعمال الصالحة، التي منها الصبر على أذى أعدائهم، والإغضاء عنهم، واحتمال المكروه منهم.

قال صاحب الكشاف: قوله: لِيَجْزِيَ قَوْمًا تعليل للأمر بالمغفرة أى إنما أمروا بأن يغفروا، لما أراده الله من توفيتهم جزاء مغفرتهم يوم القيامة.

فإن قلت: قوله: قَوْمًا ما وجه تنكيره، وإنما أراد الذين آمنوا وهم معارف؟

قلت: هو مدح لهم وثناء عليهم، كأنه قيل: ليجزي أيما قوم. أو قوما مخصوصين، لصبرهم وإغضائهم على أعدائهم من الكفار، وعلى ما كانوا يجرعونهم من الغصص.

قوله تعالى: {قُلْ لِلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللهِ}، أي:" قل -أيها الرسول- للذين صدَّقوا بالله واتَّبَعوا رسله يعفوا، ويتجاوزوا عن الذين لا يرجون ثواب الله، ولا يخافون بأسه إذا هم نالوا الذين آمنوا بالأذى والمكروه".

=

=

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: قل يا محمد للذين صدّقوا الله واتبعوك، يغفروا للذين لا يخافون بأس الله ووقائعه ونقمه إذا هم نالوهم بالأذى والمكروه".

قال السعدي:" يأمر تعالى عباده المؤمنين بحسن الخلق والصبر على أذية المشركين به، الذين لا يرجون أيام الله أي: لا يرجون ثوابه ولا يخافون وقائعه في العاصين".

قال ابن كثير:" أي: يصفحوا عنهم ويحملوا الأذى منهم. وهذا كان في ابتداء الإسلام، أمروا أن يصبروا على أذى المشركين وأهل الكتاب، ليكون ذلك لتأليف قلوبهم، ثم لما أصروا على العناد شرع الله للمؤمنين الجلاد والجهاد".

قال السمعاني:" {للذين لا يرجون أيام الله}، أي: لا يسألون الله نعمه، والمعنى: أنهم لا يعترفون بأن النعم من عند الله، وقيل: لا يرجون أيام الله، أي: لا يخافون عقوبات الله ونقمه. وقيل: لا يطعمون في ثواب، ولا يخافون من عقوبة".

قال الزمخشري: أي:" لا يتوقعون وقائع الله بأعدائه، من قولهم لوقائع العرب: أيام العرب. وقيل: لا يأملون الأوقات التي وقتها الله لثواب المؤمنين ووعدهم الفوز فيها".

عن مجاهد، قوله: " {لِلَّذِينَ لا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللهِ}، قال: لا يُبالون نِعم الله، أو نِقم الله".

قال أبو عبيدة:" {لِلَّذِينَ لا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللهِ}: لا يخافون".

قوله تعالى: {لِيَجْزِيَ قَوْمًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ} [الجاثية:١٤]، أي:" ليجزي الله هؤلاء المشركين بما كانوا يكسبون في الدنيا من الآثام وإيذاء المؤمنين".

قال الطبري:" يقول: ليجزي الله هؤلاء الذين يؤذونهم من المشركين في الآخرة، فيصيبهم عذابه بما كانوا في الدنيا يكسبون من الإثم، ثم بأذاهم أهل الإيمان بالله".

=

=

قال الواحدي:" أَيْ: ليجزيهم {بما كانوا يكسبون} من سوء أعمالهم".
قال السمعاني:" يعني: يوم القيامة، ويقال: ليكون الله تعالى هو المجازي والمنتقم منهم لا أنتم".
قال السعدي:" فإنه تعالى سيجزي كل قوم بما كانوا يكسبون. فأنتم يا معشر المؤمنين يجزيكم على إيمانكم وصفحكم وصبركم، ثوابا جزيلا. وهم إن استمروا على تكذيبهم فلا يحل بكم ما حل بهم من العذاب الشديد والخزي".
قال الزمخشري:" {لِيَجْزِيَ}، تعليل الأمر بالمغفرة، أى: إنما أمروا بأن يغفروا لما أراده الله من توفيتهم جزاء مغفرتهم يوم القيامة. فإن قلت: قوله قَوْمًا ما وجه تنكيره وإنما أراد الذين آمنوا وهم معارف؟ قلت: هو مدح لهم وثناء عليهم، كأنه قيل. ليجزي أيما قوم وقوما مخصوصين، لصبرهم وإغضائهم على أذى أعدائهم من الكفار، وعلى ما كانوا يجرعونهم من الغصص بِما كانُوا يَكْسِبُونَ من الثواب العظيم بكظم الغيظ واحتمال المكروه".
عن سعيد بن المسيب: "كنا بين يدي عمر بن الخطاب رضى الله عنه فقرأ قارئ هذه الآية، فقال عمر: ليجزي عمر بما صنع".
قال ابن عباس:" كان نبي الله ﷺ يعرض عن المشركين إذا آذوه، وكانوا يستهزئون به، ويكذّبونه، فأمره الله ﷻ أن يقاتل المشركين كافّة، فكان هذا من المنسوخ".
عن قتادة في قوله: " {قُلْ لِلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللهِ}، قال: نسختها ما في الأنفال: {فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِمْ مَنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ}، وفي براءة: {قَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً}، أمر بقتالهم حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله".
عن عبيد، قال: "سمعت الضحاك يقول في قوله: {قُلْ لِلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللهِ}، قال: هذا منسوخ، أمر الله بقتالهم في سورة براءة".

=

=

عن أبي صالح: " {قُلْ لِلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللهِ}، قال: نسختها التي في الحج: {أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا}".

قال ابن زيد، في قوله " {قُلْ لِلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللهِ}، قال: هؤلاء المشركون، قال: وقد نسخ هذا وفرض جهادهم والغلظة عليهم".

وقريء «لنجزي»، بالنون على وجه الخبر من الله عن نفسه، وعن أبي جعفر القارئ أنه كان يقرؤه: «لِيُجْزَى قَوْمًا» على مذهب ما لم يسمّ فاعله.

ثم عقب سبحانه على ذلك بما يؤكد عدالة الجزاء، واحتمال كل نفس لما تعمله فقال:

مَنْ عَمِلَ صالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَساءَ فَعَلَيْها.

أى: من عمل عملا صالحا، فثواب هذا العمل يعود إلى نفسه، ومن عمل عملا سيئا فعقاب هذا العمل يعود عليها- أيضا-.

ثُمَّ إِلى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ يوم القيامة فترون ذلك رأى العين، وتشاهدون أن كل إنسان سوف يجازى على حسب عمله، إن خيرا فخير، وإن شرا فشر.

قوله تعالى: {مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا}، أي:" من عمل مِن عباد الله بطاعته فلنفسه عمل، ومن أساء عمله في الدنيا بمعصية الله فعلى نفسه جنى".

قال الطبري: يقول:" من عمل من عباد الله بطاعته فانتهى إلى أمره، وانزجر لنهيه، فلنفسه عمل ذلك الصالح من العمل، وطلب خلاصها من عذاب الله، أطاع ربه لا لغير ذلك، لأنه لا ينفع ذلك غيره، والله عن عمل كل عامل غنيّ، ومن أساء عمله في الدنيا بمعصيته فيها ربه، وخلافه فيها أمره ونهيه، فعلى نفسه جنى، لأنه أوبقها بذلك، وأكسبها به سخطه، ولم يضرّ أحدا سوى نفسه".

قال السمعاني:" {من عمل صالحا فلنفسه} أي: نفع ذلك يعود إليه. {ومن أساء فعليها} أي: وبال ذلك عليه".

=

وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ (١٦).

{وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيل الْكِتَاب} التَّوْرَاة {وَالْحُكْم} بِهِ بَيْن النَّاس {وَالنُّبُوَّة} لِمُوسَى وَهَارُونَ مِنْهُمْ {وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَات} الْحَلَالَاتِ كَالْمَنِّ وَالسَّلْوَى {وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ} عَالِمِي زَمَانِهِمْ الْعُقَلَاء.

وَآتَيْنَاهُمْ بَيِّنَاتٍ مِنَ الْأَمْرِ فَمَا اخْتَلَفُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (١٧).

{وَآتَيْنَاهُمْ بَيِّنَات مِنَ الْأَمْر} أَمْر الدِّين مِنْ الْحَلَال وَالْحَرَام وَبَعْثَة مُحَمَّد عَلَيْهِ أَفْضَل الصَّلَاة وَالسَّلَام {فَمَا اخْتَلَفُوا} فِي بَعْثَته {إِلَّا مِنْ بَعْد مَا جَاءَهُمُ الْعِلْم بَغْيًا بَيْنهمْ} أَيْ لبغي حدث بينهم حسدا له {إِنَّ رَبّك يَقْضِي بَيْنهمْ يَوْم الْقِيَامَة فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ}.

=

قوله تعالى: {ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ} [الجاثية:١٥]، أي:" ثم إنكم -أيها الناس- إلى ربكم تصيرون بعد موتكم، فيجازي المحسن بإحسانه، والمسيء بإساءته".

قال السمعاني:" أي: تردون".

قال مقاتل:" في الآخرة فيجزيكم بأعمالكم".

قال الطبري:" يقول: ثم أنتم أيها الناس أجمعون إلى ربكم تصيرون من بعد مماتكم، فيجازى المحسن منكم بإحسانه، والمسيء بإساءته، فمن ورد عليه منكم بعمل صالح، جوزي من الثواب صالحا، ومن ورد عليه منكم بعمل سيئ جوزي من الثواب سيئا".

قال ابن كثير:" أي: تعودون إليه يوم القيامة فتعرضون بأعمالكم عليه فيجزيكم بأعمالكم خيرها وشرها".

ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ (١٨).

{ثُمَّ جَعَلْنَاك} يَا مُحَمَّد {عَلَى شَرِيعَة} طَرِيقَة {مِنَ الْأَمْر} أَمْر الدِّين {فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِع أَهْوَاء الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ} فِي عِبَادَة غَيْر الله.

إِنَّهُمْ لَنْ يُغْنُوا عَنْكَ مِنَ اللهِ شَيْئًا وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَاللهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ (١٩).

{إِنَّهُمْ لَنْ يُغْنُوا} يَدْفَعُوا {عَنْك مِنَ الله} من عذابه {شيئا وإن الظالمين} الكافرين {بعضهم أولياء بعض والله ولي المتقين.

هَذَا بَصَائِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ (٢٠).

{هَذَا} الْقُرْآن {بَصَائِر لِلنَّاسِ} مَعَالِم يَتَبَصَّرُونَ بِهَا فِي الْأَحْكَام وَالْحُدُود {وَهُدًى وَرَحْمَة لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ} بالبعث[1].

---

(١) المراد بإسرائيل: يعقوب- عليه السلام وببنيه: ذريته من بعده. والمراد بالكتاب: التوراة- أو جنس الكتاب فيشمل التوراة والإنجيل والزبور.

أى: والله لقد أعطينا بنى إسرائيل الْكِتابَ ليكون هداية لهم، وآتيناهم- أيضا- الْحُكْمَ أى: الفقه والفهم للأحكام حتى يتمكنوا من القضاء بين الناس، وأعطيناهم كذلك النُّبُوَّةَ بأن جعلنا عددا كبيرا من الأنبياء فيهم ومنهم.

وهكذا منحهم سبحانه نعما عظمى تتعلق بدينهم، أما النعم التي تتعلق بدنياهم فقد بينها سبحانه في قوله: وَرَزَقْناهُمْ مِنَ الطَّيِّباتِ أى: ورزقناهم من المطاعم والمشارب الطيبات التي جعلناها حلالا لهم.

قوله تعالى: {وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ} [الجاثية:١٦]، أي:" ولقد آتينا بني إسرائيل التوراة والإنجيل والحكم بما فيهما، وجعلنا أكثر =

=

الأنبياء من ذرية إبراهيم عليه السلام فيهم".

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره {وَلَقَدْ آتَيْنَا} يا محمد {بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ} يعني: التوراة والإنجيل، {والحُكْمَ}، يعني: الفهم بالكتاب، والعلم بالسنن التي لم تنزل فى الكتاب، {وَالنُّبُوَّةَ}، يقول: وجعلنا منهم أنبياء ورسُلا إلى الخلق".

قال ابن كثير:" يذكر تعالى ما أنعم به على بني إسرائيل من إنزال الكتب عليهم وإرسال الرسل إليهم، وجعله الملك فيهم".

قال السعدي:" أي: ولقد أنعمنا على بني إسرائيل نعما لم تحصل لغيرهم من الناس، وآتيناهم {الكتاب} أي: التوراة والإنجيل {والحكم} بين الناس {والنبوة} التي امتازوا بها وصارت النبوة في ذرية إبراهيم عليه السلام، أكثرهم من بني إسرائيل".

قال الزمخشري:" {الْكِتابَ}: التوراة، {وَالْحُكْمَ}: الحكمة والفقه. أو فصل الخصومات بين الناس، لأنّ الملك كان فيهم والنبوّة".

قال الماتريدي:" يجوز أن يريد بذكر «الكتاب»: الكتب؛ فإنه أدخل الألف واللام، فيكون لاستغراق الجنس، ويحتمل: أنه أراد به التوراة، كما قال أهل التأويل؛ إذ يجوز أن يذكر اسم العام ويراد به الخاص، وهو الواحد منهم، ويحتمل: أن تكون التوراة هي الكتاب الذي فيه عامة الأحكام، فإنه قيل: إن الزبور ليس فيه الحكم، إنما فيه التسبيح والتحميد، وكذا الإنجيل ليس فيه إلا أحكام قليلة، فيجوز أن يكون المراد: التوراة لهذا، والله أعلم".

وفي قوله تعالى: {وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ} [الجاثية:١٦]، ثلاثة وجوه:

أحدها: أن الحكم: اللب. قاله مجاهد، وعكرمة.

الثاني: أن الحكم: العلم. قاله ابن عباس.

الثالث: -وهو قول قتادة: قوله: " {والحُكْمَ} يريد: الحكمة، وهي السّنة".

=

=

قال الماتريدي:" {وَالْحُكْمَ} : فقه ما في الكتاب؛ إذ الحكم الظاهر داخل تحت قوله: {الْكِتَابَ}، وبين بقوله: {وَالْحُكْمَ} أنه أعطى الحكم الظاهر فيه، والحكم المستخرج منه بالاستنباط والاجتهاد، والله أعلم، ويحتمل أن يراد بالكتاب: هو ما يتلى فيما بينهم وبين ربهم، والحكم هو ما أمرهم فيه أن يحكموا فيما بين العباد، وقوله ﷻ: {وَالنُّبُوَّةَ}، إنما ذكر النبوة؛ لأن النبوة كانت ظاهرة في بني إسرائيل، فإنه ذكر أن في بني إسرائيل كذا كذا رسولا ونبيًّا".

قوله تعالى: {وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ} [الجاثية:١٦]، أي:" ورزقناهم من الطيبات من الأقوات والثمار والأطعمة".

قال الطبري:" يقول: وأطعمناهم من طيبات أرزاقنا، وذلك ما أطعمهم من المنّ والسلوى".

قال ابن كثير:" أي: من المآكل والمشارب".

قال السعدي: أي:" من المآكل والمشارب والملابس وإنزال المن والسلوى عليهم".

قال الماتريدي:" قد كان رزقهم من الطيبات ما ذكر من المن والسلوى، وغير ذلك من الطيبات، ما لا يحصى".

عن مقاتل بن حيان:" {الطيبات}، قال: الطيبات: ما أحل لهم من كل شيء أن يصيبوه وهو الحلال من الرزق".

وقال الكلبي:" يعني: المنَّ والسلوى".

قوله تعالى: {وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ} [الجاثية:١٦]، أي:" وفضَّلناهم على عالمي زمانهم".

قال مجاهد: «على من بين ظهرانيهم».

قال قتادة:" «فضلوا على عالم ذلك الزمان».

=

=

قال أبو العالية:" بما أعطوا من الملك والرسل والكتب، على عالم من كان في ذلك الزمان، فإن لكل زمان عالما".

قال الطبري:" يقول: وفضلناهم على عالمي أهل زمانهم في أيام فرعون وعهده في ناحيتهم بمصر والشام".

قال ابن كثير:" أي: في زمانهم".

قال السعدي:" أي: على الخلق بهذه النعم ويخرج من هذا العموم اللفظي هذه الأمة فإنهم خير أمة أخرجت للناس. والسياق يدل على أن المراد غير هذه الأمة فإن الله يقص علينا ما امتن به على بني إسرائيل وميزهم عن غيرهم، وأيضا فإن الفضائل التي فاق بها بنو إسرائيل من الكتاب والحكم والنبوة وغيرها من النعوت قد حصلت كلها لهذه الأمة، وزادت عليهم هذه الأمة فضائل كثيرة فهذه الشريعة شريعة بني إسرائيل جزء منها، فإن هذا الكتاب مهيمن على سائر الكتب السابقة، ومحمد ﷺ مصدق لجميع المرسلين".

قال الآلوسى: قوله: وَفَضَّلْناهُمْ عَلَى الْعالَمِينَ حيث آتيناهم ما لم نؤت غيرهم من فلق البحر، وإضلال الغمام، ونظائرهما، فالمراد تفضيلهم على العالمين مطلقا من بعض الوجوه، لا من كلها، ولا من جهة المرتبة والثواب فلا ينافي ذلك تفضيل أمة محمد ﷺ عليهم من وجه آخر، ومن جهة المرتبة والثواب ا.هـ.

والثاني: أن المقصود بها: فضلناهم على عالمي زمانهم.

قال الرازي، ما ملخصه: فإن قيل إن تفضيلهم على العالمين، يقتضى تفضيلهم على أمة محمد ﷺ وهذا باطل، فكيف الجواب؟

قلنا: الجواب من وجوه أقربها إلى الصواب أن المراد: فضلتكم على عالمي زمانكم، وذلك لأن الشخص الذي سيوجد بعد ذلك وهو الآن ليس بموجود، لم يكن من جملة العالمين حال عدمه، وأمة محمد ﷺ لم تكن موجودة في ذلك

=

=

الوقت، فلا يلزم من كون بنى إسرائيل أفضل العالمين في ذلك الوقت، أنهم أفضل من الأمة الإسلامية. ا.هـ.

وقال الشنقيطى ما ملخصه: قوله تعالى: وَفَضَّلْناهُمْ عَلَى الْعالَمِينَ.

ذكر سبحانه في هذه الآية أنه فضل بنى إسرائيل على العالمين، كما ذكر ذلك في آيات أخرى.. ولكن الله تعالى بين أن أمة محمد ﷺ خير من بنى إسرائيل، وأكرم على الله، كما صرح بذلك في قوله: كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ.

فخير صيغة تفضيل، والآية نص صريح في أنهم خير من جميع الأمم، بنى إسرائيل وغيرهم.

ويؤيد ذلك من حديث معاوية بن حيدة القشيري، أن النبي ﷺ قال في أمته: أنتم توفون سبعين أمة، أنتم خيرها وأكرمها على الله، وقد رواه عنه الإمام أحمد والترمذي وابن ماجة والحاكم وهو حديث مشهور.

واعلم أن ما ذكرنا من كون الأمة الإسلامية أفضل من بنى إسرائيل وغيرهم، لا يعارض ما ورد من آيات في تفضيل بنى إسرائيل.

لأن ذلك التفضيل الوارد في بنى إسرائيل، ذكر فيهم حال عدم وجود أمة محمد ﷺ والمعدوم في حال عدمه ليس بشيء حتى يفضل على غيره، أو يفضل غيره عليه.

ولكنه تعالى بعد وجود الأمة الإسلامية صرح بأنها خير الأمم، فثبت أن كل ما جاء في القرآن من تفضيل بنى إسرائيل، إنما يراد به ذكر أحوال سابقة.

ثم بين سبحانه نعمة أخرى من النعم التي أنعم بها على بنى إسرائيل فقال: وَآتَيْناهُمْ بَيِّناتٍ مِنَ الْأَمْرِ والبينات جمع بينة، وهي الدليل الواضح الصريح.

ومِنَ بمعنى في.

أى: وأعطيناهم- فضلا عن كل ما سبق- دلائل واضحة، وشرائع بينة تتعلق بأمر

=

=

دينهم، بأن فصلنا لهم الحلال والحرام، والحسن والقبيح، والحق والباطل، فصاروا بذلك على علم تام بشريعتهم، بحيث لا يخفى عليهم شيء مما اشتملت عليه من أوامر أو نواه، أو حلال أو حرام.

فالمقصود من هذه الجملة الكريمة أن الله تعالى قد أعطاهم شريعة واضحة لا غموض فيها ولا التباس، ولا عوج فيها ولا انحراف.

بل إن شريعتهم قد أخبرتهم عن طريق رسلهم بمبعث النبي ﷺ وبوجوب إيمانهم به عند ظهوره، ومن ذلك قوله تعالى: وَإِذْ قالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يا بَنِي إِسْرائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ، مُصَدِّقًا لِما بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْراةِ، وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ، فَلَمَّا جاءَهُمْ بِالْبَيِّناتِ قالُوا هذا سِحْرٌ مُبِينٌ.

ثم بين سبحانه الموقف القبيح الذي وقفه بنو إسرائيل من نعم الله عليهم فقال: فَمَا اخْتَلَفُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ ما جاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ.

والبغي: تجاوز الحق إلى الباطل في كل شيء. يقال بغت المرأة إذا أتت ما لا يحل لها.

وبغى فلان على فلان إذا اعتدى عليه، ومنه قوله تعالى: فَإِنْ بَغَتْ إِحْداهُما عَلَى الْأُخْرى فَقاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلى أَمْرِ اللهِ.

والاستثناء مفرغ من أعم الأحوال أو الأوقات، وقوله: بَغْيًا مفعول لأجله.

أى: أن بنى إسرائيل أنعمنا عليهم بتلك النعم الدينية والدنيوية، فما اختلفوا في أمور دينهم التي وضحناها لهم، إلا عن علم لا عن جهل، ولم يكن خلافهم في حال من الأحوال إلا من أجل البغي والحسد فيما بينهم، لا من أجل الوصول إلى الحق.

فأنت ترى أن الجملة الكريمة توبخ بنى إسرائيل توبيخا شديدا، لأنها بينت أن خلافهم لم يكن عن جهل، وإنما كان عن علم، والاختلاف بعد العلم بالحق أقبح

=

=

وأشنع، وأن اختلافهم لم يكن من أجل الوصول إلى الحق، وإنما كان سببه البغي والحسد.

فهم قد اختلفوا في الحق مع علمهم به، لأن العلم كالمطر، لا تستفيد منه إلا الأرض الطيبة النقية، وكذلك لا يستفيد من العلم إلا أصحاب النفوس الصافية، والقلوب الواعية..

والنفوس عند ما يستولى عليها الهوى، تحول المقتضى إلى مانع.

قال الرازي فقد قال عند تفسيره لهذه الآية ما ملخصه: والمقصود من هذه الجملة، التعجب من أحوالهم، لأن حصول العلم يوجب ارتفاع الخلاف. وهاهنا صار مجيء العلم سببا لحصول الاختلاف، وذلك لأنهم لم يكن مقصودهم من العلم نفس العلم، وإنما المقصود منه طلب الرياسة والبغي ا.هـ.

وقوله تعالى: إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ بيان لحكم الله العادل فيهم.

أى: إن ربك- أيها الرسول الكريم- يقضى بين هؤلاء المختلفين يوم القيامة، بقضائه العادل، بأن ينزل بهم العقاب الذي يستحقونه بسبب ما كانوا يختلفون فيه من أمر الدين، الذي جعل الله أحكامه واضحة لهم، ولا تحتمل الاختلاف أو التنازع.

قوله تعالى: {وَآتَيْنَاهُمْ بَيِّنَاتٍ مِنَ الْأَمْرِ} [الجاثية:١٧]، أي:" وآتينا بني إسرائيل شرائع واضحات في الحلال والحرام، ودلالات تبين الحق من الباطل".

قال الطبري: يقول: " وأعطينا بني إسرائيل واضحات من أمرنا بتنزيلنا إليهم التوراة فيها تفصيل كل شيء".

قال ابن كثير:" أي: حججا وبراهين وأدلة قاطعات، فقامت عليهم الحجج".

قال السعدي:" أي: آتينا بني إسرائيل دلالات تبين الحق من الباطل {مِنَ الأمْرِ} القدري الذي أوصله الله إليهم. وتلك الآيات هي المعجزات التي رأوها على يد

=

موسى عليه السلام، فهذه النعم التي أنعم الله بها على بني إسرائيل تقتضي الحال أن يقوموا بها على أكمل الوجوه وأن يجتمعوا على الحق الذي بينه الله لهم، ولكن انعكس الأمر فعاملوها بعكس ما يجب، وافترقوا فيما أمروا بالاجتماع به".

قال الماتريدي:" قيل: {بَيِّنَاتٍ مِنَ الْأَمْرِ}، أي: ما بين لهم من الحلال والحرام والشبه، ونبأ ما كان قبلهم، والله أعلم، ويحتمل {بَيِّنَاتٍ مِنَ الْأَمْرِ}، أي: بيان ما تقع الحاجة إليه من الأمر".

قوله تعالى: {فَمَا اخْتَلَفُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ} [الجاثية:١٧]، أي:" فما اختلفوا إلا من بعد ما جاءهم العلم، وقامت الحجة عليهم".

قال ابن كثير:" ثم اختلفوا بعد ذلك من بعد قيام الحجة".

قال السعدي:" {فَمَا اخْتَلَفُوا إِلا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ} أي: الموجب لعدم الاختلاف".

قال الماتريدي:" أي: إلا من بعد ما بين لهم أن الألوهية والربوبية له بالدلالة الواضحة والحجة النيرة، وأن له الخلق والأمر؛ إلا أنه ذكر العلم وأراد به أسباب العلم ودلائله".

قوله تعالى: {بَغْيًا بَيْنَهُمْ} [الجاثية:١٧]، أي:" وإنما حَمَلهم على ذلك بَغْيُ بعضهم على بعض؛ طلبًا للرفعة والرئاسة".

قال الطبري: أي: " طلبا للرياسات، وتركا منهم لبيان الله تبارك وتعالى في تنزيله".

قال السمعاني:" أي: حسدا وظلما وعنادا للحق".

قال ابن كثير:" وإنما كان ذلك بغيا منهم على بعضهم بعضا".

قال السعدي:" وإنما حملهم على الاختلاف البغي من بعضهم على بعض والظلم".

قال الزمخشري:" وإنما اختلفوا لبغى حدث بينهم، أو لعداوة وحسد".

=

قوله تعالى: {إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ} [الجاثية:١٧]، أي:" إن ربك -أيها الرسول- يحكم بين المختلفين من بني إسرائيل يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون في الدنيا".

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: إن ربك يا محمد يقضي بين المختلفين من بني إسرائيل بغيا بينهم يوم القيامة، فيما كانوا فيه في الدنيا يختلفون بعد العلم الذي آتاهم، والبيان الذي جاءهم منه، فيفلج المحقّ حينئذ على المبطل بفصل الحكم بينهم".

قال السعدي:" فيميز المحق من المبطل والذي حمله على الاختلاف الهوى أو غيره".

قال ابن كثير:" أي: سيفصل بينهم بحكمه العدل. وهذا فيه تحذير لهذه الأمة أن تسلك مسلكهم، وأن تقصد منهجهم".

ثم أمر الله تعالى رسوله ﷺ أن يتمسك بالدين الذي أوحاه إليه، فقال: ثُمَّ جَعَلْناكَ عَلى شَرِيعَةٍ مِنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْها.

والشريعة في الأصل تطلق على المياه والأنهار التي يقصدها الناس للشرب منها، والمراد بها هنا: الدين والملة، لأن الناس يأخذون منهما ما تحيا به أرواحهم، كما يأخذون من المياه والأنهار ما تحيا به أبدانهم.

قال القرطبي: الشريعة في اللغة: المذهب والملة. ويقال لمشرعة الماء- وهي مورد الشاربة- شريعة. ومنه الشارع لأنه طريق إلى المقصد. فالشريعة: ما شرع الله لعباده من الدين، والجمع الشرائع والشرائع في الدين المذاهب التي شرعها الله تعالى لخلقه ا.هـ.

أى: ثم جعلناك- أيها الرسول الكريم- على شريعة ثابتة، وسنة قويمة، وطريقة حميدة، من أمر الدين الذي أوحيناه إليك، فَاتَّبِعْها اتباعا تاما لا انحراف عنه وَلا

=

=
تَتَّبِعْ أَهْواءَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ من أهل الكفر والضلال والجهل.
وقد ذكروا أن كفار قريش قالوا للنبي ﷺ ارجع إلى دين آبائك، فإنهم كانوا أفضل منك، فنزلت هذه الآية.
قوله تعالى: {ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا} [الجاثية:١٨]، أي:" ثم جعلناك -أيها الرسول- على منهاج واضح من أمر الدين، فاتبع الشريعة التي جعلناك عليها".
قال مقاتل:" يعني: بينة من الأمر، يعني: الإسلام، {فاتبعها}، يقول الله تعالى لنبيه ﷺ: اتبع هذه الشريعة".
قال الطبري:" يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: ثم جعلناك يا محمد من بعد الذي آتينا بني إسرائيل، الذين وصفت لك صفتهم على طريقة وسنة ومنهاج من أمرنا الذي أمرنا به من قبلك من رسلنا، فاتبع تلك الشريعة التي جعلناها لك".
قال السمعاني:" أي: طريق واضح، ويقال: على أمر بين، والشرعة هي المذهب والملة، وكذلك الشريعة".
قال الزمخشري:" {عَلَى شَرِيعَةٍ}: على طريقة ومنهاج، {مِنَ الْأَمْرِ} من أمر الدين، فاتبع شريعتك الثابتة بالدلائل والحجج".
قال السعدي:" أي: ثم شرعنا لك شريعة كاملة تدعو إلى كل خير وتنهى عن كل شر من أمرنا الشرعي {فَاتَّبِعْهَا} فإن في اتباعها السعادة الأبدية والصلاح والفلاح".
قال سهل:" يعني: منهاج سنن من كان من قبلكم من الأنبياء، فإنهم على منهاج الهدى و «الشريعة»: الشارع الممتد الواضح إلى طريق النجاة وسبيل الرشد".
قال الإمام الشافعي:" فأبان الله أن قد فرض على نبيه اتباع أمره، وشهد له بالبلاغ عنه وشهد به لنفسه، ونحن نشهد له به تقربا إلى الله بالإيمان به، وتوسلا إليه
=

بتصديق كلماته".
قال الفراء:" {عَلى شَرِيعَةٍ}، عَلَى دين وملة ومنْهاج".
قال أبو عبيدة:" {عَلى شَرِيعَةٍ}: على طريقة وسنة".
قال ابن قتيبة:" أي: على مِلَّة ومذهب. ومنه يقال: شَرَعت لك كذا، وشَرَع فلان في كذا: إذا أخذ فيه. ومنه: «مَشارِعُ الماء»، وهي: الفُرَض التي يَشْرَع فيها الناس والواردة".
قال الماتريدي:" الشريعة: هي الملة والمذهب، وهي ما شرع فيه ويذهب إليه".
قال النحاس:" الشريعة في اللغة المذهب والملة ومنه شرع فلان في كذا ومنه الشارع لأنه طريق إلى المقصد فالشريعة: ما شرع الله لعباده من الدين والجمع: الشرائع، أي: المذاهب".
عن ابن عباس: " {ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِنَ الأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا}، قال: يقول على هدى من الأمر وبيِّنة".
قال الحسن:" الشريعة: الفريضة".
قال قتادة:" الشريعة: الفرائض والحدود والأمر والنهي فاتبعها".
عن ابن جريج في قوله:" {ثم جعلناك على شريعة}، قال: على طريقة".
قال ابن زيد:" الشريعة: الدين. وقرأ: {شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ}، قال: فنوح أوّلهم وأنت آخرهم".
قال الراغب:" الشَّرْعُ: نهج الطّريق الواضح. يقال: شَرَعْتُ له طريقا، والشَّرْعُ: مصدر، ثم جعل اسما للطريق النّهج فقيل له: شِرْعٌ، وشَرْعٌ، وشَرِيعَةٌ، واستعير ذلك للطريقة الإلهيّة. قال تعالى: {لِكُلٍّ جَعَلْنا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهاجًا} [المائدة: ٤٨]، فذلك إشارة إلى أمرين:
أحدهما: ما سخّر الله تعالى عليه كلّ إنسان من طريق يتحرّاه ممّا يعود إلى مصالح

=

العباد وعمارة البلاد، وذلك المشار إليه بقوله: {وَرَفَعْنا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا} [الزخرف: ٣٢].

الثاني: ما قيّض له من الدّين وأمره به ليتحرّاه اختيارا ممّا تختلف فيه الشّرائع، ويعترضه النّسخ، ودلّ عليه قوله: {ثُمَّ جَعَلْناكَ عَلى شَرِيعَةٍ مِنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْها} [الجاثية: ١٨]".

قوله تعالى: {وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ} [الجاثية:١٨]، أي:" ولا تتبع أهواء الجاهلين بشرع الله الذين لا يعلمون الحق".

قال الطبري:" يقول: ولا تتبع ما دعاك إليه الجاهلون بالله، الذين لا يعرفون الحقّ من الباطل، فتعمل به، فتهلك إن عملت به".

قال مقاتل:" {وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ} توحيد الله، يعني: كفار قريش فيستزلونك عن أمر الله".

قال الزمخشري: أي:" ولا تتبع ما لا حجة عليه من أهواء الجهال. ودينهم المبنى على هوى وبدعة، وهم رؤساء قريش حين قالوا: ارجع إلى دين آبائك. ولا توالهم".

قال السعدي:" أي: الذين تكون أهويتهم غير تابعة للعلم ولا ماشية خلفه، وهم كل من خالف شريعة الرسول ﷺ هواه وإرادته فإنه من أهواء الذين لا يعلمون".

وقوله سبحانه: إِنَّهُمْ لَنْ يُغْنُوا عَنْكَ مِنَ اللهِ شَيْئًا تعليل للنهى عن اتباع أهوائهم.

أى: إنك- أيها الرسول الكريم- إن اتبعت أهواء هؤلاء الضالين، صرت مستحقا لمؤاخذتنا، ولن يستطيع هؤلاء أو غيرهم، أن يدفع عنك شيئا مما أراده الله تعالى بك.

وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِياءُ بَعْضٍ أى: بعضهم نصراء بعض في الدنيا، أما في الآخرة فولايتهم تنقلب إلى عداوة.

=

=

وَاللهُ تعالى هو وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ الذين أنت إمامهم وقدوتهم، فاثبت على شريعتنا التي أوحيناها إليك، لتنال ما أنت أهله من رضانا وعطائنا.

قوله تعالى: {إِنَّهُمْ لَنْ يُغْنُوا عَنْكَ مِنَ اللهِ شَيْئًا} [الجاثية:١٩]، أي:" إن هؤلاء المشركين بربهم الذين يدعونك إلى اتباع أهوائهم لن يغنوا عنك -أيها الرسول- من عقاب الله شيئًا إن اتبعت أهواءهم".

قال الطبري: يقول" إن هؤلاء الجاهلين بربهم، الذين يدعونك يا محمد إلى اتباع أهوائهم، لن يغنوا عنك إن أنت اتبعت أهواءهم، وخالفت شريعة ربك التي شرعها لك من عقاب الله شيئا، فيدفعوه عنك إن هو عاقبك، وينقذوك منه".

قال السعدي:" أي: لا ينفعونك عند الله فيحصلوا لك الخير ويدفعوا عنك الشر إن اتبعتهم على أهوائهم، ولا تصلح أن توافقهم وتواليهم فإنك وإياهم متباينون".

قال سهل:" من استغنى بغير الله فبغناه افتقر ومن اعتز بغيره فبعزه ذل، ألا ترى أن الله يقول: {إِنَّهُمْ لَنْ يُغْنُوا عَنْكَ مِنَ اللهِ شَيْئا}".

قوله تعالى: {وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ} [الجاثية:١٩]، أي:" وإن الظالمين المتجاوزين حدود الله من المنافقين واليهود وغيرهم بعضهم أنصار بعض على المؤمنين بالله وأهل طاعته".

قال الطبري:" يقول: وإن الظالمين بعضهم أنصار بعض، وأعوانهم على الإيمان بالله وأهل طاعته".

قال ابن كثير:" أي: وماذا تغني عنهم ولايتهم لبعضهم بعضا، فإنهم لا يزيدونهم إلا خسارا ودمارا وهلاكا".

قوله تعالى: {وَاللهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ} [الجاثية:١٩]، أي:" والله ناصر المتقين ربَّهم بأداء فرائضه واجتناب نواهيه".

قال الطبري: يقول: " والله يلي من اتقاه بأداء فرائضه، واجتناب معاصيه بكفايته،

=

=

ودفاع من أراده بسوء، يقول جلّ ثناؤه لنبيه عليه الصلاة والسلام فكن من المتقين، يكفك الله ما بغاك وكادك به هؤلاء المشركون، فإنه وليّ من اتقاه، ولا يعظم عليك خلاف من خالف أمره وإن كثر عددهم، لأنهم لن يضرّوك ما كان الله وليك وناصرك".

قال ابن كثير:" وهو تعالى يخرجهم من الظلمات إلى النور، والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات".

قال السعدي:" يخرجهم من الظلمات إلى النور بسبب تقواهم وعملهم بطاعته".

قال الزمخشري:" وأما المتقون: فوليهم الله وهم موالوه. وما أبين الفصل بين الولايتين!".

وقال عطاء: "يريد المهاجرين والأنصار".

قال السدي:" أما الولي: فالذي يتولاه الله ويقر له بالربوبية".

عن الضحاك:" {الْمُتَّقِينَ}، قال: "الذين يتقون الشرك.

عن السدي: " {المتقين}، قال: هم المؤمنون".

ثم أثنى سبحانه على القرآن الكريم الذي أنزله على نبيه ﷺ فقال: هذا بَصائِرُ لِلنَّاسِ وَهُدىً وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ.

والبصائر: جمع بصيرة- وهي للقلب بمنزلة البصر للعين. فهي النور الذي يبصر به القلب هدايته، كما أن البصر هو النور الذي تبصر به العين طريقها.

وقوله: هذا مبتدأ، وبصائر خبره، وجمع الخبر باعتبار ما في القرآن من تعدد الآيات والبراهين.

أى هذا القرآن الذي أنزلناه إليك- أيها الرسول الكريم- بَصائِرُ لِلنَّاسِ لأن ما فيه من حجج وبراهين، تكشف للقلب طريق الحق، كما تكشف العين للإنسان مساره وهو- أيضا- هُدىً أى: هداية عظيمة إلى الرشاد والسعادة وَرَحْمَةٌ واسعة

=

=

لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ أى: لقوم من شأنهم الإيقان بأنه من عند الله تعالى، وبأنك- أيها الرسول الكريم- صادق فيما تبلغه عن ربك.

وخص الموقنين بالذكر، لأنهم هم الذين ينتفعون بحجج القرآن الكريم، وبهداياته، أما الذين في قلوبهم مرض أوشك، فإنهم لا ينتفعون بذلك.

قال تعالى: وَإِذا ما أُنْزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَيُّكُمْ زادَتْهُ هذِهِ إِيماناً، فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزادَتْهُمْ إِيماناً وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ.. وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزادَتْهُمْ رِجْساً إِلَى رِجْسِهِمْ وَماتُوا وَهُمْ كافِرُونَ.

وقال سبحانه: قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدىً وَشِفاءٌ، وَالَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ فِي آذانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى، أُولئِكَ يُنادَوْنَ مِنْ مَكانٍ بَعِيدٍ.

قال الطبري: " يقول تعالى ذكره {هَذَا} الكتاب الذي أنزلناه إليك يا محمد {بَصَائِرَ لِلنَّاسِ} يُبْصِرُون به الحقّ من الباطل، ويعرفون به سبيل الرشاد".

قال مقاتل:" يقول: هذا القرآن بصيرة للناس من الضلالة".

قال أبو عبيدة:" هذا القرآن بصائر للناس".

قال ابن كثير:" {هَذَا بَصَائِرُ لِلنَّاسِ} يعني: القرآن".

قال الزجاج:" {هذا} إشارة إلى القرآن، المعنى: هذا القرآن بصائر للناس".

قال السعدي:" {هَذَا} القرآن الكريم والذكر الحكيم {بَصَائِرِ لِلنَّاسِ} أي: يحصل به التبصرة في جميع الأمور للناس فيحصل به الانتفاع للمؤمنين".

قال الزمخشري:" هذا القرآن {بَصائِرُ لِلنَّاسِ} جعل ما فيه من معالم الدين والشرائع بمنزلة البصائر في القلوب. كما جعل روحا وحياة".

عن قتادة:" {بصائر من ربكم}، أي: بينة من ربكم".

عن قتادة:" {هذا بصائر من ربكم} أي: بَيِّناتٌ؛ فاعْقِلوه".

عن ابن زيد، في قوله " {هَذَا بَصَائِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ}، قال: القرآن. قال:

=

أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا

=

هذا كله إنما هو في القلب. قال: والسمع والبصر في القلب. وقرأ: {فَإِنَّهَا لا تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ}، وليس ببصر الدنيا ولا بسمعها".

قوله تعالى: {وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ} [الجاثية:٢٠]، أي: وهو "هدى ورحمةٌ لقوم يوقنون بحقيقة صحته، وأنه تنزيل من الله العزيز الحكيم".

قال مقاتل:" وهو {هدى} من الضلالة، {ورحمة} من العذاب لمن آمن به {لقوم يوقنون} بالقرآن أنه من الله تعالى".

قال الطبري:" يقول: ورشاد {وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ} بحقيقة صحة هذا القرآن، وأنه تنزيل من الله العزيز الحكيم. وخصّ جلّ ثناؤه الموقنين بأنه لهم بصائر وهدى ورحمة، لأنهم الذين انتفعوا به دون من كذب به من أهل الكفر، فكان عليه عمى وله حزنا".

قال الزمخشري:" وهو هدى من الضلالة، ورحمة من العذاب لمن آمن وأيقن".

قال السعدي:" ويحصل به الهدى والرحمة {لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ} فيهتدون به إلى الصراط المستقيم في أصول الدين وفروعه ويحصل به الخير والسرور والسعادة في الدنيا والآخرة وهي الرحمة. فتزكو به نفوسهم وتزداد به عقولهم ويزيد به إيمانهم ويقينهم، وتقوم به الحجة على من أصر وعاند".

عن قتادة:" {وهدى ورحمة} لَمن آمَن به، وعمِل به، ثُمَّ مات عليه".

عن الشعبي، {هدى}، قال: "من الضلالة".

عن سعيد بن جبير، " {هدى}، يعني: تبيان".

عن السدي، قوله: " {هدى}، قال: نور".

عن أبي العالية في قوله: ورحمة قال: رحمته القرآن".

عن أبي سعيد، قوله:" {ورحمة}، قال: رحمته أن جعلكم من أهل القرآن".

الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ (٢١).

{أَمْ} بِمَعْنَى هَمْزَة الْإِنْكَار {حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا} اكْتَسَبُوا {السَّيِّئَات} الْكُفْر وَالْمَعَاصِي {أَنْ نَجْعَلهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَات سَوَاء} خَبَر {مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتهمْ} مُبْتَدَأ وَمَعْطُوف وَالْجُمْلَة بَدَل مِنْ الْكَاف وَالضَّمِيرَانِ لِلْكُفَّارِ الْمَعْنَى أَحَسِبُوا أَنْ نَجْعَلهُمْ فِي الْآخِرَة فِي خَيْر كَالْمُؤْمِنِينَ فِي رَغَد مِنْ الْعَيْش مُسَاوٍ لِعَيْشِهِمْ فِي الدُّنْيَا حَيْثُ قَالُوا لِلْمُؤْمِنِينَ لَئِنْ بُعِثْنَا لَنُعْطَى مِنْ الْخَيْر مِثْل مَا تُعْطُونَ قَالَ تَعَالَى عَلَى وَفْق إنْكَاره بِالْهَمْزَةِ {سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ} أَيْ لَيْسَ الْأَمْر كَذَلِكَ فَهُمْ فِي الْآخِرَة فِي الْعَذَاب عَلَى خِلَاف عَيْشهمْ فِي الدُّنْيَا وَالْمُؤْمِنُونَ فِي الْآخِرَة فِي الثَّوَاب بِعَمَلِهِمْ الصَّالِحَات فِي الدُّنْيَا مِنْ الصَّلَاة وَالزَّكَاة وَالصِّيَام وَغَيْر ذَلِكَ وَمَا مَصْدَرِيَّة أَيْ بئس حكما حكمهم هذا.

وَخَلَقَ اللهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَلِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (٢٢).

{وخلق الله السماوات و} خلق {الأرض بِالْحَقِّ} مُتَعَلِّق بِخَلَقَ لِيَدُلّ عَلَى قُدْرَته وَوَحْدَانِيّته {وَلِتُجْزَى كُلّ نَفْس بِمَا كَسَبَتْ} مِنْ الْمَعَاصِي والطاعات فلا يساوي الكافر المؤمن {وهم لا يظلمون}.

أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (٢٣).

{أَفَرَأَيْت} أَخْبِرْنِي {مَنِ اتَّخَذَ إلَهه هَوَاهُ} مَا يَهْوَاهُ مِنْ حَجَر بَعْد حَجَر يَرَاهُ أَحْسَن {وَأَضَلَّهُ الله عَلَى عِلْم} مِنْهُ تَعَالَى أَيْ عَالِمًا بِأَنَّهُ مِنْ أَهْل الضَّلَالَة قَبْل خَلْقه {وَخَتَمَ عَلَى سَمْعه وَقَلْبه} فَلَمْ يَسْمَع الْهُدَى وَلَمْ يَعْقِلهُ {وَجَعَلَ عَلَى بَصَره غِشَاوَة} ظُلْمَة فَلَمْ يُبْصِر الْهُدَى وَيُقَدَّر هُنَا الْمَفْعُول الثَّانِي لِرَأَيْت أَيَهْتَدِي

{فَمَنْ يَهْدِيه مِنْ بَعْد الله} أَيْ بَعْد إضْلَاله إيَّاهُ أَيْ لَا يَهْتَدِي {أَفَلَا تَذَكَّرُونَ} تَتَّعِظُونَ فِيهِ إدْغَام إحْدَى التَّاءَيْنِ فِي الذال.

وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ (٢٤).

{وَقَالُوا} أَيْ مُنْكِرُو الْبَعْث {مَا هِيَ} أَيْ الْحَيَاة {إلَّا حَيَاتنَا} الَّتِي فِي {الدُّنْيَا نَمُوت وَنَحْيَا} أَيْ يَمُوت بَعْض وَيَحْيَا بَعْض بِأَنْ يُولَدُوا {وَمَا يُهْلِكنَا إلَّا الدَّهْر} أَيْ مُرُور الزمان قال تعالى {وَمَا لَهُمْ بِذَلِكَ} الْمَقُول {مِنْ عِلْم إنْ} ما {هم إلا يظنون.

وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ مَا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا ائْتُوا بِآبَائِنَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٢٥).

{وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتنَا} مِنْ الْقُرْآن الدَّالَّة عَلَى قُدْرَتنَا عَلَى الْبَعْث {بَيِّنَات} وَاضِحَات حَال {مَا كَانَ حُجَّتهمْ إلَّا أَنْ قَالُوا ائْتُوا بِآبَائِنَا} أَحْيَاء {إنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ} أَنَّا نُبْعَث.

قُلِ اللهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٢٦).

{قُلِ الله يُحْيِيكُمْ} حِين كُنْتُمْ نُطَفًا {ثُمَّ يُمِيتكُمْ ثُمَّ يَجْمَعكُمْ} أَحْيَاء {إلَى يَوْم الْقِيَامَة لَا رَيْب} شَكّ {فِيهِ وَلَكِنَّ أَكْثَر النَّاس} وهم القائلون ما ذكر {لا يعلمون}[1].

---

(١) ذكر سبب النزول.

عن عبد الله بن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا؛ فق قوله تعالى (أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ =

=

اللهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ) قال: كان أحدهم يعبد الحجر، فإذا رأى ما هو أحسن منه؛ رمى به، وعبد الآخر.

أخرجه النسائي في "تفسيره" (٢/ ٢٨٢ رقم ٥٠٥)، والحاكم في "المستدرك" (٢/ ٤٥٢، ٤٥٣) من طريقين عن مطرف عن جعفر عن سعيد بن جبير عنه به.

وصحة هذا الحديث متوقفة على جعفر؛ ففي رواية الحاكم: "جعفر بن إياس" كذا في المخطوط والمطبوع، وفي "تفسير النسائي": جعفر بن أبي المغيرة القمي، فإن كان ابن إياس؛ فهو صحيح، وإن كان ابن أبي المغيرة؛ فهو حسن؛ لأن رواية جعفر بن أبي المغيرة عن سعيد على وجه الخصوص فيها ضعف؛ كما نص على هذا ابن منده.

والله -تعالى- أعلم بالصواب.

والحديث ذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٧/ ٤٢٦) وزاد نسبته للطبري ولابن المنذر وابن مردويه.

ولم نجده في المطبوع من "تفسير الطبري"، وقد أخرجه الطبري في "جامع البيان" (٢٥/ ٩١): ثنا ابن حميد قال: ثنا يعقوب عن جعفر عن سعيد به مرسلًا، ولم يذكر ابن عباس.

* أَمْ في قوله تعالى: أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ منقطعة، وتقدر ببل والهمزة، وما فيها من معنى بل للانتقال من البيان الأول إلى الثاني، والهمزة لإنكار الحسبان.

والاجتراح: الاكتساب، ومنه الجارحة للأعضاء التي يكتسب بها كالأيدى. ويقال: فلان جارحة أهله، أى: هو الذي يكتسب لهم أرزاقهم.

وحسب: فعل ماض، والذين فاعله، وجملة أَنْ نَجْعَلَهُمْ

=

=

ساد مسد المفعولين.

والمعنى: بل أحسب الذين اكتسبوا ما يسوء من الكفر والمعاصي، أن نجعلهم متساوين مع الذين آمنوا وعملوا الأعمال الصالحات في دار الدنيا أو في الدار الآخرة؟

كلا!! لا يستوون فيهما، فإن الذين آمنوا وعملوا الصالحات يحيون في الدنيا حياة طيبة لا مكان فيها للهموم والأحقاد والإحن ببركة إيمانهم، وفي الآخرة ينالون رضا الله تعالى وحسن ثوابه.

أما الذين اجترحوا السيئات فهم في شقاء في الدنيا وفي الآخرة.

قوله تعالى: {أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ} [الجاثية:٢١]، أي:" بل أظنَّ الذين اكتسبوا السيئات، وكذَّبوا رسل الله، وخالفوا أمر ربهم، وعبدوا غيره".

قال الطبري: يقول:" أم ظنّ الذين اجترحوا السيئات من الأعمال في الدنيا، وكذّبوا رسل الله، وخالفوا أمر ربهم، وعبدوا غيره".

قال مقاتل:" يعني: الذين عملوا الشرك، يعني: كفار بني عبد شمس".

قال ابن كثير: {الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ}، أي: عملوها وكسبوها".

قال الفراء:" الاجتراح: الاقتراف، والاكتساب".

قال أبو عبيدة: أي:" اكتسبوا".

قال ابن قتيبة:" أي: اكتسبوها. ومنه قيل لكلاب الصيد: جوارح".

قال الزجاج:" معنى {اجْتَرَحُوا}: اكتسبوا، ويقال: فلانٌ جَارِحةُ أهله، أي: كاسبهم". ومنه قول الحطيئة:

أَلْقَيْتَ كَاسِبَهُمْ فِي قَعْرِ مُظْلِمَةٍ... فاغْفَر هَداكَ مَلِيكُ الناسِ يا عُمَرُ

قوله تعالى: {أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ} [الجاثية:٢١]، أي:" أن نجعلهم كالذين آمنوا بالله، وصدقوا رسله

=

=

وعملوا الصالحات، وأخلصوا له العبادة دون سواه، ونساويَهم بهم في الدنيا والآخرة؟".

قال الطبري: يقول:" أن نجعلهم في الآخرة، كالذين آمنوا بالله وصدّقوا رسله وعملوا الصالحات، فأطاعوا الله، وأخلصوا له العبادة دون ما سواه من الأنداد والآلهة، كلا ما كان الله ليفعل ذلك، لقد ميز بين الفريقين، فجعل حزب الإيمان في الجنة، وحزب الكفر في السعير".

قال مقاتل:" {أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات} من بني هاشم، وبني المطلب، منهم: حمزة، وعلي بن أبي طالب، وعبيدة بن الحارث، وعمر بن الخطاب، {سواء محياهم} في نعيم الدنيا وسواء {مماتهم} فى نعيم الآخرة".

قال ابن كثير:" يقول تعالى: لا يستوي المؤمنون والكافرون، كما قال: {لا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ} [الحشر: ٢٠].. {أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ}، أي: نساويهم بهم في الدنيا والآخرة!.

عن مجاهد، قوله: " {سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ}، قال: المؤمن في الدنيا والآخرة مؤمن، والكافر في الدنيا والآخرة كافر".

عن ليث، قوله: " {سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ}، قال: بعث المؤمن مؤمنا حيا وميتا، والكافر كافرًا حيًا وميتًا".

قال قتادة:" لعمري لقد تفرّق القوم في الدنيا، وتفرّقوا عند الموت، فتباينوا في المصير".

قال الكلبي:"أريد بهم علي بن أبي طالب وحمزة بن عبد المطلب وعبيدة بن الحارث حين برزوا إليهم يوم بدر فقتلوهم".

وقرئ: «سَوَاءٌ»، بالرفع.

=

=

قوله تعالى: {سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ} [الجاثية:٢١]، أي:" قَبُحَ ما يَقْضُون به مِن الحُكْم الجائر الَّذى يُسَوِّى بين المحسنين والمسيئين".

قال الطبري: يقول:" بئس الحكم الذي حسبوا أنا نجعل الذين اجترحوا السيئات والذين آمنوا وعملوا الصالحات، سواء محياهم ومماتهم".

قال مقاتل:" يقول: بئس ما يقضون من الجور حين يرون أن لهم في الآخرة ما للمؤمنين، في الآخرة الدرجات في الجنة ونعيمها للمؤمنين، والكافرون فى النار يعذبون".

قال ابن كثير:" أي: ساء ما ظنوا بنا وبعدلنا أن نُسَاوي بين الأبرار والفجار في الدار الآخرة، وفي هذه الدار".

قال سهل بن عبد الله في الآية:" ليس من أقعد على بساط الموافقة كمن أقيم في مقام المخالفة، فإن بساط الموافقة يجر بصاحبه إلى مقاعد الصدق، ومقام المخالفة يهوي بصاحبه في لظى".

قال الشوكانى قرأ الجمهور سَواءً بالرفع على أنه خبر مقدم. والمبتدأ محياهم ومماتهم. والمعنى إنكار حسبانهم أن محياهم ومماتهم سواء.

وقرأ حمزة والكسائي وحفص سَواءً، بالنصب على أنه حال من الضمير المستتر في الجار والمجرور في قوله: كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ، أو على أنه مفعول ثان لحسب ا.هـ.

وقوله: ساءَ ما يَحْكُمُونَ أى: بئس حكما حكمهم هذا الذي زعموا فيه تسويتنا بين الذين اجترحوا السيئات، والذين آمنوا وعملوا الصالحات.

فالمقصود بهذه الجملة الكريمة، توبيخهم على أحكامهم الباطلة، وأفكارهم الفاسدة.

قال الآلوسى: قوله: ساءَ ما يَحْكُمُونَ. أى: ساء حكمهم هذا، وهو الحكم

=

=

بالتساوي، فما مصدرية، والكلام إخبار عن قبح حكمهم المعهود. ويجوز أن يكون لإنشاء ذمهم على أن ساءَ، بمعنى بئس، فتكون كلمة ما
نكرة موصوفة، وقعت تمييزا مفسرا لضمير الفاعل المبهم والمخصوص بالذم محذوف أى: بئس شيئا حكموا به ذلك.

ثم أكد سبحانه عدم المساواة بين الفريقين فقال: وَخَلَقَ اللهُ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ أى خلقهما خلقا ملتبسا بالحق الذي لا يحوم حوله باطل.

وقوله وَلِتُجْزى كُلُّ نَفْسٍ بِما كَسَبَتْ معطوف على مقدر يفهم من سياق الكلام.

أى: خلقهما بالحق ليبرهن بذلك على وحدانيته وقدرته. ولتجزى كل نفس يوم القيامة بسبب ما اكتسبته من أعمال.

ويصح أن يكون معطوفا على قوله بِالْحَقِّ. أى: خلقهما بالحق المقتضى للعدل بين العباد، ولتجزى كل نفس بما كسبت، فهو من عطف المسبب على السبب.

وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ أى: الخلائق المدلول عليهم بقوله كُلُّ نَفْسٍ لا يلحقهم شيء من الظلم يوم القيامة، لأن الله تعالى قد كتب على نفسه أنه لا يظلم أحدا.

قوله تعالى: {وَخَلَقَ اللهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ} [الجاثية:٢٢]، أي:" وخلق الله السموات والأرض بالحق والعدل والحكمة".

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره: {وَخَلَقَ اللهُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ} للعدل والحقّ، لا لما حسب هؤلاء الجاهلون بالله، من أنه يجعل من اجترح السيئات، فعصاه وخالف أمره، كالذين آمنوا وعملوا الصالحات، في المحيا والممات، إذ كان ذلك من فعل غير أهل العدل والإنصاف، يقول جلّ ثناؤه: فلم يخلق الله السموات والأرض للظلم والجور، ولكنا خلقناهما للحقّ والعدل. ومن الحق أن نخالف بين حكم المسيء والمحسن، في العاجل والآجل".

قال مقاتل:" يقول: لم أخلقهما عبثا لغير شيء، ولكن خلقتهما لأمر هو كائن".

=

=

عن أرْطَأة بن المنذر، قال: سمعتُ ضَمرَة بن حبيب، يقول: "إنّ الله كان على عرشه على الماء، وخلق السماوات والأرض بالحق، وخلق القلم، فكتب به ما هو كائِن مِن خلقه، ثم إنّ ذلك الكتاب سَبَّح الله ومَجَّده ألفَ عام، قبل أن يبدأ شيئًا مِن الخلق".

قال محمد بن إسحاق:" ابتدع السماوات والأرض ولم يكونا إلا بقدرته، لم يستعن على ذلك بأحد من خلقه ولم يشركه في شيء من أمره بسلطانه القاهر وقوله النافذ الذي يقول به لما أراد أن يكون له كن فيكون ففرغ من خلق السماوات والأرض في ستة أيام".

قال السعدي:" أي: خلق الله السماوات والأرض بالحكمة وليعبد وحده لا شريك له".

قوله تعالى: {وَلِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ} [الجاثية:٢٢]، أي:" ولكي تجزى كل نفس في الآخرة بما كسبت مِن خير أو شر، وهم لا يُظْلمون جزاء أعمالهم".

قال الطبري: يقول:"وليثيب الله كلّ عامل بما عمل من عمل خلق السموات والأرض، المحسن بالإحسان، والمسيء بما هو أهله، لا لنبخس المحسن ثواب إحسانه، ونحمل عليه جرم غيره، فنعاقبه، أو نجعل للمسيء ثواب إحسان غيره فنكرمه، ولكن لنجزي كلا بما كسبت يداه، وهم لا يُظلمون جزاء أعمالهم".

قال مقاتل:" يقول: ولكي {تجزى كل نفس بما كسبت}، يعني: بما عملت في الدنيا من خير أو شر، {وهم لا يظلمون} في أعمالهم، يعني: لا ينقصون من حسناتهم، ولا يزاد في سيئاتهم".

قال السعدي:" ثم يجازي بعد ذلك من أمرهم بعبادته وأنعم عليم بالنعم الظاهرة والباطنة هل شكروا الله تعالى وقاموا بالمأمور؟ أم كفروا فاستحقوا جزاء

=

=

الكفور؟".

قال السمعاني: {وهم لا يظلمون}،" أي: لا ينقص من حقوقهم شيء".

قال محمد بن إسحاق:" يجزى بكسبه غير مظلوم، ولا معتدى عليه".

والاستفهام في قوله سبحانه: أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلٰهَهُ هَواهُ للتعجب من حال هؤلاء المشركين، ولتسلية النبي ﷺ عما أصابه منهم من أذى.

والمراد بهواه: ما يستحسنه من تصرفات، حتى ولو كانت تلك التصرفات في نهاية القبح والشناعة والجهالة.

والمعنى: انظر وتأمل- أيها الرسول الكريم- في أحوال هؤلاء الكافرين فإنك لن ترى جهالة كجهالاتهم، لأنهم إذا حسن لهم هواهم شيئا اتخذوه إلها لهم، مهما كان قبح تصرفهم، وانحطاط تفكيرهم، وخضعوا له كما يخضع العابد لمعبوده.

وقوله: وَأَضَلَّهُ اللهُ عَلى عِلْمٍ أى: وأضل الله تعالى هذا الشقي، بأن خلق فيه الضلالة، على علم منه سبحانه بأن هذا الشقي أهل لذلك لاستحبابه العمى على الهدى.

فيكون قوله عَلى عِلْمٍ حال من الفاعل، أى أضله سبحانه حالة كونه عالما بأنه من أهل الضلال.

ويصح أن يكون حالا من المفعول، أى: وأضل الله تعالى هذا الشقي، والحال أن هذا الشقي عالم بطريق الإيمان، ولكنه استحب الغي على الرشد.

وقوله وَخَتَمَ عَلى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ والختم: الوسم بطابع ونحوه، مأخوذ من وضع الخاتم على الشيء، وطبعه فيه للاستيثاق، لكي لا يخرج منه ما بداخله ولا يدخله ما هو خارج عنه.

أى: وطبع على سمعه وقلبه، فجعله لا يسمع سماع تدبر وانتفاع، ولا يفقه ما فيه هدايته ورشده.

=

=

وَجَعَلَ عَلى بَصَرِهِ غِشاوَةً أى: وجعل على بصره غطاء، يحجب عنه الرؤية السليمة للأشياء وأصل الغشاوة ما يغطى به الشيء، من غشاه إذا غطاه.

والاستفهام في قوله تعالى: فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللهِ للإنكار والنفي.

أى: لا أحد يستطيع أن يهدى هذا الإنسان الذي اتخذ إلهه هواه من بعد أن أضله الله - ﷻ.

أَفَلا تَذَكَّرُونَ أى: أفلا تتفكرون وتتأملون فيما سقت لكم من مواعظ وعبر، تفكرا يهديكم إلى الرشد، ويبعثكم على الإيمان.

قال ابن عباس -من طريق سعيد بن جُبير-:" كان الرجلُ مِن العرب يعبد الحَجر، فإذا وجد أحسنَ منه أخذه وألقى الآخر؛ فأنزل الله: {أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ}".

قوله تعالى: {أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ} [الجاثية:٢٣]، أي:" أفرأيت -أيها الرسول- من اتخذ هواه إلهًا له، فلا يهوى شيئًا إلا فَعَله".

قال ابن كثير:" أي: إنما يأتمر بهواه، فمهما رآه حسنا فعله، ومهما رآه قبيحا تركه: وهذا قد يستدل به على المعتزلة في قولهم بالتحسين والتقبيح العقليين".

قال سهل بن عبد الله:" يعني: أفرأيت من كان مغمورًا في لذة نفسه من الدنيا، غير ورع ولا تقي، فاتبع مراده ولم يسلك مسالك الاقتداء، وآثر شهوات الدنيا على نعيم العقبى، أنى تكون له في الآخرة من الدرجات الرفيعة والمنازل السنية".

وفي قوله تعالى: {أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ} [الجاثية:٢٣]، ثلاثة وجوه من التفسير:

أحدها: أفرأيت من اتخذ دينه ما يهواه، فلا يهوى شيئًا إلا ركبه، قاله ابن عباس، وقتادة.

قال الحسن:" لا يهوى شيئا إلا اتبعه".

=

=

قال الحسن:" ذلك المنافق نصب هواه فما هوى من شيء ركبه".

قال قتادة:" لا يهوي شيئا إلا ركبه لا يخاف الله".

قال قتادة:" والله لكلما هوي شيئا ركبه وكلما اشتهى شيئا أتاه لا يحجزه، عن ذلك ورع ولا تقوى".

قال ابن عباس:" ذلك الكافر اتخذ دينه بغير هدى من الله ولا برهان".

قال مقاتل:" يعني: الحارث بن قيس السهمي اتخذ إلهه هوى، وكان من المستهزئين وذلك أنه هوى الأوثان فعبدها".

قال الزمخشري:" أي: هو مطواع لهوى النفس يتبع ما تدعوه إليه، فكأنه يعبده كما يعبد الرجل إلهه".

قال السعدي:" فما هويه سلكه سواء كان يرضي الله أو يسخطه".

الثاني: أفرأيت من جعل إلهه الذي يعبده ما يهواه ويستحسنه، فإذا استحسن شيئًا وهو به اتخذه إلهًا، قاله عكرمة، وسعيد بن جبير.

قال سعيد بن جبير:" كانت العربُ يعبدون الحجارةَ والذّهبَ والفِضّةَ، فإذا وجدوا شيئًا أحسنَ مِن الأول رمَوه أو كسروه، وعبدوا الآخر".

قال سفيان الثوري:" كانوا يعبدون الحجَر، فإذا وجدوا حجرًا أحسن منه طرحوه، وأخذوا الحسن. قال سفيان: وإنما عبدوا الحجارة لأن البيت حجارة".

قال سفيان بن عيينة: "إنما عبدوا الحجارة لأن البيت حجارة".

الثالث: أفرأيت من ينقاد لهواه انقياده لإلهه ومعبوده تعجبًا لذوي العقول من هذا الجهل. حكاه الماوردي.

والصواب" قول من قال: معنى ذلك: أفرأيت يا محمد من اتخذ معبوده هواه، فيعبد ما هوي من شيء دون إله الحقّ الذي له الألوهة من كلّ شيء، لأن ذلك هو الظاهر من معناه دون غيره".

=

=

قال الشعبي:" إنّما سُمي: الهوى؛ لأنه يهوِي بصاحبه في النار".

قال ابن عباس:" ما ذَكر اللهُ ﷻ هوًى في القرآن إلّا ذمَّه".

عن أنس، قال: قال ﷺ: «ثلاث مُهلكات: شُحٌّ مُطاع، وهوًى مُتَّبع، وإعجاب المرء بنفسه».

عن أبي أُمامة، عن النبي ﷺ، أنّه قال: «ما عُبِد تحت ظِلِّ السماء أبغضُ إلى الله مِن هوًى».

قوله تعالى: {وَأَضَلَّهُ اللهُ عَلَى عِلْمٍ} [الجاثية:٢٣]، أي:" وأضلَّه الله بعد بلوغ العلم إليه وقيام الحجة عليه".

قال الطبري: يقول: "وخذله عن محجة الطريق، وسبيل الرشاد في سابق علمه على علم منه بأنه لا يهتدي، ولو جاءته كل آية".

قال ابن عباس:" يقول: أضله الله في سابق علمه".

وقال سعيد بن جبير: "على علمه فيه".

قال سهل بن عبد الله:" أي: على علم الله السابق فيه بترك عصمته ومعونته".

قال السعدي:" {وَأَضَلَّهُ اللهُ عَلَى عِلْمٍ} من الله تعالى أنه لا تليق به الهداية ولا يزكو عليها".

قال ابن كثير:" قوله: {وَأَضَلَّهُ اللهُ عَلَى عِلْمٍ} يحتمل قولين:

أحدها: وأضله الله لعلمه أنه يستحق ذلك.

والآخر: وأضله الله بعد بلوغ العلم إليه، وقيام الحجة عليه".

قال ابن كثير:"والثاني يستلزم الأول، ولا ينعكس".

قوله تعالى: {وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ} [الجاثية:٢٣]، أي:" وطبع على سمعه فلا يسمع مواعظ الله، ولا يعتبر بها، وطبع على قلبه، فلا يعقل به شيئًا".

قال الطبري: يقول:" وطَبَع على سمعه أن يسمع مواعظ الله وآي كتابه، فيعتبر بها

=

=

ويتدبرها، ويتفكر فيها، فيعقل ما فيها من النور والبيان والهدى، وطبع أيضًا على قلبه، فلا يعقل به شيئا، ولا يعي به حقا".

قال مقاتل:" يقول: وطبع على سمعه فلا يسمع الهدى وعلى قلبه فلا يعقل الهدى".

قال ابن كثير:" أي: فلا يسمع ما ينفعه، ولا يعي شيئا يهتدي به".

قوله تعالى: {وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً} [الجاثية:٢٣]، أي:" وجعل على بصره غطاء، فلا يبصر به حجج الله؟".

قال الطبري:" يقول: وجعل على بصره غشاوة أن يبصر به حجج الله، فيستدّل بها على وحدانيته، ويعلم بها أن لا إله غيره".

قال السعدي:" {وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً} تمنعه من نظر الحق".

قال ابن كثير: أي:"ولا يرى حجة يستضيء بها".

وقرئ: «غَشْوَةً»، بمعنى: أنه غشاه شيئا في دفعة واحدة، ومرّة واحدة، بفتح الغين بغير ألف.

قوله تعالى: {فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللهِ} [الجاثية:٢٣]، أي:" فمن يوفقه لإصابة الحق والرشد بعد إضلال الله إياه؟".

قال الطبري: يقول:" فمن يوفِّقه لإصابة الحقّ، وإبصار محجة الرشد بعد إضلال الله إياه".

قال السعدي:" أي: لا أحد يهديه وقد سد الله عليه أبواب الهداية وفتح له أبواب الغواية، وما ظلمه الله ولكن هو الذي ظلم نفسه وتسبب لمنع رحمة الله عليه".

قوله تعالى: {أَفَلَا تَذَكَّرُونَ} [الجاثية:٢٣]، أي:" أفلا تذكرون -أيها الناس- فتعلموا أنَّ مَن فَعَل الله به ذلك فلن يهتدي أبدًا، ولن يجد لنفسه وليًا مرشدًا؟".

قال الطبري: يقول:" {أَفَلا تَذَكَّرُونَ} أيها الناس، فتعلموا أن من فعل الله به ما

=

=

وصفنا، فلن يهتدي أبدا، ولن يجد لنفسه وليا مرشدا".

قال السعدي:" {أَفَلا تَذَكَّرُونَ} ما ينفعكم فتسلكونه وما يضركم فتجتنبونه".

فأنت ترى أن هذه الآية الكريمة، تسلية للرسول ﷺ عما أصابه من المشركين، وتعجيب من أحوالهم التي بلغت الغاية في الجهالة والضلالة. ودعوة لهم إلى التذكر والاعتبار، لأن ذلك ينقلهم من الكفر إلى الإيمان.

ثم حكى سبحانه بعد ذلك جانبا من أقوالهم الباطلة فقال: (وَقالُوا ما هِيَ إِلَّا حَياتُنَا الدُّنْيا نَمُوتُ وَنَحْيا وَما يُهْلِكُنا إِلَّا الدَّهْرُ).

أى: وقال هؤلاء المشركون على سبيل الجهل والعناد والجحود للحق، ما الحياة إلا هذه الحياة الدنيوية التي نحياها فيها، وليس هناك حياة سواها، فنحن نموت ثم يحيا أولادنا من بعدنا أو يموت بعضنا ويحيا البعض الآخر إلى زمن معين، أو نكون أمواتا في أصلاب آبائنا، ثم نحيا بعد ذلك عند الولادة.

وَما يُهْلِكُنا عند انتهاء آجالنا إِلَّا الدَّهْرُ أى: إلا مرور الزمان، وكر الأعوام وتقلب الشهور والأيام.

وقوله تعالى: وَما لَهُمْ بِذلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ رد عليهم فيما قالوه من أقوال باطلة تتعلق بإنكارهم للبعث والحساب.

أى: وليس لهم فيما زعموه من إنكارهم للبعث من علم مستند إلى نقل أو عقل، إن هم إلا يظنون ظنا مبنيا على الوهم والضلال.

قوله تعالى: {وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا} [الجاثية:٢٤]، أي:" وقال هؤلاء المشركون: ما الحياة إلا حياتنا الدنيا التي نحن فيها، يموت بعضنا ويحيا بعضنا، ولا حياة سواها؛ تكذيبا منهم بالبعث بعد الممات".

قال مقاتل:" يعني: نموت نحن، ويحيا آخرون، فيخرجون من أصلابنا، فنحن كذلك فما نبعث أبدا".

=

قال السعدي:" أي: إن هي إلا عادات وجري على رسوم الليل والنهار يموت أناس ويحيا أناس وما مات فليس براجع إلى الله ولا مجازى بعمله".

قال الطبري:" وقال هؤلاء المشركون الذين تقدّم خبره عنهم: ما حياة إلا حياتنا الدنيا التي نحن فيها لا حياة سواها تكذيبا منهم بالبعث بعد الممات، نموت نحن ونحيا وتحيا أبناؤنا بعدنا، فجعلوا حياة أبنائهم بعدهم حياة لهم، لأنهم منهم وبعضهم، فكأنهم بحياتهم أحياء، وذلك نظير قول الناس: ما مات من خلف ابنا مثل فلان، لأنه بحياة ذكره به، كأنه حيّ غير ميت، وقد يحتمل وجها آخر، وهو أن يكون معناه: نحيا ونموت على وجه تقديم الحياة قبل الممات، كما يقال: قمت وقعدت، بمعنى: قعدت وقمت؛ والعرب تفعل ذلك في الواو خاصة إذا أرادوا الخبر عن شيئين أنهما كانا أو يكونان، ولم تقصد الخبر عن كون أحدهما قبل الآخر، تقدم المتأخر حدوثا على المتقدم حدوثه منهما أحيانا، فهذا من ذلك، لأنه لم يقصد فيه إلى الخبر عن كون الحياة قبل الممات، فقدّم ذكر الممات قبل ذكر الحياة، إذ كان القصد إلى الخبر عن أنهم يكونون مرّة أحياء وأخرى أمواتا".

قال السعدي:" {وَقَالُوا} أي: منكرو البعث {مَا هِيَ إِلا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلا الدَّهْرُ} أي: إن هي إلا عادات وجري على رسوم الليل والنهار يموت أناس ويحيا أناس وما مات فليس براجع إلى الله ولا مجازى بعمله".

قال الزمخشري: {نَمُوتُ وَنَحْيا}، أي:"نموت نحن ويحيا أولادنا. أو يموت بعض ويحيا بعض. أو نكون مواتا نطفا في الأصلاب، ونحيا بعد ذلك. أو يصيبنا الأمران: الموت والحياة، يريدون: الحياة في الدنيا والموت بعدها، وليس وراء ذلك حياة".

قال ابن كثير:" يخبر تعالى عن قول الدهرية من الكفار ومن وافقهم من مشركي العرب في إنكار المعاد: {وَقَالُوا مَا هِيَ إِلا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا}، أي: ما ثم

=

إلا هذه الدار، يموت قوم ويعيش آخرون وما ثم معاد ولا قيامة وهذا يقوله مشركو العرب المنكرون للمعاد، ويقوله الفلاسفة الإلهيون منهم، وهم ينكرون البداءة والرجعة، ويقوله الفلاسفة الدهرية الدورية المنكرون للصانع المعتقدون أن في كل ستة وثلاثين ألف سنة يعود كل شيء إلى ما كان عليه. وزعموا أن هذا قد تكرر مرات لا تتناهى، فكابروا المعقول وكذبوا المنقول".

قال النحاس:" يقال هم لا يقرون بالبعث فما معنى {نموت ونحيا}؟ ففيه ثلاثة أجوبة: منها ان المعنى: يموت بعضنا ويحيا بعض. ومنه: أن في الكلام تقديما وتأخيرا وأن المعنى: نحيا ونموت. والجواب الثالث أن معنى {نموت} نخلق مواتا ثم نحيا في الدنيا".

عن قتادة: " {وَقَالُوا مَا هِيَ إِلا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا}، أي: لعمري هذا قول مشركي العرب".

قوله تعالى: {وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ} [الجاثية:٢٤]، أي:" وما يهلكنا إلا مرُّ الليالي والأيام وطول العمر".

قال مقاتل:" يقول: وما يميتنا إلا طول العمر، وطول اختلاف الليل والنهار، ولا نبعث".

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره مخبراً عن هؤلاء المشركين أنهم قالوا: وما يهلكنا فيفنينا إلا مرّ الليالي والأيام وطول العمر، إنكارًا منهم أن يكون لهم ربّ يفنيهم ويهلكهم".

قال الزجاج:" أي: ابتداؤنا موات في أصل الخلقة، ثم نحيا ثم يهلكنا الدَّهْر".

وفي قوله تعالى: {وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ} [الجاثية:٢٤]، وجوه من التفسير:

أحدها: وما يهلكنا إلا العمر، قاله قتادة. وأنشد قول الشاعر:

لكل أمر أتى يومًا له سبب... والدهر فيه وفي تصريفه عجب

=

=

الثاني: وما يهلكنا إلا الزمان، قاله مجاهد.

وقال الفراء:" يقولون: إلّا طول الدهر، ومرور الأيام والليالي والشهور والسنين".

قال ابن قتيبة:" مرور السنين والأيام".

قال ابن عطية:" أي: طول الزمان هو المهلك، لأن الآفات تستوي فيه كمالاتها".

قال الزمخشري: "كانوا يزعمون أنّ مرور الأيام والليالي هو المؤثر في هلاك الأنفس، وينكرون ملك الموت وقبضه الأرواح بأمر الله، وكانوا يضيفون كل حادثة تحدث إلى الدهر والزمان، وترى أشعارهم ناطقة بشكوى الزمان".

الثالث: وما يهلكنا إلا الموت، قاله قطرب، وأنشد لأبي ذؤيب:

أمن المنون وريبها تتوجع... والدهر ليس بمعتب من يجزع

الرابع: وما يهلكنا إلا الله، قاله عكرمة.

وروي عن أبي هريرة، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: "يقول الله تعالى: يؤذيني ابن آدم؛ يسب الدهر وأنا الدهر، بيدي الأمر، أقلب ليله ونهاره". وفي رواية: "لا تسبوا الدهر، فإن الله هو الدهر".

عن أبي هريرة، رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: " يقول الله استقرضت عبدي فلم يعطني، وسبني عبدي يقول: وادهراه، وأنا الدهر".

قال الشافعي وأبو عبيدة وغيرهما من الأئمة في تفسير قوله، عليه الصلاة والسلام: «لا تسبوا الدهر؛ فإن الله هو الدهر»: " إنما تأويله - والله أعلم - أن العرب كان من شأنها أن تذم الدهر، وتسبه عند المصائب التي تنزل بهم: من موت، أو هدم، أو تلف مال أو غير ذلك، وتسب الليل والنهار - وهما: الجديدان، والفتيان - ويقولون: أصابتهم قوارع الدهر، وأبادهم الدهر، وأتى عليهم؛ فيجعلون الليل والنهار اللذين يفعلان ذلك، فقال رسول الله ﷺ: "لا تسبوا الدهر... " الحديث. على أنه الذي يفعل بكم هذه الأشياء؛ فإنكم إن سببتم فاعل هذه الأشياء، فإنما

=

=

تسبون الله ﷻ، فإن الله تعالى فاعل هذه الأشياء".

قال ابن كثير:"وهذا أحسن ما قيل في تفسيره، وهو المراد، والله أعلم. وقد غلط ابن حزم ومن نحا نحوه من الظاهرية في عدهم الدهر من الاسم اء الحسنى، أخذا من هذا الحديث".

وفي قراءة عبد الله: «وَمَا يُهْلِكُنَا إِلا دَهْرٌ يَمُرُّ».

قوله تعالى: {وَمَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ} [الجاثية:٢٤]، أي:" وما لهؤلاء المشركين من علم بذلك".

قال الزمخشري: أي:"وما يقولون ذلك عن علم".

قال ابن عطية:" فنفى الله تعالى علمهم بهذا".

قوله تعالى: {إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ} [الجاثية:٢٤]، أي:" ما هم إلا يتكلمون بالظن والوهم والخيال".

قال الزجاج:" المعنى: ما هم إِلَّا يَظُنُّون".

قال ابن كثير:" أي: يتوهمون ويتخيلون".

قال السمعاني:" أي: قالوا ما قالوه على ظن وشك لا عن علم ويقين".

عن مجاهد:" {وإن هم إلا يظنون} [البقرة: ٧٨]، يعني: يكذبون".

عن ابي العالية:" {وإن هم إلا يظنون}، يظنون الظنون بغير الحق". وروي عن قتادة، والربيع بن أنس نحو ذلك.

قال السعدي:" فأنكروا المعاد وكذبوا الرسل الصادقين من غير دليل دلهم على ذلك ولا برهان، إن هي إلا ظنون واستبعادات خالية عن الحقيقة".

قال ابن عطية:" أعلم أنها ظنون وتخرص تفضي بهم إلى الإشراك بالله تعالى".

وَإِذا تُتْلى عَلَيْهِمْ آياتُنا بَيِّناتٍ أى: وإذا تليت عليهم آيات القرآن، الواضحة في دلالتها على أن يوم القيامة حق، وأن الحساب حق.

=

=

ما كانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّا أَنْ قالُوا ائْتُوا بِآبائِنا إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ أى: ما كان ردهم على من يذكرهم بالبعث إلا أن قالوا لهم: أعيدوا إلينا آباءنا الذين ماتوا إن كنتم صادقين في قولكم: إن هناك بعثا وحسابا وثوابا وعقابا.

وقوله حُجَّتَهُمْ- بالنصب- خبر كان، واسمها قوله: إِلَّا أَنْ قالُوا.

وسمى سبحانه أقوالهم مع بطلانها حجة، على سبيل التهكم بهم، والاستهزاء بهذه الأقوال.

قوله تعالى: {وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ} [الجاثية:٢٥]، أي:" إذا تتلى على هؤلاء المشركين المكذبين بالبعث آياتنا واضحات".

قال مقاتل:" يعني: القرآن، {بينات}، يعني: واضحات من الحلال والحرام".

قال ابن كثير:" أي: إذا استدل عليهم وبين لهم الحق، وأن الله قادر على إعادة الأبدان بعد فنائها وتفرقها".

عن سعيد بن جبير: " {آياتنا}، يعني: القرآن".

قوله تعالى: {مَا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا ائْتُوا بِآبَائِنَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ} [الجاثية:٢٥]، أي:" لم يكن لهم حجة إلا قولهم للرسول محمد ﷺ: أحْيِ أنت والمؤمنون معك آباءنا الذين قد هلكوا، إن كنتم صادقين فيما تقولون".

قال ابن كثير:" أي: أحيوهم إن كان ما تقولونه حقا".

قال مقاتل:" {مَا كَانَ حُجَّتَهُمْ} حين خاصموا النبي ﷺ في «الرعد» حين قالوا سير لنا الجبال، وسخر لنا الرياح، وابعث لنا رجلين أو ثلاثة من قريش من آبائنا، منهم قصي بن كلاب فإنه كان صدوقا وكان إمامهم، فنسألهم عما تخبرنا به أنه كائن بعد الموت، فذلك قوله تعالى: {مَا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا} للنبي ﷺ: {ائْتُوا بِآبَائِنَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ}، هذا قول أبي جهل للنبي ﷺ قال: ابعث لنا رجلين أو ثلاثة إن كنت من الصادقين بأن البعث حق".

=

=

قال الشوكاني:" أي: ما كان لهم حجة ولا متمسك إلا هذا القول الباطل الذي ليس من الحجة في شيء، وإنما سماه حجة تهكما بهم".

قال السعدي:" وهذا جراءة منهم على الله، حيث اقترحوا هذا الاقتراح وزعموا أن صدق رسل الله متوقف على الإتيان بآبائهم، وأنهم لو جاءوهم بكل آية لم يؤمنوا إلا إن تبعتهم الرسل على ما قالوا، وهم كذبة فيما قالوا وإنما قصدهم دفع دعوة الرسل لا بيان الحق".

قال الزمخشري: " فإن قلت: لم سمى قولهم حجة وليس بحجة؟ قلت: لأنهم أدلوا به كما يدلى المحتج بحجته وساقوه مساقها، فسميت حجة على سبيل التهكم. أو لأنه في حسبانهم وتقديرهم حجة. أو لأنه في أسلوب قوله:

تحيّة بينهم ضرب وجيع

كأنه قيل: ما كان حجتهم إلا ما ليس بحجة. والمراد: نفى أن تكون لهم حجة البتة".

ثم ختم سبحانه هذه الآية بأمر النبي ﷺ بأن يرد عليهم بما يخرس ألسنتهم فقال: قُلِ اللهُ يُحْيِيكُمْ أى: وأنتم في الدنيا ثُمَّ يُمِيتُكُمْ عند انقضاء آجالكم في الدنيا، ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلى يَوْمِ الْقِيامَةِ بأن يعيدكم إلى الحياة مرة أخرى للحساب والجزاء، وهذا اليوم وهو يوم القيامة آت لا رَيْبَ فِيهِ ولا شك في حدوثه.

وَلكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ ذلك، لاستيلاء الهوى والشيطان على قلوبهم، ولو عقلوا لعلموا أن من أنشأ الإنسان من العدم، قادر على إعادته بعد موته من باب أولى.

قوله تعالى: {قُلِ اللهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ} [الجاثية:٢٦]، أي:" قل -أيها الرسول- لهؤلاء المشركين المكذبين بالبعث: الله سبحانه وتعالى يحييكم في الدنيا ما شاء لكم الحياة، ثم يميتكم فيها".

=

قال مقاتل:" قال الله تعالى قل لهم يا محمد {اللهُ يُحْيِيكُمْ} حين كانوا نطفة {ثُمَّ يُمِيتُكُمْ} عند أجالكم".

قال ابن كثير:" {قُلِ اللهُ يُحْيِيكُمْ}، أي: كما تشاهدون ذلك يخرجكم من العدم إلى الوجود، {كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ} [البقرة: ٢٨] أي: الذي قدر على البداءة قادر على الإعادة بطريق الأولى والأحرى.. {وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ} [الروم ٢٧]".

قال الشوكاني:" أمر الله سبحانه رسوله ﷺ أن يرد عليهم فقال: {قُلِ اللهُ يُحْيِيكُمْ} في الدنيا {ثُمَّ يُمِيتُكُمْ} عند انقضاء آجالكم".

قوله تعالى: {ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ} [الجاثية:٢٦]، أي:" ثم يجمعكم جميعا أحياء إلى يوم القيامة لا شك فيه".

قال ابن كثير:" أي: إنما يجمعكم ليوم القيامة لا يعيدكم في الدنيا حتى تقولوا: {ائْتُوا بِآبَائِنَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ} {يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ} [التغابن: ٩]، {لأَيِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ. لِيَوْمِ الْفَصْلِ} [المرسلات: ١٢، ١٣]، {وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلا لأَجَلٍ مَعْدُودٍ} [هود: ١٠٤] وقال هاهنا: {ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لا رَيْبَ فِيهِ}، أي: لا شك فيه".

قال الشوكاني:" {ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ} بالبعث والنشور، {لا رَيْبَ فِيهِ}، أي: في جمعكم، لأن من قدر على ابتداء الخلق قدر على إعادته".

عن قتادة: " {لا ريب فيه} [البقرة: ٢]، يقول: «لا شك فيه»". وروي عن مجاهد، والسدي، عطاء والربيع بن انس، مثل ذلك.

قال الزمخشري:" لما أنكروا البعث وكذبوا الرسل، وحسبوا أنّ ما قالوه قول مبكت. ألزموا ما هو مقرّون به: من أنّ الله ﷻ هو الذي يحييهم ثم يميتهم، وضم إلى إلزام ذلك إلزام ما هو واجب الإقرار به إن أنصفوا وأصغوا إلى داعى الحق،

وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ الْمُبْطِلُونَ (٢٧).

{ولله ملك السماوات وَالْأَرْض وَيَوْم تَقُوم السَّاعَة} يُبْدَل مِنْهُ {يَوْمئِذٍ يَخْسَر الْمُبْطِلُونَ} الْكَافِرُونَ أَيْ يَظْهَر خُسْرَانهمْ بِأَنْ يَصِيرُوا إِلَى النَّار.

وَتَرَى كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَى إِلَى كِتَابِهَا الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٢٨).

{وَتَرَى كُلّ أُمَّة} أَيْ أَهْل دِين {جَاثِيَة} عَلَى الرُّكَب أَوْ مُجْتَمِعَة {كُلّ أُمَّة تُدْعَى إِلَى كِتَابهَا} كِتَاب أَعْمَالهَا وَيُقَال لَهُمْ {الْيَوْم تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ} أَيْ جَزَاءَهُ.

هَذَا كِتَابُنَا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٢٩).

=

وهو جمعهم إلى يوم القيامة، ومن كان قادرا على ذلك كان قادرا على الإتيان بآبائهم، وكان أهون شيء عليه".

قوله تعالى: {وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ} [الجاثية:٢٦]، أي:" ولكن أكثر الناس لا يعلمون قدرة الله على إماتتهم، ثم بعثهم يوم القيامة".

قال ابن كثير:" أي: فلهذا ينكرون المعاد، ويستبعدون قيام الأجساد".

قال الشوكاني:" {وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ} بذلك، فلهذا حصل معهم الشك في البعث، وجاءوا في دفعه بما هو أوهن من بيت العنكبوت، ولو نظروا حق النظر لحصلوا على العلم اليقين، واندفع عنهم الريب، وأراحوا أنفسهم من ورطة الشك والحيرة".

قال السعدي:" وإلا فلو وصل العلم باليوم الآخر إلى قلوبهم، لعملوا له أعمالا وتهيئوا له".

{هَذَا كِتَابنَا} دِيوَان الْحَفَظَة {يَنْطِق عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ إنا كنا نستنسخ} نثبت ونحفظ {ما كنتم تعملون}.

فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ (٣٠).

{فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَات فَيُدْخِلهُمْ رَبّهمْ فِي رَحْمَته} جَنَّته {ذَلِكَ هُوَ الْفَوْز الْمُبِين} البين الظاهر.

وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا أَفَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ فَاسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنْتُمْ قَوْمًا مُجْرِمِينَ (٣١).

{وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا} فَيُقَال لَهُمْ {أَفَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي} الْقُرْآن {تُتْلَى عَلَيْكُمْ فَاسْتَكْبَرْتُمْ} تَكَبَّرْتُمْ {وَكُنْتُمْ قَوْمًا مُجْرِمِينَ} كَافِرِينَ.

وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُمْ مَا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ إِنْ نَظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ (٣٢).

{وَإِذَا قِيلَ} لَكُمْ أَيّهَا الْكُفَّار {إنَّ وَعْد الله} بِالْبَعْثِ {حَقّ وَالسَّاعَة} بِالرَّفْعِ وَالنَّصْب {لَا رَيْب} شَكّ {فِيهَا قُلْتُمْ مَا نَدْرِي مَا السَّاعَة إنْ} مَا {نَظُنّ إلَّا ظَنًّا} قَالَ الْمُبَرِّد أَصْله إنْ نَحْنُ إلَّا نَظُنّ ظَنًّا {وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ} أَنَّهَا آتِيَة.

وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (٣٣).

{وَبَدَا} ظَهَرَ {لَهُمْ} فِي الْآخِرَة {سَيِّئَات مَا عَمِلُوا} فِي الدُّنْيَا أَيْ جَزَاؤُهَا {وَحَاقَ} نَزَلَ {بِهِمْ مَا كَانُوا به يستهزءون} أي العذاب.

وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنْسَاكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَاصِرِينَ (٣٤).

{وَقِيلَ الْيَوْم نَنْسَاكُمْ} نَتْرُكُكُمْ فِي النَّار {كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاء يَوْمكُمْ هَذَا} أَيْ

تَرَكْتُمْ الْعَمَل لِلِقَائِهِ {وَمَأْوَاكُمْ النَّار وَمَا لَكُمْ مِنْ نَاصِرِينَ} مانعين منه.

ذَلِكُمْ بِأَنَّكُمُ اتَّخَذْتُمْ آيَاتِ اللهِ هُزُوًا وَغَرَّتْكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ (٣٥).

{ذلكم بأنكم اتخذتم آيات الله} القرآن {هزؤا وَغَرَّتْكُمُ الْحَيَاة الدُّنْيَا} حَتَّى قُلْتُمْ لَا بَعْث وَلَا حِسَاب {فَالْيَوْم لَا يُخْرَجُونَ} بِالْبِنَاءِ لِلْفَاعِلِ وَلِلْمَفْعُولِ {مِنْهَا} مِنَ النَّار {وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ} لَا يُطْلَب مِنْهُمْ أَنْ يُرْضُوا رَبّهمْ بِالتَّوْبَةِ وَالطَّاعَة لِأَنَّهَا لَا تَنْفَع يَوْمئِذٍ.

فَلِلَّهِ الْحَمْدُ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَرَبِّ الْأَرْضِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٣٦).

{فَلِلَّهِ الْحَمْد} الْوَصْف بِالْجَمِيلِ عَلَى وَفَاء وَعْده فِي الْمُكَذِّبِينَ {رَبّ السَّمَاوَات وَرَبّ الْأَرْض رَبّ الْعَالَمِينَ} خَالِق مَا ذُكِرَ وَالْعَالَم مَا سِوَى الله وَجُمِعَ لِاخْتِلَافِ أَنْوَاعه وَرَبّ بَدَل.

وَلَهُ الْكِبْرِيَاءُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٣٧).

{وَلَهُ الْكِبْرِيَاء} الْعَظَمَة {فِي السَّمَاوَات وَالْأَرْض} حَال أَيْ كَائِنَة فِيهِمَا {وَهُوَ الْعَزِيز الْحَكِيم} تَقَدَّمَ[1].

---

(١) أي: لِلَّهِ تعالى وحده مُلْكُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ خلقا وتصرفا وإحياء وإماتة لا راد لقضائه. ولا معقب لحكمه.

ثم بين سبحانه سوء عاقبة الكافرين يوم القيامة فقال: وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ الْمُبْطِلُونَ.

أي: ولله تعالى ملك السموات والأرض، وله- أيضا- ملك وقت قيام الساعة، لأنه لا يستطيع أحد أن يعلم وقت قيامها، أو يتصرف فيه، إلا هو- ﷻ وفي اليوم الذي تقوم فيه الساعة يخسر المبطلون، أنفسهم وأهليهم، ويصيرون في حال =

=

شديدة من الهم والغم والكرب، لأنهم كذبوا بهذا اليوم، وكفروا به وقالوا: ما هِيَ إِلَّا حَياتُنَا الدُّنْيا نَمُوتُ وَنَحْيا وَما يُهْلِكُنا إِلَّا الدَّهْرُ.

قوله تعالى: {وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ} [الجاثية:٢٧]، أي:" ولله سبحانه سلطان السموات السبع والأرض خَلْقًا ومُلْكًا وعبودية".

قال الطبري: يقول:" ولله سلطان السموات السبع والأرض، دون ما تدعون له شريكا، وتعبدونه من دونه، والذي تدعونه من دونه من الآلهة والأنداد في مُلكه وسلطانه، جارٍ عليه حكمه، فكيف يكون ما كان كذلك له شريكا، أم كيف تعبدونه، وتتركون عبادة مالككم، ومالك ما تعبدونه من دونه".

قال ابن كثير:" يخبر تعالى أنه مالك السموات والأرض، الحاكم فيهما في الدنيا والآخرة".

عن ابن عباس:" قال جبريل عليه السلام: يا محمد لله الخلق كله، والسموات كلهن ومن فيهن، والأرضون كلهن ومن فيهن، ومن بينهن مما يعلم ومما لا يعلم". وروي عن عثمان بن سعيد مثله.

قال ابن عاشور:" اعتراض تذييل لقوله: {قل الله يحييكم ثم يميتكم} [الجاثية: ٢٦]، أي: لله لا لغيره ملك السماوات والأرض، أي فهو المتصرف في أحوال ما حوته السماوات والأرض من إحياء وإماتة، وغير ذلك بما أوجد من أصولها وما قدر من أسبابها ووسائلها فليس للدهر تصرف ولا لما سوى الله تعالى. وتقديم المجرور على

المسند إليه لإفادة التخصيص لرد معتقدهم من خروج تصرف غيره في بعض ما في السماوات والأرض كقولهم في الدهر".

قوله تعالى: {وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ الْمُبْطِلُونَ} [الجاثية:٢٧]، أي:" ويوم تجيء الساعة التي يبعث فيها الموتى من قبورهم ويحاسبون، يخسر

=

=

الكافرون بالله الجاحدون بما أنزله على رسوله من الآيات البينات والدلائل الواضحات".

قال الطبري: يقول:" ويوم تجيء الساعة التي يُنْشِر الله فيها الموتى من قبورهم، ويجمعهم لموقف العرض، يغبن فيها الذين أبطلوا في الدنيا في أقوالهم ودعواهم لله شريكا، وعبادتهم آلهة دونه بأن يفوز بمنازلهم من الجنة المحقون، ويبدّلوا بها منازل من النار كانت للمحقين. فجعلت لهم بمنازلهم من الجنة، ذلك هو الخسران المبين".

قال ابن كثير:" {وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ}، أي: يوم القيامة {يَخْسَرُ الْمُبْطِلُونَ} وهم الكافرون بالله الجاحدون بما أنزله على رسله من الآيات البينات والدلائل الواضحات".

قال مقاتل: {المبطلون}، " يعني: المكذبين بالبعث".

قال السمعاني:" أي: يهلك الكافرون".

قال القرطبي:" المعنى: يخسرون منازلهم في الجنة".

قال ابن عاشور:" المبطلون: الآتون بالباطل في معتقداتهم وأقوالهم وأعمالهم إذ الباطل ما ضاد الحق. والمقصود منه ابتداء هنا هو الشرك بالله فإنه أعظم الباطل ثم تجيء درجات الباطل متنازلة وما من درجة منها إلا وهي خسارة على فاعلها بقدر فعلته وقد أنذر الله الناس وهو العليم بمقادير تلك الخسارة".

قال ابن أبي حاتم: "قدم سفيان الثوري المدينة، فسمع المعافري يتكلم ببعض ما يضحك به الناس. فقال له: يا شيخ، أما علمت أن لله يومًا يخسر فيه المبطلون؟ قال: فما زالت تعرف في المعافري حتى لحق بالله، ﷻ".

قال الشوكانى وقوله: وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ الْمُبْطِلُونَ أى: المكذبون الكافرون المتعلقون بالأباطيل، يظهر في ذلك اليوم خسرانهم لأنهم يصيرون إلى

=

=

النار، والعامل في يَوْمَ هو الفعل يَخْسَرُ ويومئذ بدل منه، والتنوين للعوض عن المضاف إليه المدلول عليه بما أضيف إليه المبدل منه، فيكون التقدير: وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يوم تقوم الساعة، فيكون بدلا توكيديا.

والأحسن أن يكون العامل في يَوْمَ هو مُلْكُ- أى: ما يدل عليه هذا اللفظ.

أى: ولله تعالى ملك السموات والأرض- وملك يوم تقوم الساعة، ويكون قوله يَوْمَئِذٍ معمولا ليخسر..

ثم يعرض سبحانه مشهدا من مشاهد هذا اليوم الهائل الشديد فيقول: وَتَرى كُلَّ أُمَّةٍ جاثِيَةً.

وقوله: سبحانه: جاثِيَةً من الجثو وهو الجلوس على الركب بتحفز وترقب وخوف.

يقال: جثا فلان على ركبتيه يجثو جثوا وجثيا، إذا برك على ركبتيه وأنامله في حالة تحفز، كأنه منتظر لما يكرهه.

أى: وترى- أيها العاقل- في هذا اليوم الذي تشيب من هوله الولدان، كل أمة من الأمم متميزة عن غيرها، وجاثية على ركبها، مترقبة لمصيرها في تلهف وخوف فالجملة الكريمة تصور أهوال هذا اليوم، وأحوال الناس فيه، تصويرا بليغا مؤثرا، يبعث على الخوف الشديد من هذا اليوم، وعلى تقديم العمل الصالح الذي ينفع صاحبه يَوْمَ لا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا، وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ.

وقوله كُلَّ أُمَّةٍ مبتدأ، وقوله تُدْعى إِلى كِتابِهَا خبره. أى: كل أمة تدعى إلى سجل أعمالها الذي أمر الله تعالى ملائكته بكتابته لتحاسب عليه.

وقوله: الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ مقول لقول مقدر. أى: ويقال لهم جميعا في هذا الوقت: اليوم تجدون جزاء أعمالكم التي كنتم تعملونها في الدنيا من خير أو شر.

=

=

قوله تعالى: {وَتَرَى كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً} [الجاثية:٢٨]، أي:" وترى -أيها الرسول- يوم تقوم الساعة أهل كل ملة ودين جاثمين على رُكَبهم".

قال الطبري: يقول:" وترى يا محمد يوم تقوم الساعة أهل كل ملة ودين جاثية: يقول: مجتمعة مستوفزة على ركبها من هول ذلك اليوم".

وفي «الجاثية» خمسة وجوه من التفسير:

أحدها: مستوفزة، قاله مجاهد، وسفيان.

قال مجاهد:" على الركب مستوفِزين".

وقال مجاهد -في رواية ابن أبي نجيح-:" الأمة -ههنا- الواحد".

وقال ابن زيد:" هذا يوم القيامة جاثية على ركبهم".

وقال الضحاك:" يقول: على الركب عند الحساب".

قال سفيان بن أبي عيينة:" ولا يكون المستوفز إلا على ركبتيه وأطراف أصابعه".

قال ابو عبيدة:" {وَتَرى كُلَّ أُمَّةٍ جاثِيَةً} على الركب، قال الكميت:

هم تركوا سراتكم جثيّا... ومن بعد السراة مغربلينا".

وقال السدي: "قياما". قال الواحدي:" أراد قياما على الركب وذلك لضيق المكان لا يمكنهم أن يجلسوا ولا أن يقوموا أيضا".

الثاني: متميزة على ناحيتها، قاله عكرمة.

روي عن أبي هريرة، رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، مرفوعا في حديث الصورة: " فيتميز الناس ويجثون، وهي التي يقول الله: {وَتَرَى كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَى إِلَى كِتَابِهَا} ".

قال ابن كثير:" وهذا فيه جمع بين القولين: ولا منافاة، والله أعلم".

الثالث: مجتمعة للحساب. قاله ابن عباس، والفراء.

وقال الفراء:" يريد: كلّ أهل دين مجتمعة للحساب".

قال النحاس:" قد يقال لما اجتمع من التراب: جثوة، فأحسب الفراء أخذه من

=

=

هذا، قال الشاعر:

تَرَى جُثْوَتَيْنِ مِنْ تُرَابٍ عَلَيْهِمَا... صَفَائِحُ صُمٌّ مِنْ صفِيْحٍ مُنَضَّدِ".

وروي عن قتادة، والكلبي، في قوله تعالى: {وَتَرَى كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً}، قالا: هاهنا جثوة وهاهنا جثوة".

الرابع: خاضعة بلغة قريش، قاله مؤرج السدوسي.

الخامس: باركة على الركب، قاله الحسن، وابن قتيبة.

قال ابن قتيبة:" باركة على الرُّكَب. يراد: أنها غير مطمئنة".

وقال سهل بن عبد الله:" على ركبها تجادل عن نفسها عند المرافقة الصادق يجتهد في تحقيق صدقه، والجاحد يجتهد في الدفع عن نفسه، وكلٌّ محكوم عليه في الذي أملاه، مدده ريقه، وقلمه لسانه، وقرطاسه جوارحه".

قال الزجاج:" معنى {جَاثِيَةً}: جالسة على الركب، يقال: قد جثا فلان يجثو إذا جلس على ركبته، ومثله: جَذا يجذو. والجُذُؤ أشد استيفازًا من الجثو، لأن الجذو: أن يجلس صاحبه على أطراف أصابعه".

قال النحاس:" القول الأول أعرف وأشهر".

قال ابن كثير:" والأول أولى".

قال السمعاني:" القول الأول هو المختار المعروف، ومنه: جثا فلان بين يدي القاضي ينتظر قضاءه".

وقرئ «جاذية»، أي: جالسة على أطراف الأصابع لاستيفازهم.

وفي الجثاة قولان:

أحدهما: أنه للكفار خاصة، قاله يحيى بن سلام.

الثاني: أنه عام للمؤمن والكافر انتظارًا للحساب. حكاه الماوردي.

وقد روى سفيان بن عيينة، عن عمرو بن عبد الله بن باباه، أن النبي -ﷺ- قال:

=

=

"كأني أراكم بالكوم جاثين دون جهنم".

قال ابن عباس: "يريد نجثوا على ركبنا ننتظر القضاء".

قال سلمان الفارسي: "في القيامة ساعة هي عشر سنين يكون الناس فيها جثاة على ركبهم حتى إبراهيم -عليه السلام- لينادي: «لا أسألك اليوم إلا نفسي».

قال ابن كثير:": {وَتَرَى كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً}، أي: على ركبها من الشدة والعظمة، ويقال: إن هذا يكون إذا جيء بجهنم فإنها تزفر زفرة لا يبقى أحد إلا جثا لركبتيه، حتى إبراهيم الخليل، ويقول: نفسي، نفسي، نفسي لا أسألك اليوم إلا نفسي، وحتى أن عيسى ليقول: لا أسألك اليوم إلا نفسي، لا أسألك اليوم مريم التي ولدتني".

قوله تعالى: {كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَى إِلَى كِتَابِهَا} [الجاثية:٢٨]، أي:" كل أمة تُدعى إلى كتاب أعمالها".

وفي قوله تعالى: {كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَى إِلَى كِتَابِهَا} [الجاثية:٢٨]، أربعة وجوه من التفسير:

أحدها: إلى حسابها، وهو من قوله تعالى: {فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ} [الحاقة: ١٩] {وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ} [الحاقة: ٢٥]. قاله يحيى بن سلام، والفراء، وابن قتيبة.

الثاني: إلى كتابها الذي كان يستنسخ لها فيه ما عملت من خير وشر، قاله الكلبي، وبه قال الطبري، والنحاس.

قال النحاس: أي:" ما كتبت الملائكة عليها، وهذا أولى لأن بعده ما يدل عليه".

قال الطبري:" يقول: كل أهل ملة ودين تُدعى إلى كتابها الذي أملت على حفظتها".

الثالث: أنه تقسيم النور على المؤمنين يوم القيامة ممن رزقهم الله نورا.

=

=

عن مجاهد-:" {تدعى إلى كتابها} يا فلان بن فلان، مِن بني فلان تعال إلى نورك، يا فلان بن فلان مِن بني فلان لا نور لك".

الرابع: إلى كتابها الذي أنزل على رسولها، حكاه الجاحظ، والنحاس.

قال السعدي:" أي: إلى شريعة نبيهم الذي جاءهم من عند الله، وهل قاموا بها فيحصل لهم الثواب والنجاة؟ أم ضيعوها فيحصل لهم الخسران؟ فأمة موسى يدعون إلى شريعة موسى وأمة عيسى كذلك وأمة محمد كذلك، وهكذا غيرهم كل أمة تدعى إلى شرعها الذي كلفت به، هذا أحد الاحتمالات في الآية وهو معنى صحيح في نفسه غير مشكوك فيه".

قال النحاس:" القول الأول أعرف وأشهر".

عن أبي هريرة، قال: "قال الناس: يا رسول الله هل نرى ربنا يوم القيامة؟ قال: "هل تضامون في الشمس ليس دونها سحاب، قالوا: لا يا رسول الله، قال: "هل تضارون في القمر ليلة البدر ليس دونه سحاب؟ " قالوا: لا يا رسول الله، قال: فإنكم ترونه يوم القيامة كذلك يجمع الله الناس فيقول: من كان يعبد شيئا فليتبعه، فيتبع من كان يعبد القمر القمر، ومن كان يعبد الشمس الشمس، ويتبع من كان يعبد الطواغيت الطواغيت، وتبقى هذه الأمة فيها منافقوها، فيأتيهم ربهم في صورة، ويضرب جسر على جهنم قال النبي ﷺ: "فأكون أول من يجيز، ودعوة الرسل يومئذ: اللهم سلم، اللهم سلم وبها كلاليب كشوك السعدان هل رأيتم شوك السعدان؟ قالوا: نعم يا رسول الله قال: فإنها مثل شوك السعدان غير أنه لا يعلم أحد قدر عظمها إلا الله ويخطف الناس بأعمالهم، فمنهم الموبق بعمله، ومنهم المخردل ثم ينجو"، ثم ذكر الحديث بطوله".

قوله تعالى: {الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ} [الجاثية:٢٨]، أي:" ويقال لهم: اليوم تُجزون ما كنتم تعملون من خير أو شر".

=

=

قال الطبري: يقول:" كل أمة تدعى إلى كتابها، يقال لها: اليوم تجزون: أي تثابون وتعطون أجور ما كنتم في الدنيا من جزاء الأعمال تعملون بالإحسان الإحسان، وبالإساءة جزاءها".

ويقال لهم- أيضا-: هذا كِتابُنا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ.

أي: هذا كتابنا الذي سجلته عليكم الملائكة، يشهد عليكم بالحق، لأنه لا زيادة فيما كتب عليكم ولا نقصان، وإنما هي أعمالكم أحصيناها عليكم.

قال القرطبي: قوله تعالى: هذا كِتابُنا قيل من قول الله لهم. وقيل من قول الملائكة. يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ أي: يشهد. وهو استعارة، يقال: نطق الكتاب بكذا، أي: بين. وقيل: إنهم يقرءونه فيذكرهم الكتاب ما عملوا، فكأنه ينطق عليهم.

دليله قوله تعالى: وَيَقُولُونَ يا وَيْلَتَنا مالِ هذَا الْكِتابِ لا يُغادِرُ صَغِيرَةً وَلا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصاها وقوله سبحانه: وَلَدَيْنا كِتابٌ يَنْطِقُ بِالْحَقِّ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ.

وقوله: يَنْطِقُ في موضع الحال من الكتاب» ا.هـ.

وقال الجمل في حاشيته: فإن قيل: كيف أضيف الكتاب إليهم في قوله: كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعى إِلى كِتابِهَا.

وأضيف هنا إلى الله تعالى فقال: هذا كِتابُنا؟

فالجواب أنه لا منافاة بين الأمرين، لأنه كتابهم بمعنى أنه مشتمل على أعمالهم، وكتاب الله، بمعنى أنه سبحانه هو الذي أمر الملائكة بكتابته ا.هـ.

وقوله سبحانه: إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ تعليل للنطق بالحق، أي: إنا كنا نأمر ملائكتنا بنسخ أعمالكم، أي: بكتابتها وتثبيتها عليكم في الصحف، حسنة كانت أو سيئة، فالمراد بالنسخ هنا: الإثبات لا الإزالة.

قوله تعلى: {هَذَا كِتَابُنَا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ} [الجاثية:٢٩]، أي:" هذا كتابنا ينطق عليكم بجميع أعمالكم من غير زيادة ولا نقص".

=

قال البغوي:" {هذا كتابنا} يعني ديوان الحفظة، {ينطق عليكم بالحق} يشهد عليكم ببيان شاف، فكأنه ينطق، وقيل: المراد بالكتاب اللوح المحفوظ".

قال ابن عباس:" هو أم الكتاب فيه أعمال بني آدم".

قال ابن قتيبة:" يريد: أنهم يقرءُونه فيَدُلُّهم ويُذكِّرُهم؛ فكأنه ينطق عليهم".

قال البيضاوي:" أضاف صحائف أعمالهم إلى نفسه لأنه أمر الكتبة أن يكتبوا فيها أعمالهم".

وروي عن ابن عباس: " {هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق}، قال: الكتاب: الذكر".

قال السعدي:" أي: هذا كتابنا الذي أنزلنا عليكم، يفصل بينكم بالحق الذي هو العدل".

قوله تعلى: {إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ} [الجاثية:٢٩]، أي:" إنَّا كنا نأمر الحفظة أن تكتب أعمالكم عليكم".

قال الطبري:" يقول: إنا كنا نستكتب حفظتنا أعمالكم، فتثبتها في الكتب وتكتبها".

قال البيضاوي:" إنا كنا نستكتب الملائكة ما كنتم تعملون أعمالكم".

قال ابن عباس: " نستنسخ الأعمال".

قال السمين الحلبي:" أي: نأمر الحفظة باستنساخه وكتبه، وذلك الإقامة الحجة عليهم، وإلا فالباري تعالى على أفعالهم قبل أن يخلقهم، وقبل أن تصدر منهم. والمناسخة، أن يموت مورث، ثم يموت بعض ورثته قبل أن تقسم تركة الأول. والتناسخية: قوم يزعمون أن لا بعث ولا نشور، بناءًا على مذهبهم الفاسد، وأن هذه الأرواح إذا خرجت من جسد حلت في جسد آخر، بحسب خيريته وشريته؛ فإن كان خيرًا حلت في جسد صالح وصورة حسنة، وإلا ففي أقبح صورة. فروح زيد أن تحل في مثله، أو كلب أو ذبابة، أو زنبور. وكذا روح الزنبور. ويذكرون على ذلك أدلة باطلة، وحججًا داحضة، يموهون بها على ضعفهم، نعوذ بالله مما

=

خالف ما جاءت به أصحاب الشرائع صلوات الله وسلامه عليهم".

وفي قوله تعالى: {إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ} [الجاثية:٢٩]، ثلاثة وجوه من التفسير:

أحدها: أي: إنا كنا نأمر الحفظة أن تكتب أعمالكم عليكم. وهو معنى قول علي -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-، ومن زعم أنه كتاب الأعمال.

قال علي-رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:" إن لله ملائكة ينزلون في كل يوم بشيء يكتبون فيه أعمال بني آدم".

الثاني: أنه الحفظة تستنسخ الخزنة ما هو مدوَّن عندها من أحوال العباد، قاله ابن عباس، ومقاتل، ومن زعم أن الكتاب هو اللوح المحفوظ.

عن مقسم، عن ابن عباس، قال:" نستنسخ الحفظة من أم الكتاب ما يعمل بنو آدم، فإنما يعمل الإنسان على ما استنسخ له الملك من أم الكتاب".

وعن ابن عباس، في قوله: {إنا كنا نستنسخ ما كنتم تعملون}، قال:" الملائكة يستنسخون أعمال بني آدم".

الثالث: نستنسخ ما كتب عليكم الملائكة الحفظة، قاله الحسن، لأن الحفظة ترفع إلى الخزنة صحائف الأعمال.

قال ابن الجوزي:" وأكثر المفسرين على أن هذا الاستنساخ، من اللوح المحفوظ، تَسْتَنْسِخُ الملائكةُ كلّ عام ما يكون من أعمال بني آدم، فيجدون ذلك موافقًا ما يعملونه. قالوا: والاستنساخ لا يكون إِلاّ مِنْ أصل".

قال الزجاج:" الاسْتِنْساخُ: لا يكون إلا من أَصْل، وهو أن يستنسخ كتابًا من كتابٍ، فنستنسخَ ما يكتب الحفظة ويثبت عند الله عَزَّ وَجَلَّ".

قال الفراء:" الاستنساخ: أن الملكين يرفعان عمل الرجل صغيرهِ وكبيره، فيثبت الله من عمله ما كان لَهُ ثواب أَوْ عقاب، ويطرحَ مِنْهُ اللغو الَّذِي لا ثواب فِيهِ ولا

=

=

عقاب، كقولك: هلُمَّ، وتعال، واذهب، فذلك الاستنساخ".
قال أبو عبيدة:" {إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ}، أي: نثبت".
قال ابن قتيبة: {نَسْتَنْسِخُ}، " أي: نكتب".
عن مجاهد:" {نَسْتَنْسِخُ}: نكتب". وروي عن السدي، مثله
قال الضحاك: "نثبت".
قال الحسن: "نحفظ".

ثم فصل سبحانه ما يترتب على ما سبق من أحكام فقال: فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ أى: فيدخلهم سبحانه في جنته ورضوانه. ذلِكَ العطاء الجزيل هُوَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ الذي لا يدانيه فوز.

قوله تعالى: {فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ}.

قال الشوكاني:" وهذا تفصيل لحال الفريقين، فالمؤمنون يدخلهم الله برحمته الجنة".

قال الطبري: يقول:" فأما الذين آمنوا بالله في الدنيا فوحدوه، ولم يشركوا به شيئا، وعملوا الصالحات: يقول: وعملوا بما أمرهم الله به، وانتهوا عما نهاهم الله عنه {فيدخلهم ربهم} في جنته برحمته".

قال السعدي: أي:" إيمانا صحيحا وصدقوا إيمانهم بالأعمال الصالحة من واجبات ومستحبات {فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ} التي محلها الجنة وما فيها من النعيم المقيم والعيش السليم".

عن السُّدِّيّ، في قوله: {والذين آمنوا وعملوا الصالحات}، يعني: أطاعوا الله فيما أمرهم به، وفرض عليهم".

عن عطاء:" {يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ}، يعني: من صدّق نبيه أدخله جنته".

قوله تعالى: {ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ} [الجاثية:٣٠]، أي:" ذلك الدخول هو الفوز

=

=

المبين الذي لا فوز بعده".

قال الطبري:" يقول: دخولهم في رحمة الله يومئذ هو الظفر بما كانوا يطلبونه، وإدراك ما كانوا يسعون في الدنيا له، المبين غايتهم فيها، أنه هو الفوز".

قال الشوكاني:" {ذلك} الإدخال في رحمته هو {الفوز} الظاهر الواضح".

قال السعدي:" أي: المفاز والنجاة والربح والفلاح الواضح البين الذي إذا حصل للعبد حصل له كل خير واندفع عنه كل شر".

عن سعيد بن جبير، في قوله: {وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيم} [النساء: ١٣/ التوبة: ١١١/ غافر:٩]،" يعني: ذلك الثواب الفوز العظيم".

وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فيقال لهم على سبيل التوبيخ والتقريع والزجر:

أَفَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلى عَلَيْكُمْ أى: أفلم تأتكم رسلي بآياتى الدالة على وحدانيتي وعلى صدقهم فيما يبلغونه عنى؟ بلى لقد جاءكم رسلي بآياتى.

فَاسْتَكْبَرْتُمْ عن الاستماع إليهم، وعن الاستجابة لهم، واتباع دعوتهم.

وَكُنْتُمْ قَوْمًا مُجْرِمِينَ أى: وكنتم في الدنيا قوما عادتكم الإجرام، واجتراح السيئات، واقتراف المنكرات.

قوله تعالى: {وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا أَفَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ} [الجاثية:٣١]، أي:" وأما الذين جحدوا أن الله هو الإله الحق وكذَّبوا رسله ولم يعملوا بشرعه، فيقال لهم -تقريعًا وتوبيخًا-: أفلم تكن آياتي في الدنيا تتلى عليكم".

قال الطبري: يقول: " وأما الذين جحدوا وحدانية الله، وأبوا إفراده في الدنيا بالألوهة، فيقال لهم: ألم تكن آياتي في الدنيا تتلى عليكم؟".

قال السعدي:" {وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا} بالله فيقال لهم توبيخا وتقريعا: {أَفَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ} وقد دلتكم على ما فيه صلاحكم ونهتكم عما فيه ضرركم وهي أكبر نعمة وصلت إليكم لو وفقتم لها".

=

قال الماتريدي:" وأما الذين كفروا في الدنيا فيقال لهم في الآخرة إذا طلبوا الرجوع والإقالة أو التخفيف ونحو ذلك: {أَفَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ} في الدنيا، ثم يحتمل: آياته: آيات وحدانيته وألوهيته، أو آيات قدرته وسلطانه على التعذيب، أو آيات قدرته على البعث أو آيات رسالته".

قال الشوكاني:" أي: فيقال لهم ذلك، وهو استفهام توبيخ، لأن الرسل قد أتتهم وتلت عليهم آيات الله، فكذبوها ولم يعملوا بها".

قوله تعالى: {فَاسْتَكْبَرْتُمْ} [الجاثية:٣١]، أي:" فاستكبرتم عن استماعها والإيمان بها".

قال الشوكاني:" أي: تكبرتم عن قبولها وعن الإيمان بها".

قال السعدي:" ولكن استكبرتم عنها وأعرضتم وكفرتم بها".

قال الماتريدي:" لا أحد يقصد قصد الاستكبار على آيات الله، لكنهم لما كذبوها وردوا آياته ولم يعملوا بها، فكأنهم استكبروا عليها، وهو كما قال: {لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ}، ولا أحد يقصد قصد عبادة الشيطان، لكنهم لما عبدوا الأصنام بأمر الشيطان فكأنهم عبدوه، ويحتمل أن يكونوا استكبروا على رسله؛ فيكون استكبارهم على رسله كأنهم استكبروا على آياته".

قوله تعالى: {وَكُنْتُمْ قَوْمًا مُجْرِمِينَ} [الجاثية:٣١]، أي:" وكنتم قومًا مشركين تكسِبون المعاصي ولا تؤمنون بثواب ولا عقاب؟".

قال ابن عباس:" منكرين كافرين".

قال الطبري:" يقول: وكنتم قوما تكسبون الآثام والكفر بالله، ولا تصدقون بمعاد، ولا تؤمنون بثواب ولا عقاب".

قال الشوكاني: أي: "وكنتم من أهل الإجرام، وهي الآثام، والاجترام: الاكتساب، يقال: فلان جريمة أهله إذا كان كاسبهم، فالمجرم: من كسب الآثام بفعل =

=

المعاصي".

قال السعدي:" فجنيتم أكبر جناية وأجرمتم أشد الجرم".

قال البغوي: أي:" متكبرين كافرين".

قال مقاتل:" يعني: مذنبين مشركين".

قال الماتريدي:" قيل: المجرم هو الوثَّاب في المعصية".

وَإِذا قِيلَ لكم في الدنيا إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ أى: إن ما وعد الله تعالى به من البعث والحساب حق وصدق وَالسَّاعَةُ لا رَيْبَ فِيها أى: لا شك فيها.

قُلْتُمْ على سبيل العناد والجحود ما نَدْرِي مَا السَّاعَةُ أى: قلتم على سبيل الإنكار لها، والاستبعاد لحصولها: لا نعرف أن هناك شيئا اسمه الساعة، ولا نعترف بها اعترافا يدل على إيماننا بها.

إِنْ نَظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَما نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ أى: كنتم في الدنيا تقولون: لا نوقن ولا نؤمن بحدوث الساعة، ولكنا نظن ونتوهم أن هناك شيئا اسمه الساعة، وما نحن بمستيقنين بإتيانها.

ولعل هذا الكلام الذي حكاه القرآن الكريم عنهم، هو كلام الشاكين المتحيرين من الكافرين أما الجاحدون منهم فهم الذين حكى القرآن عنهم أنهم قالوا: ما هِيَ إِلَّا حَياتُنَا الدُّنْيا نَمُوتُ وَنَحْيا وَما يُهْلِكُنا إِلَّا الدَّهْرُ ...

قوله تعالى: {وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا}.

قال الطبري:" ويقال لهم حينئذ: {وإذا قيل لكم إن وعد الله} الذي وعد عباده، أنه محييهم من بعد مماتهم، وباعثهم من قبورهم {حق والساعة} التي أخبرهم أنه يقيمها لحشرهم، وجمعهم للحساب والثواب على الطاعة، والعقاب على المعصية، آتية لا شك في قيامها، فاتقوا الله وآمنوا بالله ورسوله، واعملوا لما ينجيكم من عقاب الله فيها".

=

=

قال مقاتل:" قال لهم النبي ﷺ: إن البعث حق {والساعة}، يعني: القيامة {لا ريب فيها}، يعني: لا شك فيها أنها كائنة".

قال الشوكاني: " أي: وعده بالبعث والحساب، أو بجميع ما وعد به من الأمور المستقبلة، واقع لا محالة، والساعة أي: القيامة {لا ريب فيها}، أي: في وقوعها".

عن أبي العالية، في قوله:" {لا ريب فيه}، لا شك فيه".

عن الأعمش: "في قراءة عبد الله بن مسعود: «إنَّ وعْدَ اللهِ حَقٌّ وإنَّ السّاعَةَ لا رَيْبَ فِيها» "، بنصب"الساعة"، عطفا بها على قوله: {إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَقّ}.

قوله تعالى: {قُلْتُمْ مَا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ} [الجاثية:٣٢]، أي:" قلتم لعتوكم واستكباركم متعجبين مستغربين، ما الساعة؟ نحن لا علم لنا بها".

قال الطبري: أي:" تكذيبا منكم بوعد الله جل ثناؤه، وردا لخبره، وإنكارا لقدرته على إحيائكم من بعد مماتكم".

قال مقاتل:" {قلتم} يا أهل مكة {ما ندري ما الساعة}".

قال الزمخشري: أي:" أيّ شيء الساعة؟".

قوله تعالى: {إِنْ نَظُنُّ إِلَّا ظَنًّا} [الجاثية:٣٢]، أي:" وما نتوقع وقوعها إلا توهمًا".

قال الطبري:" يقول: وقلتم ما نظن أن الساعة آتية إلا ظنا".

قال مقاتل:" يعني: ما نظن إلا ظنا على غير يقين".

قال الزمخشري: " معناه: إثبات الظن فحسب، فأدخل حرفا النفي والاستثناء، ليفاد إثبات الظن مع نفى ما سواه".

قوله تعالى: {وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ} [الجاثية:٣٢]، أي:" وما نحن بمتحققين أن الساعة آتية".

قال مقاتل:" بالساعة أنها كائنة".

=

قال **الطبري**: أي:" {وما نحن بمستيقنين} أنها جائية، ولا أنها كائنة".
قال الشوكاني: " أي: لم يكن لنا يقين بذلك، ولم يكن معنا إلا مجرد الظن أن الساعة آتية".
ثم بين سبحانه ما ترتب على هذه الأقوال الباطلة من نتائج فقال: وَبَدا لَهُمْ سَيِّئاتُ ما عَمِلُوا أى: وظهر لهؤلاء الكافرين سيئات أعمالهم على حقيقتها التي كانوا لا يتوقعونها.
وَحاقَ بِهِمْ أى: وأحاط ونزل بهم ما كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ أى: في الدنيا، فقد كانوا في الدنيا ينكرون البعث والحساب والجزاء ويستهزئون بمن يحدثهم عن ذلك. فنزل بهم العذاب المهين، جزاء استهزائهم وإنكارهم.
قوله تعالى: {وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا} .
قال الطبري: يقول:" وبدا لهؤلاء الذين كانوا في الدنيا يكفرون بآيات الله سيئات ما عملوا في الدنيا من الأعمال، يقول: ظهر لهم هنالك قبائحها وشرارها لما قرءوا كتب أعمالهم التي كانت الحفظة تنسخها في الدنيا".
قال السمعاني:"أي: ظهر لهم سيئات ما عملوا".
قال ابن كثير:" أي: وظهر لهم عقوبة أعمالهم السيئة".
قال ابن قتيبة:" هو مثل قوله: {وَبَدَا لَهُمْ مِنَ اللهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ} [الزمر: ٤٧]؛ يعيَّرون أنهم عملوا في الدنيا أعمالا كانوا يظنون أنها تنفعهم، فلم تنفعهم مع شركهم".
قوله تعالى: {وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ} [الجاثية:٣٣]، أي:" ونزل بهم من عذاب الله جزاء ما كانوا به يستهزئون".
قال الطبري:" يقول: وحاق بهم من عذاب الله حينئذ ما كانوا به يستهزئون إذ قيل لهم: إن الله مُحِلُّهُ بمن كذب به على سيئات ما في الدنيا عملوا من الأعمال".

=

قال القرطبي:" أي: نزل بهم وأحاط {ما كانوا به يستهزؤن} من عذاب الله".

قال ابن كثير:" أي: أحاط بهم {مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ}، أي: من العذاب والنكال".

قال السمعاني:" أي: نزل بهم وأحاط بهم جزاء ما كانوا به يستهزئون، وفي التفسير: أنه إذا كان يوم القيامة ينادي واحدا فيقال: يافلان تعال فخذ نورك، وينادي آخر فيقال: اذهب فلا نور لك".

عن مجاهد: {وَحَاقَ بِهِمْ}، قال: " حل بهم".

وروي عن السدي:" وقع بهم".

وقال الربيع: "نزل".

قال الضحاك: {فَحَاقَ}: "أي: أحاط".

وَقِيلَ لهم على سبيل التأنيب والزجر الْيَوْمَ نَنْساكُمْ أى: نهملكم ونتركِكم في النار كَما نَسِيتُمْ أنتم في الدنيا وأنكرتم لِقاءَ يَوْمِكُمْ هذا وهو يوم القيامة وَمَأْواكُمُ النَّارُ أى: ومسكنكم الذي تأوون إليه النار وبئس القرار.

وَما لَكُمْ مِنْ ناصِرِينَ أى: وليس لكم من ناصرين ينصرونكم، ويخففون عنكم هذا العذاب الذي حل بكم.

قوله تعالى: {وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنْسَاكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا}.

قال الطبري: يقول: " وقيل لهؤلاء الكفرة الذين وصف صفتهم: اليوم نتركِكم في عذاب جهنم، كما تركتم العمل للقاء ربكم يومكم هذا".

قال الزجاج:" أي: اليوم نتركِكم في العذاب، كما تركتم الإيمان والعمل ليومكم".

قال الواحدي: أي:" نترككم في العذاب كما تركتم الإيمان والعمل ليومكم هذا".

قال ابن عطية:" معناه: نترككم كما تركتم لقاء يومكم هذا، فلم يقع منكم استعداد له ولا تأهب، فسميت العقوبة في هذه الآية باسم الذنب".

=

=

قال الزمخشري: أي:" نترككم في العذاب كما تركتم عدة لِقاءَ يَوْمِكُمْ هذا وهي الطاعة، أو نجعلكم بمنزلة الشيء المنسى غير المبالى به، كما لم تبالوا أنتم بلقاء يومكم ولم تخطروه ببال، كالشئ الذي يطرح نسيا منسيا".

قال السمعاني:" معناه: نترككم من الرحمة وإعطاء الثواب. وقيل معناه: نترككم في العذاب، فلا نخرجكم منها كما نخرج المؤمنين، {كما نسيتم لقاء يومكم هذا} أي: كما تركتم العمل ليومكم هذا".

قال ابن كثير:" أي: نعاملكم معاملة الناسي لكم في نار جهنم {كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا}، أي: فلم تعملوا له لأنكم لم تصدقوا به".

قال النحاس:" أي: تشاغلتم عن يوم القيامة بلذاتكم وأمور دنياكم فوبخهم الله ﷻ على ذلك".

عن ابن عباس، قوله: " {وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنْسَاكُمْ}، نترككم".

عن الضحاك:" وقِيلَ اليَوْمَ نَنْساكُمْ كَما نَسِيتُمْ لِقاءَ يَوْمِكُمْ هَذا}، قال: كما تركتم ذِكري وطاعتي، كذلك أتركُكم في النار".

عن قتادة:" {اليَوْمَ نَنْساكُمْ كَما نَسِيتُمْ}، قال: اليوم نترُكُكم كما تركتم".

عن يزيد بن أبي مالك -من طريق سليمان بن عبد الرحمن الدمشقي- قال: "إنّ في جهنم لَآبارًا مَن أُلقي فيها ترَدّى سبعين عامًا قبل أن يبلغ القرار. ثم نزع بهذه الآية: فـ {اليَوْمَ نَنْساكُمْ كَما نَسِيتُمْ لِقاءَ يَوْمِكُمْ هَذا ومَأْواكُمُ النّارُ وما لَكُمْ مِن ناصِرِينَ}".

عن أبي هريرة، قال: "قالوا: يا رسول الله هل نرى ربنا يوم القيامة؟ قال: «هل تضارون في رؤية الشمس في الظهيرة، ليست في سحابة؟» قالوا: لا، قال: «فهل تضارون في رؤية القمر ليلة البدر، ليس في سحابة؟» قالوا: لا، قال: " فوالذي نفسي بيده لا تضارون في رؤية ربكم، إلا كما تضارون في رؤية أحدهما، قال:

=

=

فيلقى العبد، فيقول: أي فل ألم أكرمك، وأسودك، وأزوجك، وأسخر لك الخيل والإبل، وأذرك ترأس وتربع؟ فيقول: بلى، قال: فيقول: أفظننت أنك ملاقي؟ فيقول: لا، فيقول: فإني أنساك كما نسيتني، ثم يلقى الثاني فيقول: أي فل ألم أكرمك، وأسودك، وأزوجك، وأسخر لك الخيل والإبل، وأذرك ترأس، وتربع، فيقول: بلى، أي رب فيقول: أفظننت أنك ملاقي؟ فيقول: لا، فيقول: فإني أنساك كما نسيتني، ثم يلقى الثالث، فيقول له مثل ذلك، فيقول: يا رب آمنت بك، وبكتابك، وبرسلك، وصليت، وصمت، وتصدقت، ويثني بخير ما استطاع، فيقول: هاهنا إذا، قال: ثم يقال له: الآن نبعث شاهدنا عليك، ويتفكر في نفسه: من ذا الذي يشهد علي؟ فيختم على فيه، ويقال لفخذه ولحمه وعظامه: انطقي، فتنطق فخذه ولحمه وعظامه بعمله، وذلك ليعذر من نفسه، وذلك المنافق وذلك الذي يسخط الله عليه".

قوله تعالى: {وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ} [الجاثية:٣٤]، أي:" ومسكنكم نار جهنم".

قال الطبري:" يقول: ومأواكم التي تأوون إليها نار جهنم".

قال القرطبي:" أي: مسكنكم ومستقركم".

قال ابن عطية:" المأوى: الموضع الذي يسكنه الإنسان ويكون فيه عامة أوقاته أو كلها أجمع".

عن سعيد بن جبير، قال: "ثم بين مستقرهم، فقال: مأواهم جهنم".

قوله تعالى: {وَمَا لَكُمْ مِنْ نَاصِرِينَ} [الجاثية:٣٤]، أي:" وما لكم من ناصرين ينصرونكم من عذاب الله".

قال الطبري:" يقول: وما لكم من مستنقذ ينقذكم اليوم من عذاب الله، ولا منتصر ينتصر لكم ممن يعذّبكم، فيستنقذ لكم منه".

قال مقاتل:" يعنى: ما نعين من النار".

=

=

قال السمعاني:" أي: من يمنع عذابنا منكم".

ثم بين سبحانه الأسباب التي أدت بهم إلى هذا المصير السيئ فقال: ذَلِكُمْ بِأَنَّكُمُ اتَّخَذْتُمْ آيَاتِ اللهِ هُزُوًا.

أى: ذلكم العذاب المبين الذي نزل بكم سببه أنكم استهزأتم بآيات القرآن الكريم، وسخرتم منها، وكذبتم من جاء بها.

وَغَرَّتْكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيا أى: وخدعتكم الحياة الدنيا بزخارفها ومتعها وشهواتها.

فَالْيَوْمَ لا يُخْرَجُونَ مِنْها أى: من النار.

وَلا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ أى: ولا هم يطلب منهم أن يرضوا ربهم، بأن يتوبوا إليه مما كان منهم من كفر وفسوق في الدنيا، لأن التوبة قد فات أوانها.

فقوله: يُسْتَعْتَبُونَ من العتب- بفتح العين وسكون التاء- وهي الموجدة. يقال: عتب عليه يعتب، إذا وجد عليه، فإذا فاوضه فيما عتب عليه فيه، قيل: عاتبه.

والمقصود من الآية الكريمة أن هؤلاء الكافرين لا يقبل منهم في هذا اليوم عذر أو توبة.

قوله تعالى: {ذَلِكُمْ بِأَنَّكُمُ اتَّخَذْتُمْ آيَاتِ اللهِ هُزُوًا}.

قال الطبري: يقول: " يقال لهم: هذا الذي حلّ بكم من عذاب الله اليوم {بِأَنَّكُمْ} في الدنيا {اتَّخَذْتُمْ} حجج الله وأدلته وآي كتابه التي أنزلها على رسوله ﷺ سخرية تسخرون منها".

قال مقاتل:" يقول: إنما نزل بكم العذاب في الآخرة {بأنكم اتخذتم آيات الله}، يعني: كلام الله {هزوا}، يعني: استهزاء حين قالوا ساحر، وشاعر، وأساطير الأولين".

قال ابن كثير:" أي: إنما جازيناكم هذا الجزاء لأنكم اتخذتم حجج الله عليكم سخريا، تسخرون وتستهزئون بها".

=

=

قال ابن عطية:" {آياتِ اللهِ}، لفظ جامع لآيات القرآن وللأدلة التي نصبها الله تعالى لينظر فيها العباد".

عن سعيد بن جبير، في قوله: " {آيات الله}، يعني: القرآن".

عن سعيد بن جبير: " {آياتنا}، يعني: القرآن".

قوله تعالى: {وَغَرَّتْكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا} [الجاثية:٣٥]، أي:" وخدعتكم زينة الحياة الدنيا".

قال الطبري:" يقول: وخدعتكم زينة الحياة الدنيا. فآثرتموها على العمل لما ينجيكم اليوم من عذاب الله".

قال ابن كثير:" أي: خدعتكم فاطمأننتم إليها، فأصبحتم من الخاسرين".

عن الربيع بن أنس، قال: "غرهم ما كانوا يفترون".

عن سعيد بن جبير، قال: "الغِرَّة في الحياة الدنيا: أن يغتر بها، وتشغله عن الآخرة؛ أن يَمْهَد لها ويعمل لها، كقول العبد إذا أفضى إلى الآخرة: {يا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَياتِي} [الفجر: ٢٤]. والغِرَّة بالله: أن يكون العبد في معصية الله، ويتمنى على الله المغفرة".

قوله تعالى: {فَالْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ} [الجاثية:٣٥]، أي:" فاليوم لا يُخرجون من النار، ولا هم يُرَدُّون إلى الدنيا؛ ليتوبوا ويعملوا صالحًا".

قال الطبري: " يقول تعالى ذكره: {فَالْيَوْمَ لا يُخْرَجُونَ مِنْهَا} من النار، ولا هم يردّون إلى الدنيا ليتوبوا ويراجعوا الإنابة مما عوقبوا عليه".

قال ابن كثير:" {فَالْيَوْمَ لا يُخْرَجُونَ مِنْهَا}، أي: من النار {وَلا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ}، أي: لا يطلب منهم العتبى، بل يعذبون بغير حساب ولا عتاب، كما تدخل طائفة من المؤمنين الجنة بغير عذاب ولا حساب".

قال الزجاج:" لا يردون ولا يلتمس منهم عمل وَلَا طَاعة".

=

=

قال الواحدي: " {ولا هم يستعتبون}، أَيْ: لا يُلتمس منهم عمل ولا طاعة".
قال الزمخشري: أي:" ولا يطلب منهم أن يعتبوا ربهم أى يرضوه".
قال الفراء:" يَقول: لا يراجعون الكلام بعد دخولهم النار".
قال يحيى بن سلام:" لا يردون إلى الدنيا ليعتبوا، أي: ليؤمنوا، وذلك أنهم يسألون الرجعة إلى الدنيا ليؤمنوا فلا يردون إلى الدنيا".
قال ابن الجوزي:" لأنه ليس بحين توبة ولا اعتذار".
ثم ختم سبحانه السورة الكريمة بقوله: فَلِلَّهِ الْحَمْدُ أى: فلله تعالى وحده الحمد والثناء رَبِّ السَّماواتِ وَرَبِّ الْأَرْضِ رَبِّ الْعالَمِينَ لا رب سواه ولا خالق غيره.
قوله تعالى: {فَلِلَّهِ الْحَمْدُ} [الجاثية:٣٦].
قال مقاتل:" يقول: الشكر لله".
قال الطبري: " يقول تعالى ذكره {فَلِلَّهِ الْحَمْدُ} على نِعمه وأياديه عند خلقه، فإياه فاحمدوا أيها الناس، فإن كلّ ما بكم من نعمة فمنه دون ما تعبدون من دونه من آلهة ووثن، ودون ما تتخذونه من دونه ربا، وتشركون به معه".
قال كعب:" «الحمد لله»: ثناء على الله".
قال الضحاك:" «الحمد لله»: رداء الرحمن".
قوله تعالى: {رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَرَبِّ الْأَرْضِ رَبِّ الْعَالَمِينَ} [الجاثية:٣٦]، أي:" رب السموات والأرض وخالقهما ومدبرهما، رب الخلائق أجمعين".
قال الطبري: " يقول: مالك السموات السبع، ومالك الأرضين السبع ومالك جميع ما فيهنّ من أصناف الخلق".
قال ابن كثير:" ثم لما ذكر حكمه في المؤمنين والكافرين قال: {فَلِلَّهِ الْحَمْدُ رَبِّ السموات وَرَبِّ الأرْضِ}، أي: المالك لهما وما فيهما؛ ولهذا قال: {رَبِّ الْعَالَمِينَ}".

=

قال الزمخشري:" فان مثل هذه الربوبية العامة يوجب الحمد والثناء على كل مربوب".

عن ابن عباس:" قال جبريل عليه السلام: يا محمد لله الخلق كله، والسموات كلهن ومن فيهن، والأرضون كلهن ومن فيهن، ومن بينهن مما يعلم ومما لا يعلم". وروي عن عثمان بن سعيد مثله.

واختُلِف أهل العلم في معنى «العالم»، على أقوال:

أحدها: أن العالم كل ما خلقه الله تعالى في الدنيا والآخرة، وهذا قول أبي إسحاق الزجّاج، وقتادة، ومجاهد، وابن عباس -في رواية الضحاك عنه-.

والثاني: أنّه الإنس، والجنِّ، وهذا قول ابن عباس-في رواية اخرى-، وسعيد بن جبير، ومجاهد، وابن جريج، ومقاتل بن سليمان.

الثالث: أن «العالم»: الدنيا وما فيها. حكاه الماوردي.

الرابع: أهل كل زمان عالم، قاله الحسين بن الفضل، لقوله تعالى: {أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ} [الشعراء: ١٦٥]، أي: من الناس، وقال العجّاج:

فَخِنْدِفُ هامَةُ هَذَا العَالَمِ...... مبارك للأنبياء خاتم

وقال جرير بن الخطفى:

تنصفه البرية وهو سام... ويضحي العالمون له عيالا

الخامس: أن «العالم» عبارة عمن يعقل، وهم أربعة أمم: الإنس والجن والملائكة والشياطين، ولا يقال للبهائم: عالم، لأن هذا الجمع إنما هو جمع من يعقل خاصة. وهذا قول الفراء وأبي عبيدة.

السادس: أن العالمين، أي: المخلوقين. قاله أبو عبيدة، وأنشد قول لبيد بن ربيعة:

ما إن رأيت ولا سمعـ... ـتُ بمثلهم فى العالمينا

السابع: أنهم المرتزقون، قاله زيد بن أسلم، ونحوه قول أبي عمرو بن العلاء: هم

=

الروحانيّون، وابن قتيبة، وهو معنى قول ابن عباس كذلك: "كل ذي روح دبّ على وجه الأرض".

الثامن: العالمون: أهل الجنة وأهل النار. حكاه الثعلبي عن جعفر الصادق.

والظاهر أن {العالَمين}: جمع عالم، وهو كل موجود سوى الله جل وعلا، و (العالَم) جمع لا واحدَ له من لفظه، و (العوالم) أصناف المخلوقات في السموات والأرض في البر والبحر، فالإنس عالَم، والجن عالَم، والملائكة عالَم. والله أعلم.

قال ابن عثيمين: «العالمين»: "كل ما سوى الله فهو من العالَم؛ وُصفوا بذلك؛ لأنهم عَلَم على خالقهم سبحانه وتعالى؛ ففي كل شيء من المخلوقات آية تدل على الخالق: على قدرته، وحكمته، ورحمته، وعزته، وغير ذلك من معاني ربوبيته".

قال ابن القيم:" ربوبيته للعالم تتضمن تصرفه فيه، وتدبيره له، ونفاذ أمره كل وقت فيه، وكونه معه كل ساعة في شأن، يخلق ويرزق، ويميت ويحيي، ويخفض ويرفع، ويعطي ويمنع، ويعز ويذل، ويصرف الأمور بمشيئته وإرادته، وإنكار ذلك إنكار لربوبيته وإلهيته وملكه".

قال ابن عطية:" قوله تعالى: {فَلِلَّهِ الْحَمْدُ} إلى آخر السورة، تحميد لله تعالى وتحقيق لألوهيته، وفي ذلك كسر لأمر الأصنام والأنصاب".

وَلَهُ الْكِبْرِياءُ أى: العظمة والسلطان والجلال فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ.

قال ابن كثير: أى: هو العظيم الممجد الذي كل شيء خاضع لديه. فقير إليه وفي الحديث الصحيح يقول الله تعالى: «العظمة إزارى، والكبرياء ردائي، فمن نازعنى واحدا منهما أسكنته ناري».

وَهُوَ الْعَزِيزُ أى: الذي لا يغالب ولا يمانع، الْحَكِيمُ في أقواله وأفعاله.

=

=

قوله تعالى: {وَلَهُ الْكِبْرِيَاءُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ}.

قال الطبري: " يقول: وله العظمة والسلطان في السموات والأرض دون ما سواه من الآلهة والأنداد".

قال الزجاج:" أي: له العظمة في السَّمَاوَات والأرض".

قال النحاس:" الكبرياء: العظمة".

قال مقاتل:" يعني: العظمة والسلطان، والقوة والقدرة فى السموات والأرض".

قال مجاهد: يعني: "السلطان".

قال ابن زيد: يعني:" الشَّرَف".

قال أبو هلال العسكري:" يعني: الملك والسلطان".

قال السمعاني:" أي: العظمة والعلو".

قال الواحدي:" أَيْ: إنَّه يُعظَّم بالعبادة في السموات والأرض".

قال ابن كثير:"أي: هو العظيم الممجد، الذي كل شيء خاضع لديه فقير إليه".

قال القرطبي:"أي: العظمة والجلال والبقاء والسلطان والقدرة والكمال".

قال الزمخشري:" فقد ظهرت آثار كبريائه وعظمته فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وحق مثله أن يكبر ويعظم".

عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: يقول الله تبارك وتعالى: «العظمة إزاري، والكبرياء ردائي، فمن نازعني واحدة منهما قذفته في جهنم».

وعن أبي سعيد الخدري، وأبي هريرة قالا: قال رسول الله ﷺ: «العز إزاره، والكبرياء رداؤه، فمن ينازعني عذبته».

قوله تعالى: {وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ} [الجاثية:٣٧]، أي:" وهو العزيز الذي لا يغالَب، الحكيم في أقواله وأفعاله وقدره وشرعه".

قال الطبري:" {وَهُوَ الْعَزِيزُ} في نقمته من أعدائه، القاهر كل ما دونه، ولا يقهره

=

=

شيء {الْحَكِيمُ} في تدبيره خلقه وتصريفه إياهم فيما شاء كيف شاء".

قال ابن كثير: " {وَهُوَ الْعَزِيزُ}، أي: الذي لا يغالب ولا يمانع، {الحكيم} في أقواله وأفعاله، وشرعه وقدره، تعالى وتقدس، لا إله إلا هو".

قال محمد بن إسحاق: " العزيز: في نصرته ممن كفر به إذا شاء"، الحكيم: في عذره وحجته إلى عباده".

قال أبو العالية:" {عزيز} في نقمته إذا انتقم". وروي عن قتادة والربيع بن أنس نحو ذلك.

عن أبي العالية:" {حكيم}، قال: حكيم في أمره".

(تتمة): قال الغرناطي في ملاك التأويل القاطع: الآية الأولى منها - قوله تعالى: (إِنَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِلْمُؤْمِنِينَ * وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِنْ دَابَّةٍ آيَاتٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ * وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا أَنْزَلَ اللهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ رِزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ آيَاتٌ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ) (الجاثية: ٣ - ٥)، للسائل أن يسأل عن وجه اختصاص كل آية من هذه الثلاث بما به خصت خواتمها من صفات المعتبرين بها، فقيل في الأولى: (لِلْمُؤْمِنِينَ)، وفي الثانية: (لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ)، وفي الثالثة: (لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ)؟

والجواب عن ذلك، والله أعلم: أن خلق السماوات والأرض للمعتبر المنصف كاف في التصديق بحدوثهما وافتقارهما من حيث إن وجودهما أو عدمهما من قبيل الجائز، والتخصيص بأحد الجائزين لا يكون إلا بمخصص مقتض هذا الجائز الواقع، ثم ذلك المخصص لا يكون مماثلًا وإلا لافتقر إلى مخصص، وذلك مؤد إلى التسلسل وهو محال، وأيضًا فليس أحد المتماثلين في إيجاب حكم المماصلة بأولى مما يوجبه الآخر، وهذا كله محال، فلابد من صناع متعال عنه شبه المصنوع، منزه عن المماثل والنظير وسمات الحدوث، متصف بالكمال

=

لكمال المصنوع وإتقانه، متصف بالعلم والقدرة والإرادة، إلى ما هو سبحانه أهله، وإذا حصل الاعتراف بالصانع علم المعترف بما ذكرنا أنه تعالى قادر على خلق ما يشاء، وإلى هذا أشار قوله تعالى: (أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَى وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ) (يس: ٨١)، فمن اعتبر بالسماوات والأرض أو بخلقهما إذ يمكن في قوله: (إِنَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ) أن يؤخذ على (أن) لا مضاف محذوفًا، وأن يكون على حذف المضاف، أي إن في خلق السماوات والأرض، وطريقة الاعتبار واحدة على التقديرين لمن اعتبروا، فمن اعتبر وأنصف آمن، قال تعالى: (إِنَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِلْمُؤْمِنِينَ) (الجاثية: ٣)، فحصل لهم الإيمان، فوسموا قبل حصوله بما يؤوله أمرهم - إذا اعتبروا - إليه، فهو من قبيل التسمية بالمآل، ومنه قوله تعالى: (إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا) (يوسف: ٣٦) ثم قال تعالى: (وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِنْ دَابَّةٍ آيَاتٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ) (الجاثية: ٤)، والمراد أن المعتبر بالسماوات والأرض إذا حسن اعتباره وأنصف من نفسه حصل له الإيمان بالصانع سبحانه، فإذا أضاف إلى ذلك الاعتبار بخلق الإنسان وتطوره في الأرحام من حال النطفة، إلى حال العلقة، إلى حال المضغة، إلى حال العظام وكسوتها باللحم، إلى الإبراز إلى عالم الشهادة بشرًا سويًا محكمًا متناسب الأعضاء تام الخلق، إلى تدريجه بعد هذا، وكل ذلك من غير توقف شيء من صفاته وخواصه على اختيار أب أو أم، إلى اختلاف الألسنة والألوان والصور إلى ما يتعلق بذلك، واعتبر بخلق الحيوانات وما بث سبحانه في الأرض برها وبحرها من ذلك، وركون كل ذي شكل إلى شكله، وقيام أغذية الجميع بما يصلح لهم، وتسخير المسخر منها للآدمي وإيناسه، وتوحش المتوحش، وإجراء الجميع على اختلاف الأحوال في ذلك، ففي الاعتبار بذلك كله ما يثمر للمؤمن اليقين ويرقيه إلى أعالي درجات المتقين.

=

ثم إذا اعتبر بما أشارت إليه الآية الثاثة، من اختلاف الليل والنهار، وتهيئة الليل للسكون والاستراحى والنهار للتصريف في المعاش والحاجات، وتداولهما كالمتعاوضين في الطول والقصر، وإيلاج أحدهما في الآخر إيلاجًا خفيًا حتى لا يدخل أحدهما على الآخر دفعة فيضر (بأبصار) الحيوان، إلى ما يتعلق بهذا ويرجع إليه، فمن أحكم تدبر ذلك واعتبر به، واعتبر جري الرياح ومنافعخا من سوقها للسحاب والأمطار وإحياء الأرض بالماء النازل منها بعد موت الأرض وإخراجها ضروب النبات لانتعاش الحيوان ومصالحه، فإذا اعتبر المؤمن الموقن بهذا أعقبه ثبات يقينه وتمكن دينه فآمن وأيقن وعقل عن ربه، فانتفت الشبهات، وأفصحت بالبراهين الآيات، قال تعالى: (وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ) (العنكبوت: ٤٣). فتأمل كيف جعل سبحانه تعقل الأمثال موقفًا على العالمين، وإنما تحصل لهم الاتصاف بأن كانوا عاللمين بما منحوه كم كمال عقولهم، فتبين التدريج الوارد في الآيات، وأنه لا يلائم آية منها ما ختم به غيرها، بل كان كل ختام من الأوصاف الثلاثة لا يليق بغير موضعه، وتأمل آية البقرة وهي قوله تعالى: (إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ) إلى قوله: (لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ) (البقرة: ١٦٤) فأجمعت آية البقرة ما وقع في هذه الآيات الثلاث من سورة الجاثية منسوقًا ذلك بعضه على بعض غير مستأنف الابتداء للاعتبار به كما ورد في هذه الآي، بل ورد مجموعة في آية واحدة، كيف ختم ذلك بقوله: (لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ) كما ختمت هذه الآي الثلاث بقوله: (لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ) إعلامًا بشرف العقل الذي به - بإذن الله - يحصل الإيمان ثم اليقين ثم الثبات المحصل للكمال بحصول العلم الحاصر لذلك كله. ا.هـ من ملاك التأويل (٢/ ٤٤١-٤٤٢).

سورة الأحقاف(١)

(١) السورة مكيه على قول الجماهير. قاله ابن عباس، وعبد الله بن الزبير، والحسن،وعكرمة، ومجاهد، وقتادة. وحكاه ابن الجوزي عن الجمهور.

الثاني: أنها مكية إلا قوله: {قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللهِ وَكَفَرْتُمْ بِهِ} [الأحقاف: ١٠]. نزلت بالمدينة. وهذا القول منسوب الى ابن عباس، وقتادة.

الثالث: أنها مكية إلا آيتين: قوله {قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللهِ وَكَفَرْتُمْ بِهِ} [الأحقاف: ١٠]، وقوله: {فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ} [الأحقاف: ٣٥]. قاله مقاتل.

قال ابن عطية:" هذه السورة مكية لم يختلف منها إلا في آيتين، وهي قوله: {قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كانَ مِنْ عِنْدِ اللهِ وَكَفَرْتُمْ بِهِ وَشَهِدَ شاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرائِيلَ عَلى مِثْلِهِ فَآمَنَ وَاسْتَكْبَرْتُمْ} [الأحقاف: ١٠]، وقوله: {فَاصْبِرْ كَما صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ} [الأحقاف: ٣٥] الآية، فقال بعض المفسرين: هاتان آيتان مدنيتان وضعتا في سورة مكية".

الرابع: انها مكية إلا قوله: {وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا} [الأحقاف: ١٥]، الآيات الأربع وقوله: {فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ} [الأحقاف: ٣٥]. ذكره السيوطي، وقال:"حكاه في جمال القراء".

قلت: وهذا خطأ في النقل، فإنّ السخاوي لم ينص على استثناء قوله تعالى: {وَوَصَّيْنَا الْإِنْسانَ} .. الآيات وتابع السيوطي في ذلك الألوسي، فنسب هذا الاستثناء إلى «جمال القراء» فليتأمل.

قال القرطبي:" سورة الأحقاف مكية في قول جميعهم".

* كلماتها ثلاثمائة وأربع وأربعون. وحروفها ألفان وخمسمائة وخمس وتسعون. المختلف فيها آية واحدة: حم. فواصل آياتها (من).

=

بسم الله الرحمن الرحيم(١)

=

* أسماء السورة:

سميت هذه السورة «سورة الأحقاف» في جميع المصاحف وكتب السنة، ووردت تسميتها بهذا الاسم في كلام عبد الله بن مسعود، -رضي الله عنه-، وعبد الله بن عباس -رضي الله عنهما-.

ووجه تسميتها «الأحقاف» ورود لفظ: «الأحقاف» فيها ولم يرد في غيرها من سور القرآن، قال تعالى: {وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ النُّذُرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ} [الأحقاف: ٢١].

وتسمى «حم الأحقاف»، كما جاءت في كلام الصحابة -رضوان الله عليهم-، وقد وردت هذه التسمية عند الحسن، وعكرمة، وابن وهب، وبذلك عنون لها الواحدي، والنيسابوري في تفسيرهما.

* معظم مقصود السّورة: إلزام الحجّة على عبادة الأَصنام، الإِخبار عن تناقض كلام المتكبّرين، وبيان نبوّة سيّد المرسلين، وتأْكيد ذلك بحديث موسى، والوصيّة بتعظيم الوالدَيْن، وتهديد المتنعّمين، والمترفِّهين، والإِشادة بإِهلاك عاد العادين، والإِشارة إِلى الدّعوة، وإِسلام الجنّيين، وإِتيان يوم القيامة فجأَة، واستقلال لبث اللابثين فى قوله: {كَأَنْ لَمْ يلبثوا إِلاَّ سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ}.

* المتشابهات: ما فى هذه السّورة من المتشابه سبق وذكر فى المتشابه {أَوْلِيَآءُ أولائك} أَى لم يجتمع فى القرآن همزتان مضمومتان غيرهما. ا. هـ من بصائر ذوي التمييز.

(١) تقدم تفسير البسملة في أول سورة الفاتحة.

حم (١).

{حم} الله أَعْلَم بِمُرَادِهِ بِهِ[1].

تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ (٢).

{تنزيل الكتاب} القرآن مبتدأ {من الله} خبره {الْعَزِيز} فِي مُلْكه {الْحَكِيم} فِي صُنْعه.

مَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُسَمًّى وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنْذِرُوا مُعْرِضُونَ (٣).

{ما خلقنا السماوات وَالْأَرْض وَمَا بَيْنهمَا إلَّا} خَلْقًا {بِالْحَقِّ} لِيَدُلّ عَلَى قُدْرَتنَا وَوَحْدَانِيّتنَا {وَأَجَل مُسَمًّى} إلَى فَنَائِهِمَا يَوْم الْقِيَامَة {وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنْذِرُوا} خُوِّفُوا به من العذاب {معرضون}.

قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ ائْتُونِي بِكِتَابٍ مِنْ قَبْلِ هَذَا أَوْ أَثَارَةٍ مِنْ عِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٤).

{قُلْ أَرَأَيْتُمْ} أَخْبِرُونِي {مَا تَدْعُونَ} تَعْبُدُونَ {مِنْ دُون الله} أَيْ الْأَصْنَام مَفْعُول أَوَّل {أَرُونِي} أَخْبِرُونِي مَا تَأْكِيد {مَاذَا خَلَقُوا} مَفْعُول ثَانٍ {مِنْ الْأَرْض} بَيَان مَا {أَمْ لَهُمْ شِرْك} مُشَارَكَة {فِي} خَلْق {السَّمَاوَات} مَعَ الله وَأَمْ بِمَعْنَى هَمْزَة الْإِنْكَار {ائْتُونِي بِكِتَابٍ} مُنَزَّل {مِنْ قَبْل هَذَا} الْقُرْآن {أَوْ أَثَارَة} بَقِيَّة {مِنْ عِلْم} يُؤْثَر عَنْ الْأَوَّلِينَ بِصِحَّةِ دَعْوَاكُمْ فِي عِبَادَة الْأَصْنَام أَنَّهَا تُقَرِّبكُمْ إلَى الله {إنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ} فِي دَعْوَاكُمْ

وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَنْ

---

(١) تقدم القول في الحروف المقطعة بتوسع تحت الآية رقم (١) من سورة البقرة.

دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ (٥).

{وَمَنْ} اسْتِفْهَام بِمَعْنَى النَّفْي أَيْ لَا أَحَد {أضل ممن يدعوا} يَعْبُد {مِنْ دُون الله} أَيْ غَيْره {مَنْ لَا يَسْتَجِيب لَهُ إلَى يَوْم الْقِيَامَة} وَهُمْ الْأَصْنَام لَا يُجِيبُونَ عَابِدِيهِمْ إلَى شَيْء يَسْأَلُونَهُ أَبَدًا {وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ} عِبَادَتهمْ {غَافِلُونَ} لِأَنَّهُمْ جَمَاد لَا يَعْقِلُونَ

وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ (٦).

{وَإِذَا حُشِرَ النَّاس كَانُوا} أَيْ الْأَصْنَام {لَهُمْ} لِعَابِدِيهِمْ {أَعْدَاء وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ} بِعِبَادَةِ عَابِدِيهِمْ {كَافِرِينَ} جاحدين[1].

---

(١) قوله تعالى: (تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللهِ) أي: هذا الكتاب وهو القرآن منزل من عند الله.

كما قال تعالى (تَنْزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ) وقال تعالى (تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ). وقال تعالى (لا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ).

- هذا الكلام كلام الله ألقاه إلى جبريل، ثم إن جبريل نزل به على قلب محمد ﷺ، كما قال تعالى (وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ. نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ. عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ).

- وسمي القرآن كتابًا: لأنه مكتوب في اللوح المحفوظ كما قال تعالى (بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ)، وهو مكتوب في الصحف التي بأيدي الملائكة قال تعالى (فِي صُحُفٍ مُكَرَّمَةٍ مَرْفُوعَةٍ مُطَهَّرَةٍ. بِأَيْدِي سَفَرَةٍ)، وهو مكتوب في الصحف التي بأيدينا، فهو مكتوب بأيدينا ونقرؤه من هذه الكتب.

(الْعَزِيزِ) اسم من أسماء الله متضمن لصفة العزة وهي ثلاثة أنواع: عزة القدْر: بمعنى أن الله ذو قدْر شريف عظيم، وعزة القهر: بمعنى أن الله القاهر لكل شيء، =

=

لا يُغلب، وعزة الامتناع: بمعنى أنه يمتنع أن يناله أحد بسوء أو نقص

(الْحَكِيمِ) اسم من أسماء الله متضمن لصفة الحكمة البالغة، فأوامره وأحكامه وأفعاله كلها لحكمة.

فهو سبحانه حكيم في صنعه، وحكيم في شرعه، فجميع مصنوعاته كلها محكمة، قال تعالى (الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ) وأما في الشرع فيقول سبحانه (أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافًا كَثِيرًا) فلا يمكن أن يوجد تناقض في القرآن أبدًا.

قال بعض العلماء: الحكمة تكون في صورة الشيء: أي أن خلق الإنسان على هذه الصورة لحكمة، وكذلك خلق الحيوان على هذه الصورة لحكمة.

وتكون في غايته: أي: أن الغاية من خلق الإنسان لحكمة، وكذلك الحيوانات، وكذلك جميع المخلوقات، كما قال تعالى (وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا).

قال الطبري:" معناه: هذا تنزيل القرآن من عند الله {العَزِيزِ} في انتقامه من أعدائه {الحَكِيمِ} في تدبيره أمر خلقه".

قال ابن أبي زمنين:" يعني: القرآن أنزله مع جبريل على محمد ﷺ".

قال القرطبي:" «الكتاب»: القرآن. و {العزيز}: المنيع. {الحكيم} في فعله".

قال السمعاني:" {العزيز الحكيم}، أي: الغالب على الأمور، العدل في الأحكام".

قال الفخر الرازي:" قوله: {الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ}، يجوز جعلها صفة للكتاب، ويجوز جعلهما صفة لله تعالى، إلا أن هذا الثاني أولى".

قال ابن فورك:" {الحكيم} هو العليم الذي تقع أفعاله محكمة، واقتضى ذكر {العزيز} في {تنزيل الكتاب} لأنه حصلت حكمته من عزيز يحفظه حتى يصل

=

=

إليك على جهة من غير تغيير ولا تديل لموضع حجته، وقيل: {العزيز} في انتقامه، ففيه تحذير من مخالفته".

قال السعدي:" هذا ثناء منه تعالى على كتابه العزيز وتعظيم له، وفي ضمن ذلك إرشاد العباد إلى الاهتداء بنوره والإقبال على تدبر آياته واستخراج كنوزه".

قال الزجاج:" «الكتاب» -ههنا-: القرآن، ورفع تنزيل الكتاب من جهتين:

إحداهما: الابتداء ويكون الخبر من الله، أي: نزل من عند الله.

ويجوز أن يكون رفعه على: هذا تنزيل الكتاب".

قوله: (مَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ) أي: وما أوجدنا السموات والأرض.

قوله: (وَمَا بَيْنَهُمَا) من المخلوقات الكثيرة المنوعة، وتقدم.

قوله: (إِلَّا بِالْحَقِّ) أي: وليس عبثًا، فإن الله منزه عن العبث، فكل شيء أوجده الله أوجده لحكمة، فالحق ضد الباطل، فالله خلقهما لحكم باهرة، لم يخلقهما باطلًا ولا عبثًا ولا لعبًا.

كما قال تعالى (وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا)، وقال تعالى (وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لاعِبِينَ).

فمن الحق الذي كان خلقهما من أجله: إقامة البرهان على أنه الواحد المعبود وحده جلا وعلا.

كما قال تعالى (يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ. الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ).

وقال تعالى (خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ تَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ).

ولما بين تعالى في أول سورة الفرقان، صفات من يستحق أن يعبد ومن لا يستحق، قال في صفات من يستحق العبادة (الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ

=

=

وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا).

والآيات في مثل ذلك كثيرة تدل دلالة واضحة على أنه تعالى ما خلق السماوات والأرض وما بينهما إلا خلقًا متلبسًا بالحق ومن الحق الذي من أجله خلق السموات والأرض، تعليمه لخلقه أنه تعالى على كل شيء قدير، وأنه قد أحاط بكل شيء علمًا، كما قال تعالى (اللهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا).

ومن الحق الذي خلق السماوات والأرض ومابينهما: هو تكليف الخلق، وابتلاؤهم أيهم أحسن عملًا ثم جزاؤهم على أعمالهم، كما قال تعالى (وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا).

ولما ظن الكفار أن الله خلق السماوات والأرض وما بينهما باطلًا، لا لحكمة تكليف وحساب وجزاء، هددهم بالويل من النار بسبب ذلك الظن السيء فقال تعالى (وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ)، وقد نزه تعالى نفسه عن كونه خلق الخلق عبثًا، فقال تعالى (أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لا تُرْجَعُونَ. فَتَعَالَى اللهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ). فقوله تعالى (فَتَعَالَى اللهُ) أي: تنزه وتعاظم وتقدس عن أن يكون خلقهم لا لحكمة.

قوله: (وَأَجَلٍ مُسَمّىً) إي: إلى مدة معينة مضروبة لا تزيد ولا تنقص، وهذا الأجل هو يوم القيامة، فإنه تنتهي فيه السموات والأرض وما بينهما وتبدل الأرض غير الأرض والسموات، وفيه إشارة إلى قيام الساعة وانقضاء مدة الدنيا.

قوله: (وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنْذِرُوا مُعْرِضُونَ) أي: عما أنذروا وخوّفوا به في القرآن

=

=

من البعث والحساب والجزاء معرضون مولون غير مستعدين له.

قال الطبري: " يقول تعالى ذكره: ما أحدثنا السموات والأرض فأوجدناهما خلقا مصنوعا، وما بينهما من أصناف العالم إلا لإقامة الحقّ والعدل في الخلق".

قال السمعاني:" يعني: إلا للثواب والعقاب، ويقال: إلا لإقامة الحق".

قال الزجاج:" جاء في التفسير: مَا خَلَقْنَاهما إِلَّا للحَقِّ، أي: لإقامة الحق، وتكون على معنى ما قامت السماوات والأرض إلا بالحق".

قال ابن كثير:" أي: لا على وجه العبث والباطل".

قوله تعالى: {وَأَجَلٍ مُسَمًّى} [الأحقاف:٣]، أي:" وإلى زمنٍ معيَّن هو زمن فنائهما يوم القيامة".

قال الطبري: " يقول: وإلا بأجل لكل ذلك معلوم عنده يفنيه إذا هو بلغه، ويعدمه بعد أن كان موجودا بإيجاده إياه".

قال السمعاني:" أي: أمد ينتهي إليه، وهذا إشارة إلى فناء السموات والأرض لمدة معلومة".

قال ابن كثير:" أي: إلى مدة معينة مضروبة لا تزيد ولا تنقص".

قوله تعالى: {وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنْذِرُوا مُعْرِضُونَ} [الأحقاف:٣]، أي:" والذين جحدوا أن الله هو الإله الحق، عما أنذرهم به القرآن معرضون، لا يتعظون ولا يتفكرون".

قال الطبري: يقول:" والذين جحدوا وحدانية الله عن إنذار الله إياهم معرضون، لا يتعظون به، ولا يتفكرون فيعتبرون".

قال الزجاج:" أي: أعرضوا بعد أن قام لهم الدليل بخلق الله السماوات والأرض وما بينهما".

قال السمعاني:" أي: معرضون إعراض المكذبين الجاحدين".

=

قال ابن كثير:" أي: لاهون عما يراد بهم، وقد أنزل إليهم كتابا وأرسل إليهم رسول، وهم معرضون عن ذلك كله، أي: وسيعلمون غبّ ذلك".

قوله: (قُلْ) يا محمد لهؤلاء المشركين العابدين مه الله غيره.

قوله: (أَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ) أخبروني عن هذه الأصنام التي تعبدونها من دون الله.

قوله: (أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ) أي: أرشدوني إلى المكان الذي استقلوا بخلقه من الأرض، والله ﷻ دائمًا يبين على استحقاقه للعبادة بأنه الخالق وأن الآلهة التي يعبدها المشركون لا تستطيع الخلق.

كما قال تعالى (أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لا يَخْلُقُ أَفَلا تَذَكَّرُونَ) وقال تعالى (إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ) وقال تعالى (هَذَا خَلْقُ اللهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ) وقال تعالى (وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ لا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ). وقال تعالى (وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ). وقال تعالى (قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَكُمُ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ).

قوله: (أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ) أم لهم نصيب ومشاركة مع الله في خلق السموات، الجواب: ليس لهم شيء، وما يملكون من قطمير، كما قال تعالى)الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ) والقطمير: والقطمير: القشرة الرقيقة البيضاء التي بين التمرة والنواة، إن الملك والتصرف كله إلا لله ﷻ، فكيف تعبدون معه غيره وتشركون به؟ وما ذكره تعالى أن هذه الآلهة التي يعبدونها ليس مشاركة في الخلق أوضحه في آيات آخر كما قال تعالى (قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللهِ لا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ
=

=

شِرْكٍ) وقال تعالى (قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَكُمُ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ).

(ائْتُونِي بِكِتَابٍ مِنْ قَبْلِ هَذَا) أي: هاتوا كتابًا من كتب الله المنزلة على الأنبياء عليهم الصلاة والسلام يأمركم بعبادة هذه الأصنام.

(أَوْ أَثَارَةٍ مِنْ عِلْمٍ) أي: دليل بيّن على هذا المسلك الذي سلكتموه.

قوله تعالى: {قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ} [الأحقاف:٤]، أي:" قل -أيها الرسول- لهؤلاء الكفار: أرأيتم الآلهة، والأوثان التي تعبدونها من دون الله".

قال قتادة:" يعني: الأصنام".

قال السمعاني:" أي: الأصنام".

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره: قل يا محمد لهؤلاء المشركين بالله من قومك: أرأيتم أيها القوم الآلهة والأوثان التي تعبدون من دون الله".

قال ابن كثير: أي:" {قُلْ} لهؤلاء المشركين العابدين مع الله غيره: {أَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ..}".

قال السعدي:" أي: {قُلْ} لهؤلاء الذين أشركوا بالله أوثانا وأندادا لا تملك نفعا ولا ضرا ولا موتا ولا حياة ولا نشورا، قل لهم -مبينا عجز أوثانهم وأنها لا تستحق شيئا من العبادة-".

قوله تعالى: {أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ} [الأحقاف:٤]، أي:" أروني أيَّ شيء خلقوا من الأرض".

قال قتادة:" لا شيء والله خلقوا منها".

عن السدي:" {مِنَ الْأَرْضِ}، يعني: في الأرض".

قال الطبري:" أروني أيّ شيء خلقوا من الأرض، فإن ربي خلق الأرض كلها، فدعوتموها من أجل خلقها ما خلقت من ذلك آلهة وأربابا، فيكون لكم بذلك في

=

=

عبادتكم إياها حجة، فإن من حجتي على عبادتي إلهي، وإفرادي له الألوهة، أنه خلق الأرض فابتدعها من غير أصل".

قال ابن كثير:"أي: أرشدوني إلى المكان الذي استقلوا بخلقه من الأرض".

قال الزجاج:" أي: في خلق السَّمَاوَاتِ، أي: فلذلك أشركتموهم في عبادة الله ﷻ".

قال السمعاني:" أي: في خلق السموات فتعبدونها لذلك".

قوله تعالى: {أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ} [الأحقاف:٤]، أي:" أم لهم مع الله نصيب من خلق السموات؟".

قال قتادة:" لا والله، ما لهم فيهما من شرك".

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره: أم لآلهتكم التي تعبدونها أيها الناس، شرك مع الله في السموات السبع، فيكون لكم أيضًا بذلك حجة في عبادتكموها، فإن من حجتي على إفرادي العبادة لربي، أنه لا شريك له في خلقها، وأنه المنفرد بخلقها دون كلّ ما سواه".

قال السمعاني:" معناه: أنه ليس لهم شرك، لا في خلق الأرض، ولا في خلق السماء، أي: نصيب، فكيف تعبد مع الله؟!".

قال ابن كثير:" أي: ولا شرك لهم في السموات ولا في الأرض، وما يملكون من قطمير، إن المُلْك والتصرّف كله إلا الله، ﷻ، فكيف تعبدون معه غيره، وتشركون به؟ من أرشدكم إلى هذا؟ من دعاكم إليه؟ أهو أمركم به؟ أم هو شيء اقترحتموه من عند أنفسكم؟".

قال السعدي:" هل خلقوا من أجرام السماوات والأرض شيئا؟ هل خلقوا جبالا؟ هل أجروا أنهارا؟ هل نشروا حيوانا؟ هل أنبتوا أشجارا؟ هل كان منهم معاونة على خلق شيء من ذلك؟ لا شيء من ذلك بإقرارهم على أنفسهم فضلا عن غيرهم، فهذا دليل عقلي قاطع على أن كل من سوى الله فعبادته باطلة".

=

=

قوله تعالى: {ائْتُونِي بِكِتَابٍ مِنْ قَبْلِ هَذَا} [الأحقاف: ٤]، أي:" هاتوا كتابًا من الكتب المنزلة من عند الله قبل هذا القرآن يأمركم بعبادة هذه الأصنام؟".

قال الزجاج:" أي: اتتوني بِكتابٍ أنزل فيه برهانُ ما تَدَّعُون".

قال النحاس:" أي: بكتاب فيه برهان على ما قلتم".

قال السمعاني:" أى: بكتاب من قبل القرآن يدل على ما زعمتموه".

قال ابن كثير:" أي: هاتوا كتابا من كتب الله المنزلة على الأنبياء، عليهم الصلاة والسلام، يأمركم بعبادة هذه الأصنام".

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره: بكتاب جاء من عند الله من قبل هذا القرآن الذي أُنزل عليّ، بأن ما تعبدون من الآلهة والأوثان خلقوا من الأرض شيئًا، أو أن لهم مع الله شركًا في السموات، فيكون ذلك حجة لكم على عبادتكم إياها، لأنها إذا صحّ لها ذلك صحت لها الشركة في النِّعم التي أنتم فيها، ووجب لها عليكم الشكر، واستحقت منكم الخدمة، لأن ذلك لا يقدر أن يخلقه إلا الله".

قال الصابوني:" وهو أم تعجيز لأنهم ليس لهم كتابٌ يدل على الإشراك بالله، بل الكتب كلُّها ناطقة بالتوحيد".

قوله تعالى: {أَوْ أَثَارَةٍ مِنْ عِلْمٍ} [الأحقاف: ٤]، أي:" أو بقية من علمٍ من علوم الأولين شاهدة بذلك".

قال ابن كثير:" أي: دليل بَيِّن على هذا المسلك الذي سلكتموه".

قال السعدي:" من المعلوم أنهم عاجزون أن يأتوا عن أحد من الرسل بدليل يدل على ذلك، بل نجزم ونتيقن أن جميع الرسل دعوا إلى توحيد ربهم ونهوا عن الشرك به، وهي أعظم ما يؤثر عنهم من العلم قال تعالى: {وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولا أَنِ اُعْبُدُوا اللهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ} وكل رسول قال لقومه: {اعْبُدُوا اللهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ} فعلم أن جدال المشركين في شركهم غير مستندين فيه على

=

=

برهان ولا دليل وإنما اعتمدوا على ظنون كاذبة وآراء كاسدة وعقول فاسدة. يدلك على فسادها استقراء أحوالهم وتتبع علومهم وأعمالهم والنظر في حال من أفنوا أعمارهم بعبادته هل أفادهم شيئا في الدنيا أو في الآخرة؟".

وفي قوله تعالى: {أَوْ أَثَارَةٍ مِنْ عِلْمٍ} [الأحقاف:٤]، وجوه من التفسير:

أحدها: بقية من علم، قاله أبو بكر بن عياش، وأبو عبيدة، وابن قتيبة، وبه قال الطبري. ومنه قول الشاعر:

وذاتِ أثارةٍ أكَلَتْ عَلَيْها... نَبَاتًا فِي أكمِتِهِ قَفَارا

أي: بقية من شحم.

قال ابن قتيبة:"أي: بقية من علم تؤثرُ عن الأولين".

الثاني: أو علم تأثرونه عن غيركم، قاله مجاهد.

الثالث: أو أثرة يستخرجه فيثيره، قاله الحسن.

قال الحسن:" أثارة شيء يستخرجونه فِطْرة".

قال النحاس:" وهذه الأقوال [الثلاثة] متقاربة، لأن البقية هو شئ يؤثر ومعروف في اللغة أن يقال سمنت الناقة على أثارة أي على بقية من سمن".

الرابع: أو خاصة من علم أوتيتموه، وأوثرتم به على غيركم، قاله قتادة.

قال النحاس:" يقال: لفلان عندي أثرة أو أثرة أي شئ أخصه به، ومنه: آثرت فلانا على فلان".

الخامس: أنه علم الخط، وهو خط كان تخطه العرب في الأرض. قاله ابن عباس، ورواه عن رسول الله -ﷺ-.

عن ابن عباس، -قال: سفيان لا أعلمه إلا عن النبي ﷺ -: {أَوْ أَثَارَةٍ مِنْ عِلْمٍ} قال: الخَطّ".

قال أبو بكر بن عيّاش: "الخَطُّ: هو العِيافة".

=

=

وروي عن أبي سلمة في قوله: " {أو أثارة من علم}، قال: الخط".
قال الواحدي:" المعنى على هذا: ائتوني بعلم من قبل الخط الذي تخطونه في الأرض، وكأنه قيل لهم ذلك لأنهم كانوا يعدونه علمًا لهم وبيانًا في الأمور فقيل لهم: ائتوني بعلم من هذه الجهة على ما تدعونه حقًّا إن كنتم صادقين أن لله شريكًا. واشتقاق هذا القول من الأثر بمعنى العلامة، والخط أثر".
وفي بعض التفاسير: أن من خط خطه علم علمه".
وعن ابن إسحاق قال: "أول من خط بالقلم إدريس النبي عليه السلام".
السادس: أو ببينة من الأمر. قاله ابن عباس.
السابع: أو رواية من علم. قاله يحيى، ومقاتل.
قال مقاتل:" يقول: أو رواية تعلمونها من الأنبياء قبل هذا القرآن بأن له شريكا".
وعن مطرف بن الوراق:" قال: قوله: {أو أثارة من علم}: هو الإسناد".
الثامن: أو علامة مِنْ عِلْم، قاله الزجاج.
التاسع: أو اجتهاد بعلم، لأن أثارة العلم الاجتهاد. أفاده الماوردي.
العاشر: أو مناظرة بعلم، لأن المناظر في العلم مثير لمعانيه. أفاده الماوردي.
وقرأ ابن مسعود، الحسن، وأبو عبد الرحمن السلميّ، وأبو رزين، وأيوب السختياني، ويعقوب: «أَثَرَةٍ» بفتح الثاء: «أَوْ أَثَرَةٍ مِنْ عِلْمٍ».
قال الفراء:" المعنى فيهن كلهن: بقية من علم، أَوْ شيء مأثور من كتب الأولين".
قال ابن كثير: وقرئ:" «أو أَثَرَة من علم»، أي: أو علم صحيح يأثرونه عن أحد ممن قبلهم".
قال النحاس:" ويجوز أن يكون {أثرة} خبرا عن بعض الأنبياء صلى الله عليهم من أثرت الحديث وذا قول أبي عبيدة".
قال ابن كثير -بعد ان ذكر طائفة من الأقوال السابقة-:" وكل هذه الأقوال

=

=

متقاربة".

قال الطبري:" وأولى الأقوال في ذلك بالصواب قول من قال: الأثارة: البقية من علم، لأن ذلك هو المعروف من كلام العرب، وهي مصدر من قول القائل: أثر الشيء أثارة، مثل سمج سماجة، وقبح قباحة، كما قال راعي الإبل:

وذاتِ أثارةٍ أكَلَتْ عَلَيْها... نَبَاتًا فِي أكمِتِهِ قَفَارا

يعني: وذات بقية من شحم، فأما من قرأه «أَوْ أَثَرَةٍ» فإنه جعله أثرة من الأثر، كما قيل: قترة وغبرة وقد ذُكر عن بعضهم أنه قرأه: «أَوْ أَثْرَةٍ» بسكون الثاء، مثل الرجفة والخطفة، وإذا وجه ذلك إلى ما قلنا فيه من أنه بقية من علم، جاز أن تكون تلك البقية من علم الخط، ومن علم استثير من كُتب الأوّلين، ومن خاصة علم كانوا أوثروا به. وقد رُوي عن رسول الله ﷺ في ذلك خبر بأنه تأوّله أنه بمعنى الخط".

قوله تعالى: {إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ} [الأحقاف:٤]، أي:" إن كنتم صادقين في دعواكم أنها شركاء مع الله".

قال مقاتل:" يعني: اللات والعزى ومناة بأنهن له شركاء".

قال الطبري: أي:" في دعواكم لها ما تدّعون، فإن الدعوى إذا لم يكن معها حجة لم تُغن عن المدّعي شيئًا".

قال ابن كثير:" أي: لا دليل لكم نقليًا ولا عقليا على ذلك".

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: "والأثارة كما قال من قال من السلف هي الرواية والإسناد، وقالوا هي: الخط أيضا إذ الرواية والإسناد يكتب بالخط وذلك لأن الأثارة من الأثر، فالعلم الذي يقوله من يقبل قوله يؤثر بالإسناد ويقيد بالخط، فيكون كل ذلك من آثاره".

وقال في موضع آخر من فتاويه، في تفسيره لهذه الآية: " الأثارة ما يؤثر عن الأنبياء بالرواية والإسناد، وقد يقيد في الكتب فلهذا فسر بالرواية وفسر بالخط".

=

=

وكل هذه الأقوال متقاربة، وتحتملها الآية، وكلها راجعة إلى معنى واحد وهو: مطالبة المشركين بدليل بين يدل على صحة ما هم عليه من عبادة الأصنام، وهذا من باب التهكم بهم وبأقوالهم، إذ لا دليل لهم نقليا ولا عقليا على ذلك.
وهو ما اختاره الطبري، والزجاج، وابن كثير، وغيرهم.
قال الطبري بعد أن جعل معنى الأثارة أي البقية ثم أدخل بقية المعاني تحت هذا المعنى، قال: "وإذا وجه ذلك إلى ما قلنا من أنه بقية من علم، جاز أن تكون تلك البقية من علم الخط، ومن علم استثير من كتب الأولين، ومن خاصة علم كانوا أوثروا به... فتأويل الكلام إذن: ائتوني أيها القوم بكتاب من قبل هذا الكتاب بتحقيق ما سألتكم تحقيقه من الحجة على دعواكم ما تدعون لآلهتكم، أو ببقية من علم يوصل بها إلى علم صحة ما تقولون من ذلك (إن كنتم صادقين) في دعواكم لها ما تدعون فإن الدعوى إذا لم يكن معها حجة لم تغن عن المدعي شيئا".
(إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ) أي: إن كنتم صادقين في دعواكم أنهاء شركاء مع الله.
(وَمَنْ أَضَلُّ) أي: لا أحد أشد ضلالة.
(مِمَّنْ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللهِ) من الأصنام وغيرها من الآلهة التي تعبد من دون الله.
(مَنْ لا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ) لا يقدر على إجابته بإعطائه ما طلب منه، لأنه عاجز، كما قال تعالى (وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ إِلَّا كَبَاسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ)
(وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ) وهي غافلة عما يقول، لا تسمع ولا تبصر ولا تبطش، لأنها جماد حجر، صم، وفيه تهكم بها وبمن عبدها، كما قال تعالى عن إبراهيم (إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لا يَسْمَعُ وَلا يُبْصِرُ وَلا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا).
قال الطبري: يقول:" وأيّ عبد أضلّ من عبد يدعو من دون الله آلهة لا تستجيب له

=

=

إلى يوم القيامة: يقول: لا تُجيب دعاءه أبدا، لأنها حجر أو خشب أو نحو ذلك".

قال الزجاج:" أي: من أضل مِمنْ عَبَدَ غيرَ الله، وجَمِيعُ مَا خلق الله دليل على وَحْدَانِيَّته فمن أضل ممن عبد حجرًا لا يستجيب لَه".

قال ابن كثير:" أي: لا أضل ممن يدعو أصناما، ويطلب منها ما لا تستطيعه إلى يوم القيامة".

قال السمعاني:" أي: لا يستجيب أبدا".

قوله تعالى: {وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ} [الأحقاف:٥]، أي:" وهي غافلة عن دعاء مَن يعبدها، عاجزة عن نفعه أو ضره".

قال مقاتل:" يعني: الآلهة غافلون عن من يعبدها، فأخبر الله عنها فى الدنيا".

قال ابن كثير:"وهي غافلة عما يقول، لا تسمع ولا تبصر ولا تبطش؛ لأنها جماد حجَارة صُمّ".

قال السمعاني:" أي: لا يسمعون دعاءهم وإن دعوا، والمراد من الآية هو الأصنام، يعني: كيف يعبدون الأصنام؟ ولو دعوهم لم يستجيبوا لهم ولم يسمعوا كلامهم".

قال الطبري: يقول:" وآلهتهم التي يدعونهم عن دعائهم إياهم في غفلة، لأنها لا تسمع ولا تنطق، ولا تعقل. وإنما عنى بوصفها بالغفلة، تمثيلها بالإنسان الساهي عما يقال له، إذ كانت لا تفهم مما يقال لها شيئًا، كما لا يفهم الغافل عن الشيء ما غفل عنه. وإنما هذا توبيخ من الله لهؤلاء المشركين لسوء رأيهم، وقُبح اختيارهم في عبادتهم، من لا يعقل شيئًا ولا يفهم، وتركهم عبادة من جميع ما بهم من نعمته، ومن به استغاثتهم عندما ينزل بهم من الحوائج والمصائب".

قال الزجاج:" قال {ومَنْ} وقال و {وَهُمْ} وهو لغير ما يعْقِل، لأن الذين عبدوها أجْرَوْهَا مجرى ما يميز فخوطبوا على مُخَاطَبَاتِهِمْ كما قالوا: {مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا

=

=

لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللهِ زُلْفَى}".

(وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ) أي: جمعوا للحساب والجزاء.

(كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً) أي: كانت هذه الأصنام أعداء لعابديها يضرونهم ولا ينفعونهم.

(وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ) أي: وتتبرأ الأصنام من الذين عبدوها.

كقوله تعالى (وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا. كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا) أي: سيخونونهم أحوج ما يكونون إليهم.

وقال الخليل (وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِ اللهِ أَوْثَانًا مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُمْ بَعْضًا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَاصِرِينَ).

قال مقاتل:" يقول: إذا جمع الناس في الآخرة.. كانت الآلهة أعداء لمن يعبدها".

قال الطبري: يقول:" وإذا جُمع الناس يوم القيامة لموقف الحساب، كانت هذه الآلهة التي يدعونها في الدنيا لهم أعداء، لأنهم يتبرءون منهم".

قال السعدي:" يلعن بعضهم بعضا ويتبرأ بعضهم من بعض".

قال ابن كثير: هو"كقوله تعالى: {وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا كَلا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا} [مريم: ٨١، ٨٢] أي: سيخونونهم أحوج ما يكونون إليهم، وقال الخليل: {إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِ اللهِ أَوْثَانًا مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُمْ بَعْضًا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَاصِرِينَ} [العنكبوت: ٢٥]".

قوله تعالى: {وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ} [الأحقاف:٦]، أي:" وتتبرأ الأصنام من الذين عبدوها".

قال مقاتل:" يقول: تبرأت الآلهة من عبادتهم إياها".

قال الزجاج:" أي: كانت الأصنامُ كَافِرةً بعبادتهم إياها، تقول: ما دعوهم إلى

=

=

عبادتنا".

قال السمعاني:" يعني: أنهم يقولون: ما دعوناكم إلى عبادتنا".

قال الطبري: يقول:" وكانت آلهتهم التي يعبدونها في الدنيا بعبادتهم جاحدين، لأنهم يقولون يوم القيامة: ما أمرناهم بعبادتنا، ولا شعرنا بعبادتهم إيانا، تبرأنا إليك منهم يا ربنا".

(منبهة): قال الغنيمان في شرح فتح المجيد للغنيمان: ما أجهل عباد القبور بحالهم! وما أعظم ما وقعوا فيه من الشرك المنافي لكلمة الإخلاص (لا إله إلا الله!) فإن مشركي العرب ونحوهم جحدوا (لا إله إلا الله) لفظًا ومعنىً، وهؤلاء المشركون أقروا بها لفظًا وجحدوها معنىً، فتجد أحدهم يقولها وهو يأله غير الله بأنواع العبادة، كالحب والتعظيم، والخوف والرجاء، والتوكل والدعاء، وغير ذلك من أنواع العبادة، بل زاد شركهم على شرك العرب بمراتب، فإن أحدهم إذا وقع في شدة أخلص الدعاء لغير الله تعالى، ويعتقدون أنه أسرع فرجًا من الله، بخلاف حال المشركين الأولين، فإنهم كانوا يشركون في الرخاء، وأما في الشدائد فإنما يخلصون لله وحده، كما قال تعالى: {فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ} [العنكبوت:٦٥] الآية، فبهذا يتبين أن مشركي أهل هذه الأزمان أجهل بالله وبتوحيده من مشركي العرب ومن قبلهم].

الشرك في الواقع من الأمور التي يجب أن يهتم بها، وذلك أن الله جل وعلا أخبر أن المشرك إذا مات على شركه فإنه خالد في النار، كما قال الله جل وعلا: {إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ} [المائدة:٧٢]، وقال تعالى في الآية الأخرى: {إِنَّ اللهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ} [النساء:٤٨]، وأخبر أن المشركين في المحبة الذين يجعلون لله أندادًا يحبونهم

=

=

كحب الله أنهم لا يخرجون من النار، فقال: {وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ} [البقرة:١٦٧]، فإذا كان الأمر هكذا فيجب على العبد أن يتنبه لذلك ويهتم به.

وكثير من الناس ينكر أن يكون ما يقع من كثير من الذين يطوفون بالقبور أو يعكفون عندها ينكر أن يكون هذا شركًا، ويقول: هذه محبة للصالحين وتوسل بهم، والتوسل مطلوب؛ لأن الله جل وعلا يقول: {وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ} [المائدة:٣٥]، فهذا من الوسيلة التي تُبتغى إلى الله جل وعلا.

وهذا في الواقع من الجهل في دين النبي ﷺ الذي بينه ووضحه، وذلك أن أصحاب القبور قد فارقوا الحياة، فإذا دعاهم الداعي لا يسمعون دعوته ولا يستطيعون أن يجيبوه بشيء؛ لأن الحي الحاضر يمكن أن يجيبك بما تدعوه إليه أو ببعض ما تدعوه إذا كان قادرًا، ولهذا اشترط في الدعاء الموجه إلى المخلوق أن يكون حيًا حاضرًا عندك يسمع، وأن يكون قادرًا على إجابة ما تدعوه به، وأما إذا دعوته بالشيء الذي لا يستطيعه مثل أن تقول: اشف مرضي.

أو أصلح قلبي.

أو هب لي ولدًا.

أو ما أشبه ذلك، فإن هذا لا يُدعى به إلا الله وحده جل وعلا، ولكن إذا كان يستطيع أن يقدم لك نفعًا يستطيعه وكان حيًا حاضرًا فيجوز ذلك ولا يكون شركًا، أما إذا كان ميتًا، أو كان غائبًا في بلد آخر فدعوته فذلك شرك بالله؛ لأن هذا يجعله بمنزلة من يسمع قولك ويطلع على ما في نفسك، وهذا لا يكون إلا لله جل وعلا.

فكذلك أصحاب القبور عندما يعكفون عندها، أو يأخذون -مثلًا- من ترابها يتبركون به، ويزعمون أنه ينفعهم، أو يؤدون عندها العبادات بأنواعها من صلاة وذكر وقراءة قرآن وما أشبه ذلك، ويقولون: إن فعل هذه العبادات عندها أرجى وأحسن من فعلها في المساجد.

=

فكل هذا إما أن يكون شركًا أكبر بالله جل وعلا، أو يكون وسيلة إلى الشرك، كفعل العبادات عندها بأن يكون -مثلًا- يصلي لله في المقبرة أو يتلو القرآن ويذكر الله يريد وجه الله، وإنما يقول: إن هذا يقبل في هذا المكان.

أو إنه أحرى في القبول.

فهذا من البدع التي لا يقبل معها العمل؛ لأن كل بدعة ضلالة، والضلالات كلها في النار، ولأن الرسول ﷺ يقول: (من عمل عملًا ليس عليه أمرنا فهو رد) أي: مردود عليه.

والله جل وعلا يقول: {وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ * عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ * تَصْلَى نَارًا حَامِيَةً} [الغاشية:٢ - ٤]، فهي تعمل وتنصب وتخشع، ولكنها في الآخرة تصلى جهنم؛ لأنها تخشع وتعمل بالبدع وبخلاف ما جاء به الرسول ﷺ، فالبدع طريق إلى الشرك ووسيلة إليه، أما إذا كان يرجو أصحاب القبور فلابد أنه يعتقد أنهم يسمعون، أو أنهم -مثلًا- يعلمون ما في القلب، فإذا اعتقد أنهم يسمعون دعوته -والسماع المراد به الإجابة- ويستطيعون أن يجيبوا فهذا من الشرك بالله جل وعلا؛ لأنهم أموات غير أحياء، ولأنهم لا يستطيعون أن يقدموا لأنفسهم حسنة واحدة، ولا أن يضعوا من كتابهم ومن سيئاتهم سيئة واحدة، كما قال الله جل وعلا: {وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللهِ مَنْ لا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ * وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ} [الأحقاف:٥ - ٦].

وليس معنى قوله جل وعلا: ((مَنْ لا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ)) أنهم يوم القيامة يستجيبون لهم ويعطونهم مطلوبهم، ولكن المقصود أنهم لا يستطيعون رد الجواب عليهم ورد الخطاب إليهم حتى يبعثوا ويجمع بينهم ويقال لهم: هؤلاء الذين كنتم تسألونهم وتتقربون إليهم اذهبوا إليهم فليعطوكم مسئولكم.

=

فعند ذلك يكفرون بهم ويتبرأون منهم، وهذا هو معنى قوله: ((مَنْ لا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ)) يعني أنهم يوم القيامة تكون إجابتهم لهم الكفر بهم والتبرؤ مما كانوا يفعلونه.

ولهذا قال: ((وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ))؛ لأن المدعو قد يكون -إن كان من الصالحين- في نعيم في قبره غافلًا عما يطلب منه، وهو -أيضًا- لا يرضى بهذا، بل يكون كافرًا بذلك مبغضًا له عدوًا لمن يفعله؛ لأن هذا عبادة لغير الله، والذي يرضى بأن يُعبد من دون الله هو من رؤساء الطواغيت الذين يصدون عن دين الله وعن عبادته ويدعون إلى عبادة الشيطان، فكيف يرضى بذلك من هم صالحون؟! فإذا كانوا صالحين فلا يمكن أن يرضوا بذلك أبدًا، ولهذا أخبر الله جل وعلا أن العابد والمعبود من دون الله حصب جهنم، فقال سبحانه: {إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ} [الأنبياء:٩٨]، و (حصب جهنم) يعني أنهم وقودها، يوضعون فيها هم ومن عبدوهم.

وقد ثبت في الصحيحين من حديث أبي سعيد الخدري وحديث أبي هريرة رضي الله عنهما أنه إذا كان يوم القيامة وصار الموقف الطويل الشديد العظيم الذي يقفه الناس لرب العالمين يقومون على أقدامهم طويلًا، فإذا طال وقوفهم واشتد كربهم ألهمهم الله جل وعلا أن يطلبوا الشفاعة من الرسل الذين معهم في الموقف، فإذا طلبوا الشفاعة وشفع الشافع عند رب العالمين ليأتي للقضاء بين عباده ويريحهم من هذا الموقف، فإذا جاء جل وعلا يخاطبهم ويقول جل وعلا لهم جميعًا: أليس عدلًا مني أن أولي كل واحد منكم ما كان يتولاه في الدنيا؟ فكلهم يقولون: بلى.

أيستطيع إنسان إذا كان يتولى أحدًا أن يقول: لا أريده؟! فعند ذلك يمثل لكل عابد معبوده، فيجاء بذلك المعبود إذا كان حجرًا أو شجرًا أو صنمًا، وأما إذا كان مخلوقًا من المخلوقات العابدة لله كالبشر والملائكة والجن فإن كان من

=

=

المطيعين لله الذين يعبدون الله وحده فإنه يؤتى بشياطينهم التي زينت للعابد هذه العبادة على صورهم، ثم يقال لهم: اتبعوا معبوداتكم ومن كنتم تولونهم.
فيذهب بهم إلى النار فيلقون في جنهم، ثم العابدون لله يلقون ثوابهم، وهذا من معاني قوله تعالى: {إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ} [الأنبياء:٩٨]، ولما نزلت هذه الآية قال أحد المشركين: الآن أخصم محمدًا فجاء إلى رسول الله ﷺ وقال: أرأيت عيسى بن مريم وأمه والملائكة أليسوا من عباد الله الصالحين؟ فكيف تخبر بأنهم حصب جهنم؟ فأنزل الله جل وعلا: {إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَى أُوْلَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ * لا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَالِدُونَ} [الأنبياء:١٠١ - ١٠٢] يعني أن هؤلاء لا يرضون بهذه العبادة، فالعابد لهم في الواقع عابد للشيطان.
فالذي يعبد عيسى لم يعبد عيسى في الواقع وإنما عبد شيطانًا زين له ذلك، فهذا الشيطان الذي زين له هذه العبادة وأمره بها هو الذي يؤتى به يوم القيامة ويقال له: هذا معبودك فاتبعه.
وكذلك الذي يطوف بالقبر إذا كان المقبور صالحًا فإنه إذا كان يوم القيامة يجاء بالشيطان الذي زين لهذا العابد العبادة وأمره بها فيقال له: هذا وليك في الدنيا فاتبعه.
وإلا فالرسل وأتباع الرسل الصالحين -ولا يكون الإنسان صالحًا إلا إذا كان متبعًا للرسول ﷺ برآء من كل شرك ومن كل مخالفة لله جل وعلا ولرسوله، ولا يرضون بها، وليس معنى ذلك إهدار حقوقهم، ولكن حماية لحق الله جل وعلا أن يوضع للمخلوق شيء منه؛ لأن حق الله يجب أن يكون خاصًا به، ولا يكون لأحد منه شيء، والخلق كلهم عباد الله ليس لهم من العبودية شيء، فالعبادة لابد أن تكون خالصة لله جل وعلا، والرسول ﷺ يقول: (لو أمرت أحدًا أن يسجد لأحد

=

وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ (٧).

{وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ} أَيْ أَهْل مَكَّة {آيَاتنَا} الْقُرْآن {بَيِّنَات} ظَاهِرَات حَال {قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا} مِنْهُمْ {لِلْحَقِّ} أَيْ الْقُرْآن {لَمَّا جَاءَهُمْ هَذَا سِحْر مُبِين} بَيِّن ظَاهِر.

أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللهِ شَيْئًا هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ كَفَى بِهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (٨).

{أَمْ} بِمَعْنَى بَلْ وَهَمْزَة الْإِنْكَار {يَقُولُونَ افْتَرَاهُ} أَيْ الْقُرْآن {قُلْ إِنِ افْتَرَيْته} فَرْضًا {فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ الله} أَيْ مِنْ عَذَابه {شيئا} أي لا تقدرون على دفعه عَنِّي إِذَا عَذَّبَنِي الله {هُوَ أَعْلَم بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ} يَقُولُونَ فِي الْقُرْآن {كَفَى بِهِ} تَعَالَى {شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنكُمْ وَهُوَ الْغَفُور} لِمَنْ تَابَ {الرَّحِيم} بِهِ فَلَمْ يُعَاجِلكُمْ بِالْعُقُوبَةِ.

قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعًا مِنَ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ (٩).

{قُلْ مَا كُنْت بِدْعًا} بَدِيعًا {مِنَ الرُّسُل} أي أول مرسل قد سَبَقَ قَبْلِي كَثِيرُونَ مِنْهُمْ فَكَيْفَ تُكَذِّبُونِي {وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَل بِي وَلَا بِكُمْ} فِي الدُّنْيَا أَأَخْرُجُ مِنْ

=

لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها)، ولكن لا يجوز لأحد أن يخضع لأحد، فالخضوع لله، والذل لله، والخوف منه، والرجاء منه، فالعبادة له وحده، وكل من ترك من العبادة شيئًا لغير الله جل وعلا فإنه واقع في الشرك الأكبر الذي توعد فاعله بالنار، ويكون خالدًا فيها -نسأل الله العافية-، وتكون الجنة عليه محرمة.

بَلَدِي أَمْ أُقْتَل كَمَا فُعِلَ بِالْأَنْبِيَاءِ قَبْلِي أَوْ تَرْمُونِي بِالْحِجَارَةِ أَمْ يُخْسَف بِكُمْ كَالْمُكَذِّبِينَ قَبْلكُمْ {إنْ} مَا {أَتَّبِع إلَّا مَا يُوحَى إلَيَّ} أَيْ الْقُرْآن وَلَا أَبْتَدِع مِنْ عِنْدِي شَيْئًا {وَمَا أَنَا إلَّا نَذِير مُبِين} بَيِّن الْإِنْذَار[1].

---

(١) قوله تعالى: (وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ) يخبر تعالى عن المشركين في كفرهم وعنادهم، أنهم إذا تتلى عليهم آيات الله بينات: أي في حال بيانها ووضحها وجلائها يقولون:
(هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ) أي: سحر وتضح، وقد كذبوا وافتروا وضلوا وكفروا.
(أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ) أي: أيقولون اختلف محمد هذا القرآن وافتراه من تلقاء نفسه، وهو إنكار توبيخي.
قوله تعالى: {وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ}.
قال الطبري: يقول:" وإذا يقرأ على هؤلاء المشركين بالله من قومك آياتنا، يعني حججنا التي احتججناها عليهم، فيما أنزلناه من كتابنا على محمد ﷺ {بَيِّنَاتٍ}، يعني: واضحات نيرات".
قال ابن كثير:" يقول تعالى مخبرا عن المشركين في كفرهم وعنادهم: أنهم إذا تتلى عليهم آيات الله بينات، أي: في حال بيانها ووضوحها وجلائها".
قال مقاتل:" {آيَاتُنَا}، يعني: القرآن، {بَيِّنَاتٍ}، يقول: بيان الحلال والحرام".
قال الزمخشري:" {بَيِّنَاتٍ} جمع بينة: وهي الحجة والشاهد. أو واضحات مبينات".
قال الماتريدي:" أي: بينات أنها من الله تعالى، أو بينات: واضحات، ما يبين لهم ما عليهم مما لهم، وما لبعض على بعض وما لله عليهم".
قوله تعالى: {قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ} [الأحقاف:٧]، أي:" قال الذين كفروا حين جاءهم القرآن: هذا سحر ظاهر".
=

=

قال الطبري: يقول:" قال الذين جحدوا وحدانية الله، وكذّبوا رسوله للحقّ لما جاءهم من عند الله، فأنزل على رسوله ﷺ {هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ}، يعنون: هذا القرآن خداع يخدعنا، ويأخذ بقلوب من سمعه فعل السحر {مبين}، يقول: يُبين لمن تأمله ممن سمعه أنه سحر مبين".

قال ابن كثير:" يقولون: {هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ}، أي: سحر واضح، وقد كَذَبوا وافتروا وضَلّوا وكفروا".

قال البغوي:" يسمون القرآن سحرا".

قال الزمخشري:" المراد بالحق: الآيات، وبالذين كفروا: المتلو عليهم، فوضع الظاهران موضع الضميرين، للتسجيل عليهم بالكفر، وللمتلوّ بالحق، {لَمَّا جاءَهُمْ}، أي: بادوه بالجحود ساعة أتاهم، وأوّل ما سمعوه من غير إجالة فكر ولا إعادة نظر. ومن عنادهم وظلمهم: أنهم سموه سحرا مبينا ظاهرا أمره في البطلان لا شبهة فيه.

- وقد كذبهم الله في هذه الدعوى في آيات كثيرة كقوله تعالى (أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ) وقال تعالى (أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ)، فلو كان القرآم كلام البشر لاستطاعوا أن يأتوا بمثله؟ ولكنه كلام رب البشر.

(قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَلا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللهِ شَيْئًا) أي: لو كذبت عليه وزعمت أنه أرسلني - وليس كذلك - لعاقبني أشد العقوبة، ولم يقدر أحد من أهل الأرض، لا أنتم ولا غيركم أن يجيرني منه.

كما قال تعالى (وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ. لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ. ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ. فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ). فقول آية الحاقة (وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ

=

=

الْأَقَاوِيلِ) كقوله في آية الأحقاف (قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ)، وقوله في الحاقة (. فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ) يوضح معنى (فَلا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللهِ شَيْئًا).

(هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ) أي: هو جل وعلا أعلم بما تخوضون في القرآن وتقدحون به من قولكم هو شعر، هو سحر، هو افتراء، وغير ذلك من وجوه الطعن.

(كَفَى بِهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ) أي: كفى أن يكون تعالى شاهدًا بيني وبينكم، يشهد لي بالصدق والتبليغ، ويشهد عليكم بالجحود والتكذيب.

قوله تعالى: {أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ}.

قال الطبري: يقول:" أم يقولون هؤلاء المشركون بالله من قريش، افترى محمد هذا القرآن، فاختلقه وتخرّصه كذبا".

قال يحيى بن سلام:" يعني: المشركين، يقولون: إن محمدا افترى القرآن، أي: قد قالوه، وهو على الاستفهام".

قال ابن كثير:" يعنون: محمدا ﷺ".

قال السمعاني:" في التفسير: أن أبا جهل قال للنبي: يامحمد، إنك تفتري على الله حيث تزعم أن هذا القرآن من وحيه وكلامه، وإنما هو كلام تقوله من تلقاء نفسك".

قال مقاتل:" وذلك أن كفار مكة قالوا للنبي ﷺ ما هذا القرآن إلا شيء ابتدعته من تلقاء نفسك؟ أيعجز الله أن يبعث نبيا غيرك؟ - وأنت أحقرنا وأصغرنا وأضعفنا ركنا وأقلنا حلية- أو يرسل ملكا، إن هذا الذي جئت به لأمر عظيم".

قال القشيري:" رموا رسلنا بالسّحر ثم بالافتراء والمكر".

قوله تعالى: {قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللهِ شَيْئًا} [الأحقاف:٨]، أي:" قل لهم -أيها الرسول-: إن اختلقته على الله فإنكم لا تقدرون أن تدفعوا عني من

=

=

عقاب الله شيئًا، إن عاقبني على ذلك".

قال الطبري: أي:" قل لهم يا محمد إن افتريته وتخرّصته على الله كذبا، فلا تغنون عني من الله إن عاقبني على افترائي إياه، وتخرّصي عليه شيئًا، ولا تقدرون أن تدفعوا عني سوءا إن أصابني به".

قال ابن كثير:" أي: لو كذبت عليه وزعمت أنه أرسلني - وليس كذلك - لعاقبني أشد العقوبة، ولم يَقْدرْ أحد من أهل الأرض، لا أنتم ولا غيركم أن يجيرني منه، كقوله: {قُلْ إِنِّي لَنْ يُجِيرَنِي مِنَ اللهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا إِلا بَلاغًا مِنَ اللهِ وَرِسَالاتِهِ} [الجن: ٢٢، ٢٣]، وقال تعالى: {وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الأَقَاوِيلِ. لأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ. ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ. فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ} [الحاقة: ٤٤ - ٤٧]".

قال السمعاني:" أي: إن افتريت على الله وعاقبني لا تملك دفع عقوبته عني".

قال الزجاج:" أي: فَلَسْتُمْ تملكون من الله شيئًا، أي: الله أملك بعباده".

قوله تعالى: {هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ} [الأحقاف:٨]، أي:" هو سبحانه أعلم من كل شيء سواه بما تقولون في هذا القرآن".

قال الطبري:" يقول: ربي أعلم من كل شيء سواه بما تقولون بينكم في هذا القرآن".

عن مجاهد، قوله: " {إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ}، قال: تقولون".

قوله تعالى: {كَفَى بِهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ} [الأحقاف:٨]، أي:" كفى بالله شاهدًا عليَّ وعليكم".

قال الطبري:" يقول: كفى بالله شاهدا علي وعليكم بما تقولون من تكذيبكم لي فيما جئتكم به من عند الله".

قال مقاتل:" يقول فلا شاهد أفضل من الله بيني وبينكم بأن القرآن جاء من الله".

=

=

قال ابن كثير:" هذا تهديد لهم، ووعيد أكيد، وترهيب شديد".

قوله تعالى: {وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ} [الأحقاف:٨]، أي:" وهو الغفور لمن تاب إليه، الرحيم بعباده المؤمنين".

قال الطبري: أي:" الغفور الرحيم لهم، بأن لا يعذبهم عليها بعد توبتهم منها".

قال الزجاج:" معناه: أنه مَنْ أَتَى من الكبائر العِظَام ما أتيتُمْ به من الافتراء على الله جلَّ وعزَّ وَعَلا - ثم تاب فإن الله غفورٌ رَحيمٌ له".

قال ابن كثير:" ترغيب لهم إلى التوبة والإنابة، أي: ومع هذا كله إن رجعتم وتبتم، تاب عليكم وعفا عنكم، وغفر لكم ورحم. وهذه الآية كقوله في سورة الفرقان: {وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلا. قُلْ أَنزلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا} [الفرقان: ٥، ٦]".

قال ابن إسحاق: {والله غفور رحيم}، " أي: يغفر الذنوب، ويرحم العباد، على ما فيهم".

قال سلمة بن وهرام صاحب طاووس:" أن الله تبارك وتعالى إنما سمى نفسه «العفو»، ليعفو، و «الغفور»، ليغفر".

(قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعًا مِنَ الرُّسُلِ) أي: قل لهم يا محمد: ما كنت أول رسول أرسل إلى البشر، بل قد أرسل الله قبلي جميع الرسل إلى البشر، فلا وجه لاستبعادكم رسالتي، واستنكاركم إياها، لأن الله أرسل قبلي رسلًا كثيرة.

- وهذا المعنى الذي دلت عليه هذه الآية الكريمة، جاء موضحًا في آيات كثيرة:

كقوله تعالى (وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً).

وقوله تعالى (إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ).

وقوله (وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ).

(وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلا بِكُمْ) التحقيق في معنى الآية: ما أدري ما يفعل بي ولا

=

=

بكم في دار الدنيا، فما أدري أأخرج من مسقط رأسي، أ، أقتل كما فعل ببعض الأنبياء، وما أدري ما ينالني من الحوادث والأمور في تحمل أعباء الرسالة، وما أدري ما يفعل بكم، أيخسف بكم، أو تنزل عليكم حجارة من السماء، ونحو ذلك، وهذا القول هو اختيار ابن جرير وغير واحد من المحققين.

(إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ) أي: إنما أتبع ما ينزله الله عليّ من الوحي.

(وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ) أي: ما أنا إلا رسول منذر لكم من عذاب الله، بيّن النذارة بالشواهد الظاهرة والمعجزات الباهرة.

قوله تعالى: {قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعًا مِنَ الرُّسُلِ} [الأحقاف:٩]، أي:" قل -أيها الرسول- لمشركي قومك: ما كنتُ أول رسل الله إلى خلقه".

قال ابن عباس:" يقول: لست بأوّل الرسل". وفي رواية:" ما كنت أوّل رسول أُرسل".

قال مجاهد:" ما كنت أوّلهم".

قال قتادة:" أي: قد كانت قبلي رسل". وفي رواية:" أي: إن الرسل قد كانت قبلي".

قال أبو عبيدة:" ما كنت أولهم معناها بدأ من الرسل".

قال ابن كثير:" أي: لست بأول رسول طرق العالم، بل قد جاءت الرسل من قبلي، فما أنا بالأمر الذي لا نظير له حتى تستنكروني وتستبعدوا بعثتي إليكم، فإنه قد أرسل الله قبلي جميع الأنبياء إلى الأمم".

قال سهل بن عبد الله:" أي: كانت قبلي رسل يأمرون بما آمر به، وينهون عما أنهى عنه، وما كنت عجبًا من الرسل، فإني لم أدعكم إلا إلى التوحيد، ولم أدلكم إلا على مكارم الأخلاق، وبهذا بعثت الأنبياء قبلي".

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: قل يا محمد لمشركي قومك من

=

قريش: ما كنت أول رسل الله التي أرسلها إلى خلقه، قد كان من قبلي له رسل كثيرة أرسلت إلى أمم قبلكم؛ يقال منه: هو بدع في هذا الأمر، وبديع فيه، إذا كان فيه أوّل. ومن البدع قول عديّ بن زيد:

فَلا أنا بِدْعٌ مِنْ حَوَادِث تَعْتَرِي... رِجَلا عَرَتْ مِنْ بَعْدِ بُؤْسَى وَأَسعد

ومن البديع قول الأحوص:

فَخَرَتْ فانْتَمَتْ فقُلْتُ انْظُرِيني... ليسَ جَهْلٌ أتَيتُه بِبَدِيع

يعني بأوّل، يقال: هو بدع من قوم أبداع".

قال الأخفش:" البدع: البديع، وهو: الأول".

قال النحاس:" يقال: ابتدع فلان كذا، إذا أتى بما لم يكن قبله، وفلان مبتدع من البدعة وهي التي لم يتقدم لها شبه، وقال ﷻ: {بديع السماوات والأرض} [البقرة: ١١٧]، أي: مبتدئهما".

قوله تعالى: {وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ} [الأحقاف:٩]، أي:" وما أدري ما يفعل الله بي ولا بكم في الدنيا".

وفي قوله تعالى: {وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ} [الأحقاف:٩]، وجوه من التفسير:

أحدها: يعني: لا أدري ما يفعل بي ولا بكم في الدنيا لا في الآخرة، فلا أدري ما يفعل بي أخرج كما أخرجت الأنبياء من قبلي، أو أُقتل كما قتل الأنبياء من قبلي ولا أدري ما يفعل بكم، إنكم مصدقون أو مكذبون، أو معذبون أو مؤخرون. قاله الحسن.

روي الطبري بسنده عن الحسن، قال:" أما في الآخرة فمعاذ الله، قد علم أنه في الجنة حين أخذ ميثاقه في الرسل، ولكن قال: وما أدري ما يفعل بي ولا بكم في الدنيا، أخرج كما أخرجت الأنبياء قبلي أو أُقتل كما قُتلت الأنبياء من قبلي، ولا

=

أدري ما يفعل بي ولا بكم، أمتي المكذّبة، أم أمتي المصدّقة، أم أمتي المرمية بالحجارة من السماء قذفا، أم مخسوف بها خسفا، ثم أوحي إليه: {وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ}، يقول: أحطت لك بالعرب أن لا يقتلوك، فعرف أنه لا يُقتل، ثم أنزل الله ﷻ: {هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَى بِاللهِ شَهِيدًا}، يقول: أشهد لك على نفسه أنه سيظهر دينك على الأديان، ثم قال له في أمته: {وَمَا كَانَ اللهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ}، فأخبره الله ما يصنع به، وما يصنع بأمته".

الثاني: أن النبي -ﷺ- قال قبل الهجرة: «لَقَدْ رَأَيْتُ فِي مَنَامِي أَرْضًا أَخْرُجُ إِلَيْهَا مِن مَكَّةَ»، فلما اشتد البلاء على أصحابه بمكة، قالوا: يا رسول الله حتى متى نلقى هذا البلاء؟ ومتى تخرج إلى الأرض التي رأيت؟ فقال -ﷺ-: «مَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلاَ بِكُم، أَنَمُوتُ بِمَكَّةَ أَمْ نَخْرُجُ مِنهَا»، ثُمَّ قَالَ لهم: «إِنَّما هُوَ شيء أُريته فِي منامي، وما أتبع إلا ما يوحى إليَّ». يَقُولُ: لم يوح إليَّ ما أخبرتكم بِهِ. وعلى هذا لا نسخ في الآية. وهذا قول ابن عباس، والكلبي، والفراء، والزجاج.

قال الزجاج:" كان رسول الله ﷺ رأى في منامه أنه سيصير إلى أَرْض ذَاتِ نَخْل وَشَجرٍ، وقد شكا أصحابه الشدةِ التي نالتهم فلما أَعْلَمَهُم أنه سيصير إلى أرض ذات نَخْل وَشَجرٍ، وتأَخَّرَ ذَلِكَ استبطأوا ما قال عليه السلام، فأعلمهم أن الذي يتبعُهُ ما يُوحَى إليه، إن أمر بِقِتَال أو انتقال، وكان ذلك الأمْرُ وحيًا فَهُو مُتَّبِعُهُ، ورؤيا الأنبياء عليهم السلام وَحْيٌ".

الثالث: معناه: وما أدري ما تؤمرون وما تنهون عنه. قاله الضحاك.

وحكي الطبري عن بعضهم، قال:" ما يفترض عليّ وعليكم، أو ينزل من حكم".

قال حارث المحاسبي:" أكثر العلماء قالوا إنما أراد: {مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ}: ما أدري ما أومر به أنا وأنتم".

=

=

الرابع: لا أدري ما يفعل بي ولا بكم يوم القيامة، وإلام نصير هنالك. وهذا قبل نزول: {لِيَغْفِرَ لَكَ اللهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا} [الفتح: ٢]. فلما نزل عليه ذلك عام الحديبية علم ما يفعل به في الآخرة وقال لأصحابه: {لَقَدْ أُنْزِلَ عَلَيَّ آيَةٌ هِيَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنَ الدُّنْيَا جَمِيعِهَا}، فلما تلاها قال رجل من القوم: هنيئًا يا رسول الله، قد بين الله ما يفعل بك، فماذا يفعل بنا؟ فأنزل الله تعالى: {لِيُدْخِلَ
الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَكَانَ ذَلِكَ عِنْدَ اللهِ فَوْزًا عَظِيمًا} [الفتح: ٥]، فبين الله ما يفعل به وبهم. قاله ابن عباس، والحسن، وعكرمة، وقتادة.

قال الشافعي:" ثم أنزل الله ﷻ على نبيه ﷺ: أن غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، يعني - والله أعلم -: ما تقدم من ذنبه قبل الوحي، وما تأخر: أن يعصمه فلا يذنب، يعلم الله ما يفعل به من رضاه وأنه أول شافع وأول مشفع يوم القيامة وسيد الخلائق".

قال سفيان:" يرون أنها نزلت قبل الفتح".

وفي رواية الضحاك، عن ابن عباس: "نسخها: {إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا لِيَغْفِرَ لَكَ اللهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ} [الفتح: ٢] الْآيَةَ".

قال النحاس:" محال أن يكون في هذا ناسخ ولا منسوخ من جهتين إحداهما أنه خبر والآخر أن من أول السورة إلى هذا الموضع فيه خطاب للمشركين واحتجاج عليهم وتوبيخ لهم فوجب أن يكون هذا أيضا خطابا للمشركين كما كان ما قبله وما بعده ومحال أن يقول ﷺ للمشركين {وما أدري ما يفعل بي ولا بكم} [الأحقاف: ٩] في الآخرة ولم يزل ﷺ من أول مبعثه إلى وفاته يخبر أن من مات على الكفر يخلد في النار ومن مات على الإيمان واتبعه وأطاعه فهو في الجنة، فقد

=

=

دری ﷺ ما يفعل به وبهم وليس يجوز أن يقول لهم: ما أدري ما يفعل بي ولا بكم في الآخرة فيقولوا كيف نتبعك وأنت لا تدري أتصير إلى خفض ودعة أم إلى عذاب وعقاب. والصحيح في معنى الآية قول الحسن، كما قرئ على محمد بن جعفر بن حفص، عن يوسف بن موسى، قال: حدثنا وكيع، قال: حدثنا أبو بكر الهذلي، عن الحسن، {وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ}: «في الدنيا». قال أبو جعفر النحاس: وهذا أصح قول وأحسنه لا يدري ﷺ ما يلحقه وإياهم من مرض وصحة ورخص وغلاء وغنى وفقر، ومثله: {وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ} [الأعراف: ١٨٨]".

قال الطبري:" وأولى الأقوال في ذلك بالصحة وأشبهها بما دلّ عليه التنزيل، القول الذي قاله الحسن البصري، الذي رواه عنه أَبو بكر الهُذَليّ، وإنما قلنا ذلك أولاها بالصواب، لأن الخطاب من مبتدأ هذه السورة إلى هذه الآية، والخبر خرج من الله ﷻ خطابا للمشركين وخبرا عنهم، وتوبيخا لهم، واحتجاجا من الله تعالى ذكره لنبيه ﷺ عليهم.

فإذا كان ذلك كذلك، فمعلوم أن هذه الآية أيضًا سبيلها سبيل ما قبلها وما بعدها في أنها احتجاج عليهم، وتوبيخ لهم، أو خبر عنهم. وإذا كان ذلك كذلك، فمحال أن يقال للنبي ﷺ: قل للمشركين ما أدري ما يفعل بي ولا بكم في الآخرة، وآيات كتاب الله ﷻ في تنزيله ووحيه إليه متتابعة بأن المشركين في النار مخلدون، والمؤمنون به في الجنان منعمون، وبذلك يرهبهم مرّة، ويرغبهم أخرى، ولو قال لهم ذلك، لقالوا له: فعلام نتبعك إذن وأنت لا تدري إلى أيّ حال تصير غدا في القيامة، إلى خفض ودعة، أم إلى شدّة وعذاب؛ وإنما اتباعنا إياك إن اتبعناك، وتصديقنا بما تدعونا إليه، رغبة في نعمة، وكرامة نصيبها، أو رهبة من عقوبة، وعذاب نهرب منه، ولكن ذلك كما قال الحسن، ثم بين الله لنبيه ﷺ ما هو فاعل

=

=

به، وبمن كذب بما جاء به من قومه وغيرهم".

قال ابن كثير:" وهذا القول هو الذي عَوّل عليه ابن جرير، وأنه لا يجوز غيره، ولا شك أن هذا هو اللائق به، صلوات الله وسلامه عليه، فإنه بالنسبة إلى الآخرة جازم أنه يصير إلى الجنة هو ومن اتبعه، وأما في الدنيا فلم يدر ما كان يئُول إليه أمره وأمر مشركي قريش إلى ماذا: أيؤمنون أم يكفرون، فيعذبون، فيستأصلون بكفرهم؟ فأما الحديث الذي رواه الإمام أحمد:

حدثنا يعقوب، حدثنا أبي، عن ابن شهاب عن خارجة بن زيد بن ثابت، عن أم العلاء – وهي امرأة من نسائهم – أخبرته – وكانت بايعت رسول الله ﷺ – قالت: طار لهم في السكنى حين اقترعت الأنصار على سكنى المهاجرين عثمانُ بن مظعون. فاشتكى عثمان عندنا فَمرَّضناه، حتى إذا توفي أدْرَجناه في أثوابه، فدخل علينا رسول الله فقلت: رحمة الله عليك أبا السائب، شهادتي عليك، لقد أكرمك الله. فقال رسول الله ﷺ: "وما يدريك أن الله أكرمه؟ " فقلت: لا أدري بأبي أنت وأمي! فقال رسول الله ﷺ: "أما هو فقد جاءه اليقين من ربه، وإني لأرجو له الخير، والله ما أدري وأنا رسول الله ما يفعل بي! " قالت: فقلت: والله لا أزكي أحدا بعده أبدا. وأحزنني ذلك، فنمت فرأيت لعثمان عينا تجري، فجئت إلى رسول الله ﷺ فأخبرته بذلك، فقال رسول الله ﷺ: «ذاك عمله».

فقد انفرد بإخراجه البخاري دون مسلم، وفي لفظ له: «ما أدري وأنا رسول الله ما يفعل به». وهذا أشبه أن يكون هو المحفوظ، بدليل قولها: "فأحزنني ذلك". وفي هذا وأمثاله دلالة على أنه لا يقطع لمعين بالجنة إلا الذي نص الشارع على تعيينهم، كالعشرة، وابن سلام، والغُميصاء، وبلال، وسراقة، وعبد الله بن عمرو بن حرام والد جابر، والقراء السبعين الذين قتلوا ببئر معونة، وزيد بن حارثة، وجعفر، وابن رواحة، وما أشبه هؤلاء".

=

قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللهِ وَكَفَرْتُمْ بِهِ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى مِثْلِهِ فَآمَنَ وَاسْتَكْبَرْتُمْ إِنَّ اللهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (١٠).

{قُلْ أَرَأَيْتُمْ} أَخْبِرُونِي مَاذَا حَالُكُمْ {إِنْ كَانَ} أَيْ الْقُرْآن {مِنْ عِنْد الله وَكَفَرْتُمْ بِهِ} جُمْلَة حَالِيَّة {وَشَهِدَ شَاهِد مِنْ بَنِي إِسْرَائِيل} هُوَ عَبْد الله بْن سَلَام {عَلَى مِثْله} أَيْ عَلَيْهِ أَنَّهُ مِنْ عِنْد الله {فَآمَنَ} الشَّاهِد {وَاسْتَكْبَرْتُمْ} تَكَبَّرْتُمْ عَنْ

=

قوله تعالى: {إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ} [الأحقاف:٩]، أي:" ما أتبع فيما آمركم به وفيما أفعله إلا وحي الله الذي يوحيه إليَّ".

قال الطبري: أي:" قل لهم ما أتبع فيما آمركم به، وفيما أفعله من فعل إلا وحي الله الذي يوحيه إليّ".

قال ابن كثير:" أي: إنما أتبع ما ينزله الله عليَّ من الوحي".

قال مقاتل:" يقول: ما أتبع إلا ما يوحى إلي من القرآن، يقول: إذا أمرت بأمر فعلته ولا أبتدع ما لم أومر به".

قوله تعالى: {وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ} [الأحقاف:٩]، أي:" وما أنا إلا نذير بيِّن الإنذار".

قال الطبري:" يقول: وما أنا لكم إلا نذير، أنذركم عقاب الله على كفركم به {مبين}: يقول: قد أبان لكم إنذاره، وأظهر لكم دعاءه إلى ما فيه نصيحتكم، يقول: فكذلك أنا".

قال مقاتل:" يعني: نذير بيّن".

قال ابن كثير:" أي: بيّن النّذَارة، وأمري ظاهر لكل ذي لب وعقل".

عن ابن عباس:" {نذير}، قال: نذير من النار".

عن سعيد بن جبير: " {المبين}، يعني: البين".

الْإِيمَان وَجَوَاب الشَّرْط بِمَا عُطِفَ عَلَيْهِ أَلَسْتُمْ ظَالِمِينَ دَلَّ عَلَيْهِ {إِنَّ اللهَ لَا يَهْدِي الْقَوْم الظَّالِمِينَ}.

وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا مَا سَبَقُونَا إِلَيْهِ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هَذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ (١١).

{وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا} أَيْ فِي حَقّهمْ {لَوْ كَانَ} الْإِيمَان {خَيْرًا مَا سَبَقُونَا إِلَيْهِ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا} أَيْ الْقَائِلُونَ {بِهِ} أَيْ الْقُرْآن {فَسَيَقُولُونَ هَذَا} أَيْ الْقُرْآن {إِفْك} كذب {قديم}.

وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى إِمَامًا وَرَحْمَةً وَهَذَا كِتَابٌ مُصَدِّقٌ لِسَانًا عَرَبِيًّا لِيُنْذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَبُشْرَى لِلْمُحْسِنِينَ (١٢).

{وَمِنْ قَبْله} أَيْ الْقُرْآن {كِتَاب مُوسَى} أَيْ التَّوْرَاة {إِمَامًا وَرَحْمَة} لِلْمُؤْمِنِينَ بِهِ حَالَانِ {وَهَذَا} أَيْ الْقُرْآن {كِتَاب مُصَدِّق} لِلْكُتُبِ قَبْله {لِسَانًا عَرَبِيًّا} حَال مِنْ الضَّمِير فِي مُصَدِّق {لِيُنْذِر الذين ظلموا} مشركي مكة {و} هو {بشرى للمحسنين} المؤمنين[1].

---

(١) ذكر سبب النزول.

عن عوف بن مالك الأشجعي؛ قال: انطلق النبي ﷺ وأنا معه حتى دخلنا كنيسة اليهود بالمدينة يوم عيدهم، وكرهوا دخولنا عليهم، فقال لهم رسول الله ﷺ: "يا معشر اليهود! أروني اثني عشر رجلًا يشهدون أن لا إله إلا الله وأني رسول الله؛ يحبط الله عن كل يهودي تحت أديم السماء الغضب الذي غضب عليه"، قال: فأمسكوا، وما أجابه منهم أحد، ثم رد عليهم؛ فلم يجبه أحد، ثم ثلث؛ فلم يجبه أحد، فقال: "أبيتم، فوالله إني لأنا الحاشر، وأنا العاقب، وأنا المقفى، آمنتم أو كذبتم"، ثم انصرف وأنا معه، حتى دنا أن يخرج؛ فإذا رجل من خلفنا يقول: كما =

=

أنت يا محمد! قال: فقال ذلك الرجل: أي رجل تعلموني فيكم يا معشر اليهود؟! قالوا: ما نعلم أنه كان فينا رجل أعلم بكتاب الله ولا أفقه منك ولا من أبيك من قبلك ولا من جدك قبل أبيك، قال: فإني أشهد له بالله أنه نبي الله الذي تجدونه في التوراة، قالوا: كذبت، ثم ردوا عليه وقالوا له شرًا، فقال رسول الله ﷺ: "كذبتم، لن يقبل قولكم، أما آنفًا؛ فتثنون عليه من الخير ما أثنيتم، وأما إذا آمن؛ كذبتموه، وقلتم ما قلتم؛ فلن يقبل قولكم"، قال: فخرجنا ونحن ثلاثة: رسول الله ﷺ، وأنا، وعبد الله بن سلام؛ فأنزل الله فيه: {قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللهِ وَكَفَرْتُمْ بِهِ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى مِثْلِهِ فَآمَنَ وَاسْتَكْبَرْتُمْ إِنَّ اللهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (١٠)}.

أخرجه أحمد في "المسند" (٦/ ٢٥)، والطبري في "جامع البيان" (٢٦/ ٨، ٩)، وأبو يعلى في "المسند"؛ كما في "إتحاف الخيرة المهرة" (٨/ ١٥٥ رقم ٧٨١٦) -وعنه ابن حبان في "صحيحه" (١٦/ ١١٨ - ١٢٠ رقم ٧١٦٢ - "إحسان"-، والطبراني في "المعجم الكبير" (١٨/ ٣٩ رقم ٨٣)، و"مسند الشاميين" (٢/ ٧٧، ٧٨ رقم ٩٤٨) -ومن طريق ابن عساكر في "تاريخ دمشق" (٧/ ٤٤٨ - مختصر) -، وأبو نعيم في "دلائل النبوة" (رقم ٨٠ - مختصرًا)، والحاكم في "المستدرك" (٣/ ٤١٥، ٤١٦) من طريق صفوان بن عمرو؛ قال: حدثني عبد الرحمن بن جبير بن نفير عن أبيه عن عوف به. هذا سند صحيح؛ رجاله ثقات.

قال الحاكم: "هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه"، ووافقه الذهبي.

وقال الهيثمي في "مجمع الزوائد" (٧/ ١٠٦): "رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح".

وقال السيوطي في "الدر المنثور" (٧/ ٤٣٧)، و"لباب النقول" (ص ١٩٠):

=

=

"بسند صحيح".

وعن سعد بن أبي وقاص؛ قال: ما سمعت النبي ﷺ يقول لأحد يمشي على الأرض: إنه من أهل الجنة؛ إلا لعبد الله بن سلام، قال: وفيه نزلت هذه الآية: {وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى مِثْلِهِ فَآمَنَ وَاسْتَكْبَرْتُمْ إِنَّ اللهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ}.

أخرجه البخاري في "صحيحه" (٧/ ١٢٨ رقم ٣٨١٢)، ومسلم في "صحيحه" (رقم ٢٤٨٣/ ١٤٧).

وعن ابن أخي عبد الله بن سلام؛ قال: لما أُريد عثمان؛ جاء عبد الله بن سلام رضي الله عنه؛ فقال له عثمان: ما جاء بك؟ قال: جئت في نصرك، قال: اخرج إلى الناس فاطردهم عني؛ فإنك خارج خير لي منك داخل، فخرج عبد الله إلى الناس، فقال: أيها الناس! إنه كان اسمي في الجاهلية فلان؛ فسماني رسول الله ﷺ عبد الله، ونزل فيَّ آيات من كتاب الله، نزلت فيَّ: {قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللهِ وَكَفَرْتُمْ بِهِ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى مِثْلِهِ فَآمَنَ وَاسْتَكْبَرْتُمْ إِنَّ اللهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ}، ونزل فيَّ: {وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا قُلْ كَفَى بِاللهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ (٤٣)} [الرعد: ٤٣]، إن لله سيفًا مغمودًا عنكم، وإن الملائكة قد جاورتكم في بلدكم هذا الذي نزل فيه نبيكم، فالله الله في هذا الرجل أن تقتلوه، فوالله إن قتلتموه؛ لَتطرُدُنّ جيرانكم الملائكة، ولتسلن سيف الله المغمود عنكم، فلا يغمد إلى يوم القيامة، قال: فقالوا: اقتلوا اليهودي واقتلوا عثمان.

أخرجه الترمذي في "الجامع" (٥/ ٣٨١ رقم ٣٢٥٦، ص ٦٧٠، ٦٧١ رقم ٣٨٠٣)، والطبري في "جامع البيان" (٢٦/ ٧) عن علي بن سعيد بن مسروق الكندي؛ قال: ثنا أبو محياة يحيى بن يعلى عن عبد الملك بن عمير عن ابن أخي

=

=

عبد الله بن سلام؛ قال: قال عبد الله بن سلام.

وهذا سند ضعيف؛ ابن أخي عبد الله بن سلام؛ مجهول؛ كما في "التقريب".

وأخرجه الطبري في "جامع البيان" (٢٦/ ٧) من طريق أبي داود الطيالسي قال: ثنا شعيب بن صفوان قال: ثنا عبد الملك بن عمير: أن محمد بن يوسف بن عبد الله بن سلام قال: قال عبد الله به.

وهذا سند ضعيف؛ فيه علتان:

الأولى: شعيب بن صفوان؛ مختلف فيه: وثقه الإمام أحمد، وقال ابن معين: "ليس بشيء"، وقال ابن عدي: "عامة ما يرويه لا يتابع عليه"، وفي "التقريب": "مقبول".

الثانية: محمد بن يوسف؛ لم يوثقه إلا ابن حبان، وروى عنه جمع وهو من أتباع التابعين، وفي "التقريب": "مقبول".

وقال الترمذي في "الموضع الأول": "هذا حديث حسن غريب"، وفي الموضع الثاني: "غريب".

والحديث ضعفه العلامة الألباني رَحِمَهُ اللهُ في "ضعيف الترمذي".

والحديث ذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٧/ ٤٣٨) وزاد نسبته لابن مردويه.

وعن عبد الله بن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: {وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى مِثْلِهِ فَآمَنَ وَاسْتَكْبَرْتُمْ إِنَّ اللهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ}؛ قال: عبد الله بن سلام.

أخرجه الطبري في "جامع البيان" (٢٦/ ٧، ٨).

وسنده ضعيف جدًا؛ مسلسل بالعوفيين الضعفاء، لكن يشهد له ما سبق.

والحديث ذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٧/ ٤٣٨) وزاد نسبته لابن أبي حاتم وابن مردويه.

وعن مجاهد؛ قال: نزلت في عبد الله بن سلام.

=

=

أخرجه ابن سعد في "الطبقات الكبرى" (٢/ ٣٥٣)، والطبري في "جامع البيان" (٢٦/ ٨) بطرق عن مجاهد. وهذا مرسل صحيح الإسناد، ويشهد له ما سبق.
وذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٧/ ٤٣٨) وزاد نسبته لعبد بن حميد.
وعن قتادة قال: نزلت في عبد الله بن سلام.
أخرجه الطبري في "جامع البيان" من طريقين عنه.
وسنده صحيح؛ لكنه مرسل، ويشهد له ما سبق.
وعن الشعبي؛ قال: أناس يزعمون أن شاهدًا من بني إسرائيل على مثله: عبد الله بن سلام!! وإنما أسلم عبد الله بن سلام بالمدينة، وقد أخبرني مسروق: أن آل (حم) إنما نزلت بمكة، وإنما كانت محاجة رسول الله ﷺ قومه؛ فقال: {أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللهِ}؛ يعني: القرآن {وَكَفَرْتُمْ بِهِ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى مِثْلِهِ فَآمَنَ}: موسى ومحمد عليهم السلام على الفرقان. وفي رواية: فمثل التوراة الفرقان؛ التوراة شهد عليها موسى، ومحمد على الفرقان.
أخرجه الطبري في "جامع البيان" (٢٦/ ٧) من طرق عن داود بن أبي هند عن الشعبي به.
وهذا مرسل رجاله ثقات.
وذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٧/ ٤٣٩) وزاد نسبته لابن أبي حاتم.
وعن الحسن؛ قال: بلغني: أنه لما أراد عبد الله بن سلام أن يسلم؛ قال: يا رسول الله! قد علمت اليهود أني من علمائهم، وأن أبي كان من علمائهم، وأني أشهد أنك رسول الله، وأنهم يجدونك مكتوبًا عندهم في التوراة؛ فأرسل إلى فلان وفلان ومن سماه من اليهود وأخبئني في بيتك، وسلهم عني وعن أبي؛ فإنهم سيحدثونك أني أعلمهم، وأن أبي من أعلمهم، وإني سأخرج إليهم؛ فأشهد أنك رسول الله، وأنهم يجدونك مكتوبًا عندهم في التوراة، وأنك بعثت بالهدى ودين الحق، قال: ففعل

=

=

رسول الله ﷺ؛ فخبأه في بيته، وأرسل إلى اليهود، فدخلوا عليه، فقال رسول الله ﷺ: "ما عبد الله بن سلام فيكم؟ "، قالوا: أعلمنا نفسًا، وأعلمنا أبًا، فقال رسول الله ﷺ: "أرأيتم إن أسلم تسلمون؟! "، قالوا: لا يسلم ثلاث مرار، فدعاه؛ فخرج، ثم قال: أشهد أنك رسول الله، وأنهم يجدونك مكتوبًا عندهم في التوراة، وأنك بعثت بالهدى ودين الحق، فقالت اليهود: ما كنا نخشاك على هذا يا عبد الله بن سلام! قال: فخرجوا كفارًا؛ فأنزل الله ﷻ من ذلك: {قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللهِ وَكَفَرْتُمْ بِهِ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى مِثْلِهِ فَآمَنَ وَاسْتَكْبَرْتُمْ إِنَّ اللهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (١٠)}.

أخرجه الطبري في "جامع البيان" (٢٦/ ٨)، وابن سعد في "الطبقات الكبرى"؛ كما في "الدر المنثور" (٧/ ٤٣٩) -ومن طريقه ابن عساكر في "تاريخ دمشق" (٣١/ ٧٨) -، والحارث بن أبي أسامة في "مسنده" (٢/ ٩٣١، ٩٣٢ رقم ١٠٢٧ - بغية) من طريق عوف عن الحسن به.

وهذا مرسل صحيح؛ رجاله ثقات رجال الصحيح.

والحديث ذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٧/ ٤٣٩) وزاد نسبته لعبد بن حميد.

وعن محمد بن سيرين؛ قال: كانوا يرون أن هذه الآية نزلت في عبد الله بن سلام: {وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى مِثْلِهِ فَآمَنَ وَاسْتَكْبَرْتُمْ إِنَّ اللهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ}.

ذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٧/ ٤٣٩) ونسبه لعبد بن حميد وابن المنذر.

وسنده ضعيف؛ لإرساله؛ لكنه صحيح بشواهده السابقة.

وعن جندب رضي الله عنه؛ قال: جاء عبد الله بن سلام حتى أخذ بعضادتي الباب، ثم قال: أنشدكم بالله أي قوم! تعلمون أني الذي أنزلت فيه: {وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ

=

=

عَلَى مِثْلِهِ فَآمَنَ وَاسْتَكْبَرْتُمْ إِنَّ اللهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ} ؟ قالوا: اللهم نعم.
ذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٧/ ٤٣٩) ونسبه لابن مردويه.

و عن سعيد بن جبير؛ قال: جاء ميمون بن يامين إلى النبي ﷺ، وكان رأس اليهود بالمدينة قد أسلم، وقال: يا رسول الله! أبعث إليهم فاجعل بينك وبينهم حكمًا من أنفسهم؛ فإنهم سيرضوني، فبعث إليهم، وأدخله الداخل، فأتوه، فخاطبوه مليًا، فقال لهم: "اختاروا رجلًا من أنفسكم يكون حكمًا بيني وبينكم"، قالوا: فإنا قد رضينا بميمون بن يامين؛ فأخرجه إليهم، فقال لهم ميمون: أشهد أنه رسول الله، وأنه على الحق؛ فأبوا أن يصدقوه، فأنزل الله: {قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللهِ وَكَفَرْتُمْ بِهِ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى مِثْلِهِ فَآمَنَ وَاسْتَكْبَرْتُمْ إِنَّ اللهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (١٠)}.

ذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٧/ ٤٣٩، ٤٤٠) ونسبه لعبد بن حميد. وسنده ضعيف؛ لإرساله.

وعن أبي الزناد؛ قال: كانت زنيرة امرأة ضعيفة البصر، فلما أسلمت؛ كان الأشراف من مشركي قريش يستهزئون بها، ويقولون: والله؛ لو كان ما جاء به محمد خيرًا ما سبقتنا إليه زنيرة؛ فأنزل الله فيها وفي أمثالها هذه الآية.

أخرجه الواحدي في "الوسيط" (٤/ ١٠٥) بسند صحيح إلى يونس بن عبد الأعلى: أنا ابن وهب عن ابن أبي الزناد عن أبيه به. وهذا مرسل حسن الإسناد.

وعن عون بن أبي شداد؛ قال: كانت لعمر بن الخطاب رضي الله عنه أمة أسلمت قبله يقال لها: زنيرة، فكان عمر رضي الله عنه يضربها على إسلامها، وكان كفار قريش يقولون: لو كان خيرًا؛ ما سبقتنا إليه زنيرة؛ فأنزل الله في شأنها: {وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا مَا سَبَقُونَا إِلَيْهِ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هَذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ (١١)}.

ذكره السيوطي في "لباب النقول" (ص ١٩١)، و"الدر المنثور" (٧/ ٤٤٠)

=

=

ونسبه لابن المنذر.

وهذا سند ضعيف؛ لإرساله.

وعن قتادة في قوله: {وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا مَا سَبَقُونَا إِلَيْهِ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هَذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ (١١)}؛ قال: قد قال ذلك قائلون من الناس كانوا أعز منهم في الجاهلية، قالوا: والله لو كان هذا خيرًا؛ ما سبقنا إليه بنو فلان وبنو فلان؛ فإن الله يختص برحمته من يشاء ويكرم برحمته من يشاء.

خرجه الطبري في "جامع البيان" (٢٦/ ٩) من طريقين عنه. وهذا مرسل صحيح الإسناد.

والحديث ذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٧/ ٤٤٠) وزاد نسبته لعبد بن حميد.

وذكر السيوطي في "لباب النقول" (ص ١٩١): أن ابن سعد أخرج نحوه عن الضحاك والحسن.

* قوله تعالى: (قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللهِ وَكَفَرْتُمْ بِهِ) أي: قل لهم يا محمد: أخبروني يا معشر المشركين، إن كان هذا القرآن كلام حقًا، وقد كذبتم به وجحدتموه، وجوابه محذوف تقديره: كيف يكون حالكم؟ كما قال تعالى في فصلت (قلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللهِ ثُمَّ كَفَرْتُمْ بِهِ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ).

(وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرائيلَ عَلَى مِثْلِهِ فَآمَنَ وَاسْتَكْبَرْتُمْ) أي: وشهد شاهد من بني إسرائيل على أن هذا القرآن وحي منزل حقًا من عند الله.

- والشاهد في الآية هو عبدالله بن سلام، كما قاله الجمهور، وعليه فهذه الآية مدنية في سورة مكية

(إِنَّ اللهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ) الذين ظلموا أنفسهم بالشرك، فإن الشرك أعظم

=

=

الظلم.

عن عوف بن مالك الأشجعي؛ قال: انطلق النبي ﷺ وأنا معه حتى دخلنا كنيسة اليهود بالمدينة يوم عيدهم، وكرهوا دخولنا عليهم، فقال لهم رسول الله ﷺ: "يا معشر اليهود! أروني اثني عشر رجلا يشهدون أن لا إله إلا الله وأني رسول الله؛ يحبط الله عن كل يهودي تحت أديم السماء الغضب الذي غضب عليه"، قال: فأمسكوا، وما أجابه منهم أحد، ثم رد عليهم؛ فلم يجبه أحد، ثم ثلث؛ فلم يجبه أحد، فقال: "أبيتم، فوالله إني لأنا الحاشر، وأنا العاقب، وأنا المقفى، آمنتم أو كذبتم"، ثم انصرف وأنا معه، حتى دنا أن يخرج؛ فإذا رجل من خلفنا يقول: كما أنت يا محمد! قال: فقال ذلك الرجل: أي رجل تعلموني فيكم يا معشر اليهود؟! قالوا: ما نعلم أنه كان فينا رجل أعلم بكتاب الله ولا أفقه منك ولا من أبيك من قبلك ولا من جدك قبل أبيك، قال: فإني أشهد له بالله أنه نبي الله الذي تجدونه في التوراة، قالوا: كذبت، ثم ردوا عليه وقالوا له شرا، فقال رسول الله ﷺ: "كذبتم، لن يقبل قولكم، أما آنفا؛ فتثنون عليه من الخير ما أثنيتم، وأما إذا آمن؛ كذبتموه، وقلتم ما قلتم؛ فلن يقبل قولكم"، قال: فخرجنا ونحن ثلاثة: رسول الله ﷺ، وأنا، وعبد الله بن سلام؛ فأنزل الله فيه: {قل أرأيتم إن كان من عند الله وكفرتم به وشهد شاهد من بني إسرائيل على مثله فآمن واستكبرتم إن الله لا يهدي القوم الظالمين (١٠)} أخرجه أحمد (٦/ ٢٥)، والطبراني في الكبير (١٨/ ٤٦)، وفي مسند الشاميين (٩٤٨)، وابن حبان (٧١٦٢)، والحاكم (٣/ ٤٦٩)، وأبو نعيم في دلائل النبوة مختصرا (٨٠) والحديث صححه ابن حبان، والحاكم وأقره الذهبي، وقال الهيثمي (٧/ ١٠٦): رجاله رجال الصحيح، وقال السيوطي في لباب النقول (ص ١٩٠): سنده صحيح، وأورده العلامة الألباني في صحيح السيرة النبوية (ص ٨٠)، وقال الأرنؤوط ومن معه في تحقيق المسند (٣٩/ ٤١٠): إسناده صحيح على

=

=

شرط مسلم.

وعن سعد بن أبي وقاص؛ قال: (ما سمعت النبي ﷺ يقول لأحد يمشي على الأرض: إنه من أهل الجنة؛ إلا لعبد الله بن سلام، قال: وفيه نزلت هذه الآية: {وشهد شاهد من بني إسرائيل على مثله فآمن واستكبرتم إن الله لا يهدي القوم الظالمين}) أخرجه البخاري (٣٨١٢)، ومسلم (رقم ٢٤٨٣/ ١٤٧).

قوله تعالى: {قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللهِ وَكَفَرْتُمْ بِهِ}.

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره: قل يا محمد لهؤلاء المشركين القائلين لهذا القرآن لما جاءهم هذا سحر مبين {أَرَأَيْتُمْ} أيها القوم {إِنْ كَانَ} هذا القرآن {مِنْ عِنْدِ اللهِ} أنزله عليّ، وكذّبتم أنتم به".

قال ابن كثير:" أي: ما ظنكم أن الله صانع بكم إن كان هذا الكتاب الذي جئتكم به قد أنزله عليَّ لأبلغكموه، وقد كَفَرتم به وكذبتموه".

قوله تعالى: {وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى مِثْلِهِ فَآمَنَ وَاسْتَكْبَرْتُمْ} [الأحقاف:١٠]، أي:" وقد شهد رجل من علماء بني إسرائيل على صدق القرآن، فآمن به واستكبرتم أنتم عن الإيمان، فهل هذا إلا أعظم الظلم وأشد الكفر؟".

وجواب «إِنْ» مُضْمَر وفي تقديره ستة أقوال:

أحدها: أن جوابه: فَمنْ أَضَلُّ منكم، قاله الحسن.

الثاني: أن تقدير الكلام: وشَهِدَ شاهدٌ من بني إِسرائيل على مثله فآمن، أتؤمِنون؟ قاله الزجاج.

الثالث: أن تقديره: أتأمنون عقوبة الله؟ قاله أبو علي الفارسي.

الرابع: أن تقديره: أفما تهلكون؟ ذكره الماوردي.

الخامس: مَن المُحِقُّ مِنّا ومِنكم ومَن المُبْطِل؟ حكاه الثعلبي.

السادس: أن تقديره: أليس قد ظَلَمْتُمْ؟ ويدُلُّ على هذا المحذوف.

=

=

قال السمعاني:" في التفسير: أن في الآية حذفا، وتقديره: قل أرأيتم إن كان من عند الله وشهد شاهد من بني إسرائيل على مثله فآمن واستكبرتم ألستم قد ظلمتم وأتيتم بالقبيح الذي لا يجوز".

واختلف في قوله تعالى: {وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى مِثْلِهِ} [الأحقاف: ١٠]، على أقوال:

أحدها: أنه عبد الله بن سلام شهد على اليهود أن رسول الله -ﷺ- مذكور في التوراة، قاله ابن عباس، والحسن، وعكرمة، والضحاك، وقتادة، ومجاهد، ويوسف بن عبد الله بن سلام، والسُّدِّي، والثوري، ومالك بن أنس، وابن زيد، وابن سيرين. وهو قول الأكثرين.

قال السمعاني:" وعلى هذا القول هذه الآية مدنية من جملة السورة؛ لأن عبد الله بن سلام أسلم بالمدينة بالاتفاق".

قال قتادة:" كنا نحدّث أنه عبد الله بن سلام آمن بكتاب الله وبرسوله وبالإسلام، وكان من أحبار اليهود".

قال ابن زيد:" هذا عبد الله بن سلام، شهد أن رسول الله ﷺ وكتابه حق، وهو في التوراة حقّ، فآمن واستكبرتم".

قال الضحاك:" الشاهد: عبد الله بن سلام، وكان من الأحبار من علماء بني إسرائيل، وبعث رسول الله ﷺ إلى اليهود، فأتوه، فسألهم فقال: "أَتَعْلَمُون أنّي رسُولُ الله تجدُونَنِي مَكْتُوبًا عِنْدَكُمْ في التَوْراة"؟ قالوا: لا نعلم ما تقول، وإنا بما جئت به كافرون، فقال: "أيَّ رجل عَبْدُ الله بْنُ سَلام عنْدَكُمْ"؟ قالوا: عالمنا وخيرنا، قال: "أتَرْضوْن بهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ"؟ قالوا: نعم، فأرسل رسول الله ﷺ إلى عبد الله بن سلام، فجاءه فقال: "ما شَهادَتُكَ يا ابْنَ سَلام"؟ قال: أشهد أنك رسول الله، وأن كتابك جاء من عند الله، فآمن وكفروا، يقول الله تبارك وتعالى: {فَآمَنَ

=

=

وَاسْتَكْبَرْتُم}".

قال ابن عباس: «كان رجل من أهل الكتاب آمن بمحمد ﷺ، فقال: إنا نجده في التوراة، وكان أفضل رجل منهم، وأعلمهم بالكتاب، فخاصمت اليهود النبي ﷺ، فقال: "أترضون أن يحكم بيني وبينكم عبد الله بن سلام "؟ "أتؤمنون"؟ قالوا: نعم، فأرسل إلى عبد الله بن سلام، فقال: "أتشهد أني رسول الله مكتوبا في التوراة والإنجيل"، قال: نعم، فأعرضت اليهود، وأسلم عبد الله بن سلام، فهو

الذي قال الله جلّ ثناؤه عنه: {وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى مِثْلِهِ فَآمَنَ وَاسْتَكْبَرْتُمْ}، يقول: فآمن عبد الله بن سلام».

وقال مقاتل:" يعني: عبد الله بن سلام، {على مثله}، يعني: على مثل ما شهد عليه يامين بن يامين، كان أسلم قبل عبد الله بن سلام وكان يا مين من بني إسرائيل من أهل التوراة فآمن بالنبي ﷺ".

الثاني: أنه يامين بن يامين، قال لما أسلم عبد الله بن سلام: «أنا شاهد مثل شهادته ومؤمن كإيمانه». قاله السدي.

الثالث: أن المراد به رجل من بني إسرائيل على الجملة، شهد عَلَى مثل ما شهد عليه عبد الله بن سلام من التصديق بالنبي ﷺ وأنَّه موصوف فِي التوراة، فآمن ذَلِكَ الرجل واستكبرتم. وهذا قول الفراء.

قال الزجاج:" قِيلَ في تفسير قوله: {وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى مِثْلِهِ} عَلَى مثل شهادَةِ عبْد الله بن سَلَام، والأجود - والله أعلم - أن يكون {عَلَى مِثْلِه} على مثل شهادة النبي ﷺ".

قال السمعاني:" وعلى هذا القول الآية مكية مثل سائر آيات السورة".

الثالث: أن موسى مثل محمد -ﷺ- يشهد بنبوته، والتوراة مثل القرآن يشهد بصحته، قاله مسروق، والشعبي، وبه قال الطبري.

=

=

والمعنى على هذا القول:": وشَهِد موسى على التوراة التي هي مِثْل القرآن أنها من عند الله، كما شهد محمد على القرآن أنه كلام الله، «فآمن» مَنْ آمن بموسى والتوراة «واستكْبرتُم» أنتم يا معشر العرب أن تؤمِنوا بمحمد والقرآن".

قال الماوردي:"ولم يكن في عبد الله بن سلام لأنه أسلم بالمدينة والآية مكية".

قال الفخر الرازي:" أنكر الشعبي ومسروق وجماعة آخرين أن يكون الشاهد المذكور في هذه الآية هو عبد الله بن سلام، قالوا لأن إسلامه كان بالمدينة قبل وفاة رسول الله ﷺ بعامين وهذه السورة مكية فكيف يمكن حمل هذه الآية المكية على واقعة حدثت في آخر عهد رسول الله ﷺ بالمدينة؟

وأجاب الكلبي: بأن السورة مكية إلا هذه الآية فإنها مدنية وكانت الآية تنزل فيؤمر رسول الله ﷺ بأن يضعها في سورة كذا فهذا الآية نزلت بالمدينة وإن الله تعالى أمر رسوله ﷺ بأن يضعها في هذه السورة المكية في هذا الموضع المعين".

قال القرطبي:" الآية في محاجة المشركين، ووجه الحجة أنهم كانوا يراجعون اليهود في أشياء.. ولا يبعد أن تكون السورة في محاجة اليهود".

قال مسروق:" والله ما نزلت في عبد الله بن سلام، ما أنزلت إلا بمكة، وما أسلم عبد الله إلا بالمدينة، ولكنها خصومة خاصم محمد ﷺ بها قومه، قال: فنزلت: {قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللهِ وَكَفَرْتُمْ بِهِ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى مِثْلِهِ فَآمَنَ وَاسْتَكْبَرْتُمْ}، قال: فالتوراة مثل القرآن، وموسى مثل محمد ﷺ، فآمنوا بالتوراة وبرسولهم، وكفرتم".

وقال مسروق:"فخاصم به الذين كفروا من أهل مكة، التوراة مثل القرآن، وموسى مثل محمد ﷺ".

قال الشعبيّ: "إن ناسا يزعمون أن الشاهد على مثله: عبد الله بن سلام، وأنا أعلم بذلك، وإنما أسلم عبد الله بالمدينة، وقد أخبرني مسروق أن «آل حم» إنما نزلت

=

=

بمكة، وإنما كانت محاجة رسول الله ﷺ لقومه، فقال: {قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللهِ}، يعني: الفرقان {وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى مِثْلِهِ}، فمثل التوراة: الفرقان، التوراة شهد عليها موسى، ومحمد على الفرقان صلى الله عليهما وسلم".

الرابع: هو من آمن من بني إسرائيل بموسى والتوراة، قاله الشعبي.

قال ابن كثير:" وهذا الشاهد اسم جنس يعم عبد الله بن سلام وغيره، فإن هذه الآية مكية نزلت قبل إسلام عبد الله بن سلام. وهذه كقوله: {وَإِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ}
[القصص: ٥٣]، وقال: {إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ سُجَّدًا وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولا} [الإسراء: ١٠٧، ١٠٨]".

قال الطبري:" والصواب من القول في ذلك عندنا أن الذي قاله مسروق في تأويل ذلك أشبه بظاهر التنزيل، لأن قوله {قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللهِ وَكَفَرْتُمْ بِهِ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى مِثْلِهِ} في سياق توبيخ الله تعالى ذكره مشركي قريش، واحتجاجا عليهم لنبيه ﷺ، وهذه الآية نظيرة سائر الآيات قبلها، ولم يجر لأهل الكتاب ولا لليهود قبل ذلك ذكر، فتوجه هذه الآية إلى أنها فيهم نزلت، ولا دلّ على انصراف الكلام عن قصص الذين تقدّم الخبر عنهم معنى، غير أن الأخبار قد وردت عن جماعة من أصحاب رسول الله ﷺ بأن ذلك عنى به عبد الله بن سلام وعليه أكثر أهل التأويل، وهم كانوا أعلم بمعاني القرآن، والسبب الذي فيه نزل، وما أريد به".

قوله تعالى: {إِنَّ اللهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ} [الأحقاف:١٠]، أي:" إن الله لا يوفّق إلى الإسلام وإصابة الحق القوم الذين ظلموا أنفسهم بكفرهم بالله".

=

قال الطبري:" يقول: إن الله لا يوفِّق لإصابة الحقّ، وهدى الطريق المستقيم، القوم الكافرين الذين ظلموا أنفسهم بإيجابهم لها سخط الله بكفرهم به".

قال السمعاني:" يعني: الكافرين".

قال الزجاج:" ثم أعلم أن هؤلاء المعاندين خاصة لَا يؤمِنونَ، فقال: {إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ} ، أي: قد جعل جزاءَهم على كفرهم بعدما تَبينَ لهم الهُدَى مَدَّهم في الضلَالَة".

(وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا مَا سَبَقُونَا إِلَيْهِ) أي: أن الكافرين قالوا عن المؤمنين بالقرآن والإيمان ومرادهم فقراؤهم كبلالًا وصهيب وخباب وأشباههم وأضرابهم من، لو كان هذا القرآن والدين خيرًا ما سبقونا إليه، وأنهم هم الذين لهم عند الله جاه وعظمة واستحقاق السبق في كل خير، لزعمهم أن الله أكرمهم في الدنيا بالمال والجاه، وأن أولئك الفقراء لا مال لهم ولا جاه.

كما بين ذلك تعالى في آيات، وأن الله كذبهم أنهم سيعطون في الآخرة مثله:

قال تعالى (أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مَالٍ وَبَنِينَ. نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَلْ لا يَشْعُرُونَ).

وقال تعالى (وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ).

(وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ) أي بالقرآن.

(فَسَيَقُولُونَ هَذَا إِفْكٌ) أي: كذب.

(قَدِيمٌ) أي: مأثور عن الأقدمين، فينتقصون القرآن وأهله، وهذا هو الكبر الذي قال رسول الله ﷺ (الكِبر بطر الحق وغمط الناس).

قوله تعالى: {وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا مَا سَبَقُونَا إِلَيْهِ} .

قال الطبري: يقول: " وقال الذين جحدوا نبوة محمد ﷺ من يهود بني إسرائيل للذين آمنوا به، لو كان تصديقكم محمدا على ما جاءكم به خيرا، ما سبقتمونا إلى

=

التصديق به، وهذا التأويل على مذهب من تأوّل قوله: {وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى مِثْلِهِ} أنه معنيّ به عبد الله بن سلام، فأما على تأويل من تأوّل أنه عُني به مشركو قريش، فإنه ينبغي أن يوجه تأويل قوله: {وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا مَا سَبَقُونَا إِلَيْهِ} أنه عُني به مشركو قريش".

قال مقاتل:" وذلك أنهم قالوا: لو كان الذي جاء به محمد حقا: أن القرآن من الله ما سبقونا يقول ما سبقنا إلى الإيمان به أصحاب محمد ﷺ".

قال الفراء:" لمّا أسلمت: مزينة، وجهينة، وأسلم، وغفَار، قالت بنو عامر بن صعصعة وغطفانُ، وأشجع وأسد: لو كان هذا خيرا ما سبقنا إليه رعاة الْبَهْم".

قال الزجاج:" جاء في التفسير: أنه لما أسلمت جُهَينة ومُزَينَةُ وأسلم وغِفار، قالت بَنو

عَامِرٍ وغطفان وأسد وأشجع: لو كان ما دخل فيه هؤلاء مِنَ الذِين خَيرًا ما سبقونا إليه، ونحن أعز مِنْهمْ، وَإنما هؤلاء رُعَاةُ الْبَهْم".

قال ابن كثير:" أي: قالوا عن المؤمنين بالقرآن: لو كان القرآن خيرا ما سبقنا هؤلاء إليه. يعنون بلالا وعمارا وصُهَيبا وخبابا وأشباههم وأقرانهم من المستضعفين والعبيد والإماء، وما ذاك إلا لأنهم عند أنفسهم يعتقدون أن لهم عند الله وجاهة وله بهم عناية. وقد غلطوا في ذلك غلطا فاحشا، وأخطئوا خطأ بينا، كما قال تعالى: {وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لِيَقُولُوا أَهَؤُلاءِ مَنَّ اللهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا} [الأنعام: ٥٣] أي: يتعجبون: كيف اهتدى هؤلاء دوننا؛ ولهذا قالوا: {لَوْ كَانَ خَيْرًا مَا سَبَقُونَا إِلَيْهِ}، وأما أهل السنة والجماعة فيقولون في كل

فعل وقول لم يثبت عن الصحابة: هو بدعة؛ لأنه لو كان خيرا لسبقونا إليه، لأنهم لم يتركوا خصلة من خصال الخير إلا وقد بادروا إليها".

قال قتادة:" قال ذاك أناس من المشركين: نحن أعزّ، ونحن، ونحن، فلو كان خيرا

=

ما سبقنا إليه فلان وفلان، فإن الله يختصّ برحمته من يشاء".
وعن قتادة:" قال قوم من المشركين: نحن ونحن يفتخرون لو كان خيرا ما سبقنا إليه فلان وفلان يعنون عمارا وبلالا وصهيبا وضروبهم فأنزل الله جل وعز: {يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاء} [البقرة: ١٠٥]".
وقال قتادة:" قد قال ذلك قائلون من الناس، كانوا أعزّ منهم في الجاهلية، قالوا: والله لو كان هذا خيرا ما سبقنا إليه بنو فلان وبنو فلان، يختص الله برحمته من يشاء، ويكرم الله برحمته من يشاء، تبارك وتعالى".
قال الحسن:" كانت غفار وأسلم أهل سلة – يعني: أهل سرقة في الجاهلية – قال: «فلما أسلموا قالت قريش: {لَوْ كَانَ خَيْرًا مَا سَبَقُونَا إِلَيْهِ}»".
وقال مسروق: "هم أهل الكتاب".
قوله تعالى: {وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هَذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ} [الأحقاف:١١]، أي:" وإذ لم يهتدوا بالقرآن ولم ينتفعوا بما فيه من الحق فسيقولون: هذا كذب، مأثور عن الناس الأقدمين".
قال الطبري: يقول:" وإذ لم يبصروا بمحمد وبما جاء به من عند الله من الهدى، فيرشدوا به الطريق المستقيم، فسيقولون هذا القرآن الذي جاء به محمد ﷺ أكاذيب من أخبار الأوّلين قديمة، كما قال جل ثناؤه مخبراً عنهم، {وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلا}".
قال ابن كثير:" {وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ}، أي: بالقرآن {فَسَيَقُولُونَ هَذَا إِفْكٌ}، أي: كذب {قَدِيمٌ}، أي: مأثور عن الأقدمين، فينتقصون القرآن وأهله، وهذا هو الكبر الذي قال رسول الله ﷺ: «بطر الحق، وغَمْط الناس»".
قال النحاس:" {هَذَا إِفْكٌ}، أي: تقدم مثله في سالف الدهور".
(وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى) أي: ومن قبل القرآن التوراة التي أنزلها الله على موسى.

=

(إِمَامًا) أي: أنزلناه عليه إمامًا يؤتم به، فيقوم المؤتمين به العاملين بهدايته إلى السعادة والكمال.

(وَرَحْمَةً) لمن آمن بها وعمل بما فيها.

(وَهَذَا كِتَابٌ) أي: القرآن، وسبق لماذا سمي بالكتاب.

(مُصَدِّقٌ) أي: لما قبله من الكتب.

– وتصديق القرآن لما قبله من الكتب من وجهين:

الوجه الأول: يخبر أنها حق، الوجه الثاني: يصدق ما أخبرت به.

(لِسَانًا عَرَبِيًّا) أي: بينًا فصيحًا واضحًا، والمعنى: صيرناه بلغة العرب كما قال تعالى (وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا) وقال تعالى (قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ).

وقال تعالى (كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ). وقال تعالى (وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا). وقال تعالى (إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ).

(لِيُنْذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا) أي: هذا القرآن فيه إنذار للكفار من عذاب الله إن لم يؤمنوا.

– والظلم المراد الشرك، لأن أصل الظلم وضع الشيء في غير موضعه، والمشرك ظالم، لأنه وضع العبادة التي هي حق لله تعالى وحده، وضعها في المخلوق الضعيف الفقير أو وضعها لصنم أو حجر أو شجر.

كما قال تعالى عن العبد الصالح (إن الشرك لظلم...) وثبت في صحيح البخاري أن النبي ﷺ فسر قوله (الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم) قال: بشرك، ثم تلا قول لقمان (إن الشرك لظلم عظيم) وقال تعالى (ولا تدع من دون الله ما لا ينفعك ولا يضرك فإن فعلت فإنك إذا من الظالمين).

– فلم يأت الظلم في القرآن إلا بهذا المعنى، إلا في موضع واحد في سورة الكهف،

=

=

بمعنى النقص، كما قال تعالى (كلنا الجنتين آتت أكلها...) أي ولم تنقص

قوله تعالى: {وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى إِمَامًا وَرَحْمَةً}.

قال الطبري: يقول:" ومن قبل هذا الكتاب، كتاب موسى، وهو التوراة، إماما لبني إسرائيل يأتمون به، ورحمة لهم أنزلناه عليهم".

قال ابن كثير:" {وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى} وهو التوراة {إِمَامًا وَرَحْمَةً}".

قال ابن أبي زمنين:" {وَمِنْ قَبْلِهِ} من قبل القرآن، {كِتَابُ مُوسَى إماما إِمَامًا}، يعني: التوراة؛ يهتدون به، {وَرَحْمَةً}، لمن آمن به".

قوله تعالى: {وَهَذَا كِتَابٌ مُصَدِّقٌ لِسَانًا عَرَبِيًّا} [الأحقاف:١٢]، أي:" وهذا القرآن مصدق لما قبله من الكتب، أنزلناه بلسان عربي".

قال الطبري: يقول:" وهذا كتاب أنزلناه لسانا عربيا".

قال ابن كثير:" {وَهَذَا كِتَابٌ} يعني: القرآن {مُصَدِّقٌ}، أي: لما قبله من الكتب {لِسَانًا عَرَبِيًّا}، أي: فصيحا بينا واضحا".

قال ابن أبي زمنين:" {إماما}، منصوب على الحال، {ورحمة} عطف عليه، و {لسانا عربيا} منصوب أيضا على الحال، المعنى: مصدق لما بين يديه عربيا وذكر (لسانا) توكيدا".

قال مجاهد:" نزل القرآن بلسان قريش وبه كلامهم".

عن ابن بريدة في قوله -جل ذكره-: " {بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ} قال: بلسان جرهم".

عن يحيى ابن الضريس يقول: "سمعت سفيان الثوري، يقول: لم ينزل وحي إلا بالعربية ثم ترجم كل نبي لقومه، واللسان يوم القيامة بالسريانية فمن تكلم بالعربية دخل الجنة".

وفي قراءة عَبْد الله: «مصدق لما بين يديه لسانا عربيا».

قوله تعالى: {لِيُنْذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَبُشْرَى لِلْمُحْسِنِينَ} [الأحقاف:١٢]، أي:"

=

=

لينذر الذين ظلموا أنفسهم بالكفر والمعصية، وبشرى للذين أطاعوا الله، فأحسنوا في إيمانهم وطاعتهم في الدنيا".

قال الطبري:" يقول: لينذر هذا الكتاب الذي أنزلناه إلى محمد عليه الصلاة والسلام الذين ظلموا أنفسهم بكفرهم بالله بعبادتهم غيره، وهو بشرى للذين أطاعوا الله فأحسنوا في إيمانهم وطاعتهم إياه في الدنيا، فحسن الجزاء من الله لهم في الآخرة على طاعتهم إياه".

قال ابن كثير:" أي: مشتمل على النّذارة للكافرين والبشارة للمؤمنين".

(وَبُشْرَى لِلْمُحْسِنِينَ) أي: وهذا القرآن فيه بشارة للمحسنين، فهو إنذار وتبشير.

- فإن قيل ما المراد بالمحسنين، فالجواب: فسر ذلك النبي ﷺ لما سأله جبريل ما الإحسان؟ قال (أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك) رواه مسلم.

وسؤال جبريل هذا ليعلم أصحاب النبي ﷺ معنى الإحسان، وأن إحسان العمل إنما يكون لمن راقب الله وعلم يقينيًا أن الله مطلع عليه.

لأن الإحسان هو الغاية التي من أجلها خلق الخلق، وأنه سبحانه يختبر عباده في إحسانهم للعمل.

كما قال تعالى في أول سورة هود (وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ) ثم بيّن الحكمة فقال (لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا). ولم يقل أيكم أكثر عملًا.

وقال تعالى في أول سورة الكهف (إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا) ثم بيّن الحكمة بقوله (لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا).

وقال تعالى في أول سورة الملك (الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ) ثم بيّن الحكمة فقال (لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا).

فالإحسان: أن يأتي بالعمل حسنًا متقنًا لا نقص فيه ولا وصم، وإحسان العمل لا

=

إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (١٣).

{إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا} على الطاعة {فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون.

أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٤).

{أُولَئِكَ أَصْحَاب الْجَنَّة خَالِدِينَ فِيهَا} حَال {جَزَاء} مَنْصُوب عَلَى الْمَصْدَر بِفِعْلِهِ الْمُقَدَّر أَيْ يُجْزَوْنَ {بما كانوا يعملون}[1].

=

يمكن إلا بمراقبة خالق هذا الكون.

(١) قوله تعالى: (إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللهُ) بألسنتهم وقلوبهم.

(ثُمَّ اسْتَقَامُوا) على طاعة الله، قاموا بحق الله من التوحيد والطاعات والأخلاق وفي كل شيء.

(فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ) أي: فيما يستقبلون من الموت وأهوال القيامة.

(وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ) أي: على ما خلفوه في الدنيا من أهل ومال وولد فنحن نخلفكم فيه.

- فنفى سبحانه وتعالى عنهم كل هم وغم سواء كان في الماضي أو المستقبل.

وقد جاء في آية أخرى أن الملائكة تقول لهم ذلك كما قال تعالى (إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ)، قوله تعالى (تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلائِكَةُ) عند الموت قائلين (أن لا تخافوا) وقيل: تتنزل عليهم يوم خروجهم من قبورهم، وقيل: عند الموت وفي قبره وحين يبعث، وهذا القول يجمع الأقوال كلها.

قوله تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا}.

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره: {إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللهُ} الذي لا إله غيره {ثُمَّ

=

=

اسْتَقَامُوا} على تصديقهم بذلك فلم يخلطوه بشرك، ولم يخالفوا الله في أمره ونهيه".

وفي قوله تعالى: {ثُمَّ اسْتَقَامُوا} [الأحقاف:١٣]، وجوه من التفسير:

أحدها: استقاموا على التوحيد، قاله أبو بكر الصِّدِّيق-رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-، ومجاهد، وعكرمة.

قال الصِّدِّيق-رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-:" قالوا: ربنا الله ثم استقاموا فلم يلتفتوا إلى إله غيره".

وفي رواية:" هم الذين لم يشركوا بالله شيئا".

قال مجاهد:" أسلموا ثم لم يشركوا به حتى لحقوا به".

وقال السدي:" تموا على ذلك".

وفي رواية:" استقاموا على ألا يشركوا".

عن أنس بن مالك، أن رسول الله ﷺ قرأ: " {إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا}، قال: «قد قالها الناس، ثم كفر أكثرهم، فمن مات عليها فهو ممن استقام»".

وروي عن النبي ﷺ أنه قال: «هم أمتي ورب الكعبة استقاموا ولم يشركوا كما فعلت اليهود والنصارى».

الثاني: استقاموا على طاعته وأداء فرائضه، قاله عمر بن الخطاب-رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-، وابن عباس، وقتادة، وابن زيد.

قال عمر الفاروق:"استقاموا لله بطاعته، ولم يروغوا روغان الثعلب".

قال قتادة:" وكان الحسن إذا تلاها قال: اللهمَّ فأنت ربنا فارزقنا الاستقامة".

الثالث: استقاموا على الإخلاص والعمل إلى الموت، قاله أبو العالية، والسدي.

الرابع: استقاموا على المعرفة ولم يرتدوا عنها. قاله مقاتل.

الخامس: أن الاستقامة أن يجمع بين فعل الطاعات واجتناب المعاصي لأن التكليف يشتمل على أمر بطاعة تبعث على الرغبة ونهي عن معصية يدعو إلى الرهبة. أفاده الماوردي.

=

=

عن عبد الله بن سفيان الثقفي، عن أبيه:" أن رجلا قال: يا رسول الله مرني بأمر في الإسلام لا أسأل عنه أحدا بعدك. قال: "قل آمنت بالله، ثم استقم" قلت: فما أتقي؟ فأومأ إلى لسانه".

قوله تعالى: {فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ} [الأحقاف:١٣]، أي:" فلا خوف عليهم من فزع يوم القيامة وأهواله".

قال الطبري: أي:" من فزع يوم القيامة وأهواله".

قال ابن كثير:" أي: فيما يستقبلون".

عن سعيد بن جبير، قوله: " {فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ}، يعني: في الآخرة".

قوله تعالى: {وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ} [الأحقاف:١٣]، أي:" ولا هم يحزنون على ما خلَّفوا وراءهم بعد مماتهم من حظوظ الدنيا".

قال الطبري: أي:" على ما خلفوا وراءهم بعد مماتهم".

قال ابن كثير: أي:"على ما خلفوا".

عن سعيد بن جبير، قوله: " {وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ}، يعني: لا يحزنون للموت".

(أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ) أي: أولئك المؤمنون المستقيمون في دينهم هم أهل الجنة، تلك الدار التي أعدها الله لأوليائه الصالحين، فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

- الجنة في لغة العرب: البستان، لأن أشجاره الملتفة تجن الداخل فيه، وجاء إطلاق الجنة على البستان في القرآن في قوله (إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ) أي البستان، وفي قوله (وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ). وأما في الاصطلاح: فهي الدار التي أعدها الله لأوليائه، فيها مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر.

(خَالِدِينَ فِيهَا) أي: مقيمين فيها إقامة أبدية لا تحول ولا تزول، فلا يموتون ولا

=

=

يفنون ولا يخرجون منها.

- وذكر من نعيم الجنة الخلود، لأنه أعظم النعيم، لأن أكبر ما ينكد اللذائذ، وينغص اللذات، أن يعلم صاحبها أنه زائل عنها، وأنها زائلة عنه، فكل نعيم بعده موت فليس بنعيم، والنعيم إذا تيقنصاحبه الانتقال عنه صار غمًا،

فالفكرة بالزوال تكدر اللذات الحاضرة، ولذا كان النبي ﷺ يأمرهم أن يكثروا من ذكر الموت، ويقال للموت: هاذم اللذات، لأن من تذكره ضاعت عليه لذته التي هو فيها، لأنه يقطعها، ولهذا قال (خالدين فيها) لا يزول عنهم ذلك ذلك النعمي فتتكدر غبطتهم.

(جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) أي: نالوا ذلك النعيم جزاء على أعمالهم الصالحة.

كما قال تعالى (لَهُمْ دَارُ السَّلام عِنْدَ رَبِّهِمْ وَهُوَ وَلِيُّهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ).

وقال تعالى (فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ).

وقال تعالى (أَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَى نُزُلًا بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ).

قال الطبري: يقول:" هؤلاء الذين قالوا هذا القول، واستقاموا أهل الجنة وسكانها، ماكثين فيها أبدا".

عن سعيد بن جبير:" {هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ}، يعني: لا يموتون"".

قال ابن عباس: "أي: خالدون أبدا، يخبرهم أن الثواب بالخير والشر مقيم على أهله أبدا لا انقطاع له".

قوله تعالى: {جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} [الأحقاف:١٤]، أي:" نالوا ذلك النعيم جزاءً لهم على أعمالهم الصالحة".

قال الطبري:" يقول: ثوابا منا لهم آتيناهم ذلك على أعمالهم الصالحة التي كانوا في الدنيا يعملونها".

=

=

قال ابن كثير:" أي: الأعمال سبب لنيل الرحمة لهم وسُبُوغها عليهم".

مسألة: في حكم الاستقامة.

قال في النهاية: "قام فلان على الشيء إذا ثبت عليه ... ومنه الحديث: "استقيموا لقريش ما استقاموا لكم، فإن لم يفعلوا فضعوا سيوفكم على عواتقكم فأبيدوا خضراءهم" أي: دوموا لهم على الطاعة واثبتوا عليها، ما داموا على الدين وثبتوا على الإسلام. يقال: أقام واستقام، كما يقال: أجاب واستجاب".

وعن قتادة السدوسي رَحِمَهُ ٱللَّهُ قال: "الاستقامة أن تلبث على الإسلام والطريقة الصالحة ثم لا تمرق منها ولا تخالفها ولا تشذ عن السنة ولا تخرج عنها".

وقال ابن رجب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "الاستقامة هي سلوك الصراط المستقيم، وهو الدين القيم من غير تعريج عنه يمنة ولا يسرة، ويشمل ذلك فعل الطاعات كلها الظاهرة والباطنة، وترك المنهيات كلها كذلك".

وألف أبو العباس ابن تيمية كتاب الاستقامة وقال في أوله: "قاعدة في وجوب الاستقامة والاعتدال، ومتابعة الكتاب والسنة في باب أسماء الله، وصفاته، وتوحيده، بالقول والاعتقاد، وبيان اشتمال الكتاب والسنة على جميع الهدى وأن التفرق والضلال إنما حصل بترك بعضه ...".

* الدليل من الكتاب: قال تعالى: {إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون} [فصلت: ٣٠] وقوله ﷻ: {إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون (١٣) أولئك أصحاب الجنة خالدين فيها جزاء بما كانوا يعملون} [الأحقاف: ١٣، ١٤]، وقال ﷻ: {قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلي أنما إلهكم إله واحد فاستقيموا إليه واستغفروه} [فصلت: ٦]، وقال تعالى: {فاستقم كما أمرت} [هود: ١١٢].

=

=

* الدليل من السنة: عن سفيان بن عبد الله رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: قلت: يا رسول الله، قل لي في الإسلام قولا لا أسأل عنه أحدا غيرك، قال: "قل: آمنت بالله، ثم استقم".
قال ابن رجب: "قول سفيان بن عبد الله للنبي ﷺ: "قل لي في الإسلام قولا لا أسأل عنه أحدا بعدك " طلب منه أن يعلمه كلاما جامعا لأمر الإسلام كافيا حتى لا يحتاج بعده إلى غيره، فقال له النبي ﷺ: "قل: آمنت بالله، ثم استقم"، وفي الروية الأخرى: "قل: ربي الله، ثم استقم)".
وعن عبد الله بن عمرو قال قال رسول الله ﷺ: "استقيموا ولن تحصوا، واعلموا أن خير أعمالكم الصلاة، ولا يحافظ على الوضوء إلا مؤمن".
قال ابن رجب رَحِمَهُ اللهُ: "فأصل الاستقامة استقامة القلب على التوحيد، كما فسر أبو بكر الصديق وغيره قوله: {إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا} بأنهم لم يلتفتوا إلى غيره، فمتى استقام القلب على معرفة الله، وعلى خشيته وإجلاله، ومهابته، ومحبته، وإرادته، ورجائه، ودعائه، والتوكل عليه، والإعراض عما سواه، استقامت الجوارح كلها على طاعته، فإن القلب هو ملك الأعضاء، وهي جنوده، فإذا استقام الملك، استقامت جنوده ورعاياه، وكذلك فسر قوله تعالى: {فأقم وجهك للدين حنيفا} [الروم: ٣٠] بإخلاص القصد لله وإرادته وحده لا شريك له.

وأعظم ما يراعى استقامته بعد القلب من الجوارح اللسان، فإنه ترجمان القلب والمعبر عنه، ولهذا لما أمر النبي ﷺ بالاستقامة، وصاه بعد ذلك بحفظ لسانه، وفي "مسند الإمام أحمد" عن أنس، عن النبي ﷺ، قال: "لا يستقيم إيمان عبد حتى يستقيم قلبه، ولا يستقيم قلبه حتى يستقيم لسانه". وفي "الترمذي" عن أبي سعيد الخدري مرفوعا وموقوفا: "إذا أصبح ابن آدم، فإن الأعضاء كلها تكفر اللسان، فتقول: اتق الله فينا، فإنما نحن بك، فإن استقمت استقمنا، وإن اعوججت

=

وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا حَتَّى إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ (١٥).

{ووصينا الإنسان بوالديه حسنا} وَفِي قِرَاءَة إحْسَانًا أَيْ أَمَرْنَاهُ أَنْ يُحْسِن إلَيْهِمَا فَنَصَبَ إحْسَانًا عَلَى الْمَصْدَر بِفِعْلِهِ الْمُقَدَّر وَمِثْله حَسَنًا {حَمَلَتْهُ أُمّه كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا} أَيْ عَلَى مَشَقَّة {وَحَمْله وَفِصَاله} مِنْ الرَّضَاع {ثَلَاثُونَ شَهْرًا} سِتَّة أَشْهُر أَقَلّ مُدَّة الْحَمْل وَالْبَاقِي أَكْثَر مُدَّة الرَّضَاع وَقِيلَ إنْ حَمَلَتْ بِهِ سِتَّة أَوْ تِسْعَة أَرْضَعَتْهُ الْبَاقِي {حَتَّى} غَايَة لِجُمْلَةٍ مُقَدَّرَة أَيْ وَعَاشَ حَتَّى {إذَا بَلَغَ أَشُدّهُ} هُوَ كَمَال قُوَّته وَعَقْله وَرَأْيه أَقَلّه ثَلَاث وَثَلَاثُونَ سَنَة أَوْ ثَلَاثُونَ {وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَة} أَيْ تَمَامهَا وَهُوَ أَكْثَر الْأَشُدّ {قَالَ رَبّ} إلَخْ نَزَلَ فِي أَبِي بَكْر الصِّدِّيق لَمَّا بَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَة بَعْد سَنَتَيْنِ مِنْ مَبْعَث النَّبِيّ ﷺ آمَنَ بِهِ ثُمَّ آمَنَ أَبَوَاهُ ثُمَّ ابْنه عبد الرحمن وبن عَبْد الرَّحْمَن أَبُو عَتِيق {أَوْزِعْنِي} أَلْهِمْنِي {أَنْ أَشْكُر نِعْمَتك الَّتِي أَنْعَمْت} بِهَا {عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ} وَهِيَ التَّوْحِيد {وَأَنْ أَعْمَل صَالِحًا تَرْضَاهُ} فَأَعْتَقَ تِسْعَة مِنْ الْمُؤْمِنِينَ يُعَذَّبُونَ فِي الله وأصلح لي في ذريتي فكلهم مؤمنون {إني تبت إليك وإني من المسلمين}.

أُولَئِكَ الَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَنَتَجَاوَزُ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ وَعْدَ الصِّدْقِ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ (١٦).

{أُولَئِكَ} أَيْ قَائِلُو هَذَا الْقَوْل أَبُو بَكْر وَغَيْره {الَّذِينَ نَتَقَبَّل عَنْهُمْ أَحْسَن}

=

اوعوججنا".

بِمَعْنَى حَسَن {مَا عَمِلُوا وَنَتَجَاوَز عَنْ سَيِّئَاتهمْ فِي أَصْحَاب الْجَنَّة} حَال أَيْ كَائِنِينَ فِي جُمْلَتهمْ {وَعْد الصِّدْق الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ} فِي قَوْله تَعَالَى {وَعَدَ الله الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَات جَنَّات}[1].

---

(١) ذكر سبب النزول.

عن عبد الله بن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا؛ قال: نزلت في أبي بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: {وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا حَتَّى إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ (١٥) أُولَئِكَ الَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَنَتَجَاوَزُ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ وَعْدَ الصِّدْقِ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ (١٦)}.

ذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٧/ ٤٤١) وقال: أخرج ابن عساكر من طريق الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس به. ومن دون ابن عباس كذابون.

* قوله تعالى: (ووَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا) أي: أمرناه بالإحسان إليهما والحنو عليهما.

وقد قرن سبحان بر الوالدين بتوحيده سبحانه وهذا يدل على شدة تأكد الإحسان إليهما وأنه بعد حق الله.

كما قال تعالى (قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلاَّ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا).

وقال تعالى (وَاعْبُدُوا اللّهَ وَلاَ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا).

وقال تعالى (وَقَضَى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا).

- وأوصى تعالى بالوالدين إحسانًا:

=

=

قال تعالى (وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا).

وقال تعالى (وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ).

وعن ابن مسعود قَالَ سَأَلْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ أَيُّ الأَعْمَالِ أَحَبُّ إِلَى اللهِ قَالَ (الصَّلاَةُ عَلَى وَقْتِهَا). قُلْتُ ثُمَّ أَيٌّ قَالَ (ثُمَّ بِرُّ الْوَالِدَيْنِ). قُلْتُ ثُمَّ أَيٌّ قَالَ (ثُمَّ الْجِهَادُ فِى سَبِيلِ اللهِ) قَالَ حَدَّثَنِى بِهِنَّ وَلَوِ اسْتَزَدْتُهُ لَزَادَنِى.

وعن عبد الله بن عمرو قال (جاء رجل إلى النبي ﷺ فاستأذنه في الجهاد، فقال: أحي والداك؟ قال: نعم، قال: ففيهما فجاهد) متفق عليه.

ولمسلم (فارجع إلى والديك فأحسن صحبتَهما).

ولحديث أبي هريرة. (أن رجلًا قال يا رسول الله! من أحق الناس بحسن صحابتي؟ قال: أمك؟ قال: ثم من؟ قال: أمك. قال: ثم من؟ قال: أمك. قال: ثم من؟ قال: أبوك).

كيفية الإحسان لهما: بالقول والفعل:

في حياتهما: بالبر والطاعة والإكرام والتوقير والتواضع لهما.

بعد موتهما: الدعاء لهما، وإنفاذ عهدهما، وإكرام صديقهما.

هذا البر لا يختص بالأبوين المسلمين، بل ولو كانا على الشرك.

قال تعالى (لا يَنْهَاكُمُ اللهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ)

وقال تعالى (وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا).

وعن أسماء قالت (قدمت أمي وهي راغبة، أفأصلها؟ قال: نعم).

راغبة: أي بالعطاء.

=

=

ومن الإحسان ألا يجاهد إلا بإذنهما للحديث السابق.

وهذا محمد ﷺ يزور قبر أمه: قال ﷺ (استأذنت ربي أن أستغفر لها فلم يأذن لي، واستأذنته أن أزور قبرها فأذن لي، فزوروا القبور فإنها تذكر الآخرة). رواه مسلم

وهذا إبراهيم خليل الرحمن يخاطب أباه بلطف وإشفاق: (يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا).

وهذا يحي يثني عليه الله بوصفه برًا بوالديه: قال تعالى (وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا).

وكذلك عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ فيذكر الله في كتابه قوله:

(وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا).

(حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا) أي: قاست بسببه في حال حمله مشقة وتعبًا، من وحام وغشيان وثقل وكرب، إلى غير ذلك مما تنال الحوامل من التعب والمشقة.

قوله تعالى: (وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا) أي: وكذلك وضعته بمشقة وتعب من الطلق وشدته.

قوله تعالى: (وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلاثُونَ شَهْرًا).

في قوله تعالى: {وحمله وفصاله ثلاثون شهرا} إشارة -لا صريح عبارة- إلى أن أقل الحمل ستة أشهر؛ وذلك أن الله جعل مدة الرضاع حولين؛ كما في قوله تعالى: {والوالدات يرضعن أولادهن حولين كاملين} [البقرة: ٢٣٣]؛ وذلك أن الله جعل الحمل والرضاع ثلاثين شهرا، والحولان أربعة وعشرون منها، وبقي ستة أشهر.

وروي الاستدلال لذلك عن عمر وعثمان وعلي وابن عباس؛ فقد روى ابن أبي حاتم، عن أبي الأسود الديلي؛ أن عمر بن الخطاب رفعت إليه امرأة ولدت لستة أشهر، فهم برجمها، فبلغ ذلك عليا، فقال: ليس عليها رجم؛ قال الله تعالى:

=

=

{والوالدات يرضعن أولادهن حولين كاملين} [البقرة: ٢٣٣]، وستة أشهر؛ فذلك ثلاثون شهرا.

وقد أخرج ابن جرير، عن بعجة بن زيد الجهني؛ أن امرأة منهم دخلت على زوجها، وهو رجل منهم أيضا، فولدت له في ستة أشهر؛ فذكر ذلك لعثمان بن عفان، فأمر بها أن ترجم، فدخل عليه علي بن أبي طالب، فقال: إن الله يقول في كتابه: {وحمله وفصاله ثلاثون شهرا}، وقال: {وفصاله في عامين} [لقمان: ١٤]، قال: فوالله، ما عبد عثمان أن بعث إليها ترد.

وقد أخرجه عبد الرزاق، عن معمر، عن الزهري، عن أبي عبيد مولى عبد الرحمن بن عوف، وذكر أن المستدل إنما هو ابن عباس، وهو صحيح، وقد ذكره مالك في "الموطأ" بلاغا.

وربما كان ذلك في نوازل متعددة، وقد اختلف العلماء في أقل الحمل، والذي عليه الجمهور: أن أقله ستة أشهر؛ وذلك لما سبق.

وقد يوجد من يولد لأقل من ستة أشهر، لكنه لا يعيش غالبا بعد ولادته إلا بمنقذ من الآلات والأجهزة الحديثة، والنادر لا حكم له في أبواب الإطلاق، وإلا لم يصح إطلاق ولا عموم ولا قاعدة، وليس في إثبات الولادة لأقل من ست ما يشكك في الوحي؛ كما يزعم أهل الباطل؛ وذلك أن القرآن لم يصرح بذلك؛ وإنما جعله تقريبا، لا حدا فاصلا لا يستأخر ولا يستقدم؛ لأن حولي الرضاعة يجوز قصرهما في قوله تعالى: {لمن أراد أن يتم الرضاعة} [البقرة: ٢٣٣]، وكان الرضاع والحمل يكفيه ثلاثون شهرا، فلو ولد لتسع، فإن قصر الرضاع ثلاثة أشهر، فذلك لا يؤثر على كمال الطفل، ولا حقه في الإرضاع على أبيه أو أمه ومرضعته، وكأنه بيان لحد الكفاية؛ فما فاته من غذاء في بطن أمه يستدركه بإتمام الحولين، وما أتمه في بطن أمه يجوز قصره من الرضاع عن الحولين، وبذلك يتم

=

=

حقه بالطعام، وهو ثلاثون شهرا؛ وهذا محتمل.

ثم إن الحياة بغير الرحم، والسلامة من غير تكييف خارج عن العادة - ليست مقصودا في الآية؛ فالله ذكر الحمل: {حملته أمه كرها ووضعته كرها}؛ يعني: على شدة وكره ومشقة، فهي الحاملة لا غيرها، وأما الحمل في غير الرحم كما يكون في الطب الحديث، فذلك غير مقصود في إحصاء المدة في الآية.

وقد اختلف في أكثر مدة الحمل أيضا:

وأكثره عند الجمهور: أربع سنوات، وهو قول المالكية والشافعية والحنابلة.

وفي قول لبعض الفقهاء من المالكية: أنها خمس سنوات.

ومذهب الحنفية -وبه يقول بعض الحنابلة-: أنها سنتان.

ومنهم: من حد أعلاه بسنة، كابن عبد الحكم وابن رشد.

ومن العلماء: من لم يجعل للحمل حدا، لا في قليله ولا في كثيره؛ قاله أبو عبيد.

وهذا التقدير من الفقهاء جريا على ما سمعوه من أحوال النساء، وليس في ذلك شيء يفصل من الشرع ولا يثبت، وفي كتب التاريخ والسير مرويات في الحمل سنين، وهذا كله مما لا يثبت، ومه ما يجزم بكذبه، وما صح سنده، فإن الناس قد يظنون انتفاخ بطن المرأة حملا لجهلهم، ويظنون أن ما فيها ولد، ويطؤها زوجها ويظنها موطوءة على حمل، فتحمل منه بعد ذلك، ويظن أن حملها بدأ من حساب حملها الكاذب؛ وذلك لقلة الطب ومعرفة الناس، وأقوال الفقهاء في ذلك ليست عن نص، وإنما لسماع أحوال بنوا عليها واحتاطوا، وفي هذا يقول ابن عبد البر: "وهذه مسألة لا أصل لها إلا الاجتهاد، والرد إلى ما عرف من أمر النساء".

قال ابن القيم: إن الأدلة على أن أقل مدة للحمل هي ستة أشهر، تظاهرت عليها الشريعة والطبيعة، فالشريعة من خلال الآيتين السابقتين، وأما الطبيعة فقد نقل أقوال الأطباء أصحاب الاختصاص الذين أثبتوا أن أقل حمل كان في مائة وأربع

=

=

وثمانين ليلة.

قوله تعالى: (حَتَّى إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ) أي: قوي وشب وارتجل.

(وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً) أي: تناهي عقله وكمل فهمه وعلمه.

(قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي) أي: ألهمني.

(أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ) أي: أن اقوم بشكر نعمتك علي.

(وَعَلَى وَالِدَيَّ) وعلى والدين حتى ربياني صغيرًا.

- والشكر؟ هو: والشكر: هو القيام بطاعة المنعم اعترافًا بالقلب، وثناء باللسان، وطاعة بالأركان.

وفي ذلك يقول الشاعر:

أفادتكم النعماءُ مني ثلاثةً... يدي ولساني والظهر المحجبا

فنعمة العين: أن لا ينظر بها إلا فيما يرضي الله، وشكر نعمة اليد أن لا يبطش بها إلا فيما يرضي الله، وشكر نعمة الرجِل أن لا يمشي بها إلا فيما يرضي الله، وشكر نعمة المال: أن لا يستعين به ويصرفه إلا فيما يرضي الله

قوله (وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ) أي: ووفقني لكي أعمل عملًا صالحًا يرضيك عني.

(وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي) أي: اجعلتي ذريتي ونسلي صالحين.

طلب هذا الداعي من الله ثلاثة أشياء: الأول: أن يوفقه الله للشكر على النعمة، الثاني: أن يوفقه للإتيان بالطاعة المرضية عند الله، والثالث: أن يصلح له في ذريته، وهذه كمال السعادة البشرية.

(إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ) أي: إني يا رب تبت إليك من جميع الذنوب وإني من المتمسكين بالإسلام

قال ابن كثير: وفي الآية إرشاد لمن بلغ الأربعين أن يجدد التوبة والإنابة إلى الله

=

=

ﷻ ويعزم عليها.

قوله تعالى: {وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا}.

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره: ووصينا ابن آدم بوالديه الحسن في صحبته إياهما أيام حياتهما، والبرّ بهما في حياتهما وبعد مماتهما".

وقرئ: «حُسنا» بضمّ الحاء.

قوله تعالى: {حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا} [الأحقاف:١٥]، أي:" حملته أمه جنينًا في بطنها على مشقة وتعب، وولدته على مشقة وتعب أيضًا".

قال الطبري:" وصف جلّ ثناؤه ما لديه من نعمة أمه، وما لاقت منه في حال حمله ووضعه، ونبهه على الواجب لها عليه من البرّ، واستحقاقها عليه من الكرامة وجميل الصحبة، فقال: {حَمَلَتْهُ أُمُّهُ}، يعني: في بطنها مشقة، {وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا}، يقول: وولدته مشقة".

قال قتادة:" حملته مشقة، ووضعته مشقة".

عن قتادة والحسن قالا:" قالا حملته في مشقة، ووضعته في مشقة".

عن مجاهد، قوله: " {حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا}، قال: مشقة عليها".

قوله تعالى: {وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا} [الأحقاف:١٥]، أي:" ومدة حمله وفطامه ثلاثون شهرًا".

قال الطبري: يقول:" وحمل أمه إياه جنينا في بطنها، وفصالها إياه من الرضاع، وفطمها إياه، شرب اللبن ثلاثون شهرا".

قال محمد بن إسحاق:" حمله تسعة أشهر، وفصاله من اللبن لأحد وعشرين شهرا".

قوله تعالى: {حَتَّى إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً} [الأحقاف:١٥]، أي:" حتى إذا بلغ هذا الإنسان نهاية قوته البدنية والعقلية، وبلغ أربعين سنة".

=

=

واختلف أهل العلم في معنى «الأشدُّ»، على عشرة أقوال:

أحدها: معناه: بلوغ الحلم، قاله الشعبي، وربيعة، وزيد بن أسلم، ومالك.

قال الشعبي:" الأشد: الحلم. إذا كتبت له الحسنات، وكتبت عليه السيئات".

الثاني: ثماني عشرة سنة، قاله سعيد بن جبير، وبه قال مقاتل.

الثالث: عشرون سنة، قاله ابن عباس، والضحاك.

الرابع: خمس وعشرون سنة، قاله عكرمة.

الخامس: ثلاثون سنة، قاله السدي.

السادس: ثلاث وثلاثون سنة. قاله ابن عباس، والحسن، ومجاهد، وقتادة.

قال ابن عباس:" أشدّه: ثلاث وثلاثون سنة، واستواؤه أربعون سنة، والعذر الذي أعذر الله فيه إلى ابن آدم ستون".

السابع: بضع ثلاثون سنة. قاله ابن عباس.

الثامن: ما بين ثماني عشرة سنة إلى ثلاثين سنة. وهذا مروي عن ابن عباس من وجه غير مرضي -كما قاله الطبري-.

التاسع: أربعون سنة. قاله الحسن. قال ابن العربي:" يروى عن جماعة".

العاشر: وهو ما بين ثلاث وثلاثين إلى تسع وثلاثين".

قال الطبري:" «الأشدّ»: جمع «شدّ»، وهو تناهي قوّته واستوائه. وإذا كان ذلك كذلك، كان الثلاث والثلاثون به أشبه من الحلم، لأن المرء لا يبلغ في حال حُلمه كمال قواه، ونهاية شدّته، فإن العرب إذا ذكرت مثل هذا من الكلام، فعطفت ببعض على بعض جعلت كلا الوقتين قريبا أحدهما من صاحبه، كما قال جلّ ثناؤه: {إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَى مِنْ ثُلُثَيِ اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ} ولا تكاد تقول أنا أعلم أنك تقوم قريبا من ساعة من الليل وكله، ولا أخذت قليلا من مال أو كله، ولكن تقول: أخذت عامة مالي أو كله، فكذلك ذلك في قوله: {حَتَّى إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ

=

=

وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً} لا شك أن نسق الأربعين على الثلاث والثلاثين أحسن وأشبه، إذ كان يراد بذلك تقريب أحدهما من الآخر من النسق على الخمس عشرة أو الثمان عشرة،، وقوله: {وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً}، ذلك حين تكاملت حجة الله عليه، وسير عنه جهالة شبابه وعرف الواجب لله من الحق في بر والديه".

قال الشنقيطي:" أما الأشُد من حيث هو: فهو يطلق على خمس وعشرين، وعلى ثلاثين سنة، وعلى أربعين، وعلى ستين، وعلى خمسين".

قال الشوكاني:" والأولى في تحقيق بلوغ «الأشد»: أنه البلوغ إلى سن التكليف مع إيناس الرشد، وهو أن يكون في تصرفاته بماله سالكا مسلك العقلاء، لا مسلك أهل السفه والتبذير، ويدل على هذا قوله تعالى في سورة النساء: {وَابْتَلُوا الْيَتَامَى حَتَّى إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ} [النساء: ٦]، فجعل بلوغ النكاح، وهو بلوغ سن التكليف مقيدا بإيناس الرشد".

قال ابن كثير:" {حَتَّى إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ}، أي: قوى وشب وارتجل {وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً}، أي: تناهى عقله وكمل فهمه وحلمه. ويقال: إنه لا يتغير غالبا عما يكون عليه ابن الأربعين.. قال الحجاج بن عبد الله الحكمي -أحد أمراء بني أمية بدمشق-: «تركت المعاصي والذنوب أربعين سنة حياء من الناس، ثم تركتها حياء من الله ﷻ». وما أحسن قول الشاعر:

صَبَا ما صَبَا حَتى عَلا الشَّيبُ رأسَهُ... فلمَّا عَلاهُ قال للباطل: ابطُل".

قال أبو بكر بن عياش، عن الأعمش، عن القاسم بن عبد الرحمن قال:" قلت لمسروق: متى يؤخذ الرجل بذنوبه؟ قال: إذا بَلَغْتَ الأربعين، فَخُذْ حذرك".

عن قتادة: " {وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً}: وقد مضى من سيئ عمله".

قوله تعالى: {قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ} [الأحقاف:١٥]، أي:" دعا ربه قائلا: ربي ألهمني أن أشكر نعمتك التي أنعمتها

=

=

عليّ وعلى والديّ".

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره: قال هذا الإنسان الذي هداه الله لرشده، وعرف حقّ الله عليه فيما ألزمه من برّ والديه {رَبِّ} أغرني بشكر نعمتك التي أنعمت عليّ في تعريفك إياي توحيدك وهدايتك لي للإقرار بذلك، والعمل بطاعتك {وَعَلَى وَالِدَيَّ} من قبلي، وغير ذلك من نعمتك علينا، وألهمني ذلك".

عن ابن عباس: " {قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ}، يقول: اجعلني".

عن قتادة: " {رب أوزعني أن أشكر}، ألهمني أن أشكر نعمتك". وروي عن السدي مثله.

عن ابن زيد، قوله:" {أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ}، قال: اجعلني أشكر نعمتك".

قال ابن زيد:" في كلام العرب، أوزع فلانا بفلان، يقول: حرضه، قال ابن زيد: {أوزعني}: ألهمني وحرضني على أن أشكر نعمتك".

قال ابن كثير:" أي: ألهمني {أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ..}".

قوله تعالى: {وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ} [الأحقاف:١٥]، أي:" واجعلني أعمل صالحًا ترضاه".

قال الطبري: يقول:" أوزعني أن أعمل صالحا من الأعمال التي ترضاها، وذلك العمل بطاعته وطاعة رسوله ﷺ".

قال ابن كثير:" أي: في المستقبل".

عن الضحاك: {وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ}:" شكر ما أنعم به عليه".

قوله تعالى: {وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي} [الأحقاف:١٥]، أي:" واجعل ذريتي ونسلي صالحين".

قال الطبري: " يقول: وأصلح لي أموري في ذرّيتي الذين وهبتهم، بأن تجعلهم

=

=

هداة للإيمان بك، واتباع مرضاتك، والعمل بطاعتك، فوصفه جل ثناؤه بالبرّ بالآباء والأمهات والبنين والبنات".

قال الزجاج:" معناه: اجعل ذُرِّيَّتِي صالحين".

قال ابن كثير: {ذُرِّيَّتِي} " أي: نسلي وعقبي".

عن مالك بن مغول، قال: شكا أبو معشر ابنه إلى طلحة بن مصرف، فقال طلحة -رضي الله، عنه-: استعن عليه بهذه الآية: {رَبِّ أوزعني أن أشكر نعمتك}، الآية".

قوله تعالى: {إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ} [الأحقاف:١٥]، أي:" إني تبت إليك من ذنوبي، وإني من الخاضعين لك بالطاعة والمستسلمين لأمرك ونهيك، المنقادين لحكمك".

قال ابن كثير:" وهذا فيه إرشاد لمن بلغ الأربعين أن يجدد التوبة والإنابة إلى الله، ﷻ، ويعزم عليها".

قال الطبري: أي: " تبت من ذنوبي التي سلفت مني في سالف أيامي إليك، وإني من الخاضعين لك بالطاعة، المستسلمين لأمرك ونهيك، المنقادين لحكمك".

وقال عطاء: "إني رجعت إلى كل ما تحب وأسلمت لك بقلبي ولساني".

عن ابن مسعود، رضي الله عنه: «أن رسول الله ﷺ كان يعلمهم أن يقولوا في التشهد: "اللهم، ألف بين قلوبنا، وأصلح ذات بيننا، واهدنا سبُل السلام، ونجنا من الظلمات إلى النور، وجنّبنا الفواحش

ما ظهر منها وما بطن، وبارك لنا في أسماعنا وأبصارنا وقلوبنا، وأزواجنا، وذرياتنا، وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم، واجعلنا شاكرين لنعمتك، مثنين بها قابليها، وأتممها علينا»".

قال الفخر الرازي:" اعلم أنه تعالى حكى عن هذا الداعي أنه طلب من الله تعالى

=

=

ثلاثة أشياء:

أحدها: أن يوفقه الله للشكر على نعمه.

والثاني: أن يوفقه للإتيان بالطاعة المرضية عند الله.

الثالث: أن يصلح له في ذريته".

قوله (أُولَئِكَ) أي: هؤلاء المتصفون بما ذكرنا، التائبون إلى الله المنيبون إليه، المستدركون ما فات بالتوبة والاستغفار هم:

(الَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا) أي: نتقبل منهم طاعاتهم ونجازيهم على أعمالهم بأفضلها.

(وَنَتَجَاوَزُ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ) أي: ونصفح عن خطيئاتهم وزلاتهم.

- السيئات جمع سيئة: وسميت بذلك لأنها تسوء صاحبها يوم القيامة.

(فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ) أي: هم في جملة أصحاب الجنة.

(وَعْدَ الصِّدْقِ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ) أي: بذلك الوعد الصادق الذي وعدناهم به على ألسنة الرسل، بأن نتقبل من محسنهم ونتجاوز عن مسيئهم.

قوله تعالى: {أُولَئِكَ الَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا} .

قال الطبري: يقول:" هؤلاء الذين هذه الصفة صفتهم، هم الذين يُتقبل عنهم أحسن ما عملوا في الدنيا من صالحات الأعمال، فيجازيهم به، ويثيبهم عليه (وَنَتَجاوَزُ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ) يقول: ويصفح لهم عن سيئات أعمالهم التي عملوها في الدنيا، فلا يعاقبهم عليها (فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ) يقول: نفعل ذلك بهم فعلنا مثل ذلك في أصحاب الجنة وأهلها الذين هم أهلها".

قال مقاتل:" يقول: نجزيهم بإحسانهم ولا نجزيهم بمساوئهم، والكفار يجزيهم بإساءتهم ويبطل إحسانهم لأنهم عملوا ما ليس بحسنة".

قال السمعاني:" أي: الأحسن من أعمالهم، والأحسن من الأعمال كل ما يرضاه

=

=

الله تعالى".

قال ابن كثير:" أي: هؤلاء المتصفون بما ذكرنا، التائبون إلى الله المنيبون إليه، المستدركون ما فات بالتوبة والاستغفار، هم الذين يتقبل عنهم أحسن ما عملوا".

عن زيد بن أسلم -ويحكيه مرفوعا: {أُولَئِكَ الَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا}:" أنهم إذا أسلموا قبلت حسناتهم وغفرت سيئاتهم".

قوله تعالى: {وَنَتَجَاوَزُ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ} [الأحقاف:١٦]، أي:" ونصفح عن سيئاتهم، في جملة أصحاب الجنة".

قال ابن كثير: أي: "ويتجاوز عن سيئاتهم، فيغفر لهم الكثير من الزلل، ويتقبل منهم اليسير من العمل، {فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ}، أي: هم في جملة أصحاب الجنة، وهذا حكمهم عند الله كما وعد الله من تاب إليه وأناب".

عن أشعث بن سوار، قال: "قلت للحسن البصري: {من يعمل سوءا يجز به}. قال: لا يجزى -والله- يوم القيامة مؤمن بسوء عمله. ثم قرأ: {أولئك الذين نتقبل عنهم أحسن ما عملوا ونتجاوز عن سيئاتهم في أصحاب الجنة وعد الصدق الذي كانوا يوعدون} [الأحقاف: ١٦]".

قوله تعالى: {وَعْدَ الصِّدْقِ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ} [الأحقاف:١٦]، أي:" هذا الوعد الذي وعدناهم به هو وعد الصدق الحق الذي لا شك فيه".

قال الطبري:" يقول: وعدهم الله هذا الوعد، وعد الحقّ لا شك فيه أنه موفّ لهم به، الذي كانوا إياه في الدنيا يعدهم الله تعالى".

قال مقاتل:" وعدهم الله تعالى الجنة في الآخرة على ألسنة الرسل فى الدنيا".

عن عاصم، في قول الله تعالى: {من يعمل سوءا يجز به} [النساء: ١٢٣]، قال: "قال الحسن: ذاك لمن أراد الله هوانه، فأما من أراد الله كرامته فإنه يتجاوز عن سيئاته في أصحاب الجنة {وعد الصدق الذي كانوا يوعدون}".

وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَكُمَا أَتَعِدَانِنِي أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِنْ قَبْلِي وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ اللهَ وَيْلَكَ آمِنْ إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (١٧).

{وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ} وَفِي قِرَاءَة بِالْإِدْغَام أُرِيدَ بِهِ الْجِنْس {أُفٍّ} بِكَسْرِ الْفَاءِ وَفَتْحهَا بِمَعْنَى مَصْدَر أَيْ نَتْنًا وَقُبْحًا {لَكُمَا} أَتَضَجَّر مِنْكُمَا {أَتَعِدَانِنِي} وَفِي قِرَاءَة بِالْإِدْغَام {أَنْ أُخْرَجَ} مِنْ الْقَبْر {وَقَدْ خَلَتْ الْقُرُون} الْأُمَم {مِنْ قَبْلِي} وَلَمْ تَخْرُج مِنْ الْقُبُور {وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ الله} يسألانه الغوث برجوعه ويقولان إنْ لَمْ تَرْجع {وَيْلك} أَيْ هَلَاكك بِمَعْنَى هَلَكْت {آمِن} بِالْبَعْثِ {إنَّ وَعْد الله حَقّ فَيَقُول مَا هَذَا} أَيْ الْقَوْل بِالْبَعْثِ {إلَّا أَسَاطِير الْأَوَّلِينَ} أَكَاذِيبهمْ.

أُولَئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ (١٨).

{أُولَئِكَ الَّذِينَ حَقَّ} وَجَبَ {عَلَيْهِمْ الْقَوْل} بِالْعَذَابِ {في أمم قد خلت من قبلهم من الجن والإنس إنهم كانوا خاسرين}(١).

---

(١) ذكر سبب النزول.

عن يوسف بن ماهك؛ قال: كان مروان على الحجاز استعمله معاوية، فخطب؛ فجعل يذكر يزيد بن معاوية؛ لكي يبايع له بعد أبيه، فقال له عبد الرحمن بن أبي بكر شيئًا، فقال: خذوه؛ فدخل بيت عائشة فلم يقدروا عليه، فقال مروان: إن هذا الذي أنزل الله فيه: {وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَكُمَا أَتَعِدَانِنِي أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِنْ قَبْلِي وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ اللهَ وَيْلَكَ آمِنْ إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (١٧)}؛ فقالت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا من وراء الحجاب: ما أنزل الله فينا شيئًا من القرآن؛ إلا أن الله أنزل عذري.

=

=

أخرجه البخاري في "صحيحه" (رقم ٤٨٢٧)، وانظر -لزامًا- جمع الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ لروايات هذا الحديث في "فتح الباري" (٨/ ٥٧٦، ٥٧٧).

وعن محمد بن زياد؛ قال: لما بايع معاوية لابنه؛ قال مروان: سنة أبي بكر وعمر؛ فقال عبد الرحمن بن أبي بكر: سنة هرقل وقيصر، فقال مروان: هذا الذي أنزل الله فيه: {وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَكُمَا أَتَعِدَانِنِي أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِنْ قَبْلِي وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ اللهَ وَيْلَكَ آمِنْ إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (١٧)}؛ فبلغ ذلك عائشة، فقالت: كذب والله؛ ما هو به، ولو شئت أن أسمي الذي أنزلت فيه؛ لسميته، ولكن رسول الله ﷺ لعن أبا مروان ومروان في صلبه، فمروان من لعنة الله.

أخرجه النسائي في "تفسيره" (٢/ ٢٩٠ رقم ٥١١)، والخطابي في "غريب الحديث" (٢/ ٥١٧)، والحاكم في "المستدرك" (٤/ ٤٨١)، و"الإسماعيلي في "المستخرج"؛ كما في "الفتح" (٨/ ٥٧٦)، وابن أبي خيثمة في "تاريخه" وابن مردويه في "تفسيره"؛ كما في "تخريج الكشاف" (٣/ ٢٨٢)، وعبد بن حميد وابن المنذر في "تفسيريهما"؛ كما في "الدر المنثور" (٧/ ٤٤٤) من طرق عن محمد بن زياد به. والحديث قال عنه الحاكم: "هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه"، وتعقبه الذهبي بقوله: "قلت: فيه انقطاع؛ محمد لم يسمع من عائشة".

وأخرج ابن أبي حاتم في "تفسيره"، وأبو يعلى في "المسند"؛ كما في "فتح الباري" (٨/ ٥٧٧)، و"تفسير القرآن العظيم" (٤/ ١٧١)، والبزار في "مسنده" (٢/ ٢٤٧ رقم ١٦٢٤ - كشف) من طريق إسماعيل بن أبي خالد عن عبد الله البهي؛ قال: إني لفي المسجد حين خطب مروان، فقال: إن الله -تعالى- قد أرى أمير المؤمنين في يزيد رأيًا حسنًا، وإن يستخلفه؛ فقد استخلف أبو بكر وعمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا؛ فقال عبد

=

=

الرحمن بن أبي بكر رضي الله عنهما: أهرقلية؟ إن أبا بكر رضي الله عنه والله ما جعلها في أحد من ولده ولا أحد من أهل بيته، ولا جعلها معاوية في ولده إلا رحمة وكرامة لولده، فقال مروان: ألست الذي قال لوالديه: أف لكما؟ فقال عبد الرحمن رضي الله عنه: ألست ابن اللعين الذي لعن رسول الله صلى الله عليه وسلم أباك، قال: وسمعتهما عائشة رضي الله عنها، فقالت: يا مروان! أنت القائل لعبد الرحمن رضي الله عنه كذا وكذا، كذبت، ما فيه نزلت؛ ولكن نزلت في فلان بن فلان، ثم انتحب مروان ثم نزل عن المنبر حتى أتى باب حجرتها، فجعل يكلمها حتى انصرف. والحديث قال عنه الهيثمي في "مجمع الزوائد" (٥/ ٤١): "رواه البزار وإسناده حسن". قلت فيه عبد الله البهي؛ مختلف فيه، وفي "التقريب": "صدوق يخطئ".

فالحديث بمجموعها -إن شاء الله- حسن على أقل الأحوال.

والحديث ذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٧/ ٤٤٤) وزاد نسبته لابن مردويه

وعن السدي؛ قال: نزلت هذه الآية: {وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَكُمَا أَتَعِدَانِنِي أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِنْ قَبْلِي وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ اللهَ وَيْلَكَ آمِنْ إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (١٧)} في عبد الرحمن بن أبي بكر، قال لوالديه -وهما أبو بكر وأم رومان- وكانا قد أسلما، وأبى هو أن يسلم؛ فكانا يأمرانه بالإسلام، ويرد عليهما ويكذبهما، فيقول: فأين فلان؟ وأين فلان؟ يعني: مشايخ قريش ممن قد مات، ثم أسلم بعد فحسن إسلامه؛ فنزلت توبته في هذه الآية: {وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا}.

أخرجه ابن أبي حاتم في "تفسيره"؛ كما في "فتح الباري" (٨/ ٥٧٧) من طريق أسباط عنه به.

وسنده ضعيف؛ لإعضاله، وضعف أسباط بن نصر.

وعن ميناء: أنه سمع عائشة تنكر أن تكون الآية نزلت في عبد الرحمن بن أبي بكر

=

=

رَضِحَالِلَّهُعَنْهُ، وقالت: إنما نزلت في فلان بن فلان، سمعت رجلًا.

ذكره الحافظ ابن حجر في "فتح الباري" (٨/ ٥٧٧)، والسيوطي في "الدر المنثور" (٧/ ٤٤٥)، و"لباب النقول" (ص ١٩٢) ونسباه لعبد الرزاق وابن مردويه.

ونقل السيوطي في "اللباب" عن الحافظ قوله [وهذا موجود في "فتح الباري" (٨/ ٥٧٧)]: "ونفي عائشة أصح إسنادًا، وأولى بالقبول".

وعن عبد الله بن عباس رَضِحَالِلَّهُعَنْهُمَا في قوله: {وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَكُمَا أَتَعِدَانِنِي أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِنْ قَبْلِي وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ اللهَ وَيْلَكَ آمِنْ إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (١٧)}؛ قال: الذي قال هذا ابن لأبي بكر رَضِحَالِلَّهُعَنْهُ، قال: أتعدانني أن أخرج؟ أتعدانني أن أبعث بعد الموت.

أخرجه الطبري في "جامع البيان" (٢٦/ ١٣) وسنده ضعيف جدًا؛ مسلسل بالعوفيين الضعفاء.

قال الحافظ ابن كثير في "تفسير القرآن العظيم" (٧/ ٣٧٦ - ط دار الفتح): "وفي صحة هذا نظر، والله -تعالى- أعلم". اهـ.

وقال الحافظ في "فتح الباري" (٨/ ٥٧٧)؛ "والعجب مما أورده الطبري من طريق العوفي"، ونقل أن الزجاج تعقبه فقال: "الصحيح أنها نزلت في الكافر العاق؛ وإلا؛ فعبد الرحمن قد أسلم فحسن إسلامه، وصار من خيار المسلمين".

وعن مجاهد؛ قال: نزلت في عبد الله بن أبي بكر الصديق.

ذكره الحافظ في "فتح الباري" (٨/ ٥٧٧) وقال؛ "وقد أخرج ابن أبي حاتم من طريق ابن جريج عن مجاهد: (فذكره)".

وسنده ضعيف؛ لإرساله، وابن جريج لم يدرك مجاهدًا.

* لما ذكر تعالى حال الداعين للوالدين البارين بهما وما لهم عنده من الفوز

=

=

والنجاة عطف بحال الأشقياء العاقين للوالدين فقال:

(وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَكُمَا) معنى (والذي) أي: والذين، وأن المراد به العموم، ويدل على أن المراد العموم قوله تعالى (أُولَئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ) فإنها بصيغة الجمع.

- فقول من قال إنها نزلت في عبدالرحمن بن أبي بكر الصديق ليس بصحيح، قال ابن كثير: لأن عبدالرحمن بن أبي بكر أسلم بعد ذلك وحسن إسلامه، وكان من خيار أهل زمانه.

قال الشنقيطي: وفي نفس آية الأحقاف هذه دليل آخر واضح على بطلانه، وهو أن الله صرح بأن الذين قالوا تلك المقالة حق عليهم القول، وهو قوله (وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ) ومعلوم أن عبدالرحمن بن أبي بكر الصديق أسلم وحسن إسلامه، وهو من خيار المسلمين وأفاضل الصحابة.

(أُفٍّ لَكُمَا) كلمة تضجر. وقائل ذلك عاق لوالديه، غير مجتنب نهي الله في قوله (إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلاهُمَا فَلا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلا تَنْهَرْهُمَا).

(أَتَعِدَانِنِي أَنْ أُخْرَجَ) أي: أن أبعث من قبري حيًا بعد الموت.

(وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِنْ قَبْلِي) أي: وقد مضت القرون، وأهلكت الأمم الأولى ولم يجئ منهم أحد ولم يرجع بعد أن مات.

(وَهُمَا) أي: والداه.

(يَسْتَغِيثَانِ اللهَ) أي: يسألان الله فيه أن يهديه ويقولان لولدهما:

(وَيْلَكَ آمِنْ) أي: بالله وبالبعث بعد الموت.

- والمراد بقولهما (ويلك) حثه على الإيمان.

(إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ) أي: وعده بالبعث بعد الموت حق لا شك فيه.

=

=

وقد أمر الله نبيه ﷺ أن يقسم على البعث في ثلاث آيات:

فقال تعالى (وَيَسْتَنْبِئُونَكَ أَحَقٌّ هُوَ قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ).

وقال تعالى (وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَالِمِ الْغَيْبِ).

وقال تعالى (زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرٌ).

(فَيَقُولُ) أي: هذا الولد العاق.

(مَا هَذَا) أي: الذي تعدانني إياه من البعث بعد الموت.

(إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ) الأساطير جمع أسطورة، ومراده بها: ما سطره الأولون، أي: كتبوه من الأشياء التي لا حقيقة لها.

في سبب نزول الآية، أقوال:

أحدها: أن قوله: {وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَكُمَا} [الأحقاف: ١٧]، نزلت في عبد الرحمن بن أبي بكر. قاله مروان بن الحكم، وابن عباس، وأبو العالية، ومجاهد، وقتادة، والسدي، والكلبي، ومقاتل.

قال مقاتل:" هو عبد الرحمن بن أبي بكر وأمه رومان بنت عمرو بن عامر الكندي، دعاه أبواه إلى الإسلام وأخبراه بالبعث بعد الموت، فقال لوالديه: {أُفٍّ لَكُمَا}".

قال ابن عطية:" وذلك أنه كان أكبر ولد أبي بكر وشهد بدرا وأحدا مع الكفار، وقال لأبيه في الحرب:

لَمْ يَبْقَ غيرُ شِكَّةٍ ويَعْبوبْ... وصارمٌ يَقْتلُ ضُلاَّلَ الشِّيب

ودعاه إلى المبارزة، فكان بمكة على نحو هذه الخلق، فقيل: إن هذه الآية نزلت فيه".

=

=

قال السدي:" نزلت هذه الآية: {وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَكُمَا} [الأحقاف: ١٧]، في عبد الرحمن بن أبي بكر، قال لوالديه وكانا قد أسلما، وأبى هو أن يسلم فكان يأمرانه بالإسلام ويرد عليهما ويكذبهما، فيقول: فأين فلان؟ وأين فلان؟ يعني: مشايخ قريش ممن قد مات. ثم أسلم بعد فحسن إسلامه، فنزلت توبته في هذه الآية: {وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا} [الأحقاف: ١٩]".

وقال السدي: "فلقد رأيت عبد الرحمن بن أبي بكر بالمدينة، وما بالمدينة أَعْبَدُ منه، ولقد استجاب الله فيه دعوة أبي بكر رضي الله عنه".

واعترض الزجاج على هذا القول، فقال:" أما قوله: {وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَكُمَا} [الأحقاف: ١٧]، فقال بعضهم: إنها نزلت في عبد الرحمن قبل إسلامه، وهذا يبطله قوله: {أُولَئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ} [الأحقاف: ١٨]، فأَعلم الله أن هؤلاء قد حقتْ عَلَيْهِم كلمة العذاب، وإذا أعلم بذلك فقد أعلم أنهم لا يؤمنون، وعبد الرحمن مؤمن، ومن أفاضل المُؤْمِنِين وسَرَوَاتِهم. والتفسير الصحيح أنها نزلت في الكافر العاق".

وقال الفراء:" ذُكِرَ أَنَّهُ عَبْد الرَّحْمَن بْن أَبِي بَكْر قَالَ هَذَا القول قبل أن يسلم: {أُفٍّ لَكُمَا} [الأحقاف: ١٧].. وقوله: {أُولَئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْل} [الأحقاف: ١٨]، لم تنزل فى عبد الرحمن بْن أَبِي بَكْر، ولكن عَبْد الرَّحْمَن قَالَ: ابعثوا لي جُدْعان بْن عَمْرو، وعثمان بْن عَمْرو- وهما من أجداده- حَتَّى أسألهما عما يقول محمد ﷺ- أحق أم باطل؟ فأنزل الله: {أُولئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ} [الأحقاف: ١٨]، يعنى: جدعان، وعثمان".

قال الثعلبي:" فأما ابن أبي بكر، فقد أجاب الله تعالى فيه دعاء أبيه بقوله: {وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي} [الأحقاف: ١٥]، فأسلم وحسن إسلامه".

=

=

قال مكي:" قوله: {والذي قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَآ} إلى قوله: {نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ} [الآيات ١٦ - ٢٤]، هذه الآية نزلت في عبد الرحمن بن أبي بكر قبل إسلامه عند بعض العلماء، ورد ذلك بعضهم قال: هذا يبطله قوله: {أُولَئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ} [الأحقاف: ١٨]، فقد حقت عليه وعلى أمثاله كلمة العذاب بهذه الآية، وأن عبد الرحمن من أفاضيل المؤمنين".

قال الواحدي:" الأكثرون على أنها نزلت في عبد الرحمن بن أبي بكر".

قال ابن عطية:" الأصوب أن تكون عامة في أهل هذه الصفات، ولم يقصد بها عبد الرحمن ولا غيره من المؤمنين، والدليل القاطع على ذلك قوله: {أُولئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ}، وكان عبد الرحمن رَحِمَهُ اللَّهُ من أفضل الصحابة ومن الأبطال، وممن له في الإسلام غناء يوم اليمامة وغيره".

قال السمعاني:" زعم جماعة من أهل التفسير أن الآية نزلت في عبد الرحمن بن أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ووالديه أبو بكر وأمه أم رومان.. وأنكر كثير من أهل التفسير هذا القول، وروي عن عائشة أنها كانت تنكر أن المراد بالآية أخوها، وكذلك ذكر الزجاج في كتاب المعاني وغيره".

قال الحافظ ابن كثير:"ومن زعم أنها نزلت في عبد الرحمن بن أبي بكر -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا- فقوله ضعيف؛ لأن عبد الرحمن بن أبي بكر -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا- أسلم بعد ذلك وحسن إسلامه وكان من خيار أهل زمانه".

عن يوسف بن ماهك، قال: "كان مروان على الحجاز استعمله معاوية فخطب، فجعل يذكر يزيد بن معاوية لكي يبايع له بعد أبيه، فقال له عبد الرحمن بن أبي بكر شيئا، فقال: خذوه، فدخل بيت عائشة فلم يقدروا، فقال مروان: إن هذا الذي أنزل الله فيه: {وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَكُمَا أَتَعِدَانِنِي} [الأحقاف: ١٧]، فقالت عائشة من وراء الحجاب: «ما أنزل الله فينا شيئا من القرآن إلا أن الله أنزل عذري»".

=

=

أخرجه البخاري (رقم ٤٨٢٧)، وانظر جمع الحافظ ابن حجر -رَحِمَهُ اللَّهُ- لروايات هذا الحديث في "فتح الباري" (٨/ ٥٧٦، ٥٧٧).

روي عن محمد بن زياد قال: "لما بايع معاوية لابنه، قال مروان: سُنَّة أبي بكر وعمر. فقال عبد الرحمن بن أبي بكر: سُنَّة هرقل وقيصر. فقال مروان: هذا الذي أنزل الله فيه: {وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَكُمَا} الآية، فبلغ ذلك عائشة فقالت: كذب مروان! والله ما هو به، ولو شئت أن أسمي الذي أنزلت فيه لسميته، ولكن رسول الله ﷺ لعن أبا مروان ومروانُ في صلبه، فمروان فَضَضٌ من لعنة الله". أخرجه النسائي في تفسيره (٢/ ٢٩٠ رقم ٥١١)، وفي الكبرى (١١٤٩١)، والخطابي في غريب الحديث (٢/ ٥١٧)، والحاكم (٨/ ٥٧٦) والحديث صححه الحاكم فتعقبه الذهبي في التلخيص قائلا: فيه انقطاع محمد لم يسمع من عائشة، وللحديث شاهد حسنه به صاحبا الإستيعاب في بيان الأسباب (٣/ ٢١٣).

الثاني: أنها نزلت في عبد الله بن أبي بكر، وكان يدعوه أبواه إلى الإسلام فيجيبهما بما أخبر الله تعالى. قاله ابن عباس، وأبو العالية، ومجاهد، والسدي، وابن جريج.

قال مجاهد:" ونزلت في عبد الله بن أبي بكر بطولها".

وروى العَوْفي، عن ابن عباس: ": أنها نزلت في ابن لأبي بكر الصديق" ، ولم يذكر اسمه".

قال ابن كثير:" وفي صحة هذا نظر، والله أعلم".

الثالث: أن هذه الآية مرسلة عامة، وهي نعت عبد كافر فاجر عاق لوالديه، المكذب بالبعث. قاله الحسن، وقتادة.

وروى سعيد عن قتادة قال: "هذا عبد سوء نعته الله جل وعز قال لوالديه: {أَتَعِدَانِنِي أَنْ} أبعث".

قال الحافظ ابن كثير:" لما ذكر تعالى حال الداعين للوالدين البارين بهما وما لهم

=

=

عنده من الفوز والنجاة، عطف بحال الأشقياء العاقين للوالدين فقال: {وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَكُمَا} - وهذا عام في كل من قال هذا".

قال ابن عطية:" {الَّذِي}، يعنى: به الجنس على حد العموم الذي في الآية التي قبلها في قوله: {وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ} [الأحقاف: ١٥]، هذا قول الحسن وجماعة، ويشبه أن لها سببا من رجل قال ذلك لأبويه. فلما فرغ من ذكر الموفق عقب بذكر هذا العاق".

قوله تعالى: {وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَكُمَا} [الأحقاف:١٧]، أي:" والذي قال لوالديه إذ دعواه إلى الإيمان بالله والإقرار بالبعث: قبحًا لكما على هذه الدعوة".

قال السعدي:" لما ذكر تعالى حال الصالح البار لوالديه ذكر حالة العاق وأنها شر الحالات فقال: {وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ} إذ دعواه إلى الإيمان بالله واليوم الآخر وخوفاه الجزاء، وهذا أعظم إحسان يصدر من الوالدين لولدهما أن يدعواه إلى ما فيه سعادته الأبدية وفلاحه السرمدي فقابلهما بأقبح مقابلة فقال: {أُفٍّ لَكُمَا}، أي: تبا لكما ولما جئتما به".

قال مقاتل:" {أُفٍّ لَكُمَا}، يعني: قبحا لكما، الرديء من الكلام".

قال الفراء:" {أُفٍّ لكما}: قذرا لكما".

قال الثعلبي:" هي كلمة كراهية".

قال السمعاني:" تبرم واستقذار".

عن أبي مالك غزوان الغفاري، في قوله: {أف}: يعني: "الرديء من الكلام".

قال الطبري:" وهذا نعت من الله تعالى ذكره نعت ضالّ به كافر، وبوالديه عاقّ، وهما مجتهدان في نصيحته ودعائه إلى الله، فلا يزيده دعاؤهما إياه إلى الحقّ، ونصيحتهما له إلا عتوًا وتمرّدا على الله، وتماديا في جهله، يقول الله جلّ ثناؤه {وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ} أن دعواه إلى الإيمان بالله، والإقرار ببعث الله خلقه من

=

=

قبورهم، ومجازاته إياهم بأعمالهم {أُفٍّ لَكُمَا}، يقول: قذرا لكما ونتنا".
و «الأف»: الوسخ الذي حول الظفر، وقيل: الأفّ وسخ الأذن، يقال ذلك عند استقذار الشيء، ثم استعمل ذلك عند كل شئ يضجر منه، ويتأذى به.
قوله تعالى: {أَتَعِدَانِنِي أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِنْ قَبْلِي} [الأحقاف:١٧]، أي: "أتعِدانني أن أُخْرج من قبري حيًا، وقد مضت القرون من الأمم من قبلي، فهلكوا فلم يُبعث منهم أحد؟".
قال ابن عباس:" أتعدانني أن أبعث بعد الموت".
قال قتادة: يعني: "البعث بعد الموت".
قال السدي:" قال لوالديه-[أي عبدالرحمن بن أبي بكر]- وكانا قد أسلما، وأبى هو أن يسلم فكان يأمرانه بالإسلام ويرد عليهما ويكذبهما، فيقول: فأين فلان؟ وأين فلان؟ يعني: مشايخ قريش ممن قد مات. ثم أسلم بعد فحسن إسلامه، فنزلت توبته في هذه الآية: {وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا} [الأحقاف: ١٩]".
قال الطبري:" يقول: أتعدانني أن أخرج من قبري من بعد فنائي وبلائي فيه حيا، وقد مضت قرون من الأمم قبلي، فهلكوا، فلم يبعث منهم أحدا، ولو كنت مبعوثا بعد وفاتي كما تقولان، لكان قد بعث من هلك قبلي من القرون".
قال الثعلبي:" {أتعدانني أن أخرج} " من قبري حيا بعد فنائي وبلائي، {وقد} مضت {القرون من قبلي} فلم يبعث منهم أحد".
قال السعدي:" ثم ذكر وجه استبعاده وإنكاره لذلك فقال: {أَتَعِدَانِنِي أَنْ أُخْرَجَ} من قبري إلى يوم القيامة {وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِنْ قَبْلِي} على التكذيب وسلفوا على الكفر وهم الأئمة المقتدى بهم لكل كفور وجهول ومعاند؟".
قال مقاتل:" {أتعدانني أن أخرج} من الأرض، يعني: أن يبعثني بعد الموت، {وقد خلت القرون من قبلي}، يعنى: الأمم الخالية فلم أر أحدا منهم يبعث، فأين

=

=

عبد الله بن جدعان؟ وأين عثمان بن عمرو؟ وأين عامر بن عمرو؟ كلهم من قريش وهم أجداده، فلم أر أحدا منهم أتانا".

قوله تعالى: {وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ اللهَ وَيْلَكَ آمِنْ إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ} [الأحقاف:١٧]، أي:" ووالداه يسألان الله هدايته قائلَين له: ويلك، آمن وصدِّق واعمل صالحًا، إن وعد الله بالبعث حق لا شك فيه".

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره ووالداه يستصرخان الله عليه، ويستغيثانه عليه أن يؤمن بالله، ويقرّ بالبعث ويقولان له: {وَيْلَكَ} صدّق بوعد الله، وأقر أنك مبعوث من بعد وفاتك، إن وعد الله الذي وعد خلقه أنه باعثهم من قبورهم، ومخرجهم منها إلى موقف الحساب لمجازاتهم بأعمالهم حقّ لا شكّ فيه".

قال الثعلبي:" يستصرخان الله ويستغيثانه عليه ويقولان له: {ويلك آمن إن وعد الله حق}".

قال القرطبي:" أي: يدعوان الله له بالهداية. أو يستغيثان بالله من كفره".

قال مقاتل:" فقال أبواه: اللهم اهده، اللهم أقبل بقلبه إليك، اللهم تب عليه، فذلك قوله: وهما يستغيثان الله يعني يدعوان الله له بالهدى، أن يهديه ويقبل بقلبه، ثم يقولان: {ويلك آمن} صدق بالبعث الذي فيه جزاء الأعمال {إن وعد الله حق}".

قال السعدي:" {وَهُمَا} أي: والداه {يَسْتَغِيثَانِ اللهَ} عليه ويقولان له: {وَيْلَكَ آمِنْ} أي: يبذلان غاية جهدهما ويسعيان في هدايته أشد السعي حتى إنهما -من حرصهما عليه- أنهما يستغيثان الله له استغاثة الغريق ويسألانه سؤال الشريق ويعذلان ولدهما ويتوجعان له ويبينان له الحق فيقولان: {إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ} ثم يقيمان عليه من الأدلة ما أمكنهما، وولدهما لا يزداد إلا عتوا ونفورا واستكبارا عن الحق وقدحا فيه".

=

=

قوله تعالى: {فَيَقُولُ مَا هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ} [الأحقاف:١٧]، أي:" فيقول لهما: ما هذا الذي تقولانه إلا ما سطَّره الأولون من الأباطيل، منقول من كتبهم".

قال الطبري:" فيقول عدوّ الله مجيبا لوالديه، وردًّا عليهما نصيحتهما، وتكذيبا بوعد الله: ما هذا الذي تقولان لي وتدعواني إليه من التصديق بأني مبعوث من بعد وفاتي من قبري، إلا ما سطره الأوّلون من الناس من الأباطيل، فكتبوه، فأصبتماه أنتما فصدّقتما".

قال القرطبي:" أي: أحاديثهم وما سطروه مما لا أصل له".

قال السعدي:" أي: إلا منقول من كتب المتقدمين ليس من عند الله ولا أوحاه الله إلى رسوله، وكل أحد يعلم أن محمدا ﷺ أمي لا يكتب ولا يقرأ ولا تعلم من أحد، فمن أين يتعلمه؟ وأنى للخلق أن يأتوا بمثل هذا القرآن ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا؟".

عن السدي، قوله: {إن هذا إلا أساطير الأولين}: أساجيع الأولين".

عن قتادة، قوله: " {أساطير الأولين}، أي: أحاديث الأولين وباطلهم". وروي عن الضحاك نحو ذلك.

(أُولَئِكَ) المشار إليهم العاقين المكذبين بالبعث المذكورين يف قوله (وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ..).

(الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ) أي: وجبت عليهم كلمة العذاب وهي قوله تعالى (وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ).

(فِي أُمَمٍ) أي: في جملة أمم.

(قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ) أي: في جملة أمم من أصحاب النار قد مضت قبلهم من الكفرة الفجرة من الجن والإنس.

- وفي هذا دليل على أن الجني الكافر يدخل النار وهذا بالإتفاق.

=

=

كما قال تعالى (وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ).
وقال تعالى (وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ).
وقال تعالى (قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ فِي النَّارِ).
وقال تعالى (إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ).
قوله تعالى: {أُولَئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ}.

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره: هؤلاء الذين هذه الصفة صفتهم، الذين وجب عليهم عذاب الله، وحلّت بهم عقوبته وسخطه، فيمن حلّ به عذاب الله على مثل الذي حلّ بهؤلاء من الأمم الذين مضوا قبلهم من الجنّ والإنس، الذين كذّبوا رسل الله، وعتوا عن أمر ربهم".

قال ابن أبي زمنين: أي:" وجب عليهم الغضب مع أمم {قد خلت من قبلهم من الجن والإنس} صاروا إلى النار".

قال القرطبي:" يعني: الذين أشار إليهم ابن أبي بكر في قوله: أحيوا لي مشايخ قريش، وهم المعنيون بقوله: {وقد خلت القرون من قبلي}، فأما ابن أبي بكر عبد الله أو عبد الرحمن فقد أجاب الله فيه دعاء أبيه في قوله: {وأصلح لي في ذريتي} [الأحقاف: ١٥] على ما تقدم، ومعنى {حق عليهم القول}، أي: وجب عليهم العذاب، وهي كلمة الله: «هؤلاء في الجنة ولا أبالي وهؤلاء في النار ولا أبالي»، {في أمم}، أي: مع أمم {قد خلت}: تقدمت ومضت {من قبلهم من الجن والإنس} الكافرين".

عن الكلبي، في قوله تعالى: " {أولئك الذين حق عليهم القول في أمم قد خلت} [الأحقاف: ١٨] قال: يعني بهذا القرآن {وقد خلت القرون من قبلي} [الأحقاف: ١٧]".

=

وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَالَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (١٩).

{وَلِكُلٍّ} مِنْ جِنْس الْمُؤْمِن وَالْكَافِر {دَرَجَات} فَدَرَجَات الْمُؤْمِنِينَ فِي الْجَنَّة عَالِيَة وَدَرَجَات الْكَافِرِينَ فِي النَّار سَافِلَة {مِمَّا عَمِلُوا} أَيْ الْمُؤْمِنُونَ مِنْ الطَّاعَات وَالْكَافِرُونَ مِنْ الْمَعَاصِي {وَلِيُوَفِّيَهُمْ} أَيْ الله وَفِي قِرَاءَة بِالنُّونِ {أَعْمَالهمْ} أَيْ جَزَاءَهَا {وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ} شَيْئًا يُنْقَص لِلْمُؤْمِنِينَ وَيُزَاد لِلْكُفَّارِ[1].

=

عن قتادة، عن الحسن، قال: "الجنّ لا يموتون، قال قتادة: فقلت: {أُولَئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ}... الآية".

قوله تعالى: {إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ} [الأحقاف:١٨]، أي:" إنهم كانوا خاسرين ببيعهم الهدى بالضلال، والنعيم بالعذاب".

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره: إنهم كانوا المغبونين ببيعهم الهدى بالضلال والنعيم بالعقاب".

قال القرطبي:" أي: تلك الأمم الكافرة {كانوا خاسرين} لأعمالهم، أي: ضاع سعيهم وخسروا الجنة".

قال السعدي:" الخسران فوات رأس مال الإنسان، وإذا فقد رأس ماله فالأرباح من باب أولى وأحرى، فهم قد فاتهم الإيمان ولم يحصلوا على شيء من النعيم ولا سلموا من عذاب الجحيم".

(١) قوله تعالى: (وَلِكُلٍّ) أي: ولكل الناس من كافرين والمؤمنين.

(دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا) أي: مراتب ومنازل، فلكل واحد من المطيعين والعاصين درجات، أي: منازل ومراتب يستحقونها بأعمالهم، فمنهم من هو بدرجته في أعلى الجنان، ومنهم من هو بأعماله في دركات النار، وقد بين تعالى أن الآخرة يتفاوت

=

=

أهلها بدرجاتهم كما في قوله (وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا)، وبيّن أن أهل النار يتفاوتون في دركاتهم فقال تعالى (إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا).

(وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَالَهُمْ) أي: يعطون جزاء أعمالهم، فالتوفية: يعني وفّاه حقه أي: أعطاه إياه.

(وَهُمْ) أي هؤلاء من الكفار والمؤمنين.

(لا يُظْلَمُونَ) فلا ينقصون من حسناتهم، ولا يزاد عليهم في السيئات، ولا يعاقبون بظلم غيرهم.

فلا يظلمون مثقال ذرة، كما قال تعالى (إِنَّ اللهَ لا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا).

وقال تعالى (وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلا يَخَافُ ظُلْمًا وَلا هَضْمًا).

ظلمًا: أي: زيادة في السيئات (ولا هضمًا) أي نقصًا في الحسنات.

- فالله ﷻ لا يظلم أحدًا لكمال عدله لا لعجزه عن الظلم.

قوله تعالى: {وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا}.

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره: ولكلّ هؤلاء الفريقين: فريق الإيمان بالله واليوم الآخر، والبرّ بالوالدين، وفريق الكفر بالله واليوم الآخر، وعقوق الوالدين اللذين وصف صفتهم ربنا ﷻ في هذه الآيات منازل ومراتب عند الله يوم القيامة، مما عملوا، يعني من عملهم الذي عملوه في الدنيا من صالح وحسن وسيئ يجازيهم الله به".

قال الثعلبي: أي: "منازل ومراتب عند الله يوم القيامة بإعمالهم فيجازيهم عليها".

قال ابن أبي زمنين: أي:" للمؤمنين درجات في الجنة على قدر أعمالهم، وللمشركين درجات في النار على قدر أعمالهم".

=

=

قال القرطبي:" أي: ولكل واحد من الفريقين المؤمنين والكافرين من الجن والإنس مراتب عند الله يوم القيامة بأعمالهم".

قال ابن كثير:" أي: لكل عذاب بحسب عمله".

قال ابن زيد:" درج أهل النار يذهب سفالا ودرج أهل الجنة يذهب علوا".

قال ابن عباس: "يريد من سبق إلى الإسلام، فهو أفضل ممن تخلف عنه ولو بساعة".

قال السدي:" ثم أسلم بعد، فحسن إسلامه [أي: عبد الرحمن بن أبي بكر]، فنزلت توبته في هذه الآية: {ولكل درجات مما عملوا}".

قال السمعاني:" أي: لكل المؤمنين درجات مما عملوا. وفي التفسير: أن الدرجات من الذهب والفضة والياقوت والزبرجد والزمرد واللؤلؤ وغيره من الجواهر، وفي بعض الأخبار: أن الله تعالى يدخل المؤمنين الجنة ويأمرهم أن يقسموها بأعمالهم".

قوله تعالى: {وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَالَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ} [الأحقاف:١٩]، أي:" وليوفيهم الله جزاء أعمالهم، وهم لا يُظلمون بزيادة في سيئاتهم، ولا بنقص من حسناتهم".

قال الطبري:" يقول جلّ ثناؤه: وليعطى جميعهم أجور أعمالهم التي عملوها في الدنيا، المحسن منهم بإحسانه ما وعد الله من الكرامة، والمسيء منهم بإساءته ما أعدّه من الجزاء، وجميعهم لا يظلمون: لا يجازى المسيء منهم إلا عقوبة على ذنبه، لا على ما لم يعمل، ولا يحمل عليه ذنب غيره، ولا يبخس المحسن منهم ثوابَ إحسانه".

قال السمعاني:" أي: لا يزاد في إساءة المسيء، ولا ينقص من إحسان المحسن".

قال ابن كثير:" أي: لا يظلمهم مثقال ذرة فما دونها".

وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنْتُمْ تَفْسُقُونَ (٢٠).

{وَيَوْم يُعْرَض الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّار} بِأَنْ تُكْشَف لَهُمْ يُقَال لَهُمْ {أَذْهَبْتُمْ} بِهَمْزَةٍ وَبِهَمْزَتَيْنِ وَبِهَمْزَةٍ وَمَدَّة وَبِهِمَا وَتَسْهِيل الثَّانِيَة {طَيِّبَاتكُمْ} بِاشْتِغَالِكُمْ بِلَذَّاتِكُمْ {فِي حَيَاتكُمْ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُمْ} تَمَتَّعْتُمْ {بِهَا فاليوم تجزون عذاب الهون} أي الهوان {بما كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ} تَتَكَبَّرُونَ {فِي الْأَرْض بِغَيْرِ الْحَقّ وَبِمَا كُنْتُمْ تَفْسُقُونَ} بِهِ وَتُعَذَّبُونَ بِهَا[1].

(١) قوله تعالى: (وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ) أي: وذكرّهم يا محمد يوم يكشف الغطاء عن نار جهنم وتبرز للكافرين.

فقوله (وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ) قيل: معناه يباشرون حرها، كقوله تعالى (وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَى وَرَبِّنَا)، وقيل: معنى عرضهم على النار هو تقريبهم منها والكشف لهم عنها حتى يروها، كما قال تعالى (وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ).

فيقال لهم توبيخًا وتقريعًا:

(أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا) أي: لقد نلتم وأصبتم لذائذ الدنيا وشهواتها من المآكل والمشارب والمراكب وغيرها، وتمتعتم بتلك اللذائذ والطيبات في الدنيا.

- فهذه الآية في الكفار، وليست في المؤمنين الذين يتمتعون باللذات التي أباحها الله لهم، لأنه تعالى ما أباحها لهم ليذهب بها حسناتهم.

فالكافر إذا عمل عملًا صالحًا مطابقًا للشرع مخلصًا فيه، كالكافر الذي يبر والديه، =

=

ويصل الرحم، ويقري الضيف، وينفس عن المكروب، فإنه يثاب بعمله في دار الدنيا خاصة بالرزق والعافية، ولا نصيب له في الآخرة، كما قال ﷺ (إن الله لا يظلم مؤمنًا حسنة، يعطى بها في الدنيا ويجزى بها في الآخرة، وأما الكافر فيطعم بحسناته، ما عمل بها لله في الدنيا، حتى إذا أفضى إلى الآخرة لم تكن له حسنة يجزئ بها) رواه مسلم وفي لفظ (إن الكافر إذا عمل حسنة أطعم بها طعمة في الدنيا، وأما المؤمن فإن الله يدخر له حسناته في الآخرة، ويعقبه رزقًا في الدنيا على طاعته.

فهذا الحديث الثابت عن النبي ﷺ فيه التصريح بأن الكافر يجازى بحسناته في الدنيا فقط، وأن المؤمن يجازى بحسناته في الدنيا والآخرة معًا، وبمقتضى ذلك يتعين تعيينًا لا محيص عنه أن الذي أذهب طيباته في الدنيا واستمتع بها هو الكافر، لأنه لا يجزي بحسناته إلا في الدنيا خاصة.

(فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ) أي: عذاب الهوان وهو الذل والصغار.

(بِمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ) أي: بسبب كونكم مستكبرين في الأرض.

(وَبِمَا كُنْتُمْ تَفْسُقُونَ) وبسبب كونكم فاسقين.، والباء للسببية.

- والفسق هو الخروج عن طاعة الله، ومنه سميت الفأرة فويسقة لخروجها للإفساد، ويطلق ويراد به الكفر كقوله تعالى (وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ) وقال تعالى (ومَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ).

ويطلق ويراد به ما دونه من المعاصي كقوله تعالى (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ).

- وما دلت عليه هذه الآية الكريمة من كون الاستكبار في الأرض والفسق من أسباب الهوان، وهو عذاب النار، جاء موضحًا في غير هذا الموضع، كقوله تعالى

=

=

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ). وقال تعالى (وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ).

- قوله تعالى (فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ) جوزوا من جنس عملهم، فكما معّموا أنفسهم واستكبروا عن اتباع الحق، وتعاطوا الفسق والمعاصي، جازاهم الله بعذاب الهون، وهو الإهانة والخزي والآلام الموجعة، والحسرات المتتابعة.

قوله تعالى: {وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ} [الأحقاف:٢٠]، أي:" ويوم يعرض الذين كفروا على النار للعذاب".

عن الحسن: {وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ} : " دخولهم".

قال الزمخشري:" وعرضهم على النار: تعذيبهم بها، من قولهم: عرض بنو فلان على السيف، إذا قتلوا به. ومنه قوله تعالى: {النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا}، ويجوز أن يراد: عرض النار عليهم من قولهم: عرضت الناقة على الحوض، يريدون: عرض الحوض عليها فقلبوا".

قال السعدي:" يذكر تعالى حال الكفار عند عرضهم على النار حين يوبخون ويقرعون".

قال ابن عباس:" يجاء بهم إليها فيكشف لهم عنها".

قوله تعالى: {أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا} [الأحقاف:٢٠]، أي:" فيقال لهم توبيخًا: لقد أذهبتم طيباتكم في حياتكم الدنيا واستمتعتم بها".

قال السمعاني:" أي: أذهبتم طيباتكم في الآخرة من معاصيكم في الدنيا، ويقال: شغلتكم الشهوات عن الطاعات. وقيل: أخذتم نصيبكم في الدنيا فلا نصيب لكم في الآخرة، {واستمتعتم بها}، أي: تلذذتم وانتفعتم بها".

قال الزمخشري:" أى: ما كتب لكم حظ من الطيبات إلا ما قد أصبتموه في دنياكم، وقد ذهبتم به وأخذتموه، فلم يبق لكم بعد استيفاء حظكم شيء منها".

=

قال الواحدي:" وذلك أنَّهم يفعلون ما يشتهون لا يتوفون حراما ولا يجتنبون مأثما".

قال السعدي:" حيث اطمأننتم إلى الدنيا، واغتررتم بلذاتها ورضيتم بشهواتها وألهتكم طيباتها عن السعي لآخرتكم وتمتعتم تمتع الأنعام السارحة فهي حظكم من آخرتكم".

قال ابن العربي:" أي: فيقال لهم: أذهبتم طيباتكم في حياتكم الدنيا، يريد أفنيتموها في الكفر بالله ومعصيته، وإن الله أحل الطيبات من الحلال واللذات، وأمر باستعمالها في الطاعات، فصرفها الكفار إلى الكفر فأوعدهم الله بما أخبر به عنهم، وقد يستعملها المؤمن في المعاصي، يدخل في وعيد آخر وتناله آية أخرى برجاء المغفرة، ويرجع أمره إلى المشيئة، فينفذ الله فيه ما علمه منه وكتبه له".

عن أبي هريرة، قال: "إنما كان طعامنا مع النبيّ ﷺ الأسودين: الماء، والتمر، والله ما كنا نرى سمراءكم هذه، ولا ندري ما هي".

عن أبي بردة بن عبد الله بن قيس الأشعريّ، عن أبيه، قال: "أي بنيّ لو شهدتنا مع رسول الله ﷺ ونحن مع نبينا إذا أصابتنا السماء، حسبت أن ريحنا ريح الضأن، إنما كان لباسنا الصوف".

عن ابن زيد، في قول الله ﷻ:" {أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا}... إلى آخر الآية، ثم قرأ: {مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لا يُبْخَسُونَ}، وقرأ: {مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الآخِرَةِ نزدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا) وقرأ (مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ}... إلى آخر الآية، وقال: هؤلاء الذين أذهبوا طيباتهم في حياتهم الدنيا".

وقرأ أبو جعفر: «أَأَذْهَبْتُمْ» بالاستفهام، والعرب تستفهم بالتوبيخ، وتترك الاستفهام فيه، فتقول: أذهبت ففعلت كذا وكذا، وذهبت ففعلت وفعلت.

=

قوله تعالى: {فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ} [الأحقاف:٢٠]، أي:" فاليوم -أيها الكفار- تُجْزَون عذاب الخزي والهوان في النار".

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره: يقال لهم: فاليوم أيها الكافرون الذين أذهبوا طيباتهم في حياتهم الدنيا: تثابون عذاب الهوان، وذلك عذاب النار الذي يهينهم".

عن مجاهد: " {عَذَابَ الْهُونِ}، قال: الهوان".

قال السعدي:" أي: العذاب الشديد الذي يهينكم ويفضحكم".

قال ابن كثير:" فجوزوا من جنس عملهم، فكما نَعَّموا أنفسهم واستكبروا عن اتباع الحق، وتعاطوا الفسق والمعاصي، جازاهم الله بعذاب الهون، وهو الإهانة والخزي والآلام الموجعة، والحسرات المتتابعة والمنازل في الدركات المفظعة، أجارنا الله من ذلك كله".

قوله تعالى: {بِمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ} [الأحقاف:٢٠]، أي:" بما كنتم تتكبرون في الأرض بغير الحق".

قال الطبري:" يقول: بما كنتم تتكبرون في الدنيا على ظهر الأرض على ربكم، فتأبون أن تخلصوا له العبادة، وأن تذعنوا لأمره ونهيه بغير الحقّ، أي بغير ما أباح لكم ربكم، وأذن لكم به".

قوله تعالى: {وَبِمَا كُنْتُمْ تَفْسُقُونَ} [الأحقاف:٢٠]، أي:" وبما كنتم تخرجون عن طاعة الله".

قال الطبري:" يقول: بما كنتم فيها تخالفون طاعته فتعصونه".

قال السعدي:" فجمعوا بين قول الباطل والعمل بالباطل والكذب على الله بنسبته إلى رضاه والقدح في الحق والاستكبار عنه فعوقبوا أشد العقوبة".

مسألة: هل يدخل المسلمون في الذين أذهبوا طيباتهم في الحياة الدنيا ؟

قال الشنقيطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: اعلم أن للعلماء كلاما كثيرا في هذه الآية، قائلين: إنها تدل

=

=

على أنه ينبغي التقشف، والإقلال من التمتع بالمآكل، والمشارب، والملابس، ونحو ذلك، وأن عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان يفعل ذلك خوفا من أن يدخل في عموم من يقال لهم يوم القيامة: (أذهبتم طيباتكم في حياتكم الدنيا)، والمفسرون يذكرون هنا آثارا كثيرة في ذلك، وأحوال أهل الصفة، وما لاقوه من شدة العيش.

قال مقيده عفا الله عنه وغفر له: التحقيق إن شاء الله في معنى هذه الآية هو: أنها في الكفار، وليست في المؤمنين الذين يتمتعون باللذات التي أباحها الله لهم؛ لأنه تعالى ما أباحها لهم ليذهب بها حسناتهم.

وإنما قلنا: إن هذا هو التحقيق؛ لأن الكتاب والسنة الصحيحة دالان عليه، والله تعالى يقول: (وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول) النساء/ ٥٩.

أما كون الآية في الكفار: فقد صرح الله تعالى به في قوله: (ويوم يعرض الذين كفروا على النار أذهبتم طيباتكم).

والقرآن والسنة الصحيحة قد دلا على أن الكافر إن عمل عملا صالحا مطابقا للشرع، مخلصا فيه لله، كالكافر الذي يبر والديه، ويصل الرحم، ويقري الضيف، وينفس عن المكروب، ويعين المظلوم يبتغي بذلك وجه الله: يثاب بعمله في دار الدنيا خاصة بالرزق، والعافية، ونحو ذلك، ولا نصيب له في الآخرة.

فمن الآيات الدالة على ذلك قوله تعالى: (من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوف إليهم أعمالهم فيها وهم فيها لا يبخسون. أولئك الذين ليس لهم في الآخرة إلا النار وحبط ما صنعوا فيها وباطل ما كانوا يعملون) هود/ ١٥، ١٦، وقوله تعالى: (ومن كان يريد حرث الدنيا نؤته منها وما له في الآخرة من نصيب) الشورى/ ٢٠.

وقد قيد تعالى هذا الثواب الدنيوي المذكور في الآيات بمشيئته وإرادته، في قوله تعالى: (من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد ثم جعلنا له جهنم

=

=

يصلاها مذموما مدحورا) الإسراء/ ١٨.
وقد ثبت في صحيح مسلم من حديث أنس أن النبي ﷺ قال: (إن الله لا يظلم مؤمنا حسنة، يعطي بها في الدنيا، ويجزى بها في الآخرة، وأما الكافر: فيطعم بحسناته ما عمل بها لله في الدنيا حتى إذا أفضى إلى الآخرة لم تكن له حسنة يجزي بها) هذا لفظ مسلم في صحيحه.
وفي لفظ له عن رسول الله ﷺ: (إن الكافر إذا عمل حسنة أطعم بها طعمة في الدنيا، وأما المؤمن فإن الله يدخر له حسناته في الآخرة، ويعقبه رزقا في الدنيا على طاعته) ا.هـ.
فهذا الحديث الثابت عن النبي ﷺ فيه التصريح بأن الكافر يجازى بحسناته في الدنيا فقط، وأن المؤمن يجازى بحسناته في الدنيا والآخرة معا، وبمقتضى ذلك يتعين تعيينا لا محيص عنه أن الذي أذهب طيباته في الدنيا، واستمتع بها هو الكافر؛ لأنه لا يجزى بحسناته إلا في الدنيا خاصة.
وأما المؤمن الذي يجزى بحسناته في الدنيا والآخرة معا: فلم يذهب طيباته في الدنيا؛ لأن حسناته مدخرة له في الآخرة، مع أن الله تعالى يثيبه بها في الدنيا، كما قال تعالى: (ومن يتق الله يجعل له مخرجا. ويرزقه من حيث لا يحتسب) الطلاق/ ٢،٣ ، فجعل المخرج من الضيق له، ورزقه من حيث لا يحتسب ثوابا في الدنيا، وليس ينقص أجر تقواه في الآخرة، والآيات بمثل هذا كثيرة معلومة.
وعلى كل حال: فالله جل وعلا أباح لعباده على لسان نبيه ﷺ الطيبات في الحياة الدنيا، وأجاز لهم التمتع بها، ومع ذلك جعلها خاصة بهم في الآخرة، كما قال تعالى: (قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق قل هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة) الأعراف/ ٣٢.
فدل هذا النص القرآني أن تمتع المؤمنين بالزينة والطيبات من الرزق في الحياة
=

=

الدنيا لم يمنعهم من اختصاصهم بالتنعم بذلك يوم القيامة، وهو صريح في أهم لم يذهبوا طيباتهم في حياتهم الدنيا.

ولا ينافي هذا أن من كان يعاني شدة الفقر في الدنيا كأصحاب الصفة يكون لهم أجر زائد على ذلك؛ لأن المؤمنين يؤجرون بما يصيبهم في الدنيا من المصائب والشدائد، كما هو معلوم.

والنصوص الدالة على أن الكافر هو الذي يذهب طيباته في الحياة الدنيا؛ لأنه يجزي في الدنيا فقط كالآيات المذكورة، وحديث أنس المذكور عند مسلم: قد قدمناها موضحة في سورة " بني إسرائيل " في الكلام على قوله تعالى: (ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن فأولئك كان سعيهم مشكورا) الإسراء/ ١٩، وذكرنا هناك أسانيد الحديث المذكور وألفاظه. انتهى.

غير أن هذه الآية العظيمة، وإن كانت واردة في شأن الكفار، كما هو بين من لفظها، وكما حققه الشيخ رَحِمَهُ الله، فلقد كانت عادة معروفة في السلف: أن يستدلوا بالآيات الواردة في شأن الكفار، على من عمل مثل أعمالهم من المسلمين.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ الله في مجموع الفتاوى (١٠/ ١٠٥-١٠٦): بعد ما ذكر قول الله تعالى: (ولقد ذرأنا لجهنم كثيرا من الجن والأنس لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون) (لأعراف:١٧٩)، وآيات أخرى في ذلك السياق: فطائفة من المفسرين تقول في هذه الآيات وما أشبهها كقوله: {وإذا مس الإنسان الضر دعانا لجنبه أو قاعدا أو قائما فلما كشفنا عنه ضره مر كأن لم يدعنا إلى ضر مسه} وأمثالها مما ذكر الله في عيوب الإنسان وذمها، فيقول هؤلاء: هذه الآية في الكفار، والمراد بالإنسان هنا: الكافر؛ فيبقى من يسمع ذلك يظن أنه ليس لمن يظهر الإسلام في هذا الذم والوعيد نصيب؛ بل يذهب وهمه إلى من كان مظهرا

=

=

للشرك من العرب، أو إلى من يعرفهم من مظهري الكفر كاليهود والنصارى ومشركي الترك والهند ونحو ذلك، فلا ينتفع بهذه الآيات التي أنزلها الله ليهتدي بها عباده.

فيقال: - أولا -: المظهرون للإسلام فيهم مؤمن ومنافق، والمنافقون كثيرون في كل زمان والمنافقون في الدرك الأسفل من النار.

ويقال: " ثانيا: الإنسان قد يكون عنده شعبة من نفاق وكفر، وإن كان معه إيمان، كما قال النبي ﷺ في الحديث المتفق عليه: {أربع من كن فيه كان منافقا خالصا ومن كانت فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها: إذا حدث كذب وإذا اؤتمن خان وإذا عاهد غدر. وإذا خاصم فجر} فأخبر أنه من كانت فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من النفاق. وقد ثبت في الحديث الصحيح أنه قال لأبي ذر رضي الله عنه: {إنك امرؤ فيك جاهلية} وأبو ذر - رضي الله عنه - من أصدق الناس إيمانا...

وإذا عرف هذا علم أن كل عبد ينتفع بما ذكر الله في الإيمان من مدح شعب الإيمان وذم شعب الكفر " انتهى.

ويشهد لذلك الأصل ـ أن من استعجل الطيبات، على وجه محرم، فإنه معرض للحرمان من طيبات الآخرة، بقدر ما استعجل، وإن كان مؤمنا ـ قول النبي ﷺ: (من لبس الحرير في الدنيا لم يلبسه في الآخرة). رواه البخاري (٥٤٩٤) ومسلم (٢٠٧٣).

قال ابن القيم رحمه الله - وهو يعدد العقوبات التي تقع على الزاني إذا لم يتب -:

ومنها: أنه يعرض نفسه لفوات الاستمتاع بالحور العين في المساكن الطيبة في جنات عدن، والله سبحانه وتعالى إذا كان قد عاقب لابس الحرير في الدنيا بحرمانه لبسه يوم القيامة، وشارب الخمر في الدنيا بحرمانه إياها يوم القيامة، فكذلك من

=

=

تمتع بالصور المحرمة في الدنيا، بل كل ما ناله العبد في الدنيا من حرام: فاته نظيره يوم القيامة. " روضة المحبين" (٣٦٥ - ٣٦٨).

وذكر الألباني رَحِمَهُ اللَّهُ في الصحيحة (٣٨٤) حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مرفوعا: (من لبس الحرير في الدنيا: لم يلبسه في الآخرة، ومن شرب الخمر في الدنيا: لم يشربه في الآخرة، ومن شرب في آنية الذهب والفضة في الدنيا: لم يشرب بها في الآخرة، ثم قال: لباس أهل الجنة، وشراب أهل الجنة، وآنية أهل الجنة)، ثم قال: " اعلم أن الأحاديث في تحريم لبس الحرير ، وشرب الخمر ، والشرب في أواني الذهب والفضة ، هي أكثر من أن تحصر ، وإنما أحببت أن أخص هذا الحديث بالذكر ، لأنه جمع الكلام على هذه الأمور الثلاثة ، وساقها مساقا واحدا ، ثم ختمها بقوله: (لباس أهل الجنة...) ، الذي يظهر أنه خرج مخرج التعليل ، يعني: أن الله تعالى حرم لباس الحرير - على الرجال خاصة - لأنه لباسهم في الجنة كما قال تعالى (ولباسهم فيها حرير) الحج/ ٢٣ ، وحرم الخمر على الرجال والنساء؛ لأنه شرابهم في الجنة قال تعالى (مثل الجنة التي وعد المتقون فيهآ أنهار من مآء غير آسن وأنهار من لبن لم يتغير طعمه وأنهار من خمر لذة للشاربين) محمد/ ١٥، وحرم الشرب في آنية الذهب والفضة على الرجال والنساء أيضا؛ لأنها آنيتهم قال تعالى: (ادخلوا الجنة أنتم وأزواجكم تحبرون يطاف عليهم بصحاف من ذهب وأكواب) الزخرف/ ٧١، فمن استعجل التمتع بذلك غير مبال ولا تائب ، عوقب بحرمانه منها في الآخرة، جزاء وفاقا.

وما أحسن ما رواه الحاكم عن صفوان بن عبد الله بن صفوان قال: " استأذن سعد على ابن عامر ، وتحته مرافق - وهي شيء يتكأ عليه شبيه بالوسادة - من حرير ، فأمر بها فرفعت ، فدخل عليه وعليه مطرف خز ، فقال له: استأذنت علي وتحتي مرافق من حرير فأمرت بها فرفعت ، فقال له: نعم الرجل أنت يا ابن عامر، إن لم

=

=

تكن ممن قال الله ﷻ (أذهبتم طيباتكم في حياتكم الدنيا) الأحقاف/ ٢٠ ، والله لأن أضطجع على جمر الغضا أحب إلي من أن أضطجع عليها " صحيح، على شرط مسلم. " انتهى

على أن التمتع بالطيبات من الرزق، وإن كان مباحا، إلا أنه لا ينبغي أن يكون غالب شأن الإنسان، ولا ينبغي له أن يعود نفسه على التنعم والإرفاه، فليس ذلك من شأن المنشغلين بالآخرة، كما في مسند الإمام أحمد (٢١٦٠٠) عن معاذ بن جبل رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ لما بعث به إلى اليمن قال: (إياك والتنعم فإن عباد الله ليسوا بالمتنعمين) حسنه الألباني في صحيح الجامع.

ومن السلف من كان يعد ذلك، بل ما هو دونه، من إذهاب الطيبات: روى البخاري (١٢٧٤) أن عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه أتي يوما بطعامه فقال: " قتل مصعب بن عمير وكان خيرا مني فلم يوجد له ما يكفن فيه إلا بردة وقتل حمزة أو رجل آخر خير مني فلم يوجد له ما يكفن فيه إلا بردة لقد خشيت أن يكون قد عجلت لنا طيباتنا في حياتنا الدنيا ثم جعل يبكي".

وفي رواية للبخاري (٤٠٤٥): (وقد خشينا أن تكون حسناتنا عجلت لنا ثم جعل يبكي حتى ترك الطعام).

قال الحافظ ابن حجر رحمه الله: " وفي الحديث فضل الزهد ، وأن الفاضل في الدين ينبغي له أن يمتنع من التوسع في الدنيا لئلا تنقص ، حسناته ، وإلى ذلك أشار عبد الرحمن بقوله خشينا أن تكون حسناتنا قد عجلت".

وروى مالك في الموطأ (١٧٤٢) أن عمر بن الخطاب أدرك جابر بن عبد الله ومعه حمال لحم فقال: " ما هذا فقال يا أمير المؤمنين قرمنا إلى اللحم فاشتريت بدرهم لحما فقال عمر أما يريد أحدكم أن يطوي بطنه عن جاره أو ابن عمه أين تذهب عنكم هذه الآية أذهبتم طيباتكم في حياتكم الدنيا واستمتعتم بها " في إسناده

=

وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ النُّذُرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (٢١).

{وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ} هُوَ هُود عَلَيْهِ السَّلَام {إِذْ} إلَخْ بَدَل اشْتِمَال {أَنْذَرَ قَوْمه}

=

انقطاع، وضعفه الألباني.

قال الحليمي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: " وهذا الوعيد من الله تعالى، وإن كان للكفار الذين الذين يقدمون على الطيبات المحظورة، ولذلك قال: {اليوم تجزون عذاب الهون}، فقد يخشى مثله على المنهمكين في الطيبات المباحة؛ لأن من تعودها مالت نفسه إلى الدنيا فلم يؤمن أن يرتبك في الشهوات والملاذ، كلما أجاب نفسه إلى واحدة منها دعته إلى غيرها، فيصير إلى أن لا يمكنه عصيان نفسه في هوى قط، وينسد باب العبادة دونه؛ فإذا آل الأمر به إلى هذا لم يبعد أن يقال: {أذهبتم طيباتكم في حياتكم الدنيا واستمتعتم بها}؛ فلا ينبغي أن تعود النفس ما يميل بها إلى الشره، ثم يصعب تداركها، ولترض من أول الأمر على السداد، فإن ذلك أهون من أن تدرب على الفساد، ثم يجتهد في إعادتها إلى الصلاح، والله أعلم. " انتهى. نقله البيهقي في شعب الإيمان (٧/ ٤٦٢-٤٦٣).

وقال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ ٱللَّهُ ـ فتح الباري (٩/ ١٠٦): " والحق أن ملازمة استعمال الطيبات تفضي إلى الترفه والبطر، ولا يأمن من الوقوع في الشبهات؛ لأن من اعتاد ذلك قد لا يجده أحيانا، فلا يستطيع الانتقال عنه، فيقع في المحظور، كما أن منع تناول ذلك أحيانا يفضي إلى التنطع المنهي عنه، ويرد عليه صريح قوله تعالى: (قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق) الأعراف: ٢٦، كما أن الأخذ بالتشديد في العبادة يفضي إلى الملل القاطع لأصلها، وملازمة الاقتصار على الفرائض مثلا، وترك التنفل يفضي إلى إيثار البطالة وعدم النشاط إلى العبادة، وخير الأمور الوسط".

خَوَّفَهُمْ {بِالْأَحْقَافِ} وَادٍ بِالْيَمَنِ بِهِ مَنَازِلهمْ {وَقَدْ خَلَتْ النُّذُر} مَضَتْ الرُّسُل {مِنْ بَيْن يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفه} أَيْ مِنْ قَبْل هُود وَمِنْ بَعْده إِلَى أَقْوَامهمْ {أَنْ} أَيْ بِأَنْ قَالَ {لَا تَعْبُدُوا إِلَّا الله} وَجُمْلَة وَقَدْ خَلَتْ مُعْتَرِضَة {إِنِّي أَخَاف عَلَيْكُمْ} إِنْ عَبَدْتُمْ غَيْر الله {عذاب يوم عظيم}.

قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ آلِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٢٢).

{قَالُوا أَجِئْتنَا لِتَأْفِكنَا عَنْ آلِهَتنَا} لِتَصْرِفنَا عَنْ عِبَادَتهَا {فَأْتِنَا بِمَا تَعِدنَا} مِنْ الْعَذَاب عَلَى عِبَادَتهَا {إِنْ كُنْت مِنَ الصَّادِقِينَ} فِي أَنَّهُ يأتينا.

قَالَ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللهِ وَأُبَلِّغُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ (٢٣).

{قَالَ} هُود {إِنَّمَا الْعِلْم عِنْد الله} هُوَ الَّذِي يَعْلَم مَتَى يَأْتِيكُمْ الْعَذَاب {وَأُبَلِّغكُمْ مَا أُرْسِلْت بِهِ} إِلَيْكُمْ {وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ} باستعجالكم العذاب.

فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُمْطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ (٢٤).

{فَلَمَّا رَأَوْهُ} أَيْ مَا هُوَ الْعَذَاب {عَارِضًا} سَحَابًا عَرَضَ فِي أُفُق السَّمَاء {مُسْتَقْبِل أَوْدِيَتهمْ قَالُوا هَذَا عَارِض مُمْطِرنَا} أَيْ مُمْطِر إِيَّانَا قال تعالى {بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ} مِنْ الْعَذَاب {رِيح} بَدَل مِنْ مَا {فِيهَا عَذَاب أَلِيم} مؤلم.

تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَى إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ (٢٥).

{تُدَمِّر} تُهْلِك {كُلّ شَيْء} مَرَّتْ عَلَيْهِ {بِأَمْر رَبّهَا} بِإِرَادَتِهِ أَيْ كُلّ شَيْء أَرَادَ إِهْلَاكه بِهَا فَأَهْلَكَتْ رِجَالهمْ وَنِسَاءَهُمْ وَصِغَارهمْ وَأَمْوَالهمْ بِأَنْ طَارَتْ بِذَلِكَ

بَيْن السَّمَاء وَالْأَرْض وَمَزَّقَتْهُ وَبَقِيَ هُود وَمَنْ آمَنَ مَعَهُ {فَأَصْبَحُوا لَا يُرَى إِلَّا مَسَاكِنهمْ كَذَلِكَ} كَمَا جَزَيْنَاهُمْ {نَجْزِي الْقَوْم المجرمين} غيرهم[1].

---

(١) قوله تعالى: (وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ) يقول تعالى مسليًا لنبيه في تكذيب من كذبه من قومه ((وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ) وهو هود عَلَيْهِ السَّلَامُ، بعثه الله إلى عاد، كما قال تعالى (وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا). وقال تعالى (كَذَّبَتْ عَادٌ الْمُرْسَلِينَ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلا تَتَّقُونَ).

- وأمر النبي ﷺ أن يذكر لقومه ما وقع لقوم عاد لسببين:

الأول: تسلية للنبي ﷺ، فإن الإنسان يتسلى بما حصل لغيره.

الثاني: تهديد وعيد لكفار مكة، أن يقع لهم ما وقع لقوم عاد.

- قوله تعالى (أخا عاد) أي: أخاهم في النسب لا في الدين.

(إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ) أي: حين حذر قومه من عذاب الله إن لم يؤمنوا، وكانوا يسكنون الأحقاف، والأحقاف جمع حِقْف وهو الجبل من الرمل، قال قتادة: كان حيًا باليمن أهل رمل.

(وَقَدْ خَلَتِ النُّذُرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ) أي: وقد مضت الرسل بالإنذار من قبل هود ومن بعده، والجملة اعتراضية، وهي إخبار من الله تعالى أنه قد بعث رسلًا متقدمين قبل هود وبعده، كما قال تعالى (فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ. إِذْ جَاءَتْهُمُ الرُّسُلُ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللهَ).

(أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللهَ) هذه دعوة جميع الرسل، الدعوة إلى عبادة الله وحده، وترك الشرك، وهذا معنى: لا إله إلا الله: أي: لا معبود حق إلا الله.

- وأصل العبادة في لغة العرب: الذل والخضوع، وقيل للعبد (عبد) لذله وخضوعه لسيده، فالعبادة: الذل والخضوع على وجه المحبة خاصة، فلا تكفي =

=

المحبة دون الذل والخضوع، ولا يكفي الذل والخضوع دون المحبة، لأن الإنسان إذا كان ذله متجردًا عن محبة الله يُبغض الذي هو يذل له، ومن أبغض ربه هلك، وإذا كانت محبةً خالصة لا خوف معها، فإن المُحب الذي لا يُداخله خوف يحمله الدلال على أن يسئ الأدب، ويرتكب أمورًا لا تنبغي، والله ﷻ لا يليق به شيء من ذلك (قاله الشنقيطي).

- فالعبادة تطلق على معنيين: احدهما: التعبد: يعني التذلل لله، كما سبق، وتطلق على المتعبد به (بالنسبة لأفعال العباد) وهي: اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الباطنة والظاهرة القلبية والجوارحية.

قوله (إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ) إن لم تفردوا ربكم بالعبادة وتخلصوا له وتتركوا عبادة الأوثان، (أخاف عليكم) إن متم على ذلك

(عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ) وهو يوم القيامة، ومن المعلوم أن عذاب المشرك يوم القيامة أشد العذاب كما قال تعالى (إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ).

قوله تعالى: {وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ} [الأحقاف:٢١]، أي:" واذكر -أيها الرسول- نبيَّ الله هودًا أخا عاد في النَّسب لا في الدين".

قال ابن كثير:" يقول تعالى مسليا لنبيه في تكذيب من كذبه من قومه: {وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ} وهو هود، عليه السلام، بعثه الله إلى عاد الأولى".

عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: "يرحمنا الله، وأخا عاد".

قوله تعالى: {إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ} [الأحقاف:٢١]، أي:" حين أنذر قومه أن يحل بهم عقاب الله، وهم في منازلهم المعروفة بـ «الأحقاف»، وهي الرمال الكثيرة جنوب الجزيرة العربية".

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: واذكر يا محمد لقومك الرّادّين

=

=

عليك ما جئتهم به من الحقّ هودا أخا عاد، فإن الله بعثك إليهم كالذي بعثه إلى عاد، فخوّفهم أن يحلّ بهم من نقمة الله على كفرهم ما حلّ بهم إذ كذّبوا رسولنا هودًا إليهم، إذ أنذر قومه عادا بالأحقاف. والأحقاف: جمع حقف وهو من الرمل ما استطال، ولم يبلغ أن يكون جبلا وإياه عنى الأعشى:

فَباتَ إلى أرْطاةِ حِقْفٍ تَلُفُّهُ... خَرِيقُ شَمالٍ يَتْرُكُ الوَجْهَ أقْتَما".

واختلف أهل التفسير في الموضع الذي به هذه الأحقاف، على أقوال:

أحدها: أن «الأحقاف»: رمال مشرِفة على البحر بأرض يقال لها: الشِّحْر، قاله قتادة.

قال قتادة:" ذُكر لنا أن عادا كانوا حيا باليمن أهل رمل مشرفين على البحر بأرض يقال لها: الشِّحْر".

وقال قتادة:" بلغَنَا أنهم كانوا على أرض يقال لها: الشحر، مشرفين على البحر، وكانوا أهل رمل".

وقال قتادة:" كان مساكن عاد بالشِّحْر".

وقال ابن زيد:" «الأحقاف»: الرمل الذي يكون كهيئة الجبل تدعوه العرب: الحقف، ولا يكون أحقافا إلا من الرمل، قال: وأخو عاد هود".

قال السدي:" إن عادا كانوا باليمن بالأحقاف، والأحقاف: هي الرمال، فأتاهم فوعظهم، وذكرهم بما قص الله في القرآن، فكذبوه وكفروا، وسألوه أن يأتيهم بالعذاب".

قال النحاس:" الحقف- عند أهل اللغة- الرمل المنحني وجمعه حقفة محمد وأحقاف وفي الحديث: أن النبي ﷺ مرّ «بِظَبْيٍ حَاقِفٍ»، أي: منحن متثن".

قال الزجاج:" «الأحقاف»: رمال مستطيلة مُرْتفعة كالدَّكَّاوات، وكانت هذه الأحقافُ

=

=

منازلَ عَاد".

قال الكلبي، وأبو عبيدة: "الأحقاف: الرمال".

قال الفراء:" أحقاف: الرمل، واحدها: حِقفٌ، والحِقفُ: الرملة المستطيلة المرتفعة إلى فوق".

قال ابن قتيبة:" واحدها: "حِقْف" وهو من الرمل ما أشرَفَ من كُثْبانه واستطال وانحنَى".

الثاني: أن «الأحقاف»: الأرض. قاله مجاهد.

وروي عن مجاهد:" {إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ بِالأَحْقَاف} ، حِشاف من حِسْمَى".

وروي عن ابن أبي نجيح، عن مجاهد: " {إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ بِالأَحْقَافِ} ، قال: حشاف أو كلمة تشبهها، قال أبو موسى: يقولون مستحشف".

الثالث: أنه جبل بالشام يسمى: الأحقاف، قاله ابن عباس.

وقال الضحاك:" جبل يسمى: الأحقاف".

وقال عكرمة: "الأحقاف: الجبل والغار".

الرابع: هو ما بين عمان وحضرموت، قاله ابن إسحاق.

قال ابن إسحاق:" كانت منازل عاد وجماعتهم، حيث بعث الله إليهم هودا الأحقاف: الرمل فيما بين عُمان إلى حَضْرَمَوْتَ، فاليمن كله، وكانوا مع ذلك قد فشَوْا في الأرض كلها، قهروا أهلها بفضل قوّتهم التي آتاهم الله".

وقال مقاتل:" كانت منازل عاد باليمن في حضرموت "بموضع يقال له: مهرة، وإليها تنسب الإبل المهرية"،.. وكانوا أهل عمود سيارة في الربيع فإذا هاج العود رجعوا إلى منازلهم وكانوا من قبيلة آدم بن شيم بن سام بن نوح وكانوا أصهاره وكان طول أحدهم اثنى عشر ذراعا وكان فيهم الملك".

الخامس: أن «الأحقاف» الذي أنذر هود قومه واد بين عمان ومهرة، قاله ابن

=

=

عباس -أيضا-.

قوله تعالى: {وَقَدْ خَلَتِ النُّذُرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ} [الأحقاف:٢١]، أي:" وقد مضت الرسل بإنذار قومها قبل هود وبعده: بأن لا تشركوا مع الله شيئًا في عبادتكم له".

قال يحيى بن سلام:" يعني: وقد بعثت الرّسل من قبل هود إلى قومهم، {وَمِنْ خَلْفِهِ}، يعني: ومن بعده".

قال الطبري: يقول:" وقد مضت الرسل بإنذار أممها من قبل هود ومن بعد هود، {أَلا} تشركوا مع الله شيئا في عبادتكم إياه، ولكن أخلصوا له العبادة، وأفردوا له الألوهة، إنه لا إله غيره، وكانوا فيما ذُكر أهل أوثان يعبدونها من دون الله".

قال ابن كثير:" يعني: وقد أرسل الله إلى من حَول بلادهم من القرى مرسلين ومنذرين، كقوله: {فَجَعَلْنَاهَا نَكَالا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا} [البقرة: ٦٦]، وكقوله: {فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ إِذْ جَاءَتْهُمُ الرُّسُلُ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلا تَعْبُدُوا إِلا اللَّهَ قَالُوا لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لأنزلَ مَلائِكَةً فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ} [فصلت: ١٣، ١٤]".

قال الفراء:" {مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ}: قبله، {وَمِنْ خَلْفِهِ}: من بعده".

قال مجاهد:" جاءت قبلهم الرسل النذر بتوحيد الله، وأتى الرسل بعدهم بتوحيد الله".

عن الضحاك:" {وَقَدْ خَلَتِ النُّذُرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ أَلا تَعْبُدُوا إِلا اللَّهَ}، قال: لن يبعث الله رسولا إلا بأن يعبد الله".

وفِي قراءة عَبْد الله: «وَقَدْ خَلَتِ النُّذُرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ بَعْدِهِ».

قوله تعالى: {إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ} [الأحقاف:٢١]، أي:" إني أخاف عليكم عذاب الله في يوم يَعْظُم هوله، وهو يوم القيامة".

=

=

قال الطبري: " يقول تعالى ذكره مخبرا عن قيل هود لقومه: إني أخاف عليكم أيها القوم بعبادتكم غير الله عذاب الله في يوم عظيم وذلك يوم يعظم هوله، وهو يوم القيامة".

عن سعيد بن جبير: " {عظيم}، يعني: وافرا".

(قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ آلِهَتِنَا) أي: قال قومه له: أجئت لتصرفنا عن عبادتنا إلى عبادة الله وحده.

(فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ) استعجلوا عذاب الله وعقوبته، استبعادًا منهم وقوعه.

كما قال تعالى عنهم في سورة الأعراف (قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ).

قوله تعالى: {قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ آلِهَتِنَا} [الأحقاف:٢٢]، أي:" قالوا: أجئتنا بدعوتك؛ لتصرفنا عن عبادة آلهتنا؟".

قال الطبري: " قالت عاد لهود، إذ قال لهم لا تعبدوا إلا الله: إني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم، أجئتنا يا هود لتصرفنا عن عبادة آلهتنا إلى عبادة ما تدعونا إليه، وإلى اتباعك على قولك".

قال ابن قتيبة:" {لِتَأْفِكَنَا} لتصرفَنا".

قال ابن كثير:" أي: لتصدنا".

قال الزجاج:"أي: لِتَصْرِفنا عنها بالإِفْكِ والكَذِب".

قال الزمخشري:" الإفك: الصرف. يقال أفكه عن رأيه {عَنْ آلِهَتِنا} عن عبادتها".

قال الضحاك:" لتزيلنا عن عبادتها بالإفك".

عن ابن زيد، قوله:" {أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ آلِهَتِنَا}، قال: لتزيلنا، وقرأ: {إِنْ كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ آلِهَتِنَا لَوْلا أَنْ صَبَرْنَا عَلَيْهَا}، قال: تضلنا وتزيلنا وتأفكنا".

=

=

قوله تعالى: {فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ} [الأحقاف:٢٢]، أي:" فأتنا بما تعدنا به من العذاب، إن كنت من أهل الصدق في قولك ووعدك".

قال الطبري: يقول:" {فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا} من العذاب على عبادتنا ما نعبد من الآلهة {إِنْ كُنْتُ} من أهل الصدق في قوله وعداته".

قال الزجاج:"أي: ائتنا بالعذاب الذي نَعِدُنا".

قال السمعاني:" {إن كنت من الصادقين} يعني: إن كنت نبيا من قبل الله تعالى".

قال البغوي:" {إن كنت من الصادقين} أن العذاب نازل بنا".

قال الزمخشري:" {بِما تَعِدُنا} من معاجلة العذاب على الشرك، {إِنْ كُنْتَ صادقا} في وعدك".

قال ابن كثير:" استعجلوا عذاب الله وعقوبته، استبعادًا منهم وقوعه، كقوله: {يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِهَا} [الشورى: ١٨]".

قوله (قَالَ) لهم هود.

(إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللهِ) أي: الله أعلم بكم إن كنتم مستحقين لتعجيل العذاب فيفعل ذلك

(وَأُبَلِّغُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ) أي: وأما أنا فمن شأني أني أبلغكم ما أرسلت به.

كما قال تعالى في سورة الأعراف (قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ. أُبَلِّغُكُمْ رِسَالاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ).

قوله تعالى: {قَالَ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللهِ} [الأحقاف:٢٣]، أي:" قال هود عليه السلام: إنما العلم بوقت مجيء ما وُعدتم به من العذاب عند الله".

قال الطبري: " قال هود لقومه عاد: {إِنَّمَا الْعِلْمُ} بوقت مجيء ما أعدكم به من عذاب الله على كفركم به عند الله، لا أعلم من ذلك إلا ما علمني".

قال مقاتل:" يعنى: نزول العذاب بكم علمه عند الله إذا شاء أنزله".

=

=

قال السمعاني:" أي: وقت عذابكم يعلمه الله، ولا أعلمه أنا".

قال ابن كثير:" أي: الله أعلم بكم إن كنتم مستحقين لتعجيل العذاب فيفعل ذلك بكم".

قال الزمخشري:" فقال لهم: لا علم عندي بالوقت الذي يكون فيه تعذيبكم حكمة وصوابا، إنما علم ذلك عند الله، فكيف أدعوه بأن يأتيكم بعذابه في وقت عاجل تقترحونه أنتم؟".

قوله تعالى: {وَأُبَلِّغُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ} [الأحقاف:٢٣]، أي:" وإنما أنا رسول الله إليكم، أبلغكم عنه ما أرسلني به".

قال الطبري: " يقول: وإنما أنا رسول إليكم من الله، مبلغ أبلغكم عنه ما أرسلني به من الرسالة".

قال السمعاني:" معناه: أن إليّ تبليغ الرسالة، وليس إلي إنزال العذاب، وإنما هو إلى الله تعالى".

قال ابن كثير: أي: " وأما أنا فمن شأني أني أبلغكم ما أرسلت به".

قال الزمخشري:" أن الذي هو شأنى وشرطي: أن أبلغكم ما أرسلت به من الإنذار والتخويف والصرف عما يعرّضكم لسخط الله بجهدي".

قال السدي:" فأتاهم- يعني-: هودا، فوعظهم وذكرهم بما قص الله في كتابه فكذبوه وكفروا، وسألوه أن يأتيهم بالعذاب فقال لهم: {إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللهِ وَأُبَلِّغُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ}".

قوله تعالى: {وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ} [الأحقاف:٢٣]، أي:" ولكني أراكم قومًا تجهلون في استعجالكم العذاب، وجرأتكم على الله".

قال الطبري: " يقول: {وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ} مواضع حظوظ أنفسكم، فلا تعرفون ما عليها من المضرّة بعبادتكم غير الله، وفي استعجال عذابه".

=

=

قال ابن كثير: "أي: لا تعقلون ولا تفهمون".

قال مقاتل:" {تَجْهَلُونَ} العذاب".

قال الزمخشري: أي:" ولكنكم جاهلون لا تعلمون أنّ الرسل لم يبعثوا إلا منذرين لا مقترحين، ولا سائلين غير ما أذن لهم فيه".

قوله (فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ) أي: لما رأوا العذاب مستقبلهم، اعتقدوا أنه عارض ممطر، ففرحوا به واستبشروا به، وقد كانوا ممحلين إلى المطر.

(قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُمْطِرُنَا) أي: قالوا: هذا السحاب يأتينا بالمطر.

- سمي السحاب عارضًا لأنه يبدو في عُرْض السماء.

(بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ) قال الله: ليس الأمر كما تظنون أنه مطر.، بل هو ما استعجلتم به من العذاب في قولكم (فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ).

(رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ) أي: ريح عاصفة مدمرة فظيعة.

قوله تعالى: {فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ} [الأحقاف:٢٤]، أي:" فلما رأوا العذاب الذي استعجلوه عارضًا في السماء متجهًا إلى أوديتهم".

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره: فلما جاءهم عذاب الله الذي استعجلوه، فرأوه سحابا عارضا في ناحية من نواحي السماء {مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ}، والعرب تسمي السحاب الذي يُرَى في بعض أقطار السماء عشيا، ثم يصبح من الغد قد استوى، وحبا بعضه إلى بعض عارضا، وذلك لعرضه في بعض أرجاء السماء حين نشأ، كما قال الأعشى:

يا من يَرَى عارضا قَدْ بِتُّ أَرْمُقُهُ... كأَنَّمَا الْبَرْقُ في حافاتِهِ الشُّعَل".

قال الزجاج:" أي: فلما رَأَوُا السحاب الذي نشأت منه الريح التي عُذِبُوا بِهَا قد عَرَضت في السماء".

قال ابن كثير: " أي: لما رأوا العذاب مستقبلهم".

=

=

قال الفراء:" طمعوا أن يكون سحابَ مطرٍ، فقالوا: هَذَا الَّذِي وعدْتَنا، هَذَا والله الغيث والخير".

قال مقاتل:" العارض: بعض السحابة التي لم تطبق السماء التي يرى ما فيها من المطر".

قوله تعالى: {قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُمْطِرُنَا} [الأحقاف:٢٤]، أي:" قالوا: هذا سحاب ممطر لنا".

قال الطبري:" ظنا منهم برؤيتهم إياه أن غيثا قد أتاهم يَحيون به، فقالوا: هذا الذي كان هودٌ يعدنا، وهو الغيث".

قال الزجاج:" قالوا: الذي وَعَدْتَنا به سحابٌ فيه الغيث والحياة والمطر".

قال ابن كثير: " اعتقدوا أنه عارض ممطر، ففرحوا واستبشروا به، وقد كانوا ممحلين محتاجين إلى المطر".

قال مقاتل:" قالوا لهود: {هذا عارض ممطرنا}، لأن المطر كان حبس عنهم وكانت السحابة إذا جاءت من قبل ذلك الوادي مطروا.. فلما كذبوا هودا حبس الله عنهم المطر ثلاث سنين فلما دنا هلاكهم أوحى الله إلى الخزان، خزان الريح أن أرسلوا عليهم من الريح مثل منخر الثور، فقالت الخزان: يا رب، إذا تنسف الريح الأرض ومن عليها. قال: أرسلوا عليهم مثل خرق الخاتم، يعني على قدر حلقة الخاتم، ففعلوا فجاءت ريح باردة شديدة تسمى الدبور من وراء دكاوك الرمل، وكان المطر يأتيهم من تلك الناحية فيما مضى فمن ثم: «قالوا هذا عارض ممطرنا» فعمد هو فحط على نفسه، وعلى المؤمنين خطا إلى أصل شجرة ينبع من ساقها عين فلم يدخل عليهم من الريح إلا النسيم الطيب وجعلت الريح شدتها تجئ بالطعن بين السماء والأرض، فلما رأوا أنها ريح قالوا: يا هود إن ريحك هذه لا تزيل أقدامنا وقالوا من أشد منا قوة يعنى بطشا فقاموا صفونا فاستقبلوها

=

=

بصدورهم فأزالت الريح أقدامهم. فقالوا: يا هود، إن ريحك هذه تزيل أقدامنا فألقتهم الريح لوجوههم ونسفت عليهم الرمل حتى إنه يسمع أنين أحدهم من تحت الرمل، فذلك قوله: {أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُم} [فصلت: ١٥]".

روى طاووس عن ابن عباس، قال:"كان لعاد واد إذا جاء المطر أو الغيم من ناحيته كان غيثا فأرسل الله عليهم العذاب من ناحيته فلما وعدهم هود ﷺ بالعذاب ورأوا العارض قالوا: {هذا عارض ممطرنا}".

قال قتادة:" وذُكر لنا أنهم حبس عنهم المطر زمانا، فلما رأوا العذاب مقبلا: {قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُمْطِرُنَا}. وذُكر لنا أنهم قالوا: كذب هود كذب هود؛ فلما خرج نبيّ الله ﷺ الله فشامه، قال: {بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيم}".

قال ابن إسحاق:" ساق الله السحابة السوداء التي اختار قَيْلُ ابن عنز بما فيها من النقمة إلى عاد، حتى تخرج عليهم من واد لهم يقال له المغيث، فلما رأوها استبشروا: {قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُمْطِرُنَا}، يقول الله ﷻ: {بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ}".

قوله تعالى: {بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ} [الأحقاف:٢٤]، أي:" فقال لهم هود عليه السلام: ليس هو بعارض غيث ورحمة كما ظننتم، بل هو عارض العذاب الذي استعجلتموه، فهو ريح فيها عذاب مؤلم موجع".

قال الطبري:" أي: هو العذاب الذي استعجلتم به، فقلتم: {فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ}، {رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ}، والريح مكرّرة على ما في قوله: {هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ} كأنه قيل: بل هو ريح فيها عذاب أليم".

قال أبو العالية:" الأليم: الموجع في القرآن كله"، وروي عن سعيد بن جبير، وأبي مالك، والضحاك، وقتادة، وأبي عمران الجوني، نحو ذلك.

=

=

قال مقاتل:" وكان استعجالهم حين قالوا: يا هود: {فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ} ".

قال ابن كثير: " أي: هو العذاب الذي قلتم: {فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ} ".

قال عمرو بن ميمون: "لما رأى قوم عاد العارض، {قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُمْطِرُنَا}، قال الله: {بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا}، فإن كانت الريح لتدفع الراعي وغنمه بين السماء والأرض ثم تقلبها عليهم".

قال عمرو بن ميمون: "كان هود جلدا في قومه، وإنه كان قاعدا في قومه، فجاء سحاب مكفهرّ، {قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُمْطِرُنَا فَقَالَ بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ}، قال: فجاءت ريح فجعلت تلقي الفسطاط، وتجيء بالرجل الغائب فتلقيه".

قال عمرو بن ميمون: لقد كانت الريح تحمل الظعينة فترفعها حتى تُرى كأنها جرادة".

عن ابن عباس، قوله: " {فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ} ... إلى آخر الآية، قال: هي الريح إذا أثارت سحابا، {قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُمْطِرُنَا}، فقال نبيهم: بل ريح فيها عذاب أليم".

قالت عائشة-رضي الله عنها-: كان النبي ﷺ إذا رأى مخيلة تغير وجهه ودخل وخرج، وأقبل وأدبر فإذا أمطرت سري عنه فذكرت ذلك له، فقال: " ما أمنت أن تكون كما قال الله: {فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ} [الأحقاف: ٢٤] إلى قوله: {رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ} [الأحقاف: ٢٤]".

وعن عائشة-رضي الله عنها- قالت: "كان رسول الله ﷺ إذا عصفت الريح قال: "اللهم، إني أسألك خيرها، وخير ما فيها، وخير ما أرسلت به، وأعوذ بك من شرها، وشر

=

=

ما فيها، وشر ما أرسلت به". قالت: وإذا تَخَيَّلت السماء تغير لونه، وخرج ودخل، وأقبل وأدبر، فإذا مطرت سري عنه، فعرفت ذلك عائشة، فسألته، فقال: "لعله يا عائشة كما قال قوم عاد: {فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُمْطِرُنَا}".

وقرأ عبد الله: «قُل بَلْ هُوَ ما اسْتَعْجَلْتُم».

قوله (تُدَمِّرُ) أي: تخرب.

(كُلَّ شَيْءٍ) من بلادهم، مما شأنه الخراب.

- فقوله (كل شيء) عام أريد الخصوص.

(بِأَمْرِ رَبِّهَا) أي: بإذن الله لها في ذلك.

(فَأَصْبَحُوا لا يُرَى إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ) أي: بادوا كلهم عن آخرهم ولم تبق لهم باقية، فأصبحوا هلكى لا تُرى إلا مساكنهم.

(كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ) أي: هذا حكمنا فيمن كذب رسلنا، وخالف أمرنا.

- المجرمين: جمع مجرم، وهو مرتكب الجريمة، والجريمة الذنب الذي يستحق صاحبه العذاب والنكال.

قوله تعالى: {تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا} [الأحقاف:٢٥]، أي:" تدمِّر كل شيء تمر به مما أُرسلت بهلاكه بأمر ربها ومشيئته".

قال مقاتل:" قال لهم هود حين جاءتهم الريح: إنها {تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا}، يعني: تهلك كل شيء من عاد {بِأَمْرِ رَبِّهَا} من الناس والأموال والدواب، بإذن ربها".

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره: تخرّب كل شيء، وترمي بعضه على بعض فتهلكه، كما قال جرير:

=

=

وكانَ لَكُمْ كَبَكْرِ ثَمُود لَمَّا... رَغا ظُهْرًا فَدَمَّرَهُمْ دَمارًا

يعني بقوله: «دمرهم»: ألقى بعضهم على بعض صَرْعى هَلكَى.

قال الطبري: وإنما عنى بقوله: {تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا} مما أرسلت بهلاكه، لأنها لم تدمر هودا ومن كان آمن به".

قال ابن كثير:" أي: تخرب {كُلِّ شَيْءٍ} من بلادهم، مما من شأنه الخراب {بِأَمْرِ رَبِّهَا}، أي: بإذن الله لها في ذلك، كقوله: {مَا تَذَرُ مِنْ شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ} [الذاريات: ٤٢] أي: كالشيء البالي".

قال ابن عباس:" ما أرسل الله على عادٍ من الريح إلا قدر خاتمي هذا، فنزع خاتمه".

قوله تعالى: {فَأَصْبَحُوا لَا يُرَى إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ} [الأحقاف:٢٥]، أي:" فأصبحوا لا يُرى في بلادهم شيء إلا مساكنهم التي كانوا يسكنونها".

قال الطبري: " يقول: فأصبح قوم هود وقد هلكوا وفنوا، فلا يُرى في بلادهم شيء إلا مساكنهم التي كانوا يسكنونها".

قال ابن كثير:" أي: قد بادوا كلهم عن آخرهم ولم تبق لهم باقية".

قال مقاتل:" يقول الله تعالى لمحمد ﷺ: {فَأَصْبَحُوا لَا يُرَى إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ} بالشجر ولم يبق لهم شيء... وهاجت الريح غدوة وسكنت بالعشي اليوم الثامن عند غروب الشمس، فذلك قوله: {سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ} [الحاقة: ٧]، وقبضت أرواحهم يوم الثامن، فذلك قوله: {وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا} [الحاقة: ٧]،يعني: كاملة دائمة متتابعة.. ثم بعث الله طيرا سودا فالتقطتهم حتى ألقتهم فى البحر".

قال النبي ﷺ: «نصرت بالصبا وأهلكت عاد بالدبور»".

عَنْ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ أَنَّهُ قرأ: «لا تَرَى إلا مساكنهم».

=

=

قال الزجاج:" أجودها في العربية والقراءة: {لَا يُرَى إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ}، وتأويله: لَا يُرَى شيءٌ إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ لأَنَّهُمْ قد أُهْلِكُوا".

قوله تعالى: {كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ} [الأحقاف:٢٥]، أي:" مثل هذا الجزاء نجزي القوم المجرمين؛ بسبب جرمهم وطغيانهم".

عن السدي:" {المجرمون}: وهم المشركون".

قال الطبري: يقول:" كما جزينا عادا بكفرهم بالله من العقاب في عاجل الدنيا، فأهلكناهم بعذابنا، كذلك نجزي القوم الكافرين بالله من خلقنا، إذ تمادوا في غيهم وطَغَوا على ربهم".

قال الزجاج:" المعنى: مثل ذلك نجزي القوم المجرمين أي بالعَذَابا".

قال ابن كثير:" أي: هذا حكمنا فيمن كذب رسلنا، وخالف أمرنا".

قال السمعاني:" {المجرمين}، أي: ذو الإجرام".

عن الحارث البكري، قال: "خرجت أشكو العلاء بن الحضرمي إلى رسول الله ﷺ، فمررت بالرَبْذَة، فإذا عجوز من بني تميم منقطع بها، فقالت لي: يا عبد الله، إن لي إلى رسول الله ﷺ حاجة، فهل أنت مبلغي إليه؟ قال: فحملتها فأتيت بها المدينة، فإذا المسجد غاص بأهله، وإذا راية سوداء تخفق، وإذا بلال متقلد السيف بين يدي رسول الله ﷺ، فقلت: ما شأن الناس؟ قالوا: يريد أن يبعث عمرو بن العاص وجها. قال: فجلست، فدخل منزله - أو قال: رحله - فاستأذنت عليه، فأذن لي، فدخلت فسلمت، فقال: "هل كان بينكم وبين تميم شيء؟ قلت: نعم، وكانت لنا الدبرة عليهم، ومررت بعجوز من بني تميم منقطع، بها فسألتني أن أحملها إليك، وها هي بالباب: فأذن لها فدخلت، فقلت: يا رسول الله، إن رأيت أن تجعل بيننا وبين تميم حاجزا فاجعل الدهناء، فحميت العجوز واستوفزت، وقالت: يا رسول الله، فإلى أين يضطر مضطرك؟ قال: قلت: إن مثلي ما قال

=

وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيمَا إِنْ مَكَّنَّاكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللهِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (٢٦).

{وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيمَا} فِي الَّذِي {إِنْ} نَافِيَة أَوْ زَائِدَة {مَكَّنَّاكُمْ} يَا أَهْل مَكَّة {فِيهِ} مِنْ الْقُوَّة وَالْمَال {وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا} بِمَعْنَى أَسْمَاعًا {وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَة} قُلُوبًا {فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعهمْ وَلَا أَبْصَارهمْ وَلَا أَفْئِدَتهمْ مِنْ شَيْء} أَيْ شَيْئًا مِنْ الْإِغْنَاء وَمِنْ زَائِدَة {إِذْ} مَعْمُولَة لأَغْنَى وَأُشْرِبَتْ مَعْنَى التَّعْلِيل {كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ الله} بِحُجَجِهِ الْبَيِّنَة {وَحَاقَ} نَزَلَ {بِهِمْ ما كانوا به يستهزءون} أي العذاب.

=

الأول: "مِعْزَى حَمَلَت حَتْفَها"، حملت هذه ولا أشعر أنها كانت لي خصما، أعوذ بالله ورسوله أن أكون كوافد عاد. قال: "هيه، وما وافد عاد؟ " - وهو أعلم بالحديث منه، ولكن يستطعمه- قلت: إن عادًا قحطوا فبعثوا وافدًا لهم يقال له: قَيل، فمر بمعاوية بن بكر، فأقام عنده شهرا يسقيه الخمر وتغنيه جاريتان يقال لهما "الجرادتان" - فلما مضى الشهر خرج إلى جبال مَهْرة فقال: اللهم، إنك تعلم أني لم أجئ إلى مريض فأداويه، ولا إلى أسير فأفاديه، اللهم اسق عادا ما كنت تسقيه. فمرت به سحابات سود، فنودي منها: "اختر"، فأومأ إلى سحابة منها سوداء، فنودي منها: "خذها رمادًا رمددًا، لا تبقي من عاد أحدا". قال: فما بلغني أنه أرسل عليهم من الريح إلا كقدر ما يجري في خاتمي هذا، حتى هلكوا - قال أبو وائل: وصدق - وكانت المرأة والرجل إذا بعثوا وافدًا لهم قالوا: "لا تكن كوافد عاد".

قال ابن كثير:" غريب جدًا من غرائب الحديث وأفراده".

وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُمْ مِنَ الْقُرَى وَصَرَّفْنَا الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٢٧).

{وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُمْ مِنَ الْقُرَى} أَيْ مِنْ أَهْلِهَا كَثَمُودِ وَعَادٍ وَقَوْم لُوط {وَصَرَّفْنَا الآيات} كررنا الحجج البينات {لعلهم يرجعون.

فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللهِ قُرْبَانًا آلِهَةً بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ وَذَلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ (٢٨).

{فَلَوْلَا} هَلَّا {نَصَرَهُمْ} بِدَفْعِ الْعَذَاب عَنْهُمْ {الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُون الله} أَيْ غَيْره {قُرْبَانًا} مُتَقَرَّبًا بِهِمْ إلَى الله {آلِهَة} مَعَهُ وَهُمْ الْأَصْنَام وَمَفْعُول اتَّخَذَ الْأَوَّل ضَمِير مَحْذُوف يَعُود عَلَى الْمَوْصُول أَيْ هُمْ وَقُرْبَانًا الثَّانِي وَآلِهَة بَدَل مِنْهُ {بَلْ ضَلُّوا} غَابُوا {عَنْهُمْ} عِنْد نُزُول الْعَذَاب {وَذَلِكَ} أَيْ اتِّخَاذهمْ الْأَصْنَام آلِهَة قُرْبَانًا {إفْكهمْ} كَذِبهمْ {وَمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ} يَكْذِبُونَ وَمَا مَصْدَرِيَّة أَوْ مَوْصُولَة وَالْعَائِد مَحْذُوف أَيْ فيه[1].

---

(١) قوله تعالى: (وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيمَا إِنْ مَكَّنَّاكُمْ فِيهِ) أي: ولقد مكنا عادًا في الذي لم نمكنكم فيه يا أهل مكة من القوة والسعة وطول الأعمار، وهو خطاب لأهل مكة على وجه التهديد.

(وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً) أي: وأعطيناهم الأسماع والأبصار والقلوب.

(فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلا أَبْصَارُهُمْ وَلا أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ) أي: فما نفعتهم تلك الحواس أي نفع، لا قليل ولا كثير.

(إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللهِ) الدالة على توحيده وإفراده بالعبادة، يجحدون: أي ينكرونها ويكذبون بها.

والآيات جمع آية، والآية تطلق في القرآن على معنيين:

=

=

المعنى الأول: الآية الكونية القدرية. (فهي مما نشاهده مما لا يستطيع البشر أن يخلقوا مثلها).

وهي ما نصبه الله (جل وعلا) ليدل به خلقه على أنه الواحد الأحد المستحق للعبادة، كالشمس والسماء والأرض ونحوها، وكل ما في الكون من مخلوقات الله شاهد بكمال الله وقدرته وعزته وأنه المستحق للعبادة

قال تعالى (إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ) أي: لعلامات واضحة جازمة قاطعة بأن من خلقها هو رب هذا الكون، وهو المعبود وحده.

قال الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ:

المعنى الثاني: الآية الشرعية الدينية، كآيات هذا القرآن العظيم. (لا يستطيع البشر أن يأتوا بمثله).

ومنه قوله تعالى (رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِ اللهِ) وقوله تعالى (هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ).

وسميت آيات، جمع آية، لأنها علامة على صدق من جاء بها.

- الكفر بالآيات الكونية يكون بأمور: أن يجحد أن الخالق سبحانه خلقها فيدعي أن الذي خلقها، أو أن يعتقد أن له شريكًا في خلقه، أو أن له معينًا في خلقه.

والكفر بالآيات الشرعية إما بجحودها، أوبتكذيبها، أو بالاستكبار والعناد.

(وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ) أي: أحاط بهم العذاب والنكال الذي كانوا يكذبون به ويستبعدون وقوعه، فاحذروا أيها المخاطبون أن تكونوا مثلهم فيصيبكم مثل ما أصابهم من العذاب في الدنيا والآخرة.

=

=

وهذا عاقبة الاستهزاء والتكذيب:
قال تعالى (وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ)
وقال تعالى (فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ).
قوله تعالى: {وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيمَا إِنْ مَكَّنَّاكُمْ فِيهِ} [الأحقاف:٢٦]، أي:" ولقد يسَّرنا لعاد أسباب التمكين في الدنيا على نحوٍ لم نمكنكم فيه معشر كفار قريش".
قال الطبري:" يقول تعالى ذكره لكفار قريش: ولقد مكنَّا أيها القوم عادا الذين أهلكناهم بكفرهم فيما لم نمكنكم فيه من الدنيا، وأعطيناهم منها الذي لم نعطكم منهم من كثرة الأموال، وبسطة الأجسام، وشدّة الأبدان".
قال ابن كثير:" يقول تعالى: ولقد مكنا الأمم السالفة في الدنيا من الأموال والأولاد، وأعطيناهم منها ما لم نعطكم مثله ولا قريبا منه".
قال مقاتل:" يعني: في الذي أعطيناكم في الأرض من الخير والتمكن في الدنيا، يعني: مكناكم فى الأرض يا أهل مكة".
قال قتادة:" أنبأكم أنه أعطى القوم ما لم يعطكم".
عن ابن عباس، قوله: " {وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيمَا إِنْ مَكَّنَّاكُمْ فِيهِ}، يقول: لم نمكنكم".
قال النحاس:" ف «إن» على هذا القول بمعنى: «ما»، وقد قيل انها زائدة، والأول أولى، لأنه لا يعرف زيادتها إلا في النفي وفي الإيجاب «أن» بالفتح".
قوله تعالى: {وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً} [الأحقاف:٢٦]، أي:" وجعلنا لهم سمعًا يسمعون به، وأبصارًا يبصرون بها، وأفئدة يعقلون بها، ليعرفوا تلك النعم ويستدلوا بها على الخالق المنعم".
قال الطبري: يقول:" {وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا} يسمعون به مواعظ ربهم، وأبصارا يبصرون بها حجج الله، وأفئدة يعقلون بها ما يسرّهم وينفعهم".

=

=

قوله تعالى: {فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللهِ} [الأحقاف:٢٦]، أي:" فلم تغن عنهم تلك الحواس شيئًا إذ كانوا يكذِّبون بحجج الله".

قال الطبري:" يقول: فلم ينفعهم ما أعطاهم من السمع والبصر والفؤاد إذ لم يستعملوها فيما أعطوها له، ولم يعملوها فيما ينجيهم من عقاب الله، ولكنهم استعملوها فيما يقرّبهم من سخطه، إذ كانوا يكذّبون بحجج الله وهم رُسله، وينكرون نبوّتهم".

قوله تعالى: {وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ} [الأحقاف:٢٦]، أي:" ونزل بهم من العذاب ما سخروا به واستعجلوه".

قال الطبري:" يقول: وعاد عليهم ما استهزءوا به، ونزل بهم ما سخروا به، فاستعجلوا به من العذاب، وهذا وعيد من الله جلّ ثناؤه لقريش، يقول لهم: فاحذروا أن يحلّ بكم من العذاب على كفركم بالله وتكذيبكم رسله، ما حلّ بعاد، وبادروا بالتوبة قبل النقمة".

قال ابن كثير:" أي: وأحاط بهم العذاب والنكال الذي كانوا يكذبون به ويستبعدون وقوعه، أي: فاحذروا أيها المخاطبون أن تكونوا مثلهم، فيصيبكم مثل ما أصابهم من العذاب في الدنيا والآخرة".

عن مجاهد: {وَحَاقَ بِهِمْ}، قال: " حل بهم".

وروي عن السدي:" وقع بهم".

وقال الربيع: "نزل".

قال الضحاك: {فَحَاقَ}: "أي: أحاط".

(وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُمْ مِنَ الْقُرَى) تخويف آخر لكفار مكة، أي: ولقد أهلكنا القرى المجاورة لكم يا أهل مكة والمحيطة بكم، كعاد وكانوا بالأحقاف

=

=

بحضرموت، وثمود وكانت منازلهم بينهم وبين الشام، وكذلك سبأ وهم أهل اليمن، ومدين وكانت في طريقهم وممرهم إلى غزة، وكذلك بحيرة قوم لوط كانوا يمرون بها أيضًا.

- قوله تعالى (ولقد أهلكنا) أسلوب الجمع للتعظيم، والمراد بإهلاك القرى إهلاك أهلها.

(وَصَرَّفْنَا الْآيَاتِ) أي: وكررنا الحجج والدلالات، والمواعظ والبينات، أوضحناها وبيناها لهم.

(لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ) عن كفرهم وغيهم وضلالهم.

قوله تعالى: {وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُمْ مِنَ الْقُرَى} [الأحقاف:٢٧]، أي:" ولقد أهلكنا ما حولكم يا أهل «مكة» من القرى كعاد وثمود، فجعلناها خاوية على عروشها".

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره لكفار قريش محذّرهم بأسه وسطوته، أن يحلّ بهم على كفرهم {وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا} أيها القوم من القُرَى ما حول قريتكم، كحجر ثمود وأرض سدوم ومأرب ونحوها، فأنذرنا أهلها بالمَثُلات، وخرّبنا ديارها، فجعلناها خاوية على عروشها".

قال مقاتل:" يعني: القرون، قوم نوح، وقوم صالح، وقوم لوط، فأما قوم لوط فهم بين المدينة والشام، وأما عاد فكانوا باليمن".

قال ابن كثير:" يعني: أهل مكة، قد أهلك الله الأمم المكذبة بالرسل مما حولها كعاد، وكانوا بالأحقاف بحضرموت عند اليمن وثمود، وكانت منازلهم بينهم وبين الشام، وكذلك سبأ وهم أهل اليمن، ومدين وكانت في طريقهم وممرهم إلى غزة، وكذلك بحيرة قوم لوط، كانوا يمرون بها أيضا".

عن ابن جريج: " {وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُمْ مِنَ الْقُرَى}، قال:" ههنا وههنا شيئا

=

=

باليمن واليمامة والشام".

قوله تعالى: {وَصَرَّفْنَا الْآيَاتِ} [الأحقاف:٢٧]، أي:" وبيَّنَّا لهم أنواع الحجج والدلالات".

قال الطبري:" يقول: ووعظناهم بأنواع العظات، وذكرناهم بضروب من الذِّكْر والحجج، وبيَّنا لهم ذلك".

قال ابن كثير:" أي: بيناها ووضحناها".

قال الشوكاني:" أي: بينا الحجج ونوعناها".

قال مقاتل:" {وصرفنا الآيات} في أمور شتى، يقول: نبعث مع كل نبي إلى أمته آية ليست لغيرهم".

قال السمعاني:" أي: مرة عاقبناهم، ومرة أنعمنا عليهم، ويقال: خوفناهم مرة، وأطعمناهم مرة".

عن ابن زيد، قوله: " {وَصَرَّفْنَا الآيَاتِ}، قال: بيَّناها".

قوله تعالى: {لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ} [الأحقاف:٢٧]، أي:" لعلهم يرجعون عما كانوا عليه من الكفر بالله وآياته".

قال السمعاني:" أي: عن الكفر الذي كانوا عليه".

قال الشوكاني:" لكي يرجعوا عن كفرهم فلم يرجعوا".

قال مقاتل:" يقول: لكي {يرجعون} من الكفر إلى الإيمان، فلم يتوبوا فأهلكهم الله بالعذاب".

قال الطبري:" يقول ليرجعوا عما كانوا عليه مقيمين من الكفر بالله وآياته، وفي الكلام متروك ترك ذكره استغناء بدلالة الكلام عليه، وهو: فأبوا إلا الإقامة على كفرهم، والتمادي في غيهم، فأهلكناهم، فلن ينصرهم منا ناصر".

عن ابن عباس:" {لعلهم يرجعون}، قال: يتوبون".

=

=

عن الحسن:" {لعلهم يرجعون}: لعلهم يتوبون".

(فَلَوْلا نَصَرَهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللهِ قُرْبَانًا آلِهَةً) أي: فهلا نصرتهم آلهتهم التي تقربوا بها إلى الله بزعمهم، وجعلوها شفعاءهم لتدفع عنهم العذاب؟ فـ (لولا) تحضيضية بمعنى (هلا) ومعناها النفي: أي لم تنصرهم آلهتهم ولم تدفع عنهم عذاب الله؟

(بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ) أي: بل غابوا عن نصرتهم وهم أحوج ما يكونون إليهم.

(وَذَلِكَ إِفْكُهُمْ) أي: كذبهم.

(وَمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ) أي: وافتراؤهم في اتخاذهم إياهم آلهة، وقد خابوا وخسروا في عبادتهم لها، واعتمادهم عليها.

قوله تعالى: {فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللهِ قُرْبَانًا آلِهَةً} [الأحقاف:٢٨]، أي:" فهلا نصر هؤلاء الذين أهلكناهم من الأمم الخالية آلهتُهم التي اتخذوا عبادتها قربانًا يتقربون بها إلى ربهم؛ لتشفع لهم عنده".

قال مقاتل:" يقول: فهلا منعتهم آلهتهم من العذاب الذي نزل بهم".

قال ابن كثير:" أي: فهلا نصروهم عند احتياجهم إليهم".

قال الشوكاني:" أي: فهلا نصرهم آلهتهم التي تقربوا بها بزعمهم إلى الله لتشفع لهم، حيث قالوا: هؤلاء شفعاؤنا عند الله ومنعتهم من الهلاك الواقع بهم".

قال الطبري:" يقول جلّ ثناؤه: فلولا نصر هؤلاء الذين أهلكناهم من الأمم الخالية قبلهم أوثانهم وآلهتهم التي اتخذوا عبادتها قربانا يتقرّبون بها فيما زعموا إلى ربهم منا إذ جاءهم بأسنا، فتنقذهم من عذابنا إن كانت تشفع لهم عند ربهم كما يزعمون".

قال الطبري:" وهذا احتجاج من الله لنبيه محمد ﷺ على مُشركي قومه، يقول لهم: لو كانت آلهتكم التي تعبدون من دون الله تغني عنكم شيئا، أو تنفعكم عند

=

=

الله كما تزعمون أنكم إنما تعبدونها، لتقرّبكم إلى الله زلفى، لأغنت عمن كان قبلكم من الأمم التي أهلكتها بعبادتهم إياها، فدفعت عنها العذاب إذا نزل، أو لشفعت لهم عند ربهم، فقد كانوا من عبادتها على مثل الذي عليه أنتم، ولكنها ضرتهم ولم تنفعهم".

قال الكسائي: "القربان كل ما يتقرب به إلى الله تعالى من طاعة، ونسكة، والجمع قرابين، كالرهبان والرهابين".

قال السمعاني:" قوله: {قربانا} إنما قال ذلك؛ لأنهم كانوا يقولون إن عبادتنا لها تقربنا إلى الله".

قال ابن قتيبة:" أي: اتخذوهم آلهةً يتقرَّبون بهم إلى الله".

قوله تعالى: {بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ} [الأحقاف:٢٨]، أي:"، بل ضلَّت عنهم آلهتهم، فلم يجيبوهم، ولا دافعوا عنهم".

قال مقاتل:" يعني: بل ضلت عنهم الآلهة فلم تنفعهم عند نزول العذاب بهم".

قال ابن كثير:" أي: بل ذهبوا عنهم أحوج ما كانوا إليهم".

قال الطبري:" يقول: بل تركتهم آلهتهم التي كانوا يعبدونها، فأخذت غير طريقهم، لأن عبدتها هلكت، وكانت هي حجارة أو نحاسا، فلم يصبها ما أصابهم ودعوها، فلم تجبهم، ولم تغثهم، وذلك ضلالها عنهم، وذلك إفكهم، يقول ﷻ هذه الآلهة التي ضلَّت عن هؤلاء الذين كانوا يعبدونها من دون الله عند نزول بأس الله بهم، وفي حال طمعهم فيها أن تغيثهم، فخذلتهم".

قوله تعالى: {وَذَلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ} [الأحقاف:٢٨]، أي:" وذلك كذبهم وما كانوا يَفْتَرون في اتخاذهم إياهم آلهة".

قال مقاتل:" {وَذَلِكَ إِفْكُهُمْ}، يعني: كذبهم بأنها آلهة، {وَمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ} فى قولهم من الشرك".

=

وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنْصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ (٢٩).

{و} اذكر {إِذْ صَرَفْنَا} أَمَلْنَا {إِلَيْك نَفَرًا مِنْ الْجِنّ} جِنّ نَصِيبِينَ بِالْيَمَنِ أَوْ جِنّ نِينَوَى وَكَانُوا سَبْعَة أَوْ تِسْعَة وَكَانَ ﷺ بِبَطْنِ نَخْل يُصَلِّي بِأَصْحَابِهِ الْفَجْر رَوَاهُ الشَّيْخَانِ {يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآن فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا} أَيْ قَالَ بَعْضهمْ لِبَعْضٍ

=

قال ابن كثير:" {وَذَلِكَ إِفْكُهُمْ}، أي: كذبهم، {وَمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ}، أي: وافتراؤهم في اتخاذهم إياهم آلهة، وقد خابوا وخسروا في عبادتهم لها، واعتمادهم عليها".

قال الطبري:" هو كذبهم الذي كانوا يكذّبون، ويقولون به هؤلاء آلهتنا وما كانوا يفترون، يقول: وهو الذي كانوا يفترون، فيقولون: هي تقرّبنا إلى الله زُلفى، وهي شفعاؤنا عند الله".

قال الثعلبي:" أي: كذبهم الذي كانوا يقولون: إنها تقربهم إلى الله تعالى، وتشفع لهم عنده".

عن ابن عباس: " {وَذَلِكَ إِفْكُهُمْ} أي صرفهم، ونحو هذا في القرآن: {وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ} ".

عن ابن عباس:" أنه كان يقرؤها: «وَذَلِكَ أَفْكُهُمْ»، -يعني: بفتح الألف والكاف-، وقال: أضلهم.

قال الزجاج:" أي: دعاؤهم آلهتهم هُوَ إفكُهُمْ، ويقرأ «أَفَكَهُمْ»، بمعنى: وذلك كذبُهُمْ وَكُفْرُهُمْ، والأفك والأَفَكَ مثل النَجْس والنجَسُ، ويقرأ: «أَفَكُهُم»، أي: ذلك جَعَلَهُم ضلالًا كافرين، أي: صَرَفَهُمْ عنِ الحق، ويقرأ: «آفَكَهُمْ»، أَيْ: جَعَلَهُمْ يأفكونَ، كما تقول: ذلك أكفرهم وأضلهُم".

{أَنْصِتُوا} اصْغَوْا لِاسْتِمَاعِهِ {فَلَمَّا قُضِيَ} فُرِغَ مِنْ قِرَاءَته {وَلَّوْا} رَجَعُوا {إِلَى قَوْمهمْ مُنْذِرِينَ} مُخَوِّفِينَ قَوْمهمْ الْعَذَاب إنْ لَمْ يُؤْمِنُوا وَكَانُوا يَهُودًا وَقَدْ أَسْلَمُوا.

قَالُوا يَاقَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ (٣٠).

{قَالُوا يَا قَوْمنَا إنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا} هُوَ الْقُرْآن {أُنْزِلَ مِنْ بَعْد مُوسَى مُصَدِّقًا لِمَا بَيْن يَدَيْهِ} أَيْ تَقَدُّمه كَالتَّوْرَاةِ {يَهْدِي إلَى الْحَقّ} الْإِسْلَام {وَإِلَى طَرِيق مُسْتَقِيم} أَيْ طَرِيقه.

يَاقَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (٣١).

{يَا قَوْمنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ الله} مُحَمَّدًا ﷺ إلَى الْإِيمَان {وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِر} الله {لَكُمْ مِنْ ذُنُوبكُمْ} أَيْ بَعْضهَا لِأَنَّ مِنْهَا الْمَظَالِم وَلَا تُغْفَر إلَّا بِرِضَا أَصْحَابهَا {وَيُجِرْكُمْ مِنْ عَذَاب أَلِيم} مُؤْلِم.

وَمَنْ لَا يُجِبْ دَاعِيَ اللهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءُ أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (٣٢).

{وَمَنْ لَا يُجِبْ دَاعِي الله فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْض} أَيْ لَا يُعْجِز الله بِالْهَرَبِ منه فيفوته {وليس له} لمن لا يجيب {مِنْ دُونه} أَيْ الله {أَوْلِيَاء} أَنْصَار يَدْفَعُونَ عَنْهُ الْعَذَاب {أُولَئِكَ} الَّذِينَ لَمْ يُجِيبُوا {فِي ضلال مبين} بين ظاهر[1].

(١) ذكر سبب النزول.

عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه؛ قال: هبطوا على النبي ﷺ وهو يقرأ القرآن ببطن =

=

نخلة، فلما سمعوه؛ قالوا: أنصتوا، قال: صه، وكانوا تسعة أحدهم زوبعة؛ فأنزل الله ﷻ تبارك وتعالى: {وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنْصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ (٢٩)}.

أخرجه ابن أبي شيبة؛ كما في "تفسير القرآن العظيم" (٤/ ١٧٦) -ومن طريقه الحاكم في "المستدرك" (٢/ ٤٥٦)، والبيهقي في "دلائل النبوة" (٢/ ٢٢٨)، وأبو نعيم في "دلائل النبوة" (ص ٣٠٤) -: حدثنا أبو أحمد الزبيري حدثنا سفيان عن عاصم عن زر عن عبد الله بن مسعود به.

وهذا سند حسن؛ رجاله ثقات رجال الصحيح، وفي عاصم كلام معروف لا ينزل عن رتبة الحسن.

وقال الحاكم: "هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه"، ووافقه الذهبي.

وذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٧/ ٤٥٢) وزاد نسبته لابن منيع وابن مردويه.

* قوله تعالى: (وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ) أي: واذكر إذ صرفنا إليك، أي وجهنا إليك نفرًا من الجن يستمعون إلى القرآن وأنت تقرأ.

والنفر العدد ما بين السبعة إلى التسعة، وكان ذلك في صلاة الصبح ببطن مكة بين مكة والطائف.

عن ابن عباس قال (انْطَلَقَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فِى طَائِفَةٍ مِنْ أَصْحَابِهِ عَامِدِينَ إِلَى سُوقِ عُكَاظٍ وَقَدْ حِيلَ بَيْنَ الشَّيَاطِينِ وَبَيْنَ خَبَرِ السَّمَاءِ وَأُرْسِلَتْ عَلَيْهِمُ الشُّهُبُ فَرَجَعَتِ الشَّيَاطِينُ إِلَى قَوْمِهِمْ فَقَالُوا مَا لَكُمْ قَالُوا حِيلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَ خَبَرِ السَّمَاءِ وَأُرْسِلَتْ عَلَيْنَا الشُّهُبُ. قَالُوا مَا ذَاكَ إِلاَّ مِنْ شَىْءٍ حَدَثَ فَاضْرِبُوا مَشَارِقَ الأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا فَانْظُرُوا مَا هَذَا الَّذِى حَالَ بَيْنَنَا وَبَيْنَ خَبَرِ السَّمَاءِ. فَانْطَلَقُوا يَضْرِبُونَ مَشَارِقَ الأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا فَمَرَّ النَّفَرُ الَّذِينَ أَخَذُوا نَحْوَ تِهَامَةَ - وَهُوَ بِنَخْلٍ - عَامِدِينَ إِلَى سُوقِ عُكَاظٍ وَهُوَ يُصَلِّى بِأَصْحَابِهِ صَلاَةَ الْفَجْرِ فَلَمَّا سَمِعُوا الْقُرْآنَ اسْتَمَعُوا لَهُ

=

=

وَقَالُوا هَذَا الَّذِى حَالَ بَيْنَنَا وَبَيْنَ خَبَرِ السَّمَاءِ. فَرَجَعُوا إِلَى قَوْمِهِمْ فَقَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا يَهْدِى إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا فَأَنْزَلَ اللهُ ﷻ عَلَى نَبِيِّهِ مُحَمَّدٍ ﷺ (قُلْ أُوحِىَ إِلَىَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ) متفق عليه.

تلك كانت بداية معرفة الجن برسالة محمد ﷺ، استمعوا لقراءة القرآن بدون علم الرسول ﷺ، فآمن فريق منهم وانطلقوا دعاة هداة.

ثم جاءت وفود الجن بعد ذلك تتلقى العلم من الرسول ﷺ، وأعطاهم الرسول ﷺ من وقته، وعلمهم مما علمه الله، وقرأ عليهم القرآن، وبلغهم خبر السماء، وكان ذلك في مكة قبل الهجرة.

روى مسلم في صحيحه عن علقمة قال: قلت لابن مسعود، هل صحب رسول الله ﷺ ليلة الجن منكم أحد؟ فقال: قَالَ لاَ وَلَكِنَّا كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ ذَاتَ لَيْلَةٍ فَفَقَدْنَاهُ فَالْتَمَسْنَاهُ فِى الأَوْدِيَةِ وَالشِّعَابِ فَقُلْنَا اسْتُطِيرَ أَوِ اغْتِيلَ - قَالَ - فَبِتْنَا بِشَرِّ لَيْلَةٍ بَاتَ بِهَا قَوْمٌ فَلَمَّا أَصْبَحْنَا إِذَا هُوَ جَاءٍ مِنْ قِبَلِ حِرَاءٍ - قَالَ - فَقُلْنَا يَا رَسُولَ اللهِ فَقَدْنَاكَ فَطَلَبْنَاكَ فَلَمْ نَجِدْكَ فَبِتْنَا بِشَرِّ لَيْلَةٍ بَاتَ بِهَا قَوْمٌ. فَقَالَ «أَتَانِى دَاعِى الْجِنِّ فَذَهَبْتُ مَعَهُ فَقَرَأْتُ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنَ». قَالَ فَانْطَلَقَ بِنَا فَأَرَانَا آثَارَهُمْ وَآثَارَ نِيرَانِهِمْ وَسَأَلُوهُ الزَّادَ فَقَالَ: لَكُمْ كُلُّ عَظْمٍ ذُكِرَ اسْمُ اللهِ عَلَيْهِ يَقَعُ فِى أَيْدِيكُمْ أَوْفَرَ مَا يَكُونُ لَحْمًا وَكُلُّ بَعَرَةٍ عَلَفٌ لِدَوَابِّكُمْ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ «فَلاَ تَسْتَنْجُوا بِهِمَا فَإِنَّهُمَا طَعَامُ إِخْوَانِكُمْ)

وفي رواية عن الطبري عن ابن مسعود (بتّ الليلة أقرأ على الجن واقفًا بالحجون).

ومما قرأه عليهم ﷺ سورة الرحمن، يقول ﷺ (لقد قرأتها - يعني سورة الرحمن - على الجن ليلة الجن، فكانوا أحسن مردودًا منكم، كنت كلما أتيت على قوله (فبأي آلاء ربكما تكذبان) قالوا: ولا بشيء من نعمك ربنا نكذب، فلك الحمد) رواه البزار والحاكم.

=

=

ولم تكن تلك الليلة هي الليلة الوحيدة بل تكرر لقاؤه ﷺ بالجن بعد ذلك، وقد ساق ابن كثير في تفسير سورة الأحقاف الأحاديث التي وردت بشأن اجتماعه ﷺ بالجن.

وقد ورد في بعض الروايات في صحيح البخاري أن بعض الجن الذين أتوه كانوا من ناحية من نواحي اليمن من مكان يسمى (نصيبين) فقد روى البخاري عن أبي هريرة. عن النبي ﷺ قال (أتاني وفد نصيبين - ونعم الجن - فسألوني الزاد، فدعوت الله لهم ألا يمروا بعظم ولا روثة إلا وجدوا عليها طعامًا).

(فَلَمَّا حَضَرُوهُ) أي: فلما حضرو القرآن عند تلاوته.

قَالُوا أَنْصِتُوا) أي: وصى بعضهم بعضًا بذلك، وهذا أدب منهم.

- والإنصات السكوت.

(فَلَمَّا قُضِيَ) أي: فرغ من قراءته.

وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ) أي: انصرفوا قاصدين إلى من وراءهم من قومهم منذرين لهم عن مخالفة القرآن ومحذرين لهم، وهذا يدل على أنهم آمنوا بالنبي ﷺ.

قوله تعالى: {وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ} [الأحقاف:٢٩]، أي:" واذكر -أيها الرسول- حين بعثنا إليك، طائفة من الجن يستمعون منك القرآن".

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره مقرّعا كفار قريش بكفرهم بما آمنت به الجنّ {وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ} يا محمد {نَفَرًا مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ}".

قال مقاتل:" يعني: وجهنا إليك يا محمد نفرا من الجن {يستمعون القرآن}".

قال الزمخشري: أي:" أملناهم إليك وأقبلنا بهم نحوك".

وقرئ: «صرفنا»، بالتشديد، لأنهم جماعة.

=

=

وفي قوله تعالى: {وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ} [الأحقاف:٢٩]، قولان:

أحدهما: أنهم صرفوا عن استراق سمع السماء برجوم الشهب ولم يكونوا بعد عيسى صرفوا عنه إلا عند مبعث النبي -ﷺ-، فقالوا: ما هذا الذي حدث في الأرض؟ فضربوا في الأَرض حتى وقفوا على النبي -ﷺ- ببطن نخلة عائدًا إلى عكاظ وهو يصلي الفجر، فاستمعوا القرآن ونظروا كيف يصلي ويقتدي به أصحابه، فرجعوا إلى قومهم فقالوا إنا سمعنا قرآنا عجبًا، قاله ابن عباس، وسعيد بن جبير.

الثاني: أنهم صرفوا عن بلادهم بالتوفيق هداية من الله لهم حتى أتوا نبي الله ببطن نخلة.

واختلفوا في الموضع الذي تلا عليهم رسول الله ﷺ فيه القرآن، على قولين:

أحدهما: أنه -ﷺ- قرأ عليهم بالحَجون. قاله ابن مسعود.

وعن ابن مسعود، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: "بِتُّ اللَّيْلَةَ أَقْرأُ عَلى الجِنّ رُبُعا بالحَجُونِ".

الثاني: أنه-ﷺ- قرأ عليهم بنخلة. قاله ابن عباس، والزبير، ومجاهد، وعمر بن عبدالعزيز.

عن ابن عباس "أن النفر الذين أتوا رسول الله ﷺ من جنّ نصيبين أتوه وهو بنخلة".

قال مجاهد:" لقيهم بنخلة ليلتئذ". وفي رواية: «لقيهم النبي ﷺ ليلتئذ بنخلة».

قال الزبير:" بنخلة، قال: ورسول الله ﷺ يصلي العشاء الآخرة كادوا يكونون عليه لبدا". قال سفيان: "اللبد: بعضهم على بعض، كاللبد بعضه على بعض".

وفيهم أربعة أقوال:

=

=

أحدها: أنهم جن من أهل نصيبين، قاله ابن عباس، ومقاتل.

قال مقاتل: كانوا" من أشراف الجن وساداتهم من أهل اليمن من قرية يقال لها: نصيبين، ورسول الله ﷺ ببطن نخلة يقرأ القرآن في صلاة الفجر".

الثاني: أنهم من أهل نينوى، قاله قتادة، وعمر بن عبدالعزيز.

قال عمر بن عبد العزيز:" أما الجن الذين لقوه بنخلة فجن نينوى، وأما الجن الذين لقوه بمكة فجن نصيبين".

الثالث: أنهم من جزيرة الموصل، قاله عكرمة.

الرابع: من أهل نجران، قاله مجاهد.

واختلف في عددهم على أقوال:

أحدها: أنهم كانوا اثني عشر ألفًا من جزيرة الموصل، قاله عكرمة.

قال عكرمة:" هم اثنا عشر ألفا جاءوا من جزيرة الموصل، فقال النبي ﷺ لابن مسعود كاد أن يذهب، فذكر قول رسول الله ﷺ فلم يبرح، فقال له النبي ﷺ: «لو ذهبت ما التقينا إلى يوم القيامة»".

الثاني: انهم كانوا خمسة عشر نفرا. قاله ابن مسعود.

قال ابن مسعود:" استتبعني رسول الله ﷺ فقال: "إن نفرا من الجن - خمسة عشر بني إخوة وبني عم - يأتونني الليلة، فأقرأ عليهم القرآن"، فانطلقت معه إلى المكان الذي أراد، فخط لي خطا وأجلسني فيه، وقال لي: "لا تخرج من هذا". فبت فيه حتى أتاني رسول الله ﷺ مع السحر في يده عظم حائل وروثة حُمَمة فقال لي: "إذا ذهبت إلى الخلاء فلا تستنج بشيء من هؤلاء". قال: فلما أصبحت قلت: لأعلمن علمي حيث كان رسول الله ﷺ قال، فذهبت فرأيت موضع مبرك ستين بعيرا".

الثالث: أنهم كانوا تسعة نفر، أحدهم: زَوْبعة، قاله زر بن حبيش.

=

=

وقال مقاتل: كانوا" تسعة نفر من أشراف الجن وساداتهم".

الرابع: أنهم كانوا سبعة نفر من أهل نصيبين، فجعلهم رسول الله ﷺ رسلا إلى قومهم. قاله ابن عباس.

الخامس: أنهم كانوا ثلاثمائة. حكاه ابن كثير.

السادس: أنهم كانوا سبعة نفر، ثلاثة من أهل حران، وأربعة من أهل نصيبين، وكانت أسماؤهم حي وحسي ومسي، وشاصر وناصر، والأرد وإبيان والأحقم، قاله مجاهد.

قال الزمخشري:" والنفر: دون العشرة. ويجمع أنفارا".

وذكر أبو حمزة الثمالي:" أن هذا الحي من الجن كان يقال لهم: بنو الشيصبان، وكانوا أكثر الجن عددا وأشرفهم نسبا، وهم كانوا عامة جنود إبليس".

واختلف في علم النبي -ﷺ- على قولين:

أحدهما: أنه ما شعر بهم رسول الله -ﷺ- حتى أوحى الله إليه فيهم وأخبره عنهم، قاله ابن عباس، والحسن.

قال الحسن:" ما شعر بهم رسول الله ﷺ حتى جاءوا، فأوحى الله ﷻ إليه فيهم، وأخبر عنهم".

الثاني: أن الله قد كان أعلمه بهم قبل مجيئهم، إذ أمر نبيّ الله ﷺ أن يقرأ عليهم القرآن، وأنهم جمعوا له بعد أن تقدّم الله إليه بإنذارهم، وأمره بقراءة القرآن عليهم.

قوله تعالى: {فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنْصِتُوا} [الأحقاف:٢٩]، أي:" فلما حضروا، ورسول الله ﷺ يقرأ، قال بعضهم لبعض: أنصتوا؛ لنستمع القرآن".

قال الطبري:" يقول: فلما حضر هؤلاء النفر من الجنّ الذين صرفهم الله إلى رسوله نبيّ الله ﷺ".

قال الواحدي:" {فلما حضروه} قال بعضهم لبعض: {أنصتوا} أَيْ: اسكتوا".

=

=

قال الزمخشري:" {فَلَمَّا حَضَرُوهُ} الضمير للقرآن. أي: فلما كان بمسمع منهم. أو لرسول الله ﷺ".

قال ابن عطية: قوله: {فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنْصِتُوا} فيه تأدب مع العلم وتعليم كيف يتعلم".

عن زر قال: أنزل على النبي ﷺ وهو ببطن نخلة وهو يقرأ القرآن فلما حضروه قالوا أنصتوا، قالوا: صه. قال: وكانوا سبعة أحدهم زوبعة".

قال قتادة:" قد علم القوم أنهم لن يعقلوا حتى ينصتوا".

قوله تعالى: {فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ} [الأحقاف:٢٩]، أي:" فلما فرغ الرسول من تلاوة القرآن، وقد وعَوه وأثَّر فيهم، رجعوا إلى قومهم منذرين ومحذرين لهم بأس الله، إن لم يؤمنوا به".

قال الزجاج:" أي: فلما تلى عليهم القرآن حتى فرَغ منه، {وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِين}".

قال الواحدي:" أَيْ: فرغ من تلاوة القرآن رجعوا {إلى قومهم منذرين} وقالوا لهم ما قصَّ الله في كتابه".

قال البغوي:"فلما فرغ من تلاوته، انصرفوا إلى قومهم، مخوفين داعين بأمر رسول الله ﷺ".

قال ابن كثير:": {فَلَمَّا قُضِيَ}، أي: فرغ. كقوله: {فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلاةُ} [الجمعة: ١٠]، {فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ} [فصلت: ١٢]، {فَإِذَا قَضَيْتُمْ مَنَاسِكَكُمْ} [البقرة: ٢٠٠] {وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ}، أي: رجعوا إلى قومهم فأنذروهم ما سمعوه من رسول الله ﷺ، كقوله: {لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ} [التوبة: ١٢٢].

وقد استدل بهذه الآية على أنه في الجن نُذُرٌ، وليس فيهم رسل: ولا شك أن الجن

=

=

لم يبعث الله منهم رسولا؛ لقوله: {وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلا رِجَالا نُوحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى} [يوسف: ١٠٩]، وقال {وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الأَسْوَاقِ} [الفرقان: ٢٠]، وقال عن إبراهيم الخليل: {وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ} [العنكبوت: ٢٧]. فكل نبي بعثه الله بعد إبراهيم فمن ذريته وسلالته، فأما قوله تعالى في سورة الأنعام: {يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ} [الأنعام: ١٣٠]، فالمراد من مجموع الجنسين، فيصدق على أحدهما وهو الإنس، كقوله: {يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ} [الرحمن: ٢٢] أي: أحدهما".

وقرأ حبيب بن عبد الله بن الزبير وأبو مجلز: «قضى» على بناء الفعل للفاعل، أي: قضى محمد القراءة.

قال ابن عمر وجابر بن عبد الله:" قرأ عليهم سورة الرحمن، فكان إذا قال: {فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ} [الرحمن: ١٣] قالوا: لا بشيء من آلائك نكذب، ربنا لك الحمد، ولما ولت هذه الجملة تفرقت على البلاد منذرة للجن".

قال قتادة: "ما أسرع ما عقل القوم".

قال ابن عطية: "فهنالك وقعت قصة سواد وشصار وخنافر وأشباههم صلى الله على محمد عبده ورسوله".

روي عن أبي إسحاق، عن البراء -رضي الله عنه- قال: "بينما عمر بن الخطاب يخطب الناس على منبر رسول الله ﷺ، إذ قال: أيها الناس، أفيكم سواد بن قارب؟ قال: فلم يجبه أحد تلك السنة، فلما كانت السنة المقبلة قال: أيها الناس، أفيكم سواد بن قارب؟ قال: فقلت: يا أمير المؤمنين، وما سواد بن قارب؟ قال: فقال له عمر: إن سواد بن قارب كان بَدءُ إسلامه شيئا عجيبا، قال: فبينا نحن كذلك إذ طلع سواد بن قارب، قال: فقال له عمر: يا سواد حدثنا ببدء إسلامك، كيف كان؟ قال سواد:

=

=

فإني كنت نازلا بالهند، وكان لي رَئِيّ من الجن، قال: فبينا أنا ذات ليلة نائم، إذ جاءني في منامي ذلك. قال: قم فافهم واعقل إن كنت تعقل، قد بعث رسول من لؤي بن غالب، ثم أنشأ يقول:

عَجِبتُ للجنِّ وأَنْجَاسِها... وشَدّها العيسَ بأَحْلاسهَا

تَهْوي إلى مَكةَ تَبْغي الهُدَى... مَا مُؤمنو الجِنِّ كَأَرْجَاسهَا

فَانْهَض إلى الصَّفْوةِ من هَاشمٍ... واسْمُ بعينَيْك إلى رَاسِهَا

قال: ثم أنبهني فأفزعني، وقال: يا سواد بن قارب، إن الله بعث نبيًا فانهض إليه تهتد وترشد. فلما كان من الليلة الثانية أتاني فأنبهني، ثم أنشأ يقول كذلك:

عَجِبتُ للجنِّ وَتَطْلابِها... وَشَدهَا العِيسَ بأقْتَابِهَا

تَهْوي إلى مَكّةَ تَبْغي الهُدَى... ليسَ قُداماها كَأذْنَابِها

فانهض إلى الصَّفْوةِ من هَاشمٍ... واسْمُ بعَيْنَيك إلى نَابِها

فلما كان في الليلة الثالثة أتاني فأنبهني، ثم قال:

عَجِبتُ للجِنّ وَتَخْبارها... وَشَدَّها العِيسَ بأكْوَارهَا

تَهْوي إلى مَكَّةَ تَبْغِي الهُدَى... لَيْسَ ذَوُو الشَّر كَأَخْيَارهَا

فَانْهَضْ إلى الصَّفْوةِ من هَاشمٍ... مَا مُؤمِنو الجِنِّ كَكُفَّارهَا

قال: فلما سمعته تكرر ليلة بعد ليلة، وقع في قلبي حب الإسلام من أمر رسول الله ﷺ ما شاء الله، قال: فانطلقت إلى رحلي فشددته على راحلتي، فما حللت عليه نسعة ولا عقدت أخرى حتى أتيت رسول الله ﷺ، فإذا هو بالمدينة - يعني مكة - والناس عليه كعرف الفرس، فلما رآني النبي ﷺ قال: "مرحبا بك يا سواد بن قارب، قد علمنا ما جاء بك". قال: قلت: يا رسول الله، قد قلت شعرا، فاسمعه مني. قال سواد: فقلت:

أَتَانِي رئيَّ بعد لُيَلٍ وهَجْعةٍ... وَلم يَكُ فيما قَدْ بَلَوَتُ بكَاذبِ

=

=

ثَلاثٍ لَيَال قَولُه كُلَّ لَيْلَة:... أتاك رسول من لُؤيّ بن غَالبِ
فَشَمَّرتُ عن سَاقي الإزَارَ ووسطت... بي الدَّعلب الوَجْنَاءُ عند السَّبَاسبِ
فَأشْهَدُ أنّ اللهَ لا شَيء غَيْرُه... وَأَنّكَ مَأْمُونٌ عَلَى كُلِّ غَائبِ
وأَنَّك أَدْنَى المُرْسَلِينَ شَفَاعَة... إلى اللهِ يا ابنَ الأكرَمينَ الأطايبِ
فمُرنَا بمَا يَأتِيكَ يا خَيرَ مُرْسل... وإنْ كَانَ فِيمَا جَاءَ شَيبُ الذّوَائبِ
وَكُنْ لي شَفِيعا يَومَ لا ذُو شَفَاعةٍ... سِوَاكَ بِمغْنٍ عن سَوَاد بن قَاربِ

قال: فضحك رسول الله ﷺ حتى بدت نواجذه، وقال لي: "أفلحت يا سواد": فقال له عمر: هل يأتيك رئيك الآن؟ فقال: منذ قرأت القرآن لم يأتني، ونعم العوض كتاب الله من الجن".

(قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى) يعنون القرآن، أي: سمعنا كتابًا مجيدًا منزلًا على رسول من بعد موسى، وفي الكلام محذوف، والنقدير: فوصلوا إلى قومهم فقالوا يا قومنا.

- قال ابن كثير: ولم يذكروا عيسى، لأن عيسى عليه السلام أنزل عليه الإنجيل فيه مواعظ وترقيقات وقليل من التحريم والتحليل، وهو في الحقيقة كالمتمم لشريعة التوراة، فالعمدة هو التوراة.

(مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ) أي: لما قبله من الكتب المنزلة، وتصديقه لما بين يديه له وجهان:

الوجه الأول: أنه حاكمًا لها بالصدق، أي: حكم بأنها صدق من عند الله عز وجل.

الوجه الثاني: أنه صدقها لأنها أخبرت به فوقع مصدقًا لها، فإن الكتب السابقة أخبرت بهذا القرآن، وأن سينزل، ووصفت النبي ﷺ الذي سينزل عليه بأوصافه التي كانوا يعرفونه بها كما يعرفون أبناءهم.

(يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ) أي: إلى الدين الحق، والحق الصواب في مطلوب وخبر.

=

=

(وَإِلَى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ) موصل إلى الله، وإلى جنته من العلم بالله وبأحكامه الدينية وأحكام الجزاء.

قوله تعالى: {قَالُوا يَاقَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى} [الأحقاف:٣٠]، أي:" قالوا: يا قومنا إنا سمعنا كتابًا مجيدًا منزَّلًا على رسولٍ من بعد موسى".

قال ابن كثير:" ولم يذكروا عيسى؛ لأن عيسى، عليه السلام، أنزل عليه الإنجيل فيه مواعظ وترقيقات وقليل من التحليل والتحريم، وهو في الحقيقة كالمتمم لشريعة التوراة، فالعمدة هو التوراة؛ فلهذا قالوا: {أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى}، وهكذا قال ورقة بن نوفل، حين أخبره النبي صلى الله عليه وسلم بقصة نزول جبريل -عليه السلام- عليه أول مرة، فقال: بَخ بَخ، هذا الناموس الذي كان يأتي موسى، يا ليتني أكون فيها جَذَعًا".

قال السمعاني:" يحتمل أنهم لم يكونوا سمعوا بذكر عيسى، ويحتمل أنهم سمعوا بذكر موسى وعيسى جميعا إلا أنهم ذكروا موسى لأنه أقدم؛ ولأنه عامة ما في الإنجيل من الأحكام موافقة لما في التوراة إلا في أشياء معدودة".

قال ابن عطية:" وخصصوا مُوسى عليه السلام لأحد أمرين: إما لأن هذه الطائفة كانت تدين بدين اليهود، وإما لأنهم كانوا يعرفون أن موسى قد ذكر محمدا وبشر به، فأشاروا إلى موسى من حيث كان هذا الأمر مذكورا في توراته".

وقال عطاء: " كان دينهم اليهودية، لذلك قالوا: {إنا سمعنا كتابا أنزل من بعد موسى}".

قوله تعالى: {مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ} [الأحقاف:٣٠]، أي:" مصدقًا لما قبله من كتب الله التي أنزلها على رسله".

قال مجاهد:" يعني: «لما قبله من كتاب أو رسول».

قال الطبري:" يقول: يصدق ما قبله من كتب الله التي أنزلها على رُسله".

قال ابن كثير:" أي: من الكتب المنزلة قبله على الأنبياء".

=

=

قال الزجاج:" أي: يُصَدِّق جَمِيعَ الكُتب التي تقدمَتْهُ والأنبياء الذين أَتَوْا بها، وفي هذا دليل أن النبي ﷺ بعث إلى الإنس والجنّ".

قوله تعالى: {يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ} [الأحقاف:٣٠]، أي:" يهدي إلى الحق والصواب، وإلى طريق صحيح مستقيم".

قال الطبري:" يقول: يرشد إلى الصواب، ويدّل على ما فيه لله رضا، وإلى طريق لا اعوجاج فيه، وهو الإسلام".

قال ابن كثير:" {يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ}، أي: في الاعتقاد والإخبار، {وَإِلَى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ} في الأعمال، فإن القرآن يشتمل على شيئين خبر وطلب، فخبره صدق، وطلبه عدل، كما قال: {وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلا} [الأنعام: ١١٥]، وقال {هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ} [التوبة: ٣٣]، فالهدى هو: العلم النافع، ودين الحق: هو العمل الصالح. وهكذا قالت الجن: {يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ} في الاعتقادات، {وَإِلَى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ}، أي: في العمليات".

قال ابن عطية:" و «الْحَقِّ» و «الطريق المستقيم» هنا بمعنى يتقارب لكن من حيث اختلف اللفظ، وربما كان الْحَقِّ أعم، وكأن أحدهما قد يقع في مواضع لا يقع فيها الآخر".

عن قتادة أنه قرأ:" {قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ}، فقال: ما أسرع ما عقل القوم، ذُكر لنا أنهم صُرِفوا إليه من نينوى".

عن مجاهد، {صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ}: " يعني: الإسلام: الدين الحق".

عن مجاهد في قوله: " {صراط مستقيم}، قال: الحق".

عن عاصم الأحول، عن أبي العالية:"الصراط المستقيم، قال: هو النبي ﷺ وصاحباه من بعده. قال عاصم: فذكرنا ذلك للحسن. فقال صدق أبو العالية

=

=

ونصح".
(يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللهِ) يعنون محمدًا أو القرآن، أي: الذي لا يدعو إلا إلى ربه، لا يدعوكم إلى غرض من أغراضه ولا هوى، وإنما يدعوكم إلى ربكم.
(وَآمِنُوا بِهِ) أي: آمنوا بعموم رسالته وبكل ما جاء به من الهدى ودين الحق.
(يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ) المغفرة: التجاوز عن الذنب مع الستر، والمعنى: يمحو الله عنكم الذنوب والآثام ويسترها.
(وَيُجِرْكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ) أي: ويخلّصكم وينجيكم من عذاب النار.
قوله تعالى: {يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللهِ وَآمِنُوا بِهِ} [الأحقاف:٣١]، أي:" يا قومنا أجيبوا رسول الله محمدًا إلى ما يدعوكم إليه، وصدِّقوه واعملوا بما جاءكم به".
قال الطبري:" قالوا: أجيبوا رسول الله محمدا إلى ما يدعوكم إليه من طاعة الله، وصدّقوه فيما جاءكم به وقومه من أمر الله ونهيه، وغير ذلك مما دعاكم إلى التصديق به".
قال ابن كثير:" {يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللهِ} فيه دلالة على أنه تعالى أرسل محمدًا صلوات الله وسلامه عليه إلى الثقلين الإنس والجن حيث دعاهم إلى الله، وقرأ عليهم السورة التي فيها خطاب الفريقين، وتكليفهم ووعدهم ووعيدهم، وهي سورة الرحمن؛ ولهذا قال {أَجِيبُوا دَاعِيَ اللهِ وَآمِنُوا بِهِ}".
قال بن عباس: "فاستجاب لهم من فوقهم نحو من سبعين رجلا من الجن، فرجعوا إلى رسول الله، فوافقوه بالبطحاء، فقرأ عليهم القرآن، وأمرهم ونهاهم".
قال سهل:" لا يجيب الداعي إلا من سمع النداء، فوفق للخيرات وأيقن، وإلا فمن يحسن إجابة الدعوة. وقال: إن في قلب كل مؤمن داعيًا يدعوه إلى رشده، فالسعيد من سمع دعاء الداعي فاتبعه".
قال الماتريدي:" فيه دلالة لزوم العمل بخبر الواحد؛ لأن النفر الذين حضروا
=

=

رسول الله ﷺ من الجن سمعوا القرآن منه وصدقوه كانوا قليلي العدد لما رجعوا إلى قومهم فإنما يرجع كل إلى قومه، وقد يحتمل الاجتماع والتواصل على ذلك، ودعا كل قومه إلى إجابة داعي الله - تعالى - وحذرهم مخالفته، وأنه يحتمل ما ذكرنا من الأفراد والآحاد، دل أن خبر الواحد حجة في حق العمل، وهو ما قال ﷻ: {فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ}، فكان العمل بخبر الآحاد والأفراد ظاهرًا مشهورًا في الإنس والجن؛ حيث ذكر ما ذكرنا وألزمهم الإجابة والحذر، والله أعلم. ثم قوله - تعالى -: {أَجِيبُوا دَاعِيَ اللهِ} يحتمل الإجابة له في الاعتقاد والإيمان به".

قوله تعالى: {يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ} [الأحقاف:٣١]، أي:" يغفر الله لكم من ذنوبكم".

قال الطبري:" يقول: يتغمد لكم ربكم من ذنوبكم فيسترها لكم ولا يفضحكم بها في الآخرة بعقوبته إياكم عليها".

قال ابن كثير:" قيل: إن «من» هاهنا زائدة، وفيه نظر؛ لأن زيادتها في الإثبات قليل، وقيل: إنها على بابها للتبغيض".

قال سلمة بن وهرام -صاحب طاووس-:" أن الله تبارك وتعالى إنما سمى نفسه «العفو»، ليعفو، و «الغفور»، ليغفر".

قوله تعالى: {وَيُجِرْكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ} [الأحقاف:٣١]، أي:" وينقذكم من عذاب مؤلم موجع".

قال مقاتل:" يعني: ويؤمنكم من عذاب وجيع".

قال الطبري:" يقول: وينقذكم من عذاب موجع إذا أنتم تبتم من ذنوبكم، وأنبتم من كفركم إلى الإيمان بالله وبداعيه".

قال ابن عطية:" {يَغْفِرْ} معناه: يغفر الله. {وَيُجِرْكُمْ} معناه: يمنعكم ويجعل

=

=

دونكم جوار حفظه حتى لا ينالكم عذاب".

قال ابن كثير:" أي: ويقيكم من عذابه الأليم.

قال أبو العالية:" الأليم: الموجع في القرآن كله"، وروي عن سعيد بن جبير، وأبي مالك، والضحاك، وقتادة، وأبي عمران الجوني، نحو ذلك.

"وقد استدل بهذه الآية من ذهب من العلماء إلى أن الجن المؤمنين لا يدخلون الجنة، وإنما جزاء صالحيهم أن يجاروا من عذاب النار يوم القيامة؛ ولهذا قالوا هذا في هذا المقام، وهو مقام تبجح ومبالغة فلو كان لهم جزاء على الإيمان أعلى من هذا لأوشك أن يذكروه".

عن ابن عباس قال:" لا يدخل مؤمنوا الجن الجنة، لأنهم من ذرية إبليس، ولا تدخل ذرية إبليس الجنة".

عن ليث، قال: "الجن ثوابهم أن يجاروا من النار، ثم يقال لهم: كونوا ترابا مثل البهائم".

عن الضحاك، قال: "الجن يدخلون الجنة ويأكلون ويشربون".

قال ابن كثير:" والحق أن مُؤمِنَهم كمؤمني الإنس يدخلون الجنة، كما هو مذهب جماعة من السلف، وقد استدل بعضهم لهذا بقوله: {لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلا جَانٌّ} [الرحمن: ٧٤]، وفي هذا الاستدلال نظر، وأحسن منه قوله تعالى: {وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ} [الرحمن: ٤٦، ٤٧]، فقد امتن تعالى على الثقلين بأن جعل جزاء محسنهم الجنة، وقد قابلت الجِنّ هذه الآية بالشكر القولي أبلغ من الإنس، فقالوا: "ولا بِشَيء من آلائك ربنا نكذب، فلك الحمد" فلم يكن تعالى ليمتنّ عليهم بجزاء لا يحصل لهم، وأيضا فإنه إذا كان يجازي كافرهم بالنار - وهو مقام عدل - فَلأنْ يجازي مؤمنهم بالجنة - وهو مقام فَضْل - بطريق

=

=

الأولى والأحرى. ومما يدل أيضا على ذلك عمومُ قوله تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نزلا} [الكهف: ١٠٧]، وما أشبه ذلك من الآيات. وقد أفردت هذه المسألة في جزء على حدة، ولله الحمد والمنة. وهذه الجنة لا يزال فيها فضل حتى ينشئ الله لها خلقا، أفلا يسكنها من آمن به وعمل له صالحا؟ وما ذكروه هاهنا من الجزاء على الإيمان من تكفير الذنوب والإجارة من العذاب الأليم، هو يستلزم دخول الجنة؛ لأنه ليس في الآخرة إلا الجنة أو النار، فمن أجير من النار دخل الجنة لا محالة. ولم يرد معنا نص صريح ولا ظاهر عن الشارع أن مؤمني الجن لا يدخلون الجنة وإن أجيروا من النار، ولو صح لقلنا به، والله أعلم. وهذا نوح، عليه السلام، يقول لقومه: {يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى} [نوح: ٤]، ولا خلاف أن مؤمني قومه في الجنة، فكذلك هؤلاء. وقد حكي فيهم أقوال غريبة فعن عُمَر بن عبد العزيز: أنهم لا يدخلون بُحْبُوحَةَ الجنة، وإنما يكونون في رَبَضها وحولها وفي أرجائها. ومن الناس من زعم أنهم في الجنة يراهم بنو آدم ولا يرون بني آدم عكس ما كانوا عليه في الدار الدنيا. ومن الناس من قال: لا يأكلون في الجنة ولا يشربون، وإنما يلهمون التسبيح والتحميد والتقديس، عِوَضا عن الطعام والشراب كالملائكة، لأنهم من جنسهم. وكل هذه الأقوال فيها نظر، ولا دليل عليها".

قوله (وَمَنْ لا يُجِبْ دَاعِيَ اللهِ) هذا ترهيب بعد ترغيب، أي: ومن لم يؤمن بالله ويستجيب لدعوة رسوله.

(فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ) أي: لا يفوت الله ولا يسبقه ولا يقدر على الهرب منه.

(وَلَيْسَ لَهُ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءُ) أي: أنصار يمنعونه من عذاب الله.

(أُولَئِكَ) الذين لا يستجيبون لدعوة الله.

(فِي ضَلالٍ مُبِينٍ) في خسران واضح، إلى هنا آخر كلام الجن الذين سمعوا

=

=

القرآن.

قوله تعالى: {وَمَنْ لَا يُجِبْ دَاعِيَ اللهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ} [الأحقاف:٣٢]، أي:" ومن لا يُجِبْ رسول الله إلى ما دعا إليه فليس بمعجز الله في الأرض إذا أراد عقوبته".

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره مخبرا عن قيل هؤلاء النفر لقومهم: ومن لا يجب أيُّها القوم رسول الله ﷺ محمدا، وداعيه إلى ما بعثه بالدعاء إليه من توحيده، والعمل بطاعته، فليس بمعجز ربه بهربه،

إذا أراد عقوبته على تكذيبه داعيه، وتركه تصديقه وإن ذهب في الأرض هاربا، لأنه حيث كان فهو في سلطانه وقبضته".

قال مقاتل:" {ومن لا يجب داعي الله}، يعني: محمدا ﷺ إلى الإيمان، فليس بسابق الله فيفوته هربا فى الأرض حتى يجزيه بعمله الخبيث".

قال السمعاني:" أي: لا يفوت الله ولا يسبقه".

قال الزمخشري:" أى: لا ينجى منه مهرب، ولا يسبق قضاءه سابق".

قال ابن كثير:" أي: بل قدرة الله شاملة له ومحيطة به".

قال ابن عطية:" يحتمل أن يكون من كلام المنذرين، ويحتمل أن يكون من كلام الله تعالى لمحمد عليه السلام، والمراد بها إسماع الكفار وتعلق اللفظ إلى هذا المعنى من قول الجن: {أَجِيبُوا داعِيَ اللهِ}، فلما حكى ذلك قيل ومن لا يفعل هذا فهو بحال كذا، والمعجز الذاهب في الأرض الذي يبدي عجز طالبه ولا يقدر عليه".

قوله تعالى: {وَلَيْسَ لَهُ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءُ} [الأحقاف:٣٢]، أي:" وليس له من دون الله أنصار يمنعونه من عذابه".

قال الطبري:" يقول: وليس لمن لم يحب داعي الله من دون ربه نُصراء ينصرونه من الله إذا عاقبه ربه على كفره به وتكذيبه داعيه".

=

=

قال مقاتل:" يعني: ليس له أقرباء يمنعونه من الله- ﷻ-".

قال ابن كثير:" أي: لا يجيرهم منه أحدٌ".

قوله تعالى: {أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ} [الأحقاف:٣٢]، أي:" أولئك في ذَهاب واضح عن الحق".

قال الطبري:" يقول: هؤلاء الذين لم يجيبوا داعي الله فيصدّقوا به، وبما دعاهم إليه من توحيد الله، والعمل بطاعته في جور عن قصد السبيل، وأخذ على غير استقامة، {مُبِينٍ}: يقول: يبين لمن تأمله أنه ضلال، وأخذ على غير قصد".

قال السعدي:" وأيّ ضلال أبلغ من ضلال من نادته الرسل ووصلت إليه النذر بالآيات البينات، والحجج المتواترات فأعرض واستكبر؟".

قال مقاتل:" هذا قول الجن التسعة".

قال ابن كثير:" وهذا مقامُ تهديد وترهيب، فَدَعَوا قومهم بالترغيب والترهيب؛ ولهذا نجع في كثير منهم، وجاؤوا إلى رسول الله ﷺ وفودا وفودا".

* مباحث تتعلق بالجن:

مسألة: هل يدخل صالحي الجن الجنة.

اختلف العلماء في هذه المسألة على أقوال:

القول الأول: أنه لا ثواب لهم إلا النجاة من النار ثم يقال لهم: كونوا ترابًا مثل البهائم. وهو قول أبي حنيفة، وحكاه سفيان الثوري عن الليث بن أبي سليم، وهو رواية عن مجاهد، وبه قال الحسن البصري.

قال ابن القيم في طريق الهجرتين (ص ٤١٨): وحكى عن أبي حنيفة وغيره أن ثوابهم نجاتهم من النار ا. هـ

وقال الماوردي في أعلام النبوة (ص: ١٤٥): وحكى سفيان عن ليث أنهم يثابون على الإيمان بأن يجازوا على النار خلاصًا منها، ثم يقال لهم: كونوا ترابًا

=

=

كالبهائم.

وقال القرطبي في تفسيره (١٦/ ٢١٧): وقال أبو حنيفة: ليس ثواب الجن إلا أن يجاروا من النار، ثم يقال لهم كونوا ترابًا كالبهائم ا. هـ

وقد استدل هذا الفريق بقوله تعالى إخبارًا عن النفر من الجن الذين استمعوا القرآن: (يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ) [الأحقاف: ٣١] ووجه استدلالهم بها: أن المغفرة للذنوب لا تستلزم الإثابة لأنه ستر، والإثابة بالوعد فضل، قال ابن القيم في طريق الهجرتين (ص: ٤٢٧): واحتج هؤلاء بهذه الآية فجعل غاية ثوابهم إجارتهم من العذاب الأليم ا. هـ

القول الثاني: أنهم يثابون على الطاعة بدخول الجنة، على خلاف في حالهم فيها، نقله ابن حزم عن الجمهور، وممن قال به الضحاك وابن عباس، وهو قول الخليفة عمر بن عبد العزيز، وإليه ذهب الأئمة: مالك، والشافعي، وأحمد، وأصحابهم، وابن أبي ليلى، والأوزاعي، ورجحه القرطبي، وهو قول أكثر المفسرين.

القول الثالث: التوقف في المسألة.

قال الألوسي في روح المعاني (٢٧/ ١٢٠): عن الإمام أبي حنيفة ثلاث روايات الأولى: أنهم لا ثواب لهم إلا النجاة من النار ثم يقال لهم كونوا ترابا كسائر الحيوانات.

الثانية: أنهم من أهل الجنة ولا ثواب لهم أي زائد على دخولها.

الثالثة: التوقف قال الكردي: هو في أكثر الروايات وفي فتاوي أبي إسحاق بن الصفار أن الإمام يقول: لا يكونون في الجنة ولا في النار ولكن في معلوم الله تعالى ا. هـ

وقال القشيري كما في تفسير القرطبي (١٦/ ٢١٧): والصحيح أن هذا - أي

=

=
دخولهم الجنة - مما لم يقطع فيه بشيء والله أعلم ا. هـ
لكن الجمهور من المسلمين القائلين بثواب المؤمنين من الجن في الآخرة اختلفوا في كيفية الثواب؟:
١ - فقد ذهب الأكثرون منهم إلى أنهم في الجنة ويصيبون من نعيمها.
٢ - ونقل عن الخليفة عمر بن عبد العزيز أنهم يكونون في ربض الجنة، وذكره الألوسي عن الإمام مالك وطائفة من العلماء هنا في هذا الموضع.
وقال شيخ الإسلام ابن تيمية في مجموع فتاوى (٤/ ٢٣٣): وروي في حديث رواه الطبراني: أنهم يكونون في ربض الجنة، يراهم الإنس من حيث لا يرونهم.
والظاهر أنه حديث ضعيف لا يثبت، لذا قال الإمام ابن القيم في مفتاح دار السعادة (١/ ٣٩): وقد ثبت بنص القرآن واجماع الامة ان مسيء الجن في النار بعدل الله وبما كانوا يكسبون فمحسنهم في الجنة بفضل الله بما كانوا يعملون لكن قيل انهم يكونون في ربض الجنة يراهم اهل الجنة ولا يرونهم كما كانوا في الدنيا يرون بني آدم من حيث لا يرونهم ومثل هذا لايعلم الا بتوقيف تنقطع الحجة عنده فإن ثبتت حجة يجب اتباعها وإلا فهو مما يحكى ليعلم وصحته موقوفة على الدليل والله أعلم.
وقال جماعة: أنهم على الأعراف بين الجنة والنار، ذكره الألوسي، ودليل هذا القول حديث أنس رضي الله عنه مرفوعا (إن مؤمنى الجن لهم ثواب وعليهم عقاب قيل ما ثوابهم قال على الأعراف وليسوا فى الجنة قيل وما الأعراف قال حائط الجنة تجرى فيه الأنهار وتنبت فيه الأشجار والثمار) ولكنه حديث موضوع، أخرجه البيهقي في البعث (١٠٧/ ١٠٨)، وابن عساكر من طريقه، وطريق غيره في تاريخ دمشق (١٧/ ٩١٠ - المدينة)، والذهبي في سير الأعلام (١٧/ ٧ - ٨) والحديث قال عنه الذهبي: هذا حديث منكر جدا، وقال العلامة الألباني في الضعيفة
=

=

(٦١١٣): موضوع.

وفي رواية ذكرها ابن نجيم في الأشباه والنظائر (٢/ ٣٣٠) عن الضحاك أنهم يلهمون التسبيح والذكر، فيصيبون من لذته ما يصيبه بنو آدم من نعيم الجنة ا. هـ

ولكن ذكر النووي في شرحه لصحيح مسلم (٤/ ١٦٩) أن الضحاك قال بأن الجن يدخلون الجنة ويأكلون ويشربون ا. هـ

وهو ما نقله الفخر الرازي في تفسيره (٢٨/ ٣٣) عنه إذ يقول: قال الضحاك: يدخلون الجنة ويأكلون ويشربون.

وذكر الشوكاني في فتح القدير (٢/ ١٦٤) عن أبي الشيخ عن ليث بن أبي سليم قال: مسلمو الجن لا يدخلون الجنة ولا النار، وذلك أن أخرج أباهم من الجنة، فلا يعيده ولا يعيد ولده ا. هـ

وقال ابن نجيم في الأشباه والنظائر (ص: ٣٣٠): واختلف العلماء في حكم مؤمن الجن: فقال قوم: لا ثواب لهم إلا النجاة من النار، وإليه ذهب أبو حنيفة رَحِمَهُ اللَّهُ.. وعن الليث: ثوابهم أن يجاروا من النار ثم يقال لهم: كونوا ترابًا كالبهائم، وعن أبي الزناد كذلك ا. هـ

وقال الحسن كما في تفسير القرطبي (١٦/ ٢١٧): ليس لمؤمني الجن ثواب غير نجاتهم من النار) وذكر القرطبي (١٩/ ٥) في رواية عن مجاهد أن الجن لا يدخلون الجنة وإن صرفوا عن النار.

والراجح - والله أعلم - أن الجن يثابون على أعمالهم، ويدخلون الجنة، ويصيبون من نعيمها، وذلك لأن ظواهر الآيات الواردة في جزاء الجن في الآخرة تقتضي ذلك، لأنها جاءت عامة في استحقاق المحسنين لجزاء أعمالهم، ولم يرد دليل يخصصها، فتبقى على عمومها، وهو مذهب أكثر العلماء.

مسألة: هل هناك رسل من الجن.

=

=

اختلف العلماء في هذه المسألة على ثلاثة أقوال:

الأول: أن رسل الجن هم من البشر، ولم يبعث إلى الجن رسول منهم، وهو رأي الجمهور من العلماء.

الثاني: أنه ليس في الجن رسل ولكن منهم نذر عن الرسل، وهو مروي عن ابن عباس ومجاهد وابن جريج وأبو عبيد، وهو اختيار العلامة العثيمين حيث قال في تفسير سورة الذاريات: كذلك يمتاز الإنس عنهم بأن منهم الرسل والأنبياء، وأما الجن فليس منهم رسل، ولكن منهم نُذر، يبلغونهم الرسالات من الإنس، كما في قول الله تعالى: {وإذ صرفنآ إليك نفرًا من الجن يستمعون القرءان فلما حضروه قالوا أنصتوا فلما قضى ولوا إلى قومهم منذرين}.

الثالث: أنه قد بعث إلى الجن رسل منهم، وهو رأي مقاتل والضحاك وهو اختيار ابن حزم كما في الفصل في الملل والأهواء والنحل (٣/ ٢٦٤).

وهو اختيار العلامة ابن باز أيضا فقد سئل كما في مسائل الإمام ابن باز للشيخ عبد الله بن مانع (ص ٣٣): هل من الجن رسل؟

فأجاب: الله أعلم، لا مانع ا. هـ

والذي ينبغي أن يعلم في هذا المقام أن الجمهور والضحاك ومن معه متفقون على أن محمدًا ﷺ مبعوث إلى الجن والإنس معًا، وإنما الاختلاف بينهم في أنه هل بعث إلى الجن رسل من جنسهم قبل مبعث نبينا محمد عليه الصلاة والسلام أم لا؟

فالضحاك ومن معه يقولون: بأنه قد بعث إلى الجن رسل منهم قبل نبينا عَلَيْهِ السَّلَامُ، والجمهور على خلافه، قال السبكي في فتاواه (٢/ ٦١٩): ومن نقل عن الضحاك مطلقًا أن رسل الجن منهم فهو محمول على هذا التقييد -أي قبل نبينا عَلَيْهِ السَّلَامُ- ولم ينقل أحد عنه أن ذلك في هذه المسألة، وإن توهم أحد ذلك عليه فقد أخطأ،

=

=

ويجب عليه النزوع وعدم اعتقاده، وأن لا ينسب إلى رجل عالم ما يخالف الإجماع، فيكون قد جنى عليه جناية يطالبه بها بين يدي الله تعالى.

وقال أيضا في نفس المصدر (٢/ ٦٠٩): ولم يقل الضحاك ولا أحد غيره باستمرار ذلك في هذه الملة، وإنما محل الخلاف في ذلك في الملل المتقدمة خاصة، وأما في هذه الملة فمحمد ﷺ هو المرسل إليهم وإلى غيرهم، والاستدلال بالإجماع في ذلك صحيح.

وإليك تفصيل هذه الأقوال مع ذكر أدلتها:

القول الأول: وهو قول الجمهور بأن رسل الجن هم من البشر وليسوا من الجن.

قال شيخ الإسلام في النبوات: واختلفوا: هل يكون في الجن رسل؟ والأكثرون على أنّه لا رسل فيهم، كما قال تعالى: {وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلاَّ رِجَالًا نُوحِي إِلَيهِمْ مِنْ أَهْلِ القُرَى} ا. هـ

وقال ابن نجيم في الأشباه والنظائر (٢/ ٣٣٠): الجمهور على أنه لم يكن من الجن نبي ا. هـ

وقال ابن حجر الهيتمي في الفتاوى الحديثية (ص: ٦٦): وجمهور الخلف والسلف أنه لم يكن فيهم رسول ولا نبي خلافًا للضحاك ا. هـ

وقال الشبلي في آكام المرجان (ص ٣٤): وجمهور العلماء سلفًا وخلفًا على أنه لم يكن من الجن قط رسول، ولم تكن الرسل إلا من الإنس، ونقل معنى هذا عن ابن عباس، وابن جريج، ومجاهد، والكلبي، وأبي عبيد، والواحدي ا. هـ

وقال الإمام ابن القيم في طريق الهجرتين (١/ ٤١٦): ولما كان الإنس أكمل من الجن وأتم عقولًا ازدادوا عليهم بثلاثة أصناف أخر ليس شيء منها للجن وهم: الرسل، والأنبياء، والمقربون، فليس في الجن صنف من هؤلاء بل حليتهم الصلاح ا. هـ

=

=

وقال الإمام محمد بن عبد الوهاب كما في مؤلفات الشيخ القسم الرابع -التفسير- (ص ١٧٩)، (وص ٢١١ - ٢١٢)، (وص ٢٥٣): وأن الرسل من البشر كلهم رجال، وليس في الجن ولا في النساء رسل، وأنهم من أهل القرى ا. هـ

وقال العلامة الشنقيطي في أضواء البيان (٢/ ١٨٨): قوله تعالى: {يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْأِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ} الآية.

قال بعض العلماء: المراد بالرسل من الجن نذرهم الذين يسمعون كلام الرسل، فيبلغونه إلى قومهم، ويشهد لهذا أن الله ذكر أنهم منذرون لقومهم في قوله: {وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنْصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ} [٤٦/ ٢٩].

وقال بعض العلماء: {رُسُلٌ مِنْكُمْ} [٦/ ١٣٠]، أي من مجموعكم الصادق بخصوص الإنس: لأنه لا رسل من الجن، ويستأنس لهذا القول بأن القرآن ربما أطلق فيه المجموع مرادًا بعضه، كقوله: {وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا} [٧١/ ١٦]، وقوله: {فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا} [٩١/ ١٤]، مع أن العاقر واحد منهم، كما بينه بقوله: {فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَى فَعَقَرَ} [٥٤/ ٢٩]، واعلم أن ما ذكره الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ وغيره من أجلاء العلماء في تفسير هذه الآية: من أن قوله: {يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ} [٥٥/ ٢٢]، يراد به البحر الملح خاصة دون العذب غلط كبير، لا يجوز القول به. لأنه مخالف مخالفة صريحة لكلام الله تعالى، لأن الله ذكر البحرين الملح والعذب، بقوله: {وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ} [٣٥/ ١٢]، ثم صرح باستخراج اللؤلؤ والمرجان منها جميعًا بقوله: {وَمِنْ كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا}، والحلية المذكورة هي اللؤلؤ والمرجان، فقصره على الملح مناقض للآية صريحًا، كما ترى.

=

استدل الجمهور بالكتاب والسنة.

أولًا: الأدلة من الكتاب: ومنها:

١ - قوله تعالى: (وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلاَّ رِجَالًا نُّوحِي إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ الْقُرَى) [يوسف: ١٠٩]. قال القرطبي في تفسيره (٩/ ٢٧٤): وهذا رد على القائلين: (وَقَالُوا لَوْلا أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ) [الأنعام: ٨]. أي: أرسلنا رجالًا ليس فيهم امرأة، ولا جني، ولا ملك.. قال الحسن: لم يبعث الله نبيًا من أهل البادية قط، ولا من النساء، ولا من الجن.. قال العلماء: من شرط الرسول أن يكون آدميا مدنيًا، وإنما قالوا آدميًا تحرزًا من قوله: يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا [الجن: ٦]. والله أعلم ا. هـ.

وقال الإمام ابن القيم طريق الهجرتين (١/ ٤١٦) في الآية: فهذا يدل على أنه لم يرسل جنيًا، ولا امرأة، ولا بدويًا، وأما تسميته تعالى الجن رجالًا في قوله: (وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا) [الجن: ٦]. فلم يطلق عليهم الرجال، بل هي تسمية مقيدة بقوله: (مِّنَ الْجِنِّ) فهم رجال من الجن، ولا يستلزم دخولهم في الرجال عند الإطلاق، كما تقول: رجال من حجارة، ورجال من خشب ونحوه ا. هـ

٢ - قوله تعالى: (إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِن بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا) [النساء: ١٦٣]. وقوله تعالى: (وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ) [العنكبوت: ٢٧]. وذلك إخبارًا عن إسماعيل عليه السلام.

فهذه الآيات قد أخبرت أن الله قد جعل النبوة في الرجال من البشر، ولو كان في الجن رسل وأنبياء لأخبر القرآن بذلك، والآيات السالفة إخبار من الله عن إبراهيم =

=
عليه السلام أن الله قد جعل النبوة في ذريته من بعده، قال القرطبي في تفسيره (١٣/ ٣٤٠): فلم يبعث الله نبيًا بعد إبراهيم إلا من صلبه ا. هـ
٣ - قوله تعالى: (وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الأَسْوَاقِ) [الفرقان: ٢٠].
فقد أخبر الله نبيه عليه الصلاة والسلام أن الرسل الذين بعثهم قبله كانوا يأكلون الطعام ويمشون في الأسواق، والمقصود بذلك أنهم بشر، وليس في الآية ما يدل على بعث الرسل من خلاف الإنس.
٤ - قوله تعالى: (إِنَّ اللهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ) [آل عمران: ٣٣].
قال الرازي في تفسيره (١٣/ ١٩٥): وأجمعوا على أن المراد بهذا الاصطفاء إنما هو النبوة، فوجب كون النبوة مخصوصة بهؤلاء فقط ا. هـ، فلا يدخل فيه الجن أو غيرهم من البشر.
٥ - قوله تعالى: (إخبارًا عن النفر من الجن الذين ولوا إلى قومهم منذرين بعد سماعهم القرآن من الرسول عليه السلام: إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِن بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ) [الأحقاف: ٣٠].
والذي نفهمه من هذه الآية أن هذا النفر من الجن كان منهم من آمن بموسى عليه السلام، مما يدل على أنه مرسل إليهم، وقد نقل القرطبي في تفسيره (١٦/ ٢١٧): عن ابن عباس: أن الجن لم تكن سمعت بأمر عيسى، فلذلك قالت: أُنزِلَ مِن بَعْدِ مُوسَى.. قال مقاتل: ولم يبعث الله نبيًا إلى الجن والإنس قبل محمد صلى الله عليه وسلم ا. هـ وفي هذا دليل على أنه لم يبعث إلى الجن رسولًا منهم.
ثانيًا: الأدلة من السنة:
أخرج مسلم في صحيحه من حديث جابر بن عبد الله الأنصاري قال: قال رسول
=

=

الله ﷺ: (أعطيت خمسًا لم يعطهن أحد قبلي: كان كل نبي يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى كل أحمر وأسود..) الحديث.

فإخباره عليه الصلاة والسلام أن كل نبي من الأنبياء السابقين كان يبعث إلى قومه خاصة فيه دليل على أن الجن لم يبعث إليهم رسول منهم، وذلك أن القوم في اللغة: هم جماعة الرجل من الرجال والنساء، فتخصيص الحديث بعث الرسل السابقين إلى أقوامهم بقوله: (إلى قومه) فيه دليل على أنهم جماعة ذلك النبي من الناس دون الجن، إذ لم يعهد في اللغة إطلاق لفظ القوم على جماعة الرجل من الجن.

وقوله عليه الصلاة والسلام بعد ذلك: (وبعثت إلى كل أحمر وأسود) فيه مزيد بيان لما قلناه، حيث إن رسالة من قبله من الأنبياء كانت لأقوامهم من البشر خاصة، وامتاز نبينا عليه الصلاة والسلام على غيره من الأنبياء بأنه قد بعث إلى الجن والإنس جميعًا، كما نص على ذلك الحديث المتقدم، وفي هذا دلالة على أنه لم يكن في الجن رسل منهم.

وأما من ذكر بأن الرسل السابقين قبل نبينا عليه الصلاة والسلام كانوا يبعثون إلى الإنس والجن جميعًا - كما ذكر الكلبي - فإن ذلك معارض بالحديث المتقدم، حيث اختص الرسول عليه السلام على غيره من الأنبياء بأنه بعث إلى الجن والإنس جميعًا، ولم يحصل هذا لغير نبينا عليه الصلاة والسلام.

القول الثاني: بأن في الجن نذرًا، وليس منهم رسل، وهو مروي عن ابن عباس ومجاهد وغيرهم من السلف...

قال القرطبي في تفسيره (٧/ ٨٦): وقال ابن عباس: رسل الجن هم الذين بلغوا قومهم ما سمعوه من الوحي كما قال: ﴿وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ﴾ ثم قال: وقال مجاهد: الرسل من الإنس والنذر من الجن ثم قرأ: ﴿إِلَى قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ﴾ يقول

=

=

القرطبي: وهو - أي قول مجاهد - معنى قول ابن عباس، وهو الصحيح ا. هـ
وقال شيخ الإسلام في الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان (ص ٣٦٣): وجمهور العلماء على أن الرسل من الإنس، ولم يبعث من الجن رسول، لكن منهم النذر ا. هـ.
وقال الإمام ابن القيم طريق الهجرتين (١/ ٤١٦): قال غير واحد من السلف: الرسل من الإنس، وأما الجن ففيهم النذر ا. هـ
وقال الإمام الطبري في تفسيره (٢٦/ ٣١): عن ابن عباس وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ [الأحقاف: ٢٩]، قال كانوا سبعة نفر من أهل نصيبين، فجعلهم رسول الله ﷺ رسلًا إلى قومهم ا. هـ
وقال السبكي في فتاواه (٢/ ٦١٨): والذين خالفوا الضحاك في تمسكه بظاهر قوله تعالى: (يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ) [الأنعام: ١٣٠]. إنما يؤلون هذه الآية، فقد قال ابن عباس ومجاهد وابن جريج وأبو عبيد: معناه: أن رسل الإنس رسل من الله إليهم، ورسل الجن قوم من الجن ليسوا رسلًا عن الله، ولكن بثهم الله في الأرض، فسمعوا كلام رسل الله، الذين هم من بني آدم، وجاءوا إلى قومهم من الجن فأخبروهم، كما اتفق للذين صرفهم الله إلى النبي ﷺ واستمعوا القرآن وولوا إلى قومهم منذرين، فهم رسل عن الرسل، لا رسل عن الله تعالى، ويسمون نذرًا، ويجوز تسميتهم رسلًا، لتسمية رسل عيسى رسلًا في قوله تعالى: (إِنَّا إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ) [يس: ١٤] وجاء قوله: يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ على ذلك، فالرسل على الإطلاق من الإنس، وهم رسل الله، والنذر من الجن، وهم رسل الرسل ويجوز تسميتهم رسلًا ا. هـ.
وقال العلامة العثيمين في شرح السفارينية (ص ٤٩٦): ولكن يبقى النظر هل أرسل من الجن رسول؟ فيه خلاف، قيل لا، لقوله تعالى: (وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ

=

=

إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ) (يوسف: الآية ١٠٩)، وقيل: بل منهم رسول لقول الله تعالى: (يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْأِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ) (الأنعام: الآية ١٣٠) فهو يخاطب الجن والإنس يقول: (أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ) إنس من الإنس وجن من الجن.

وأما قوله تعالى: (وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى) (يوسف: الآية ١٠٩) فإن الذكور من الجن يسمون رجالًا، كما قال الله تعالى: (وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الإِنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ) (الجن: الآية ٦)، فالجن فيهم رجال كما في هذه الآية الكريمة، وعلى هذا فلا يتم الاستدلال بقوله: (وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى)، ويكون ظاهر قوله: (يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ) أن من الجن رسلًا.

والذين قالوا: إنه ليس من الجن رسل، أجابوا عن قوله تعالى: (يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ) قالوا: إن الخطاب باعتبار المجموع لا باعتبار الجميع، فهو كقوله تعالى في البحرين: (يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ) (الرحمن: ٢٢)، واللؤلؤ والمرجان لا يخرجان إلا من المالح على المشهور.

قالوا أيضًا: إن حكمة الله تعالى تأبى ذلك؛ لأن الرسالة تشريف وتكريم وتعظيم، والجن أصلهم من النار وأبوهم إبليس سيد المتكبرين، وقائد الكافرين، فليس من الحكمة أن يكرم هؤلاء بالرسالة، وإنما يتلقون التعاليم مما جاء إلى البشر، كما قال تعالى: (وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ القرآن فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنْصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ) (الاحقاف: ٢٩) (قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ) (الاحقاف: ٣٠) (يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ

=

=

ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ) (الاحقاف: ٣١) فقالوا: إن الجن ليس منهم رسل لكن منهم نذر؛ حيث قال تعالى: (وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ)، فيتلقى هؤلاء النذر مما جاءت به الرسل وينذرون بها قومهم ا. هـ

(تنبيه): القول الثاني لا يخالف قول الجمهور من كل وجه، وفيه أيضا توجيه لقوله تعالى: (يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ) وعلى هذا الأساس فهو لا يخالف رأي الجمهور مطلقا، بل يؤيده ويدعمه من ناحية أنه يوافق قول الجمهور فيه أنه لم يبعث إلى الجن رسل منهم بل الرسل من الإنس فقط، وأدلة الفريق الثاني هي نفس أدلة الفريق الأول.

القول الثالث: القائلون بأن في الجن رسلًا منهم، وهو قول الضحاك، وذكر القرطبي ذلك عن مقاتل رَحِمَهُ اللَّهُ فقال في تفسيره (٧/ ٨٦): وقال مقاتل والضحاك: أرسل الله رسلًا من الجن كما أرسل من الإنس ا. هـ.

وذكر الإمام الطبري في تفسيره (٨/ ٣٦): أنه يوجد غير الضحاك من القائلين بهذا القول فقال: (وأما الذين قالوا بقول الضحاك فإنهم قالوا: إن الله أخبر أن من الجن رسلًا أرسلوا إليهم، كما أخبر أن من الإنس رسلًا أرسلوا إليهم ا. هـ فلعل ابن جرير قصد مقاتلًا رَحِمَهُ اللَّهُ.

ونقل الألوسي هنا: أن الذين ذكروا بأن من الجن أنبياء منهم قد صرحوا بأن رسولًا منهم يسمى يوسف ا. هـ.

وقال ابن حزم في الفصل (٣/ ٢٦٤): ولم يبعث إلى الجن نبي من الإنس البتة قبل محمد ﷺ، لأنه ليس الجن من قوم إنسي، وباليقين ندري أنهم قد أنذروا، فصح أنه جاءهم أنبياء منهم قوله تعالى: (يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ) ا. هـ

استدل هذا الفريق على ما ذهب إليه بما يلي:

=

=

١ - قوله تعالى: (يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ).
قال الشوكاني في فتح القدير (٢/ ١٦٣): وظاهره أن الله بعث في الدنيا إلى الجن رسلًا منهم، كما بعث إلى الإنس رسلًا منهم ا. هـ.
وقال ابن حجر الهيتمي في الفتاوى الحديثية: وظاهر القرآن يشهد للضحاك، والأكثرون في خلافه ا. هـ
وقال الألوسي هنا: وظاهر الآية يقتضي إرسال الرسل إلى كل من المعشرين من جنسهم ا. هـ
وقال العلامة الوادعي في تحفة المجيب (ص ٣٦٢): ففي هذه الآية الكريمة أنه أرسل إليهم وقد اختلف العلماء هل من الجن رسل، أم الرسل من الأنس؟ وظاهر الآية أن منهم رسلًا، ولا يضرنا ذلك ا. هـ
ووجه استدلال الضحاك بهذه الآية: أن الله خاطب الجن والإنس بأنه قد بعث إليهم رسلًا منهما، بدليل قوله تعالى: (مِّنكُمْ) وهو يقتضي بعث الرسل إلى الجن منهم وبعث الرسل إلى الإنس منهم كذلك.
٢ - وذكر الفخر الرازي في تفسيره (١٣/ ١٩٥): أن الضحاك احتج بقوله بإرسال الرسل إلى الجن منهم بقوله تعالى: (إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلا خلا فِيهَا نَذِيرٌ) [فاطر: ٢٤]. ثم قال الرازي: ويمكن أن يحتج الضحاك بوجه آخر وهو قوله تعالى: (وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ) [الأنعام: ٩]. قال المفسرون: السبب في استئناس الإنسان بالإنسان أكمل من استئناسه بالملك، فوجب في حكمة الله تعالى أن يجعل رسول الإنس من الإنس ليكمل هذا الاستئناس، إذا ثبت هذا المعنى فهذا السبب حاصل في الجن، فوجب أن يكون رسول الجن من الجن.
٣ - ذكر ابن نجيم في الأشباه والنظائر (ص ٣٣٠): أن الضحاك وابن حزم احتجا
=

=

على أنه كان من الجن نبي بقوله عليه الصلاة والسلام: (وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة... الحديث). قال: وليس الجن من قومه، ولا شك أنهم أنذروا، فصح أنه جاءهم أنبياء منهم.

قال ابن حزم في المحلى (٧/ ٤٩٣): قال الله تعالى: (مرج البحرين يلتقيان بينهما برزخ لا يبغيان فبأى آلاء ربكما تكذبان يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان) قال -أي الطحاوي-: فانما يخرج اللؤلؤ والمرجان من أحدهما، قال: ومثل قوله تعالى: (يا معشر الجن والانس ألم يأتكم رسل منكم) قال: وانما الرسل من الانس لامن الجن قال أبو محمد ابن حزم: صدق الله وكذب الطحاوي وكذب من أخبره بما ذكر بل اللؤلؤ والمرجان خارجان من البحرين اللذين بينهما البرزخ فلا يبغيان، ولقد جاءت الجن رسل منهم بيقين لانهم بنص القرآن متعبدون موعودون بالجنة والنار، وقد صح ما روينا من طريق مسلم بن الحجاج نا قتيبة نا اسماعيل - هو ابن جعفر - عن العلاء - هو ابن عبد الرحمن - عن أبيه عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال (فضلت على الانبياء بست) فذكر منها (وأرسلت إلى الخلق كافة)، ومن طريق البخاري نا محمد بن سنان العوفى نا هشيم انا سيار نا يزيد - (هو ابن صهيب) الفقير انا جابر بن عبد الله ان رسول الله ﷺ قال: (أعطيت خمسا لم يعطهن أحد قبلى) فذكر فيها (وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس عامة) ومن طريق الحجاج بن المنهال نا حماد بن سلمة عن ثابت البنانى وحميد كليهما عن أنس (أن رسول الله ﷺ قال: أعطيت أربعا لم يعطها نبى قبلى أرسلت إلى كل أحمر وأسود) وذكر باقى الخبر، فصح بنقل التواتر أن رسول الله ﷺ بعث وحده إلى الجن والانس وانه لم يبعث نبى قبله قط الا إلى قومه خاصة، وقال تعالى: (وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون)، وقال تعالى: (وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا) فصح يقينا أنهم مذ خلقوا مأمورون بعبادة الله تعالى،

=

أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى بَلَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٣٣).

{أو لم يَرَوْا} يَعْلَمُوا أَيْ مُنْكِرُو الْبَعْث {أَنَّ الله الذي خلق السماوات وَالْأَرْض وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ} لَمْ يَعْجز عَنْهُ {بِقَادِرٍ} خَبَر أَنَّ وَزِيدَتْ الْبَاء فِيهِ لِأَنَّ الْكَلَام فِي قُوَّة أَلَيْسَ الله بِقَادِرٍ {عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى بَلَى} هُوَ قَادِر عَلَى إحياء الموتى {إنه على كل شيء قدير[1].

=

وصح بما ذكرنا من السنن القاطعة انه لم يبعث إليهم نبى من الانس قبل محمد ﷺ، والجن ليسوا قوم أحد من الانس فصح يقينا انهم بعث إليهم أنبياء منهم.

(١) قوله تعالى: (أَوَلَمْ يَرَوْا) أي: أولم يعلم هؤلاء الكفار المنكرون للبعث والنشور.

أَنَّ اللهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ) أي: أن الله العظيم القدير خلق السموات والأرض ابتداء من غير مثال سابق

(وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ) أي: لم يتعب بخلقهن.

(بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى) أي: أفليس ذلك بقادر على أن يحيى الموتى؟

(بَلَى) قادر، فلا يعجزه شيء سبحانه وتعالى، كما قال تعالى (لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ).

(إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) الآية عامة، فالله على كل شيء قدير، على ما شاءه وما لم يشأه.

ومن قدرته أنه سبحانه يعز ومن يشاء ويذل من يشاء ويؤتي الملك من يشاء وينزعه ممن يشاء كما قال تعالى (قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ).

=

=

- قال الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ: الآية عامة، فهو قدير على كل شيء، على ما شاءه وما لم يشأه، وبهذا نعرف أن تقييد بعض الناس القدرة بالمشيئة خطأ، لأن الله قادر على ما يشاء وعلى ما يشاء، وأما قوله تعالى (وَهُوَ عَلَى جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ) فالمشيئة هنا ليست عائدة على القدرة، ولكنها عائدة على الجمع، يعني: إذا أراد جمعهم وشاء جمعهم فهو قدير عليه لا يعجزه شيء.

قوله تعالى: {أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ} [الأحقاف:٣٣]، أي:" أغَفَلوا ولم يعلموا أنَّ الله الذي خلق السموات والأرض على غير مثال سبق".

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره: أولم ينظر هؤلاء المنكرون إحياء الله خلقه من بعد وفاتهم، وبعثه إياهم من قبورهم بعد بلائهم، القائلون لآبائهم وأمهاتهم: {أفّ لكما أتعدانني أن أخرج وقد خلَت القرون من قبلي}، فلم يبعثوا بأبصار قلوبهم، فيروا ويعلموا أن الله الذي خلق السموات السبع والأرض، فابتدعهنّ من غير شيء".

قال ابن كثير:" يقول تعالى: {أَوَلَمْ يَرَوْا}، أي: هؤلاء المنكرون للبعث يوم القيامة، المستبعدون لقيام الأجساد يوم المعاد {أَنَّ اللهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ}".

قال المراغي:" أي: أولم ينظر هؤلاء المنكرون إحياء الخلق بعد وفاتهم، وبعثه إياهم من قبورهم بعد بلاهم، فيعلموا أن الذي خلق السموات والسبع والأرض فابتدعهن من غير شئ".

قال ابن عطية:" {أَوَلَمْ يَرَوْا}، الضمير لقريش، والرؤية رؤية القلب".

قوله تعالى: {وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ} [الأحقاف:٣٣]، أي:" ولم يعجز عن خلقهن".

قال الطبري:" ولم يعي بإنشائهنّ، فيعجز عن اختراعهنّ وإحداثهنّ".

=

=

قال ابن كثير:" أي: ولم يَكْرِثهُ خَلْقُهن، بل قال لها: "كوني" فكانت، بلا ممانعة ولا مخالفة، بل طائعة مجيبة خائفة وجلة".

قال مقاتل:" وهما أشد خلقا من خلق الإنسان بعد أن يموت، ولم يعي بخلقهن إذ خلقهن، يعنى كيف يعيى عن بعث الموتى".

قال الواحدي: أي:" لم يعجز عن ذلك، يقال: عيي فلان بأمره، إذا لم يهتد له، ولم يقدر عليه".

قال المراغي: أي: ولم يعى فى إنشائهن-".

قال الشوكاني:" أي: لم يعجز عن ذلك ولا ضعف عنه، يقال: عي بالأمر وعيي إذا لم يهتد لوجهه، ومنه قول الشاعر:

عيوا بأمرهم كما... عيت ببيضتها الحمامه".

قال أَبُو عَوْسَجَةَ والْقُتَبِيّ: قوله: {وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ}، يقال: عييت بهذا: أي: لم أحسنه، ولم أقو عليه".

قال النحاس:" {وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ}، ليس من: التعب، وإنما يقال في التعب: أعيا يعيي وعيي بالأمر يعي وعي به إذا لم يتجه له".

قرأ الجمهور: «ولم يعي»، بسكون العين وفتح الياء، مضارع: عيي. وقرأ الحسن بكسر العين وسكون الياء.

قوله تعالى: {بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى} [الأحقاف:٣٣]، أي:" قادرٌ على أن يعيد الموتى بعد الفناء".

قال المراغي: أي:" بقادر على أن يحيى الموتى فيخرجهم من بعد بلاهم فى قبورهم أحياء كهيئتهم قبل وفاتهم؟".

قال الطبري:" فيخرجهم من بعد بلائهم في قبورهم أحياء كهيئتهم قبل وفاتهم".

قال ابن كثير:" أفليس ذلك بقادر على أن يحيي الموتى؟ كما قال في الآية

=

=

الأخرى: {لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالأرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ} [غافر: ٥٧]".

قال ابو عبيدة: {بِقَادِرٍ}، أي:" قادر، والعرب تؤكد الكلام بالباء وهى مستغنى عنها".

قال الأخفش:" فهو بالباء كالباء في قوله: {كَفَى بِاللهِ}، وهي مثل {تَنْبُتُ بِالدُّهْن} [المؤمنون: ٢٠]".

قال ابن عطية:" وهذه آية مثل واحتجاج، لأنهم قالوا إن الأجساد لا يمكن أن تبعث ولا تعاد، وهم مع ذلك معترفون بأن الله تعالى خلق السماوات والأرض فأقيمت عليهم الحجة من أقوالهم".

قرأ عبد الرحمن الأعرج وابن أبي إسحاق وعاصم الجحدري: «يقدر».

قال النحاس:" وقد زعم بعض النحويين أن القراءة بيقدر أولى لأن الباء إنما تدخل في النفي وهذا إيجاب وتعجب من أبي عمرو والكسائي كيف جاز عليهما مثل هذا حتى غلطا فيه مع محلهما من العربية قال أبو جعفر: وفي هذا طعن على من تقوم الحجة بقراءته ومع ذلك فقد أجمعت الأئمة على أن قرءوا: {أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ} [يس: ٨١]، ولا نعلم بينهما فرقا ولا تجتمع الجماعة على ما لا يجوز".

قوله تعالى: {بَلَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} [الأحقاف:٣٣]، أي:" بلى، ذلك أمر يسير على الله تعالى الذي لا يعجزه شيء، إنه على كل شيء قدير".

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره: بلى، يقدر الذي خلق السموات والأرض على إحياء الموتى: أي الذي خلق ذلك على كلّ شيء شاء خلقه، وأراد فعله، ذو قدرة لا يعجزه شيء أراده، ولا يُعييه شيء أراد فعله، فيعييه إنشاء الخلق بعد الفناء، لأن من عجز عن ذلك فضعيف، فلا ينبغي أن يكون إلها من كان عما أراد ضعيفا".

=

وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَلَيْسَ هَـذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَى وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ (٣٤).

{وَيَوْم يُعْرَض الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّار} بِأَنْ يُعَذَّبُوا بِهَا يُقَال لَهُمْ {أَلَيْسَ هَـذَا} التَّعْذِيب {بالحق قالوا بلى وربنا قال فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون}[1].

=

قال السعدي-في الآية-:" هذا استدلال منه تعالى على الإعادة بعد الموت بما هو أبلغ منها، وهو أنه الذي خلق السماوات والأرض على عظمهما وسعتهما وإتقان خلقهما من دون أن يكترث بذلك ولم يعي بخلقهن فكيف تعجزه إعادتكم بعد موتكم وهو على كل شيء قدير؟".

(١) قوله تعالى: (وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ) يقول تعالى متوعدًا ومهددًا لمن كفر به (وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ) فيرون الأهوال والشدائد، فيقال لهم توبيخًا وتقريعًا:

(أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ) أي: يقال لهم: أما هذا حق؟ أفسحر هذا؟ أم أنتم لا تبصرون؟

- قوله تعالى (أَلَيْسَ هَذَا...) الإشارة بهذا إلى ما هو مشاهد لهم يوم عرضهم على النار، وفي الاكتفاء بمجرد الإشارة من التهويل للمشار إليه والتفخيم لشأنه ما لا يخفى، كأنه أمر لا يمكن التعبير عنه بلفظ يدلّ عليه.

(قَالُوا بَلَى وَرَبِّنَا) اعترفوا حين لا ينفعهم الاعتراف، وأكدوا هذا الاعتراف بالقسم، لأن المشاهدة هي حق اليقين الذي لا يمكن جحده ولا إنكاره.

(قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ) أي: ذوقوا هذا العذاب بسبب كفركم بهذا في الدنيا وإنكاركم له.

قوله تعالى: {وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَلَيْسَ هَـذَا بِالْحَقِّ} [الأحقاف:٣٤]، أي:" ويوم القيامة يُعْرَض الذين كفروا على نار جهنم للعذاب فيقال لهم: أليس هذا العذاب بالحق؟".

=

=

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره: ويوم يعرض هؤلاء المكذّبون بالبعث، وثواب الله عباده على أعمالهم الصالحة، وعقابه إياهم على أعمالهم السيئة، على النار، نار جهنم، يقال لهم حينئذ: أليس هذا العذاب الذي تعذّبونه اليوم، وقد كنتم تكذّبون به في الدنيا بالحقّ، توبيخا من الله لهم على تكذيبهم به، كان في الدنيا".

قال ابن عطية:" المعنى: واذكر يوم، وهذا وعيد للكفار من قريش وسواهم. والعرض في هذه الآية، عرض مباشرة، كما تقولون عرضت الجاني على السوط. والمعنى يقال لهم أليس هذا العذاب حقا وقد كنتم تكذبون به؟".

قال ابن كثير:" أي: يقال لهم: أما هذا حق؟ أفسحر هذا؟ أم أنتم لا تبصرون؟".

قوله تعالى: {قَالُوا بَلَى وَرَبِّنَا} [الأحقاف:٣٤]، أي:" فيجيبون قائلين: بلى وربنا هو الحق".

قال الطبري:" يقول: فيجيب هؤلاء الكفرة من فورهم بذلك، بأن يقولوا بلى هو الحق والله".

قال ابن عطية:" وذلك تصديق حيث لا ينفع".

قال ابن كثير:" أي: لا يسعهم إلا الاعتراف".

قال الشوكاني:" اعترفوا حين لا ينفعهم الاعتراف، وأكدوا هذا الاعتراف بالقسم لأن المشاهدة هي حق اليقين الذي لا يمكن جحده ولا إنكاره".

قوله تعالى: {قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ} [الأحقاف:٣٤]، أي:" فيقال لهم: فذوقوا العذاب بما كنتم تجحدون عذاب النار وتنكرونه في الدنيا".

قال الطبري:"يقول: فقال لهم المقرّر بذلك: فذوقوا عذاب النار الآن بما كنتم تجحدونه في الدنيا، وتنكرونه، وتأبون الإقرار إذا دُعيتم إلى التصديق به".

قال الشوكاني:" أي: بسبب كفركم بهذا في الدنيا وإنكاركم له، وفي هذا الأمر لهم بذوق العذاب توبيخ بالغ وتهكم عظيم".

فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ بَلَاغٌ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ (٣٥).

{فاصبر} على أذى قومك {كما صبر أولوا الْعَزْم} ذَوُو الثَّبَات وَالصَّبْر عَلَى الشَّدَائِد {مِنَ الرُّسُل} قَبْلك فتَكُون ذَا عَزْم وَمِنْ لِلْبَيَانِ فَكُلّهمْ ذَوُو عَزْم وَقِيلَ لِلتَّبْعِيضِ فَلَيْسَ مِنْهُمْ آدَم لِقَوْلِهِ تَعَالَى {وَلَمْ نَجِد لَهُ عَزْمًا} وَلَا يُونُس لِقَوْلِهِ تَعَالَى وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوت {وَلَا تَسْتَعْجِل لَهُمْ} لِقَوْمِك نُزُول الْعَذَاب بِهِمْ قِيلَ كَأَنَّهُ ضَجِرَ مِنْهُمْ فَأَحَبَّ نُزُول الْعَذَاب بِهِمْ فَأُمِرَ بِالصَّبْرِ وَتَرْك الِاسْتِعْجَال لِلْعَذَابِ فإنه نازل لا محالة {كأنهم يوم يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ} مِنْ الْعَذَاب فِي الْآخِرَة لِطُولِهِ {لَمْ يَلْبَثُوا} فِي الدُّنْيَا فِي ظَنّهمْ {إلا ساعة من نهار} هذا القرآن {بلاغ} تَبْلِيغ مِنْ الله إلَيْكُمْ {فَهَلْ} أَيْ لَا {يُهْلَك} عِنْد رُؤْيَة الْعَذَاب {إلَّا الْقَوْم الْفَاسِقُونَ} أي الكافرون[1].

---

(١) قوله تعالى: (فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ) يقول تعالى آمرًا رسوله على بالصبر على تكذيب من كذبه من قومه (فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ) أي: على تكذيب قومهم لهم، وأُولُوا الْعَزْمِ: أي أرباب الثبات والحزم فإنك منهم.

- وإنما أمره بالصبر لأمور:

أولًا: لأن بالصبر ينتصر الإنسان كما قال ﷺ (واعلم أن النصر مع الصبر).

ثانيًا: أن الصبر فيه رفع للدرجات وتكفير للسيئات.

ثالثًا: وبالصبر مع اليقين تنال الإمامة في الدين كما قال تعالى (وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ).

رابعًا: وليكون قدوة لغيره.

=

=

قال الشنقيطي: والقول بأن المراد بأولي العزم جميع الرسل عليهم الصلاة والسلام، وأن لفظة (من) في قوله (من الرسل) بيانية، يظهر أنه خلاف التحقيق كما دل على ذلك بعض الآيات القرآنية، كقوله تعالى (فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ إ) فأمر الله نبيه بالصبر ونهاه أن يكون مثل يونس لأنه هو صاحب الحوت.

(وَلا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ) أي: لا تستعجل لهم حلول العقوبة بهم، كقوله تعالى (وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا) وكقوله تعالى (فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا).

- والسبب في النهي عن استعجال العذاب، لأنهم معذبون لا محالة عند انتهاء المدة المحددة للإمهال كما يوضحه قوله تعالى (فَلا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا) وقوله تعالى (نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَى عَذَابٍ غَلِيظٍ).

(كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ) من العذاب.

(لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ) أي: كأنهم يوم يشاهدونه في الآخرة لم يلبثوا في الدنيا إلا قدر ساعة من ساعات الأيام لما يشاهدونه من الهول العظيم والبلاء المقيم.

كما قال تعالى (كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا) وقال تعالى (وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَنْ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنَ النَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللهِ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ).

(بَلاغٌ) يحتمل معنيين، أحدهما، أن يكون تقديره: وذلك اللبث بلاغ، والآخر، أن يكون تقديره: هذا القرآن بلاغ. وهذا الصحيح بدليل قوله (هَذَا بَلاغٌ لِلنَّاسِ وَلِيُنْذَرُوا بِهِ)، وقوله (إِنَّ فِي هَذَا لَبَلاغًا لِقَوْمٍ عَابِدِين)، وخير ما يفسر به القرآن القرآن.

(فَهَلْ يُهْلَكُ) أي: بعذاب الله إذا أنزله بمقتضى العدل والحكمة.

=

=

(إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ) الذين خالفوا أمره، وخرجوا من طاعته، نعوذ بالله من غضبه وأليم عقابه، والمراد بالفسق هنا الفسق المخرج من الملة.

قوله تعالى: {فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ} [الأحقاف:٣٥]، أي:" فاصبر -أيها الرسول- على ما أصابك مِن أذى قومك المكذبين لك، كما صبر أولو العزم من الرسل من قبلك".

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ، مثبته على المضيّ لما قلَّده من عبْء الرسالة، وثقل أحمال النبوّة ﷺ، وآمره بالائتساء في العزم على النفوذ لذلك بأولي العزم من قبله من رسله الذين صبروا على عظيم ما لَقُوا فيه من قومهم من المكاره، ونالهم فيه منهم من الأذى والشدائد {فَاصْبِرْ} يا محمد على ما أصابك في الله من أذى مكذّبيك من قومك الذين أرسلناك إليهم بالإنذار {كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ} على القيام بأمر الله، والانتهاء إلى طاعته من رسله الذين لم ينههم عن النفوذ لأمره، ما نالهم فيه من شدّة. وقيل: إن أولي العزم منهم، كانوا الذين امتُحِنوا في ذات الله في الدنيا بِالمحَن، فلم تزدهم المحن إلا جدّا في أمر الله، كنوح وإبراهيم وموسى ومن أشبههم".

قال مقاتل:" {فاصبر} يا محمد على الأذى والتكذيب يعزي نبيه ﷺ ليصبر {كما صبر أولوا العزم}، يعني: أولو الصبر {من الرسل}".

قال الشوكاني:" لما قرر سبحانه الأدلة على النبوة والتوحيد والمعاد أمر رسوله بالصبر، فقال: {فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ} والفاء جواب شرط محذوف، أي: إذا عرفت ذلك وقامت عليه البراهين ولم ينجع في الكافرين فاصبر كما صبر أولو العزم، أي: أرباب الثبات والحزم فإنك منهم".

قال ابن عطية:" قوله تعالى: {فَاصْبِرْ} الفاء عاطفة هذه الجملة من الوصاة على هذه الجملة من الإخبار عن حال الكفرة في الآخرة، والمعنى بينهما مرتبط، أي:

=

=

هذه حالهم مع الله.. وقوله: {مِنَ الرُّسُلِ} {مِنَ} للتبعيض، والمراد من حفظت له مع قومه شدة ومجاهدة".

قال القشيري:" أولو الجد والصبر والحزم، و «الصبر» هو الوقوف لحكم الله، والثبات من غير بثّ ولا استكراه".

قال ابن كثير:" قال تعالى آمرا رسوله ﷺ بالصبر على تكذيب من كذبه من قومه، {فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ}، أي: على تكذيب قومهم لهم".

قال سهل:" يعني: اصبر صبر أهل المعرفة، كما صبر أولو العزم من الرسل الذين كانوا قبلك رضى وتسليمًا من غير شكوى ولا جزع. وقال: أولو العزم من الرسل إبراهيم صلوات الله عليه، ابتلي بالنار وذبح الولد فرضي وسلم وأيوب عليه السلام بالبلاء وإسماعيل بالذبح فرضي ونوح بالتكذيب فصبر ويونس ببطن الحوت فدعا والتجأ ويوسف صلوات الله عليه بالسجن والجب فلم يتغير ويعقوب بذهاب البصر وفقدان الولد، فشكا بثه إلى الله، ولم يشك إلى غيره، وهم اثنا عشر نبيًا صلوات الله عليهم، صبروا على ما أصابهم، فهم أولو العزم من الرسل، والله سبحانه وتعالى أعلم".

قال هبة الله:" قَوْله تَعَالَى {فَاصبِر كَما صَبَرَ أولُوا الْعَزْم من الرُّسُل} نسخ الْأَمر بِالصبرِ بِآيَة السَّيْف".

واختلف في قوله تعالى: {فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ} [الأحقاف:٣٥]، على أقوال:

أحدها: أن أولي العزم من الرسل الذين أمروا بالقتال من الأنبياء، قاله ابن عباس، والسدي، والكلبي.

الثاني: أنهم العرب من الأنبياء. قاله مجاهد، والشعبي.

الثالث: من لم تصبه فتنة من الأنبياء. قاله الحسن.

=

=

الرابع: من أصابه منهم بلاء بغير ذنب. قاله ابن جريج.

الخامس: انهم اصحاب الشرائع. حكاه الثعلبي.

السادس: ذوو الجد والصبر. قاله الضحاك.

السابع: الرأي والصواب. قاله القرظي.

الثامن: أنهم أولوا الصبر الذين صبروا على أذى قومهم فلم يجزعوا. حكاه الماوردي.

وقال سعيد بن جبير:" سماه الله من شدته العزم".

عن عائشة-رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا- قالت:"ظل رسول الله ﷺ صائما ثم طواه، ثم ظل صائما ثم طواه، ثم ظل صائما قال: «يا عائشة، إن الدنيا لا تنبغي لمحمد ولا لآل محمد، يا عائشة إن الله لم يرض من أولي العزم من الرسل إلا بالصبر على مكروهها والصبر عن محبوبها، ثم لم يرض مني إلا أن يكلفني ما كلفهم، فقال: {فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ}، وإني والله لاصبرن كما صبروا جهدي ولا قوة إلا بالله".

وفي «أولي العزم من الرسل»، أقوال:

أحدها: أن جميع الأنبياء أولوا العزم، ولم يبعث الله رسولًا إلا كان من أولي العزم. فأمر رسول الله -ﷺ- أن يصبر كما صبروا، قاله ابن زيد.

واختاره ابن الانباري، وقال: " «مِنْ» دخلتْ للتجنيس لا للتبعيض، كما تقول: قد رأيتُ الثياب من الخَزِّ والجِباب من القَزِّ".

قال ابن عطية:" وقال ابن زيد ما معناه: إن {مِنَ} لبيان الجنس. قال: والرسل كلهم أُولُوا الْعَزْمِ، ولكن قوله: {كَما صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ} يتضمن رسلا وغيرهم، فبين بعد ذلك جنس الرسل خاصة تعظيما لهم، ولتكون القدوة المضروبة لمحمد عَلَيْهِ السَّلَامُ أشرف، وذكر الثعلبي هذا القول عن علي بن مهدي الطبري".

الثاني: أن أولي العزم منهم: نوح وهود وإبراهيم، فأمر الله رسوله أن يكون رابعهم،

=

قاله أبو العالية.

قال ابو العالية:" وكانوا ثلاثة ورسول الله ﷺ رابعهم، قال نوح: {يَا قَوْمِ إِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذْكِيرِي بِآيَاتِ} [يونس: ٧١]،إلى آخرها فأظهر لهم المفارقة وقال هود حين قالوا: {إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ (٥٤) مِنْ دُونِهِ} [هود: ٥٤ - ٥٥]، فأظهر لهم المفارقة قال لإبراهيم {قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ} [الممتحنة: ٤]، إلى آخر الآية فأظهر لهم المفارقة قال يا محمد: {قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ} [الأنعام: ٥٦]، فقام رسول الله ﷺ عند الكعبة فقرأها على المشركين فأظهر لهم المفارقة".

قال قتادة:" كنا نحدث أن إبراهيم كان منهم".

الثالث: أنهم: أربعة: نوح وإبراهيم وموسى وعيسى، قاله قتادة.

وروي مالك بن أنس، عن الحسن بن زيد في هذه الآية: {كما صبر أولوا العزم من الرسل}، أنهم أربعة، ولم يحفظ أسماءهم".

الرابع: أنهم: أربعة: إبراهيم، وموسى، وداود، وعيسى. قاله الحسن البصري.

قال الحسن:" فقال: إبراهيم فعزمه قيل له: أسلم، قال: {أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ} [البقرة: ١٣١]. ثم ابتلي في ماله، وولده، ووطنه، ونفسه، فوجد صادقا وافيا في جميع ما أبتلي به، وأما موسى، فعزمه قوله حين قال له قومه: {إِنَّا لَمُدْرَكُونَ} [الشعراء: ٦١]، قال: {كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ} [الشعراء: ٦٢]، وأما داود، فعزمه أنه أخطأ خطيئة، فنبه عليها، فبلي أربعين سنة على خطيئته حتى نبتت من دموعه شجرة، وقعد تحت ظلها، وأما عيسى فعزمه أنه لم يضع في الدنيا لبنة على لبنة، وقال: إنها معبر فاعبروها، ولا تعمروها. فكان الله تعالى يقول لرسوله ﷺ: {فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ} [الأحقاف: ٣٥]، أي: كن صادقا فيما =

ابتليت به مثل صدق إبراهيم، واثقا بنصرة مولاك مثل ثقة موسى، مهتما لما سلف من هفواتك مثل اهتمام داود، زاهدا في الدنيا مثل زهد عيسى -عليه السلام-".

الخامس: أنهم: نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد -صلى الله عليه وسلم-. قاله ابن عباس، ومجاهد، وقتادة، وعطاء الخُراسانيّ، وابن السائب الكلبي.

السادس: أنهم: نوح وهود وإبراهيم وشعيب وموسى، قاله قتادة -أيضا-.

السابع: أنهم: نوح وَهود وَصَالح ومُوسَى وَدَاوُد وَسليمَان. قاله ابن عباس-أيضا.

الثامن: أنهم: إبراهيم وموسى وداود وسليمان وعيسى ومحمد -صلوات الله عليهم أجمعين-، قاله السدي.

التاسع: أنهم ستة: نوح صبر على أذى قومه طويلا، وإبراهيم صبر للناس، وإسحاق صبر نفسه للذبح، ويعقوب صبر على الفقد لولده وعمي بصره وقال: {فَصَبْرٌ جَمِيلٌ} [يوسف: ٨٣]، ويوسف على السجن وفي البئر، وأيوب صبر على البلاء. قاله مقاتل.

العاشر: أنهم الثمانية عشر المذكورين في سورة الأنعام، لأنه قال بعقب ذكرهم: {أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللهُ فَبِهُداهُمُ اقْتَدِهْ} [الأنعام: ٩٠]. قاله الحسن بن الفضل.

الحادي عشر: أن منهم إسماعيل ويعقوب وأيوب، وليس منهم يونس ولا سليمان ولا آدم، قاله ابن جريج.

وحكي عن أبي القاسم الحكيم أنه قال: "الرسل كلهم أولو عزم إلا يونس عليه السلام".

وعَن جَابر بن عبد الله -رضي الله عنه- قَالَ: "بَلغنِي أَن أولي الْعَزْم من الرُّسُل كَانُوا ثلثمِائة وَثَلَاثَة عشر".

وعن أبي علي حبش المقري، قال: "قال بعض أهل العلم: أولوا العزم اثنا عشر نبيا أرسلوا إلى بني إسرائيل بالشام فعصوهم، فأوحى الله تعالى إلى الأنبياء -عليهم السلام-: «إني مرسل عذابي على عصاة بني إسرائيل»، فشق ذلك عليهم،

=

فأوحى الله تعالى إليهم أن اختاروا لأنفسكم، إن شئتم أنزلت بكم العذاب وأنجيت بني إسرائيل، وإن شئتم أنجيتكم وأنزلت ببني إسرائيل. فتشاوروا بينهم، فاجتمع رأيهم على أن ينزل بهم العذاب وينجي بني إسرائيل، فأنجى الله بني إسرائيل وأنزل بأولئك العذاب، وذلك إنه سلط عليهم ملوك الأرض، فمنهم من نشر بالمناشير، ومنهم من سلخ جلد رأسه ووجهه، ومنهم من رفع على الخشب، ومنهم من أحرق بالنار".

قال ابن كثير:" وقد اختلفوا في تعداد أولي العزم على أقوال، وأشهرها أنهم: نوح، وإبراهيم، وموسى، وعيسى، وخاتم الأنبياء كلهم محمد ﷺ، قد نص الله على أسمائهم من بين الأنبياء في آيتين من سُورَتَي "الأحزاب" و "الشورى"، وقد يحتمل أن يكون المراد بأولي العزم جميع الرّسُل، وتكون {مِنَ} في قوله: {مِنَ الرُّسُلِ} لبيان الجنس".

قال ابن عطية:" ولا محالة أن لكل نبي ورسول عزما وصبرا".

عن الأحوص بن حكيم بن كعب الحبر، قال: "في جنة عدن مدينة من لؤلؤ بيضاء، تكل عنها الأبصار، لم يرها نبي مرسل ولا ملك مقرب، أعدها الله سبحانه وتعالى لأولي العزم من الرسل والشهداء والمجاهدين، لأنهم فضلوا الناس عقلا وحلما وإنابة ولبا".

قال ابن عباس: "يريد العذاب".

قوله تعالى: {وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ} [الأحقاف:٣٥]، أي:" ولا تستعجل لقومك العذاب".

قال الطبري:" يقول: ولا تستعجل عليهم بالعذاب، يقول: لا تعجل بمسألتك ربك ذلك لهم فإن ذلك نازل بهم لا محالة.

قال ابن كثير:" أي: لا تستعجل لهم حلول العقوبة بهم، كقوله: {وَذَرْنِي

=

وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلا} [المزمل: ١١]، وكقوله {فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا} [الطارق: ١٧]".

قال ابن عطية:" فلا تستعجل أنت فيما حملته واصبر له ولا تخف في الله أحدا".

قال البغوي:" كأنه ضجر بعض الضجر فأحب أن ينزل العذاب بمن أبى منهم، فأمر بالصبر وترك الاستعجال".

قوله تعالى: {كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ} [الأحقاف:٣٥]، أي:" كأنهم حين يعاينون العذاب في الآخرة لم يلبثوا في الدنيا إلا ساعةً واحدة من النهار، لما يشاهدون من شدة العذاب وطوله".

قال الطبري:" يقول: كأنهم يوم يرون عذاب الله الذي يعدهم أنه منزله بهم، لم يلبثوا في الدنيا إلا ساعة من نهار، لأنه ينسيهم شدّة ما ينزل بهم من عذابه، قدر ما كانوا في الدنيا لبثوا، ومبلغ ما فيها مكثوا من السنين والشهور، كما قال جل ثناؤه: {قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَاسْأَلِ الْعَادِّينَ}".

قال الشوكاني:" أي: كأنهم يوم يشاهدونه في الآخرة لم يلبثوا في الدنيا إلا قدر ساعة من ساعات الأيام لما يشاهدونه من الهول العظيم والبلاء المقيم".

وقال الكلبي: "لم يمكثوا في القبور إلا ساعة".

قال ابن كثير:"استقصروا مدة لبثهم في الدنيا وفي البرزخ حين عاينوا يوم القيامة وشدائدها وطولها".

قوله تعالى: {بَلَاغٌ} [الأحقاف:٣٥]، أي:" هذا بلاغ وإنذار".

وفي قوله تعالى: {بَلَاغٌ} [الأحقاف:٣٥]، وجوه من التفسير:

أحدها: أن ذلك اللبث بلاغ، يمعنى: ذلك بلاغ لهم في الدنيا إلى أجلهم. قاله ابن عيسى، وابن جرير الطبري، والأخفش.

=

قال النحاس:" يقال: ما معه من الزاد إلا بلاغ، أي: قليل".

الثاني: أن هذا القرآن والتذكير بلاغ لهم وكفاية، إن فكَّروا واعتبروا فتذكروا، قاله الحسن.

قال البغوي:" والبلاغ بمعنى التبليغ".

الثالث: أن هذا الذي وصفه الله من الموعظة بلاغ، وهو حلول ما وعده إما من الهلاك في الدنيا أو العذاب في الآخرة. قاله الأخفش.

وقرأ أبو مجلز: «بلغ»، على الأمر.

قوله تعالى: {فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ} [الأحقاف:٣٥]، أي:" ولا يُهْلَكُ بعذاب الله إلا القوم الخارجون عن أمره وطاعته".

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره: فهل يهلك الله بعذابه إذا أنزله إلا القوم الذين خالفوا أمره، وخرجوا عن طاعته وكفروا به. ومعنى الكلام: وما يهلك الله إلا القوم الفاسقين".

قال ابن كثير:" أي: لا يهلك على الله إلا هالك، وهذا من عدله تعالى أنه لا يعذب إلا من يستحق العذاب".

قال البغوي:" {فهل يهلك} بالعذاب إذا نزل {إلا القوم الفاسقون} الخارجون من أمر الله".

قال مقاتل:" يعني: العاصون الله- ﷻ- فيما أمرهم من أمره ونهيه".

قال الواحدي:" يعني: أن العذاب لا يقع إلا بهم فيما بلغهم محمد -ﷺ- عن الله".

قال النحاس:" "أي: فهل يهلك مع رحمة الله وتفضله إلا القوم الفاسقون؟ " أي: من فسق في الدنيا. ويقال: إن هذه الآية من أرجى آية في القرآن إلا أن ابن عباس قال: أرجى آية في القرآن {وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِم} [الرعد:

=

سورة القتال أو محمد(١)

=

٦]".

قال الزجاج:" تأويله أنه لا يهلك مع رحمة الله وتَفَضله إلا القومُ الفَاسِقُون.. وما في الرجاء لرحمة الله شيء أقوى من هذه الآية، وهي قوله: {فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ}".

قال قتادة:" تعلموا ما يهلك على الله إلا هالك ولى الإسلام ظهرَه أو منافق صدّق بلسانه وخالف بعمله. ذُكر لنا أن نبيّ الله ﷺ كان يقول: "أَيُّمَا عَبْدٍ مِنْ أُمَّتِي هَمَّ بِحَسَنَةٍ كُتِبَتْ لَهُ وَاحِدَةٌ، وَإِنْ
عَملها كُتِبَتْ لَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا. وَأَيُّمَا عَبْدٍ هَمَّ بِسَيِّئَةٍ لَمْ تُكْتَبْ عَلَيْهِ، فَإِنْ عَمِلَهَا كُتِبَتْ سَيِّئَةً وَاحِدَةً، ثُمَّ كَانَ يَتْبَعُهَا، وَيَمْحُوهَا اللهُ وَلا يَهْلِكُ إلا هَالِك".

(١) قال الفيروزآبادي:" السورة مدنية بالاتفاق".

قال ابن عطية:" هذه السورة مدنية بإجماع، غير أن بعض الناس قال في قوله تعالى: {وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِنْ قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ} [محمد: ١٣] إنها نزلت بمكة في وقت دخول النبي فيها عام الفتح أو سنة الحديبية، وما كان مثل هذا فهو معدود في المدني، لأن المراعى في ذلك إنما هو ما كان قبل الهجرة أو بعدها".

* آياتها أَربعون فى البصرة، وثمان فى الكوفة وتسع وثلاثون عند الباقين. وكلماتها خمسمائة وتسع وثلاثون. وحروفها أَلفان وثلثمائة وتسع وأَربعون. المختلف فيها آيتان: أَوزارها، للشاربين. فواصل آياتها (ما).

* أسماء السورة.

تسمى: «سورة محمد» سميت هذه السورة في كلام الصحابة-رضوان الله عليهم-
=

=

، وفي كتب السُّنَّة «سورة محمد» وكذلك تُرجمت في «صحيح البخاري»، وكذلك في كتب التفسير.

ووجهه أنها ذُكر فيها اسم النبي ﷺ في الآية الثانية منها، فعُرفت به قبل سورة آل عمران التي فيها: {وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُول} [آل عمران: ١٤٤].

قال المهايمي:" سميت به، لما فيها من أن الإيمان بما نزل على محمد متفرقا، أعظم من الإيمان بما نزل مجموعا على سائر الأنبياء عليهم السلام. وهو من أعظم مقاصد القرآن".

وتسمى «سورة الذين كفروا» تسمى «سورة الذين كفروا»، كما جاءت في كلام الصحابة -رضوان الله عليهم-.

وتسمى «سورة القتال» سميت هذه السورة في كلام بعض الصحابة-رضوان الله عليهم- بـ«سورة القتال»، كما روي عن قال ابن عباس، قال:"أنزلت سورة القتال بالمدينة.

وبهذا الاسم عنونها بعض كتب التفسير، ووجه تسميتها بهذا؛ لأنها ذكرت فيها مشروعية القتال؛ ولأنها ذكر فيها لفظه في قوله تعالى: {وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ} [محمد: ٢٠]، فالمراد بـ«السورة» في هذه الآية هذه السورة، فتكون تسميتها «سورة القتال» تسمية قرآنية.

قال المهايمي:" وتسمى سورة «القتال»، لدلالتها على ارتفاع حرمة نفوس الكفار المانعة من قتالهم، وما يترتب على القتال وكثرة فوائده".

* معظم مقصود السّورة: الشكاية من الكفَّار فى إِعراضهم عن الحقِّ، وذكر آداب الحرب والأَسرى وحكمهم، والأَمر بالنُّصرة والإِيمان، وابتلاء الكفَّار فى العذاب، وذكر أَنهار الجنة: من ماء، ولبن، وخمر، وعسل، وذكر طعام الكفَّار وشرابهم، وظهور علامة القيامة، وتخصيص الرّسول ﷺ بأَمره بالخوض فى بحر التوحيد،

=

بسم الله الرحمن الرحيم[١]

الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ (١).

{الَّذِينَ كَفَرُوا} مِنْ أَهْل مَكَّة {وَصَدُّوا} غَيْرهمْ {عَنْ سَبِيل الله} أَيْ الْإِيمَان {أَضَلَّ} أَحْبَطَ {أَعْمَالهمْ} كَإِطْعَامِ الطَّعَام وَصِلَة الْأَرْحَام فَلَا يَرَوْنَ لَهَا فِي الْآخِرَة ثَوَابًا وَيُجْزَوْنَ بِهَا فِي الدُّنْيَا مِنْ فَضْله تَعَالَى.

وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ (٢).

=

والشكاية من المنافقين، وتفصيل ذميمات خِصالهم، وأمر المؤمنين بالطاعة والإحسان، وذمّ البخلاءِ فى الإنفاق، وبيان استغناءِ الحَقِّ تعالى، وفقر الخَلْق فى قوله: {والله الغني وَأَنتُمُ الفقرآء}.

* المتشابهات: قوله: {لَوْلاَ نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ} نزّل وأُنزل كلاهما متعدٍّ. وقيل: نزّل للتعدّى والمبالغة، وأنزل للتَّعدِّى. وقيل: نزّل دفعة مجموعًا وأنزل متفرّقًا، وخصّ الأُولى بنزِّلت؛ لأَنَّه من كلام المؤمنين، وذكر بلفظ المبالغة، وكانوا يأْنسون لنزول الوحى، ويستوحشون لإِبطائه. والثَّانى من كلام الله تعالى، ولأَنَّ فى أَوّل السّورة {نُزِّلَ على مُحَمَّدٍ} وبعده: {أَنزَلَ الله} وكذلك فى هذه الآية قال: {نُزِّلَتْ} ثم {أَنزَلَت}.

قوله: {مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الهدى الشيطان سَوَّلَ لَهُمْ} نزلت فى اليهود، وبعده: {مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الهدى لَن يَضُرُّوا الله شَيْئًا} نزلت فى قوم ارتدّوا. وليس بتكرار. ا. هـ من بصائر ذوي التمييز (١/ ٤٣٠ - ٤٣١).

(١) تقدم تفسير البسملة في أول سورة الفاتحة.

{وَالَّذِينَ آمَنُوا} أَيْ الْأَنْصَار وَغَيْرهمْ {وَعَمِلُوا الصَّالِحَات وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّد} أَيْ الْقُرْآن {وَهُوَ الْحَقّ مِنْ رَبّهمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ} غَفَرَ لَهُمْ {سَيِّئَاتهمْ وَأَصْلَحَ بَالهمْ} حَالهمْ فَلَا يَعْصُونَهُ.

ذَلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِنْ رَبِّهِمْ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ (٣).

{ذَلِكَ} أَيْ إِضْلَال الْأَعْمَال وَتَكْفِير السَّيِّئَات {بِأَنَّ} بِسَبَبِ أَنَّ {الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِل} الشَّيْطَان {وَأَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقّ} الْقُرْآن {مِنْ رَبّهمْ كَذَلِكَ} أَيْ مِثْل ذَلِك الْبَيَان {يَضْرِب الله لِلنَّاسِ أَمْثَالهمْ} يُبَيِّن أَحْوَالهمْ أَيْ فَالْكَافِر يُحْبِط عَمَله وَالْمُؤْمِن يَغْفِر لَهُ[1].

---

(١) ذكر سبب النزول.

عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما؛ قال: نزلت في أهل مكة: {الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ} {وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ}؛ قال: الأنصار، {وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ} قال: أمرهم.

أخرجه الطبري في "جامع البيان" (٢٦/ ٢٥)، وأبو داود في "الزهد" (رقم ٣٢٢، ٣٥٢)، والحاكم في "المستدرك" (٢/ ٤٥٧) من طريق إسرائيل عن أبي يحيى القتات عن مجاهد عن ابن عباس به.

وقال الحاكم: "هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه"،! ووافقه الذهبي.!!

وذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٧/ ٤٥٧) وزاد نسبته للفريابي وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه.

* قوله تعالى: (الَّذِينَ كَفَرُوا) أي: بآيات الله، والكفر بآيات الله الشرعية (وهي الوحي المنزل) يكون بعدة أمور:

=

=

أولًا: بتكذيبها، ثانيًا: أو بجحودها، ثالثًا: أو بالاستكبار والعناد.
(وَصَدُّوا) غيرهم.
(عَنْ سَبِيلِ اللهِ) أي: عن طريق الله الموصل إليه وإلى مرضاته.
(أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ) أي: أحبطها وأذهبها، ولم يجعل لها جزاء ولا ثوابًا.
كما قال تعالى (وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا).
- لفظ الضلال في القرآن يطلق على ثلاثة إطلاقات:
الأول: إطلاق الضلال على الضلال عن طريق الهدى إلى طريق الزيغ، وعن طريق الجنة إلى طريق النار.
كما قال تعالى (وَمَنْ يُضْلِلْ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ).ومنه قوله تعالى (غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلا الضَّالِّينَ).
ومنه قوله تعالى (قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ)، وهذا أغلب استعمال الضلال.
والثاني: هو إطلاق الضلال على الغيْبَة والاضمحلال.
ومنه قوله تعالى (وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ) أي: غاب واضمحل ولم يبق له أثر.
ومنه قوله تعالى (وَقَالُوا أَإِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ) فمعنى (ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ) أي: اضمحلت عظامهم ولحومهم وجلودهم فيها فأكلتها واختلطت بها.
والثالث: إطلاق الضلال على الذهاب عن علم الشيء، فكل ما لم يهتد إلى علم شيء تقول العرب: ضل.
ومنه قول أولاد يعقوب (إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ) أي: ذهاب عن علم الحقيقة حيث يفضّل يوسف علينا.

=

وقوله (قَالُوا تَاللهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلالِكَ الْقَدِيمِ) أي: ذهابك عن حقيقة العلم بالشيء، لأنك تظن يوسف حيًا، ولا يريدون الضلال، لأنهم لو أرادوا الضلال في الدين لكانوا كفرة لتضليلهم نبيًا من الأنبياء.

ومنه قوله تعالى (لا يَضِلُّ رَبِّي وَلا يَنْسَى) أي: لا يذهب عنه علم شيء ولا ينسى شيئًا.

قوله تعالى: {الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللهِ} [محمد: ١]، أي:" الذين جحدوا أن الله هو الإله الحق وحده لا شريك له، وصدوا الناس عن دينه".

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره: الذين جحدوا توحيد الله وعبدوا غيره وصدّوا من أراد عبادتَه والإقرار بوحدانيته، وتصديق نبيه محمد ﷺ عن الذي أراد من الإسلام والإقرار والتصديق".

قال ابن كثير:" يقول تعالى: {الَّذِينَ كَفَرُوا}، أي: بآيات الله، {وصدوا} غيرهم {عَنْ سَبِيلِ اللهِ}".

قال السعدي:" هؤلاء رؤساء الكفر، وأئمة الضلال، الذين جمعوا بين الكفر بالله وآياته، والصد لأنفسهم وغيرهم عن سبيل الله، التي هي الإيمان بما دعت إليه الرسل واتباعه".

قال ابن عباس:" {الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله} أهل مكة".

عن قتادة، {الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ}، قال: "الذين قتلوا يوم أحد".

عن السدي: " {وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ} [الحج: ٢٥]،" يعني: ويمنعون الناس عن دين الله الإسلام".

قال السدي:" أما {سبيل الله}: فمحمد ﷺ".

قوله تعالى: {أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ} [محمد: ١]، أي:" أَذْهَبَ الله أعمالهم، وأبطلها،

=

وأشقاهم بسببها".

قال الطبري:" يقول: جعل الله أعمالهم ضلالا على غير هدى وغير رشاد، لأنها عملت في سبيل الشيطان وهي على غير استقامة".

قال ابن قتيبة: أي:" أبطلها، وأصل «الضلال»: الغيبوبة. يقال ضل الماء في اللبن، إذا غاب وغلب عليه، فلم يتبين".

قال ابن كثير:" أي: أبطلها وأذهبها، ولم يجعل لها جزاء ولا ثوابا، كقوله تعالى: {وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا} [الفرقان: ٢٣]".

قال مقاتل:" يقول: أبطل الله أعمالهم، يعني: نفقتهم فى غزاة بدر ومسيرهم ومكرهم أبطل الله ذلك كله في الآخرة، أبطل أعمالهم التي عملوا في الدنيا، لأنها كانت في غير إيمان".

قال الزجاج:" أحبطها فلا يرون في الآخرة لها جزاء، والمعنى: أن حبط ما كان من صدَقَاتِهِمْ وصلتهم الرحِمَ وأبواب البر بكفرهم، كما قال ﷻ: {كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللهُ أَعْمَالَهُم حَسَراتٍ عَلَيْهِمْ}، وقوله: {كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ}، وهؤلاء هم الذين صدوا عن النبي ﷺ".

قال السعدي:" أي: أبطلها وأشقاهم بسببها، وهذا يشمل أعمالهم التي عملوها ليكيدوا بها الحق وأولياء الله، أن الله جعل كيدهم في نحورهم، فلم يدركوا مما قصدوا شيئا، وأعمالهم التي يرجون أن يثابوا عليها، أن الله

سيحبطها عليهم، والسبب في ذلك أنهم {اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ}، وهو كل غاية لا يراد بها وجه الله من عبادة الأصنام والأوثان، والأعمال التي في نصر الباطل لما كانت باطلة، كانت الأعمال لأجلها باطلة".

وقال الضحّاك: "أبطل كيدهم ومكرهم بالنبي ﷺ وجعل الديرة عليهم".

قوله (وَالَّذِينَ آمَنُوا) بقلوبهم.

=

(وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ) وعملوا الأعمال الصالحات، من الأفعال والأقوال، الواجبات والمستحباب.

- والعمل الصالح لا يكون صالحًا إلا بشرطين: الشرط الأول: الإخلاص، لقوله ﷺ (إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرى ما نوى)، الشرط الثاني: المتابعة للنبي ﷺ لقوله ﷺ (من عمل عملًا ليس عليه أمرنا فهو رد) رواه مسلم.

(وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ) عطف خاص على عام، وهو دليل على أن الإيمان بمحمد شرط في صحة الإيمان بعد بعثته صلوات الله وسلامه عليه.

(وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ) أي: وهو الثابت المؤكد المقطوع بأنه كلام الله ووحيه المنزّل من عند الله، والجملة اعتراضية لتأكيد السابق.

- وهذه الجملة تدل على أن ما جاء به الرسول ﷺ حق، سواء كان طلبًا أم خبراً، ففي الطلب نسمع ونطيع ونقول (سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا)، وفي الخبر نصدق، وثواب هؤلاء هو:

(كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ) أي: أزال ومحا عنهم ما مضى من الذنوب والأوزار.

- قوله تعالى (كفّر) أي: ستر، مأخوذة من (الكَفْر) بفتح الكاف وسكون الفاء، وهو الستر، ومنه سميت الكفارة، لأنها تستر الذنب، وسمي الزارع كافرًا لأنه يستر الحب في الأرض، وسمي الليل كافرًا لأنه يستر الكون بظلامه، وسمي الشخص الكافر لأنه ستر نعمة الله عليه.

- قوله تعالى (سَيِّئَاتِهِمْ) جمع سيئة، سميت بذلك لأنها سيئة بنفسها وقبيحة.

ولأنها أيضًا تسوء مرتكبها حالًا ومآلًا، وربما تسوء غيره بأن يتعدى ضررها إلى الغير مباشرة، أو بأن يكون لها أثرها السيئ على البلاد والعباد عامة بمحق البركات وقلة الخيرات، كما قال تعالى (ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ) وقال ﷺ (ما منع قوم

زكاة أموالهم إلا منعوا القطر من السماء) رواه ابن ماجه.
- والسيئات في الأصل تطلق على الكبائر والصغائر كما هنا، قد يراد بها الصغائر إذا قرنت مع الكبائر كما في قوله تعالى (إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُمْ مُدْخَلًا كَرِيمًا).
(وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ) أي: شأنهم وحالهم.
قوله تعالى: {وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ} [محمد: ٢]، أي:" إن الذين صدَّقوا الله ورسوله وعملوا الأعمال الصالحة".
قال الطبري: يقول: " والذين صدّقوا الله وعملوا بطاعته، واتبعوا أمره ونهيه".
قال ابن كثير:" أي: آمنت قلوبهم وسرائرهم، وانقادت جوارحهم وبواطنهم وظواهرهم".
قال السعدي:" وأما {وَالَّذِينَ آمَنُوا} بما أنزل الله على رسله عموما، وعلى محمد ﷺ خصوصا، {وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ} بأن قاموا بما عليهم من حقوق الله، وحقوق العباد الواجبة والمستحبة".
قال مقاتل: " {وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ}، يعني: وأدوا الفرائض".
قال السمرقندي: " {وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ}، يعني: الطاعات".
قال ابن عباس:" {والذين آمنوا وعملوا الصالحات}: الأنصار".
عن السُّدِّيّ، في قوله: {والذين آمنوا وعملوا الصالحات}، يعني: أطاعوا الله فيما أمرهم به، وفرض عليهم".
قوله تعالى: {وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ} [محمد: ٢]، أي:" وصدَّقوا بالكتاب الذي أنزل على محمد ﷺ"، وهو تصديق مستلزم للقبول والإذعان".
قال سفيان الثوري:" يعني: لم يخالفوه في شيء".
قال الطبري:"يقول: وصدّقوا بالكتاب الذي أنزل الله على محمد".

=

قال ابن كثير: قوله:" {وَآمَنُوا بِمَا نزلَ عَلَى مُحَمَّدٍ}، عطف خاص على عام، وهو دليل على أنه شرط في صحة الإيمان بعد بعثته صلوات الله وسلامه عليه".

قوله تعالى: {وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ} [محمد: ٢]، أي:" وهو الثابت المؤكد المقطوع بأنه كلام الله ووحيهُ المنزَّل من عند الله".

قال مقاتل:" يعني: القرآن".

قال ابن كثير:" وقوله: {وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ} جملة معترضة حسنة".

قوله تعالى: {كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ} [محمد: ٢]، أي:" عفا عنهم وستر عليهم ما عملوا من السيئات، فلم يعاقبهم عليها".

قال الطبري:" يقول: محا الله عنهم بفعلهم ذلك سيئ ما عملوا من الأعمال، فلم يؤاخذهم به، ولم يعاقبهم عليه".

قال مقاتل:" يقول: محا عنهم سيئاتهم، يعني: ذنوبهم، الشرك وغيرها بتصديقهم".

قال ابن قتيبة:" أي: سترها".

قال الزجاج:" أي: كفَّر عَنْهُم وما اقترفوه وَهُمْ كافرونَ لمَّا آمنوا باللهِ وبالنبي عليه السلام، وسائر الأنبياء أجمعين".

قال النحاس: أي:" غطى عليها ولم يؤاخذهم بما عملوا وقت كفرهم".

قال السعدي:" {كَفَّرَ} الله {عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ} صغارها وكبارها، وإذا كفرت سيئاتهم، نجوا من عذاب الدنيا والآخرة".

قوله تعالى: {وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ} [محمد: ٢]، أي:" وأصلح شأنهم في الدنيا والآخرة".

قال مقاتل:" يقول: أصلح بالتوحيد حالهم في سعة الرزق".

قال الطبري:" يقول: وأصلح شأنهم وحالهم في الدنيا عند أوليائه، وفي الآخرة بأن

=

=

أورثهم نعيم الأبد والخلود الدائم في جنانه".

قال السعدي:" أي: أصلح دينهم ودنياهم، وقلوبهم وأعمالهم، وأصلح ثوابهم، بتنميته وتزكيته، وأصلح جميع أحوالهم، والسبب في ذلك أنهم: {اتبعوا الْحَقُّ} الذي هو الصدق واليقين، وما اشتمل عليه هذا القرآن العظيم، الصادر {مِنْ رَبِّهِمْ} الذي رباهم بنعمته، ودبرهم بلطفه فرباهم تعالى بالحق فاتبعوه، فصلحت أمورهم، فلما كانت الغاية المقصودة لهم، متعلقة بالحق المنسوب إلى الله الباقي الحق المبين، كانت الوسيلة صالحة باقية، باقيا ثوابها".

قال ابن قتيبة: {وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ}،" أي: حالهم".

عن ابن زيد:، قوله:" {وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ}، قال: حالهم"

قال قتادة:" أصلح حالهم".

عن ابن عباس: " {وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ}، قال: أمرهم".

وقال مجاهد:" شأنهم". وفي رواية:" أمرهم".

قال الزجاج:" أي: أَصْلَحَ امْرَهُمْ وحالهم".

وفي حديث تشميت العاطس: "يهديكم الله ويصلح بالكم".

عن ابن عباس، في قوله:" {وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ}، قال: الأنصار".

(ذَلِكَ) إشارة إلى ما مرّ مما أوعد به الكفار ووعد به المؤمنين.

(بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ) أي: اختاروا الباطل على الحق.

(وَأَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِنْ رَبِّهِمْ) أي: وأن المؤمنين سلكوا طريق الهدى، وتمسكوا بالحق والإيمان.

(كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ.) أي: يبين لهم مآل أعمالهم، وما يصيرون إليه في معادهم، ليعتبر الناس ويتعظوا.

قوله تعالى: {ذَلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِنْ

=

=

رَبِّهِمْ} [محمد: ٣]، أي:" ذلك الإضلال والهدى سببه أن الذين كفروا اتَّبَعوا الشيطان فأطاعوه، وأن الذين آمنوا اتَّبَعوا الرسول ﷺ وما جاء به من النور والهدى".

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره: هذا الذي فعلنا بهذين الفريقين من إضلالنا أعمال الكافرين، وتكفيرنا عن الذين آمنوا وعملوا الصالحات، جزاء منا لكلّ فريق منهم على فعله. أما الكافرون فأضللنا أعمالهم، وجعلناها

على غير استقامة وهدى، بأنهم اتبعوا الشيطان فأطاعوه، وهو الباطل، وأما المؤمنون فكفّرنا عنهم سيئاتهم، وأصلحنا لهم حالهم بأنهم اتبعوا الحقّ الذي جاءهم من ربهم، وهو محمد ﷺ، وما جاءهم به من عند ربه من النور والبرهان".

قال الزجاج:" أي: الأمر ذلك بأن الذين كفروا اتبعوا الباطل، وجائز أن يكون ذلك الإضلال لاتباعهم الباطل، وتلك الهداية والكفارات باتباع المؤمنين الحقَ".

قال السمعاني:" أي: ذلك الذي فعلناه من إحباط أعمال الكفار، وقبول أعمال المؤمنين وتكفير سيئاتهم وإصلاح بالهم، كان بأن الذين كفروا اتبعوا الباطل، وأن الذين آمنوا اتبعوا الحق من ربهم".

قال ابن كثير: "أي: إنما أبطلنا أعمال الكفار، وتجاوزنا عن سيئات الأبرار، وأصلحنا شؤونهم؛ لأن الذين كفروا اتبعوا الباطل، أي: اختاروا الباطل على الحق، {وَأَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِنْ رَبِّهِمْ}".

قال الشوكاني:" أي: الأمر ذلك بسبب أن الذين كفروا اتبعوا الباطل وأن الذين آمنوا اتبعوا الحق من ربهم فالباطل: الشرك، والحق: التوحيد والإيمان، والمعنى: أن ذلك الإضلال لأعمال الكافرين بسبب اتباعهم الباطل من الشرك بالله والعمل بمعاصيه، وذلك التكفير لسيئات المؤمنين وإصلاح بالهم بسبب اتباعهم للحق

=

فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّى إِذَا أَثْخَنْتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللهُ لَانْتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِنْ لِيَبْلُوَ بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ (٤).

=

الذي أمر الله باتباعه من التوحيد والإيمان وعمل الطاعات".

قال مجاهد:" الباطل: الشيطان".

عن ابن عباس:" {ذَلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ} :يعني: الشرك"، {وَأَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِنْ رَبِّهِمْ} قال ابن عباس: يعني التوحيد وتصديق النبي - ﷺ -".

قوله تعالى: {كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ} [محمد: ٣]، أي:"كما بيَّن الله تعالى فِعْلَه بالفريقين أهل الكفر وأهل الإيمان بما يستحقان يضرب سبحانه للناس أمثالهم، فيلحق بكل قوم من الأمثال والأشكال ما يناسبه".

قال الطبري:" يقول ﷻ: كما بينت لكم أيها الناس فعلي بفريق الكفر والإيمان، كذلك نمثل للناس الأمثال، ونشبه لهم الأشباه، فنلحق بكل قوم من الأمثال أشكالا".

قال الزجاج:" أي: كذلك يبين الله للناس أمثال حسنات المؤمنين وسيئات الكافرين، أي: كالبيان الذي ذكر، ومعنى قول القائل: ضربت لك مثلًا، أي بينت لك ضربًا من الأمثال، أي صنفًا منها".

قال الشوكاني:" أي: مثل ذلك الضرب يبين للناس أمثالهم، أي: أحوال الفريقين الجارية مجرى الأمثال في الغرابة".

قال ابن كثير: " أي: يبين لهم مآل أعمالهم، وما يصيرون إليه في معادهم".

قال عطاء: يريد: "فمصير الذين كفروا إلى النار، ومصير الذين آمنوا إلى الجنة".

{فَإِذَا لَقِيتُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْب الرِّقَاب} مَصْدَر بَدَل مِنْ اللَّفْظ بِفِعْلِهِ أَيْ فَاضْرِبُوا رِقَابهمْ أَيْ اُقْتُلُوهُمْ وَعَبَّرَ بِضَرْبِ الرِّقَاب لِأَنَّ الْغَالِب فِي الْقَتْل أَنْ يَكُون بِضَرْبِ الرَّقَبَة {حَتَّى إذَا أَثْخَنْتُمُوهُمْ} أَكْثَرْتُمْ فِيهِمْ الْقَتْل {فَشُدُّوا} فَأَمْسِكُوا عَنْهُمْ وَأْسِرُوهُمْ وَشُدُّوا {الْوَثَاق} مَا يُوثَق بِهِ الْأَسْرَى {فَإِمَّا مَنًّا بَعْد} مَصْدَر بَدَل مِنْ اللَّفْظ بِفِعْلِهِ أَيْ تَمُنُّونَ عَلَيْهِمْ بِإِطْلَاقِهِمْ مِنْ غَيْر شَيْء {وَإِمَّا فِدَاء} تُفَادُونَهُمْ بِمَالٍ أَوْ أَسْرَى مُسْلِمِينَ {حَتَّى تَضَع الْحَرْب} أَيْ أَهْلهَا {أَوْزَارهَا} أَثْقَالهَا مِنْ السِّلَاح وَغَيْره بِأَنْ يُسْلِم الْكُفَّار أَوْ يَدْخُلُوا فِي الْعَهْد وَهَذِهِ غَايَة لِلْقَتْلِ وَالْأَسْر {ذَلِكَ} خَبَر مُبْتَدَأ مُقَدَّر أَيْ الْأَمْر فِيهِمْ مَا ذُكِرَ {وَلَوْ يَشَاء الله لَانْتَصَرَ مِنْهُمْ} بِغَيْرِ قِتَال {وَلَكِنْ} أَمَرَكُمْ بِهِ {ليبلوا بَعْضكُمْ بِبَعْضٍ} مِنْهُمْ فِي الْقِتَال فَيَصِير مَنْ قُتِلَ مِنْكُمْ إلَى الْجَنَّة وَمِنْهُمْ إلَى النَّار {وَالَّذِينَ قُتِلُوا} وَفِي قِرَاءَة قَاتَلُوا الْآيَة نَزَلَتْ يَوْم أُحُد وَقَدْ فَشَا فِي الْمُسْلِمِينَ الْقَتْل وَالْجِرَاحَات {فِي سَبِيل الله فَلَنْ يُضِلّ} يُحْبِط {أعمالهم}.

سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ (٥).

{سَيُهْدِيهِمْ} فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَة إلَى مَا يَنْفَعهُمْ {وَيُصْلِح بَالهمْ} حَالهمْ فِيهِمَا وَمَا فِي الدُّنْيَا لِمَنْ لَمْ يُقْتَل وَأُدْرِجُوا فِي قُتِلُوا تَغْلِيبًا.

وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ (٦).

{وَيُدْخِلهُمْ الْجَنَّة عَرَّفَهَا} بَيَّنَهَا {لَهُمْ} فَيَهْتَدُونَ إلَى مَسَاكِنهمْ مِنْهَا وَأَزْوَاجهمْ وَخَدَمهمْ مِنْ غَيْر اسْتِدْلَال.

يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَنْصُرُوا اللهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ (٧).

{يأيها الَّذِينَ آمَنُوا إنْ تَنْصُرُوا الله} أَيْ دِينه وَرَسُوله {يَنْصُركُمْ} عَلَى عَدُوّكُمْ {وَيُثَبِّت أَقْدَامكُمْ} يُثَبِّتكُمْ فِي المعترك.

وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعْسًا لَهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ (٨).

{وَالَّذِينَ كَفَرُوا} مِنْ أَهْل مَكَّة مُبْتَدَأ خَبَره تَعِسُوا يَدُلّ عَلَيْهِ {فَتَعْسًا لَهُمْ} أَيْ هَلَاكًا وَخَيْبَة مِنْ الله {وَأَضَلَّ أَعْمَالهمْ} عُطِفَ عَلَى تعسوا.

ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنْزَلَ اللهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ (٩).

{ذَلِكَ} التَّعْس وَالْإِضْلَال {بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنْزَلَ الله} من القرآن المشتمل على التكاليف {فأحبط أعمالهم}(١).

---

(١) ذكر سبب النزول.

عن قتادة: {وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ}؛ قال: الذين قتلوا يوم أُحد.

أخرجه عبد الرزاق في "تفسيره" (٢/ ٢٢١)، والطبري في "جامع البيان" (٢٦/ ٢٨) من طرق عن قتادة به. هذا مرسل صحيح الإسناد.

والحديث ذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٧/ ٤٦١) وزاد نسبته لعبد بن حميد وابن أبي حاتم.

وعن ابن جريج في قوله: {وَلَوْ يَشَاءُ اللهُ لَانْتَصَرَ مِنْهُمْ}؛ قال: لأرسل عليهم ملكًا فدمر عليهم، وفي قوله: {وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ}؛ قال: نزلت فيمن قتل من أصحاب النبي ﷺ يوم أُحد.

ذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٧/ ٤٦١) ونسبه لابن المنذر. وسنده ضعيف؛ لإعضاله.

* قوله تعالى: (فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ) يقول تعالى مرشدًا للمؤمنين إلى ما يعتمدونه في حروبهم مع المشركين:

(فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ) أي: إذا واجهتموهم فاحصدوهم حصدًا بالسيوف.

=

=

(حَتَّى إِذَا أَثْخَنْتُمُوهُمْ) أي: أهلكتموهم قتلًا وأكثرتم فيهم الجراحات.

(فَشُدُّوا الْوَثَاقَ) أي: وِثاق الأسرى، والوثاق اسم لما يربط من حبل وغيره.

(فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً) أي: ثم أنتم مخيّرون بعد أسرهم، إمّا أن تمنوا عليهم وتطلقوا سراحهم بلا مقابل من مقابل، أو تأخذوا منهم فداءً لأنفسهم، ولكن بعد أن تكونوا قد كسرتم شوكتهم.

وقد اختلف في نسخ هذه الآية:

فمنهم: من قال: بأنها منسوخة بقوله تعالى: {فإذا انسلخ الأشهر الحرم فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم} [التوبة: ٥]؛ وبه قال قتادة، والحكم، ويروى النسخ عن أبي عباس؛ رواه عنه العوفي، وقد خالفه علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس بعدم النسخ، وأن الإمام مخير؛ وهو أصح.

وأكثر العلماء على عدم النسخ، وبه قال من السلف عطاء والحسن وعمر بن عبد العزيز وغيرهم.

وقد اختلف العلماء في أسرى المشركين بين التخيير بين القتل والمن والفداء، وبين تقديم واحد منها على الآخر، على أقوال:

قالت طائفة: إنه مخير بين المن والفداء، وليس له القتل؛ أخذا من ظاهر الآية، وأن الله خير بينهما، ولم يخيره بالقتل؛ وصح هذا عن عطاء بن أبي رباح والحسن، ورأوا أن الأسير لا يقتل إلا في الحرب.

وقال بعضهم: إنه يجب فيهم القتل، وإن التخيير منسوخ على ما تقدم حكايته، وممن قال بهذا القول من جعل الآية خاصة بأهل الأوثان؛ فلا يفادون ولا يمن عليهم؛ وفيه نظر.

ومنهم من استثنى المرأة؛ لأنها لا تقتل، فيجوز الفداء بها.

وبقتل الأسارى قال أبو حنيفة؛ حتى لا يعودوا لقتال المسلمين.

=

=

وقال جمهور الفقهاء: بأنه مخير بين القتل والمن والفداء والاسترقاق، وهذا الأرجح، فقد قتل النبي ﷺ أقواما من أسرى الكافرين؛ ففي بدر قتل النضر بن الحارث، وعقبة بن أبي معيط، وقد روى البخاري ومسلم أن ثمامة بن أثال قال لرسول الله ﷺ حين قال له: "ما عندك يا ثمامة؟ ": "إن تقتل تقتل ذا دم، وإن تنعم تنعم على شاكر، وإن كنت تريد المال، فسل تعط منه ما شئت".

وإنما لم يذكر القتل في الآية؛ لظهوره، وقد كان سابقا من النبي ﷺ في مواضع من الأسرى، والحاجة ماسة لبيان الحق بالفداء أو المن، وقد قتل النبي ﷺ أسرى في بدر، وقتل رجال بني قريظة، وهذا العمل المشتهر لو كان منسوخا، لنسخ بنص واضح بين؛ لأنه ليس بالأمر الهين، ولتجلى في عمل الصحابة.

وبالتخيير بين القتل والمن والفداء والرق قال جمهور الأئمة، وهو الصحيح عن ابن عباس، وجاء عن ابن عمر والثوري والأوزاعي، وهو مذهب مالك والشافعي وأحمد، وهو قول لأبي حنيفة حكاه عنه الطحاوي.

وقد روى علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس؛ في قوله تعالى: {ما كان لنبي أن يكون له أسرى حتى يثخن في الأرض} [الأنفال: ٦٧]، قال: ذلك يوم بدر والمسلمون يومئذ قليل، فلما كثروا واشتد سلطانهم، أنزل الله تعالى بعد هذا في الأسارى: {فإما منا بعد وإما فداء}، فجعل الله النبي والمؤمنين في الأسارى بالخيار: إن شاؤوا قتلوهم، وإن شاؤوا استعبدوهم، وإن شاؤوا فادوهم.

وقد حكى الجصاص الاتفاق على جواز قتل الأسير، والصواب: أنه المذهب الصحيح لعامتهم.

- هذا التخيير تخيير مصلحة وليس تخيير تشهي، يعني يلزم ولي الأمر أن يفعل ما تقتضيه المصلحة من منٍ أو قتل أو فداء، والضابط [إذا كان المقصود بالتخيير للتيسير فهو تشهٍ، وإذا كان التخيير بالتصرف للغير فهو مصلحي].

=

=

(حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا) أي: حتى تنتهي الحرب بوضع آلاتها وأثقالها وسلاحها، والعرب تسمي السلاح وزرًا، وتطلق العرب الأوزار على آلات الحرب وما يساعد فيها كالخيل، وقيل في معنى أوزار الحرب أقوال أخرى ضعيفة.

(ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللهُ لانْتَصَرَ مِنْهُمْ) أي: هذا ولو شاء الله لانتقم من الكافرين بعقوبة ونكال من عنده.

(وَلَكِنْ لِيَبْلُوَ بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ) أي: ولكن شرع الجهاد وقتال الأعداء ليختبركم ويبلوا أخباركم، كما ذكر حكمته سبحانه في سورتي (آل عمران) و (وبراءة). فيظهر الصادق من الكاذب، والمؤمن من المنافق.

كما قال تعالى (وَلِيُمَحِّصَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ. أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ).

وقال تعالى (أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللهِ أَلا إِنَّ نَصْرَ اللهِ قَرِيبٌ).

وقال تعالى (وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ اللهِ وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ. وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا...).

(وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ) أي: لن يذهبها بل يكثرها وينميها ويضاعفها، ومنهم من يجري عليه عمله في طول برزخه كما قال ﷺ (يعطى الشهيد ست خصال: يغفر له في أول دفعة من دمه، ويرى مقعده من الجنة، ويزوج من الحور العين، ويجار من عذاب القبر، ويأمن الفزع الأكبر...).

قوله تعالى: {فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ} [محمد: ٤]، أي:" فإذا لقيتم -أيها المؤمنون- الذين كفروا في ساحات الحرب فاصدقوهم القتال،

=

=

واضربوا منهم الأعناق".

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره لفريق الإيمان به وبرسوله: {فَإِذا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا} بالله ورسوله من أهل الحرب، فاضربوا رقابهم".

قال الزجاج:" معناه: فاضربوا الرقاب ضربًا، منصوبٌ على الأمر، وتأويله: فإذا لقيتُم الذين كفروا فاقتلوهم، ولكن أكثر مواقع القتل ضرب العُنُق، فأعلمهم الله ﷻ كيف القصد، وكيف قال: {واضْرِبُوا مِنْهُم كُلَّ بَنَانٍ}، أي: فليس يتوهم بهذا أن الضَّربَ محظور إلَّا على الرقبة فقط".

قال ابن كثير:" يقول تعالى مرشدا للمؤمنين إلى ما يعتمدونه في حروبهم مع المشركين: {فَإِذا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ}، أي: إذا واجهتموهم فاحصدوهم حصدا بالسيوف".

قال ابن عطية:" قوله: {فَضَرْبَ الرِّقابِ}، مصدر بمعنى الفعل، أي: فاضربوا رقابهم وعين من أنواع القتل أشهره وأعرفه فذكره، والمراد: اقتلوهم بأي وجه أمكن، قد زادت آية: {وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنانٍ} [الأنفال: ١٢] وهي من أنكى ضربات الحرب، لأنها تعطل من المضروب جميع جسده، إذ البنان أعظم آلة المقاتل وأصلها".

عن السدي: {فَضَرْبَ الرِّقَابِ}: " أنه قتلهم بالسلاح واليدين".

عن ابن جريج في قوله:" {فإذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب} قال: مشركي العرب يقول {فضرب الرقاب} قال: حتى يقولوا لا إله إلا الله".

قال الطنطاوي:" التعبير عن القتل بقوله: {فَضَرْبَ الرِّقابِ}، لتصويره في أفظع صوره. ولتهويل أمر هذا القتال، ولإرشاد المؤمنين إلى ما يجب عليهم فعله".

قال الزمخشري:" {فَضَرْبَ الرِّقابِ} أصله: فاضربوا الرقاب ضربا، فحذف الفعل وقدّم المصدر فأنيب منابه مضافا إلى المفعول. وفيه اختصار مع إعطاء

=

=

معنى التوكيد، لأنك تذكر المصدر وتدل على الفعل بالنصبة التي فيه. وضرب الرقاب عبارة عن القتل، لأنّ الواجب أن تضرب الرقاب خاصة دون غيرها من الأعضاء، وذلك أنهم كانوا يقولون: ضرب الأمير رقبة فلان، وضرب عنقه وعلاوته، وضرب ما فيه عيناه إذا قتله، وذلك أن قتل الإنسان أكثر ما يكون بضرب رقبته، فوقع عبارة عن القتل، وإن ضرب بغير رقبته من المقاتلْ على أن في هذه العبارة من الغلظة والشدّة ما ليس في لفظ القتل، لما فيه من تصوير القتل بأشنع صورة وهو حز العنق وإطارة العضو الذي هو رأس البدن وعلوه وأوجه أعضائه. ولقد زاد في هذه الغلظة في قوله تعالى: {فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنان}".

قوله تعالى: {حَتَّى إِذَا أَثْخَنْتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ} [محمد: ٤]، أي:" حتى إذا أضعفتموهم بكثرة القتل، وكسرتم شوكتهم، فأحكموا قيد الأسرى".

قال سعيد بن جبير:" لا تأسروهم ولا تفادوهم حتى تثخنوهم بالسيف".

قال الطبري:" يقول: حتى إذا غلبتموهم وقهرتم من لم تضربوا رقبته منهم، فصاروا في أيديكم أسرى، فشدّوهم في الوثاق كيلا يقتلوكم، فيهربوا منكم".

قال الزجاج:" {أَثْخَنْتُمُوهُمْ} : أكثرتم فيهم القتل، كما قال: {مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ}، فالأسر بعد المبالغة في القتل".

قال النحاس:" أي: لئلا يهربوا أو يلحقكم منهم مكروه. والإثخان المبالغة بالضرب مشتق من قولهم: شيء ثخين، أي: متكاثف".

قال البغوي: يقول:" {حتى إذا} بالغتم في القتل وقهرتموهم، {فشدوا الوثاق} يعني في الأسر حتى لا يفلتوا منكم، والأسر يكون بعد المبالغة في القتل"

قال ابن كثير:" {حَتَّى إِذَا أَثْخَنْتُمُوهُمْ فَشُدُّوا}، أي: أهلكتموهم قتلا {فشدوا} وثاق الأسارى الذين تأسرونهم، ثم أنتم بعد انقضاء الحرب وانفصال المعركة

=

=

مخيرون في أمرهم، إن شئتم مننتم عليهم فأطلقتم أساراهم مجانا، وإن شئتم فاديتموهم بمال تأخذونه منهم وتشاطرونهم عليه. والظاهر أن هذه الآية نزلت بعد وقعة بدر، فإن الله، سبحانه، عاتب المؤمنين على الاستكثار من الأسارى يومئذ ليأخذوا منهم الفداء، والتقلل من القتل يومئذ فقال: {مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللهُ يُرِيدُ الآخِرَةَ وَاللهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ لَوْلا كِتَابٌ مِنَ اللهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ} [الأنفال: ٦٧، ٦٨]".

قوله تعالى: {فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً} [محمد: ٤]، أي:" فإما أن تَمُنُّوا عليهم بفك أسرهم بغير عوض، وإما أن يفادوا أنفسهم بالمال أو غيره".

قال الطبري:" يقول: فإذا أسرتموهم بعد الإثخان، فإما أن تمنوا عليهم بعد ذلك بإطلاقكم إياهم من الأسر، وتحرروهم بغير عوض ولا فدية، وإما أن يفادوكم فداء بأن يعطوكم من أنفسهم عوضا حتى تطلقوهم، وتخلوا لهم السبيل".

قال الزجاج:" أي: بعد أن تَأسِروهُمْ إما مننتم عليهم مَنًّا، وإما أطلقتموهم بفداء".

حكم الآية الكريمة:

واختلف في حكم قوله تعالى: {حَتَّى إِذَا أَثْخَنْتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً} [محمد: ٤]، على قولين:

أحدهما: أنه منسوخ بقوله: {فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ} [التوبة: ٥]، وقوله: {فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِمْ مَنْ خَلْفَهُمْ} [الأنفال: ٥٧]. وهذا مذهب ابن عباس، والضحاك، ابن جريج، والسدي، وأبي حنيفة.

قال ابن جريج:" نسخها قوله: {فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ} [التوبة: ٥]".

قال السدي:" نسخها: {فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ} [التوبة: ٥]".

=

=

وقال قتادة:" نسخها قوله: {فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِمْ مَنْ خَلْفَهُم} [الأنفال: ٥٧]".

وقال قتادة:" كان المسلمون إذا لقوا المشركين قاتلوهم، فإذا أسروا منهم أسيرا، فليس لهم إلا أن يُفادوه، أو يمنوا عليه، ثم يرسلوه، فنسخ ذلك بعد قوله: {فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِمْ مَنْ خَلْفَهُمْ}، أي: عظ بهم من سواهم من الناس لعلهم يذّكرون".

عن ابن عباس، قوله: {فَإِذا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ}... إلى آخر الآية، قال: الفداء منسوخ، نسختها: {فَإِذَا انْسَلَخَ الأَشْهُرُ الْحُرُمُ}... إلى {كُلَّ مَرْصَدٍ}، قال: فلم يبق لأحد من المشركين عهد ولا حرمة بعد براءة، وانسلاخ الأشهر الحرم".

عن عبيد، قال: "سمعت الضحاك يقول في قوله: {فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً}: هذا منسوخ، نسخه قوله: {فَإِذَا انْسَلَخَ الأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ}، فلم يبق لأحد من المشركين عهد ولاذمة بعد براءة".

عن عبد الكريم الجزري، قال: "كتب إلى أبي بكر رضي الله عنه في أسير أُسر، فذكر أنهم التمسوه بفداء كذا وكذا، فقال أبو بكر: اقتلوه، لقتلُ رجل من المشركين، أحبّ إليّ من كذا وكذا".

الثاني: أنها محكمة، وأن حكم المن والفداء باق لم ينسخ، وهذا مذهب ابن عمر، وبه قال الحسن، وعطاء، وهو قول الثوري، والشافعي، وأحمد، وإسحاق، وابن سيرين. وحكاه البغوي وابن كثير عن الاكثرين.

قال الحسن: "أتى الحجاج بأسارى، فدفع إلى ابن عمر رجلا يقتله، فقال ابن عمر: ليس بهذا أُمرنا، قال الله عز وجل: {حَتَّى إِذَا أَثْخَنْتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً}، قال: البكاء بين يديه، فقال الحسن: لو كان هذا وأصحابه

=

=
لابتدروا إليهم".
عن ابن جريج:" عن عطاء:" أنه كان يكره قتل المشرك صبرا، قال: ويتلو هذه الآية {فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً}".
قال الحسن:" لا تقتل الأسارى إلا في الحرب يهيب بهم العدوّ".
عن معمر، عن رجل من أهل الشأم ممن كان يحرس عمر بن عبد العزيز، وهو من بني أسد، قال: "ما رأيت عمر رَحِمَهُ اللَّهُ قتل أسيرا إلا واحدا من الترك كان جيء بأسارى من الترك، فأمر بهم أن يُسترقوا، فقال رجل ممن جاء بهم: يا أمير المومنين، لو كنت رأيت هذا لأحدهم وهو يقتل المسلمين لكثر بكاؤك عليهم، فقال عمر: فدونك فاقتله، فقام إليه فقتله".
قال الطبري:" والصواب من القول عندنا في ذلك أن هذه الآية محكمة غير منسوخة، وذلك أن صفة الناسخ والمنسوخ ما قد بيَّنا في غير موضع في كتابنا إنه ما لم يجز اجتماع حكميهما في حال واحدة، أو ما قامت الحجة بأن أحدهما ناسخ الآخر، وغير مستنكر أن يكون جعل الخيار في المنّ والفداء والقتل إلى الرسول ﷺ، وإلى القائمين بعده بأمر الأمة، وإن لم يكن القتل مذكورا في هذه الآية، لأنه قد أذن بقتلهم في آية أخرى، وذلك قوله {فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ}... الآية، بل ذلك كذلك، لأن رسول الله ﷺ كذلك كان يفعل فيمن صار أسيرا في يده من أهل الحرب، فيقتل بعضا، ويفادي ببعض، ويمنّ على بعض، مثل يوم بدر قتل عقبة بن أبي مُعَيْطٍ وقد أتي به أسيرا، وقتل بني قُرَيظة، وقد نزلوا على حكم سعد، وصاروا في يده سلما، وهو على فدائهم، والمنّ عليهم قادر، وفادى بجماعة أسارى المشركين الذين أُسروا ببدر، ومنّ على ثمامة بن أثال الحنفيّ، وهو أسير في يده، ولم يزل ذلك ثابتا من سيره في أهل الحرب من لدن أذن الله له بحربهم، إلى أن قبضه إليه ﷺ دائما ذلك فيهم، وإنما ذكر جلّ ثناؤه
=

=

في هذه الآية المنّ والفداء في الأسارى، فخصّ ذكرهما فيها، لأن الأمر بقتلهما والإذن منه بذلك قد كان تقدم في سائر آي تنزيله مكرّرا، فأعلم نبيه ﷺ بما ذكر في هذه الآية من المنّ والفداء ما له فيهم مع القتل".

قوله تعالى: {حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا} [محمد: ٤]، أي:" واستمِرُّوا على ذلك حتى تنتهي الحرب بوضع آلاتها وأثقالها".

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره: فإذا لقيتم الذين كفروا فاضربوا رقابهم، وافعلوا بأسراهم ما بيَّنت لكم، حتى تضع الحرب آثامها وأثقال أهلها، المشركين بالله بأن يتوبوا إلى الله من شركهم، فيؤمنوا به وبرسوله، ويطيعوه في أمره ونهيه، فذلك وضع الحرب أوزارها".

وفي قوله تعالى: {حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا} [محمد: ٤]، وجوه من التفسير:

أحدها: أن أوزار الحرب أثقالها، والوزر»: الثقل، ومنه: وزير الملك، لأنه يتحمل عنه الأثقال، وأثقالها السلاح. قاله ابن قتيبة، والسجستاني.

قال ابن قتيبة:" أي: يضعَ أهل الحرب السلاحَ، وأصل «الوِزْر»: ما حملته؛ فسمي السلاح «أوزارا»، لأنه يُحمل".

الثاني: أنه وضع سلاحهم بالهزيمة أو الموادعة، قال الأعشى:

وأعْدَدْتُ للحرب أوْزَارَها... رِماحًا طِوالا وَخَيْلا ذُكُورَا

ومِن نَسْجِ داودَ يُحْدَى بها... على أثَرِ الحيِّ، عِيرًا فعِيرَا

الثالث: حتى تضع الحرب أوزار كفرهم بالإسلام، حتى لايبقى إلا مسلم، قاله الفراء، والزجاج.

قال الزجاج:" حتى يؤمنوا وُيسْلِمُوا، فلا يجب أن تحاربوهم، فما دام الكفر فالجهاد والحرب قائمة أبدا".

قال الفراء:" وَ «الهاء» التي فِي {أوزارها}، تكون للحرب وَأنت تعني: أوزار

=

=

أهلهـا، وَتكـون لأهـل الـشرك خاصـةً، كقولـك: حَتَّـى تنفـي الحـرب أوزار المشركين".

الرابع: حتى لا يكون شرك. قاله قتادة، والكلبي، ومقاتل.

قال ابن كثير:" وهذا كقوله تعالى: {وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ} [البقرة: ١٩٣]".

قال الكلبي:"حتى يظهر الإسلام على الدين كله".

وقال مقاتل:" يعني: ترك الشرك، حتى لا يكون في العرب مشرك".

وعـن مقاتـل:" إذا أسـلمت العـرب وضـعت الحـرب أوزارهـا، وقـال فى سـورة الـصف: {فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَى عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِين} [الـصف: ١٤] بمحمد ﷺ حين أسلمت العرب".

وعن قتادة: {حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا}، قال:" حتى لا يكون شرك، والحرب من كان يقاتله سمي هو حربا".

الخامس: حتى ينزل عيسى ابن مريم، قاله مجاهد، وسعيد بن جبير.

قال مجاهد:" حتى يخرج عيسى ابن مريم، فيسلم كلّ يهودي ونصرانيّ وصاحب ملة، وتأمن الشاة من الذئب، ولا تقرض فأرة جِرابا، وتذهب العداوة من الأشياء كلها، ذلك ظهور الإسلام على الدين كله، وينعم الرجل المسلم حتى تقطر رجله دما إذا وضعها".

قال الماتريدي: المعنى: " حتى يخرج عيسى ابن مريم - عليهما السلام - فعند ذلك تذهب الحروب والقتال، أي: اقتلوهم، وافعلوا بهم ما ذكر إلى وقت خروج عيسى - عليه السلام -".

قال ابن كثير:" وكأن مجاهد أخذه من قوله ﷺ: «لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق حتى يقاتل آخرهم الدجال»".

=

قوله تعالى: {ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللهُ لَانْتَصَرَ مِنْهُمْ} [محمد: ٤]، أي:" ذلك الحكم المذكور في ابتلاء المؤمنين بالكافرين ومداولة الأيام بينهم، ولو يشاء الله لانتصر للمؤمنين من الكافرين بغير قتال".

قال ابن كثير:" أي: هذا ولو شاء الله لانتقم من الكافرين بعقوبة ونَكَال من عنده".

قال الزجاج:" أي: لو يشاءُ اللهُ لَعذَّبَهُمْ وأهلكهم لأنه قادِرٌ عَلَى ذَلِك".

قال الفراء:" بملائكة غيركم، وَيُقَال: بغير قتال، ولكن ليبلو بعضكم ببعض، المؤمن بالكافر، والكافر بالمؤمن".

عن ابن جريج: {ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللهُ لَانْتَصَرَ مِنْهُمْ}، قال:" لأرسل عليهم ملكا، فدمر عليهم.

عن قتادة: " {وَلَوْ يَشَاءُ اللهُ لانْتَصَرَ مِنْهُمْ}، إي والله بجنوده الكثيرة كلّ خلقه له جند، ولو سلط أضعف خلقه لكان جندا".

قوله تعالى: {وَلَكِنْ لِيَبْلُوَ بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ} [محمد: ٤]، أي:" ولكنَّه أمركم بجهادهم ليختبر بعضكم ببعض".

قال الزجاج:" المعنى: ولكن أمركم بالحرب ليبلو بعضكم ببعض، أي: ليمَحِّصَ الله المؤمنين ويمحق الكافِرينَ".

قال النحاس:" أي: ليمحص المؤمنين ويمحق الكافرين".

قال ابن كثير:" أي: ولكن شرع لكم الجهاد وقتال الأعداء ليختبركم، ويبلو أخباركم. كما ذكر حكمته في شرعية الجهاد في سورتي «آل عمران» و «براءة»، في قوله: {أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ} [آل عمران: ١٤٢]، وقال في سورة براءة: {قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ اللهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ} [التوبة: ١٤، ١٥]".

=

قوله تعالى: {وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ} [محمد: ٤]، أي:" والذين قُتلوا في سبيل الله من المؤمنين فلن يُبْطِل الله ثواب أعمالهم".

قال الزجاج:" ذكر في أول السورة: {الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ}، وأعلم أن الذين قاتلوا في سبيل الله فلن يضل أعمالهم".

قال ابن كثير:" أي: لن يذهبها بل يكثرها وينميها ويضاعفها. ومنهم من يجري عليه عمله في طول بَرْزَخه".

عن قتادة:: {وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ}: «الذين قتلوا يوم أحد».

عن قيس الجذامي - رجل كانت له صحبة - قال: قال رسول الله ﷺ: "يعطى الشهيد ست خصال عند أول قطرة من دمه: يُكَفر عنه كل خطيئة، ويرى مقعده من الجنة، ويزوج من الحور العين، ويؤمن من الفزع الأكبر، ومن عذاب القبر، ويحلى حُلَّة الإيمان".

عن المقدام بن معد يكرب الكندي قال: قال رسول الله ﷺ: "إن للشهيد عند الله ست خصال: أن يغفر له في أول دَفْعَة من دمه، ويرى مقعده من الجنة، ويحلى حُلَّة الإيمان، ويزوج من الحور العين، ويجار من عذاب القبر، ويَأمَن من الفزع الأكبر، ويوضع على رأسه تاج الوقار، الياقوتة منه خير من الدنيا وما فيها، ويزوج اثنتين وسبعين زوجة من الحور العين، ويُشَفَّع في سبعين إنسانا من أقاربه".

وقال أبو الدرداء: قال رسول الله ﷺ: "يشفع الشهيد في سبعين من أهل بيته".

عن عبد الله بن عَمْرو، وعن أبي قتادة؛ أن رسول الله ﷺ قال: "يُغفر للشهيد كل شيء إلا الدَّيْن".

(سَيَهْدِيهِمْ) إلى الجنة.

(وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ) أي: أمرهم وحالهم.

=

=

(وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ) أي: عرفهم بها وهداهم إليها.

قال مجاهد: يهتدي أهلها إلى بيوتهم ومساكنهم، وحيث قسم الله لهم منها، لا يخطئون كأنهم ساكنوها منذ خلقوا.

- في هذا فضل عظيم للشهادة قي سبيل الله وهو دخول الجنة، وهذا جاء في آيات أخر.

قال تعالى (فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ثَوَابًا مِنْ عِنْدِ اللهِ وَاللهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ).

وقال تعالى (إِنَّ اللهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ).

وعن جابر قال (جاء رجل للنبي ﷺ يوم أحد: أرأيت إن قتلت فأين أنا؟ قال: في الجنة، فألقى تمرات في يده ثم قاتل حتى قتل) رواه مسلم.

وقال ﷺ (للشهيد ست خصال:.. ويرى مقعده من الجنة).

وعن أم حارثة (أنها أتت النبي ﷺ فقالت: يا رسول الله! ألا تحدثني عن حارثة - وكان قتل يوم بدر - فإن كان في الجنة صبرت، وإن كان غير ذلك اجتهدت عليه بالبكاء، فقال: يا أم حارثة! إنها جنان في الجنة، وإن ابنك أصاب الفردوس الأعلى) رواه مسلم.

وقال ﷺ (يغفر للشهيد كل شيء إلا الديْن) رواه مسلم.

قوله تعالى: {سَيَهْدِيهِمْ} [محمد: ٥]، أي:" سيوفقهم أيام حياتهم في الدنيا إلى طاعته ومرضاته".

قال الطبري:" قول تعالى ذكره: سيوفق الله تعالى ذكره للعمل بما يرضى ويحبّ،

=

=

هؤلاء الذين قاتلوا في سبيله".

قال البغوي:" {سَيَهْدِيهِمْ} أيام حياتهم في الدنيا إلى أرشد الأمور، وفي الآخرة إلى الدرجات".

وقال ابن عطية:" {سَيَهْدِيهِمْ}، أي: إلى طريق الجنة".

قال ابن كثير:" {سَيَهْدِيهِمْ}، أي: إلى الجنة، كقوله تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ} [يونس: ٩]".

وقال سهل:" يعني: سيهديهم في قبورهم لجواب منكر ونكير".

قوله تعالى: {وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ} [محمد: ٥]، أي:" ويُصْلح حالهم وأمورهم وثوابهم في الدنيا والآخرة".

قال الطبري: أي:" ويصلح أمرهم وحالهم في الدنيا والآخرة".

قال ابن كثير:" أي: أمرهم وحالهم".

قال ابن عباس: أي:" أمرهم".

قال الضحاك: أي:"شأنهم".

قال البغوي:" يرضي خصماءهم ويقبل أعمالهم".

قال الزجاج:" يصلح لهم أمر معاشهم في الدنيا مع ما يجازيهم به في الآخرة، كما قال ﷻ: {وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ} [المائدة: ٦٦]، أي: لو أنهم قبلوا ما فيها وما في الكتب وعملوا به لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرْجُلِهم، وكما قال: {اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا [نوح: ١٠ - ١٢]، فوعد الله ﷻ المؤمنين إصلاح شأنهم وبالهم في الدنيا والآخرة".

=

=

قال النحاس:" «البال» -في اللغة-: يعبر عنه بالأمر والشأن والحال".

قال محمد بن يزيد: "وقد يكون للبال موضع آخر يكون بمعنى: القلب. يقال: ما يخطر هذا على بالي، أي: على قلبي".

قوله تعالى: {وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ} [محمد: ٦]، أي:" ويدخلهم الجنة، عرَّفهم بها ونعتها لهم، ثم عرَّفهم إذا دخلوا الجنة منازلهم بها".

قال الطبري:" يقول: ويُدخلهم الله جنته عرّفها وبيَّنها لهم، حتى إن الرجل ليأتي منزله منها إذا دخلها كما كان يأتي منزله في الدنيا، لا يشكل عليه ذلك".

وفي قوله تعالى: {عَرَّفَهَا لَهُمْ} [محمد: ٦]، وجوه من التفسير:

أحدها: عرفهم مساكنهم فيها حتى لا يسألون عنها، قاله مجاهد، وقتادة، وابن زيد، وهو قول أكثر المفسرين.

قال البغوي:" أي: بيّن لهم منازلهم في الجنة حتى يهتدوا إلى مساكنهم لا يخطؤون ولا يستدلون عليها أحدا كأنهم سكانها منذ خلقوا، فيكون المؤمن أهدى إلى درجته، وزوجته وخدمه منه إلى منزله وأهله في الدنيا، هذا قول أكثر المفسرين".

قال القرطبي:" أي: إذا دخلوها يقال لهم تفرقوا إلى منازلكم، فهم أعرف بمنازلهم من أهل الجمعة إذا انصرفوا إلى منازلهم".

عن قتادة، قوله: {وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ}، قال: أي منازلهم فيها".

قال مجاهد:" يهتدي أهلها إلى بيوتهم ومساكنهم، وحيث قسم الله لهم لا يخطئون، كأنهم سكانها منذ خلقوا لا يستدلون عليها أحدا".

قال ابن زيد:" بلغنا عن غير واحد قال: يدخل أهل الجنة الجنة، ولهم أعرف بمنازلهم فيها من منازلهم في الدنيا التي يختلفون إليها في عمر الدنيا؛ قال: فتلك قول الله جلّ ثناؤه {وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ}".

=

=

وقال سلمة بن كهيل:"عرفهم طرقها".

قال الحسن: "وصف الجنة لهم في الدنيا فلما دخلوها عرفوها بصفتها".

عن أبي سعيد الخُدريّ، قال: "إذا نجَّى الله المؤمنين من النار حُبسوا على قنطرة بين الجنة والنار، فاقتصّ بعضهم من بعض مظالم كثيرة كانت بينهم في الدنيا، ثم يُؤذن لهم بالدخول في الجنة، قال: فما كان المؤمن بأدلَّ بمنزله في الدنيا منه بمنزله في الجنة حين يدخلها".

وقال مقاتل بن حَيَّان: "بلغنا أن الملك الذي كان وُكِّل بحفظ عمله في الدنيا يمشي بين يديه في الجنة، ويتبعه ابن آدم حتى يأتي أقصى منزل هو له، فيعرّفه كل شيء أعطاه الله في الجنة، فإذا انتهى إلى أقصى منزله في الجنة دخل إلى منزله وأزواجه، وانصرف الملك عنه".

الثاني: عرفها بوصفها على ما يشوق إليها، حكاه ابن عيسى.

الثالث: معنى {عَرَّفَهَا لَهُم}، أي: طَيَّبَها بأنواع الملاذ، مأخوذ من «العرف»، وهي الرائحة الطيبة، يقال: طعام معرَّف؛ أي: مطيَّب. حكاه ابن قتيبة عن أهل اللغة. واستشهد بقول الشاعر:

فَتَدْخُلُ أيْدٍ فِي حَنَاجِرَ أُقْنِعَتْ... لِعَادتِهَا من الخَزِيرِ المُعَرَّفِ

قال النحاس: وهذا القول" ليس بممتنع، لأنه: يقال طعام معرف، أي: مطيب".

الرابع: أن معنى «عرّفها»: أي: رفعها، مأخوذ من: العرف، لارتفاعه. حكاه النحاس.

الخامس: عرف المكلفين من عباده بأنها لهم. حكاه النحاس-أيضا-.

السادس: عرفهم ما لهم فيها من الكرامة، حكاه الماوردي.

السابع: أنه عرف أهل السماء أنها لهم إظهارًا لكرامتهم فيها. أفاده الماوردي.

قال النحاس:" القول الأول -وإن كان بعض أهل اللغة قد أنكره وقال لو كان كذا

=

=

لقال عرفهم بها- أحسن الأقوال وأصحها ولا يلزم هذا الرد، والمعنى: بيّنها لهم فتبينوها".

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَنْصُرُوا اللهَ) أي: إن تنصروا دين الله ورسوله وكتابه والسعي في أن تكون كلمة الله هي العليا، وقد جاء في سورة الحج بيان صفات الذين وعدهم بهذا النصر فقال تعالى (الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ).

(يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ) ينصركم الله على أعدائكم، ويثبت أقدامكم عند القتال، وتثبيت الأقدام عبارة عن النصر والمعونة في مواطن الحرب وعدم الفرار.، وقيل: على الإسلام، وقيل: على الصراط.

قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا} [محمد: ٧]، أي:" يا أيها الذين صدَّقوا الله ورسوله وعملوا بشرعه".

قال الطبري: يقول:" يا أيها الذين صدّقوا الله ورسوله".

قال ابن عباس:" ما أنزل الله آية في القرآن، يقول فيها: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا}، إلا كان على شريفها وأميرها".

قال ابن مسعود ﵁: "إذا سمعت الله يقول: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا} فأرعها سمعك [يعني: استمع لها]؛ فإنه خير يأمر به، أو شر ينهى عنه".

عن الزهري قال: "إذا قال الله: يا أيها الذين آمنوا إفعلوا، فالنبي ﷺ منهم".

عن خيثمة قال: "ما تقرؤون في القرآن: {يا أيها الذين آمنوا}، فإنه في التوراة: «يا أيها المساكين»".

قال ابن عثيمين:"إن تصدير الحكم بالنداء، دليل على الاهتمام به؛ لأن النداء يوجب انتباه المنادَى؛ ثم النداء بوصف الإيمان دليل على أن تنفيذ هذا الحكم من مقتضيات الإيمان؛ وعلى أن فواته نقص في الإيمان".

=

قوله تعالى: {إِنْ تَنْصُرُوا اللهَ يَنْصُرْكُمْ} [محمد: ٧]، أي:" إن تنصروا دين الله بالجهاد في سبيله، والحكم بكتابه، وامتثال أوامره، واجتناب نواهيه، ينصركم الله على أعدائكم".

قال الطبري: يقول:" إن تنصروا الله ينصركم بنصركم رسوله محمدا ﷺ على أعدائه من أهل الكفر به وجهادكم إياهم معه لتكون كلمته العُليا ينصركم عليهم، ويظفركم بهم، فإنه ناصر دينه وأولياءه".

قال الزمخشري:" {إِنْ تَنْصُرُوا} دين اللهَ ورسوله {يَنْصُرْكُمْ} على عدوكم ويفتح لكم".

قال ابن عطية:" المعنى: تنصروه بجدكم واتباعكم وإيمانكم يَنْصُرْكُمْ بخلق القوة لكم والجرأة وغير ذلك من المعاون".

قال قتادة:" لأنه حقّ على الله أن يعطي من سأله، وينصر من نصره".

قوله تعالى: {وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ} [محمد: ٧]، أي:" ويثبت أقدامكم عند القتال".

قال الطبري:" يقول: ويقوّكم عليهم، ويجرّئكم، حتى لا تولوا عنهم، وإن كثر عددهم، وقلّ عددكم".

قال الزمخشري: أي:" في مواطن الحرب أو على محجة الإسلام".

قال الكلبي ومقاتل: "يعني: عند القتال".

وروي عن ابن عباس:" على الصراط".

عن ابن جريج:" {إِنْ تَنْصُرُوا اللهَ يَنْصُرْكُمْ ويُثَبِّتْ أَقْدامَكُمْ}، قال: على نصره".

(وَالَّذِينَ كَفَرُوا) بالله وبرسوله.

(فَتَعْسًا لَهُمْ) أي: هلاكًا وشقاء لهم.

(وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ) أي: أحبط الله أعمالهم وأبطلها.

(ذَلِكَ) أي: ما تقدم ذكره من التعس والإضلال.

=

(بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ) على رسوله.

(فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ) بذلك السبب.

- والمراد بالأعمال ما كانوا عملوا من أعمال الخير في الصورة وإن كانت باطلة من الأصل، لأن عمل الكافر لا يقبل قبل إسلامه.

قوله تعالى: {وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعْسًا لَهُمْ} [محمد: ٨]، أي:" والذين كفروا فهلاكًا لهم".

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره: {وَالَّذِينَ كَفَرُوا} بالله، فجحدوا توحيده، فخزيا لهم وشقاء وبلاء".

عن قتادة في قوله: " {فَتَعْسًا لَهُمْ}، قال: هي عامة للكفار".

وفي قوله تعالى: {وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعْسًا لَهُمْ} [محمد: ٨]، وجوه من التفسير:

أحدها: معناه: خزيًا لهم، قاله السدي.

الثاني: شقاء لهم، قاله ابن زيد.

الثالث: شتمًا لهم من الله، قاله الحسن

الرابع: هلاكًا لهم، و «التعس»: الشر. قاله ثعلب.

الخامس: خيبة لهم، قاله الضحاك، وابن زياد.

السادس: يعني: فنكسا لهم وخيبة. قاله مقاتل.

السادس: قبحًا لهم، حكاه النقاش.

السابع: بعدا لهم، قاله ابن عباس، وابن جريج.

الثامن: سقوطا لهم. قاله أبو العالية.

التاسع: رغمًا لهم، قاله الضحاك-أيضا-.

العاشر: لعنا وطردا، وقمعا وبعدا! قاله القشيري.

الحادي عشر: فمكروهًا لهم وسوءًا، يقال هذا لمن دُعي عليه بالشر والهلكة. قاله

=

=

المبرد.

الثاني عشر: يريد في الدنيا العثرة وفي الآخرة التردي في النار. قاله ابن عباس.

الثالث عشر: أن «التعس» -في اللغة-: الانْحِطاطُ والعُثور، قاله الزجاج.

قال ابن قتيبة:" من قولك: تعَستُ؛ أي: عثَرت وسقطت".

قال النحاس:" أي: ممن ينبغي أن يقال لهم: أتعسهم الله، أي: لا جبرهم. وهذا يدعى به على العاثر".

وقال ابن السكيت: "التعس أن يخر على رأسه، والتعس أيضا الهلاك".

قال ابن عطية: أي:" عثارا وهلاكا فيه، وهي لفظة تقال للعاثر إذا أريد به الشر، ومنه قول الشاعر:

يا سيدي إن عثرت خذ بيدي... ولا تقل: لا، ولا تقل تعسا

وقال الأعشى:

بِذَاتِ لَوْثٍ عَفَرْنَاةٍ إذَا عَثَرَتْ... فَالتَّعْسُ أَدْنَى لَهَا مِنْ أَنْ أَقُولَ لَعَا".

وفي الحديث عن رسول الله ﷺ أنه قال: "تَعِس عبد الدينار، تعس عبد الدرهم، تعس عبد القَطِيفة – وفي رواية: تعس عبد الخميصة – تعس وانتكس، وإذا شِيكَ فلا انتقش". أي: فلا شفاه الله.

قوله تعالى: {وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ} [محمد: ٨]، أي:" وأذهب الله ثواب أعمالهم".

قال ابن كثير:" أي: أحبطها وأبطلها".

قال الطبري:" يقول وجعل أعمالهم معمولة على غير هدى ولا استقامة، لأنها عملت في طاعة الشيطان، لا في طاعة الرحمن".

قال ابن زيد:" الضلالة التي أضلهم الله لم يهدهم كما هَدى الآخرين، فإن الضلالة التي أخبرك الله: يضلّ من يشاء، ويهدي من يشاء؛ قال: وهؤلاء ممن جعل عمله ضلالا".

=

=

قال السمعاني:" فإن قيل: وأي عمل للكفار حتى يحبطه الله تعالى؟
والجواب: أنهم كانوا يعملون أعمالا على فضل الخير والتقرب إلى الله تعالى مثل: الصدقة، وصلة الرحم، والحج، والطواف، وما أشبه ذلك، ويظنون أن الله تعالى يثيبهم عليها، فأخبر الله تعالى أنه يحبطها بكفرهم".
قوله تعالى: {ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنْزَلَ اللهُ} [محمد: ٩]، أي:" ذلك بسبب أنهم كرهوا كتاب الله المنزل على نبيه محمد ﷺ، فكذبوا به".
قال الطبري:" يقول يعالي ذكره: هذا الذي فعلنا بهم من الإتعاس وإضلال الأعمال من أجل أنهم كرهوا كتابنا الذي أنزلناه إلى نبينا محمد ﷺ وسخطوه، فكذّبوا به، وقالوا: هو سحر مبين".
قال الزجاج:" كرهوا القرآن ونبوة النبي -عليه السلام-".
قال مقاتل:" ذلك الإبطال بأنهم كرهوا الإيمان بما أنزل الله من القرآن على النبي ﷺ، يعني: الكفار الذين قتلوا من أهل مكة".
قال سفيان وعمرو بن ميمون: "كرهوا الفرائض التي أنزل الله من الصلاة والزكاة".
عن قتادة، في قوله تعالى: {فتعسا لهم وأضل أعمالهم}، قال: «هي عامة للكفار».
قوله تعالى: {فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ} [محمد: ٩]، أي:" فأبطل أعمالهم".
قال الطبري:" يقول: فأبطل أعمالهم التي عملوها في الدنيا، وذلك عبادتهم الآلهة، لم ينفعهم الله بها في الدنيا ولا في الآخرة، بل أوبقهم بها، فأصلاهم سعيرا، وهذا حكم الله جلّ جلاله في جميع من كفر به من أجناس الأمم".
قال الزجاج:" فأحبط الله أعمالهم".
قال مقاتل:" لأنها لم تكن في إيمان".
قال الصابوني:" لأن الإيمان شرط لقبول الأعمال، والشرك محبطُ للعمل".

=

أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا (١٠).

{أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْض فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَة الَّذِينَ مِنْ قَبْلهمْ دَمَّرَ الله عَلَيْهِمْ} أَهْلَكَ أَنْفُسهمْ وَأَوْلَادهمْ وَأَمْوَالهمْ {وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالهَا} أَيْ أَمْثَال عَاقِبَة مَا قَبْلهمْ.

ذَلِكَ بِأَنَّ اللهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ (١١).

{ذَلِكَ} نَصْر الْمُؤْمِنِينَ وَقَهْر الْكَافِرِينَ {بِأَنَّ الله مولى} ولي وناصر {الذين

=

قال ابن عباس ومقاتل: "يعني: ما عملوا من شيء يريدون به الله؛ لأنها لم تكن في إيمان، ولا يقبل الله إلا من المتقين".

قال ابن عطية:" قوله: {فَأَحْبَطَ أَعْمالَهُمْ}، يقتضي أن أعمالهم في كفرهم التي هي بر مقيدة محفوظة، ولا خلاف أن الكافر له حفظة يكتبون سيئاته. واختلف الناس في حسناتهم، فقالت فرقة: هي ملغاة يثابون عليها بنعم الدنيا فقط. وقالت فرقة: هي محصاة من أجل ثواب الدنيا، ومن أجل أنه قد يسلم فينضاف ذلك إلى حسناته في الإسلام، وهذا أحد التأويلين في قول النبي ﷺ لحكيم بن حزام: «أسلمت على ما سلف لك من خير». فقوم قالوا تأويله: أسلمت على أن يعد لك ما سلف من خير، وهذا هو التأويل الذي أشرنا إليه.

وقالت فرقة معناه: أسلمت على إسقاط ما سلف لك من خير، إذ قد ثوبت عليه بنعم دنياك. وذكر الطبري أن أعمالهم التي أخبر في هذه الآية بحبطها: عبادتهم الأصنام وكفرهم. ومعنى: «أحبط» جعلها من العمل الذي لا يزكو ولا يعتد به، فهي لذلك كالذي أحبط".

آمنوا وأن الكافرين لا مولى لهم}[١].

---

(١) قوله تعالى: (أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ) خوّف سبحانه الكفار وأرشدهم إلى الاعتبار بحال من قبلهم فقال (أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ) يعني المشركين بالله المكذبين لرسوله، والمراد بالسير هنا السير بالأقدام والسير بالقلب.

ومعنى السير بالقلب أن يقرأ تاريخ الأمم الماضية. وقد ذكر الله كثيرًا من الأمم أهلكها بذنوبها.

(فَيَنْظُرُوا) بأعينهم وقلوبهم إن كان السير على الأقدام، وإن كان السير بالقلب فالنظر نظر قلب.

(كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ) العاقبة: المآل، فينظروا كيف كان مآلهم، وماذا حل بهم من العذاب؟

وقد أخبر الله تعالى أن هذه الأمم التي أهلكها أشد قوة من كفار مكة فقال تعالى (أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنَ اللهِ مِنْ وَاقٍ).

وقال تعالى (أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ).

(دَمَّرَ اللهُ عَلَيْهِمْ) أهلكهم الله، وذلك بسبب تكذيبهم وكفرهم وطغيانهم.

(وَلِلْكَافِرِينَ) بالله من أهل مكة وغيرهم.

(أَمْثَالُهَا) أمثال عاقبة من قبلهم من الأمم الكافرة، فالضمير في (أمثالها) يرجع إلى العاقبة.

قوله تعالى: {أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ} =

=

[محمد: ١٠]، أي:" أفلم يَسِرْ هؤلاء الكفار في أرض الله معتبرين بما حلَّ بالأمم المكذبة قبلهم من العقاب؟".

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره: أفلم يَسِر هؤلاء المكذّبون محمدا ﷺ المنكرو ما أنزلنا عليه من الكتاب في الأرض سفرا، وإنما هذا توبيخ من الله لهم، لأنهم قد كانوا يسافرون إلى الشام، فيرون نقمة الله التي أحلَّها بأهل حجر ثمود، ويرون في سفرهم إلى اليمن ما أحلّ الله بسَبَأ، فقال لنبيه عليه الصلاة والسلام وللمؤمنين به: أفلم يسِر هؤلاء المشركون سفرا في البلاد فينظروا كيف كان عاقبة تكذيب الذين من قبلهم من الأمم المكذّبة رسلها الرّادّة نصائحها".

قال الحسن: " فينظروا كيف عذب الله قوم نوح، وقوم لوط، وقوم صالح، والأمم التي عذب الله".

قال ابن كثير:" أي: عاقبهم بتكذيبهم وكفرهم، أي: ونجى المؤمنين من بين أظهرهم.

قال الواحدي: " حث على الاعتبار بحال من مضى من الأمم المكذبة".

عن مالك بن دينار، قال: "أوحى الله تعالى إلى موسى، عليه السلام، أن يا موسى، اتخذ نعلين من حديد وعصا، ثم سِحْ في الأرض، واطلب الآثار والعبر، حتى تتخرق النعلان وتكسر العصا".

وقال ابن أبي الدنيا: "قال بعض الحكماء: أحْيِ قلبك بالمواعظ، ونَوِّره بالفِكْر، ومَوِّته بالزهد، وقَوِّه باليقين، وذَلِّلْهُ بالموت، وقرِّره بالفناء، وبَصِّره فجائع الدنيا، وحَذِّره صولةَ الدهر وفحش تَقَلُّب الأيام، واعرض عليه أخبار الماضين، وذكره ما أصاب من كان قبله، وسِرْ في ديارهم وآثارهم، وانظر ما فعلوا، وأين حَلُّوا، وعَمَّ انقلبوا".

قوله تعالى: {دَمَّرَ اللهُ عَلَيْهِمْ} [محمد: ١٠]، أي:" دمَّر الله عليهم ديارهم".

=

=

قال الطبري: أي: "ألم نهلكها فندمِّر عليها منازلها ونخرِّبها، فيتعظوا بذلك، ويحذروا أن يفعل الله ذلك بهم في تكذيبهم إياه، فينيبوا إلى طاعة الله في تصديقك".

قوله تعالى: {وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا} [محمد: ١٠]، أي:" وللكافرين أمثال تلك العاقبة التي حلت بتلك الأمم".

قال الطبري:" يقول: وللكافرين من قريش المكذبي رسول الله ﷺ من العذاب العاجل، أمثال عاقبة تكذيب الأمم الذين كانوا من قبلهم رسلهم على تكذيبهم رسوله محمدا ﷺ".

قال الفراء:" يَقُولُ: لأهل مكَّة أمثال ما أصاب قوم لوط وعاد وثمود، وعيدٌ من الله".

قال مجاهد:" يقول: للكافرين مثل ما دمرت به القرون الأولى عند أمر الله لهم".

قال مجاهد:" وعيد من الله لهم".

(ذَلِكَ بِأَنَّ اللهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا) فتولاهم برحمته، فأخرجهم من الظلمات إلى النور، وتولى جزاءهم ونصرهم

(وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لا مَوْلَى لَهُمْ) لا نصير لهم ولا مغيث ولا معين.

- الولاية تنقسم إلى قسمين: ولاية عامة: بمعنى أن يتولى شؤون عباده، وهذا للمؤمنين والكافرين.

كما قال تعالى (وَرُدُّوا إِلَى اللهِ مَوْلاهُمُ الْحَقِّ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ).

ولاية خاصة: وهي خاصة بالمؤمنين. ومقتضاها النصر والتأييد والرحمة.

كما قال تعالى (وَاللهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ) وقال تعالى (اللهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ)

وكهذه الآية (ذَلِكَ بِأَنَّ اللهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا).

=

=

فالله ولي المؤمنين: لأنه يواليهم بالنصر والثواب الجزيل، كما قال ﷺ في الحديث القدسي (من عادى لي وليًا فقد آذنته بالحرب) رواه البخاري.

والمؤمنون أولياء الله كقوله تعالى (أَلا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ) لأنهم يوالونه بالطاعة.

قوله تعالى: {ذَلِكَ بِأَنَّ اللهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا} [محمد: ١١]، أي:" ذلك الذي فعلناه بالفريقين فريق الإيمان وفريق الكفر؛ بسبب أن الله وليُّ المؤمنين ونصيرهم".

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره: هذا الفعل الذي فعلنا بهذين الفريقين: فريق الإيمان، وفريق الكفر، من نُصرتنا فريق الإيمان بالله، وتثبيتنا أقدامهم، وتدميرنا على فريق الكفر، من أجل أن الله وليّ من آمن به، وأطاع رسوله".

قال النحاس:" المعنى: الله ولي الذين آمنوا في الهداية والنصرة".

عن مجاهد، قوله: " {ذَلِكَ بِأَنَّ اللهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا}، قال: وليهم".

وفي قراءة عبد الله: «ذَلِكَ بأن الله وَلِيّ الَّذِينَ آمنوا».

قوله تعالى: {وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ} [محمد: ١١]، أي:" وأن الكافرين لا وليَّ لهم ولا نصير".

قال الطبري:" يقول: وبأن الكافرين بالله لا وليّ لهم، ولا ناصر".

قال أبو بكر الكلاباذي:" الولاية: النصرة، قال الله تعالى {وأن الكافرين لا مولى لهم} [محمد: ١١]، أي: لا ناصر لهم".

روي عن البراء -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ-، قال: "لقينا المشركين يومئذ، وأجلس النبي ﷺ جيشا من الرماة، وأمر عليهم عبد الله، وقال: «لا تبرحوا، إن رأيتمونا ظهرنا عليهم فلا تبرحوا، وإن رأيتموهم ظهروا علينا فلا تعينونا» فلما لقينا هربوا حتى رأيت النساء يشتددن في الجبل، رفعن عن سوقهن، قد بدت خلاخلهن، فأخذوا يقولون:

=

إِنَّ اللهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ (١٢).

{إِنَّ الله يُدْخِل الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَات جَنَّات تَجْرِي مِنْ تَحْتهَا الْأَنْهَار وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ} فِي الدُّنْيَا {وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُل الْأَنْعَام} أَيْ لَيْسَ لَهُمْ هَمّ إلَّا بُطُونهمْ وَفُرُوجهمْ وَلَا يَلْتَفِتُونَ إلَى الْآخِرَة {وَالنَّار مَثْوَى لَهُمْ} مَنْزِل وَمُقَام وَمَصِير[1].

=

الغنيمة الغنيمة، فقال عبد الله: عهد إلي النبي ﷺ أن لا تبرحوا، فأبوا، فلما أبوا صرف وجوههم، فأصيب سبعون قتيلا، وأشرف أبو سفيان فقال: أفي القوم محمد؟ فقال: «لا تجيبوه» فقال: أفي القوم ابن أبي قحافة؟ قال: «لا تجيبوه» فقال: أفي القوم ابن الخطاب؟ فقال: إن هؤلاء قتلوا، فلو كانوا أحياء لأجابوا، فلم يملك عمر نفسه، فقال: كذبت يا عدو الله، أبقى الله عليك ما يخزيك، قال أبو سفيان: اعل هبل، فقال النبي ﷺ: «أجيبوه» قالوا: ما نقول؟ قال: " قولوا: الله أعلى وأجل " قال أبو سفيان: لنا العزى ولا عزى لكم، فقال النبي ﷺ: «أجيبوه» قالوا: ما نقول؟ قال: «قولوا الله مولانا، ولا مولى لكم». قال أبو سفيان: يوم بيوم بدر، والحرب سجال، وتجدون مثلة، لم آمر بها ولم تسؤني".

(١) قوله تعالى: (إِنَّ اللهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا) بقلوبهم بما يجب الإيمان به.

وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ) وعملوا الأعمال الصالحات، من الأفعال والأقوال، الواجبات والمستحباب.

- والعمل الصالح لا يكون صالحًا إلا بشرطين: الشرط الأول: الإخلاص، لقوله ﷺ (إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى)، الشرط الثاني: المتابعة للنبي ﷺ لقوله ﷺ (من عمل عملًا ليس عليه أمرنا فهو رد) رواه مسلم.

=

=

(جَنَّاتٍ) جمع جنة، الجنة في لغة العرب: البستان، لأن أشجاره الملتفة تجن الداخل فيه، وجاء إطلاق الجنة على البستان في القرآن في قوله (إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ) أي البستان، وفي قوله (وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ). وأما في الاصطلاح: فهي الدار التي أعدها الله لأوليائه، فيها مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر.

(تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ) أي: تجري من تحت قصورها الأنهار، وليس المعنى أنها تجري من تحت أرضها، والجري هو سير الماء على الأرض، والأنهار جمع نهر وهو الماء الكثير.

- وهذه الأنهار فصلها الله في هذه السورة كما سيأتي فقال (مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى).

(وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ) أي: يتمتعون بمتاع الدنيا وينتفعون به كأنهم أنعام ليس همّة إلا بطونهم وفروجهم، ساهون عن العاقبة لا هون بما هم فيه.

- قيل: المؤمن في الدنيا يتزود، والمنافق يتزين، والكافر يتمتع.

(وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ) أي: منزلًا معدًا لا يخرجون منها، ولا يفتر عنهم من عذابها.

قوله تعالى: {إِنَّ اللهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ} [محمد: ١٢]، أي:" إن الله يدخل الذين آمنوا بالله ورسوله وعملوا الصالحات جنات تجري من تحت أشجارها الأنهار تَكْرِمَةً لهم".

قال الطبري: يقول" إن الله له الألوهة التي لا تنبغي لغيره، يُدخل الذين آمنوا بالله وبرسوله بساتين تجري من تحت أشجارها الأنهار، يفعل ذلك بهم تكرمة على إيمانهم به وبرسوله".

=

=

قوله تعالى: {وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ} [محمد: ١٢]، أي:" ومثل الذين كفروا في أكلهم وتمتعهم بالدنيا، كمثل الأنعام من البهائم التي لا همَّ لها إلا في الاعتلاف دون غيره".

قال الطبري: " يقول جل ثناؤه: والذين جحدوا توحيد الله، وكذّبوا رسوله ﷺ يتمتعون في هذه الدنيا بحطامها ورياشها وزينتها الفانية الدارسة، ويأكلون فيها غير مفكِّرين في المعاد، ولا معتبرين بما وضع الله لخلقه من الحجج المؤدّية لهم إلى علم توحيد الله ومعرفة صدق رسله، فمثلهم في أكلهم ما يأكلون فيها من غير علم منهم بذلك، وغير معرفة، مثل الأنعام من البهائم المسخرة التي لا همة لها إلا في الاعتلاف دون غيره".

قال مقاتل:" لا يلتفتون إلى الآخرة.. ليس لهم هم إلا الأكل والشرب في الدنيا".

قال الزمخشري: أي:" ينتفعون بمتاع الحياة الدنيا أياما قلائل وَيَأْكُلُونَ غافلين غير مفكرين في العاقبة كَما تَأْكُلُ الْأَنْعامُ في مسارحها ومعالفها، غافلة عما هي بصدده من النحر والذبح".

قال ابن كثير:" أي: في دنياهم، يتمتعون بها ويأكلون منها كأكل الأنعام، خَضْما وقضما وليس لهم همة إلا في ذلك. ولهذا ثبت في الصحيح: «المؤمن يأكل في مِعيّ واحد، والكافر يأكل في سبعة أمعاء»".

قال البغوي: أي:" ليس لهم همة إلا بطونهم وفروجهم، وهم لاهون ساهون عما في غد، قيل: المؤمن في الدنيا يتزود، والمنافق يتزين، والكافر يتمتع".

عن ابن جريج:" {والَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ ويَأْكُلُونَ كَما تَأْكُلُ الأَنْعامُ}، قال: لا يَلْتَفت إلى آخرته".

قال ابن عباس: "يريد في الدنيا، ويأكلون كما تأكل الأنعام".

قال الكلبي: الأنعام تأكل وتشرب ولا تدري ما في غد، وهكذا الكفار".

=

وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِنْ قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَاهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ (١٣).

{وَكَأَيِّنْ} وَكَمْ {مِنْ قَرْيَة} أُرِيدَ بِهَا أَهْلهَا {هِيَ أَشَدّ قُوَّة مِنْ قَرْيَتك} مَكَّة أَيْ أَهْلهَا {الَّتِي أَخْرَجَتْك} رُوعِيَ لَفْظ قَرْيَة {أَهْلَكْنَاهُمْ} رُوعِيَ مَعْنَى قَرْيَة الْأُولَى {فَلَا نَاصِر لَهُمْ} من إهلاكنا(١).

=

قال القشيري:" الأنعام تأكل من أي موضع بلا تمييز، وكذلك الكافر لا تمييز له بين الحلال والحرام، كذلك الأنعام ليس لها وقت لأكلها بل في كل وقت تقتات وتأكل، وكذلك الكافر، وفي الخبر: «إنه يأكل في سبعة أمعاء». أمّا المؤمن فيكتفى بالقليل كما في الخبر: «إن كان ولا بد فثلث للطعام وثلث للشراب وثلث للنفس»، و «ما ملأ ابن آدم وعاء شرّا من بطنه».

ويقال: الأنعام تأكل على الغفلة فمن كان في حال أكله ناسيا ربّه فأكله كأكل الأنعام".

قوله تعالى: {وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ} [محمد: ١٢]، أي:" ونار جهنم مسكن لهم ومأوى".

قال الطبري: " يقول جلّ ثناؤه: والنار نار جهنم مسكن لهم، ومأوى، إليها يصيرون من بعد مماتهم".

قال الزمخشري: أي:" منزل ومقام".

قال ابن كثير:" أي: يوم جزائهم".

(١) ذكر سبب النزول.

عن عبد الله بن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: أن النبي ﷺ لما خرج من مكة إلى الغار -أراه قال-: التفت إلى مكة، وقال: "أنت أحب بلاد الله إلى الله، وأنت أحب بلاد الله إليّ، ولو

=

=

أن المشركين لم يخرجوني؛ لم أخرج منك، فأعتى الأعداء: من عتا على الله في حَرَمِه، أو قَتَلَ غير قاتله، أو قتل بذُحُول الجاهلية"؛ فأنزل الله -تعالى- على نبيه ﷺ: {وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِنْ قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَاهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ (١٣)}.

أخرجه الطبري في "جامع البيان" (٢٦/ ٣١)، وابن أبي حاتم في "تفسيره"؛ كما في "تفسير القرآن العظيم" (٤/ ١٨٩)، وأبو يعلى في "المسند"؛ كما في "المطالب العالية" (٩/ ٣٥ رقم ٤١٠٣ - المسندة) من طريق المعتمر بن سليمان عن أبيه عن حنش عن عكرمة عن ابن عباس.

وهذا سند ضعيف جدًا؛ فيه حنش هذا -وهو حسين بن قيس الرحبي، وحنش هو لقبه-؛ متروك الحديث.

وذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٧/ ٤٦٣) وزاد نسبته لعبد بن حميد وابن مردويه.

* قوله تعالى: (وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ) أي: وكثيرًا من القرى الظالمة المكذبة.

(هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِنْ قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ) كانوا أقوى في الأموال والأولاد والأعوان والأبنية، من قريتك - وهي مكة.

- وقد أُخرج النبي ﷺ وأصحابه من ديارهم، وليس لهم ذنب إلا أن يقولوا ربنا الله، كما قال تعالى (الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللهُ) وقال تعالى (يخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللهِ رَبِّكُمْ) أي: يخرجون الرسول وإياكم لأجل إيمانكم بربكم.

(أَهْلَكْنَاهُمْ) حين كذبوا رسلنا، ولم تُجدِ فيهم المواعظ..

- قوله تعالى (أَهْلَكْنَاهُمْ) جمع وهذا جمع للتعظيم.

(فَلا نَاصِرَ لَهُمْ) أي: فلم ينصرهم أحد، فكيف حال هؤلاء الضعفاء، أهل قريتك،

=

إذ أخرجوك عن وطنك وكذبوك، وعادوك وأنت أفضل المرسلين، وخير الأولين والآخرين؟ أليسوا بأحق من غيرهم بالإهلاك والعقوبة، لولا أن بعث رسوله بالرحمة والتأني بكل كافر وجاحد؟

قوله تعالى: {وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِنْ قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ} [محمد: ١٣]، أي:" وكثير من أهل قرى كانوا أشد بأسًا من أهل قريتك -أيها الرسول، وهي «مكة» - التي أخرجتك".

قال الطبري: يقول:"وكم -يا محمد- من قرية أهلها أشدّ بأسا، وأكثر جمعا، وأعدّ عديدا من أهل قريتك- وهي مكة- وأخرج الخبر عن القرية، والمراد به أهلها".

قال الزمخشري: أي:" وكم من قوم هم أشد قوّة من قومك الذين أخرجوك أهلكناهم. ومعنى أخرجوك: كانوا سبب خروجك".

عن قتادة، قوله: " {وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِنْ قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَاهُمْ}، قال: هي مكة". وفي رواية:" قريته مكة".

قوله تعالى: {أَهْلَكْنَاهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ} [محمد: ١٣]، أي:" دمَّرناهم بأنواع من العذاب، فلم يكن لهم نصير ينصرهم من عذاب الله".

قال الماوردي:" {أَهْلَكْنَاهُمْ}، يعني: بالعذاب، فلا مانع لهم منا، وهذا وعيد".

قال الفراء:" جاء فِي التفسير: فلم يكن لهم ناصر حين أهلكناهم، فهذا وجه، وَقَدْ يجوز إضمار «كَانَ»، وإن كنت قَدْ نصبت الناصر بالتبرية، ويكون: أهلكناهم فلا ناصر لهم الآن من عذاب الله".

قال الزمخشري:" فإن قلت: كيف قال فَلا ناصِرَ لَهُمْ؟ وإنما هو أمر قد مضى. قلت: مجراه مجرى الحال المحكية، كأنه قال: أهلكناهم فهم لا ينصرون".

قال ابن كثير-في الآية:" وهذا تهديد شديد ووعيد أكيد لأهل مكة، في تكذيبهم

أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ كَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ (١٤).

{أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَة} حُجَّة وَبُرْهَان {مِنْ رَبّه} وَهُمْ الْمُؤْمِنُونَ {كَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوء عَمَله} فَرَآهُ حَسَنًا وَهُمْ كُفَّار مَكَّة {وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ} فِي عِبَادَة الْأَوْثَان أَيْ لَا مُمَاثَلَة بينهما(١).

=

لرسول الله ﷺ، وهو سيد المرسلين وخاتم الأنبياء، فإذا كان الله، ﷻ، قد أهلك الأمم الذين كذبوا الرسل قبله بسببهم، وقد كانوا أشد قوة من هؤلاء، فماذا ظن هؤلاء أن يفعل الله بهم في الدنيا والأخرى؟ فإن رفع عن كثير منهم العقوبة في الدنيا لبركة وجود الرسول نبي الرحمة، فإن العذاب يوفر على الكافرين به في معادهم، {يُضَاعَفُ لَهُمُ الْعَذَابُ مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ} [هود: ٢٠]".

(١) قوله تعالى: (أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ) أي: على بصيرة ويقين في أمر الله ودينه، بما أنزل الله في كتابه من الهدى والعلم

(كَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ) كمن زُين له عمله القبيح فرآه حسنًا.

- وأشد ما يكون أن يُزيّن للإنسان عمله، حيث أنه على خطأ ويرى أنه على صواب، ومثل هذا لا يقلع عن غيهِ غالبًا، لأنه يرى أنه على صواب، كأصحاب الحيل المنافقون، فهؤلاء زين لهم سوء عملهم لأنه يرى أنه ذكي (وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ).

(وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ) وانهمكوا في الضلال حتى صاروا تبعًا لأهوائهم؟ ليس هذا كهذا؟

قوله تعالى: {أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ} [محمد: ١٤]، أي:" أفمن كان على برهان واضح من ربه والعلم بوحدانيته".

قال قتادة:" هو محمد - ﷺ".

=

=

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره: {أَفَمَنْ كَانَ} على برهان وحجة وبيان {مِنْ} أمر {رَبِّهِ} والعلم بوحدانيته، فهو يعبده على بصيرة منه، بأن له رَبًّا يجازيه على طاعته إياه الجنة، وعلى إساءته ومعصيته إياه النار.. قيل: هو نبينا -عليه الصلاة والسلام-".

قال الزمخشري:" أي: على حجة من عنده وبرهان، وهو القرآن المعجز وسائر المعجزات هو رسول الله ﷺ".

قال ابن كثير:" أي: على بصيرة ويقين في أمر الله ودينه، بما أنزل الله في كتابه من الهدى والعلم، وبما جَبَله الله عليه من الفطرة المستقيمة".

قوله تعالى: {كَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ} [محمد: ١٤]، أي:" كمن حسَّن له الشيطان قبيح عمله".

قال قتادة:" هم المشركون".

قال الطبري:" يقول: كمن حسَّن له الشيطان قبيح عمله وسيئه، فأراه جميلا فهو على العمل به مقيم.. قيل: هم المشركون".

قال الزمخشري:" هم أهل مكة الذين زين لهم الشيطان شركهم وعداوتهم لله ورسوله".

قال السمعاني:" معنى الآية: أن الفريقين لا يستويان، فحذف هذا لفهم المخاطب، وهذا كالرجل يقول: من فعل الخيار سعد، ومن فعل السيئات شقي. ثم يقول: أفمن سعد كمن [شقي]، يعني: لايكون، وحذف لفهم المخاطب. وقيل: الألف في قوله: {أفمن} ألف توقيف وتقرير لما علم المخاطب منه".

قوله تعالى: {وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ} [محمد: ١٤]، أي:" واتبع ما دعته إليه نفسه من معصية الله وعبادة غيره مِن غير حجة ولا برهان؟".

قال الطبري:" يقول: واتبعوا ما دعتهم إليه أنفسهم من معصية الله، وعبادة الأوثان

=

مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ (١٥).

{مَثَل} أَيْ صِفَة {الْجَنَّة الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ} الْمُشْتَرَكَة بَيْن دَاخِلِيهَا مُبْتَدَأ خَبَره {فِيهَا أَنْهَار مِنْ مَاء غَيْر آسِن} بِالْمَدِّ وَالْقَصْر كَضَارِبِ وَحَذِر أَيْ غَيْر مُتَغَيِّر بِخِلَافِ مَاء الدُّنْيَا فَيَتَغَيَّر بِعَارِضٍ {وَأَنْهَار مِنْ لَبَن لَمْ يَتَغَيَّر طَعْمه} بِخِلَافِ لَبَن الدُّنْيَا لِخُرُوجِهِ مِنْ الضُّرُوع {وَأَنْهَار مِنْ خَمْر لَذَّة} لَذِيذَة {لِلشَّارِبِينَ} بِخِلَافِ خَمْر الدُّنْيَا فَإِنَّهَا كَرِيهَة عِنْد الشُّرْب {وَأَنْهَار مِنْ عَسَل مُصَفًّى} بِخِلَافِ عَسَل الدُّنْيَا فَإِنَّهُ بِخُرُوجِهِ مِنْ بُطُون النَّحْل يُخَالِط الشَّمْع وَغَيْره {وَلَهُمْ فِيهَا} أَصْنَاف {مِنْ كُلّ الثَّمَرَات وَمَغْفِرَة مِنْ رَبّهمْ} فَهُوَ رَاضٍ عَنْهُمْ مَعَ إِحْسَانه إِلَيْهِمْ بِمَا ذُكِرَ بِخِلَافِ سَيِّد الْعَبِيد فِي الدُّنْيَا فَإِنَّهُ قَدْ يَكُون مَعَ إِحْسَانه إِلَيْهِمْ سَاخِطًا عَلَيْهِمْ

=

من غير أن يكون عندهم بما يعملون من ذلك برهان وحجة".

قال السمعاني:" أي: اتبعوا أهواءهم في اتباع الكفر".

قال ابن كثير:" أي: ليس هذا، كهذا كقوله: {أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى} [الرعد: ١٩]، وكقوله: {لا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ} [الحشر: ٢٠]".

عن عبد الله بن عباس، قال: "كل هَوًى ضلالة". وروي عن ابن جريج مثله.

عن طاووس بن كيسان، قال: "ما ذكر الله هَوًى في القرآن إلا ذمّه".

قال الشعبي:" إنّما سُمي: الهوى؛ لأنه يهوِي بصاحبه في النار".

{كَمَنْ هُوَ خَالِد فِي النَّار} خَبَر مُبْتَدَأ مُقَدَّر أَيْ أَمَّنْ هُوَ فِي هَذَا النَّعِيم {وَسُقُوا مَاء حَمِيمًا} أَيْ شَدِيد الْحَرَارَة {فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ} أَيْ مَصَارِينهمْ فَخَرَجَتْ مِنْ أَدْبَارهمْ وَهُوَ جَمْع مِعَى بِالْقَصْرِ وَأَلِفه عَنْ يَاء لِقَوْلِهِمْ مِيعَان(١).

---

(١) قوله تعالى: (مَثَلُ الْجَنَّةِ) أي: صفة الجنة.

(الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ) أي: الذين اتقوا الله بفعل أوامره واجتناب نواهيه.

- التقوى مأخوذة من الوقاية، وهي: أن يجعل الإنسان لنفسه وقاية من عذاب الله بفعل أوامره واجتناب نواهيه.

وهذا من أجمع التعاريف، وقد جاء في معناها آثار عدة عن السلف كلها داخلة تحت هذا المعنى.

قال علي: التقوى: الخوف من الجليل، والعمل بالتنزيل، والرضا بالقليل، والاستعداد ليوم الرحيل.

وقال ابن مسعود: حقيقة تقوى الله: أن يطاع فلا يعصى، ويذكر فلا ينسى، ويشكر فلا يكفر.

وقال طلق بن حبيب: التقوى أن تعمل بطاعة الله على نور من الله، ترجو ثواب الله، وأن تترك معصية الله على نور من الله، تخاف عقاب الله.

قال ابن القيم: وهذا من أحسن ما قيل في حد التقوى.

(فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ) أي: فيها أنهار جاريات من ماء غير متغير الرائحة، لا بوخم ولا بريح منتنة، ولا بمرارة ولا بكدورة، بل هو أعذب المياه وأصفاها.

(وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ) أي: لم يحمض كما تغير ألبان الدنيا، لأنها لم تخرج من ضروع الإبل والغنم والبقر.

(وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ) أي: ليست كريهة الطعم والرائحة كخمر الدنيا، بل حسنة المنظر والطعم والرائحة والفعل.

=

=

(وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى) أي: هو في غاية الصفاء، وحسن اللون والطعم والريح.
- قوله تعالى (مُصَفًّى) أي: لم يخالطه الشمع وفضلات النحل.
قال ابن القيم: فذكر سبحانه هذه الأجناس الأربعة ونفى عن كل واحد منها الآفة التي تعرض له في الدنيا.
فآفة الماء أن يأسن ويأجن من طول مكثه، وآفة اللبن أن يتغير طعمه إلى الحموضة وأن يصير قارصًا، وآفة الخمر كراهة مذاقها المنافي للذة شربها، وآفة العسل عدم تصفيته، وهذا من آيات الرب سبحانه وتعالى أن تجري أنهار من أجناس لم تجر العادة في الدنيا بإجرائها ويجريها في غير أخدود وينفي عنها الآفات التي تمنع كمال اللذة بها كما ينفي عن خمر الجنة جميع آفات خمر الدنيا من الصداع والغول واللغو.
(وَلَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ) أي: ولهم مع هذه الأشربة، من كل الثمرات، أي من كل صنف من أصنافها.
(وَمَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ) أي: مع ذلك كله، مغفرة لذنوبهم، ليزول عنهم المرهوب، والمغفرة: ستر الذنب والتجاوز عنه، وتنكير مغفرة للتعظيم، أي: ولهم مغفرة عظيمة كائنة من ربهم.
(كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ) أي: أهؤلاء الذين ذكرنا منزلتهم من الجنة كمن هو خالد في النار؟ ليس هؤلاء كهؤلاء، أي: من هو في الدرجات كمن هو في الدركات.
(وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا) أي: وسقوا مكان تلك الأشربة ماء حارًا شديد الغليان.
(فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ) أي: فقطع أحشاءهم من فرط حرارته، كما قال تعالى (وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا).
قوله تعالى: {مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ} [محمد: ١٥]، أي:" صفة الجنة التي وعدها الله المتقين".

=

=

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره: صفة الجنة التي وعدها المتقون، وهم الذين اتقوا في الدنيا عقابه بأداء فرائضه، واجتناب معاصيه".

قال السعدي:" أي: مثل الجنة التي أعدها الله لعباده، الذين اتقوا سخطه، واتبعوا رضوانه، أي: نعتها وصفتها الجميلة".

قال الزجاج:" أي: مما عرفتموه من الدنيا من جناتها وأنهارها جَنَّةٌ".

عن الضحاك:" {الْمُتَّقِينَ}، قال: "الذين يتقون الشرك.

عن السدي: " {المتقين}، قال: هم المؤمنون".

وفي قوله تعالى: {مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ} [محمد: ١٥]، قولان:

أحدهما: معناه: صفة الجنة التي وعد المتقون. قاله الخليل، وبه قال النضر بن شميل، وابن قتيبة.

قال النحاس:" المعنى: على هذا صفة الجنة التي وعد المتقون.. كما تقول: صفة فلان أسمر، لأن معناه: فلان أسمر".

الثاني: المعنى: فيما يتلى عليكم ويقص عليكم مثل الجنة. وهذا قول سيبويه، والمبرد.

قال الزجاج:" وكلا القولين حسن جميل. والذي عندي - والله أعلم - أن الله ﷻ، عَرفنا أُمُورَ الجنة التي لم نَرَهَا. ولم نُشَاهِدْهَا بما شَاهِدناه مِن أمور الدنيا وعايَنَّاه، فالمعنى {مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ} جَنة...".

وقرأ علي بن أبي طالب: «مثال الجنة».

قوله تعالى: {فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ} [محمد: ١٥]، أي:" فيها أنهارٌ عظيمة من ماء غير متغيِّر".

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره في هذه الجنة التي: ذكرها أنهار من ماء غير متغير الريح، يقال منه: قد أسن ماء هذه البئر: إذا تغيرت ريح مائها فأنتنت".

=

=

قال السعدي:" أي: غير متغير، لا بوخم ولا بريح منتنة، ولا بمرارة، ولا بكدورة، بل هو أعذب المياه وأصفاها، وأطيبها ريحا، وألذها شربا".

قال قتادة:" من ماء غير منتن". وروي عن الضحاك، وعطاء الخراساني مثله.

قال ابن عباس:" يقول: غير متغير". وروي عن الحسن وقتادة مثله.

قال الفراء:" غير متغير، غير آجن".

قال ابن قتيبة:" أي: غير متغيِّر الريح والطعم و «الآجن»، نحوه".

قال ابو عبيدة:" الآسن: المتغير الريح، يقال: قد أسن ماء، ركيّتك".

عن سعد بن طريف، قال: "سألت أبا إسحاق عن: {مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ}، قال: سألت عنها الحارث، فحدثني: أن الماء الذي غير آسن تسنيم، قال: بلغني أنه لا تمسه يد، وأنه يجيء الماء هكذا حتى يدخل فى فيه".

قوله تعالى: {وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ} [محمد: ١٥]، أي:" وأنهار من لبن لم يصر فيه حموضة كألبان الدنيا ولا ما يكره من الطعوم".

قال الطبري: يقول:" وفيها أنهار من لبن لم يتغير طعمه، لأنه لم يحلب من حيوان فيتغير طعمه بالخروج من الضروع، ولكنه خلقه الله ابتداء في الأنهار، فهو بهيئته لم يتغير عما خلقه عليه".

قال ابن كثير:" أي: بل في غاية البياض والحلاوة والدسومة".

قال الصابوني: أي:" وأنهار جاريات من حليبٍ في غاية البياض والحلاوة والدسامة، لم يحمض بطول المقام ولم يفسد كما تفسد ألبان الدنيا".

عن عكرمة، قوله: " {مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ}، قال: لم يحلب".

وفي حديث مرفوع: «لم يخرج من ضُرُوع الماشية».

قال الفراء:" لم يخرج من ضروع الإبل ولا الغنم برغوته".

قال ابن عطية:" قوله: في اللبن {لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ}، نفي لجميع وجوه الفساد في

=

=

اللبن".

قوله تعالى: {وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ} [محمد: ١٥]، أي:" وأنهار من خمر يتلذذ به الشاربون".

قال الطبري: " يقول: وفيها أنهار من خمر لذة للشاربين يلتذون بشربها".

قال ابن قتيبة:" أي: لذيذة. يقال: شراب لَذٌّ إذا كان طيبًا".

قال ابن كثير:" أي: ليست كريهة الطعم والرائحة كخمر الدنيا، بل هي حسنة المنظر والطعم والرائحة والفعل، {لا فِيهَا غَوْلٌ وَلا هُمْ عَنْهَا يُنزفُونَ} [الصافات: ٤٧]، {لا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلا يُنزفُونَ} [الواقعة: ١٩]، {بَيْضَاءَ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ} [الصافات: ٤٦]".

عن سعيد بن جُبير، في قوله: " {وأَنْهارٌ مِن خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشّارِبِينَ} قال: لم تَدُسْه الرّجال بأرجلها".

قال ابن عطية:" قوله: {لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ} جمعت طيب المطعم وزوال الآفات من الصداع وغيره {ولَذَّةٍ} نعت على النسب، أي ذات لذة".

قال السعدي:" أي: يلتذ به شاربه لذة عظيمة، لا كخمر الدنيا الذي يكره مذاقه ويصدع الرأس، ويغول العقل".

عن سعد بن طريف، قال: "سألت عنها الحارث، فقال: لم تدسه المجوس، ولم ينفخ فيه الشيطان، ولم تؤذها شمس، ولكنها فوحاء، قال: قلت لعكرمة: ما «الفوحاء»: قال: الصفراء".

قوله تعالى: {وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى} [محمد: ١٥]، أي:" وأنهار من عسل قد صُفِّي من مما يخالطه من الشوائب".

قال الطبري: " يقول: وفيها أنهار من عسل قد صُفِّي من القَذى، وما يكون في عسل أهل الدنيا قبل التصفية، إنما أعلم تعالى ذكره عباده بوصفه ذلك العسل بأنه

=

=

مصفى أنه خلق في الأنهار ابتداء سائلا جاريا سيل الماء واللبن المخلوقين فيها، فهو من أجل ذلك مصفًّى، قد صفاه الله من الأقذاء التي تكون في عسل أهل الدنيا الذي لا يصفو من الأقذاء إلا بعد التصفية، لأنه كان في شمع فصُفي منه".

قال السعدي: أي: " من شمعه، وسائر أوساخه".

قال ابن عطية:" وتصفية العسل مذهبة لمومه وضرره".

قال ابن كثير:" أي: وهو في غاية الصفاء، وحسن اللون والطعم والريح".

عن سعيد بن جُبير:" {وأَنْهارٌ مِن عَسَلٍ مُصَفًّى} قال: لم يخرج مِن بطون النّحل".

عن حكيم بن معاوية، عن أبيه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: "في الجنة بحر اللبن، وبحر الماء، وبحر العسل، وبحر الخمر، ثم تشقق الأنهار منها بعد".

وعن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: " فإذا سألتم الله فاسألوه الفردوس فإنه أوسط الجنة وأعلى الجنة وفوقه عرش الرحمن ومنه تفجر أنهار الجنة".

قوله تعالى: {وَلَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ} [محمد: ١٥]، أي:" ولهؤلاء المتقين في هذه الجنة جميع الثمرات من مختلف الفواكه وغيرها".

قال الطبري: يقول:" ولهؤلاء المتقين في هذه الجنة من هذه الأنهار التي ذكرنا من جميع الثمرات التي تكون على الأشجار".

قال ابن عطية:" أي: من هذه الأنواع، لكنها بعيدة الشبه، إذ تلك لا عيب فيها ولا تعب بوجه".

قال الشوكاني:" أي: لأهل الجنة في الجنة مع ما ذكر من الأشربة من كل صنف من أصناف الثمرات، و «من»: زائدة للتوكيد".

قال السعدي: أي: " من نخيل، وعنب، وتفاح، ورمان، وأترج، وتين، وغير ذلك

=

=

مما لا نظير له في الدنيا، فهذا المحبوب المطلوب قد حصل لهم".

قال عكرمة:" فما في الدنيا من شجرة إلا وهي في الجنة، حتى الحنظل".

قال ابن عباس - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا -: "ما في الدنيا ثمرة حلوة ولا مرة، إلا وهي في الجنة، حتى الحنظل إلا أنه حلو".

قوله تعالى: {وَمَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ} [محمد: ١٥]، أي:" وعفو من الله لهم عن ذنوبهم التي أذنبوها في الدنيا، ثم تابوا منها، وصَفْحٌ منه لهم عن العقوبة عليها".

قال أبو الليث السمرقندي:" {وَمَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ} لذنوبهم في الآخرة. ويقال: في الدنيا".

قال ابن عطية:" معناه: وتنعيم أعطته المغفرة وسببته، فالمغفرة إنما هي قبل الجنة".

قال سهل:" المغفرة من ربهم في الجنة: ما يغشاهم عند النظر إلى الحق من أنواره".

قال السعدي: " ثم قال: {وَمَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ} يزول بها عنهم المرهوب".

قال الشوكاني:" وتنكير «مغفرة» للتعظيم، أي: ولهم مغفرة عظيمة كائنة من ربهم".

عن قتادة، في قوله:" {أولئك لهم مغفرة}، يقول: مغفرة لذنوبهم".

عن ميمون بن مهران في قول الله تعالى: {أولئك جزاؤهم مغفرة من ربهم}، قال: وجبت لهم المغفرة".

قوله تعالى: {كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ} [محمد: ١٥]، أي:" هل مَن هو في هذه الجنة كمَن هو ماكث في النار لا يخرج منها".

قال الطبري: يقول:" أمَّن هو في هذه الجنة التي صفتها ما وصفنا، كمن هو خالد في النار".

=

=

قال ابن ابي زمنين:" وهذا على الاستفهام، يقول: أهؤلاء المتقون الذين وعدوا الجنة فيها ما وصف {كمن هو خالد في النار}، على ما وصف؟! أي: ليسوا بسواء".

قال الماتريدي:" أي: ليس من وعد له ما ذكر من الجنة وهو خالد فيها متنعم بما ذكر من ألوان الثمار والتنعم بما ذكر من المياه والخمور والألبان، كمن هو خالد في النار وما ذكر".

قال ابن كثير:" أي: أهؤلاء الذين ذكرنا منزلتهم من الجنة كمن هو خالد في النار؟ ليس هؤلاء كهؤلاء، أي: ليس من هو في الدرجات كمن هو في الدركات".

قال السعدي: " فأي هؤلاء خير أم من هو خالد في النار التي اشتد حرها، وتضاعف عذابها".

قوله تعالى: {وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ} [محمد: ١٥]، أي:" وسُقوا ماء تناهى في شدة حره فقطَّع أمعاءهم".

قال الطبري: يقول:" وسُقي هؤلاء الذين هم خلود في النار ماء قد انتهى حرّه فقطع ذلك الماء من شدّة حرّه أمعاءهم".

قال ابن كثير:" {وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا}، أي: حارا شديد الحر، لا يستطاع. {فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ}، أي: قطع ما في بطونهم من الأمعاء والأحشاء، عياذا بالله من ذلك".

قال الواحدي: أي:" شديد الحر، تستعر عليه جهنم منذ خلقت، فقطع أمعاءهم في الجوف، من شدة الحر.. والأمعاء: جميع ما في البطن من الحوايا، وأحدها: معاء".

قال يحيى:" الحميم: الحار الذي لا يستطاع من حره".

قال الشوكاني:" الحميم: الماء الحار الشديد الغليان، فإذا شربوه قطع أمعاءهم".

قال السعدي: " {وَسُقُوا} فيها {مَاءً حَمِيمًا} أي: حارا جدا، {فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ}،

=

=

فسبحان من فاوت بين الدارين والجزاءين، والعاملين والعملين".

قال السدي:" الحميم: الذي قد انتهى حَرُّه".

قال ابن زيد:" الحميم: دموع أعينهم، تجمع في حياض النار فيسقونه".

عن أبي أُمامة، عن النبي ﷺ، في قوله: {ويُسْقى مِن ماءٍ صَدِيدٍ يَتَجَرَّعُهُ} [إبراهيم: ١٦ - ١٧]، قال: «يُقرّب إليه، فيتكرّهه، فإذا أُدني منه شوى وجهه، ووقعت فَرْوة رأسه، فإذا شربه قطّع أمعاءه، حتى يخرج مِن دُبره، يقول الله ﷻ: {وسُقُوا ماءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أمْعاءَهُمْ}. ويقول الله: {وإنْ يَسْتَغِيثُوا يُغاثُوا بِماءٍ كالمُهْلِ يَشْوِي الوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرابُ} [الكهف: ٢٩]»".

روي عن محمد بن عبيد الله الكاتب، قال: "قدمت من مكة، فلما صرت إلى «طيزناباذ»، [فَرَأَيْت كرما فِيهِ عِنَب كثير] فذكرت بيت أبي نواس:

بِطِيْزَنَابَاذَ كَرْمٌ؟ مَا مَرَرْتُ بِهِ... إِلَّا تَعَجَّبْتُ مِمَّا يُشْرَبُ الْمَاءُ؟

فهتف بي هاتف، أسمع صوته، ولا أراه:

وَفِي جَهَنَّمَ مَاءٌ مَا تَجَرَّعَهُ خَلْقٌ... فَأَبْقَى لَهُ فِي الْبَطْنِ أَمْعَاءُ".

مسألة في ذكر مباحث في الإيمان بالجنة والنار.

المسألة الأولى: الجنة هي دار الثواب لمن أطاع الله وموضعها عند سدرة المنتهى. قال تعالى: {وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى - عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى - عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَاوَى} [النجم: ١٣ - ١٥] والجنة هي الجزاء العظيم، والثواب الجزيل، الذي أعده الله لأوليائه وأهل طاعته، وهي نعيم كامل لا يشوبه نقص، ولا يعكر صفوه كدر، وما حدثنا الله به عنها، وما أخبرنا به الرسول ﷺ يحير العقل ويذهله، لأن تصور عظمة ذلك النعيم يعجز العقل عن إدراكه واستيعابه. استمع إلى قوله تبارك وتعالى في الحديث القدسي (أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، قال أبو هريرة (اقرؤوا إن شئتم فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ

=

=

ما أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاء بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ [السجدة:١٧]) وتظهر عظمة النعيم بمقارنته بمتاع الدنيا، فإن متاع الدنيا بجانب نعيم الآخرة تافه حقير، لا يساوي شيئًا. ففي صحيح البخاري (٣٢٥٠) عن سهل بن سعد الساعدي قال: قال رسول الله ﷺ: ((موضع سوط في الجنة خير من الدنيا وما فيها)، ولذا كان دخول الجنة والنجاة من النار في حكم الله وتقديره هو الفلاح العظيم، والفوز الكبير، والنجاة العظمى قال تعالى: (كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ) [آل عمران:١٨٥]، وقال: (وَعَدَ اللهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَناتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَناتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ) [التوبة:٧٢]، وقال أيضا (تِلْكَ حُدُودُ اللهِ وَمَن يُطِعِ اللهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَناتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ) [النساء:١٣].

والجنة درجات، كما جاء في صحيح البخاري (٢٧٩٠) من حديث أبي هريرة عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إن في الجنة مائة درجة أعدها الله للمجاهدين في سبيل الله، ما بين الدرجتين كما بين السماء والأرض». وأعلى الجنة الفردوس الأعلى وفوقه العرش ومنه تتفجر أنهار الجنة كما جاء في حديث أبي هريرة السابق عن النبي ﷺ قال: «فإذا سألتم الله فسلوه الفردوس فإنه أوسط الجنة وأعلى الجنة وفوقه عرش الرحمن ومنه تفجر أنهار الجنة». وللجنة ثمانية أبواب كما جاء في حديث سهل بن سعد رضي الله عنه في صحيح البخاري (٣٢٥٧) عن النبي ﷺ أنه قال: «في الجنة ثمانية أبواب فيها باب يسمى الريان لا يدخله إلا الصائمون» وقد أعد الله لأهل الجنة فيها من النعيم ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر.

وأما النار فهي دار العقاب الأبدي للكافرين والمشركين والمنافقين النفاق الاعتقادي، ولمن شاء الله من عصاة الموحدين بقدر ذنوبهم ثم مآلهم إلى الجنة.

=

=

كما قال تعالى: {إِنَّ اللهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ} [النساء: ٤٨] (النساء: ٤٨) وموضعها في الأرض السابعة كذا نقل عن ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا، وللنار دركات بعضها أسفل من بعض، قال عبد الرحمن بن أسلم: (درجات الجنة تذهب علوا ودرجات النار تذهب سفولا، وأسفل الدركات هي دار المنافقين كما قال تعالى: {إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ} [النساء: ١٤٥]، وللنار سبعة أبواب، قال تعالى: {لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ} [الحجر: ٤٤]، ونار الدنيا جزء من سبعين جزءا من نار جهنم على ما جاء في حديث أبي هريرة الذيَ أخرجه الشيخان البخاري (٣٢٦٥)، ومسلم (٨٧١) عن النبي ﷺ قال: «ناركم جزء من سبعين جزءا من نار جهنم». والإيمان بالجنة والنار يتحقق بثلاثة أمور:

الأول: الاعتقاد الجازم بأنهما حق وأن الجنة دار المتقين والنار دار الكافرين والمنافقين. قال تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّ اللهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا - وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا} [النساء: ٥٦ - ٥٧].

الثاني: اعتقاد وجودهما الآن، قال تعالى في الجنة. {أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ} [آل عمران: ١٣٣]، وقال تعالى في النار: {أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ} [البقرة: ٢٤]، وجاء في الصحيحين البخاري (٣٢٤١)، ومسلم (٢٧٣٨) من حديث عمران بن حصين عن النبي ﷺ أنه قال: «اطلعت في الجنة فرأيت أكثر أهلها الفقراء، واطلعت في النار فرأيت أكثر أهلها النساء».

قال الإمام ابن القيم في حادي الأرواح (ص١١): الباب الأول: في بيان وجود الجنة الآن، لم يزل أصحاب رسول الله والتابعون وتابعوهم وأهل السنة

=

=

والحديث قاطبة وفقهاء الإسلام وأهل التصوف والزهد على اعتقاد ذلك وإثباته مستندين في ذلك إلى نصوص الكتاب والسنة وما علم بالضرورة من أخبار الرسل كلهم من أولهم إلى آخرهم فإنهم دعوا الأمم إليها وأخبروا بها إلى أن نبغت نابغة من القدرية والمعتزلة فأنكرت أن تكون مخلوقة الآن وقالت بل الله ينشئها يوم القيامة وحملهم على ذلك أصلهم الفاسد الذي وضعوا به شريعة فيما يفعله الله وأنه ينبغي له أن يفعل كذا ولا ينبغي له أن يفعل كذا وقاسوه على خلقه في أفعالهم فهم مشبهة في الأفعال ودخل التجهم فيهم فصاروا مع ذلك معطلة في الصفات وقالوا خلق الجنة قبل الجزاء عبث فإنها تصير معطلة مددا متطاولة ليس فيها سكانها.

قالوا ومن المعلوم أن ملكا لو أتخذ دارا وأعد فيها ألوان الأطعمة والآلات والمصالح وعطلها من الناس ولم يمكنّهم من دخولها قرونا متطاولة لم يكن ما فعله واقعا على وجه الحكمة ووجد العقلاء سبيلا إلى الاعتراض عليه فحجروا على الرب تعالى بعقولهم الفاسدة وآرائهم الباطلة وشبهوا أفعاله بأفعالهم وردوا من النصوص ما خالف هذه الشريعة الباطلة التي وضعوها للرب أو حرفوها عن مواضعها وضللوا وبدعوا من خالفهم فيها والتزموا فيها لوازم أضحكوا عليهم فيها العقلاء، ولهذا يذكر السلف في عقائدهم أن الجنة والنار مخلوقتان ويذكر من صنف في المقالات أن هذه مقالة أهل السنة والحديث قاطبة لا يختلفون... ثم قال الإمام في (٤٥): الباب السابع: في ذكر شبه من زعم أن الجنة لم تخلق بعد: قالوا لو كانت الجنة مخلوقة الآن لوجب اضطرار أن تفنى يوم القيامة وأن يهلك كل ما فيها ويموت لقوله تعالى {هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلا وَجْهَهُ} و {كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ} الْمَوْتِ فتموت الحور العين التي فيها والولدان وقد أخبر سبحانه أن الدار دار خلود ومن فيها مخلدون لا يموتون فيها وخبره سبحانه لا يجوز عليه خلف

=

=

ولا نسخ

قالوا وقد روى الترمذي في جامعه من حديث ابن مسعود قال قال رسول الله:"لقيت إبراهيم ليلة أسري بي فقال يا محمد أقرىء أمتك مني السلام وأخبرهم أن الجنة طيبة التربة عذبة الماء وأنها قيعان وأن غراسها سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر " قال هذا حديث حسن غريب

وفيه أيضا من حديث أبي الزبير عن جابر عن النبي ﷺ أنه قال: "من قال سبحان الله وبحمده غرست له نخلة في الجنة" قال هذا حديث حسن صحيح، قالوا فلو كانت الجنة مخلوقة مفروغا منها لم تكن قيعانا ولم يكن لهذا الغرس معنى قالوا وقد قال تعالى عن امرأة فرعون إنها قالت: {رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ} ومحال أن يقول قائل لمن نسج له ثوبا أو بنى له بيتا أنسج لي ثوبا وابن لي بيتا وأصرح من هذا قول النبي ﷺ: "من بنى لله مسجدا بنى الله له بيتا في الجنة" متفق عليه، وهذه جملة مركبة من شرط وجزاء تقتضي وقوع الجزاء بعد الشرط بإجماع أهل العربية وهذا ثابت عن النبي ﷺ من رواية عثمان بن عفان وعلي بن أبي طالب وجابر بن عبد الله وأنس بن مالك وعمرو بن عنبسة قالوا وقد جاءت آثار بأن الملائكة تغرس فيها وتبني للعبد ما دام يعمل فإذا فتر فتر الملك عن العمل، قالوا وقد روى ابن حبان في صحيحه والإمام أحمد في مسنده من حديث أبي موسى الأشعري قال قال رسول الله: "إذا قبض الله ولد العبد قال يا ملك الموت قبضت ولد عبدي قبضت قرة عينه وثمرة فؤاده قال نعم قال فما قال قال حمدك واسترجع قال ابنوا له بيتا في الجنة وسموه بيت الحمد "، وفي المسند من حديثه أيضا قال قال رسول الله: "من صلى في يوم وليلة ثنتي عشرة ركعة سوى الفريضة بنى الله له بيتا في الجنة"، قالوا وليس هذا من أقوال أهل البدع والاعتزال كما زعمتم فهذا ابن مزين قد ذكر في تفسيره عن ابن نافع وهو من أئمة السنة أنه سئل

=

=

عن الجنة أمخلوقة هي فقال: "السكوت عن هذا أفضل" والله أعلم.
الباب الثامن: في الجواب عما احتجت به هذه الطائفة: قد تقدم في الباب الأول من ذكر الأدلة الدالة على وجود الجنة الآن ما فيه كفاية فنقول ما تعنون بقولكم إن الجنة لم تخلق بعد أتريدون أنها الآن عدم محض لم تدخل إلى الوجود بعد بل هي بمنزلة النفخ في الصور وقيام الناس من القبور فهذا قول باطل يرده المعلوم بالضرورة من الأحاديث الصريحة الصحيحة التي تقدم بعضها وسيأتي بعضها وهذا قول لم يقله أحد من السلف ولا أهل السنة وهو باطل قطعا أم تريدون أنها لم تخلق بكمالها وجميع ما أعد الله فيها لأهلها وأنها لا يزال الله يحدث فيها شيئا بعد شيء وإذا دخلها المؤمنون أحدث الله فيها عند دخولهم أمورا أخر فهذا حق لا يمكن رده، وأدلتكم هذه إنما دلت على هذا القدر وحديث ابن مسعود الذي ذكرتموه وحديث أبي الزبير عن جابر صريحان في أن أرضها مخلوقة وأن الذكر ينشيء الله سبحانه لقائله منه غراسا في تلك الأرض وكذا بناء البيوت فيها بالأعمال المذكورة والعبد كلما وسع في أعمال البر وسع له في الجنة وكلما عمل خيرا غرس له به هناك غراس وبنى له بناء وأنشئ له من عمله أنواع مما يتمتع به فهذا القدر لا يدل على أن الجنة لم تخلق بعد ولا يسوغ إطلاق ذلك، وأما احتجاجكم بقوله تعالى: {كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلا وَجْهَه} فإنما أتيتم من عدم فهمكم معنى الآية واحتجاجكم بها على عدم وجود الجنة والنار الآن نظيرا احتجاج إخوانكم بها على فنائهما وخرابهما وموت أهلهما فلا أنتم وفقتم لفهم معناها ولا إخوانكم وإنما وفق لفهم معناها السلف وأئمة الإسلام ونحن نذكر بعض كلامهم في الآية قال البخاري في صحيحه:" يقال كل شيء هالك إلا وجهه إلا ملكه ويقال إلا ما أريد به وجهه، وقال الإمام أحمد في رواية ابنه عبد الله:" فأما السماء والأرض فقد زالتا لأن أهلهما صاروا إلى الجنة وإلى النار وأما العرش فلا يبيد

=

=

ولا يذهب لأنه سقف الجنة والله سبحانه وتعالى عليه فلا يهلك ولا يبيد"، وأما قوله تعالى: {كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلا وَجْهَه} فذلك أن الله سبحانه وتعالى أنزل {كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ} فقالت الملائكة هلك أهل الأرض وطمعوا في البقاء فأخبر الله تعالى عن أهل السموات وأهل الأرض أنهم يموتون فقال: {كُلُّ شَيْءٍ هَالِك} يعني ميت إلا وجهه لأنه حي لا يموت فأيقنت الملائكة عند ذلك بالموت انتهى كلامه

وقال في رواية أبي العباس أحمد بن جعفر ابن يعقوب الاصطخري ذكره أبو الحسين في كتاب الطبقات قال قال أبو عبد الله أحمد بن حنبل:"هذه مذاهب أهل العلم وأصحاب الأثر وأهل السنة المتمسكين بعروتها المعروفين بها والمقتدى بهم فيها من لدن أصحاب نبينا ﷺ إلى يومنا هذا وأدركت من أدركت من علماء أهل الحجاز والشام وغيرهم عليها فمن خالف شيئا من هذه المذاهب أو طعن فيها أو عاب قائلها فهو مخالف مبتدع خارج عن الجماعة زائل عن منهج السنة وسبيل الحق"، وساق أقوالهم إلى أن قال:" وقد خلقت الجنة وما فيها وخلقت النار وما فيها وخلقهما الله ﷻ وخلق الخلق لهما ولا يفنيان ولا يفنى ما فيهما أبدا"، فإن احتج مبتدع أو زنديق بقول الله ﷻ كل شيء هالك إلا وجهه وبنحو هذا من متشابه القرآن قيل له كل شيء مما كتب الله عليه الفناء والهلاك هالك والجنة والنار خلقتا للبقاء لا للفناء ولا للهلاك وهما من الآخرة لا من الدنيا والحور العين لا يمتن عند قيام الساعة ولا عند النفخة ولا أبدا لأن الله ﷻ خلقهن للبقاء لا للفناء ولم يكتب عليهن الموت فمن قال خلاف هذا فهو مبتدع وقد ضل عن سواء السبيل وخلق سبع سموات بعضها فوق بعض وسبع أرضين بعضها أسفل من بعض وبين الأرض العليا والسماء الدنيا مسيرة خمسمائة عام وبين كل سماء إلى سماء مسيرة خمسمائة عام والماء فوق السماء العليا السابعة وعرش

=

=

الرحمن ﷻ فوق الماء وأن الله ﷻ على العرش والكرسي موضع قدميه وهو يعلم ما في السموات والأرضين السبع وما بينهما وما تحت الثرى وما في قعر البحر ومنبت كل شعرة وشجرة وكل زرع وكل نبات ومسقط كل ورقة وعدد كل كلمة وعدد الحصا والتراب والرمل ومثاقيل الجبال وأعمال العباد وآثارهم وكلامهم وأنفاسهم ويعلم كل شيء لا يخفى عليه من ذلك شيء وهو على العرش فوق السماء السابعة ودونه حجب من نار ونور وظلمة وما هو أعلم بها فإن احتج مبتدع ومخالف بقول الله ﷻ: {ونحن أقرب إليه من حبل الوريد} وقوله {وهو معكم أينما كنتم} وقوله {إلا هو معهم أينما كانوا} وقوله {ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ولا خمسة إلا هو سادسهم} ونحو هذا من متشابه القرآن فقل إنما يعني بذلك العلم لأن الله ﷻ على العرش فوق السماء السابعة العليا يعلم ذلك كله وهو بائن من خلقه لا يخلو من علمه مكان، وقال في رواية أبي جعفر الطائي محمد بن عوف بن سفيان الحمصي قال الخلال حافظ إمام في زمانه معروف بالتقدم في العلم والمعرفة كان أحمد بن حنبل يعرف له ذلك ويقبل منه ويسأله عن الرجال من أهل بلده

قال أملى على أحمد بن حنبل فذكر رسالة في السنة ثم قال في أثنائها وأن الجنة والنار مخلوقتان قد خلقتا كما جاء الخبر قال النبي ﷺ ﷺ "دخلت الجنة فرأيت فيها قصرا ورأيت الكوثر واطلعت في النار فرأيت أكثر أهلها كذا وكذا...." فمن زعم أنهما لم يخلقا فهو مكذب برسول الله ﷺ وبالقرآن كافر بالجنة والنار يستتاب فإن تاب وإلا قتل، وقال في رواية عبندوس بن مالك العطار وذكر رسالة في السنة قال فيها والجنة والنار مخلوقتان قد خلقتا كما جاء عن رسول الله ﷺ " أطلعت في الجنة فرأيت أكثر أهلها كذا وكذا وأطلعت في النار فرأيت أكثر أهلها كذا وكذا"، فمن زعم أنهما لم يخلقا فهو مكذب بالقرآن وأحاديث رسول الله ولا

=

أحسبه يؤمن بالجنة والنار، فتأمل هذه الأبواب وما تضمنته من النقول والمباحث والنكت والفوائد التي لا تظفر بها في غير هذا الكتاب البتة ونحن اختصرنا الكلام في ذلك ولو بسطناه لقام منه سفر ضخم والله المستعان وعليه التكلان وهو الموفق للصواب.

الثالث: اعتقاد دوامهما وبقائهما وأنهما لا تفنيان ولا يفنى من فيهما. قال تعالى في الجنة: {خَالِدِينَ فِيهَا ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ} [التوبة: ٨٩]، وقال تعالى عن النار: {وَمَنْ يَعْصِ اللهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا} [الجن: ٢٣]، والمقصود من المعصية هنا الكفر، لتأكيد الخلود في النار بالتأبيد، قال القرطبي قوله (أبدا) دليل على أن العصيان هنا هو الشرك. وروى الشيخان البخاري (٦٥٤٤)، ومسلم (٢٨٥٠) من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «يدخل الله أهل الجنة الجنة، وأهل النار النار، ثم يقوم مؤذن بينهم فيقول: يا أهل الجنة لا موت ويا أهل النار لا موت كل خالد فيما هو فيه» كتاب أصول الإيمان (ص٢٤٠).

المسألة الثانية: مكان الجنة والنار.

المطلب الأول: مكان الجنة: ذكر في شرح لمعة الاعتقاد (ص١٣٢): أن مكان الجنة في أعلى عليين لقوله تعالى: (كلا إن كتاب الأبرار لفي عليين)، ولقوله ﷺ: في حديث البراء المشهور في قصة فتنة القبر: (.. فيقول الله عز وجل اكتبوا كتاب عبدي في عليين وأعيدوه إلى الأرض..)، وما ذكر فيه نظر، لأن عليين درجة من درجات الجنة كما في حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (إن أهل الجنة ليرون أهل عليين كما ترون الكوكب الدري في أفق السماء إن أبا بكر وعمر لمنهم وأنعما)

وفي رواية الترمذي عن أبي سعيد رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (إن أهل

=

الدرجات العلى ليراهم من تحتهم كما ترون النجم الطالع في أفق السماء وإن أبا بكر وعمر منهم وأنعما) فهذه الرواية فسرت الرواية التي قبلها، وبينت أن أهل عليين هم أهل الدرجات العلى، فعليين درجة من درجات الجنة، وليست هي مكان لجميع الجنة، والآية تدل على ذلك أيضا لأنه تعالى قال: (إن كتاب الأبرار لفي عليين) وأهل الجنة فيهم السابقون، وفيهم الأبرار المقتصدون، وفيهم الظالم لنفسه وكل له درجته.

والصحيح أن مكان الجنة فوق السماء السابعة وتحت عرش الرحمن، أما كونها فوق السماء السابعة فدل عليه القرآن، قال تعالى: (عند سدرة المنتهى * عندها جنة المأوى)، وسدرة المنتهى فوق السماء السابعة كما في حديث الإسراء المشهور، وفيه: (ثم عرج إلى السماء السابعة فاستفتح جبريل فقيل من هذا قال جبريل قيل ومن معك قال محمد ﷺ قيل وقد بعث إليه قال قد بعث إليه ففتح لنا فإذا أنا بإبراهيم عليه السلام مسندا ظهره إلى البيت المعمور وإذا هو يدخله كل يوم سبعون ألف ملك لا يعودون إليه ثم ذهب بي إلى السدرة المنتهى وإذا ورقها كآذان الفيلة وإذا ثمرها كالقلال قال فلما غشيها من أمر الله ماغشي تغيرت فما أحد من خلق الله يستطيع أن ينعتها من حسنها فأوحى الله إلي ما أوحى ففرض علي خمسين صلاة..) أخرجه مسلم.

فهذا الحديث يدل على أن سدرة المنتهى بعد السماء السابعة، وبما أن الجنة عندها إذن فهي فوق السماء السابعة.

أما كون الجنة تحت عرش الرحمن فدل على ذلك السنة؛ فعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: (من آمن بالله وبرسوله وأقام الصلاة وصام رمضان كان حقا على الله أن يدخله الجنة جاهد في سبيل الله أو جلس في أرضه التي ولد فيها فقالوا يا رسول الله أفلا نبشر الناس قال إن في الجنة مائة درجة أعدها الله للمجاهدين في

=

=

سبيل الله ما بين الدرجتين كما بين السماء والأرض فإذا سألتم الله فاسألوه الفردوس فإنه أوسط الجنة وأعلى الجنة أراه فوقه عرش الرحمن ومنه تفجر أنهار الجنة) أخرجه البخاري.

فأعلى درجات الجنة هي الفردوس - كما في الحديث - وفوقه عرش الرحمن، إذن فالجنة تحت عرشه سبحانه.

قال ابن كثير في تفسيره (٢/ ١١٧): وقد روينا في مسند الإمام أحمد أن هرقل كتب إلى النبي ﷺ (إنك دعوتني إلى جنة عرضها السماوات والأرض، فأين النار؟ فقال النبي ﷺ: "سبحان الله! فأين الليل إذا جاء النهار؟).

وقد رواه ابن جرير فقال: حدثني يونس، أنبأنا ابن وهب، أخبرني مسلم بن خالد، عن أبي خثيم، عن سعيد بن أبي راشد، عن يعلى بن مرة قال: لقيت التنوخي رسول هرقل إلى رسول الله ﷺ بحمص، شيخا كبيرا فسد، قال: قدمت على رسول الله ﷺ بكتاب هرقل، فناول الصحيفة رجلا عن يساره. قال: قلت: من صاحبكم الذي يقرأ؟ قالوا: معاوية. فإذا كتاب صاحبي: "إنك كتبت تدعوني إلى جنة عرضها السماوات والأرض أعدت للمتقين، فأين النار؟ قال: فقال رسول الله ﷺ: "سبحان الله! فأين الليل إذا جاء النهار؟".

وقال الأعمش، وسفيان الثوري، وشعبة، عن قيس بن مسلم عن طارق بن شهاب، أن ناسا من اليهود سألوا عمر بن الخطاب عن جنة عرضها السماوات والأرض، فأين النار؟ فقال عمر رضي الله عنه أرأيتم إذا جاء الليل أين النهار؟ وإذا جاء النهار أين الليل؟ فقالوا: لقد نزعت مثلها من التوراة.

رواه ابن جرير من الثلاثة الطرق ثم قال: حدثنا أحمد بن حازم، حدثنا أبو نعيم، حدثنا جعفر بن برقان، أنبأنا يزيد بن الأصم: أن رجلا من أهل الكتاب قال: يقولون: {جنة عرضها السماوات والأرض} فأين النار؟ فقال ابن عباس: أين

=

=

يكون الليل إذا جاء النهار، وأين يكون النهار إذا جاء الليل؟.

وقد روي هذا مرفوعا، فقال البزار: حدثنا محمد بن معمر، حدثنا المغيرة بن سلمة أبو هشام، حدثنا عبد الواحد بن زياد، عن عبيد الله بن عبد الله بن الأصم، عن عمه يزيد بن الأصم، عن أبي هريرة قال: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: أرأيت قوله تعالى: {جنة عرضها السماوات والأرض} فأين النار؟ قال: "أرأيت الليل إذا جاء لبس كل شيء، فأين النهار؟" قال: حيث شاء الله. قال: "وكذلك النار تكون حيث شاء الله ﷻ".

وهذا يحتمل معنيين:

أحدهما: أن يكون المعنى في ذلك: أنه لا يلزم من عدم مشاهدتنا الليل إذا جاء النهار ألا يكون في مكان، وإن كنا لا نعلمه، وكذلك النار تكون حيث يشاء الله ﷻ، وهذا أظهر كما تقدم في حديث أبي هريرة، عند البزار.

الثاني: أن يكون المعنى: أن النهار إذا تغشى وجه العالم من هذا الجانب، فإن الليل يكون من الجانب الآخر، فكذلك الجنة في أعلى عليين فوق السماوات تحت العرش، وعرضها كما قال الله، ﷻ: {كعرض السماء والأرض} [الحديد:٢١] والنار في أسفل سافلين. فلا تنافي بين كونها كعرض السماوات والأرض، وبين وجود النار، والله أعلم ا.هـ

وسئل العلامة العثيمين كما في مجموع فتاواه (٢/ ٤٩): إذا كانت الجنة عرضها كعرض السماوات والأرض، فأين تكون النار في هذا الكون الذي ليس فيه إلا السماوات والأرض؟.

فأجاب: قبل الجواب على هذا يجب أن نقدم مقدمة، وهي أن ما جاء في كتاب الله، وما صح عن رسوله ﷺ فإنه حق، ولا يمكن أن يخالف الأمر الواقع، فإن الأمر الواقع المحسوس لا يمكن إنكاره، وما دل عليه الكتاب والسنة فإنه حق لا

=

=

يمكن إنكاره، ولا يمكن تعارض حقين على وجه لا يمكن الجمع بينهما، وقد ثبت في القرآن أن الجنة عرضها كعرض السماء والأرض، قال الله - تعالى -: {سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ}. وفي الآية الأخرى: {عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ}، وهذا حق بلا ريب.

وفي مسند الإمام أحمد: «أن هرقل كتب للنبي ﷺ فقال: إذا كانت الجنة عرضها السماوات والأرض فأين تكون النار؟. فقال النبي ﷺ: " إذا جاء الليل فأين يكون النهار» ؟ فإن صح هذا الحديث، فوجهه أن السماوات والأرض في مكانهما والجنة في مكانها في أعلى عليين، كما أن النهار في مكان والليل في مكان، وإن لم يصح الحديث، فإن في كون الجنة عرضها السماوات والأرض لا يعني أنها قد ملأتهما، ولكن يعني: أن الجنة عظيمة السعة، عرضها كعرض السماوات والأرض.

ثم إن قول السائل: " إن هذا الكون ليس فيه إلا السماوات والأرض" ليس بصحيح، فهذا الكون فيه السماوات والأرض،، وفيه الكرسي والعرش، وقد كان النبي ﷺ، يقول بعد رفعه من ركوعه: «ملء السماوات، وملء الأرض، وملء ما شئت من شيء بعد»، فهناك عالم غير السماوات والأرض لا يعلمه إلا الله، كذلك نحن نعلم منه ما علمنا الله- تعالى - مثل العرش والكرسي، والعرش هو أعلى المخلوقات والله - سبحانه وتعالى - قد استوى عليه استواء يليق بجلاله وعظمته ا.هـ

المطلب الثاني: مكان النار.

قال تعالى: (كلا إن كتاب الفجار لفي سجين * وما أدراك ما سجين* كتاب مرقوم)، وفي حديث البراء: (.. فيقول الله ﷻ اكتبوا كتابه في سجين في الأرض السفلى..).

=

=

سجين: فعيل من السجن، وهو الضيق، كما يقال: فسيق، وشريب، وخمير، وسكير ونحو ذلك. ولهذا أعظم الله أمره فقال: (وما أدراك ما سجين): أي أمر عظيم وسجن مقيم وعذاب أليم، وقد فسر في الحديث بأنه في الأرض السفلى، وقال بعضهم: صخرة تحت الأرض السابعة، وقيل: بئر في جهنم، وقيل غير ذلك مما لا دليل عليه، ولا قول بعد قول رسول الله ﷺ.

والظاهر من الآية أن سجين: هو اسم للكتاب لأنه تعالى قال: (وما أدراك ما سجين* كتاب مرقوم)، ولكن قال الحافظ ابن كثير في تفسيره عن قوله تعالى: (كتاب مرقوم): ليس تفسيرا لقوله: (وما أدراك ما سجين)، وإنما هو تفسير لما كتب لهم من المصير إلى سجين، أي مرقوم مكتوب مفروغ منه لا يزيد فيه أحد ولا ينقص منه أحد. قاله محمد بن كعب القرظي وهكذا قال الراغب، والقاسمي.

وعليه فيكون قوله تعالى: (كتاب مرقوم) تفسيرا لقوله: (إن كتاب الفجار لفي سجين): أي إن كتاب الفجار كتاب مرقوم، ويكون قوله: (وما أدراك ما سجين) جملة معترضة بين المفسر والمفسر، وهذه الآية ليست صريحة في مكان النار كما استدل بها في شرح لمعة الاعتقاد.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما: (جهنم في الأرض السابعة). رواه أبو نعيم في صفة الجنة (١٢٧).

وخرج ابن منده عن مجاهد قال: (قلت لابن عباس رضي الله عنهما: أين النار؟ قال: تحت سبعة أبحر مطبقة).

وخرج ابن خزيمة، وابن أبي الدنيا في صفة النار (١٧٧) عن عبد الله بن سلام رضي الله عنه: (إن الجنة في السماء، وإن النار في الأرض)، وأخرج ابن أبي الدنيا في صفة النار (١٨٣) عن قتادة: (كانوا يقولون: الجنة في السموات السبع، وإن جهنم في الأرضين السبع)، وفي حديث البراء في حق الكافر: (يقول الله: اكتبوا كتابه في

=

=

سجين في الأرض السفلى، فتطرح روحه طرحًا).

وأخرج الإمام أحمد بسند فيه نظر عن يعلى بن أمية، عن النبي ﷺ قال: (البحر هو جهنم، فقالوا ليعلى: ألا تركبها. يعني: البحور. قال: ألا ترون أن الله يقول: نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا [الكهف: ٢٩]. لا والذي نفس يعلى بيده لا أدخلها أبدًا حتى أعرض على الله ﷻ ولا يصيبني منها قطرة حتى ألقى الله ﷻ).

قال الحافظ ابن رجب في التخويف من النار (ص: ٤٧): (وهذا إن شئت فالمراد به أن البحار تفجر يوم القيامة فتصير بحرًا واحدًا، ثم يسجر ويوقد عليها فتصير نارًا، وتزاد في نار جهنم. وقد فسر قوله تعالى: وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ [التكوير: ٦] بنحو هذا). وقال ابن عباس: تسجر تصير نارًا. وفي رواية عنه: (تكون الشمس والقمر والنجوم في البحر، فيبعث الله عليها ريحًا دبورا فتنفخه حتى يرجع نارًا) رواه ابن أبي الدنيا، وابن أبي حاتم، وأخرجا عنه أيضًا في قوله: وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ [العنكبوت: ٥٤]. قال: (هو هذا البحر فتنتشر الكواكب فيه، وتكور الشمس والقمر فيه فيكون هو جهنم). وقال علي رضي الله عنه ليهودي: (أين جهنم؟ قال: تحت البحر قال علي: صدق، ثم قرأ: وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ) [التكوير: ٦] رواه ابن أبي إياس.

وخرج ابن أبي حاتم عن أبي بن كعب رضي الله عنه في قوله: وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ. قال: (قالت الجن للإنس: نأتيكم بالخبر فانطلقوا إلى البحر فإذا هو نار تأجج).

وفي سنن أبي داود عن ابن عمرو مرفوعًا: (لا يركب البحر إلا حاجًا، أو معتمرًا، أو غازيًا في سبيل الله فإن تحت البحر نارًا، وتحت النار بحرًا)، وروي عن ابن عمر مرفوعًا: (إن جهنم محيطة بالدنيا، وإن الجنة من ورائها فلذلك كان الصراط على جهنم طريقا إلى الجنة).

وقيل: إن النار في السماء. خرج الإمام أحمد عن حذيفة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال:

=

=

(أتيت بالبراق فلم نزايل طرفه أنا وجبريل حتى أتيت بيت المقدس، وفتح لنا أبواب السماء، ورأيت الجنة والنار).

ولا حجة في هذا الحديث ونحوه على أن النار في السماء لجواز أن يراها في الأرض وهو في السماء، وهذا الميت يرى وهو في قبره الجنة والنار وليست الجنة في الأرض، وقد ثبت أنه ﷺ رآهما وهو في صلاة الكسوف وهو في الأرض، وفي بعض طريق حديث الإسراء عن أبي هريرة أنه مر على أرض الجنة والنار في مسيره إلى بيت المقدس، ولم يدل شيء من ذلك على أن الجنة في الأرض، فحديث حذيفة إن ثبت فيه أنه رأى الجنة والنار في السماء، فالسماء ظرف للرؤية لا للمرئي أي: رأيت الجنة والنار حال كوني في السماء، يعني: صدرت الرؤيا مني وأنا في السماء، ولا تعرض في الحديث للمرئي فتأمل.

قال الإمام ابن القيم في حادي الأرواح (ص٦٥): الباب الثالث عشر: في مكان الجنة وأين هي: قال الله تعالى: {وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى} وقد ثبت أن سدرة المنتهى فوق السماء وسميت بذلك لأنها ينتهي إليها ما ينزل من عند الله فيقبض منها وما يصعد إليه فيقبض منها وقال تعالى: {وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ} قال ابن أبي نجيح عن مجاهد:" هو الجنة "وكذلك تلقاه الناس عنه وقد ذكر ابن المنذر في تفسيره وغيره أيضا عن مجاهد قال:" هو الجنة والنار" وهذا يحتاج إلى تفسير فإن النار في أسفل السافلين ليست في السماء ومعنى هذا ما قاله في رواية ابن أبي نجيح عنه وقاله أبو صالح عن ابن عباس الخير والشر كلاهما يأتي من السماء.... وقد ثبت في الصحيحين عنه أنه قال: "الجنة مائة درجة ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض" وهذا يدل على أنها في غاية العلو والارتفاع والله أعلم

والحديث له لفظان هذا أحدهما والثاني "إن في الجنة مائة درجة ما بين كل

=

=

درجتين كما بين السماء والأرض أعدها الله للمجاهدين في سبيله" وشيخنا يرجح هذا اللفظ وهو لا ينفي أن يكون درج الجنة أكبر من ذلك ونظير هذا قوله في الحديث الصحيح "إن لله تسعة وتسعين اسما من أحصاها دخل الجنة" أي من جملة أسمائه هذا القدر فيكون الكلام جملة واحدة في الموضعين

ويدل على صحة هذا أن منزلة نبينا فوق هذا كله في درجة في الجنة ليس فوقها درجة وتلك المائة ينالها آحاد أمته بالجهاد والجنة مقببة أعلاها وأوسعها ووسطها هو الفردوس وسقفه العرش كما قال في الحديث الصحيح "إذا سألتم الله فاسألوه الفردوس فإنه وسط الجنة وأعلى الجنة فوقه عرش الرحمن ومنه تفجر أنهار الجنة".

قال شيخنا أبو الحجاج المزي: "والصواب رواية من رواه وفوقه بضم القاف على أنه أسم لا ظرف أي وسقفه عرش الرحمن فإن قيل فالجنة جميعها تحت العرش والعرش سقفها فإن الكرسي وسع السموات والأرض والعرش أكبر منه

قيل: لما كان العرش أقرب إلى الفردوس مما دونه من الجنات بحيث لا جنة فوقه دون العرش كان سقفا له دون ما تحته من الجنات ولعظم سعة الجنة وغاية ارتفاعها يكون الصعود من أدناها إلى أعلاها بالتدريج شيئا فشيئا درجة فوق درجة كما يقال لقاريء القرآن "اقرأ وارق فإن منزلتك عند آخر آية تقرأها" وهذا يحتمل شيئين أن تكون منزلته عند آخر حفظه وأن تكون عند آخر تلاوته لمحفوظة والله أعلم ا.هـ

وقال صاحب لوامع الأنوار البهية (ص: ٢٣٩): والحاصل أن الجنة فوق السماء السابعة، وسقفها العرش، وأن النار في الأرض السابعة على الصحيح المعتمد وبالله التوفيق. انتهى.

قال السيوطي في إتمام الدراية شرح النقاية: ونقف عن النار، أي نقول فيها

=

=

بالوقف، أي محلها حيث لا يعلمه إلا الله، فلم يثبت عندي حديث أعتمده في ذلك، وقيل: تحت الأرض لما روى ابن عبد البر وضعفه من حديث ابن عمر مرفوعًا ((لا يركب البحر إلا غاز أو حاج، أو معتمر، فإن تحت البحر نارًا)).....
وقيل: هي على وجه الأرض لما روى وهب أيضًا قال: (قال: أشرف ذو القرنين على جبل قاف فرأى تحته جبالًا صغارًا - إلى أن قال - يا قاف، أخبرني عن عظمة الله، فقال: إن شأن ربنا لعظيم. إن ورائي أرضًا مسيرة خمسمائة عام في خمسمائة عام، من جبال ثلج، يحطم بعضها بعضًا ولولا هي لاحترقت من جهنم).
وروى الحارث بن أسامة في مسنده عن عبد الله بن سلام قال: (الجنة في السماء والنار في الأرض) وقيل: محلها في السماء). انتهى كلام السيوطي ومثله في التذكرة للقرطبي قال: (فهذا يدل على أن جهنم على وجه الأرض والله أعلم بموضعها، وأين هي من الأرض). انتهى.
وقال الدهلوي في عقيدته: (ولم يصرح نص بتعيين مكانهما بل حيث شاء الله تعالى إذ لا إحاطة لنا بخلق الله وعوالمه)، انتهى.
أقول وهذا القول أرجح الأقوال وأحوطها إن شاء الله تعالى.
وقال صديق حسن خان في يقظة أولى الاعتبار مما ورد في ذكر النار وأصحاب النار (ص٢٣): وهذا القول -أي التوقف- أرجح الأقوال وأحوطها إن شاء الله تعالى.
وقد سئل العلامة العثيمين كما في مجموع فتاواه (٢/ ٦٠) عن: هل النار في السماء أو في الأرض؟
فأجاب: هي في الأرض، ولكن قال بعض أهل العلم: إنها هي البحار، وقال آخرون: هي في باطن الأرض، والذي يظهر أنها في باطن الأرض، ولكن ما ندري أين هي من الأرض؟ نؤمن بأنها في الأرض، وليست في السماء، ولكن لا نعلم في
=

=

أي مكان هي على وجه التعيين. والدليل على أن النار في الأرض ما يلي: قال الله - تعالى -: {كلا إن كتاب الفجار لفي سجين}. وسجين هي الأرض السفلى، كذلك جاء في الحديث فيمن احتضر، وقبض من الكافرين فإنها لا تفتح لهم أبواب السماء، ويقول الله - تعالى -: «اكتبوا كتاب عبدي في سجين، وأعيدوه إلى الأرض» ولو كانت النار في السماء لكانت تفتح لهم أبواب السماء ليدخلوها؛ لأن النبي ﷺ رأى أصحابها يعذبون فيها، وإذا كانت في السماء لزم من دخولهم في النار التي في السماء أن تفتح أبواب السماء.

لكن بعض الناس استشكل، وقال: كيف يراها الرسول ﷺ ليلة عرج به وهي في الأرض؟ ! وأنا أعجب لهذا الاستشكال، إذا كنا ونحن في الطائرة نرى الأرض تحتنا بعيدة، وندركها، فكيف لا يرى النبي ﷺ النار وهو في السماء؟ !

فالحاصل: أنها في الأرض، وقد روي في هذا أحاديث لكنها ضعيفة، وروي آثار عن السلف كابن عباس، وابن مسعود، وهو ظاهر القرآن {إن الذين كذبوا بآياتنا واستكبروا عنها لا تفتح لهم أبواب السماء ولا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل في سم الخياط}، والذين كذبوا بالآيات، واستكبروا عنها لا شك أنهم في النار.

المسألة الثالثة: القنطرة بين الجنة والنار.

بعد أن يجتاز المؤمنون الصراط يوقفون على قنطرة بين الجنة والنار، ثم يهذبون وينقون، وذلك بأن يقتص لبعضهم من بعض إذا كانت بينهم مظالم في الدنيا، حتى إذا دخلوا الجنة كانوا أطهارًا أبرارًا، ليس لأحد عند الآخر مظلمة، ولا يطلب بعضهم بعضًا بشيء، روى البخاري في صحيحه عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ (يخلص المؤمنون من النار، فيحبسون على قنطرة بين الجنة والنار، فيقتص لبعضهم من بعض مظالم كانت بينهم في الدنيا، حتى إذا هذبوا ونقوا أذن لهم في دخول الجنة، فوالذي نفس محمد بيده لأحدهم أهدى بمنزله في

=

=

الجنة منه بمنزله كان في الدنيا) رواه البخاري (٦٥٣٥).

المسألة الرابعة: أول من يفتح الجنة.

رسولنا ﷺ هو أول من يستفتح الجنة بعد أن يأبى أبو البشر آدم وأولوا العزم من الرسل التعرض لهذه المهمة لحديث حذيفة بن اليمان وأبي هريرة رضي الله عنهما عند مسلم (١٩٥) قالا قال رسول الله ﷺ (يجمع الله تبارك وتعالى الناس، فيقوم المؤمنون، حتى تزلف لهم الجنة، فيأتون آدم، فيقولون: يا أبانا، استفتح لنا الجنة، فيقول: وهل أخرجكم من الجنة إلا خطيئة أبيكم، لست بصاحب ذلك..).

ولحديث أنس رضي الله عنه عند مسلم (١٩٧)، قال: قال رسول الله ﷺ: (آتي باب الجنة يوم القيامة فأستفتح، فيقول الخازن: من أنت؟ فأقول: محمد، فيقول: بك أمرت لا أفتح لأحد قبلك).

وأخرجه مسلم في صحيحه (١٩٧) عنه بلفظ: (آتي باب الجنة يوم القيامة فأستفتح فيقول الخازن: من أنت؟ فأقول: محمد فيقول: بك أمرت أن لا أفتح لأحد قبلك).

وفي صحيح مسلم (١٩٦) عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (أنا أكثر الناس تبعًا يوم القيامة، وأنا أول من يقرع باب الجنة).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: (أنا أول من يفتح له باب الجنة، إلا أن امرأة تبادرني فأقول لها: ما لك أو ما أنت؟ فتقول: أنا امرأة قعدت على أيتامي).

وأول من يدخل الجنة من الأمم أمته ﷺ، ففي الصحيحين البخاري (٨٩٦)، ومسلم (٨٥٥) عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (نحن السابقون الأولون يوم القيامة بيد أنهم أوتوا الكتاب من قبلنا، وأوتيناه من بعدهم).

وفي صحيح مسلم (٨٥٥) عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: (نحن الآخرون الأولون يوم القيامة، ونحن أول من يدخل الجنة بيد أنهم أوتوا الكتاب من قبلنا

=

وأوتيناه من بعدهم فاختلفوا فهدانا الله لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه).
وفي الصحيحين البخاري (٨٩٦)، ومسلم (٨٥٥) عنه مرفوعًا: (نحن الآخرون الأولون يوم القيامة، نحن أول الناس دخولًا الجنة، بيد أنهم أوتوا الكتاب من قبلنا، وأوتيناه من بعدهم).
قال الإمام ابن القيم في حادي الأرواح (ص١١٢): فهذه الأمة أسبق الأمم خروجا من الأرض وأسبقهم إلى أعلى مكان في الموقف وأسبقهم إلى ظل العرش وأسبقهم إلى الفصل والقضاء بينهم وأسبقهم إلى الجواز على الصراط وأسبقهم إلى دخول الجنة فالجنة محرمة على الأنبياء حتى يدخلها محمد ومحرمة على الأمم حتى تدخلها أمته، وأما أول الأمة دخولا فقال أبو داود في سننه حدثنا هناد بن السرى عن عبد الرحمن بن محمد المحاربي عن عبد السلام بن حرب عن أبي خالد الدالاني عن أبي خالد مولى آل جعدة عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ: (أتاني جبريل فأخذ بيدي فأراني باب الجنة الذي تدخل منه أمتي " فقال أبو بكر: يا رسول الله ﷺ وددت أني كنت معك حتى أنظر إليه فقال رسول الله ﷺ: "أما إنك يا أبا بكر أول من يدخل الجنة من أمتي)، وقوله: وددت أني كنت معك حرصا منه على زيادة اليقين وأن يصير الخبر عيانا كما قال إبراهيم الخليل: {رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي}.
وأما الحديث الذي رواه ابن ماجه في سننه حدثنا إسماعيل بن عمر الطلحي أنبأنا داود بن عطاء المديني عن صالح بن كيسان عن ابن شهاب عن سعيد بن المسيب عن أبي بن كعب قال قال رسول الله ﷺ: (أول من يصافحه الحق عمر وأول من يسلم عليه وأول من يأخذ بيده فيدخله الجنة)، فهو حديث منكر جدا قال الإمام أحمد: داود بن عطاء ليس بشيء وقال البخاري منكر الحديث ا.هـ
وقال العلامة في الضعيفة (١٢/ ١/ ٥٧ - ٥٨): روي عن النبي صلى الله عليه وآله

=

وسلم - أنه قال: «أولاد - وفي رواية أطفال - المؤمنين في جبل في الجنة يكفلهم إبراهيم وسارة، حتى يردهم إلى آبائهم يوم القيامة» (منكر بهذا التمام)... ثم إن الحديث يخالف بظاهره ما جاء في عدة أحاديث صحيحة: إن نبينا -صلى الله عليه وآله وسلم- هو أول من يدخل الجنة، وأن أولاد الآباء يأبون أن يدخلوا الجنة إلا وآبائهم معهم، فيدخلون جميعًا

المسألة الخامسة: الفقراء يسبقون الأغنياء إلى الجنة.

روى مسلم في صحيحه (٢٩٧٩) عن عبدالله بن عمرو رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قال: قال رسول الله ﷺ (إن فقراء المهاجرين يسبقون الأغنياء يوم القيامة إلى الجنة بأربعين خريفًا).

وروى الترمذي عن عن أبي هريرة رضي الله قال: قال رسول الله ﷺ (فقراء المهاجرين وفي رواية -المؤمنين- وفي أخرى المسلمين- يدخلون الجنة قبل أغنيائهم بخمسمائة سنة).

وقد بيّن الرسول ﷺ في موضع آخر أن هؤلاء لم يكن عندهم شيء يحاسبون عليه، هذا مع جهادهم وفضلهم، فأخرج الحاكم في مستدركه عن عبدالله بن عمرو رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قال: قال رسول الله ﷺ (أتعلم أول زمرة تدخل الجنة من أمتي؟ قلت: الله ورسوله أعلم، فقال: فقراء المهاجرين، يأتون يوم القيامة إلى باب الجنة، ويستفتحون، فيقول لهم الخزنة: أو قد حوسبتم؟ فيقولون: بأي شيء نحاسب، وإنما كانت أسيافنا على عواتقنا في سبيل الله حتى متنا على ذلك؟ قال: فيفتح لهم، فيقيلون فيه أربعين عامًا قبل أن يدخلها الناس)، وفي صحيح البخاري (٥١٩٦) عن أسامة بن زيد عن النبي ﷺ قال (قمت على باب الجنة فكان عامة من دخلها المساكين، وأصحاب الجد محبوسون غير أن أصحاب النار قد أمر بهم إلى النار)، وأصحاب الجد هم الأغنياء من المسلمين. وقد وقع في الأحاديث السابقة أن الفقراء يسبقون الأغنياء بأربعين خريفًا، وجاء في حديث آخر بخمسمائة عام،

=

=

ووجه التوفيق بين الحديثين أن الفقراء مختلفو الحال، وكذلك الأغنياء - كما يقول القرطبي-. فالفقراء متفاوتون في قوة إيمانهم وتقدمهم، والأغنياء كذلك، فإذا كان الحساب باعتبار أول الفقراء دخولًا الجنة وآخر الأغنياء دخولًا الجنة فتكون المدة خمسمائة عام، أما إذا نظرت إلى آخر الفقراء دخولًا الجنة وأول الأغنياء دخولًا الجنة فتكون المدة أربعين خريفًا، باعتبار أول الفقراء وآخر الأغنياء والله أعلم". الجنة والنار لعمر بن سليمان الأشقر- (ص١٢٦).

(فرع): آخر من يدخل الجنة.

عن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم (إني لأعلم آخر أهل النار خروجًا منها، وآخر أهل الجنة دخولًا الجنة: رجل يخرج من النار حبوًا، فيقول الله له: اذهب فادخل الجنة فيأتيها، فيخيل إليه أنها ملأى، فيرجع فيقول: يا رب، وجدتها ملأى، فيقول الله عز وجل: اذهب فادخل الجنة فإن لك مثل الدنيا، وعشرة أمثالها أو إن لك مثل عشرة أمثال الدنيا، فيقول: أتسخر بي - أو أتضحك بي - وأنت الملك؟ قال: فلقد رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم ضحك حتى بدت نواجذه، فكان يقال: ذلك أدنى أهل الجنة منزلة)) أخرجه البخاري (٦٥٧١)، ومسلم (١٨٦).

ولمسلم (١٨٦) قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (إني لأعرف آخر أهل النار خروجًا من النار: رجل يخرج منها زحفا، فيقال له: انطلق فادخل الجنة، قال: فيذهب فيدخل الجنة، فيجد الناس قد أخذوا المنازل، فيقال له: أتذكر الزمان الذي كنت فيه؟ فيقول: نعم، فيقال له: تمنَّ، فيتمنى فيقال له: لك الذي تمنيت، وعشرة أضعاف الدنيا، فيقول: أتسخر بي وأنت الملك؟ قال: فلقد رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يضحك حتى بدت نواجذه).

وعن عبدالله بن مسعود رضي الله أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (آخر من يدخل الجنة رجل، فهو يمشي مرة، ويكبو مرة، وتسفعه النار مرة، فإذا ما جاوزها التفت إليها،

=

=

فقال: تبارك الذي نجاني منك، لقد أعطاني الله شيئًا ما أعطاه أحدًا من الأولين والآخرين، فترفع له شجرة، فيقول: يا رب، أدنني من هذه الشجرة فلأستظل بظلها، وأشرب من مائها، فيقول الله ﷻ: يا ابن آدم لعلي إن أعطيتكها سألتني غيرها؟ فيقول: لا، يا رب ويعاهده أن لا يسأله غيرها، قال: وربه ﷻ يعذره، لأنه يرى ما لا صبر له عليه، فيدنيه منها، فيستظل بظلها، ويشرب من مائها، ثم ترفع له شجرة هي أحسن من الأولى، فيقول: أي رب، أدنني من الشجرة لأشرب من مائها وأستظل بظلها، لا أسألك غيرها فيقول: يا ابن آدم، ألم تعاهدني أن لا تسألني غيرها؟ فيقول: لعلي إن أدنيتك منها تسألني غيرها؟ فيعاهده أن لا يسأله غيرها، وربه تعالى يعذره، لأنه يرى ما لا صبر له عليه، فيدنيه منها، فيستظل بظلها، ويشرب من مائها، ثم ترفع له شجرة عند باب الجنة، وهي أحسن من الأوليين، فيقول: أي رب أدنني من هذه لأستظل بظلها، وأشرب من مائها، لا أسألك غيرها، فيقول: يا ابن آدم، ألم تعاهدني أن لا تسألني غيرها؟ قال: بلى، يا رب لا أسألك غيرها - وربه ﷻ يعذره، لأنه يرى ما لا صبر له عليه، فيدنيه منها، فإذا أدناه منها سمع أصوات أهل الجنة فيقول: أي رب أدخلنيها، فيقول: يا ابن آدم، ما يصريني منك، أيرضيك أن أعطيك الدنيا ومثلها معها؟ قال: يا رب، أتستهزئ مني وأنت رب العالمين؟ فضحك ابن مسعود، فقال: ألا تسألوني مم أضحك؟ فقالوا: مم تضحك؟ قال: هكذا ضحك رسول الله ﷺ فقالوا: مم تضحك يا رسول الله؟ فقال: من ضحك رب العالمين، حين قال: أتستهزئ مني وأنت رب العالمين؟ فيقول: إني لا أستهزئ منك، ولكني على ما أشاء قادر) أخرجه مسلم (١٨٧).

وهذا الحديث هكذا أخرجه الحميدي وحده في أفراد مسلم، والذي قبله في المتفق عليه، وقال: إنما أفردناه للزيادة التي فيه.

=

=

وعن أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله ﷺ قال: (إن أدنى أهل الجنة منزلة: رجل صرف الله وجهه عن النار قِبل الجنة، ومثل له شجرة ذات ظل، فقال: أي رب، قدمني إلى هذه الشجرة لأكون في ظلها وساق الحديث بنحو حديث ابن مسعود، ولم يذكر: فيقول: يا ابن آدم، ما يصريني منك؟.. إلى آخر الحديث). وزاد فيه: (ويذكره الله، سل كذا وكذا، فإذا انقطعت به الأماني، قال الله: هو لك وعشرة أمثاله، قال: ثم يدخل بيته، فتدخل عليه زوجتاه من الحور العين، فيقولان: الحمد لله الذي أحياك لنا، وأحيانا لك، قال: فيقول: ما أعطي أحد مثل ما أعطيت) أخرجه مسلم (١٨٨) هكذا عقيب حديث ابن مسعود.

المسألة السادسة: أبواب الجنة.

أخرج الشيخان البخاري (١٨٩٦)، ومسلم (١١٥٢) عن سهل بن سعد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله ﷺ قال: (في الجنة ثمانية أبواب: باب منها يسمى الريان لا يدخله إلا الصائمون).

وفيهما البخاري (٣٦٦٦)، ومسلم (١٠٢٧) عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله ﷺ قال: (من أنفق زوجين من شيء من الأشياء في سبيل الله دعي من أبواب الجنة: يا عبد الله هذا خير، فمن كان من أهل الصلاة دعي من باب الصلاة، ومن كان من أهل الجهاد دعي من باب الجهاد، ومن كان من أهل الصدقة دعي من باب الصدقة، ومن كان من أهل الصيام دعي من باب الريان. فقال أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: والله يا رسول الله ما على أحد من ضرورة من أيها دعي، فهل يدعى منها كلها أحد يا رسول الله؟ قال: نعم، وإني لأرجو أن تكون منهم).

قال القرطبي في التذكرة (ص٥٣٦).: قيل الدعاء من جميعها دعاء تنويه وإكرام ثم يدخل من الباب الذي غلب عليه العمل ا.هـ

وأخرج مسلم مسلم (٢٣٤) عن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ أنه قال: (ما منكم من

=

=

أحد يتوضأ فيبلغ - أو فيسبغ - الوضوء ثم يقول: أشهد ألا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، اللهم اجعلني من التوابين. إلا فتحت له أبواب الجنة الثمانية يدخل من أيها شاء).

زاد الترمذي: (واجعلني من المتطهرين).

وأخرج عبد الله بن الإمام أحمد، وابن ماجه عن عتبة بن عبد الله السلمي مرفوعًا: (ما من مسلم يتوفى له ثلاثة من الولد لم يبلغوا الحنث إلا تلقوه من أبواب الجنة الثمانية من أيها شاء دخل).

(فرع): سعة أبواب الجنة.

قال الإمام ابن القيم في حادي الإرواح (ص٥٨): الباب العاشر: في ذكر سعة أبوابها: عن أبي هريرة قال وضعت بين يدي رسول الله قصعة من ثريد ولحم فتناول الذراع وكان أحب الشاة إليه فنهش نهشة وقال: "أنا سيد الناس يوم القيامة ثم نهش أخرى وقال أنا سيد الناس يوم القيامة فلما رأى أصحابه لا يسألونه قال ألا تقولون كيف" قالوا كيف يا رسول الله ﷺ قال يقوم الناس لرب العالمين فيسمعهم الداعي وينفذهم البصر" فذكر حديث الشفاعة بطوله وقال في آخره "فانطلق فأتي تحت العرش فاقع ساجدا لربي فيقيمني رب العالمين مقاما لم يقمه أحدا قبلي ولن يقيمه أحد بعدي فأقول يا رب أمتي أمتي فيقول يا محمد أدخل من أمتك من لا حساب عليهم من الباب الأيمن وهم شركاء الناس فيما سوى ذلك من الأبواب والذي نفس محمد بيده إن ما بين المصراعين من مصارع الجنة لكما بين مكة وهجرا أوهجر ومكة"، وفي لفظ "لكما بين مكة وهجر" أو "كما بين مكة وبصرى" متفق على صحته، وفي لفظ خارج الصحيح بإسناده إن ما بين عضادتي الباب لكما بين مكة وهجر، وعن خالد بن عمير العدوي قال خطبنا عتبة بن غزوان فحمد الله وأثنى عليه ثم قال أما بعد فإن الدنيا قد أذنت بصرم وولت حذاء

=

=

ولم يبق منها إلا صبابة كصبابة الإناء يصطبها صاحبها وإنكم منتقلون منها إلى دار لا زوال لها فانتقلوا بخير ما بحضرتكم ولقد ذكر لنا أن مصراعين من مصاريع الجنة بينهما مسيرة أربعين سنة وليأتينّ عليه يوم وهو كظيظ من الزحام فهذا موقوف والذي قبله مرفوع فإن كان رسول الله ﷺ هو الذاكر له كان هذا ما بين باب من أبوابها ولعله الباب الأعظم وإن كان الذاكر لهم ذلك غير رسول الله ﷺ لم يقدم على حديث أبي هريرة المتقدم

ولكن قد روى الإمام أحمد في مسنده من طريق حماد بن سلمة الجريري يحدث عن حكيم بن معاوية عن أبيه أن رسول الله قال "أنتم توفون سبعين أمة أنتم آخرها وأكرمها على الله وما بين مصراعين من مصاريع الجنة مسيرة أربعين عاما وليأتين عليه يوم وإنه لكظيظ "

وقد رواه ابن أبي داود أنبأنا إسحاق بن شاهين أنبأنا خالد عن الجريري عن حكيم بن معاوية عن أبيه يرفعه "ما بين كل مصراعين من مصاريع الجنة مسيرة سبع سنين"

وروينا في مسند عبد بن حميد أنبأنا الحسن بن موسى أنبأنا ابن لهيعة أنبأنا دراج أبو السمح عن أبي الهيثم عن أبي سعيد الخدري عن رسول الله قال ما من مصراعين في الجنة لمسيرة أربعين سنة، وحديث أبي هريرة أصح وهذه النسخة ضعيفة والله أعلم، وروى أبو الشيخ أنبأنا جعفر بن أحمد بن فارس أنبأنا يعقوب بن حميد أنبأنا معن حدثنا خالد بن أبي بكر عن سالم بن عبد الله عن أبيه أن النبي ﷺ قال: "الباب الذي يدخل منه أهل الجنة مسيرة الراكب المجود ثلاثا ثم انهم ليضغطون عليه حتى تكاد مناكبهم تزول" رواه أبو نعيم عنه وهذا مطابق للحديث المتفق عليه "إن ما بين المصراعين كما بين مكة وبصرى" فإن الراكب الموجد غاية الإجادة على أسرع هجين لا يفتر ليلا ولا نهارا يقطع هذه المسافة في هذا

=

=

القدر أو قريب منه، وأما حديث حكيم بن معاوية فقد اضطرب رواته فحماد بن سلمة ذكر عن الجريري التقدير بإربعين عاما وخالد ذكر عنه التقدير بسبع سنين وحديث أبي سعيد المرفوع فيه التقدير بأربعين عاما على طريقة دراج عن أبي الهيثم، قال الإمام أحمد أحاديث دراج مناكير وقال أبو حاتم الرازي ضعيف، وقال النسائي، ليس بالقوي، فالصحيح المرفوع السالم عن الاضطراب والشذوذ والعلة حديث أبي هريرة المتفق على صحته على أن حديث حكيم بن معاوية ليس التقدير فيه بظاهر الرفع ويحتمل أنه مدرج في الحديث موقوف فيكون كحديث عتبة بن غزوان.

(فرع): هل هناك سر في وجود الواو من عدمها في قوله في الآية الأولى من سورة الزمر (حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا)، وفي الآية الأخرى في وصف حال المتقين من نفس السورة (حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا) ؟

قال ابن العربي في المسالك (٤/ ٢٤٥): وقوله: "فتحت أبواب الجنة" فيه دليل على أن أبوابها مغلقة.

وقوله:، غلقت أبواب النار" دليل على أنها مفتحة، وقد غلط في ذلك بعض المعتدين على كتاب الله تعالى، فقال: إن قوله تعالى: {جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا} دليل على أن أبوابها مفتحة أبدا، إذ لم يجعله جواب الخبر، وقوله في النار: {جَاءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا} دليل على أنها مغلقة، فقلب الحقيقة، وتكلم في كتاب الله برأيه.

وقال آخر من الفضوليين: قوله: "فتحت أبوايها" يفسره واو الثمانية، إذ للجنة ثمانية أبواب، كما قال تعالى: {وثامنهم كلبهم} بواو، وسائر الأعداد بغير واو. والحق الصحيح المعقول المعلوم. ما قال النبي ﷺ: "إني آتي باب الجنة وآخذ بحلقة الباب فاقعقع، فيقول الخازن: من؟ فأقول: محمد. فيقول: بك أمرت، لا

=

=

أفتح لأحد سواك" وإنما تفتح أبواب الجنة في رمضان، ليعظم الرجاء ويكثر العمل، وتتعلق بها الهمم، ويتشوف إليها الصابر الصائم. وتغلق فيه أبواب النار، لتخزى الشياطين، وتقل المعاصي، وتصير الحسنات في وجوه السيئات، فتذهب سبيل النار ا.هـ

وقال الإمام ابن القيم في حادي الأرواح (ص٥١): قال الله تعالى {وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِين}، وقال في صفة النار {حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا} بغير واو فقالت طائفة هذه واو الثمانية دخلت في أبواب الجنة لكونها ثمانية وأبواب النار سبعة فلم تدخلها الواو، وهذا قول ضعيف لا دليل عليه ولا تعرفه العرب ولا أئمة العربية وإنما هو من استنباط بعض المتأخرين، وقالت طائفة أخرى الواو زائدة والجواب الفعل الذي بعدها كما هو في الآية الثانية وهذا أيضا ضعيف فإن زيادة الواو غير معروف في كلامهم ولا يليق بأفصح الكلام أن يكون فيه حرف زائد لغير معنى ولا فائدة، وقالت طائفة ثالثة الجواب محذوف وقوله "وفتحت أبوابها" عطف على قوله جاؤها وهذا اختيار أبي عبيدة والمبرد والزجاج وغيرهم

قال المبرد:" وحذف الجواب أبلغ عند أهل العلم".

قال أبو الفتح بن جني:" وأصحابنا يدفعون زيادة الواو ولا يجيزونه ويرون أن الجواب محذوف للعلم به، بقي أن يقال فما السر في حذف الجواب في آية أهل الجنة وذكره في آية أهل النار فيقال هذا أبلغ في الموضعين فإن الملائكة تسوق أهل النار إليها وأبوابها مغلقة حتى إذا وصلوا إليها فتحت في وجوههم ففجأهم العذاب بغتة فحين انتهوا إليها فتحت أبوابها بلا مهلة فإن هذا شأن الجزاء المرتب على الشرط أن يكون عقيبه فإنها دار الإهانة والخزي فلم يستأذن لهم في دخولها

=

=

ويطلب إلى خزنتها أن يمكنوهم من الدخول وأما الجنة فإنها دار الله ودار كرامته ومحل خواصه وأوليائه فإذا انتهوا إليها صادفوا أبوابها مغلقة فيرغبون إلى صاحبها ومالكها أن يفتحها لهم ويستشفعون إليه بأولي العزم من رسله وكلهم يتأخر عن ذلك حتى تقع الدلالة على خاتمهم وسيدهم وأفضلهم فيقول:" أنا لها" فيأتي إلى تحت العرش ويخر ساجدا لربه فيدعه ما شاء الله أن يدعه ثم يأذن له في رفع رأسه وأن يسأل حاجته فيشفع إليه سبحانه في فتح أبوابها فيشفعه ويفتحها تعظيما لخطرها وإظهارا لمنزلة رسوله وكرامته عليه، وإن مثل هذه الدار هي دار ملك الملوك ورب العالمين إنما يدخل إليها بعد تلك الأهوال العظيمة التي أولها من حين عقل العبد في هذه الدار إلى أن انتهى إليها وما ركبه من الأطباق طبقا بعد طبق وقاساه من الشدائد شدة بعد شدة حتى أذن الله تعالى لخاتم أنبيائه ورسله وأحب خلقه إليه أن يشفع إليه في فتحها لهم، وهذا أبلغ وأعظم في تمام النعمة وحصول الفرح والسرور مما يقدر عليه بخلاف ذلك ولئلا يتوهم الجأهل أنها بمنزلة الخان الذي يدخله من شاء فجنة الله عالية غالية بين الناس وبينها من العقبات والمفاوز والأخطار مالا تنال إلا به فما لمن أتبع نفسه هواها وتمنى على الله الأماني ولهذه الدار فليعد عنها إلى ما هو أولى به وقد خلق له وهيئ له، وتأمل ما في سوق الفريقين إلى الدارين زمرا من فرحة هؤلاء بإخوانهم وسيرهم معهم كل زمرة على حده كل مشتركين في عمل متصاحبين فيه على زمرتهم وجماعتهم مستبشرين أقوياء القلوب كما كانوا في الدنيا وقت اجتماعهم على الخير كذلك يؤنس بعضهم بعضا ويفرح بعضهم ببعض، وكذلك أصحاب الدار الأخرى يساقون إليها زمرا يلعن بعضهم بعضا ويتأذى بعضهم ببعض وذلك أبلغ في الخزي والفضيحة والهتيكة من أن يساقوا واحدا واحدا فلا تهمل تدبر قوله:"زمرا" ا.هـ

=

=

وقال في بدائع الفوائد (٣/ ٥١): قولهم: إن الواو تأتي للثمانية ليس عليه دليل مستقيم، وقد ذكروا ذلك في مواضع فلنتكلم عليها واحدًا واحدًا:

الموضع الأول: قوله تعالى: {التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنكَرِ} [التوبة: ١١٢] فقيل الواو في: والناهون، واو الثمانية لمجيئها بعد استيفاء الأوصاف السبعة، وذكروا في الآية وجوهًا أخرى، ذكرها ابن القيم ثم قال:

الموضع الثاني: قوله تعالى: {عَسَى رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُبْدِلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِنكُنَّ مُسْلِمَاتٍ مُؤْمِنَاتٍ} إلى قوله: {ثَيِّبَاتٍ وَأَبْكَارًا} [التحريم: ٥] فقيل: هذه واو الثمانية لمجيئها بعد الوصف السابع وليس كذلك، ودخول الواو ههنا متعين؛ لأن الأوصاف التي قبلها المراد اجتماعها في النساء، وأما وصفا البكارة والثيوبة فلا يمكن اجتماعهما، فتعين العطف؛ لأن المقصود أنه يزوجه بالنوعين الثيبات والأبكار.

الموضع الثالث: قوله تعالى: {سَيَقُولُونَ ثَلاثَةٌ رَابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ} [الكهف: ٢٢].

قيل: المراد إدخال الواو ههنا لأجل الثمانية، وهذا يحتمل أمرين: أحدهما: هذا. وذكر الثاني ثم قال:

والموضع الرابع: قوله تعالى: {وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا} [الزمر: ٧٣] فأتى بالواو لما كانت أبواب الجنة ثمانية. وقال في النار: {حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا} [الزمر: ٧١] لما كانت سبعة، وهذا في غاية البعد ولا دلالة في اللفظ على الثمانية حتى تدخل الواو لأجلها، بل هذا من باب حذف الجواب لنكتة بديعة... إلخ ا.هـ

وقال العلامة ابن باز في مجموع فتاواه (١/ ٤٢٨): يا محب، كتابكم الكريم

=

=

المؤرخ في ٢ \ ١ \ ١٣٨٨ هـ وصل وصلكم الله بهداه، وما تضمنه من الإشارة إلى تضعيف قول من قال: إن الواو في قوله تعالى في سورة الزمر في حق أهل الجنة: {حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا} هي واو الثمانية، كان معلوما، وأفيد فضيلتكم أن ما ذكرتموه هو الصواب، وقد نبهت على ذلك حين كلامي على الآية، وذكرت أن العلامة ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ ضعف هذا القول، كما ضعفه العلامة ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ ورجحا جميعا أنها واو العطف، ولكن لعل فضيلتكم لم ينتبه لهذا الشيء والأمر واضح جدا، وليس للقول بأنها واو الثمانية وجه، لا من جهة الشرع ولا من جهة اللغة، وأما قول بعض المفسرين كصاحب روح المعاني، إنها واو الحال فليس بجيد، والصواب ما تقدم، وهو أنها " واو العطف " والجواب محذوف بعد قوله: {فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ} وتقديره والله أعلم، فرحوا بذلك وسروا به، وقالوا: (الحمد لله) إلخ وقد بسط العلامة ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ الكلام في هذا الأمر، في كتابه: (حادي الأرواح) عند كلامه على أبواب الجنة ا.هـ

وقال الشيخ الفوزان في مجموع فتاواه (١/ ١٧٢): قال بعض المفسرين: الواو هذه تدل على أن أبواب الجنة ثمانية، وتسمى هذه الواو واو الثمانية كما قوله تعالى: (الكهف الآية ٢٢) وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ [الكهف: ٢٢]، فالواو هذه تدل على أن أبواب الجنة ثمانية، ولعله مأخوذ من حروف الجمل.

وابن القيم له رأي في هذا، يقول: إن الجنة غالية ولا يدخلها المؤمنون إلا بعد أن تستفتح، وأول من يستفتح باب الجنة هو محمد ﷺ، وأول من يدخلها من الأمم أمته، فهم لا يدخلونها من أول ما يصلون، بل لا بد من استفتاح؛ لأنها غالية وثمينة، أما النار - والعياذ بالله - فإنهم من حين يصلون إليها وهي مفتوحة، ويدخلونها رغمًا عن إرادتهم ورغبتهم.

المسألة السابعة: هل ثبت شيء عن تخفيف العذاب في النار لأبي لهب؟

=

دلت آيات القرآن الكريم أن الكافر لا يخفف عنه العذاب على كفره بحال من الأحوال، وذلك في قوله تعالى: (والذين كفروا لهم نار جهنم لا يقضى عليهم فيموتوا ولا يخفف عنهم من عذابها) فاطر/ ٣٦، وقال تعالى: (وقال الذين في النار لخزنة جهنم ادعوا ربكم يخفف عنا يوما من العذاب. قالوا أولم تك تأتيكم رسلكم بالبينات قالوا بلى قالوا فادعوا وما دعاء الكافرين إلا في ضلال) غافر/ ٤٩ - ٥٠.

وأما أعمال الكفار الصالحة فيثاب عليها في الدنيا، بالرزق والولد والنعمة ونحو ذلك، فهم أقوام عجلت لهم طيباتهم في حياتهم الدنيا، وأما في الآخرة فلا يكتب له منها شيء من الحسنات، إذ الكفر محبط لجميع الحسنات، ولا ينفع معه عمل صالح. وإن كان الكفار يتفاوتون في عذاب جهنم، بحسب جرائمهم في الدنيا، مع خلودهم جيمعا في جهنم أبد الآبدين.

يقول الله تعالى: (وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثورا) الفرقان/ ٢٣.

وعن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: (قلت: يا رسول الله! ابن جدعان كان في الجاهلية يصل الرحم ويطعم المسكين فهل ذاك نافعه؟ قال: لا ينفعه، إنه لم يقل يوما رب اغفر لي خطيئتي يوم الدين) رواه مسلم (٢١٤).

وأما ما يروى في تخفيف العذاب عن أبي لهب بسبب عتقه ثويبة مرضعة النبي ﷺ فلم يرد ذلك من كلام النبي ﷺ، ولا من كلام الصحابة، وإنما رؤيا منام أريها بعض أهله، لا يجوز أن يعارض به ما سبق تقريره من بطلان حسنات الكافرين في الدنيا، وأنها لا تغني عنهم عند الله شيئا، فضلا عن أن الوارد في ذلك إنما هو بسند مرسل.

روى البخاري (٥١٠١) من قول عروة بن الزبير رَحِمَهُ اللَّهُ ما يلي: (وثويبة مولاة لأبي

=

لهب، كان أبو لهب أعتقها فأرضعت النبي ﷺ، لما مات أبو لهب أريه بعض أهله بشر حيبة – أي بسوء حال –، قال له: ماذا لقيت؟ قال أبو لهب: لم ألق بعدكم غير أني سقيت في هذه بعتاقتي ثويبة) قال الحافظ رَحِمَهُ اللَّهُ: قوله: (وثويبة مولاة لأبي لهب) ذكرها ابن منده في "الصحابة " وقال: اختلف في إسلامها. وقال أبو نعيم: لا نعلم أحدا ذكر إسلامها غيره ، والذي في السير أن النبي ﷺ كان يكرمها ، وكانت تدخل عليه بعدما تزوج خديجة ، وكان يرسل إليها الصلة من المدينة ، إلى أن كان بعد فتح خيبر ماتت ومات ابنها مسروح.

قوله: (وكان أبو لهب أعتقها فأرضعت النبي ﷺ) ظاهره أن عتقه لها كان قبل إرضاعها، والذي في السير يخالفه ، وهو أن أبا لهب أعتقها قبل الهجرة وذلك بعد الإرضاع بدهر طويل، وحكى السهيلي أيضا أن عتقها كان قبل الإرضاع ، وسأذكر كلامه.

قوله: (بعض أهله) ذكر السهيلي أن العباس قال: لما مات أبو لهب رأيته في منامي بعد حول في شر حال فقال: ما لقيت بعدكم راحة ، إلا أن العذاب يخفف عني كل يوم اثنين ، قال: وذلك أن النبي ﷺ ولد يوم الاثنين ، وكانت ثويبة بشرت أبا لهب بمولده فأعتقها. قوله (ماذا لقيت) أي: بعد الموت.

قوله (لم ألق بعدكم ، غير أني) كذا في الأصول بحذف المفعول ، وفي رواية الإسماعيلي: (لم ألق بعدكم رخاء)، وعند عبد الرزاق ع معمر عن الزهري: (لم ألق بعدكم راحة) قال ابن بطال: سقط المفعول من رواية البخاري ، ولا يستقيم الكلام إلا به.

قوله: (غير أني سقيت في هذه) كذا في الأصول بالحذف أيضا ، ووقع في رواية عبد الرزاق المذكورة: (وأشار إلى النقرة التي تحت إبهامه) وفي ذلك إشارة إلى حقارة ما سقي من الماء.

=

=

وفي الحديث دلالة عل أن الكافر قد ينفعه العمل الصالح في الآخرة ؛ لكنه مخالف لظاهر القرآن ، قال الله تعال (وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثورا)، وأجيب:

أولا: بأن الخبر مرسل، أرسله عروة، ولم يذكر من حدثه به، وعلى تقدير أن يكون موصولا فالذي في الخبر رؤيا منام، فلا حجة فيه ، ولعل الذي رآها لم يكن إذ ذاك أسلم بعد، فلا يحتج به.

وثانيا: على تقدير القبول فيحتمل أن يكون ما يتعلق بالنبي ﷺ مخصوصا من ذلك ، بدليل قصة أبي طالب كما تقدم أنه خفف عنه فنقل من الغمرات إلى الضحضاح، وقال البيهقي: ما ورد من بطلان الخير للكفار فمعناه أنهم لا يكون لهم التخلص من النار ولا دخول الجنة ، ويجوز أن يخفف عنهم من العذاب الذي يستوجبونه على ما ارتكبوه من الجرائم سوى الكفر بما عملوه من الخيرات.

وأما عياض فقال: انعقد الإجماع على أن الكفار لا تنفعهم أعمالهم، ولا يثابون عليها بنعيم ولا تخفيف عذاب ؛ وإن كان بعضهم أشد عذابا من بعض.

قلت - أي الحافظ ابن حجر -: وهذا لا يرد الاحتمال الذي ذكره البيهقي ، فإن جميع ما ورد من ذلك فيما يتعلق بذنب الكفر ، وأما ذنب غير الكفر فما المانع من تخفيفه؟

وقال القرطبي: هذا التخفيف خاص بهذا وبمن ورد النص فيه.

وقال ابن المنير في الحاشية: هنا قضيتان:

إحداهما محال: وهي اعتبار طاعة الكافر مع كفره ، لأن شرط الطاعة أن تقع بقصد صحيح ، وهذا مفقود من الكافر.

الثانية: إثابة الكافر على بعض الأعمال تفضلا من الله تعالى ، وهذا لا يحيله العقل

=

=

، فإذا تقرر ذلك لم يكن عتق أبي لهب لثويبة قربة معتبرة ، ويجوز أن يتفضل الله عليه بما شاء كما تفضل على أبي طالب ، والمتبع في ذلك التوقيف نفيا وإثباتا، قلت – أي الحافظ ابن حجر –: وتتمة هذا أن يقع التفضل المذكور إكراما لمن وقع من الكافر البر له ونحو ذلك. والله أعلم " انتهى. " فتح الباري" (٩/ ١٤٥ – ١٤٦).

وهنا يجب التنبيه إلى أن هناك من يتعلل بهذا الأثر للاستدلال به على مشروعية الاحتفال بالمولد النبوي، وجعله عيدا، كما ذكر ذلك السيوطي في حسن المقصد في عمل المولد (ص٦٥-٦٦) بقوله: فإذا كان أبو لهب الكافر الذي نزل القرآن بذمه جوزي في النار بفرحه ليلة مولد النبي ﷺ به، فما حال المسلم الموحد من أمة النبي ﷺ يسر بمولده ويبذل ما تصل إليه قدرته في محبته ﷺ؛ لعمري إنما يكون جزاؤه من الله الكريم أن يدخله بفضله جنات النعيم.

والواقع أنه لا يصح الاحتجاج به على ذلك؛ لأمور منها:

١ – أن السند منقطع بين عروة وثويبة، فقد أورده البخاري معلقا من كلام عروة، ولهذا قال ابن حجر في الفتح(٩/ ١٤٥)، بأن الخبر مرسل، أرسله عروة، ولم يذكر من حدثه به.

٢ – أن الخبر رؤيا منام، والشرع – كما هو معلوم – لا يثبت فيه التكليف بالرؤيا المنامية إلا أن تكن رؤيا نبي من الأنبياء، فرؤيا الأنبياء حق، أو رؤيا بنى عليها النبي ﷺ حكما كرؤيا الأذان، قال ابن حجر: (وعلى تقدير أن يكون موصولا فالذي في الخبر رؤيا منام، فلا حجة فيه).

المسألة الثامنة: في أعمار أهل الجنة.

أعد الله الجنة كرامة لأوليائه الذين أطاعوه في الدنيا، وصبروا على امتثال أمره واجتناب نهيه، وجعل فيها كل محبوب لهم كما قال سبحانه: (وفيها ما تشتهيه

=

=

الأنفس وتلذ الأعين و أنتم فيها خالدون) الزخرف/ ٧١، وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم (أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت و لا أذن سمعت و لا خطر على قلب بشر، فاقرؤوا إن شئتم (فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين) أخرجه البخاري (٣٢٤٤)، ومسلم (٢٨٢٤). و تبعا لهذا فنحن نؤمن أن حال من يدخل الجنة هو أكمل الحالات وأفضلها وأعلاها من كل الوجوه، سواء علمنا تفاصيل ذلك أم لم نعلم، وإن كان العلم بالتفاصيل في بعض الأحوال مما يزيد من همة المسلم ورغبته في فعل الخير.

ومن هذه الأحوال التي هي أكمل الأحوال أعمار أهل الجنة، فجميع أهل الجنة من الشباب والشيوخ والكهول إنما يدخلون الجنة في سن الشباب وقد ورد فيها الحديث بأنهم يدخلونها (أبناء ثلاث وثلاثين).

قال الإمام ابن القيم رحمه الله عن هذا السن إن فيه من الحكمة ما لا يخفى فإنه أبلغ وأكمل في استيفاء اللذات، لأنه أكمل سن القوة. (حادي الأرواح ص ١١١).

أما زيادة أعمارهم من عدمها فقد وردت أحاديث لا تثبت فيها أنهم لا تزيد أعمارهم، و الذي ثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم أنهم (لا يفنى شبابهم)، وأيا كان الحال فإن من المتقرر من القاعدة السابقة أنهم يكونون في أكمل حال، فهم باقون في سن الشباب دائما وأبدا، نعيمهم يزيد ولا ينقص، وعيشهم يطيب ولا ينغص.

(فرع): الولدان المخلدون.

قال الله تعالى في شأن أهل الجنة: (يطوف عليهم ولدان مخلدون) الواقعة / ١٧ وقال تعالى: (ويطوف عليهم ولدان مخلدون إذا رأيتهم حسبتهم لؤلؤا منثورا) الإنسان/ ١٩، قال ابن كثير في تفسيره (٨/ ٢٩٢): أي: يطوف على أهل الجنة للخدمة ولدان من ولدان الجنة {مخلدون} أي: على حالة واحدة مخلدون

=

=

عليها، لا يتغيرون عنها، لا تزيد أعمارهم عن تلك السن. ومن فسرهم بأنهم مخرصون في آذانهم الأقرطة، فإنما عبر عن المعنى بذلك؛ لأن الصغير هو الذي يليق له ذلك دون الكبير ا.هـ

وقال الإمام ابن القيم في حادي الأرواح (ص٢١٤): قال تعالى: {يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ} وقال تعالى: {وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَنْثُورًا} قال أبو عبيدة والفراء: مخلدون لا يهرمون ولا يتغيرون قال والعرب تقول للرجل إذا كبر ولم يشمط أنه لمخلد وإذا لم تذهب أسنانه من الكبر قيل هو مخلد وقال آخرون مخلدون مقرطون مسورون أي في آذانهم القرطة وفي أيديهم الأساور وهذا اختيار ابن الأعرابي قال مخلدون مقرطون بالخلدة وجمعها خلد وهي القرطة

وروى عمرو عن أبيه خلد جاريته إذا حلاها بالخلد وهي القرطة وخلد إذا أسن ولم يشب وكذلك قال سعيد بن جبير مقرطون واحتج هؤلاء بحجتين

احداهما: أن الخلود عام لكل من دخل الجنة فلا بد أن تكون الولدان موصوفين بتخليد مختص بهم وذلك هو القرطة

الحجة الثانية قول الشاعر:

ومخلدات باللجين كأنما * أعجازهن رواكد الكثبان

وقال الأولون: الخلد هو البقاء قال ابن عباس: غلمان لا يموتون وقول ترجمان القرآن في هذا كاف وهو قول مجاهد والكلبي ومقاتل قالوا لا يكبرون ولا يهرمون ولا يتغيرون وجمعت طائفة بين القولين وقالوا هم ولدان لا يعرض لهم الكبر والهرم وفي آذانهم القراطة فمن قال مقرطون أراد هذا المعنى أن كونهم ولدان أمر لازم لهم وشبههم سبحانه باللؤلؤ المنثور لما فيه من البياض وحسن الخلقة.

وفي كونه منثورا فائدتان:

=

=

احداهما: الدلالة على أنهم غير معطلين بل مبثوثون في خدمتهم وحوائجهم
والثانية: أن اللؤلؤ إذا كان منثورا ولا سيما على بساط من ذهب أو حرير كان أحسن لمنظره وأبهى من كونه مجموعا في مكان واحد
وقد اختلف في هؤلاء الولدان هل هم من ولدان الدنيا أم أنشأهم الله في الجنة إنشاء على قولين فقال علي بن أبي طالب والحسن البصري هم أولاد المسلمين الذين يموتون ولا حسنة لهم ولا سيئة لهم يكونون خدم أهل الجنة وولدانهم إذ الجنة لا ولادة فيها
قال الحاكم أنا عبد الرحمن بن الحسن ثنا إبراهيم ابن الحسين ثنا آدم ثنا المبارك بن فضالة عن الحسن في قوله ولدان مخلدون قال لم يكن لهم حسنات ولا سيئات فيعاقبون عليها فوضعوا بهذا الموضع ومن أصحاب هذا القول من قال هم أطفال المشركين فجعلهم الله خدما لأهل الجنة واحتج هؤلاء بما رواه يعقوب بن عبد الرحمن الفاري عن أبي حازم قال المديني عن يزيد الرقاشي عن أنس عن النبي ﷺ قال: "سألت ربي اللاهين من ذرية البشر أن لا يعذبهم فأعطانيهم فهم خدم أهل الجنة "يعنى الأطفال قال الدارقطني ورواه عبد العزيز الماجشون عن ابن المنكدر عن يزيد الرقاشي عن النبي ﷺ انتهى ورواه فضيل بن سليمان عن عبد الرحمن بن إسحاق عن الزهري عن أنس وهذه الطرق ضعيفة فيزيد واه وفضيل بن سليمان متكلم فيه وعبد الرحمن بن إسحاق ضعيف
قال ابن قتيبة واللاهون من لهيت عن الشيء إذا غفلت عنه وليس هو من لهوت وأصحاب القول الأول لا يقولون أن هؤلاء أولاد ولدوا لأهل الجنة فيها وإنما يقولون هم غلمان أنشأهم الله في الجنة كما أنشأ الحور العين
قالوا وأما ولدان أهل الدنيا فيكونون يوم القيامة أبناء ثلاث وثلاثين لما رواه ابن وهب أنبأنا عمرو بن الحارث أن دراجا أبا السمح حدثه عن أبي الهيثم عن أبي

=

=

سعيد قال قال رسول الله ﷺ: (من مات من أهل الجنة من صغير أو كبير يردون بني ثلاثين سنة في الجنة لا يزيدون عليها أبدا وكذلك أهل النار) رواه الترمذي.

والأشبه أن هؤلاء الولدان مخلوقون من الجنة كالحور العين خدما لهم وغلمانا كما قال تعالى: {وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَكْنُونٌ} وهؤلاء غير أولادهم فإن من تمام كرامة الله تعالى لهم أن يجعل أولادهم مخدومين معهم ولا يجعلهم غلمانا لهم

وقد تقدم في حديث أنس عن النبي ﷺ: "أنا أول الناس خروجا إذا بعثوا وفيه يطوف على ألف خادم كأنهم لؤلؤ مكنون والمكنون المستور المصون الذي لم تبتذله الأيادي وإذا تأملت لفظة الولدان ولفظة ويطوف عليهم واعتبرتها بقوله ويطوف عليهم غلمان لهم وضممت ذلك إلى حديث أبي سعيد المذكور آنفا علمت أن الولدان غلمان أنشأهم الله تعالى في الجنة خدما لأهلها والله أعلم ا.هـ

وسئل شيخ الإسلام كما في مجموع فتاواه (٤/ ٣١١): هل يتناسل أهل الجنة ؟. " والولدان " هل هم ولدان أهل الجنة ؟ وما حكم الأولاد وأرواح أهل الجنة والنار إذا خرجت من الجسد هل تكون في الجنة تنعم ؟ أم تكون في مكان مخصوص إلى حيث يبعث الله الجسد ؟ وما حكم ولد الزنا إذا مات يكون من أهل الأعراف أو في الجنة ؟ وما الصحيح في أولاد المشركين هل هم من أهل النار أو من أهل الجنة ؟ وهل تسمى الأيام في الآخرة كما تسمى في الدنيا مثل السبت والأحد.

فأجاب: الولدان الذين يطوفون على أهل الجنة خلق من خلق الجنة؛ ليسوا بأبناء أهل الدنيا بل أبناء أهل الدنيا إذا دخلوا الجنة يكمل خلقهم كأهل الجنة على صورة آدم أبناء ثلاث وثلاثين سنة في طول ستين ذراعا. وقد روي أيضا أن العرض سبعة أذرع. وأرواح المؤمنين في الجنة وأرواح الكافرين في النار؛ تنعم أرواح المؤمنين وتعذب أرواح الكافرين إلى أن تعاد إلى الأبدان.

=

=

و ولد الزنا إن آمن وعمل صالحا دخل الجنة وإلا جوزي بعمله كما يجازى غيره والجزاء على الأعمال؛ لا على النسب وإنما يذم ولد الزنا لأنه مظنة أن يعمل عملا خبيثا كما يقع كثيرا. كما تحمد الأنساب الفاضلة لأنها مظنة عمل الخير؛ فأما إذا ظهر العمل فالجزاء عليه وأكرم الخلق عند الله أتقاهم. وأما أولاد المشركين فأصح الأجوبة فيهم جواب رسول الله ﷺ كما في الصحيحين {ما من مولود إلا يولد على الفطرة} " الحديث {قيل يا رسول الله أرأيت من يموت من أطفال المشركين وهو صغير ؟ قال: الله أعلم بما كانوا عاملين} " فلا يحكم على معين منهم لا بجنة ولا بنار ويروى {أنهم يوم القيامة يمتحنون في عرصات القيامة فمن أطاع الله حينئذ دخل الجنة ومن عصى دخل النار} ودلت الأحاديث الصحيحة أن بعضهم في الجنة وبعضهم في النار. والجنة ليس فيها شمس ولا قمر ولا ليل ولا نهار لكن تعرف البكرة والعشية بنور يظهر من قبل العرش والله أعلم.

المسألة التاسعة: حديث (نفسي جهنم)، والرد على من كذبه.

الحديث المشار إليه حديث صحيح في أعلى درجات الصحة، وقد اتفق على إخراجه الإمامان البخاري(٣٠٨٧) ومسلم(٦١٧)، رحمهما الله، فعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: (اشتكت النار إلى ربها فقالت: يا رب أكل بعضي بعضا، فأذن لها بنفسين: نفس في الشتاء، ونفس في الصيف، فهو أشد ما تجدون من الحر، وأشد ما تجدون من الزمهرير).

قال الحافظ في الفتح (٢/ ١٩): "والمراد بالزمهرير: شدة البرد، واستشكل وجوده في النار، ولا إشكال؛ لأن المراد بالنار: محلها، وفيها طبقة زمهريرية" انتهى.

ثانيا: هل كان كلام النار، وشكوتها، بلسان المقال أم بلسان الحال؟ أكثر العلماء – وهو الصواب بلا ريب– على أنه كان بلسان المقال.

=

=

قال ابن عبد البر في التمهيد (٥/ ١١ - ١٦): "وأما قوله في هذا الحديث: (اشتكت النار إلى ربها فقالت: يا رب، أكل بعضي بعضا.... الحديث): فإن قوما حملوه على الحقيقة، وأنها أنطقها الذي أنطق كل شيء، واحتجوا بقول الله ﷻ: (يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم) النور/ ٢٤، وبقوله: (وإن من شيء إلا يسبح بحمده) الإسراء/ ٤٤، وبقوله: (يا جبال أوبي معه) سبأ/ ١٠، أي: سبحي معه، وقال: (يسبحن بالعشي والأشراق) ص/ ١٨، وبقوله: (يوم نقول لجهنم هل امتلأت وتقول هل من مزيد) ق/ ٣٠، وما كان من مثل هذا، وهو في القرآن كثير، حملوا ذلك كله على الحقيقة، لا على المجاز، وكذلك قالوا في قوله ﷻ: (إذا رأتهم من مكان بعيد سمعوا لها تغيظا وزفيرا) الفرقان/ ١٢، و (تكاد تميز من الغيظ) الملك/ ٨، وما كان مثل هذا كله.

وقال آخرون في قوله ﷻ: (سمعوا لها تغيظا وزفيرا) و (تكاد تميز من الغيظ): هذا تعظيم لشأنها، ومثل ذلك قوله ﷻ: (جدارا يريد أن ينقض) الكهف/ ٧٧، فأضاف إليه الإرادة مجازا، وجعلوا ذلك من باب المجاز، والتمثيل في كل ما تقدم ذكره، على معنى أن هذه الأشياء لو كانت مما تنطق، أو تعقل: لكان هذا نطقها وفعلها.

فمن حمل قول النار وشكواها على هذا: احتج بما وصفنا، ومن حمل ذلك على الحقيقة: قال: جائز أن ينطقها الله، كما تنطق الأيدي، والجلود، والأرجل يوم القيامة، وهو الظاهر من قول الله ﷻ: (يوم نقول لجهنم هل امتلأت وتقول هل من مزيد) ق/ ٣٠، ومن قوله: (وإن من شيء إلا يسبح بحمده) الإسراء/ ٤٤، و (قالت نملة يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم) النمل/ ١٨، وقال: قوله ﷻ: (تكاد تميز من الغيظ) الملك/ ٨: أي: تتقطع عليهم غيظا، كما تقول: فلان يتقد عليك غيظا، وقال ﷻ: (إذا رأتهم من مكان بعيد سمعوا لها تغيظا وزفيرا) الفرقان/ ١٢، فأضاف إليها الرؤية، والتغيظ، إضافة حقيقية، وكذلك كل ما في القرآن من مثل

=

=

ذلك.

ومن هذا الباب عندهم قوله: (فما بكت عليهم السماء والأرض) الدخان/ ٢٩، و (تكاد السماوات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هدا) مريم/ ٩٠، و (قالتا أتينا طائعين) فصلت/ ١١، (وإن منها لما يهبط من خشية الله) البقرة/ ٧٤، قالوا: وجائز أن تكون للجلود إرادة لا تشبه إرادتنا، كما للجمادات تسبيح وليس كتسبيحنا، وللجبال، والشجر سجود وليس كسجودنا.

والاحتجاج لكلا القولين يطول، وليس هذا موضع ذكره، وحمل كلام الله تعالى، وكلام نبيه ﷺ على الحقيقة: أولى بذوي الدين، والحق؛ لأنه يقص الحق، وقوله الحق، تبارك وتعالى علوا كبيرا" انتهى.

ثم اختلف العلماء أيضا في نفسي جهنم، هل هما على الحقيقة، أم على المجاز؟ وأكثر العلماء على أن ذلك على الحقيقة أيضا.

قال الحافظ في الفتح (٢/ ١٩): "قال القرطبي: لا إحالة في حمل اللفظ على حقيقته، قال: وإذا أخبر الصادق بأمر جائز: لم يحتج إلى تأويله، فحمله على حقيقته: أولى، وقال النووي نحو ذلك، ثم قال: حمله على حقيقته هو الصواب، وقال نحو ذلك التوربشتي.

ورجح البيضاوي حمله على المجاز، فقال: شكواها مجاز عن غليانها، وأكلها بعضها بعضا: مجاز عن ازدحام أجزائها، وتنفسها: مجاز عن خروج ما يبرز منها، وقال الزين بن المنير: المختار حمله على الحقيقة؛ لصلاحية القدرة لذلك [يعني: أن الله تعالى يقدر على ذلك]، ولأن استعارة الكلام للحال وإن عهدت وسمعت، لكن الشكوى، وتفسيرها، والتعليل له، والإذن، والقبول، والتنفس، وقصره على اثنين فقط: بعيد من المجاز خارج عما ألف من استعماله" انتهى.

وقال الزرقاني في شرح الموطأ (١/ ٥٩):" (أن النار اشتكت إلى ربها) حقيقة،

=

=

بلسان المقال، كما رجحه من فحول الرجال: ابن عبد البر، وعياض، والقرطبي، والنووي، وابن المنير، والتوربشتي، ولا مانع منه سوى ما يخطر للواهم من الخيال" انتهى.

وقد رد بعض الجهلة هذا الحديث بزعم أنه مخالف للواقع، من أن اختلاف الفصول إنما يرجع للعلاقة بين الشمس والأرض.

والجواب على هؤلاء أسهل مما يتصورون؛ وذلك أن هذا الحديث ليس فيه أن اختلاف الفصول أو حصول الشتاء والصيف هو بسبب نفسي جهنم.

بل الحديث نفسه يدل على وجود الفصلين (الشتاء والصيف) ابتداء، وأن "شدة الحر" و "شدة البرد" هما من أثر نفسي جهنم، لا أنهما يكونان "الصيف" و "الشتاء"، وهذا واضح بأدنى تأمل في الحديث.

قال ابن عبد البر في "التمهيد" (٥/ ٨): "وأما قوله: (فأذن لها بنفسين: نفس في الشتاء، ونفس في الصيف): فيدل على أن نفسها في الشتاء: غير الشتاء، ونفسها في الصيف: غير الصيف" انتهى.

وقد رد آخرون الحديث لأن سبب شدة الحر أو شدة البرد معروف، وهو بعد الشمس أو قربها من الأرض، وقد أجاب العلماء عن ذلك أيضا، وبينوا أنه لا تعارض بين الحديث، وبين الواقع.

فقال العلامة العثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "وفي هذا الحديث: دليل على أن الجمادات لها إحساس لقوله: (اشتكت النار إلى ربها فقالت: يا رب أكل بعضي بعضا)، من شدة الحر، وشدة البرد ، فأذن الله لها أن تتنفس في الشتاء، وتتنفس في الصيف ، تتنفس في الصيف ليخف عليها الحر ، وفي الشتاء ليخف عليها البرد ، وعلى هذا فأشد ما نجد من الحر: يكون من فيح جهنم ، وأشد ما يكون من الزمهرير: من زمهرير جهنم.

=

=

فإن قال قائل: هذا مشكل حسب الواقع؛ لأن من المعروف أن سبب البرودة في الشتاء هو: بعد الشمس عن مسامتة الرؤوس، وأنها تتجه إلى الأرض على جانب، بخلاف الحر، فيقال: هذا سبب حسي، لكن هناك سبب وراء ذلك، وهو السبب الشرعي الذي لا يدرك إلا بالوحي، ولا مناقضة أن يكون الحر الشديد الذي سببه أن الشمس تكون على الرؤوس أيضا يؤذن للنار أن تتنفس فيزداد حر الشمس، وكذلك بالنسبة للبرد: الشمس تميل إلى الجنوب، ويكون الجو باردا بسبب بعدها عن مسامتة الرؤوس، ولا مانع من أن الله تعالى يأذن للنار بأن يخرج منها شيء من الزمهرير ليبرد الجو، فيجتمع في هذا: السبب الشرعي المدرك بالوحي، والسبب الحسي، المدرك بالحس.

ونظير هذا: الكسوف، والخسوف، الكسوف معروف سببه، والخسوف معروف سببه.

سبب خسوف القمر: حيلولة الأرض بينه، وبين الشمس، ولهذا لا يكون إلا في المقابلة، يعني: لا يمكن يقع خسوف القمر إلا إذا قابل جرمه جرم الشمس، وذلك في ليالي الإبدار، حيث يكون هو في المشرق، وهي في المغرب أو هو في المغرب، وهي في المشرق.

أما الكسوف فسببه: حيلولة القمر بين الشمس، والأرض، ولهذا لا يكون إلا في الوقت الذي يمكن أن يتقارب جرما النيرين، وذلك في التاسع والعشرين أو الثلاثين، أو الثامن والعشرين، هذا أمر معروف، مدرك بالحساب، لكن السبب الشرعي الذي أدركناه بالوحي هو: أن الله (يخوف بهما العباد)، ولا مانع من أن يجتمع السببان الحسي والشرعي، لكن من ضاق ذرعا بالشرع: قال: هذا مخالف للواقع ولا نصدق به، ومن غالى في الشرع: قال: لا عبرة بهذه الأسباب الطبيعية، ولهذا قالوا: يمكن أن يكسف القمر في ليلة العاشر من الشهر!.... لكن حسب سنة

=

=

الله ﷻ في هذا الكون: أنه لا يمكن أن ينخسف القمر في الليلة العاشر أبدا" انتهى. " شرح صحيح مسلم" (شرح كتاب الصلاة ومواقيتها).

المسألة العاشرة: هل في الجنة حمل وولادة؟

ذهب بعض العلماء إلى أن العبد إذا تمنى في الجنة أن يكون له ولد، فإن الله يحقق أمنيته بذلك، واستدلوا على ذلك بحديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (المؤمن إذا اشتهى الولد في الجنة كان حمله ووضعه وسنه في ساعة، كما يشتهي).

قوله (كان حمله) أي: حمل الولد (ووضعه وسنه) أي: كمال سنه وهو الثلاثون سنة، (كما يشتهي) من أن يكون ذكرا أو أنثى أو نحو ذلك، وعلى هذا القول كثير من أهل العلم.

وقال بعض أهل العلم: في الجنة جماع ولا يكون ولد، وهذا القول روي عن طاوس ومجاهد وإبراهيم النخعي.

قال الإمام البخاري رحمه الله: وقد روي عن أبي رزين العقيلي عن النبي ﷺ قال: (إن أهل الجنة لا يكون لهم فيها ولد).

والحديث الذي أشار إليه البخاري هو حديث أبي رزين العقيلي رضي الله عنه في حديث طويل وفيه: (الصالحات للصالحين تلذونهن مثل لذاتكم في الدنيا، ويلذذن بكم، غير أن لا توالد)، والحديث صريح في انتفاء الولادة، غير ضعيف على الراجح.

وقد أجيب عن حديث أبي سعيد رضي الله عنه: (المؤمن إذا اشتهى الولد في الجنة كان حمله ووضعه وسنه في ساعة كما يشتهي) بأن في ثبوته نظرا، ولذلك قال عنه ابن القيم: إسناده على شرط الصحيح، ولكنه غريب جدا. "حادي الأرواح" (ص ٢١٣).

وقال: " وحديث أبي سعيد الخدري هذا أجود أسانيده إسناد الترمذي وقد حكم

=

=

بغرابته، وأنه لا يعرف إلا من حديث أبي الصديق الناجي، وقد اضطرب لفظه " انتهى.

وقال الإمام إسحق ابن راهويه رَحِمَهُ ٱللَّهُ في حديث النبي ﷺ: (إذا اشتهى المؤمن الولد في الجنة كان في ساعة واحدة كما يشتهي) قال: ولكن لا يشتهي.

ومعنى كلام إسحاق أن قوله ﷺ (إذا اشتهى المؤمن..) إنما هو على الفرض والتقدير، فكلمة "إذا" وضعت موضع "لو"المفيدة للفرض.

وذكر ابن القيم عدة وجوه يترجح بها أن الجنة ليس فيها ولادة منها:

الأول: حديث ابن رزين.

الثاني: قوله تعالى: (ولهم فيها أزواج مطهرة) وهن اللاتي طهرن من الحيض والنفاس والأذى.

وعن مجاهد قال: " مطهرة من الحيض والغائط والبول والنخام والبصاق والمني والولد".

الثالث: أن الله سبحانه جعل الحمل والولادة مع الحيض والمني، فلو كانت النساء يحبلن في الجنة لم ينقطع عنهن الحيض والإنزال.

الرابع: أنه قد ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: (ولا يزال في الجنة فضل حتى ينشئ الله لها خلقا فيسكنهم فضل الجنة) رواه مسلم (٥٠٨٥). ولو كان في الجنة إيلاد لكان الفضل لأولادهم، وكانوا أحق به من غيرهم.

الخامس: أنه سبحانه وتعالى قال: (والذين آمنوا واتبعتهم ذريتهم بإيمان ألحقنا بهم ذريتهم) الطور/ ٢١، فأخبر سبحانه أنه يكرمهم بإلحاق ذرياتهم الذين كانوا لهم في الدنيا، ولو كان ينشأ لهم في الجنة ذرية أخرى لذكرهم كما ذكر ذرياتهم الذين كانوا في الدنيا، لأن قرة أعينهم تكون بهم كما هي بذرياتهم من أهل الدنيا.

السادس: أنه إما أن يقال باستمرار التناسل فيها لا إلى غاية، أو إلى غاية ثم تنقطع،

=

=

وكلاهما مما لا سبيل إلى القول به، لاستلزام الأول اجتماع أشخاص لا تتناهى، واستلزام الثاني انقطاع نوع من لذة أهل الجنة وسرورهم وهو محال، ولا يمكن أن يقال بتناسل يموت معه نسل، ويخلفه نسل، إذ لا موت هناك.

السابع: أن الجنة لا ينمو فيها الإنسان كما ينمو في الدنيا، فلا ولدان أهلها ينمون ويكبرون، ولا الرجال ينمون، بل هؤلاء ولدان صغار لا يتغيرون، وهؤلاء أبناء ثلاث وثلاثين لا يتغيرون، فلو كان في الجنة ولادة لكان المولود ينمو ضرورة حتى يصير رجلا، ومعلوم أن من مات من الأطفال يردون أبناء ثلاث وثلاثين من غير نمو.

ثم قال رَحِمَهُ اللهُ: " والجنة ليست دار تناسل بل دار بقاء وخلد، لا يموت من فيها فيقوم نسله مقامه " انتهى. "حادي الأرواح" (١/ ١٧٣).

المسألة الحادية عشرة: هل اللغة العربية هي لغة أهل الجنة؟

لم يرد في القرآن أو في السنة الصحيحة - فيما نعلم - بيان اللغة التي يتكلم بها أهل الجنة، والوارد في ذلك حديث لا يصح عن نبينا ﷺ، وبعض الآثار، فقد روى الطبراني في الأوسط والحاكم والبيهقي في شعب الإيمان وغيرهم عن ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: (أحبوا العرب لثلاث لأني عربي، والقرآن عربي، وكلام أهل الجنة عربي).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية في اقتضاء الصراط المستقيم (١/ ١٥٨): " وكذلك روى أبو جعفر محمد بن عبد الله الحافظ الكوفي المعروف بمطين حدثنا العلاء بن عمرو الحنفي حدثنا يحيى بن زيد الأشعري حدثنا ابن جريج عن عطاء عن ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قال: قال رسول الله ﷺ: (أحب العرب لثلاث: لأنه عربي، والقرآن عربي، ولسان أهل الجنة عربي) قال الحافظ السلفي: هذا حديث حسن. فما أدري أراد حسن إسناده على طريقة المحدثين، أو حسن متنه على الاصطلاح

=

العام، وأبو الفرج بن الجوزي ذكر هذا الحديث في الموضوعات، وقال: قال الثعلبي: لا أصل له، وقال ابن حبان: يحيى بن زيد يروي المقلوبات عن الأثبات، فبطل الاحتجاج به، والله أعلم " انتهى.

وروى الطبراني في الأوسط عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (أنا عربي، والقرآن عربي، ولسان أهل الجنة عربي).

قال الألباني في السلسلة الضعيفة رقم ١٦١: موضوع.

والحاصل أنه لم يرد دليل صحيح يبين اللغة التي يتكلم بها أهل الجنة، ولهذا يتعين السكوت عن هذه المسألة وعدم الخوض فيها وتفويض علمها إلى الله تعالى؛ والانشغال بما يترتب عليه عمل ينفع في تلك الدار.

سئل شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: بماذا يخاطب الناس يوم البعث؟ وهل يخاطبهم الله تعالى بلسان العرب؟ وهل صح أن لسان أهل النار الفارسية وأن لسان أهل الجنة العربية؟

فأجاب: " الحمد لله رب العالمين لا يعلم بأي لغة يتكلم الناس يومئذ، ولا بأي لغة يسمعون خطاب الرب جل وعلا؛ لأن الله تعالى لم يخبرنا بشيء من ذلك ولا رسوله عليه الصلاة والسلام، ولم يصح أن الفارسية لغة الجهنميين، ولا أن العربية لغة أهل النعيم الأبدي، ولا نعلم نزاعا في ذلك بين الصحابة رضي الله عنهم، بل كلهم يكفون عن ذلك لأن الكلام في مثل هذا من فضول القول... ولكن حدث في ذلك خلاف بين المتأخرين، فقال ناس: يتخاطبون بالعربية، وقال آخرون: إلا أهل النار فإنهم يجيبون بالفارسية، وهى لغتهم في النار. وقال آخرون: يتخاطبون بالسريانية لأنها لغة آدم وعنها تفرعت اللغات. وقال آخرون: إلا أهل الجنة فإنهم يتكلمون بالعربية. وكل هذه الأقوال لا حجة لأربابها لا من طريق عقل ولا نقل بل هي دعاوى عارية عن الأدلة والله سبحانه وتعالى أعلم وأحكم " انتهى من

=

"مجموع الفتاوى" (٤/ ٢٩٩). والله أعلم.

المسألة الثانية عشرة: مصير الأطفال الذين ماتوا صغارا.

المسألة فيها شقين الأول مصير أطفال المسلمين، والثاني مصير أطفال الكفار.

أما الأول وهو مصير أطفال المسلمين فقد قال شيخ الإسلام في الفتاوى الكبرى (٥/ ٥٣٥): وأطفال المسلمين في الجنة إجماعا وأما أطفال المشركين فأصح الأجوبة فيهم ما ثبت في الصحيحين: أنه سئل عنهم رسول الله ﷺ فقال: [الله أعلم بما كانوا عاملين] فلا نحكم على معين منهم لا بجنة ولا نار ويروى أنهم يمتحنون يوم القيامة فمن أطاع منهم دخل الجنة ومن عصى دخل النار وقد دلت الأحاديث الصحيحة على أن بعضهم في الجنة وبعضهم في النار والصحيح في أطفال المشركين أنهم يمتحنون في عرضات القيامة ا.هـ

وقال ابن كثير في تفسيره (٣ / ٣٣): فأما ولدان المؤمنين فلا خلاف بين العلماء كما حكاه القاضي أبو يعلى بن الفراء الحنبلي عن الإمام أحمد أنه قال: لا يختلف فيهم أنهم من أهل الجنة. وهذا هو المشهور بين الناس (أي عامة العلماء) وهو الذي نقطع به إن شاء الله ﷻ ا.هـ

وقال الإمام أحمد كما في حاشية ابن القيم على سنن أبي داود (٧/ ٨٣): من يشك أن أولاد المسلمين في الجنة ؟! وقال أيضا: إنه لا اختلاف فيهم أ.هـ

وقال النووي في شرح مسلم (١٦ / ٢٠٧): أجمع من يعتد به من علماء المسلمين على أن من مات من أطفال المسلمين فهو من أهل الجنة؛ لأنه ليس مكلفا ا.هـ

وقال العلامة ابن باز كما في مجموع فتاواه (٥/ ١٨٢): فأولاد الكفار يمتحنون يوم القيامة كأهل الفترة، فإن أجابوا جوابا صحيحا نجوا وإلا صاروا مع الهالكين. وقال جمع من أهل العلم إن أطفال الكفار من الناجين؛ لكونهم ماتوا على الفطرة؛ ولأن النبي ﷺ رآهم حين دخل الجنة في روضة مع إبراهيم عليه السلام هم

=

=

وأطفال المسلمين.

وهذا قول قوي لوضوح دليله، أما أطفال المسلمين فهم من أهل الجنة بإجماع أهل السنة والجماعة. والله أعلم وأحكم ا.هـ

وسئل العلامة الألباني كما في موسوعة العلامة الألباني (٥/ ٨٥٧): السائل: في تفسير القرآن والتفاسير، إنسان: طفل، إذا مات غير مكلف: سنتين أو خمس سنوات عمره أو أقل أو أكثر تحت التكليف أنه يمتحن يوم القيامة من الله سبحانه وتعالى.

الشيخ: وبعد الامتحان ماذا يكون؟

السائل: يقرر إما جنة أو نار إذا أطاع أو خالف.

الشيخ: لا، هذا ما هو صحيح.

السائل: حسب ما قرأت.

الشيخ: لا هذا ليس صحيحًا.

مداخلة: علمه عند الله.

الشيخ: هذا علمه عند الله، هذا علم الله في القرآن، ماذا يقول ربنا ﷻ في القرآن الكريم: ألحقنا بهم ذرياتهم، من يأتي بالآية.

مداخلة: {وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ} (الطور:٢١).

الشيخ: {وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ} (الطور:٢١) أين أنت من هذه الآية، كيف تقول أنت هؤلاء الأطفال يحاسبون؟

السائل: نحن قرأنا في تفاسير كثيرة...

الشيخ: لا بارك الله فيك، هذه الآية عندك صريحة.

=

=

السائل: الإخوان مشاركون لي في هذه الشغلة وقرؤوا الموضوع هذا.

الشيخ: لا، ما قرؤوا الموضوع، قرؤوا موضوعًا ثانيًا أنا أقول لك ما هو، أطفال المشركين، هذا الموضوع الذي قرأتوه، أما أطفال المسلمين: «ألحقنا بهم ذريتهم»، هذا ما فيه إشكال أبدًا، أطفال المؤمنين ملحقون بآبائهم، حتى في أشياء لها فضيلة كبيرة جدًا جدًا، وما أدري كيف مريت عليها، قال عَلَيْهِ السَّلَامُ: «ما من مسلمين يموت لهما ثلاثة من الولد لم يبلغوا الحنثة -أي: التكليف- إلا لم تمسه النار إلا تحلة القسم» وليس هذا فقط ليس أنهم لا يدخلون النار وهم ملحقون بآبائهم بل يكونون شفعاء لآبائهم، جاء في صحيح مسلم أن الأطفال الصبيان غير البالغين يقفون عند باب الجنة يبكون، فيرسل الله إليهم جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ: سلهم ما بهم وهو أعلم ما بهم ربنا عَزَّ وَجَلَّ، فيأتيهم: ما بالكم؟ قالوا: لا ندخل الجنة إلا وآباؤنا معنا، فيقول الله عَزَّ وَجَلَّ: أدخلوهم وآباؤهم معهم،...، البحث الذي قرأته والله أعلم هم أطفال المشركين، فيه ثلاثة أقوال لعلماء المسلمين: أطفال المشركين في الجنة، وهم خدم أهل الجنة هذا قول، القول الثاني هم يمتحنون في عرصات يوم القيامة كما امتحن آباؤهم في الدنيا، القول الثالث: هم وآباؤهم في النار، حتى بهذه المناسبة يرووا حديثًا وأنا أذكره لتحذيري لكم منه، أنه السيدة خديجة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا وأرضاها تعلمون أن النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- لما تزوجها كانت متزوجة من قبل رجلًا وخلفت منه أولادًا، فسألت يومًا الرسول عَلَيْهِ السَّلَامُ عن أولادها من زوجها الأول الذي مات في الجاهلية وماتوا، قال لها وانتبهوا الحديث غير صحيح: «إن شئت أسمعتك تضاغيهم في النار». هذا حديث غير صحيح.

القول الصحيح بالنسبة للأقوال الثلاثة أن الأطفال الصغار للمشركين حكمهم حكم المجانين وحكم الشيوخ الخرفانين، وحكم أهل الفترة الذين حكينا عليهم وهم الذين لم تبلغهم دعوة الرسول عَلَيْهِ السَّلَامُ، هؤلاء جاء في الحديث الصحيح أن الله

=

=

ﷻ يرسل إليهم في عرصات يوم القيامة رسولًا، فيأمرهم بأن يلقوا بأنفسهم في النار، وأمامهم النار، فمن أطاعه دخل الجنة ومن عصاه دخل النار، تمامًا كما هو الشأن في هذه الحياة، لكن مع فارق كبير، والفارق هنا يا إخواننا أرجو أن تنتبهوا يتعلق بالمرسِل والمرسَل إليهم، المرسَل هنا في الدنيا في عنده معجزات وعنده براهين تتناسب حياة المرسل إليهم المادية التي يعيشون فيها، المرسل هناك يأتي أيضًا بعلامة يقتنع المرسلون إليه بأنه هذا فعلًا مرسل من رب العالمين، والابتلاء هناك كالابتلاء هنا مع فارق كبير، هنا من يؤمن فسيصاب بما جاء في الحديث: حفت الجنة بالمكارة وحفت النار بالشهوات، فالذي يريد يؤمن يحف ويصاب بنار معنوية، أما هناك فنار حقيقية مادية، لكن الرسول الذي يرسل إليهم يعلمون يقينًا أن هذا من الله، فمن أطاعه دخل الجنة ومن عصاه دخل النار.

فإذًا لا تكليف قبل بلوغ النذارة، لا تكليف قبل مجيء الرسول أو الدعوة، وهذا من تمام حكم الله ﷻ ورحمته بعباده التي أودعها فيما يتعلق بهذا الموضوع في قوله: {وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا} (الإسراء:١٥) فهؤلاء الصبيان من المشركين ما جاءهم رسول لأنهم بعد ما دخلوا في دائرة التكليف، أولئك الأقوام الذين لم تبلغهم دعوة الرسول ما جاءهم الرسول ولذلك ربنا لا يعذبهم، هذا قولًا واحدًا، أما يا ترى ماذا يعمل بهم ربنا؟ من كان عنده علم بالحديث الذي ذكرناه آنفًا فالجواب أن لهم امتحانًا في عرصات يوم القيامة، فهذا هو الحق ما به خفاء فدعني عن بنيات الطريق ا.هـ

وأما الثاني وهو مصير أطفال الكفار فقد اختلف العلماء فيه إلى أقوال:

١ - أنهم في الجنة - وبعضهم يقول: إنهم على الأعراف، ومرد هذا القول أنهم في الجنة لأن هذا هو حال أهل الأعراف -. وهو قول الأكثر من أهل العلم كما نقله عنهم ابن عبد البر في "التمهيد" (١٨/ ٩٦) ودليلهم:

=

=

أ - حديث سمرة رضي الله عنه: (أنه عليه السلام رأى مع إبراهيم عليه السلام أولاد المسلمين وأولاد المشركين) رواه البخاري (٦٦٤٠).

ب - عن حسناء بنت معاوية من بني صريم قالت حدثني عمي قال (قلت يا رسول الله من في الجنة قال النبي في الجنة والشهيد في الجنة والمولود في الجنة والوئيد في الجنة).

٢- أنهم مع آبائهم في النار، وقد نسب القاضي أبو يعلى هذا القول لأحمد! وغلطه شيخ الإسلام، قال الإمام ابن القيم في حاشيته على سنن أبي داود (٧/ ٨٧): القول الثاني: أن أطفال المشركين في النار. وهذا مذهب طائفة وحكاه القاضي أبو يعلى رواية عن أحمد قال شيخنا: وهو غلط منه على أحمد وسبب غلطه أن أحمد سئل عنهم فقال هم على الحديث، قال القاضي: أراد حديث خديجة (إذ سألت النبي صلى الله عليه وسلم عن أولادها الذين ماتوا قبل الإسلام فقال: إن شئت أسمعتك تضاغيهم في النار)، قال شيخنا: وهذا حديث موضوع، وأحمد أجل من أن يحتج بمثله، وإنما أراد حديث عائشة " الله أعلم بما كانوا عاملين " ا.هـ

ودليلهم:

أ - عن سلمة بن قيس الأشجعي قال (أتيت أنا وأخي النبي صلى الله عليه وسلم فقلنا إن أمنا ماتت في الجاهلية وكانت تقري الضيف وتصل الرحم وأنها وأدت أختا لنا في الجاهلية لم تبلغ الحنث فقال الوائدة والمؤودة في النار إلا أن تدرك الوائدة الإسلام فتسلم)، ولهم أحاديث أخرى، لكنها ضعيفة.

٣- التوقف فيهم: وهو قول حماد بن زيد وحماد بن سلمة وابن المبارك وإسحاق بن راهويه، ودليلهم:

أ - حديث ابن عباس رضي الله عنهما قال (سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أولاد المشركين قال الله أعلم بما كانوا عاملين) أخرجه البخاري (١٣٨٣) ومسلم (٢٦٦٠).

=

=

ب - ومثله من حديث أبي هريرة رضي الله عنه وأيضا رواه البخاري (١٣٨٤) ومسلم (٢٦٥٩).

٤- ومنهم من قال: إنهم خدم أهل الجنة، قال شيخ الإسلام في مجموع الفتاوى (٤/ ٢٧٩): ولا أصل لهذا القول ا.هـ قلت: وقد ورد هذا المعنى في عدة أحاديث، ولكنها ضعيفة لا تثبت على الراجح.

٥- أنهم يمتحنون في الآخرة، فمن أطاع الله دخل الجنة، ومن عصى دخل النار. وهو قول معظم أهل السنة والجماعة كما نقله عنهم أبو الحسن الأشعري، وهو قول البيهقي، وطائفة من المحققين، وهو الذي مال إليه شيخ الإسلام ابن تيمية، وذكر أنه مقتضى نصوص الإمام أحمد، وهو الذي رجحه الحافظ ابن كثير، وقال: في التفسير (٣/ ٣١): وهذا القول يجمع بين الأدلة كلها وقد صرحت به الأحاديث المتقدمة المتعاضدة الشاهد بعضها لبعض.

دليلهم:

أ - عن أنس قال رضي الله عنه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (يؤتى بأربعة يوم القيامة بالمولود، والمعتوه، ومن مات في الفترة، والشيخ الفاني، كلهم يتكلم بحجته، فيقول الرب تبارك وتعالى لعنق من النار: أبرز، ويقول لهم: إني كنت أبعث إلى عبادي رسلا من أنفسهم، وإني رسول نفسي إليكم، ادخلوا هذه (أي النار)، قال: فيقول من كتب عليه الشقاء: يا رب أنى ندخلها ومنها كنا نفر، قال: ومن كتب عليه السعادة يمضي فيقتحم فيها مسرعا، قال: فيقول الله تعالى أنتم لرسلي أشد تكذيبا ومعصية، فيدخل هؤلاء الجنة وهؤلاء النار).

قال الإمام ابن القيم رحمه الله: وهذا أعدل الأقوال وبه يجتمع شمل الأدلة وتتفق الأحاديث في هذا الباب، وعلى هذا فيكون بعضهم في الجنة كما في حديث سمرة، وبعضهم في النار كما دل عليه حديث عائشة، وجواب النبي صلى الله عليه وسلم يدل على هذا؛

=

=

فإنه قال: "الله أعلم بما كانوا عاملين إذ خلقهم"، ومعلوم أن الله لا يعذبهم بعلمه فيهم ما لم يقع معلومه، فهو إنما يعذب من يستحق العذاب على معلومه وهو متعلق علمه السابق فيه لا على علمه المجدد وهذا العلم يظهر معلومه في الدار الآخرة.

وفي قوله: "الله أعلم بما كانوا عاملين": إشارة إلى أنه سبحانه كان يعلم ما كانوا عاملين لو عاشوا، وأن من يطيعه وقت الامتحان كان ممن يطيعه لو عاش في الدنيا، ومن يعصيه حينئذ كان ممن يعصيه لو عاش في الدنيا فهو دليل على تعلق علمه بما لم يكن لو كان كيف كان يكون... والله أعلم. أ.هـ من حاشية ابن القيم على سنن أبي داود (٧/ ٨٧).

وما جاء في بعض الأحاديث السابقة أنهم في الجنة أو النار لا يشكل على ما رجحناه، قال ابن كثير في تفسيره (٣ / ٣٣): أحاديث الامتحان أخص منه فمن علم الله منه أنه يطيع جعل روحه في البرزخ مع إبراهيم وأولاد المسلمين الذين ماتوا على الفطرة ومن علم منه أنه لا يجيب فأمره إلى الله تعالى ويوم القيامة يكون في النار كما دلت عليه أحاديث الامتحان ونقله الأشعري عن أهل السنة. ا.هـ

وما جاء من قوله ﷺ " الله أعلم بما كانوا عاملين ": لا يدل على التوقف فيهم، قال الإمام ابن القيم حاشيته على سنن أبي داود (٧/ ٨٥): وفيما استدلت به هذه الطائفة نظر والنبي ﷺ لم يجب فيهم بالوقف وإنما وكل علم ما كانوا يعملونه لو عاشوا إلى الله وهذا جواب عن سؤالهم كيف يكونون مع آبائهم بغير عمل وهو طرف من الحديث .... والنبي ﷺ وكل العلم بعملهم إلى الله، ولم يقل الله أعلم حيث يستقرون أو أين يكونون، فالدليل غير مطابق لمذهب هذه الطائفة. ا.هـ

وقال العلامة ابن باز في مجموع فتاواه (١/ ٥١): فالخلاصة: أن من لم تبلغه

=

=

الدعوة كالذين في أطراف الدنيا أو في أوقات الفترات ، أو كان بلغته وهو مجنون ذاهب العقل، أو هرم لا يعقل فهؤلاء وأشباههم مثل أولاد المشركين الذين ماتوا وهم صغار، فإن أولاد المشركين الذين لم يبلغوا الحلم كلهم أمرهم إلى الله، فالله يعلم بما كانوا عاملين، كما أجاب بذلك النبي ﷺ لمن سأله عنهم، ويظهر علمه فيهم سبحانه يوم القيامة بالامتحان، فمن نجح منهم دخل الجنة، ومن لم ينجح دخل النار ولا حول ولا قوة إلا بالله ا.هـ

وسئل العلامة العثيمين كما في مجموع فتاواه (٢/ ٤٩): عن مصير أطفال المؤمنين، وأطفال المشركين الذين ماتوا صغارا؟

فأجاب: مصير أطفال المؤمنين الجنة؛ لأنهم تبع لآبائهم قال تعالى: {وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ}.

وأما أطفال غير المؤمنين؛ يعني الطفل الذي نشأ من أبوين غير مسلمين، فأصح الأقوال فيهم أن نقول: الله أعلم بما كانوا عاملين، فهم في أحكام الدنيا بمنزلة آبائهم، أما في أحكام الآخرة، فإن الله - تعالى - أعلم بما كانوا عاملين، كما قال النبي ﷺ والله أعلم بمصيرهم هذا ما نقوله، وهو في الحقيقة أمر لا يعنينا كثيرا، إنما الذي يعنينا هو حكمهم في الدنيا، وأحكامهم في الدنيا - أعني أولاد المشركين - أحكامهم في الدنيا أنهم كالمشركين لا يغسلون، ولا يكفنون، ولا يصلى عليهم، ولا يدفنون في مقابر المسلمين. والله أعلم ا.هـ

(تنبيه): حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا عند الإمام مسلم (٢٦٦٢) من طريق طلحة بن يحيى، عن عمته عائشة بنت طلحة، عن عائشة أم المؤمنين، قالت: (دعي رسول الله ﷺ إلى جنازة صبي من الأنصار. فقلت: يا رسول الله، طوبى لهذا، عصفور من عصافير الجنة، لم يعمل السوء ولم يدركه. قال: "أو غير ذلك يا عائشة؟ إن الله

=

=

خلق للجنة أهلًا، خلقهم لها وهم في أصلاب آبائهم، وخلق للنار أهلًا، خلقهم لها وهم في أصلاب آبائهم) هذا الحديث وإن كان في مسلم ولكنه من الأحرف اليسيرة جدا التى انتقضها عليه بعض الحفاظ، فقد أعله الإمام أحمد كما في المنتخب من علل الخلال (١/ ٣) بقوله "طلحة بن يحيى أحب إلي من بُريد بن أبي بردة، بُريد يروي أحاديث مناكير، وطلحة حدَّث بحديث عصفور من عصافير الجنة" (قال عبد الله بن أحمد) حدثني أبي قال: حدثنا ابن فضيل عن العلاء أو حبيب بن أبي عَمر، قال أبي: وما أراه سمعه إلا من طلحة يعني ابن فضيل"، وقد صَرَّح الإمام أحمد بتضعيف هذا الحديث، كما في كتاب الجامع للخلاَّل، كتاب أهل الملل (١/ ٦٧ - ٦٨ رقم ١٦) وعنه ابن قدامة في منتخب علل الخلاَّل (٥٣، رقم ١٠)، وابن قيم الجوزية في أحكام أهل الذمة (٢/ ٦١٢ - ٦١٣) فقد روى الخلاَّل عن عبد الملك بن عبد الحميد الميموني، أن الإمام أحمد ذكر له حديث عائشة - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا - هذا في أطفال المسلمين، فقال: "هذا حديث ضعيف، وذكر فيه رجلًا ضعَّفه، هو طلحة. وسمعته يقول غير مرة وأحدٌ يشك أنهم في الجنة؟! ثم أملى علينا الأحاديث فيه وسمعته يقول هو يرجى لأبويه، كيف يُشَكُّ فيه؟!!، ولذلك أورد العقيلي هذا الحديث في الضعفاء في ترجمة طلحة بن يحيى، ثم قال (٢/ ٦١٥ - ٦١٦): " آخر الحديث فيه رواية من حديث الناس بأسانيد جياد، وأوله لا يُحفَظ إلا من هذا الوجه"، وأعله ابن عبد البر كما في الأجوبة المستوعبة (٥١٩)، وقال في التمهيد (٦/ ٣٥٠ - ٣٥١) بقوله: "وهذا الحديث ساقط ضعيف مردود بما ذكرنا من الآثار والإجماع، وطلحة بن يحيى ضعيف لا يحتج به، وهذا الحديث مما انفرد به، فلا يُعَرّج عليه"، وقال في موطن آخر من التمهيد (١٨/ ٩٠): "حديث ضعيف، انفرد به طلحة بن يحيى، فأنكروه عليه، وضعَّفوه من أجله"، وقال الذهبي في السير (١٤/ ٤٦٢): رواه جماعة عن طلحة، وهو مما

=

=

ينكر من حديثه، لكن أخرجه مسلم ا.هـ وصححه بعض العلماء منهم مسلم بإخراجه له في صحيحة، وابن العربي في العارضة (٥/ ١٠)، والعلامة الألباني فقد صححه في ظلال الجنة (٢٥١)، وصححه الأرنؤوط ومن معه في تحقيق المسند (٤٢/ ٤٨٤).

المسألة الثالثة عشرة: عظم خلق أهل النار.

يدخل أهل الجحيم النار على صورة ضخمة هائلة لا يقدر قدرها إلا الذي خلقهم، ففي الحديث الذي يرفعه أبو هريرة ﵁ إلى رسول الله ﷺ قال: (ما بين منكبي الكافر في النار مسيرة ثلاثة أيام للراكب المسرع) وعن أبي هريرة قال ﵁ قال رسول الله ﷺ (ضرس الكافر، أو ناب الكافر، مثل أحد، وغلظ جلده مسيرة ثلاث)، وقال زيد بن أرقم: (إن الرجل من أهل النار ليعظم للنار، حتى يكون الضرس من أضراسه كأحد)

وعن أبي هريرة ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ (إن غلظ جلد الكافر اثنان وأربعون ذراعًا، وإن ضرسه مثل أحد، وإن مجلسه من جهنم ما بين مكة والمدينة).

وروى أبو هريرة ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: (ضرس الكافر يوم القيامة مثل أحد، وعرض جلده سبعون ذراعًا، وعضده مثل البيضاء، وفخذه مثل ورقان، ومقعده من النار ما بيني وبين الربذة)

وهذا التعظيم لجسد الكافر ليزداد عذابه وآلامه، يقول النووي في شرحه لأحاديث مسلم في هذا الباب: هذا كله لكونه أبلغ في إيلامه، وكل هذا مقدور لله تعالى: يجب الإيمان به لإخبار الصادق به. وقال ابن كثير معلقًا على ما أورده من هذه الأحاديث: ليكون ذلك أنكى في تعذيبهم، وأعظم في تعبهم ولهيبهم، كما قال شديد العقاب: لِيَذُوقُواْ الْعَذَابَ [النساء: ٥٦].

المسألة الرابعة عشرة: ماذا يحصل للمرأة في الجنة إذا كان زوجها من أهل النار؟

=

=

إذا دخل زوج المرأة معها الجنة، كان زوجها هناك أيضا، أما إذا كان من أهل النار، أو كانت الفتاة لم تتزوج في الدنيا، فإنها تزوج برجل من أهل الجنة.

سئل العلامة العثيمين كما في مجموع فتاواه (٢/ ٥٢): إذا كانت المرأة من أهل الجنة ولم تتزوج في الدنيا، أو تزوجت ولم يدخل زوجها الجنة فمن يكون لها؟

فأجاب: " الجواب يؤخذ من عموم قوله تعالى: (ولكم فيها ما تشتهي أنفسكم ولكم فيها ما تدعون) فصلت/ ٣١، ومن قوله تعالى: (وفيها ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين وأنتم فيها خالدون) الزخرف/ ٧١، فالمرأة إذا كانت من أهل الجنة ولم تتزوج، أو كان زوجها ليس من أهل الجنة فإنها إذا دخلت الجنة فهناك من أهل الجنة من لم يتزوجوا من الرجال، وهم -أعني من لم يتزوجوا من الرجال- لهم زوجات من الحور، ولهم زوجات من أهل الدنيا إذا شاءوا واشتهت ذلك أنفسهم.

وكذلك نقول بالنسبة للمرأة إذا لم تكن ذات زوج، أو كانت ذات زوج في الدنيا ولكنه لم يدخل معها الجنة أنها إذا اشتهت أن تتزوج فلابد أن يكون لها ما تشتهيه لعموم هذه الآيات.

المسألة الخامسة عشرة: المرأة التي تزوجت بأكثر من زوج لأيهم تكون في الجنة؟

هذه المسألة فيها ثلاثة أقوال لأهل العلم:

الأول: أنها تكون مع أحسنهم خلقا كان معها في الدنيا.

والثاني: أنها تخير بينهم.

والثالث: أنها لآخر أزواجها.

وأقرب هذه الأقوال وأصحها هو القول الثالث وفيه حديث مرفوع إلى النبي ﷺ: (أيما امرأة توفي عنها زوجها، فتزوجت بعده، فهي لآخر أزواجها)، هذا على وجه الإجمال، أما على وجه التفصيل فأدلة الأقوال كما يلي:

=

=

دليل القول الأول: قال القرطبي في التذكرة (٢/ ٢٧٨): وذكر أبو بكر بن النجاد قال: حدثنا جعفر بن محمد بن شاكر حدثنا عبيد بن إسحاق العطار حدثنا سنان بن هارون عن حميد عن أنس: أن أم حبيبة زوج النبي ﷺ قالت: يا رسول الله، المرأة يكون لها الزوجان في الدنيا، ثم يموتون ويجتمعون في الجنة، لأيهما تكون؟ للأول أو للآخر؟ قال: لأحسنهما خلقا كان معها يا أم حبيبة، ذهب حسن الخلق بخير الدنيا والآخرة " ا. هـ

قلت: والحديث ضعيف جدا، وفيه علتان: عبيد بن إسحاق العطار، وسنان بن هارون، أما الأول: فضعيف جدا، وأما الثاني: فضعيف، وعليه: فالحديث لا يصح الاستدلال به، وهو ضعيف جدا، فسقط هذا القول.

القول الثاني: وهو أنها تخير بين أزواجها، ولم أر لمن قال هذا القول أي دليل.

وفي "التذكرة في أحوال الموتى والآخرة" (٢/ ٢٧٨): ذكر المسألة، وقال بعدها: وقيل: إنها تخير إذا كانت ذات زوج. أ. هـ

وقال العجلوني في كشف الخفاء (٢/ ٣٩٢): وقيل لأحسنهم خلقا! وقيل: تخير.

وهو الذي رجحه العلامة العثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ كما في فتاواه (٢/ ٥٣) حيث سئل: إذا كانت المرأة لها زوجان في الدنيا فمع من تكون منهما، ولماذا ذكر الله الزوجات للرجال، ولم يذكر الأزواج للنساء؟.

فأجاب: إذا كانت المرأة لها زوجان في الدنيا فإنها تخير بينهما يوم القيامة في الجنة، وإذا لم تتزوج في الدنيا فإن الله - تعالى - يزوجها ما تقر به عينها في الجنة، فالنعيم في الجنة ليس مقصورا على الذكور، وإنما هو للذكور والإناث، ومن جملة النعيم الزواج.

وقول السائل: " إن الله - تعالى - ذكر الحور العين، وهن زوجات، ولم يذكر للنساء أزواجا".

=

=

فنقول: إنما ذكر الزوجات للأزواج؛ لأن الزوج هو الطالب، وهو الراغب في المرأة؛ فلذلك ذكرت الزوجات للرجال في الجنة، وسكت عن الأزواج للنساء، ولكن ليس مقتضى ذلك أنه ليس لهن أزواج، بل لهن أزواج من بني آدم ا.هـ

وأما القول الثالث: فدليله حديث (المرأة لآخر أزواجها) وقد تقدم.

والخلاصة: أن القول بأن المرأة مع أحسنهم أخلاقا كان معها في الدنيا: مما لم يصح فيه دليل، وأن القول بأنها تختار من تشاء منهم: لا دليل عليه البتة، وأن القول بأنها مع آخر أزواجها هو القول الأقرب للصواب، وذلك لاحتمال حسن حديث أم الدرداء مرفوعا، وهو مؤيد بأثري حذيفة وأسماء الموقوفين، واللذان يصلحان لتقوية المرفوع، ولبيان أن للقول أصلا معتبرا.

المسألة السادسة عشرة: بيان خطأ مقولة " ما عبدناك خوفا من نارك ولا طمعا في جنتك".

هذه العبارة مخالفة للشرع المطهر، ويدل على ذلك:

١ - أنه ليس بين الحب والخوف والرجاء تعارض حتى تعبد ربك تعالى حبا له؛ لأن الذي يخافه تعالى ويرجوه ليست محبة الله منزوعة منه، بل لعله أكثر تحقيقا لها من كثيرين يزعمون محبته.

٢ - أن العبادة الشرعية عند أهل السنة تشمل المحبة والتعظيم، والمحبة تولد الرجاء، والتعظيم يولد الخوف.

قال العلامة العثيمين في مجموع فتاواه (٨/ ١٧، ١٨): والعبادة مبنية على أمرين عظيمين، هما: المحبة، والتعظيم، الناتج عنهما: (إنهم كانوا يسارعون في الخيرات ويدعوننا رغبا ورهبا) الأنبياء/ ٩٠، فبالمحبة تكون الرغبة، وبالتعظيم تكون الرهبة، والخوف.

ولهذا كانت العبادة أوامر، ونواهي: أوامر مبنية على الرغبة، وطلب الوصول إلى

=

=

الآمر، ونواهي مبنية على التعظيم، والرهبة من هذا العظيم.
فإذا أحببت الله ﷻ: رغبت فيما عنده، ورغبت في الوصول إليه، وطلبت الطريق الموصل إليه، وقمت بطاعته على الوجه الأكمل، وإذا عظمته: خفت منه، كلما هممت بمعصية استشعرت عظمة الخالق ﷻ، فنفرت، (ولقد همت به وهم بها لولا أن رأى برهان ربه كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء) يوسف/ ٢٤، فهذه من نعمة الله عليك، إذا هممت بمعصية وجدت الله أمامك، فهبت، وخفت، وتباعدت عن المعصية؛ لأنك تعبد الله، رغبة، ورهبة.
٣ - أن عبادة الأنبياء والعلماء والأتقياء تشتمل على الخوف والرجاء، ولا تخلو من محبة، فمن يرد أن يعبد الله تعالى بإحدى ذلك: فهو مبتدع، وقد يصل الحال به للكفر، قال الله تعالى - في وصف حال المدعوين من الملائكة والأنبياء والصالحين -: (أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة أيهم أقرب ويرجون رحمته ويخافون عذابه) الإسراء/ ٥٧، وقال الله تبارك وتعالى - في وصف حال الأنبياء -: (إنهم كانوا يسارعون في الخيرات ويدعوننا رغبا ورهبا وكانوا لنا خاشعين) الأنبياء/ ٩٠.
قال الطبري في تفسيره (١٨/ ٥٢١): ويعنى بقوله: (رغبا): أنهم كانوا يعبدونه رغبة منهم فيما يرجون منه، من رحمته، وفضله، (ورهبا): يعني: رهبة منهم، من عذابه، وعقابه، بتركهم عبادته، وركوبهم معصيته.
وبنحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل ا. هـ
وقال الحافظ ابن كثير في تفسيره (٥/ ٣٧٠): وقوله: (إنهم كانوا يسارعون في الخيرات) أي: في عمل القربات، وفعل الطاعات.
(ويدعوننا رغبا ورهبا) قال الثوري: (رغبا) فيما عندنا، (ورهبا) مما عندنا.
(وكانوا لنا خاشعين) قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: أي: مصدقين بما

=

=

أنزل الله، وقال مجاهد: مؤمنين حقا، وقال أبو العالية: خائفين، وقال أبو سنان: الخشوع هو الخوف اللازم للقلب، لا يفارقه أبدا، وعن مجاهد أيضا: (خاشعين) أي: متواضعين، وقال الحسن، وقتادة، والضحاك: (خاشعين) أي: متذللين لله ﷻ، وكل هذه الأقوال متقاربة ا. هـ

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية في مجموع الفتاوى (١٥/ ٢١): قال بعض السلف: " من عبد الله بالحب وحده: فهو زنديق، ومن عبده بالخوف وحده: فهو حروري - أي: خارجي -، ومن عبده بالرجاء وحده: فهو مرجئ، ومن عبده بالحب والخوف والرجاء: فهو مؤمن موحد ا. هـ

٤ - اعتقادهم أن الجنة هي الأشجار والأنهار والحور العين، وغفلوا عن أعظم ما في الجنة مما يسعى العبد لتحصيله وهو رؤية الله تعالى، والتلذذ بذلك، والنار ليست هي الحميم والسموم والزقوم، بل هي غضب الله وعذابه والحجب عن رؤيته ﷻ.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية في مجموع الفتاوى" (١٠/ ٦٢، ٦٣): ومن هنا يتبين زوال الاشتباه في قول من قال: " ما عبدتك شوقا إلى جنتك، ولا خوفا من نارك، وإنما عبدتك شوقا إلى رؤيتك "، فإن هذا القائل ظن هو ومن تابعه أن الجنة لا يدخل في مسماها إلا الأكل، والشرب، واللباس، والنكاح، ونحو ذلك مما فيه التمتع بالمخلوقات، ولهذا قال بعض من غلط من المشائخ لما سمع قوله: (منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة) قال: فأين من يريد الله؟! وقال آخر في قوله تعالى: (إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة) قال: إذا كانت النفوس والأموال بالجنة فأين النظر إليه؟!، وكل هذا لظنهم أن الجنة لا يدخل فيها النظر، والتحقيق: أن الجنة هي الدار الجامعة لكل نعيم، وأعلى ما فيها: النظر إلى وجه الله، وهو من النعيم الذي ينالونه في الجنة، كما أخبرت به

=

=

النصوص، وكذلك أهل النار، فإنهم محجوبون عن ربهم يدخلون النار، مع أن قائل هذا القول إذا كان عارفا بما يقول فإنما قصده أنك لو لم تخلق نارا، أو لو لم تخلق جنة لكان يجب أن تعبد، ويجب التقرب إليك، والنظر إليك، ومقصوده بالجنة هنا ما يتمتع فيه المخلوق ا.هـ

وقال ابن القيم في مدارج السالكين" (٢/ ٨٠، ٨١): والتحقيق أن يقال: الجنة ليست اسما لمجرد الأشجار، والفواكه، والطعام، والشراب، والحور العين، والأنهار، والقصور، وأكثر الناس يغلطون في مسمى الجنة، فإن الجنة اسم لدار النعيم المطلق الكامل، ومن أعظم نعيم الجنة: التمتع بالنظر إلى وجه الله الكريم، وسماع كلامه، وقرة العين بالقرب منه، وبرضوانه، فلا نسبة للذة ما فيها من المأكول والمشروب والملبوس والصور إلى هذه اللذة أبدا، فأيسر يسير من رضوانه: أكبر من الجنان وما فيها من ذلك، كما قال تعالى: (ورضوان من الله أكبر) التوبة/ ٧٢، وأتى به منكرا في سياق الإثبات، أي: أي شيء كان من رضاه عن عبده: فهو أكبر من الجنة.

قليل منك يقنعني * ولكن قليلك لا يقال له قليل

وفي الحديث الصحيح حديث الرؤية: (فوالله ما أعطاهم الله شيئا أحب إليهم من النظر إلى وجهه)، وفي حديث آخر: (أنه سبحانه إذا تجلى لهم ورأوا وجهه عيانا: نسوا ما هم فيه من النعيم وذهلوا عنه ولم يلتفوا إليه).

ولا ريب أن الأمر هكذا، وهو أجل مما يخطر بالبال أو يدور في الخيال، ولا سيما عند فوز المحبين هناك بمعية المحبة، فإن (المرء مع من أحب)، ولا تخصيص في هذا الحكم، بل هو ثابت، شاهدا، وغائبا، فأي نعيم، وأي لذة، وأي قرة عين، وأي فوز، يداني نعيم تلك المعية، ولذتها، وقرة العين بها، وهل فوق نعيم قرة العين بمعية المحبوب الذي لا شيء أجل منه، ولا أكمل، ولا أجمل قرة عين ألبتة؟.

=

=

وهذا - والله - هو العلم الذي شمر إليه المحبون، واللواء الذي أمه العارفون، وهو روح مسمى الجنة وحياتها، وبه طابت الجنة، وعليه قامت.

فكيف يقال: " لا يعبد الله طلبا لجنته، ولا خوفا من ناره "؟!.

وكذلك النار أعاذنا الله منها، فإن لأربابها من عذاب الحجاب عن الله، وإهانته، وغضبه، وسخطه، والبعد عنه: أعظم من التهاب النار في أجسامهم، وأرواحهم، بل التهاب هذه النار في قلوبهم: هو الذي أوجب التهابها في أبدانهم، ومنها سرت إليها.

فمطلوب الأنبياء، والمرسلين، والصديقين، والشهداء، والصالحين: هو الجنة، ومهربهم: من النار، والله المستعان، وعليه التكلان، ولا حول ولا قوة إلا بالله، وحسبنا الله ونعم الوكيل ا. هـ

٥ - مؤدى تلك المقولة الاستخفاف بخلق الجنة، والنار، والله تعالى خلقهما، وأعد كل واحدة منهما لمن يستحقها، وبالجنة رغب العابدين لعبادته، وبالنار خوف خلقه من معصيته والكفر به.

٦ - كان النبي ﷺ يسأل الله الجنة، ويستعيذ به من النار، وكان يعلم ذلك لأصحابه رضوان الله عليهم، وهكذا توارثه العلماء والعباد، ولم يروا في ذلك نقضا لمحبتهم لربهم تعالى، ولا نقصا في منزلة عبادتهم.

عن أنس قال: كان أكثر دعاء النبي ﷺ: (اللهم ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار). رواه البخاري (٦٠٢٦).

وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ لرجل: (ما تقول في الصلاة؟) قال: أتشهد، ثم أسأل الله الجنة، وأعوذ به من النار، أما والله ما أحسن دندنتك، ولا دندنة معاذ - أي: ابن جبل - قال: (حولها ندندن).

رواه أبو داود (٧٩٢) وابن ماجه (٣٨٤٧)، وصححه الألباني في "صحيح ابن

=

=

ماجه".

وعن البراء بن عازب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: قال لي رسول الله ﷺ: (إذا أتيت مضجعك فتوضأ وضوءك للصلاة ثم اضطجع على شقك الأيمن وقل اللهم أسلمت نفسي إليك وفوضت أمري إليك وألجأت ظهري إليك رهبة ورغبة إليك لا ملجأ ولا منجا منك إلا إليك آمنت بكتابك الذي أنزلت وبنبيك الذي أرسلت فإن مت مت على الفطرة فاجعلهن آخر ما تقول). رواه البخاري (٥٩٥٢) ومسلم (٢٧١٠).

قال تقي الدين السبكي في فتاواه (٢/ ٥٦٠): والعاملون على أصناف: صنف عبدوه لذاته، وكونه مستحقا لذلك؛ فإنه مستحق لذلك، لو لم يخلق جنة ولا نارا، فهذا معنى قول من قال: " ما عبدناك خوفا من نارك، ولا طمعا في جنتك "، أي: بل عبدناك لاستحقاقك ذلك، ومع هذا فهذا القائل يسأل الله الجنة، ويستعيذ به من النار، ويظن بعض الجهلة خلاف ذلك، وهو جهل، فمن لم يسأل الله الجنة والنجاة من النار: فهو مخالف للسنة؛ فإن من سنة النبي ﷺ ذلك، ولما قال ذلك القائل للنبي ﷺ: " إنه يسأل الله الجنة، ويستعيذ به من النار "، وقال: " ما أحسن دندنتك، ولا دندنة معاذ ": قال النبي ﷺ: (حولها ندندن)، فهذا سيد الأولين والآخرين يقول هذه المقالة، فمن اعتقد خلاف ذلك: فهو جاهل، ختال.

ومن آداب أهل السنة أربعة أشياء لا بد لهم منها: الاقتداء برسول الله ﷺ، والافتقار إلى الله تعالى، والاستغاثة بالله، والصبر على ذلك إلى الممات، كذا قال سهل بن عبد الله التستري، وهو كلام حق ا.هـ

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية في مجموع الفتاوى" (١٠/ ٢٤١): كل ما أعده الله لأوليائه: فهو من الجنة، والنظر إليه هو من الجنة، ولهذا كان أفضل الخلق يسأل الله الجنة، ويستعيذ به من النار، ولما سأل بعض أصحابه عما يقول في صلاته، قال: " إني أسأل الله الجنة، وأعوذ بالله من النار، أما إني لا أحسن دندنتك، ولا

=

=

دندنة معاذ "، فقال: (حولها ندندن) ا. هـ

٧ - من أراد أن يعبد الله تعالى بالمحبة وحدها دون الخوف والرجاء: فدينه في خطر، وهو مبتدع أشد الابتداع، وقد يصل به الحال أن يخرج من ملة الإسلام، وبعض كبار الزنادقة يقول: إننا نعبد الله محبة له، ولو كان مصيرنا الخلود في النار!!، ويعتقد بعضهم أنه بالمحبة فقط ينال رضا الله ورضوانه، وهو يشابه بذلك عقيدة اليهود والنصارى، حيث قال تعالى عنهم: (وقالت اليهود والنصارى نحن أبناء الله وأحباؤه قل فلم يعذبكم بذنوبكم بل أنتم بشر ممن خلق يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء ولله ملك السماوات والأرض وما بينهما وإليه المصير) المائدة/ ١٨.

قال تقي الدين السبكي في فتاواه (٢/ ٥٦٠): وأما هذا الشخص الذي جرد وصف المحبة، وعبد الله بها وحدها: فقد ربا بجهله على هذا، واعتقد أن له منزلة عند الله رفعته عن حضيض العبودية، وضآلتها، وحقارة نفسه الخسيسة، وذلتها، إلى أوج المحبة، كأنه آمن على نفسه، وآخذ عهدا من ربه أنه من المقربين، فضلا عن أصحاب اليمين، كلا بل هو في أسفل السافلين.

فالواجب على العبد: سلوك الأدب مع الله، وتضاؤله بين يديه، واحتقاره نفسه، واستصغاره إياها، والخوف من عذاب الله، وعدم الأمن من مكر الله، ورجاء فضل الله، واستعانته به، واستعانته على نفسه، ويقول بعد اجتهاده في العبادة: " ما عبدناك حق عبادتك "، ويعترف بالتقصير، ويستغفر عقيب الصلوات، إشارة إلى ما حصل منه من التقصير في العبادة، وفي الأسحار، إشارة إلى ما حصل منه من التقصير، وقد قام طول الليل، فكيف من لم يقم؟! ا.هـ

وقال القرطبي في تفسيره (٧/ ٢٢٧): (وادعوه خوفا وطمعا) أمر بأن يكون الإنسان في حالة ترقب، وتخوف، وتأميل لله ﷻ، حتى يكون الرجاء والخوف

=

=

للإنسان كالجناحين للطائر، يحملانه في طريق استقامته، وإن انفرد أحدهما: هلك الإنسان، قال الله تعالى: (نبئ عبادي أني أنا الغفور الرحيم. وأن عذابي هو العذاب الأليم) (الحجر/ ٤٩، ٥٠).

وقال العلامة الألباني في الضعيفة (٢/ ٤٢٥ - ٤٢٧): تحت حديث (بكى شعيب النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- من حب الله ﷻ حتى عمي، فرد الله إليه بصره، وأو حى إليه: يا شعيب ما هذا البكاء؟! أشوقًا إلى الجنة أم خوفًا من النار؟ قال: إلهي وسيدي أنت تعلم ما أبكي شوقا إلى جنتك ولا خوفا من النار، ولكني اعتقدت حبك بقلبي، فإذا أنا نظرت إليك فما أبالي ما الذي صنع بي، فأو حى الله ﷻ إليه: يا شعيب إن يك ذلك حقا فهنيئا لك لقائي يا شعيب! ولذلك أخدمتك موسى بن عمران كليمي) ضعيف جدًّا، ومما ينكر في هذا الحديث قوله: " ما أبكي شوقًا إلى جنتك، ولا خوفًا من النار "! فإنها فلسفة صوفية، اشتهرت بها رابعة العدوية، إن صح ذلك عنها، فقد ذكروا أنها كانت تقول في مناجاتها: " رب! ما عبدتك طمعا في جنتك ولا خوفا من نارك". وهذا كلام لا يصدر إلا ممن لم يعرف الله تبارك وتعالى حق معرفته، ولا شعر بعظمته وجلاله، ولا بجوده وكرمه، وإلا لتعبده طمعًا فيما عنده من نعيم مقيم، ومن ذلك رؤيته تبارك وتعالى وخوفًا مما أعده للعصاة والكفار من الجحيم والعذاب الأليم، ومن ذلك حرمانهم النظر إليه كما قال: {كَلاَّ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ}، ولذلك كان الأنبياء عليهم الصلاة والسلام - وهم العارفون بالله حقًّا - لا يناجونه بمثل هذه الكلمة الخيالية، بل يعبدونه طمعًا في جنته - وكيف لا وفيها أعلى ما تسمو إليه النفس المؤمنة، وهو النظر إليه سبحانه، ورهبة من ناره، ولم لا وذلك يستلزم حرمانهم من ذلك، ولهذا قال تعالى بعد ذكر نخبة من الأنبياء: " إنهم كانوا يسارعون في الخيرات ويدعوننا رغبا ورهبا وكانوا لنا خاشعين "، ولذلك كان نبينا محمد -

=

=

صلى الله عليه وآله وسلم- أخشى الناس لله، كما ثبت في غير ما حديث صحيح عنه. هذه كلمة سريعة حول تلك الجملة العدوية، التي افتتن بها كثير من الخاصة فضلًا عن العامة، وهي في الواقع {كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاء}، وكنت قرأت حولها بحثا فياضًا ممتعًا في "تفسير العلامة ابن باديس " فليراجعه من شاء زيادة بيان.

المسألة السابعة عشرة: هل اسم خازن الجنة رضوان؟

ورد ذكر اسم رضوان خازن الجنة من أحاديث مرفوعة عن أبي بن كعب وأنس بن مالك وابن عباس وعبدالله بن ابي أوفى وأبي سعيد الخدري رضي الله عنهم، ولكن لا يثبت منها شي.

وفي حديث الشفاعة في الصحيحين (آتي باب الجنة يوم القيامة فأستفتح فيقول الخازن من أنت؟ فأقول: محمد، فيقول: بلى.. أمرت أن لا أفتح لأحد قبلك).

وفي حديث أبي هريرة في الصحيح: (من أنفق زوجين في سبيل الله دعاه خزنة الجنة كل خزنة باب، هلم..).

وكذلك حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (أول زُمْرَةٍ تدخل الجنة من أمتي فقراء المهاجرين يأتون يوم القيامة إلى باب الجنة ويستفتحون فيقول لهم الخَزَنَةُ أوقد حُوسِبْتُم قالوا بأي شيء نحاسب وإنما كانت أسيافُنا على عواتقنا في سبيل الله حتى مِتْنا على ذلك فيفتح لهم فيَقِيلُون فيها أربعين عامًا قبل أن يدخلها الناس) وهو في الصحيحة (٨٥٣).

هكذا جاء ذكره مبهما " الخازن" و " الخزنة " على الإفراد والجمع..

وما اشتهر من أن خازن الجنة اسمه رضوان - كما هو مشهور - غير صحيح لعدم وجود الدليل الشرعي الصحيح عليه..

وقد اشتهر هذا الأسم على ألسنة كثير من العلماء في تفاسيرهم وشروحهم لكتب

=

=

الحديث منهم:
قال الإمام ابن القيم في حادي الأرواح (١/ ٧٦): قد سمى الله سبحانه وتعالى كبير هذه الخزنة رضوان وهو اسم مشتق من الرضا وسمى خازن النار مالكا وهو اسم مشتق من الملك وهو القوة والشدة حيث تصرفت حروفه. اهـ
قال المناوي في فيض القدير (١/ ٥٠): سمي الموكل بحفظ الجنة خازنا لأنها خزانة الله تعالى أعدها لعباده، وال‍ـ فيه عهدية والمعهود رضوان، وظاهره أن الخازن واحد وهو غير مراد، بدليل خبر أبي هريرة: " من أنفق زوجين في سبيل الله دعاه خزنة الجنة كل خزنة باب هلم".
فهذا وغيره من الأحاديث صريح في تعدد الخزنة، إلا أن رضوان أعظمهم ومقدمهم، وعظيم الرسل إنما يتلقاه عظيم الحفظة.. اهـ
وقال الحافظ ابن كثير في البداية والنهاية (١/ ٥٣) عند ذكر خلق الملائكة: ومنهم الموكلون بالجنان وإعداد الكرامة لأهلها وتهيئة الضيافة لساكنيها من ملابس ومصاغ ومساكن ومآكل ومشارب وغير ذلك مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، وخازن الجنة ملك يقال له رضوان جاء مصرحا به في بعض الأحاديث. اهـ
وفي تفسير الرازي (٥/ ٣١٣): أن قوله تعالى: {وَسِيقَ الذين اتقوا رَبَّهُمْ إِلَى الجنة زُمَرًا} جاء على لسان رضوان خازن الجنة.
وفي تفسير اللباب لابن عادل الحنبلي (٣/ ٤٧٤): في تفسير قوله تعالى {وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ} قال: أن المكسور اسم، ومنه رِضوان: خازن الجنة صلّى الله على نبينا وعلى أنبيائه وملائكته. اهـ
وذكر الشيخ عطية سالم - رَحِمَهُ اللَّهُ - في شرح الأربعين النووية في الشفاعة الثالثة والرابعة: فيأتي ﷺ ويطرق الباب ويجيبه رضوان خازن الجنة، فيقول: أنا محمد،
=

=

فيقول: أمرت أن أبدأ بك، لا أفتح لأحد قبلك، فيدخل أهل الجنة الجنة. اهـ وهو في كتب التفسير وشروح الحديث كثير جدًا.

وقد يكون - والله أعلم - أن الأصل في هذه التسمية راجعة إلى أن الجنة دار رضا الله عن المؤمنين كما قال تعالى: (فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللهِ أَكْبَرُ ذلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ) التوبة-٧٢

وفي الصحيحين البخاري (٦٥٤٩)، مسلم (٢٨٢٩) عن أبي سعيد الخدري قال، قال رسول الله ﷺ: إن الله تبارك وتعالى يقول لأهل الجنة يا أهل الجنة فيقولون لبيك ربنا وسعديك فيقول هل رضيتم؟ فيقولون وما لنا لا نرضى وقد أعطيتنا ما لم تعط أحدًا من خلقك، فيقول أنا أعطيكم أفضل من ذلك، قالوا يا رب وأي شيء أفضل من ذلك؟ فيقول أحل عليكم رضواني فلا أسخط عليكم بعده أبدًا).

قال المباركفوري في تحفة الأحوذي شرح الترمذي: رضواني: أي دوام رضواني.. فإنه لا يلزم من كثرة العطاء دوام الرضا ولذا قال: فلا أسخط عليكم أبدًا.. أي لا أغضب.

وقال الطيبي: الحديث مأخوذ من قوله تعالى: {وَعَدَ اللّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ} التوبة-٧٢.

وقال الحافظ: فيه تلميح بقوله تعالى " وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللّهِ أَكْبَرُ " لأن رضاه سبب كل فوز وسعادة وكل من علم أن سيده راض عنه كان أقر لعينه وأطيب لقلبه من كل نعيم لما في ذلك من التعظيم والتكريم ا.هـ

فإن قيل: إذا جمعنا الأحاديث الضعيفة فيه مع ما اشتهر عن كثير من السلف، نقول بالاحتمال لأنه دلالة على أن له أصلا، فالأمر في الأسماء هين..

قيل: هذه المسألة من المسائل الغيبية والتي لا يقال فيها بالرأي، وإنما إذا صح

=

=

النص فيه فلا عدول عنه، وهو هنا معدوم الصحة بل والحسن، وما وجد فإنما هو أحاديث ضعيفة غير ثابتة أو موضوعة..

فالصحيح أن ينسب كما جاء به الحديث الصحيح فيقال: خازن الجنة أو خزنتها، كما يقال ملك الموت لأنه لم يتعين اسمه كذلك في دليل صحيح.

وسئل علماء اللجنة الدائمة (٢٨/ ٣٥٣): هل رضوان خازن الجنة وأين ورد اسمه ؟.

فأجابوا: المشهور عند العلماء أن اسم خازن الجنة رضوان، وجاء ذكره في بعض الأحاديث التي في ثبوتها نظر. والله أعلم ا.هـ

وسئل العلامة العثيمين كما في لقاءات الباب المفتوح رقم ٩٩، عام (١٤١٦هـ): هل ورد على أن اسم خازن الجنة رضوان؟

فأجاب: اشتهرت به الآثار أن اسمه رضوان، لكنني لا أعرف فيه حديثًا صحيحًا عن الرسول عليه الصلاة والسلام. السائل: وإسرافيل؟ الشيخ: إسرافيل صحيح. السائل: في دعاء استفتاح الليل.

الشيخ: إي نعم، في دعاء استفتاح الليل: (اللهم رب جبرائيل وميكائيل وإسرافيل).

المسألة الثامنة عشرة: ذكر بعص صفات النار.

* سعة النار وبعد قعرها.

وأما قعرها وعمقها فعن خالد بن عمير قال: (خطب عتبة بن غزوان فقال: إنه ذكر لنا أن الحجر يلقى من شفير جهنم فيهوي فيها سبعين عامًا لا يدرك لها قعرًا والله لَتُملأَن أفعجبتم.) رواه مسلم موقوفًا هكذا، وكذا خرجه الإمام أحمد موقوفًا، وخرجه أيضًا مرفوعًا. قال الحافظ ابن رجب في التخويف من النار: والموقوف أصح.

=

=

وخرج الترمذي عن عتبة بن غزوان أنه قال على منبر البصرة عن النبي ﷺ قال: (إن الصخرة العظيمة لتلقى من شفير جهنم فتهوي فيها سبعين وما تقض إلى قرارها).

قال: وكان عمر رضي الله عنه يقول: (أكثروا ذكر النار، فإن حرها شديد، وإن قعرها بعيد، وإن مقامعها من حديد).

قال الترمذي: (رواه الحسن عن عتبة ولا نعرف للحسن سماعًا من عتبة بن غزوان).

وفي مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: (كنا عند رسول الله ﷺ يومًا فسمعنا وجبة، فقال النبي ﷺ: أتدرون ما هذا؟ قلنا: الله ورسوله أعلم. قال: هذا حجر أرسل في جهنم منذ سبعين خريفًا).

وخرج ابن حبان في صحيحه عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: (لو أن حجرًا قذف به في نار جهنم لهوى فيها سبعين خريفًا قبل أن يبلغ قعرها) .

وأخرج ابن المبارك عن أبي أمامة رضي الله عنه قال: (إن ما بين شفير جهنم مسيرة سبعين خريفًا من حجر يهوي أو صخرة تهوي عظمها كعشر عشراوات أي: نوق عشارية عظام سمان فقال له رجل تحت ذلك شيء يا أبا أمامة؟ قال: نعم غي وآثام).

قال الحافظ في التخويف (ص٧٤): (وقد روي هذا مرفوعًا بإسناد فيه ضعف وزاد فيه: (قيل وما غي وما آثام قال: بئران يسيل فيهما صديد أهل النار وهما اللتان ذكرهما الله في كتابه فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا [مريم: ٥٩] وفي الفرقان يَلْقَ أَثَامًا [الفرقان: ٦٨].).

قال الحافظ: (والموقوف أصح).

وأخرج الإمام أحمد عن عبد الله عنه ﷺ قال: (ما من حكم يحكم بين الناس إلا حبس يوم القيامة وملك آخذ بقفاه حتى يقفه على شفير جهنم، ثم يرفع رأسه إلى

=

=

الله ﷻ فإذا قال: ألقه، ألقاه في مهوي أربعين خريفًا).

وفي التخويف للحافظ بسند فيه عبد الله بن الوليد الرصافي لا يحفظ الحديث - وكان شيخًا صالحًا - أن أبا ذر رضي الله عنه قال لعمر رضي الله عنه (سمعت رسول الله ﷺ يقول: يجاء بالوالي يوم القيامة فينبذ على جسر جهنم فيرتج به الجسر ارتجاجة لا يبقي منه مفصل إلا زال عن مكانه، فإن كان مطيعًا لله في عمله مضى به، وإن كان عاصيًا لله في عمله انخرق به الجسر فهوى في جهنم مقدار خمسين عامًا. فقال له عمر رضي الله عنه: من يطلب العمل بعد هذا؟ قال أبو ذر رضي الله عنه: من سلت الله أنفه، وألصق خده بالتراب، فجاء أبو الدرداء فقال له عمر: يا أبا الدرداء هل سمعت رسول الله ﷺ؟ حدثنا بحديث حدثني به أبو ذر، قال: فأخبره أن مع الخمسين خمسين عاما يهوي أو نحو هذا).

.... وفي الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله قال: قال النبي ﷺ: (إن العبد ليتكلم بالكلمة ما يتبين ما فيها يهوي بها في النار) وفي لفظ (يزل بها في النار أبعد ما بين المشرق والمغرب).

وأخرج الإمام أحمد والترمذي عنه أن رسول الله ﷺ قال: (إن الرجل ليتكلم بالكلمة لا يرى بها بأسًا يهوي بها في النار سبعين خريفًا).

وخرجه ابن ماجه وكذا البزار بنحوه عن ابن مسعود رضي الله عنه. هذا عمقها.

وأما سعتها فروى مجاهد عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: (أتدرون ما سعة جهنم؟ قلنا: لا، قال: أجل والله ما تدرون، ما بين شحمة أذن أحدهم وعاتقه مسيرة سبعين خريفًا، تجري فيه أودية القيح والصديد والدم، قلنا: أنهار؟ قال: لا بل أودية، ثم قال: أتدرون ما سعة جهنم؟ قلنا: لا، قال: حدثتني عائشة رضي الله عنها أنها سألت رسول الله ﷺ عن قوله تعالى: وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّماوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ [الزمر: ٦٧] فأين الناس يومئذ؟ قال: على جسر

=

=

جهنم) روه الإمام أحمد.

وخرج النسائي والترمذي منه المرفوع وصححه الترمذي وخرجه الحاكم وقال: صحيح الإسناد.

* سجر جهنم وتسعرها.

روى أبو هريرة عن النبي ﷺ قال: (لما خلق الله النار أرسل إليها جبريل قال له: اذهب فانظر إليها وإلى ما أعددت لأهلها، قال: فنظر إليها فإذا هي يركب بعضها بعضًا، فرجع فقال: وعزتك لا يدخلها أحد سمع بها، فأمر بها فحفت بالشهوات، ثم قال له: اذهب فانظر إلى ما أعددت لأهلها فيها، فذهب فنظر إليها ورجع فقال: وعزتك لقد خشيت أن لا ينجو منها أحد إلا دخلها) خرجه الإمام أحمد وأبو داود والترمذي.

وفي حديث سمرة بن جندب رضي الله عنه عن النبي ﷺ: (إن ملكين أتياه في المنام فذكر رؤيا طويلة وفيها: قال: انطلقت، فأتينا على رجل كريه المرآة، كأكره ما أنت راء، فإذا هو عند نار يحشها ويسعى حولها قال: قلت: ما هذا؟ قالا لي: انطلق) وفي آخر الحديث: (قالا: فأما الرجل الكريه المرآة الذي عند النار يحشها ويسعى حولها فإنه مالك خازن جهنم) وقد خرجه البخاري بتمامه، وخرج مسلم أوله ولم يتمه.

وقوله: (كريه المرآة) أي المنظر، وقوله: (يحشها) أي يوقدها.

وروى هذا الحديث أبو خلدة عن أبي رجاء عن سمرة بن جندب عن النبي ﷺ فذكر الحديث بطوله، وفي حديثه قال: (فرأيت شجرة لو اجتمع تحتها خلق كثير لأظلتهم، وتحتها رجلان أحدهما يوقد نارًا والآخر يحتطب الحطب) وفي آخر الحديث: (قلت: فالرجلان اللذان رأيت تحت الشجرة، قال: ذلك ملكان من جهنم يحمون جهنم لأعداء الله إلى يوم القيامة) ...

=

=

وجهنم تسجر كل يوم نصف النهار، وفي (صحيح مسلم) عن عمرو بن عبسة عن النبي ﷺ قال: (صلِّ صلاة الصبح ثم أقصر عن الصلاة حتى تطلع الشمس وترتفع، فإنها تطلع بين قرني شيطان، وحينئذ يسجد لها الكفار، ثم صل فإن الصلاة مشهودة (محظورة) حتى يستقل الظل بالرمح، ثم أقصر عن الصلاة فإنه حينئذ تسجر جهنم، فإذا أقبل الفيء فصل) وذكر بقية الحديث.

وقد روي هذا المعنى عن النبي ﷺ من غير وجه من حديث أبي أمامة وغيره.

وفي حديث صفوان بن المعطل عن النبي ﷺ: (إذا طلعت الشمس فصل حتى تعتدل على رأسك مثل المرح، فإذا اعتدلت على رأسك فإن تلك الساعة تسخر فيها جهنم وتفتح فيها أبوابها، حتى تزول عن حاجبك الأيمن) خرجه عبدالله بن الإمام أحمد.

وفي حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ: (فإذا انتصف النهار فأقصر عن الصلاة حتى تميل الشمس، فإنها حيئنذ تسعر جهنم، وشدة الحر من فيح جهنم).

وروى أبو بكر بن عياش عن عاصم عن زر عن عبدالله بن مسعود قال: (أن الشمس تطلع بين قرني شيطان، أو في قرني شيطان، فما ترتفع قصمة في السماء إلا فتح لها باب من أبواب النار، فإذا كانت الظهيرة فتحت أبواب النار كلها، فكنا ننهى عن الصلاة عند طلوع الشمس، وعند غروبها، ونصف النهار) خرجه يعقوب بن شيبة ورواه الإمام أحمد عن أبي بكر بن عياش أيضًا.

عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: (إذا اشتد الحر فأبردوا بالصلاة، فإن شدة الحر من فيح جهنم) وفي رواية خرجها أبو نعيم: (من فيح جهنم) أو (من فيح أبواب جهنم).

* النار تتكلم وتبصر.

الذي يقرأ النصوص من الكتاب والسنة التي تصف النار يجدها مخلوقًا يبصر،

=

=

ويتكلم، ويشتكي، ففي الكتاب العزيز أن النار ترى أهلها وهم قادمون إليها من بعيد، فعند ذلك تطلق الأصوات المرعبة الدالة على مدى حنقها وغيظها على هؤلاء المجرمين، قال تعالى: إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا [الفرقان: ١٢]. وروى ابن جرير عن ابن عباس قال: (إن الرجل ليجر إلى النار، فتنزوي وينقبض بعضها إلى بعض، فيقول لها الرحمن: مالك؟ فتقول: إنه يستجير مني، فيقول: أرسلوا عبدي. وإن الرجل ليجر إلى النار فيقول: يا رب ما كان هذا الظن بك، فيقول: ما كان ظنك؟ فيقول: أن تسعني رحمتك، فيقول: أرسلوا عبدي. وإن الرجل إلى النار، فتشهق إليه النار شهوق البغلة إلى الشعير، وتزفر زفرة لا يبقى أحد إلا خاف) وقد خرج الإمام أحمد والترمذي من حديث الأعمش عن أبي صالح عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ قال: (يخرج يوم القيامة عنق من النار، لها عينان تبصران، وأذنان تسمعان، ولسان ينطق، تقول: إني وُكّلت بثلاثة: بكل جبار عنيد، وبكل من دعا مع الله إلها آخر، وبالمصورين).

* طعام أهل النار وشرابهم ولباسهم.

إن طعام أهل النار هوالضريع والزقوم، وشرابهم الحميم والغسلين والغساق، قال تعالى: لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلاَّ مِن ضَرِيعٍ لا يُسْمِنُ وَلا يُغْنِي مِن جُوعٍ [الغاشية: ٦ - ٧]، والضريع شوك بأرض الحجاز يقال له الشبرق. وعن ابن عباس: الشبرق: نبت ذو شوك لاطئ بالأرض، فإذا هاج سمي ضريعًا. وقال قتادة: من أضرع الطعام وأبشعه. وهذا الطعام الذي يأكله أهل النار لا يفيدهم، فلا يجدون لذة، ولا تنتفع به أجسادهم، فأكلهم له نوع من أنواع العذاب. وقال تعالى: إِنَّ شَجَرَةَ الزَّقُّومِ طَعَامُ الأَثِيمِ كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ كَغَلْيِ الْحَمِيمِ [الدخان: ٤٣ - ٤٦] وقد وصف شجرة الزقوم في آية أخرى فقال: أَذَلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ إِنا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِّلظالِمِينَ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُؤُوسُ

=

=

الشَّيَاطِينِ فَإِنَّهُمْ لَآكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِؤُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى الْجَحِيمِ [الصافات: ٦٢ - ٦٨]. وقال في موضع آخر: ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ لَآكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ فَمَالِؤُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ فَشَارِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ فَشَارِبُونَ شُرْبَ الْهِيمِ هَذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ الدِّينِ [الواقعة: ٥١ - ٥٦]. ويؤخذ من هذه الآيات أن هذه الشجرة شجرة خبيثة، جذورها تضرب في قعر النار، وفروعها تمتد في أرجائها، وثمر هذه الشجرة قبيح المنظر ولذلك شبهه برؤوس الشياطين، وقد استقر في النفوس قبح رؤوسهم وإن كانوا لا يرونهم، ومع خبث هذه الشجرة وخبث طلعها، إلا أن أهل النار يلقى عليهم الجوع بحيث لا يجدون مفرًا من الأكل منها إلى درجة ملء البطون، فإذا امتلأت بطونهم أخذت تغلي في أجوافهم كما يغلي دردي الزيت، فيجدون لذلك آلامًا مبرحة، فإذا بلغت الحال بهم هذا المبلغ اندفعوا إلى الحميم، وهو الماء الحار الذي تناهى حره، فشربوا منه كشرب الإبل التي تشرب وتشرب ولا تروى لمرض أصابها، وعند ذلك يقطع الحميم أمعاءهم وَسُقُوا مَاء حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءهُمْ [محمد: ١٥]. هذه هي ضيافتهم في ذلك اليوم العظيم، أعاذنا الله من حال أهل النار بمنه وكرمه. وإذا أكل أهل النار هذا الطعام الخبيث من الضريع والزقوم غصوا به لقبحه وخبثه وفساده إِنَّ لَدَيْنَا أَنكَالًا وَجَحِيمًا وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا [المزمل: ١٢ - ١٣]، والطعام ذو الغصة هو الذي يغص به آكله، إذ يقف في حلقه. ومن طعام أهل النار الغسلين، قال تعالى: فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هَاهُنَا حَمِيمٌ وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ لَا يَأْكُلُهُ إِلَّا الْخَاطِؤُونَ [الحاقة: ٣٥ - ٣٧]، وقال تعالى: هَذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ وَآخَرُ مِن شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ [ص: ٥٧ - ٥٨]. والغسلين والغساق بمعنى واحد، وهو ما سال من جلود أهل النار من القيح والصديد، وقيل: ما يسيل من فروج النساء الزواني ومن نتن لحوم الكفرة وجلودهم، وقال

=

=

القرطبي: هو عصارة أهل النار. وقد أخبر الحق أن الغسلين واحد من أنواع كثيرة تشبه هذا النوع في فظاعته وشناعته.

أما شرابهم فهو الحميم، قال تعالى: وَسُقُوا مَاء حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءهُمْ [محمد: ١٥]، وقال: وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاء فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاء فَلْيَكْفُرْ إِنا أَعْتَدْنَا لِلظالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاء كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءتْ مُرْتَفَقًا [الكهف: ٢٩]، وقال: وَيُسْقَى مِن ماء صَدِيدٍ يَتَجَرَّعُهُ وَلاَ يَكَادُ يُسِيغُهُ [إبراهيم:١٦ - ١٧]، وقال: هَذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَساقٌ [ص: ٥٧].

وقد ذكرت هذه الآيات أربعة أنواع من شراب أهل النار:

الأول: الحميم، وهو الماء الحار الذي تناهي حره، كما قال تعالى: يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ آنٍ [الرحمن: ٤٤]، والـ(آن): هو الذي انتهى حره، وقال: تُسْقَى مِنْ عَيْنٍ آنِيَةٍ [الغاشية:٥]، وهي التي انتهى حرها فليس بعدها حر.

النوع الثاني: الغساق...

النوع الثالث: الصديد، وهو ما يسيل من لحم الكافر وجلده، وفي (صحيح مسلم) عن جابر عن النبي ﷺ قال: (إن على الله عهدًا لمن شرب المسكرات ليسقيه طينة الخبال. قالوا: يا رسول الله، وما طينة الخبال؟ قال: عرق أهل النار، أو عصارة أهل النار).

الرابع: المهل وقال ابن عباس: في تفسير المهل: (غليظ كدردي الزيت). الجنة والنار لعمر بن سليمان الأشقر- ص٨٧

وأما لباس أهل النار فقد أخبرنا الحق تبارك وتعالى أنه يُفصّل لأهل النار حلل من النار، كما قال تعالى: فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُؤُوسِهِمُ الْحَمِيمُ [الحج: ١٩]. وكان إبراهيم التيمي إذا تلا هذه الآية يقول:

=

وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّى إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ (١٦).

{وَمِنْهُمْ} أَيْ الْكُفَّار {مَنْ يَسْتَمِع إِلَيْك} فِي خُطْبَة الْجُمُعَة وَهُمْ الْمُنَافِقُونَ {حَتَّى إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدك قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْم} لِعُلَمَاء الصحابة منهم بن مسعود وبن عَبَّاس اسْتِهْزَاء وَسُخْرِيَّة {مَاذَا قَالَ آنِفًا} بِالْمَدِّ وَالْقَصْر أَيْ السَّاعَة أَيْ لَا نَرْجِع إِلَيْهِ {أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ الله عَلَى قُلُوبهمْ} بِالْكُفْرِ {وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ} فِي النِّفَاق.

وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ (١٧).

{وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا} وَهُمْ الْمُؤْمِنُونَ {زَادَهُمْ} الله {هُدَى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ} أَلْهَمَهُمْ مَا يَتَّقُونَ بِهِ النَّار[1].

=

سبحان من خلق من النار ثيابًا. وقال تعالى: وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِي الأَصْفَادِ سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَى وُجُوهَهُمُ النارُ [إبراهيم: ٤٨ - ٤٩]. والقطران: هو النحاس المذاب. وفي (صحيح مسلم) عن أبي مالك الأشعري عن النبي ﷺ قال: (النائحة إذا لم تتب قبل موتها، تقام يوم القيامة، وعليها سربال من قطران ودرع من جرب). وخرجه ابن ماجه ولفظه: (النائحة إذا ماتت ولم تتب قطع الله لها ثيابًا من قطران ودرعًا من جرب).

(١) ذكر سبب النزول.

عن ابن جريج؛ قال: كان المؤمنون والمنافقون يجتمعون إلى النبي ﷺ؛ فيستمع المؤمنون منه ما يقول ويعونه، ويسمعه المنافقون فلا يعونه، فإذا خرجوا؛ سألوا المؤمنين ماذا قال آنفًا؟ فنزلت: {وَمِنْهُم مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ}.

ذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٧/ ٤٦٦)، و"لباب النقول" (ص ١٩٣)

=

=

ونسبه لابن المنذر.

وسنده ضعيف؛ لإعضاله.

* قوله تعالى: (وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ) يقول تعالى مخبراً عن المنافقين في بلادتهم وقلة فهمهم، حيث كانوا يجلسون إلى رسول الله ﷺ ويستمعون كلامه ولا يفهمون منه شيئًا.

(حَتَّى إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ) أي: إذا خرجوا من مجلس النبي ﷺ.

(قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ) أي: قالوا لعلماء الصحابة.

(مَاذَا قَالَ آنِفًا) أي: الساعة، لا يعقلون ما يقال، ولا يكترثون له، قال الله فيهم: (أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ) أي: أن الله ختم على قلوب هؤلاء وطبع عليها، بحيث لا يخرج منها شر ولا يدخل إليها خير، كالقارورة إذا ختمتها وطبعت عليها، لا يخرج شيء مما فيها، ولا يصب إليها شيء آخر.

قوله تعالى: {وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ} [محمد: ١٦]، أي:" ومن هؤلاء المنافقين مَن يستمع إليك -أيها النبي- بغير فهم؛ تهاونًا منهم واستخفافًا".

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره: ومن هؤلاء الكفار يا محمد {مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ} وهو المنافق، فيستمع ما تقول فلا يعيه ولا يفهمه، تهاونا منه بما تتلو عليه من كتاب ربك، تغافلا عما تقوله، وتدعو إليه من الإيمان".

قال ابن أبي زمنين:" يعني: المنافقين، كانوا يأتون النبي ﷺ يستمعون حديثه من غير حسبة ولا يفقهون حديثه".

قال الثعلبي:" هم المنافقون يستمعون قولك، فلا يعونه، ولا يفهمونه تهاونا منهم بذلك، وتغافلا".

عن مجاهد، قوله:" {وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ} [الأنعام: ٢٥] يعني: «قريشا»".

قال قتادة:" هم المنافقون".

=

=

قال القشيري:" هم المنافقون الذين كرهوا ما أنزل الله لما فيه من افتضاحهم".

قال ابن كثير:" يقول تعالى مخبرا عن المنافقين في بلادتهم وقلة فهمهم حيث كانوا يجلسون إلى رسول الله ﷺ ويستمعون كلامه ولا يفهمون منه شيئا".

قال مقاتل:" يعني: من المنافقين.. منهم رفاعة بن زيد، والحارث بن عمرو، وحليف بن زهرة، وذلك أن النبي ﷺ خطب يوم الجمعة، فعاب المنافقين وكانوا في المسجد، فكظموا عند النبي ﷺ".

قوله تعالى: {حَتَّى إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا} [محمد: ١٦]، أي:" حتى إذا انصرفوا من مجلسك قالوا لمن حضروا مجلسك من أهل العلم بكتاب الله -على سبيل الاستهزاء-: ماذا قال محمد الآن؟".

قال الطبري: يقول " {حَتَّى إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ} قالوا إعلاما منهم لمن حضر معهم مجلسك من أهل العلم بكتاب الله، وتلاوتك عليهم ما تلوت، وقيلك لهم ما قلت إنهم لن يصغوا أسماعهم لقولك وتلاوتك {مَاذَا قَالَ} لنا محمد {آنِفًا} ؟".

قال الزجاج:" كانُوا يَسْمُعونَ خطبة النبي ﷺ فإذا خرجوا سألوا أصحاب رسول الله استهزاء وإعلامًا أنهم لم يلتفتوا إلى ما قال، فقالوا: {مَاذَا قَالَ آنِفًا}، أي: ماذا قال الساعة، ومعنى: {آنفًا}، من قولك: استأنَفْتُ الشيء إذا ابْتَدَأْتُه، ورَوْضَة أُنُفٌ، إذَا لَمْ تُرْعَ بَعْدُ، أي لها أولُ يُرعَىْ، فالمعنى: ماذا قال من أول وَقْتٍ يَقْرُب مِنَّا".

قال ابن أبي زمنين:" فإذا خرجوا من عنده قالوا لعبد الله بن مسعود: ماذا قال محمد آنفا؟ لم يفقهوا ما قال النبي".

قال ابن كثير:" فإذا خرجوا من عنده {قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ} من الصحابة: {مَاذَا قَالَ آنِفًا}، أي: الساعة، لا يعقلون ما يقال، ولا يكترثون له".

=

=

قال قتادة:" هؤلاء المنافقون، دخل رجلان: رجل ممن عقل عن الله وانتفع بما سمع ورجل لم يعقل عن الله، فلم ينتفع بما سمع، كان يقال: الناس ثلاثة: فسامع عامل، وسامع غافل، وسامع تارك".

قال ابن زيد:" هؤلاء المنافقون، والذين أوتوا العلم: الصحابة رضي الله عنهم".

قال ابن عباس: "أنا منهم، وقد سئلت فيمن سئل".

عن ابن بُرَيدة -من طريق صالح بن حيّان-:" {قالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا العِلْمَ ماذا قالَ آنِفًا}: هو عبد الله بن مسعود".

عن القاسم بن عبد الرحمن -من طريق مسعر- قال: "كان أبو الدّرداء مِن الذين أُوتوا العلم".

قال مقاتل:" {أُوتُوا الْعِلْمَ}: وهو الهدى، يعني: القرآن، يعني: عبد الله ابن مسعود الهذلي".

قوله تعالى: {أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ} [محمد: ١٦]، أي:" أولئك الذين ختم الله على قلوبهم، فلا تفقه الحق ولا تهتدي إليه".

قال الطبري: يقول:" هؤلاء الذين هذه صفتهم هم القوم الذين ختم الله على قلوبهم، فهم لا يهتدون للحقّ الذي بعث الله به رسوله عليه الصلاة والسلام".

قال مقاتل:" يعني: ختم الله على قلوبهم بالكفر فلا يعقلون الإيمان".

قال السمعاني:" أَي: ختم الله على قُلُوبهم، وَلم يهدهم لقبُول قَول رَسُوله".

وَقَالَ ابْن الْأَعرَابِي: الْخَتْم على الْقلب من فهم الْقَوْل".

عن أبي مالك: "ختم الله، يعني: طبع الله".

قوله تعالى: {وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ} [محمد: ١٦]، أي:" واتبعوا أهواءهم في الكفر والضلال".

قال الطبري:" يقول: ورفضوا أمر الله، واتبعوا ما دعتهم إليه أنفسهم، فهم لا

=

=

يرجعون مما هم عليه إلى حقيقة ولا برهان، وسوّى جلّ ثناؤه بين صفة هؤلاء المنافقين وبين المشركين، في أن جميعهم إنما يتبعون فيما هم عليه من فراقهم دين الله، الذي ابتعث به محمدا ﷺ أهواءهم، فقال في هؤلاء المنافقين: {أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ} وقال في أهل الكفر به من أهل الشرك، {كَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ}".

قال ابن كثير:" أي: فلا فهم صحيح، ولا قصد صحيح".

قال السمعاني:" المراد من الآية وفائدتها: هو منع المسلمين أن يكونوا مثل هؤلاء، وبيان حالهم للمؤمنين".

قال الشعبي:" إنّما سُمي: الهوى؛ لأنه يهوِي بصاحبه في النار".

(وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا) أي: قصدوا الهداية وفقهم الله لها فهداهم لها وثبتهم عليها.

(زَادَهُمْ هُدىً) أي: زادهم هدى وإيمانًا.

(وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ) أي: ألهمهم رشدهم.

- فالعبد إذا آمن بالكتاب واهتدى به مجملًا وقبِل أوامره وصدق بأخباره، كان ذلك سببًا لهداية أخرى تحصل له على التفصيل، فإن الهداية لا نهاية لها ولو بلغ العبد فيها ما بلغ، فكلما اتقى العبد ربه ارتقى إلى هداية أخرى، فهو في مزيد هداية ما دام في مزيد من التقوى.

قال تعالى (إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ) فهداهم أولًا للإيمان، فلما آمنوا هداهم للإيمان هداية بعد هداية، ونظير هذا قوله تعالى (وَيَزِيدُ اللهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدىً) وقوله تعالى (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا) ومن الفرقان ما يعطيهم من النور الذي يفرقون به بين الحق والباطل، والنصر والعز الذي يتمكنون به من إقامة الحق وكسر الباطل. [قاله ابن القيم].

قوله تعالى: {وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى} [محمد: ١٧]، أي:" والذين اهتدوا

=

=

لاتِّباع الحق زادهم الله هدى".

قال الطبري: يقول: " وأما الذين وفَّقهم الله لاتباع الحقّ، وشرح صدورهم للإيمان به وبرسوله من الذين استمعوا إليك يا محمد، فإن ما تلوته عليهم، وسمعوه منك، زادهم الله بذلك إيمانا إلى إيمانهم، وبيانا لحقيقة ما جئتهم به من عند الله إلى البيان الذي كان عندهم. وقد ذُكر أن الذي تلا عليهم رسول الله ﷺ من القرآن، فقال أهل النفاق منهم لأهل الإيمان، ماذا قال آنفا، وزاد الله أهل الهدى منهم هدى، كان بعض ما أنزل الله من القرآن ينسخ بعض ما قد كان الحكم مضى به قبل".

قال ابن كثير:"أي: والذين قصدوا الهداية وفقهم الله لها فهداهم إليها، وثبتهم عليها وزادهم منها".

قال السمعاني:" أي: زادهم بيانا ورشدا، ويقال: زادهم هدى أي: العمل بالناسخ بعد العمل بالمنسوخ، ويقال: الأخذ بالعزائم بعد العمل بالرخص".

قال الزمخشري:" {زادَهُمْ الله هُدىً} بالتوفيق".

قال الثعلبي:" {وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا}، يعني: المؤمنين".

وفي قوله تعالى: {وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى} [محمد: ١٧]،، ثلاثة وجوه:

أحدها: أن الإستهزاء زاد المؤمنين هدى، قاله الفراء.

الثاني: أن القرآن زادهم هدى، قاله ابن جريج.

الثالث: أن الناسخ والمنسوخ زادهم هدى، قاله ابن عباس، وعطية.

قال مقاتل:" {وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا} من الضلالة {زَادَهُمْ هُدًى} بالمحكم الذي نسخ الأمر الأول".

قال ابن عباس:" لما أنزل الله القرآن آمنوا به، فكان هدى، فلما تبين الناسخ والمنسوخ زادهم هدى".

=

=

وفي "الهدى الذي زادهم"، خمسة أقوال:

أحدها: زادهم علما، قاله الربيع بن أنس.

الثاني: علموا ما سمعوا، وعلموا بما عملوا، قاله الضحاك.

الثالث: زادهم بصيرة في دينهم وتصديقا لنبيهم، قاله الكلبي.

الرابع: شرح صدورهم بما هم عليه من الإيمان. ذكره الماوردي.

الخامس: والذين اهتدوا بالحق زادهم هدى للحق. أفاده الماروردي.

قوله تعالى: {وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ} [محمد: ١٧]، أي:" ووفقهم للتقوى، ويسَّرها لهم".

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره: وأعطى الله هؤلاء المهتدين تقواهم، وذلك استعماله إياهم تقواهم إياه".

قال مقاتل:" يقول: وبين لهم التقوى، يعنى: عملا بالمحكم، حتى عملوا بالمحكم".

قال الثعلبي: {وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ}، يعني:" ألهمهم ذلك، ووفقهم".

قال ابن كثير:"أي: ألهمهم رشدهم".

قال الماتريدي:" أي: يوفقهم ما يتقون مخالفة أمره من بعد في المستأنف، وقَالَ بَعْضُهُمْ: أي: أعطاهم الله ثواب أعمالهم في الآخرة؛ يقول: كلما جاء من الله أمر أخذوا به، فزادهم الله - تعالى - هدى {وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ}؛ أي: أجرهم".

قال الزمخشري: أي:" أعانهم عليها. أو أتاهم جزاء تقواهم".

وقال سعيد بن جبير: "وآتاهم ثواب تقواهم".

وعن السدى: "بيّن لهم ما يتقون".

وقرئ: «وأعطاهم».

وقرأ ابن مسعود والأعمش: «وأنطاهم»، قال الماتريدي: " لغة معروفة، أنطى:

=

فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا فَأَنَّى لَهُمْ إِذَا جَاءَتْهُمْ ذِكْرَاهُمْ (١٨).

{فَهَلْ يَنْظُرُونَ} مَا يَنْتَظِرُونَ أَيْ كُفَّار مَكَّة {إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيهِمْ} بَدَل اشْتِمَال مِنْ السَّاعَة أَيْ لَيْسَ الْأَمْر إِلَّا أَنْ تَأْتِيهِمْ {بَغْتَة} فَجْأَة {فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطهَا} عَلَامَاتهَا مِنْهَا بَعْثَة النَّبِيّ ﷺ وَانْشِقَاق الْقَمَر وَالدُّخَان {فَأَنَّى لَهُمْ إِذَا جَاءَتْهُمْ} السَّاعَة {ذِكْرَاهُمْ} تُذَكِّرهُمْ أَيْ لَا يَنْفَعهُمْ.

فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَاللهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ (١٩).

{فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَه إِلَّا الله} أَيْ دُمْ يَا مُحَمَّد عَلَى عِلْمك بِذَلِكَ النَّافِع فِي الْقِيَامَة {وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبك} لِأَجْلِهِ قِيلَ لَهُ ذَلِكَ مَعَ عِصْمَته لِتَسْتَنّ بِهِ أُمَّته وَقَدْ فَعَلَهُ قَالَ ﷺ إِنِّي لأستغفر الله في كل يوم مئة مَرَّة {وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَات} فِيهِ إِكْرَام لَهُمْ بِأَمْرِ نَبِيّهمْ بِالِاسْتِغْفَارِ لَهُمْ {وَالله يَعْلَم مُتَقَلَّبكُمْ} مُتَصَرَّفكُمْ لِإِشْغَالِكُمْ فِي النَّهَار {وَمَثْوَاكُمْ} مَأْوَاكُمْ إِلَى مَضَاجِعكُمْ بِاللَّيْلِ أَيْ هُوَ عَالِم بِجَمِيعِ أَحْوَالكُمْ لَا

=

أي: أعطى، وكذلك قرأ: {إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ} [الكوثر: ١]".

عن مجاهد في قوله:" {منه آيات محكمات}، ما فيه من الحلال والحرام، وما سوى ذلك فهو "متشابه"، يصدّق بعضُه بعضًا، وهو مثل قوله: {وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلا الْفَاسِقِينَ} [سورة البقرة: ٢٦]، ومثل قوله: {كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ} [سورة الأنعام: ١٢٥]، ومثل قوله: {وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ} [سورة محمد: ١٧]".

يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْء مِنْهَا فَاحْذَرُوهُ وَالْخِطَاب لِلْمُؤْمِنِينَ وغيرهم[١].

---

(١) قوله تعالى: (فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً) أي: فهل ينتظر هؤلاء المكذبون إلا الساعة وهي القيامة أن تأتيهم فجأة وهم غارّون غافلون.

- والمراد بالساعة الوقت الذي تقوم فيه القيامة، وسميت بذلك لسرعة الحساب فيها، أو لأنها تفجأ الناس في ساعة، فيموت الخلق كلهم بصيحة واحدة.

قوله: (فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا) أي: أمارات اقترابها، كما قال تعالى (اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ). وقال تعالى (اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ) وقال تعالى (أَتَى أَمْرُ اللهِ فَلا تَسْتَعْجِلُوهُ).

- وأشراط الساعة: هي العلامات التي تدل على قرب الساعة وقيامها، وهي تنقسم إلى قسمين:

أشراط صغرى: وهي التي تتقدم الساعة بأزمان متطاولة، وتكون من نوع المعتاد.

كقبض العلم، وظهور الجهل، وشرب الخمر، والتطاول في البنيان ونحوها.

أشراط كبرى: وهي الأمور العظام التي تظهر قرب قيام الساعة، وتكون غير معتادة الوقوع.

كظهور الدجال، ونزول عيسى، وخروج يأجوج ومأجوج، وطلوع الشمس من مغربها.

(فَأَنَّى لَهُمْ إِذَا جَاءَتْهُمْ ذِكْرَاهُمْ) أي: فمن أين لهم التذكر إذا جاءتهم، حيث لا ينفع ندم ولا توبة.

أي: أن الكفار يوم القيامة إذا جاءتهم الساعة، يتذكرون ويؤمنون بالله ورسله، وأن الإيمان في ذلك الوقت لا ينفعهم لفوات وقته، فـ (ذكراهم) أي: كيف ينفعهم ذكراهم وإيمانهم بالله، وقد فات الوقت الذي يقبل فيه الإيمان.

كما قال تعالى (وَقَالُوا آمَنَّا بِهِ وَأَنَّى لَهُمُ التَّنَاوُشُ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ) أي: وقالوا عندما =

=

عاينوا العذاب آمنا بالقرآن وبالرسول، وأين لهم تناول الإيمان وهم الآن في الآخرة ومحل الإيمان في الدنيا، وقد ذهبت الدنيا فصارت منهم بمكان بعيد.
وقال تعالى (وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى).
قوله تعالى: {فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً} [محمد: ١٨]، أي:" ما ينتظر هؤلاء المكذبون إلا الساعة التي وُعدوا بها أن تجيئهم فجأةً".
قال الطبري: يقول:" فهل ينظر هؤلاء المكذّبون بآيات الله من أهل الكفر والنفاق إلا الساعة التي وعد الله خلقه بعثهم فيها من قبورهم أحياء، أن تجيئهم فجأة لا يشعرون بمجيئها".
عن مجاهد: قوله" {بغتة} :فجأة".
قال قتادة:" قد دنت الساعة ودنا من الله فراغ العباد".
قال قتادة: وذكر لنا أن نبي الله ﷺ خطب أصحابه بعد العصر حتى كادت الشمس تغرب ولم يبق منها إلا أسف أي شيء قال: "والذي نفس محمد بيده ما مثل ما مضى من الدنيا فيما بقي منها إلا مثل ما مضى من يومكم هذا فيما بقي منه وما بقي منه إلا اليسير".
قال الماتريدي:" كأن هذه الآية نزلت في قوم علم الله أنهم لا يؤمنون إلا عند قيام الساعة؛ كأنه يقول: ما ينظرون لإيمانهم إلا الساعة أن تأتيهم بغتة، لكن لا ينفعهم الإيمان في ذلك الوقت؛ كقوله: {لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ}، وقوله: {فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا}، كأنه – والله أعلم – يؤيس رسوله ﷺ عن الطمع في إيمانهم قبل ذلك الوقت".
قال الفراء:" {أن} مفتوحة في القراءة كلها، وحدثني أَبُو جَعْفَر الرؤاسي قَالَ: قلت لأبي عَمْرو بْن العلاء: ما هَذِهِ الفاء التي فى قوله: «فَقَدْ جاءَ أَشْراطُها»؟ قَالَ: جواب للجزاء. قَالَ: قلت: أَنْها {أَنْ تأتيهم} مفتوحة؟ قَالَ: فَقَالَ: مُعَاذِ الله إنَّما

=

=

هِيَ «إِنْ تَأْتِهِمْ». قَالَ الفراء: فظننت أَنَّهُ أخذها عنْ أهل مكَّة لأنَّه عليهم قَرَأَ، وهي أيضًا فِي بعض مصاحف الكوفيين: تأتهم بسينة واحدة، ولم يقرأ بها أحد منهم، وهو من المكرّر: هَلْ ينظرون إلا الساعة، هَلْ ينظرون إلا أن تأتيهم بغتة. والدليل عَلَى ذَلِكَ أن التي فِي الزخرف فِي قراءة عَبْد الله: «هَلْ يَنْظُرونَ إِلّا أنْ تَأْتيهم الساعةُ»، ومثله: «وَلَوْلا رِجالٌ مُؤْمِنُونَ وَنِساءٌ مُؤْمِناتٌ» لولا أن تطَئوهم فإن فِي موضع رفع عند الفتح، وأن في الزخرف- وهاهنا نصب مردودة عَلَى الساعة، والجزم جائز تجعل: هل ينظرون إلا الساعة مكتفيًا، ثُمَّ تبتدئ: إن تأتهم، وتجيئها بالفاء عَلَى الجزاء،، والجزم جائز".

قوله تعالى: {فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا} [محمد: ١٨]، أي:" فقد ظهرت علاماتها ولم ينتفعوا بذلك".

قال الطبري:" يقول: فقد جاء هؤلاء الكافرين بالله الساعة وأدلتها ومقدماتها".

قال ابن عباس:" يعني: أشراط الساعة".

قال ابن زيد:" أشراطها: آياتها".

قال الزجاج:" أشراطها: أعلامها".

عن قتادة:" {فقد جاء أشراطها} قال: دنت الساعة".

قال الحسن:" محمد ﷺ من أشراطها".

قال الأصمعي: ومنه: الاشتراط الذي يشترط بعض الناس على بعض إنما هي علامات بينهم، قال: هذا بيان للاشتقاق، فأما حقيقة الشرط فالخصلة الموجبة للحكم".

قال مقاتل:" يعني: أعلامها، يعني: انشقاق القمر وخروج الدجال وخروج النبي ﷺ فقد عاينوا هذا كله".

قال الماتريدي:" يحتمل ما ذكر من مجيء أشراطها هو رسول الله ﷺ؛ لأنه خاتم

=

=

الأنبياء، وبه ختمت النبوة، وروي عنه أنه قال: «بعثت أنا والساعة كهاتين»، وأشار إلى أصبعين جمع بينهما، فإن كان التأويل هذا فهو على تحقيق مجيء أشراط الساعة؛ أي: قد جاءت أشراط الساعة حقيقة وتحققت. ويحتمل أن يكون ما ذكر من مجيء أشراطها هي الأعلام والشرائط التي جعلت علمًا لقيامها؛ من نحو نزول عيسى، وخروج دابة الأرض، وخروج الدجال، وغير ذلك".

قوله تعالى: {فَأَنَّى لَهُمْ إِذَا جَاءَتْهُمْ ذِكْرَاهُمْ} [محمد: ١٨]، أي:" فمن أين لهم التذكر إذا جاءتهم الساعة؟".

قال الطبري: يقول:" فمن أيّ وجه لهؤلاء المكذّبين بآيات الله ذكرى ما قد ضيَّعوا وفرّطوا فيه من طاعة الله إذا جاءتهم الساعة، يقول: ليس ذلك بوقت ينفعهم التذكر والندم، لأنه وقت مجازاة لا وقت استعتاب ولا استعمال".

قال الزجاج:" المعنى: فمن أين لهم ذكراهم إذا جاءتهم الساعة".

قال مقاتل:" فيها تقديم، يقول: من أين لهم التذكرة والتوبة عند الساعة إذا جاءتهم وقد فرطوا فيها؟".

قال قتادة:" يقول: إذا جاءتهم الساعة أنى لهم أن يتذكروا ويعرفوا ويعقلوا؟".

قال قتادة:" أنى لهم أن يتذكروا أو يتوبوا إذا جاءتهم الساعة".

قال ابن زيد:" الساعة، لا ينفعهم عند الساعة ذكراهم".

(فَاعْلَمْ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ) العلم لابد فيه من إقرار القلب ومعرفته، بمعنى ما طلب علمه، وتمامه أن يعمل بمقتضاه، وهذا العلم الذي أمر الله به - وهو العلم بتوحيد الله - فرض عين على كل إنسان، لا يسقط عن أحد كائنًا من كان.

والطريق إلى العلم بأنه: لا إله إلا هو أمور:

أحدها: بل أعظمها تدبر أسمائه وصفاته، وأفعاله الدالة على كماله وعظمته وجلالته، فإنها توجب بذل الجهد في التأله له، والتعبد للرب الكامل الذي له كل

=

=

حمد ومجد وجلال وجمال.

الثاني: العلم بأنه تعالى المنفرد بالخلق والتدبير، فيعلم بذلك أنه المنفرد بالألوهية.

الثالث: العلم بأنه المنفرد بالنعم الظاهرة والباطنة، الدينية والدنيوية، فإن ذلك يوجب تعلق القلب به ومحبته، والتأله له وحده لا شريك له.

الرابع: ما نراه ونسمعه من الثواب لأوليائه القائمين بتوحيده من النصر والنعم العاجلة، ومن عقوبته لأعدائه المشركين به، فإن هذا داع إلى العلم بأنه تعالى وحده المستحق للعبادة كلها.

الخامس: معرفة أوصاف الأوثان والأنداد التي عبدت مع الله، واتخذت آلهة، وأنها ناقصة من جميع الوجوه، فقيرة بالذات، لا تملك لنفسها ولا لعابديها نفعًا ولا ضرًا، ولا موتًا ولا حياة ولا نشورًا، ولا ينصرون من عبدهم، ولا ينفعونهم بمثقال ذرة، من جلب نفع أو دفع شر، فإن العلم بذلك يوجب العلم بأنه لا إله إلا هو وبطلان إلاهية ما سواه.

السادس: اتفاق كتب الله على ذلك وتواطؤها عليه.

السابع: ما أقامه من الأدلة الأفقية والنفسية، التي تدل على التوحيد أعظم دلالة، وتنادي عليه بلسان حالها بما أودعها من لطائف صنعه، وبديع حكمته، وغرائب خلقه.

هذا، وإن نظرت إلى الدليل العظيم، والأمر الكبير - وهو تدبر هذا القرآن العظيم، والتأمل في آياته - فإنه الباب الأعظم إلى العلم بالتوحيد، ويحصل به من تفاصيله وجمله ما لا يحصل في غيره. [تفسير السعدي].

(وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ) أي: اطلب من الله المغفرة لذنوبك، والمغفرة: هي ستر الذنب والتجاوز عنه، كما قال تعالى (وَاسْتَغْفِرِ اللهَ إِنَّ اللهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا) وقال

=

=

سبحانه (فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا).

- والاستغفار يكون على وجهين:

الوجه الأول: طلب المغفرة بلفظ: اللهم اغفر لي، أو أستغفر الله.

الوجه الثاني: طلب المغفرة بالأعمال الصالحة التي تكون سببًا لذلك.

- وقد استجاب النبي ﷺ لأمر ربه فأكثر من الاستغفار.

قال ﷺ (إني لأستغفر الله في اليوم مائة مرة) رواه مسلم.

وقال ﷺ (والله إني لأستغفر الله وأتوب إليه في اليوم أكثر من سبعين مرة) رواه البخاري.

- الحكمة من استغفار النبي ﷺ مع أنه مغفور له:

أولًا: أنه قد يقع منه الذنب إلا ذنبًا ينافي مقتضى الرسالة مثل الخيانة والكذب وما أشبه ذلك.

ثانيًا: لتقتدي به الأمة.

ثالثًا: تحقيقًا للعبودية.

(وَ) استغفر أيضًا.

(لِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ) فإنهم - بسبب إيمانهم - كان لهم حق على كل مسلم ومسلمة الأحياء منهم والأموات.

(وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ) أي: يعلم تصرفكم في نهاركم، ومستقركم في ليلكم كقوله تعالى (وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُمْ بِالنَّهَارِ) واختار هذا ابن جرير وابن كثير.

وقيل: (مُتَقَلَّبَكُمْ) في الدنيا، (وَمَثْوَاكُمْ) في قبوركم، وقيل: (مُتَقَلَّبَكُمْ) في أصلاب الآباء إلى أرحام الأمهات (وَمَثْوَاكُمْ) مقامكم في الأرض.

قوله تعالى: {فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ} [محمد: ١٩]، أي:" فاعلم -أيها النبي- أنه

=

=

لا معبود بحق إلا الله".

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: فاعلم يا محمد أنه لا معبود تنبغي أو تصلح له الألوهة، ويجوز لك وللخلق عبادته، إلا الله الذي هو خالق الخلق، ومالك كل شيء، يدين له بالربوبية كل ما دونه".

قال الواحدي:" أَيْ: فاثبت على ذلك من علمك".

قال كعب:" لا إله إلا الله، كلمة الإخلاص".

قال محمد بن إسحاق: "لا إله إلا الله، أي: ليس معه غيره شريك في أمره".

قال الزجاج:" هذه «الفاء» جاءت للجزاء، المعنى: قد بَيَّنَا مَا يَدل على أنَّ الله وَاحِدٌ فأعلم الله أنه لا إِله إلا الله، والنبي عليه السلام قد علم ذلك ولكنه خطاب يدخل الناس فيه مع النبي ﷺ،

كما قال الله ﷻ: {يَا أيها النبي إذا طلقتم النساء}، والمعنى من عَلِمَ فليقم على ذلك العلم، كما قال: {اهْدِنَا الصِرَاطَ المسْتقيم}، أي: ثبتنا على الهداية".

قال السمعاني:" فإن قيل: كيف قال: فاعلم أنه لا إله إلا الله وقد علم؟

والجواب من وجهين:

أحدهما: أن المراد منه هو الثبات على العلم لا ابتداء العلم.

والثاني: أن معناه: فاذكر أنه لا إله إلا الله، فعبر عن الذكر بالعلم لحدوثه عنده.

ويقال: الخطاب مع الرسول، والمراد منه الأمة".

قال سهل بن عبد الله:" الخلق كلهم موتى إلا العلماء، ولذلك دعا نبيه ﷺ إلى محل الحياة بالعلم بقوله: {فَاعْلَم}".

عن سفيان بن عيينة:" أنه سئل عن فضل العلم فقال: ألم تسمع قوله حين بدأ به: {فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ} فأمر بالعمل بعد العلم، وقال: {اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيا لَعِبٌ وَلَهْو} - إلى قوله- {سابِقُوا إِلى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ"}

=

=

[الحديد: ٢١ - ٢٠] وقال: {وَاعْلَمُوا أَنَّما أَمْوالُكُمْ وَأَوْلادُكُمْ فِتْنَة} [الأنفال: ٢٨]. ثم قال بعد: {فَاحْذَرُوهُمْ} [التغابن: ١٤]. وقال تعالى: {وَاعْلَمُوا أَنَّما غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَه} [الأنفال: ٤١]. ثم أمر بالعمل بعد".

قوله تعالى: {وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ} [محمد: ١٩]، أي:" واستغفر لذنبك، واستغفر للمؤمنين والمؤمنات".

قال الطبري: يقول:" وسل ربك غفران سالف ذنوبك وحادثها، وذنوب أهل الإيمان بك من الرجال والنساء".

عن عبد الله بن سرجس، قال: "أكلت مع رسول الله ﷺ، فقلت: غفر الله لك يا رسول الله، فقال رجل من القوم: أستغفر لك يا رسول الله، قال: نَعَمْ وَلَكَ، ثم قرأ {وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ}".

عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «إني لأستغفر في اليوم وأتوب سبعين مرة، أو أكثر».

عن عبيد بن المغيرة، قال: "سمعت حذيفة ، يقول كنت رجلا ذرب اللسان على أهلي ، فقلت يا رسول الله ، إني لأخشى أن يدخلني لساني النار ، فقال النبي ﷺ: «فأين أنت من الاستغفار ، إني لأستغفر الله في اليوم مائة مرة»، قال أبو إسحاق: فذكرته لأبي بردة، فقال: وأتوب إليه".

قوله تعالى: {وَاللهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ} [محمد: ١٩]، أي:" والله يعلم تصرفكم في يقظتكم نهارًا، ومستقركم في نومكم ليلا".

قال الطبري: يقول: فإن الله يعلم متصرفكم فيما تتصرّفون فيه في يقظتكم من الأعمال، ومثواكم إذا ثويتم في مضاجعكم للنوم ليلا لا يخفى عليه شيء من ذلك، وهو مجازيكم على جميع ذلك".

قال مقاتل:" {مُتَقَلَّبَكُمْ}، يعني: منتشركم بالنهار {وَمَثْوَاكُمْ}، يعني: مأواكم

=

=

بالليل".

قال الزجاج:" أي: يعلم متصرفاتكم، ويعلم {مَثْوَاكُمْ}، أي: يعلم أين مقامكم في الدنيا

والآخرة".

قال الواحدي:" {مُتَقَلَّبَكُمْ}: مُتصرِّفكم في أعمالكم وأشغالكم وقيل: {مُتقلَّبكم} من الأصلاب إلى الأرحام {وَمَثْوَاكُمْ}: مرجعكم في الدُّنيا والآخرة".

عن عبد الله بن عباس: " {واللهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ} في الدنيا، {ومَثْواكُمْ} في الآخرة".

عن الضحاك:" {واللهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ ومَثْواكُمْ} مُنصرفكم ومُنتشركم في أعمالكم في الدنيا، ومثواكم: مصيركم إلى الجنة أو إلى النار".

مسألة في ذكر أنواع التوحيد.

النوع الأول: توحيد الربوبية.

هو الإقرار الجازم بأن الله تعالى رب كل شيء ومليكه، وخالقه، ومدبره، والمتصرف فيه، لم يكن له شريك في الملك، ولم يكن له ولي من الذل، ولا راد لأمره، ولا معقب لحكمه، ولا مضاد له (ولا مماثل له)، (ولا سمي له)، ولا منازع في شيء من معاني ربوبيته ومقتضيات أسمائه وصفاته. أعلام السنة المنشورة لاعتقاد الطائفة الناجية المنصورة لحافظ بن أحمد الحكمي- ص: ٣٠

ومنهم من عرفه بأنه: الاعتقاد بأن الله هو الخالق الرازق المدبر لكل شيء وحده لا شريك له.

وهو يشتمل على ما يلي:

١ - الإيمان بوجود الله تعالى.

٢ - الإقرار بأن الله تعالى خالق كل شيء، ومالكه، ورازقه، وأنه المحيي، المميت، النافع، الضار، المتفرد بإجابة الدعاء، الذي له الأمر كله، وبيده الخير

=

=

كله، القادر على ما يشاء، المقدر لجميع الأمور، المتصرف فيها، المدبر لها، ليس له في ذلك كله شريك.

وقد تكاثرت الأدلة في القرآن والسنة في إثبات الربوبية لله تعالى، فكل نص ورد فيه اسم (الرب) أو ذكر فيه خصيصة من خصائص الربوبية، كالخلق، والرزق، والملك، والتقدير، والتدبير، وغيرها فهو من أدلة الربوبية، كقوله تعالى: الْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ [الفاتحة: ٢]، وكقوله سبحانه: أَلاَ لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ [الأعراف: ٥٤]، وكقوله جل وعلا: قُلْ مَن بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ [المؤمنون: ٨٨]، والملكوت: الملك.

وقد أمر الله العباد بالنظر والتفكر في آيات الله الظاهرة من المخلوقات العلوية والسفلية، ليستدلوا بها على ربوبيته سبحانه وتعالى. تسهيل العقيدة الإسلامية لعبد الله بن عبد العزيز الجبرين– ص: ٤١

فالرب هو المالك كما قال تعالى: هُوَ اللهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ [الحشر: ٢٣] ويقول: وَلِلّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا [المائدة: ١٧]، وقال: فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ [يس: ٨٣].

والرب هو الخالق البارئ المصور كما قال عن نفسه: هُوَ اللهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ [الحشر: ٢٤]، فلا خالق سواه، وهو الذي برأ الخلق فأوجدهم بقدرته المصور خلقه كيف شاء وكيف يشاء.

والرب هو المبدئ والمعيد كما قال: وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ [الروم: ٢٧]، فهو الذي ابتدأ الأشياء كلها فأوجدها، إذ هو الأول الذي ليس قبله شيء، ثم هو يعيدها سبحانه.

والرب هو المحيي والمميت، الذي أحيا بأن خلق فيهم الحياة، والذي خلق الموت كما خلق الحياة. كما قال تعالى: الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ

=

=
أَحْسَنُ عَمَلًا [الملك: ٢] ويقول: لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ [الدخان: ٨].

والرب هو النافع الضار، قال تعالى: وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِّن بَعْدِ ضَرَّاء مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِي آيَاتِنَا [يونس: ٢١] وقال: قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ اللهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا [الفتح: ١١].

والرب هو المعطي المانع كما قال تعالى: مَا يَفْتَحِ اللهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِن بَعْدِهِ [فاطر: ٢]، وقال الرسول ﷺ في دعائه بعد الفراغ من الصلاة: ((اللهم لا مانع لما أعطيت ولا معطي لما منعت)).

والرب هو المدبر لأمر هذا الكون كما قال: ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الأَمْرَ [يونس: ٣٦]. وقال: وَمَن يُدَبِّرُ الأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللهُ [يونس: ٣١]، وقال يُدَبِّرُ الأَمْرَ يُفَصِّلُ الآيَاتِ لَعَلَّكُم بِلِقَاء رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ [الرعد: ٢].

والرب هو الخالق الرازق القوي القدير كما قال تعالى: قُلِ اللهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ [الرعد: ١٦]، وقال هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ [فاطر: ٩] وقال: إِنَّ اللهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ [الذاريات: ٥٨]، وقال: إِنَّ الله عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ [البقرة: ٢٠].

النوع الثاني: توحيد الألوهية.

الألوهية هي مصدر أله يأله، قال الجوهري: (أله - بالفتح - إلاهة، أي عبد عبادة، ومنه قرأ ابن عباس رضي الله عنهما: ويذرك وآلهتك [الأعراف: ١٢٧] بكسر الهمزة قال وعبادتك وكان يقول: إن فرعون كان يعبد في الأرض ومنه قولنا: (الله) وأصله: (إله) على فعال بمعنى مفعول أي معبود، كقولنا: إمام فعال: لأنه مفعول أي مؤتم به).

وعلى هذا فإن الألوهية صفة لله تعالى تعني استحقاقه جل وعلا للعبادة بما له من
=

=

الأسماء والصفات والمحامد العظيمة.

قال ابن سيده: (والإلهة والألوهة والألوهية العبادة) وأما الألوهية التي جاءت هذه الكلمة لإثبات استحقاق الله وحده لها فهي من مجموع كلام أهل اللغة أيضا فزع القلب إلى الله، وسكونه إليه، واتجاهه إليه لشدة محبته له، وافتقاره إليه ويجمعهما كون الله هو الغاية والمراد والمقصود مطلقا.

يقول ابن الأثير: أصله من أله يأله إذا تحير، يريد: إذا وقع العبد في عظمة الله وجلاله وغير ذلك من صفات الربوبية وصرف وهمه إليها أبغض الناس حتى لا يميل قلبه إلى أحد.

ويقول أبو الهيثم: (الله: أصله إله ولا يكون إلها حتى يكون معبودا، وحتى يكون لعابده خالقا ورازقا ومدبرا وعليه مقتدرا وأصل إله ولاه فقلبت الواو همزة ومعنى ولاه أن الخلق إليه يؤلهون في حوائجهم ويفزعون إليه فيما ينوبهم كما يوله طفل إلى أمه)، ويقول الإمام ابن القيم: اسم الله دال على كونه مألوها معبودا تألهه الخلائق محبة وتعظيما وخضوعا وفزعا إليه في الحوائج والنوائب.

واختلفوا في كونه مشتقا أو لا، فذهب الخليل وسيبويه وجماعة من أئمة اللغة والشافعي والخطابي وإمام الحرمين ومن وافقهم إلى عدم اشتقاقه لأن الألف واللام فيه لازمة فتقول يا الله ولا تقول يا الرحمن، فلولا أنه من أصل الكلمة لما جاز إدخال حرف النداء على الألف واللام وقال آخرون إنه مشتق، واختلفوا في اشتقاقه إلى أقوال أقواها أنه مشتق من أله يأله إلهة، فأصل الاسم الإله فحذفت الهمزة وأدغمت اللام الأولى في الثانية وجوبا فقيل الله، ومن أقوى الأدلة عليه قوله تعالى: وهو الله في السماوات وفي الأرض [الأنعام:٣] مع قوله تعالى: وهو الذي في السماء إله وفي الأرض إله [الزخرف:٨٤] ومعناه ذو الألوهية التي لا تنبغي إلا له، ومعنى أله يأله إلاهة عبد يعبد عبادة فالله المألوه أي المعبود ولهذا

=

=

الاسم خصائص لا يحصيها إلا الله ﷻ، وقيل إنه هو الاسم الأعظم معارج القبول بشرح سلم الوصول إلى علم الأصول لحافظ بن أحمد الحكمي - ص ٧٦.

وقال الشيخ محمد خليل هراس في شرحه للعقيدة الواسطية: واسم الجلالة؛ قيل: إنه اسم جامد غير مشتق؛ لأن الاشتقاق يستلزم مادة يشتق منها، واسمه تعالى قديم، والقديم لا مادة له، فهو كسائر الأعلام المحضة، التي لا تتضمن صفات تقوم بمسمياتها والصحيح أنه مشتق واختلف في مبدأ اشتقاقه، فقيل: من أله يأله ألوهة وإلهة وألوهية؛ بمعنى: عبد عبادة، وقيل: من أله - بكسر اللام - يأله - بفتحها - ألها؛ إذا تحير والصحيح الأول، فهو إله؛ بمعنى مألوه؛ أي: معبود وعلى القول بالاشتقاق يكون وصفا في الأصل، ولكن غلبت عليه العلمية، فتجري عليه بقية الأسماء أخبارا وأوصافا؛ يقال: الله رحمن رحيم سميع عليم؛ كما يقال: الله الرحمن الرحيم إلخ.

* تعريف توحيد الألوهية.

المراد بتوحيد الألوهية: إفراد الله جل وعلا بالتعبد في جميع أنواع العبادات، ويعبر بعض أهل العلم بالعبادة بدل التعبد، ولا فرق، إذ مراده بالعبادة معناها المصدري وهو التعبد. والتعبد له ركنان وشرطان لصحته، أما الركنان: فغاية الخضوع والتذلل لله، وكمال المحبة له. وأما الشرطان: فمعرفة المعبود - وهو الله سبحانه وتعالى -، ومعرفة دينه الشرعي الجزائي، والمقصود بالعبادات: ما يتعبد به لله تعالى من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة، ولها شرطان: المتابعة فيها - أي أن تكون وفق ما جاء به الرسول ﷺ، والصدق والإخلاص لله جل وعلا فيها.

وهذا هو معنى شهادة ألا إله إلا الله - وتمام تحقيقها بشهادة أن محمدا رسول الله ﷺ.

ومما يوضح أن التعريف السابق هو تعريف لشهادة ألا إله إلا الله قول الله تعالى:

=

=

وإذ قال إبراهيم لأبيه وقومه إنني براء مما تعبدون إلا الذي فطرني فإنه سيهدين وجعلها كلمة باقية في عقبه لعلهم يرجعون [الزخرف: ٢٦ - ٢٨] قال ابن جرير: (وقوله: وجعلها كلمة باقية في عقبه يقول تعالى ذكره: وجعل قوله إنني براء مما تعبدون إلا الذي فطرني وهو قول لا إله إلا الله: كلمة باقية في عقبه، وهم ذريته، فلم يزل في ذريته من يقول ذلك من بعده).

وكلمات السلف كلها تدور حول هذا المعنى فمنهم من فسر الكلمة بشهادة ألا إله إلا الله ومنهم من فسرها بالإسلام.

ولا خلاف بين القولين، إذ الإسلام هو الاستسلام لله بالعبودية، وهو الدين الذي لا يقبل الله من أحد شيئا سواه، وهذا هو معنى لا إله إلا الله المتركبة من النفي والإثبات؛ نفي عبادة ما سوى الله، وإثبات العبادة لله وحده، وهذان هما النفي والإثبات نفسهما الواردان في الآية براء مما تعبدون إلا الذي فطرني.

ويؤكد صحة هذا التفسير أن إبراهيم عليه السلام جعل الكلمة في بنيه بأمرين: الدعاء والوصية أما الدعاء - ففي قوله: واجنبني وبني أن نعبد الأصنام [إبراهيم: ٣٥] فهذا تبري من عبادة ما سوى الله تعالى، وهذا يستلزم إفراد الله جل وعلا وحده بالعبادة - ولذلك كان من دعائه: ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك [البقرة: ١٢٨] وأما الوصية ففي قوله: إذ قال له ربه أسلم قال أسلمت لرب العالمين ووصى بها إبراهيم بنيه ويعقوب يا بني إن الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون [البقرة: ١٣١ - ١٣٢] فبين الله تعالى أن إبراهيم عليه السلام وصى بنيه بالإسلام، وكذلك يعقوب عليه السلام وصى بها بنيه وعهدوا بها إلى أولادهم من بعدهم، ثم إن الله بين صيغة هذه الوصية بقوله: أم كنتم شهداء إذ حضر يعقوب الموت إذ قال لبنيه ما تعبدون من بعدي قالوا نعبد إلهك وإله آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحق إلها واحدا ونحن له مسلمون [البقرة: ١٣٣].

=

=

فهذا نص في أن الوصية هي الإسلام وهي قولهم: نعبد إلهك وإله آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحق وبه يظهر ظهورا جليا أن الكلمة هي الإسلام - أي الاستسلام لله بالعبودية - وقد لخص ذلك ابن جرير الطبري بقوله (وهي الإسلام الذي أمر به نبيه ﷺ وهو إخلاص العبادة والتوحيد لله وخضوع القلب والجوارح له).

فتوحيد الألوهية: هو إفراد الله بالعبادة، ويسمى باعتبار إضافته إلى الله تعالى بـ (توحيد الألوهية)، ويسمى باعتبار إضافته إلى الخلق بـ (توحيد العبادة)، و (توحيد العبودية) و (توحيد الله بأفعال العباد)، و (توحيد العمل)، و (توحيد القصد)، و (توحيد الإرادة والطلب)، لأنه مبني على إخلاص القصد في جميع العبادات، بإرادة وجه الله تعالى.

وهذا التوحيد من أجله خلق الله الجن والإنس، كما قال تعالى: وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون [الذاريات: ٥٦]، ومن أجله أرسل الله الرسل وأنزل الكتب، كما قال تعالى: وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون [الأنبياء: ٢٥]، وهو أول دعوة الرسل وآخرها، كما قال سبحانه: ولقد بعثنا في كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت [النحل: ٣٦]، ومن أجله قامت الخصومة بين الأنبياء وأممهم، وبين أتباع الأنبياء من أهل التوحيد وبين أهل الشرك وأهل البدع والخرافات، ومن أجله جردت سيوف الجهاد في سبيل الله، وهو أول الدين وآخره، بل هو حقيقة دين الإسلام، وهو يتضمن أنواع التوحيد.

فتوحيد الألوهية متضمن لتوحيد الربوبية ولتوحيد الأسماء والصفات، فإن من عبد الله تعالى وحده، وآمن بأنه المستحق وحده للعبادة، دل ذلك على أنه مؤمن بربوبيته وبأسمائه وصفاته، لأنه لم يفعل ذلك إلا لأنه يعتقد بأن الله تعالى وحده هو المتفضل عليه وعلى جميع عباده بالخلق، والرزق، والتدبير، وغير ذلك من

=

وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَأَوْلَى لَهُمْ (٢٠).

{وَيَقُول الَّذِينَ آمَنُوا} طَلَبًا لِلْجِهَادِ {لَوْلَا} هَلَّا {نُزِّلَتْ سُورَة} فِيهَا ذِكْر الْجِهَاد {فَإِذَا أُنْزِلَتْ سُورَة مُحْكَمَة} أَيْ لَمْ يُنْسَخ مِنْهَا شَيْء {وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَال} أَيْ طَلَبه {رَأَيْت الَّذِينَ فِي قُلُوبهمْ مَرَض} أَيْ شَكّ وَهُمْ الْمُنَافِقُونَ {يَنْظُرُونَ إلَيْك نَظَرَ الْمَغْشِيّ عَلَيْهِ مِنْ الْمَوْت} خَوْفًا مِنْهُ وَكَرَاهَة لَهُ أَيْ فَهُمْ يَخَافُونَ مِنْ الْقِتَال وَيَكْرَهُونَهُ {فَأَوْلَى لَهُمْ} مُبْتَدَأ خَبَره.

=

خصائص الربوبية، وأنه تعالى له الأسماء الحسنى والصفات العلا، التي تدل على أنه المستحق للعبادة وحده لا شريك له.

ومع أهمية هذا التوحيد فقد جحده أكثر الخلق، فأنكروا أن يكون الله تعالى هو المستحق للعبادة وحده لا شريك له، وعبدوا غيره معه.

قال العلامة المجتهد محمد بن إسماعيل الصنعاني: (اعلم أن الله تعالى بعث الأنبياء عليهم الصلاة والسلام من أولهم إلى آخرهم يدعون العباد إلى إفراد الله تعالى بالعبادة، لا إلى إثبات أنه خلقهم ونحوه، إذ هم مقرون بذلك، كما قررناه وكررناه، ولذا قالوا: أجئتنا لنعبد الله وحده [الأعراف: ٧٠] أي لنفرده بالعبادة، ونخصه بها من دون آلهتنا؟... فعبدوا مع الله غيره، وأشركوا معه سواه، واتخذوا له أندادا).

النوع الثالث: توحيد الأسماء والصفات.

توحيد الأسماء والصفات: هو إفراد الله بأسمائه الحسنى وصفاته العلى الواردة في القرآن والسنة، والإيمان بمعانيها وأحكامها.

طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَعْرُوفٌ فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللهَ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ (٢١).

{طَاعَة وَقَوْل مَعْرُوف} أَيْ حَسَن لَك {فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْر} أَيْ فُرِضَ الْقِتَال {فَلَوْ صَدَقُوا الله} فِي الإيمان والطاعة {لكان خيرا لهم} وَجُمْلَة لَوْ جَوَاب إذَا.

فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ (٢٢).

{فَهَلْ عَسَيْتُمْ} بِكَسْرِ السِّين وَفَتْحهَا وَفِيهِ الْتِفَات عَنْ الْغِيبَة إلَى الْخِطَاب أَيْ لَعَلَّكُمْ {إنْ تَوَلَّيْتُمْ} أَعْرَضْتُمْ عَنْ الْإِيمَان {أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْض وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامكُمْ} أَيْ تَعُودُوا إلَى أَمْر الْجَاهِلِيَّة مِنْ الْبَغْي وَالْقِتَال.

أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَى أَبْصَارَهُمْ (٢٣).

{أُولَئِكَ} أَيْ الْمُفْسِدُونَ {الَّذِينَ لَعَنَهُمْ الله فَأَصَمَّهُمْ} عَنْ اسْتِمَاع الْحَقّ {وَأَعْمَى أَبْصَارهمْ} عَنْ طَرِيق الهدى[1].

---

(١) قوله تعالى: (وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْلا نُزِّلَتْ سُورَةٌ) يخبر تعالى عن المؤمنين أنهم تمنوا شرعية الجهاد، فقال تعالى (وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْلا نُزِّلَتْ سُورَةٌ) أي: هلاّ نزلت سورة مشتملة على حكم القتال، حرصًا منهم على الجهاد ونيل ما أعد الله للمجاهدين من جزيل الثواب.

(فَإِذَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ) أي: غير منسوخة.

(وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ) أي: الأمر بالجهاد، قال قتادة: كل سورة ذكر فيها الجهاد فهي محكمة وهي أشد القرآن على المنافقين.

(رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ) أي: شك وهم المنافقون.

(يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ) أي: ينظرون إليك يا محمد تشخص أبصارهم جبنًا وهلعًا، كما ينظر من أصابته الغشية من حلول الموت.

قال ابن قتيبة والزجاج: يريد أنهم يشخصون نحوك بأبصارهم وينظرون إليك نظرًا =

=

شديدًا كما ينظر الشاخص بصره عند الموت.

قوله تعالى: {وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ} [محمد: ٢٠]، أي:" ويقول الذين آمنوا بالله ورسوله: هلا نُزِّلت سورة من الله تأمرنا بجهاد الكفار".

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره: ويقول الذين صدّقوا الله ورسوله: هلا نزلت سورة من الله تأمرنا بجهاد أعداء الله من الكفار".

قال السعدي:" يقول تعالى: {وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا} استعجالا ومبادرة للأوامر الشاقة: {لَوْلا نزلَتْ سُورَةٌ} أي: فيها الأمر بالقتال".

قال مقاتل:" وذلك أن المؤمنين اشتاقوا إلى الوحي فقالوا هلا نزلت سورة؟".

قال ابن قتيبة:" كان المسلمون إذا بطل الوحي يقولون: هلّا نزل شيء، تأميلا أن تنزل عليهم بشرى من الله وفتح وخير وتخفيف".

وقال الفراء:" كَانَ المسلمون إِذَا نزلت الآية فيها القتال وذِكْره، شق عليهم وتواقعوا أن تنسخ، فذلك قوله: {لَوْلا نُزِّلَتْ سُورَةٌ}، أي: هلّا أنزلت سوى هَذِه".

عن ابن جريج، في قوله: {ويقول الذين آمنوا} الآية، قال: "كان المؤمنون يشتاقون إلى كتاب الله تعالى وإلى بيان ما ينزل عليهم فيه".

قوله تعالى: {فَإِذَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ} [محمد: ٢٠]، أي:" فإذا أُنزِلت سورة محكمة بالبيان والفرائض وذُكر فيها الجهاد".

قال الطبري: يقول:": {فَإِذَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ} بالبيان والفرائض، وذُكر فيها الأمر بقتال المشركين".

وقال ابن قتيبة:" {مُحْكَمَةٌ}، أي: محدثة. وسميت المحدثة: محكمة، لأنها حين تنزل تكون كذلك حتى ينسخ منها شيء.. {وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتالُ}، أي: فرض فيها الجهاد".

قال السعدي:" {مُحْكَمَةٌ}، أي: ملزم العمل بها، {وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ} الذي هو

=

=
أشق شيء على النفوس، لم يثبت ضعفاء الإيمان على امتثال هذه الأوامر".
قال الفراء:" فإذا نزلت وَقَدْ أُمروا فيها بالقتال كرهوها".
وفي السورة المحكمة أقوال:
أحدها: أنها التي يذكر فيها الحلال والحرام، ذكره مقاتل.
الثاني: أنها التي يذكر فيها القتال، وهي أشد القرآن على المنافقين، قاله قتادة.
وقال قتادة:" كلّ سورة ذُكر فيها الجهاد فهي محكمة".
قال الزمخشري: أي:" مبينة غير متشابهة لا تحتمل وجها إلا وجوب القتال".
الثالث: أنها التي تضمنت نصوصًا لم يتعقبها ناسخ ولم يختلف فيها تأويل. أفاده الماوري.
وفي قراءة عَبْد الله: «سُورةٌ مُحْدَثةٌ».
قوله تعالى: {رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ} [محمد: ٢٠]، أي:" رأيت الذين في قلوبهم شك في دين الله ونفاق ينظرون إليك -أيها النبي- نظر الذي قد غُشِيَ عليه خوفَ الموت".
قال الطبري:" يقول: رأيت الذين في قلوبهم شك في دين الله وضعف {يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ} يا محمد، {نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ}، خوفا أن تغزيهم وتأمرهم بالجهاد مع المسلمين، فهم خوفا من ذلك وتجبنا عن لقاء العدوّ ينظرون إليك نظر المغشيّ عليه الذي قد صرع. وإنما عنى بقوله {مِنَ الْمَوْتِ} من خوف الموت، وكان هذا فعل أهل النفاق".
قال مقاتل:" {رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ}، يعني: الشك في القرآن، منهم عبد الله ابن أبي، ورفاعة بن زيد، والحارث بن عمرو".
قال ابن قتيبة:" يريد أنهم يشخصون نحوك بأبصارهم، وينظرون نظرا شديدا بتحديق، وتحديد، كما ينظر الشّاخص ببصره عند الموت، من شدّة العداوة.
=

=

والعرب تقول: رأيته لمحا باصرا، أي: نظرا صلبا بتحديق. ونحوه قوله: {وَإِنْ يَكادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصارِهِمْ} [القلم: ٥١]، أي: يسقطونك بشدة نظرهم".

قال الزجاج:" لأنهم منافقون يكرهون القتال، لأنهم إذا قعدوا عنه ظَهَرَ نِفَاقُهُمْ، فَخَافوا عَلَى أَنْفُسِهِم القَتْل".

قال النحاس:" وإنما كانوا يكرهون ذكر القتال، لأنهم إذا تأخروا عنه تبين نفاقهم فخافوا القتل".

عن قتادة:" المرض: النفاق".

وعن الحسن:" الشرك".

قال ابن زيد:" هؤلاء المنافقون طبع الله على قلوبهم، فلا يفقهون ما يقول النبي ﷺ".

عن ابن جريج:"فإذا أنزلت السورة يذكر فيها القتال رأيت يا محمد المنافقين {ينظرون إليك نظر المغشي عليه من الموت فأولى لهم}".

قال السمعاني:" فإن قيل: كيف أخبر عن المؤمنين في ابتداء الآية ثم قال: {رأيت الذين في قلوبهم مرض} وهم المنافقون، والمنافق لا يكون مؤمنا؟

والجواب عنه: أن في الآية حذفا، ومعناه: فإذا أنزلت سورة محكمة وذكر فيها القتال، فرح المؤمنون واستأنسوا بها".

(فَأَوْلَى لَهُمْ) أي: فويل لهم، وهي كلمة معناها التهديد والدعاء عليهم، وقيل: أي أحق وأجدر بهم.

(طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَعْرُوفٌ) قيل المعنى: طاعة وقول معروف أحسن وأمثل لكم من غيرهما.

فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ) أي: جد الحال، وحضر القتال.

=

=

(فَلَوْ صَدَقُوا اللهَ) أي: أخلصوا له النية.
(لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ) من المعصية والمخالفة.
قوله تعالى: {فَأَوْلَى لَهُمْ طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَعْرُوفٌ} [محمد: ٢٠ - ٢١]، أي:" فأولى لهؤلاء الذين في قلوبهم مرض أن يطيعوا الله، وأن يقولوا قولا موافقًا للشرع".
قال السعدي:" أي: فأولى لهم أن يمتثلوا الأمر الحاضر المحتم عليهم، ويجمعوا عليه هممهم، ولا يطلبوا أن يشرع لهم ما هو شاق عليهم، وليفرحوا بعافية الله تعالى وعفوه".
قال الزجاج:" {أَوْلَى لَهُمْ} وعيدٌ وتَهَدُدٌ، المعنى: وَلِيَهُم المكروه".
قال ابن قتيبة:" تقول للرجل -إذا أردت به سوءًا ففاتك-: أَوْلَى لك".
قال مقاتل:" {فَأَوْلَى لَهُمْ}: فهذا وعيد".
قال مجاهد:" أمر الله بذلك المنافقين".
عن ابن جريج:" {فأولى لهم} قال: وعيد من الله لهم".
عن قتادة، قوله: " {فَأَوْلَى لَهُمْ}، قال: وعيد كما تسمعون".
قال قتادة:" هذا وعيد، يقول: فأولى لهم قال: ثم انقطع الكلام، فقال: {طاعة وقول معروف}، يقول: «طاعة الله، وقول معروف عند حقائق الأمور خير لهم»".
وفي قوله تعالى: {فَأَوْلَى لَهُمْ (٢٠) طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَعْرُوفٌ} [محمد: ٢٠ - ٢١]، قولان:
أحدهما: أن قوله: {فَأَوْلَى لَهُمْ} وعيد لهم، ثم انقطع الكلام فقال: {طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَعْرُوفٌ}، يقول: «طاعة الله، وقول معروف عند حقائق الأمور خير لهم. قاله قتادة. ونحو هذا قال مقاتل، والكلبي، واختاره الزجاج، وابن قتيبة، والطبري، وهو قول أكثر أهل اللغة.
قال ابن قتيبة:" {فَأَوْلَى لَهُمْ} تهدّد ووعيد. وتمّ الكلام، ثم قال: {طاعَةٌ وَقَوْلٌ

=

=

مَعْرُوفٌ} وهذا مختصر، يريد قولهم قبل نزول الفرض: سمع لك وطاعة".

قال الفراء:" قَالَ الله: {فَأَوْلَى لَهُمْ} لمن كرهها، ثُمَّ وصف قولهم قبل أن تنزَّل: سَمِعَ وطاعة، قَدْ يقولون: سَمِعَ وطاعة، فإذا نزل الأمر كرهوه".

قال ابن عطية:" المشهور من استعمال «أولى»: أنك تقول: هذا أولى بك من هذا، أي: أحق، وقد تستعمل «أولى» فقط على جهة الحذف والاختصار لما معها من القول، فتقول على جهة الزجر والتوعد: أولى لك يا فلان، وهذه الآية من هذا الباب، ومنه وقوله تعالى: {أَوْلى لَكَ فَأَوْلى} [القيامة: ٣٤ - ٣٥]".

الثاني: أن الآية الثانية التي هي قوله: {طَاعَةٌ} متصلة بالآية الأولى في المعنى، والتقدير: فأولى لهم طاعة وقول معروف، وهذا معنى ما روي عن عطاء عن ابن عباس، واختاره الكسائي، وبه قال الماتريدي، وابن كثير.

قال الماتريدي:" ظاهره ليس بتوعد ولا تهدد، إنما ظاهره، أي: أحرى لكم وأولى أن تطيعوه، وأن تقولوا معروفًا، فإذا تركوا ذلك يكون وعيدًا".

قال ابن كثير:" ثم قال مشجعا لهم: {فَأَوْلَى لَهُمْ طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَعْرُوفٌ}، أي: وكان الأولى بهم أن يسمعوا ويطيعوا، أي: في الحالة الراهنة".

قوله تعالى: {فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ} [محمد: ٢١]، أي:" فإذا وجب القتال وجاء أمر الله بِفَرْضه كره هؤلاء المنافقون ذلك".

قال مجاهد:" فإذا جد الأمر". وفي رواية:" فإذا عزم الأمر: جد الأمر".

قال مقاتل:" يعني: جد الأمر عند دقائق الأمور".

قال ابن كثير:" أي: جد الحال، وحضر القتال".

قال الزجاج:" المعنى: فإذا جَدَّ الأمر ولزم فرض القتال".

قال ابن قتيبة:" أي: جاء الجدّ كرهوا ذلك، فحذف الجواب على ما بينت في باب الاختصار".

=

=

قال السعدي:" أي: جاءهم الأمر جد، وأمر محتم".
قوله تعالى: {فَلَوْ صَدَقُوا اللهَ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ} [محمد: ٢١]، أي:" صدقوا الله في الإيمان والعمل لكان خيرًا لهم من المعصية والمخالفة".
قال قتادة:" طاعة الله، وقول معروف عند حقائق الأمور خير لهم".
قال الزجاج:" فلو صدقوا الله فآمنوا بالنبي ﷺ وعملوا بما نزل عليه وما أمروا به من فرض القتال لكان خيرًا لهم. المعنى لكان صدقهم الله بإيمانهم خيرًا لهم".
قال ابن كثير:" {فَلَوْ صَدَقُوا اللهَ}، أي: أخلصوا له النية، {لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ}".
قال السعدي:" ففي هذه الحال لو صدقوا الله بالاستعانة به، وبذل الجهد في امتثاله {لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ} من حالهم الأولى، وذلك من وجوه:
منها: أن العبد ناقص من كل وجه، لا قدرة له إلا إن أعانه الله، فلا يطلب زيادة على ما هو قائم بصدده.
ومنها: أنه إذا تعلقت نفسه بالمستقبل، ضعف عن العمل، بوظيفة وقته، وبوظيفة المستقبل، أما الحال، فلأن الهمة انتقلت عنه إلى غيره، والعمل تبع للهمة، وأما المستقبل، فإنه لا يجيء حتى تفتر الهمة عن نشاطها فلا يعان عليه.
ومنها: أن العبد المؤمل للآمال المستقبلة، مع كسله عن عمل الوقت الحاضر، شبيه بالمتألي الذي يجزم بقدرته، على ما يستقبل من أموره، فأحرى به أن يخذل ولا يقوم بما هم به ووطن نفسه عليه، فالذي ينبغي أن يجمع العبد همه وفكرته ونشاطه على وقته الحاضر، ويؤدي وظيفته بحسب قدرته، ثم كلما جاء وقت استقبله بنشاط وهمة عالية مجتمعة غير متفرقة، مستعينا بربه في ذلك، فهذا حري بالتوفيق والتسديد في جميع أموره".
(فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ) أي: فلعلكم إن أعرضتم عن الإسلام أن ترجعوا إلى ما كنتم عليه في الجاهلية.

=

=

(أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ) أي: من الإفساد في الأرض بالمعاصي.

(وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ) أي: وتقطعوا أرحامكم فلا تصلوها.

- وهذا نهي عن الإفساد بالأرض عمومًا بالمعاصي بأنواعها.

قال تعالى (وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ).

ونهي عن قطيعة الرحم خصوصًا:

قال ﷺ (الرحم معلقة بالعرش، تقول: من وصلني وصله الله، ومن قطعني قطعه الله) متفق عليه.

قال تعالى (فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ. أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَى أَبْصَارَهُمْ).

وقال ﷺ (لا يدخل الجنة قاطع) متفق عليه.

قال تعالى (وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ إِنَّا لا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ).

وقال تعالى {والصلح خير}.

وقال تعالى {لا خير في كثير من نجواهم إلا من أمر بصدقة أو معروف أو إصلاح بين الناس}.

وقال ﷺ (ألا أخبركم بأفضل من درجة الصلاة والصيام والصدقة؟ قالوا: بلى؟ قال: إصلاح ذات البين) رواه أحمد.

وقال تعالى {واتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم}.

وقال تعالى {وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما}.

وعن سهل بن سعد. (أن أهل قباء اقتتلوا حتى تراموا بالحجارة، فأخبر رسول الله ﷺ بذلك فقال: اذهبوا بنا نصلح بينهم) رواه البخاري.

عن أبي هريرة. قال: قال رسول الله ﷺ (كل سلامى من الناس عليه صدقة، كل

=

=

يوم تطلع فيه الشمس تعدل بين اثنين صدقة...) رواه مسلم.
من أقوال السلف:
قال أنس: من أصلح بين اثنين أعطاه الله بكل كلمة عتق رقبة.
وقال أبو أمامة: امش ميلًا وعد مريضًا، وامش ميلين وزر أخًا في الله، وامش ثلاثة أميال وأصلح بين اثنين
وقال بعض العلماء: من أراد فضل العابدين فليصلح بين الناس، ولا يوقع بينهم العداوة والبغضاء.
وقد جاءت نصوص كثيرة تحث على صلة الرحم:
قال ﷺ (من أحب أن يبسط له في رزقه وينسأ له في أثره فليصل رحمه) متفق عليه.
وقال ﷺ (الرحم معلقة بالعرش، تقول: من وصلني وصله الله، ومن قطعني قطعه الله) متفق عليه.
وعن أبي أيوب. (أن رجلًا قال يا رسول الله! أخبرني بعمل يدخلني الجنة ويباعدني من النار؟ فقال النبي ﷺ: تعبد الله ولا تشرك به شيئًا، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصل الرحم) متفق عليه.
وقال ﷺ (من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليصل رحمه) متفق عليه.
قوله تعالى: {فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ} [محمد: ٢٢]، أي:" فلعلكم إن أعرضتم عن كتاب الله وسنة نبيه محمد ﷺ".
قال الطبري:" يقول تعالى ذكره لهؤلاء الذين وصف أنهم إذا نزلت سورة محكمة، وذُكر فيها القتال نظروا إلى رسول الله ﷺ نظر المغشيّ عليه: فلعلكم إن توليتم عن تنزيل الله جلّ ثناؤه، وفارقتم أحكام كتابه، وأدبرتم عن محمد ﷺ وعما جاءكم به".
واختلف في تفسير قوله تعالى: {فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ} [محمد: ٢٢]، على

=

=

قولين:

أحدهما: فلعلّكم إنْ توليتم عن القرآن، وفارقتم أحكامه. قاله قتادة.

قال ابن قتيبة:" يريد: فهل تريدون إذا أنتم تركتم محمدا، ﷺ، وما يأمركم به-".

قال ابن كثير:" أي: عن الجهاد ونكلتم عنه".

الثاني: المعنى: إن توليتم أمور الناس، من: الولاية، قاله أبو العالية، وكعب الأحبار، ومحمد بن كعب القرظي، والمسيب بن شريك، والكلبي، والفراء.

وقرأ علي بن أبي طالب-رضي الله عنه-: «إِنْ تُوُلِّيتُم» بضم «التاء» و «الواو"وكسر «اللام»، يقول: إن وليتكم ولاة جائرة خرجتم معهم في الفتنة، وعاونتموهم، أو على معنى: إن توليتم بالتعذيب والتنكيل وأفعال العرب في جاهليتها وسيرتها من الغارات والسباء.

قال الزمخشري:" نقل الكلام من الغيبة إلى الخطاب على طريقة الالتفات، ليكون أبلغ في التوكيد".

وفي قراءة على بن أبى طالب -رضى الله عنه-: {توليتم}، أي: إن تولاكم ولاة غشمة خرجتم معهم ومشيتم تحت لوائهم وأفسدتم بإفسادهم؟.

قال الباقلاني:" فيما ذكرُوه في هذا الباب وادعوا انتشاره وظهوره، ومعتقدي نقصان القرآن من الشيعة أن عليا عليه السلام جمع القرآن بعد النبي ﷺ وجاء به يحمِله قنبَر لا يغلانه فوضع، ثم تلى عليهم آيات يكبتُهم بها في تقدمهم بن يديه، وهي قوله: {فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ (٢٢) أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَى أَبْصَارَهُمْ (٢٣)} [محمد: ٢٢ - ٢٣]. فقال له عمرُ عند ذلك: ارفع مصحفك لا حاجةَ لنا إليه، ومن ذلك - زعموا - ما تواترته نقلُ الشيعة خلفا عن سلف عن علماء أهل بيت رسول الله ﷺ".

قوله تعالى: {أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ} [محمد: ٢٢]، أي:"

=

=

وسلم أن تعصوا الله في الأرض، فتكفروا به وتسفكوا الدماء وتُقَطِّعوا أرحامكم".
قال الفراء:" أن تصيروا إلى أمركم الأول من قطيعة الرحم والكفر والفساد".
قال ابن قتيبة:" أن تعودوا إلى مثل ما كنتم عليه من الكفر، والإفساد في الأرض وقطع الأرحام؟".
قال الطبري:" يقول: أن تعصوا الله في الأرض، فتكفروا به، وتسفكوا فيها الدماء، وتعودوا لما كنتم عليه في جاهليتكم من التشتت والتفرّق بعد ما قد جمعكم الله بالإسلام، وألّف به بين قلوبكم".
قال الزجاج:" {وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ}، أي: تئدوا البنات، أي تدفنوهن أحياء. ويجوز أن يكون فلعلكم إن توليتم الأمر أن تفسدوا في الأرض وتقطعوا أرحَامَكُمْ، ويَقْتُلُ قُرِيشٌ بَنِي هاشم، وبَنو هَاشِم قُرَيْشًا، وكذلِكَ إن توليتم".
قال ابن كثير:" أي: تعودوا إلى ما كنتم فيه من الجاهلية الجهلاء، تسفكون الدماء وتقطعون الأرحام.. وهذا نهي عن الإفساد في الأرض عموما، وعن قطع الأرحام خصوصا، بل قد أمر الله تعالى بالإصلاح في الأرض وصلة الأرحام، وهو الإحسان إلى الأقارب في المقال والأفعال وبذل الأموال. وقد وردت الأحاديث الصحاح والحسان بذلك عن رسول الله ﷺ، من طرق عديدة، ووجوه كثيرة".
قال السعدي:" أي: فهما أمران، إما التزام لطاعة الله، وامتثال لأوامره، فثم الخير والرشد والفلاح، وإما إعراض عن ذلك، وتولٍ عن طاعة الله، فما ثم إلا الفساد في الأرض بالعمل بالمعاصي وقطيعة الأرحام".
عن قتادة، قوله: " {فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ}... الآية. يقول: فهل عسيتم كيف رأيتم القوم حين تولوا عن كتاب الله، ألم يسفكوا الدم الحرام، وقطّعوا الأرحام، وعَصَوا الرحمن".
عن قتادة: " {فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ}،

=

=
قال: فعلوا".

قال الزمخشري:" فإن قلت: ما معنى: {فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ}؟

قلت: معناه: هل يتوقع منكم الإفساد؟

فإن قلت: فكيف يصح هذا في كلام الله عز وعلا وهو عالم بما كان وما يكون؟

قلت: معناه: إنكم- لما عهد منكم- أحقاء بأن يقول لكم كل من ذاقكم وعرف تمريضكم ورخاوة عقدكم في الإيمان: يا هؤلاء، ما ترون؟ هل يتوقع منكم إن توليتم أمور الناس وتأمرتم عليهم لما تبين منكم من الشواهد ولاح من المخايل أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحامَكُمْ تناحرا على الملك وتهالكا على الدنيا؟

وقيل:

إن أعرضتم وتوليتم عن دين رسول الله ﷺ وسنته أن ترجعوا إلى ما كنتم عليه في الجاهلية من الإفساد في الأرض: بالتغاور والتناهب، وقطع الأرحام: بمقاتلة بعض الأقارب بعضا ووأد البنات؟".

وفي هذه الآية ثلاثة أقوال:

أحدها: أنه عنى بها المنافقين. وهو الظاهر.

قال مقاتل:" يعني: منافقي اليهود".

الثاني: قريشًا، قاله أبن حيان.

وقال المسيب بن شريك، والفراء،: "نزلت في بني أمية وبني هاشم".

قال السمعاني:" فإن قريشا لما تولوا الأمر أفسدوا في الأرض وقطعوا الأرحام، وذلك من قتل بني هاشم قريشا، وقتل قريش بني هاشم".

عن عبد الله بن مغفل، قال: سمعت النبي ﷺ يقرأ فهل عسيتم إن وليتم أن تفسدوا في الأرض ثم قال: «هم هذا الحي من قريش أخذ الله عليهم إن ولوا الناس ألا
=

=
يفسدوا في الأرض ولا يقطعوا أرحامهم».
الثالث: أنها نزلت في الحرورية والخوارج، قاله بكر بن عبد الله المزني.
قال القرطبي:" الأظهر أنه إنما عني بها المنافقون".
(أُولَئِكَ الَّذِينَ) أفسدوا في الأرض، وقطعوا أرحامهم.
(لَعَنَهُمُ اللهُ) أي: أبعدهم من رحمته.، فاللعنة: الإبعاد والطرد من رحمة الله.
(فَأَصَمَّهُمْ) أي: فجعلهم لا يسمعون ما ينفعهم.
(وَأَعْمَى أَبْصَارَهُمْ) أي: لا يبصرون ما ينفعهم، فلهم آذان، ولكن لا تسمع سماع إذعان وقبول، وإنما تسمع سماعًا تقوم به حجة الله عليها، ولهم أعين، ولكن لا يبصرون بها العبر والآيات، ولا يلتفتون بها إلى البراهين والبينات.
قوله تعالى: {أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللهُ} [محمد: ٢٣]، أي:" أولئك الذين أبعدهم الله من رحمته".
قال الطبري:" يقول تعالى ذكره: هؤلاء الذين يفعلون هذا، يعني الذين يفسدون ويقطعون الأرحام الذين لعنهم الله، فأبعدهم من رحمته".
قال الماتريدي:" أي: أصمهم حتى لم يسمعوا سماع الاعتبار والتفكر، وأعمى أبصارهم حتى لم ينظروا فيما عاينوا نظر اعتبار وتفكر ما لو تفكروا وتأملوا ونظروا نظر معتبر، لأدركوا".
قال النحاس:" المعنى: أولئك الذين لعنهم الله فلم ينلهم ثوابا".
قال الزمخشري:" {أُولَئِكَ} إشارة إلى المذكورين {لَعَنَهُمُ اللهُ}، لإفسادهم وقطعهم الأرحام".
قال السعدي:" {أُولَئِكَ الَّذِينَ} أفسدوا في الأرض، وقطعوا أرحامهم {لَعَنَهُمُ اللهُ} بأن أبعدهم عن رحمته، وقربوا من سخط الله".
قال ابن عطية:" {أُولَئِكَ} إشارة إلى مرضى القلوب المذكورين. و: {لَعَنَهُمُ}
=

أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا (٢٤).

{أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآن} فَيَعْرِفُونَ الْحَقّ {أَمْ} بَلْ {عَلَى قُلُوب} لَهُمْ {أَقْفَالهَا} فَلَا يَفْهَمُونَهُ[1].

=

معناه: أبعدهم".

قوله تعالى: {فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَى أَبْصَارَهُمْ} [محمد: ٢٣]، أي:" فجعلهم لا يسمعون ما ينفعهم ولا يبصرونه، فلم يتبينوا حجج الله مع كثرتها".

قال الطبري: يقول:" فسلبهم فَهْمَ ما يسمعون بآذانهم من مواعظ الله في تنزيله، وسلبهم عقولهم، فلا يتبيَّنون حُجج الله، ولا يتذكَّرون ما يرون من عبره وأدلته".

قال السعدي:" أي: جعلهم لا يسمعون ما ينفعهم ولا يبصرونه، فلهم آذان، ولكن لا تسمع سماع إذعان وقبول، وإنما تسمع سماعا تقوم به حجة الله عليها، ولهم أعين، ولكن لا يبصرون بها العبر والآيات، ولا يلتفتون بها إلى البراهين والبينات".

قال القشيري:" أصمّهم عن سماع الحقّ وقبوله بقلوبهم، وأعمى بصائرهم".

قال الواحدي:" فلا يسمعون الحق، ولا يهتدون لرشد".

قال ابن عطية:" وقوله: {فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمى أَبْصارَهُمْ} استعارة لعدم سمعهم فكأنهم عمي وصم".

قال النحاس:" فهم بمنزلة الصم لا يسمعون ثناء حسنا عليهم ولا يبصرون ما يسرون به من الثواب".

(١) قوله تعالى: (أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ) الهمزة للاستفهام، ومعناه التوبيخ، والتدبر: التأمل والتفكر في الشيء وإطالة النظر فيه إقبالًا وإدبارًا والمعنى: أفلا يتدبرون القرآن، أي: يتأملون ويتفكرون فيه ويتفهمونه ويتبعونه لفظًا ومعنى وعلمًا وعملًا.

=

=

فإنهم لو تدبروه لدلهم على كل خير، ولحذرهم من كل شر، ولملأ قلوبهم من الإيمان، وأفئدتهم من الإيقان، ولأوصلهم إلى المطالب العالية، والمواهب الغالية، ولبيّن لهم الطريق الموصلة إلى الله، وإلى جنته ومكملاتها ومفسداتها.

(أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا) (أم) فيه منقطعة بمعنى بل، أي: بل على قلوب أقفالها، فهي مُطبقة لا يخلص إليها شيء من معانيه.

- في هذه الآية الحث على تدبر القرآن، والتحذير من عدم تدبره وتفهمه.

- جاء الأمر بتدبر القرآن في آيات كثيرة:

كقوله تعالى (كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ).

وقوله تعالى (إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ).

وقال ﷺ (خيركم من تعلم القرآن وعلمه) رواه البخاري.

دواء القلوب في خمسة أشياء...، منها: تدبر القرآن.

وقال مالك بن دينار: ما زرع القران في قلوبكم يا أهل القرآن؟ إن القرآن ربيع المؤمن كما أن الغيث ربيع الأرض.

قال ابن القيم: إذا أردت الانتفاع بالقرآن فأجمع قلبك عند تلاوته وسماعه، وألق سمعك، واحضر حضور من يخاطبه به من تكلم به سبحانه منه إليه، فإنه خطاب منه لك على لسان رسوله.

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: الشيطان يريد بوساوسه أن يشغل القلب عن الانتفاع بالقرآن، لأن قراءة القرآن على الوجه المأمور به تورث القلب الإيمان العظيم وتزيده يقينًا وطمأنينة وشفاء.

- ذم من ترك تدبر القرآن.

قال تعالى (وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَلَّى مُسْتَكْبِرًا كَأَنْ لَمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْرًا

=

=

فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ).

وقال تعالى (لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ).

وقال تعالى (أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا).

وقال تعالى (أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُمْ مَا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ).

وقال تعالى (وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا).

وفي وصف الخوارج (يقرؤون القرآن لا يجاوز حناجرهم).

أمثلة تطبيقية لتدبر القرآن:

تقول عائشة (ما صلى رسول الله ﷺ بعد أن أنزلت عليه (إذا جاء..) إلا يقول: سبحانك ربنا وبحمدك، الهم اغفر لي) متفق عليه.

عن انس قال (كان أبو طلحة أكثر الأنصار مالا، وكانت أحب أمواله بيرحاء، وكانت مستقبلة المسجد، فلما نزلت الآية (لن تنالوا البر..) قام أبو طلحة فقال: يا رسول الله: إن الله يقول (لن تنالوا البر..) وان أحب أموالي بيرحاء وإنها صدقة لله...) رواه مسلم.

عن عائشة قالت (لما نزل الله براءتي، قال أبو بكر – وكان ينفق على مسطح لقرابته وفقره – والله لا أنفق على مِسْطح شيئًا أبدًا، فأنزل الله (وَلَا يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَى وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللهُ لَكُمْ) قال أبو بكر: بلى والله، إني أحب أن يغفر لي، فرجع في نفقته على مسطح) رواه البخاري.

قوله تعالى: {أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ} [محمد: ٢٤]، أي:" أفلا يتدبر هؤلاء المنافقون مواعظ القرآن ويتفكرون في حججه؟".

=

=

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره: أفلا يتدبر هؤلاء المنافقون مواعظ الله التي يعظهم بها في آي القرآن الذي أنزله على نبيه عليه الصلاة والسلام، ويتفكَّرون في حُججه التي بيَّنها لهم في تنزيله فيعلموا بها خطأ ما هم عليه مقيمون".

قال مقاتل:" يقول: أفلا يسمعون القرآن".

قال النحاس:" أي: فيعملون بما فيه ويقفون على دلائله".

قال ابن كثير:" يقول تعالى آمرًا بتدبر القرآن وتفهمه، وناهيا عن الإعراض عنه، فقال: {أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا}".

قوله تعالى: {أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا} [محمد: ٢٤]، أي:" بل هذه القلوب مغلَقة لا يصل إليها شيء من هذا القرآن، فلا تتدبر مواعظ الله وعبره".

قال الطبري:" يقول: أم أقفل الله على قلوبهم فلا يعقلون ما أنزل الله في كتابه من المواعظ والعِبَر".

قال النحاس:" أي: أقفال تمنعها من ذلك".

قال مقاتل:" يعنى: الطبع على القلوب".

قال ابن كثير:" أي: بل على قلوب أقفالها، فهي مُطْبَقَة لا يخلص إليها شيء من معانيه".

عن قتادة، قوله: " {أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا}، إذا والله يجدون في القرآن زاجرا عن معصية الله، لو تدبره القوم فعقلوه، ولكنهم أخذوا بالمتشابه فهلكوا عند ذلك".

قال خالد بن مَعدان: "ما من آدميّ إلا وله أربع أعين: عينان في رأسه لدنياه، وما يصلحه من معيشته، وعينان في قلبه لدينه، وما وعد الله من الغيب، فإذا أراد الله بعبد خيرا أبصرت عيناه اللتان في قلبه، وإذا أراد الله به غير ذلك طَمسَ عليهما، فذلك قوله: {أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا}".

=

إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَى لَهُمْ (٢٥).

{إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا} بِالنِّفَاقِ {عَلَى أَدْبَارهمْ مِنْ بَعْد مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ الْهُدَى الشَّيْطَان سَوَّلَ} أَيْ زَيَّنَ {لَهُمْ وَأُمْلِيَ لَهُمْ} بِضَمِّ أَوَّله وَبِفَتْحِهِ وَاللَّام وَالْمُمْلِي الشَّيْطَان بِإِرَادَتِهِ تَعَالَى فَهُوَ المضل لهم.

ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ وَاللهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ (٢٦).

{ذَلِكَ} أَيْ إضْلَالهمْ {بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ الله} أَيْ لِلْمُشْرِكِينَ {سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْض الْأَمْر} أَيْ الْمُعَاوَنَة عَلَى عَدَاوَة النَّبِيّ ﷺ وَتَثْبِيط النَّاس عَنْ الْجِهَاد مَعَهُ قَالُوا ذَلِكَ سِرًّا فَأَظْهَرَهُ الله تَعَالَى {وَالله يَعْلَم إسْرَارهمْ} بِفَتْحِ الْهَمْزَة جَمْع سر وبكسرها مصدر.

فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ (٢٧).

{فكيف} حالهم {إذا تَوَفَّتْهُمْ الْمَلَائِكَة يَضْرِبُونَ} حَال مِنْ الْمَلَائِكَة {وُجُوههمْ وَأَدْبَارهمْ} ظُهُورهمْ بِمَقَامِع مِنْ حَدِيد.

ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ (٢٨).

=

وفي رواية قال معدان:" ما من الناس أحد إلا وله أربع أعين، عينان في وجهه لمعيشته، وعينان في قلبه، وما من أحد إلا وله شيطان متبطن فقار ظهره، عاطف عنقه على عنقه، فاغر فاه إلى ثمرة قلبه، فإذا أراد الله بعبد خيرا أبصرت عيناه اللتان في قلبه ما وعد الله من الغيب، فعمل به، وهما غيب، فعمل بالغيب، وإذا أراد الله بعبد شرّا تركه، ثم قرأ: {أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا}".

{ذَلِكَ} التَّوَفِّي عَلَى الْحَالَة الْمَذْكُورَة {بِأَنَّهُمْ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ الله وَكَرِهُوا رِضْوَانه} أَيْ الْعَمَل بما يرضيه {فأحبط أعمالهم}[1].

---

(١) قوله تعالى: (إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِهِمْ) أي: فارقوا الإيمان ورجعوا إلى الكفر.

- هؤلاء الذين ارتدوا من بعد إيمانهم قوم كفروا بعد إيمانهم، قيل: هم اليهود الذين كانوا يؤمنون بنبينا محمد ﷺ، فلما بعث وتحققوا أنه هو النبي ﷺ الموصوف في كتبهم كفروا به، وعلى هذا القول فارتدادهم على أدبارهم هو كفرهم به بعد أن عرفوه وتيقنوه، وعلى هذا فالهدى الذي تبين لهم هو صحة نبوته ﷺ ومعرفته بالعلامات الموجودة في كتبهم.

وقيل: نزلت في المنافقين، ورجحه الإمام ابن جرير رَحِمَهُ ٱللَّهُ وقال: وهذه الصفة بصفة أهل النفاق عندنا أشبه منها بصفة أهل الكتاب وذلك أن الله عَزَّ وَجَلَّ أخبر أن ردتهم كانت لقيلهم للذين كرهوا ما نزل الله سنطيعكم في بعض الأمر، ولو كانت من صفة أهل الكتاب، لكان في وصفهم بتكذيب محمد ﷺ الكفاية من الخبر عنهم أنهم إنما ارتدوا من أجل قيلهم ما قالوا.

(مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى) أي: من بعد ما تبين الحق.

(الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ) أي: سبب ارتداد هؤلاء القوم من بعد ما تبين لهم الهدى، هو تسويل الشيطان: أي تزيين الشيطان لهم الكفر وتحسينه والارتداد عن الدين.

(وَأَمْلَى لَهُمْ) أي: مد لهم في الأمل ووعدهم طول العمر، لأن طول الأمل من أعظم أسباب ارتكاب الكفر والمعاصي.

- وأصل الإملاء: الإمهال والمد في الأجل.

وقال بعض العلماء: ضمير الفاعل في قوله (وأملى لهم) راجع إلى الله تعالى، والمعنى: الشيطان (سول لهم) أي: سهل لهم الكفر والمعاصي وزينه وحسنه، =

=

والله جل وعلا أملى لهم، أي: أمهلهم إمهال استدراج.

قوله تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى} [محمد: ٢٥]، أي:" إن الذين ارتدُّوا عن الهدى والإيمان، ورجعوا على أعقابهم كفارًا بالله من بعد ما وَضَح لهم الحق".

قال الطبري:" يقول الله ﷻ إن الذين رجعوا القهقرى على أعقابهم كفارا بالله من بعد ما تبين لهم الحقّ وقصد السبيل، فعرفوا واضح الحجة، ثم آثروا الضلال على الهدى عنادا لأمر الله تعالى ذكره من بعد العلم".

قال النحاس:" أي: رجعوا بعد سماع الهدى وتبيينه إلى الكفر".

قال ابن كثير:" أي: فارقوا الإيمان ورجعوا إلى الكفر، {مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى}".

وفي قوله تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى} [محمد: ٢٥]، قولان:

أحدهما: أنهم اليهود كفروا بمحمد -ﷺ- من بعدما علموا في التوراة أنه نبي، قاله قتادة، وابن جريج، ومقاتل.

قال قتادة:" هم أعداء الله أهل الكتاب، يعرفون بعث محمد نبيّ الله ﷺ وأصحابه عندهم، ثم يكفرون به".

وعن قتادة: " {مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى}، إنهم يجدونه مكتوبا عندهم".

قال ابن جريج:" اليهود ارتدوا عن الهدى بعد أن عرفوا أن محمدا ﷺ نبي".

الثاني: أنهم أهل النفاق، قعدوا عن القتال من بعدما علموه في القرآن، قاله ابن عباس، والضحاك، والسدي.

قال الطبري:" وهذه الصفة بصفة أهل النفاق عندنا، أشبه منها بصفة أهل الكتاب، وذلك أن الله ﷻ أخبر أن ردّتهم كانت بقيلهم: {لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نزلَ اللهُ سَنُطِيعُكُمْ

=

=

فِي بَعْضِ الأَمْرِ}، ولو كانت من صفة أهل الكتاب، لكان في وصفهم بتكذيب محمد ﷺ الكفاية من الخبر عنهم بأنهم إنما ارتدّوا من أجل قيلهم ما قالوا".

قوله تعالى: {الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَى لَهُمْ} [محمد: ٢٥]، أي:" الشيطان زيَّن لهم خطاياهم، ومدَّ لهم في الأمل".

قال ابن كثير: " {الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ}، أي: زين لهم ذلك وحسنه، {وَأَمْلَى لَهُمْ}، أي: غرهم وخدعهم".

وقال الطبري: يقول:" الشيطان زين لهم ارتدادهم على أدبارهم، من بعد ما تبين لهم الهدى، والله مدّ لهم في آجالهم مُلاوة من الدهر".

قال مقاتل:" {الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُم}، يعني: زين لهم ترك الهدى، يعني: إيمانا بمحمد ﷺ. {وَأَمْلَى لَهُمْ}، ذلك فيها تقديم: وأمهل الله لهم حين قالوا: ليس محمد بنبي! فلم يعجل عليهم".

عن قتادة: " {الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَى لَهُمْ}، يقول: زين لهم".

عن ابن جريج، في قوله: " {الشَّيْطانُ سَوَّلَ لَهُمْ وأَمْلى لَهُمْ}، قال: أملى الله لهم".

وقرئ: «وَأُمْلِيَ لَهُمْ» على وجه ما لم يسمّ فاعله. وقرأ مجاهد: «وَأُمْلِي» بضم الألف وإرسال الياء، على وجه الخبر من الله جلّ ثناؤه عن نفسه أنه يفعل ذلك بهم.

(ذَلِكَ) أي: ما تقدم من الإمهال والإملاء.

(بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللهُ) أي: قالوا لليهود الذين كرهوا القرآن الذي نزّله الله حسدًا وبغيًا.

(سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ) أي: سنطيعكم في بعض ما تأمرونا به كالقعود عن الجهاد، وتثبيط المسلمين عنه وغير ذلك.

(وَاللهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ) أي: ما يسرون وما يخفون، الله مطلع عليه وعالم به كقوله

=

=

(واللهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ).

قوله تعالى: {ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ} [محمد: ٢٦]، أي:" ذلك الإمداد لهم حتى يتمادوا في الكفر ؛ بسبب أنهم قالوا لليهود الذين كرهوا ما نزل الله: سنطيعكم في بعض الأمر الذي هو خلاف لأمر الله وأمر رسوله".

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره: أملى الله لهؤلاء المنافقين وتركهم، والشيطان سول لهم، فلم يوفقهم للهدى من أجل أنهم {قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نزلَ اللهُ} من الأمر بقتال أهل الشرك به من المنافقين: {سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الأمْرِ} الذي هو خلاف لأمر الله تبارك وتعالى، وأمر رسوله ﷺ".

قال الزجاج:" المعنى - والله أعلم - الأمر ذلك أي ذلك الإِضلال بقولهم للذين كرهوا ما نزل الله، وجاء في التفسير أنهم اليهود، قالوا: سنطيعكم في التظاهر على عداوة النبي ﷺ".

قال النحاس:" أي: الأمر ذلك الإضلال فإنهم قالوا لليهود سنطيعكم في التضافر على عداوة محمد ﷺ".

قال ابن كثير:" أي: مالئوهم وناصحوهم في الباطن على الباطل، وهذا شأن المنافقين يظهرون خلاف ما يبطنون".

قال مقاتل:" ثم انتقم منهم حين قتل أهل قريظة، وأجلى أهل النضير، يقول {ذلك} الذي أصابهم من القتل والجلاء {بأنهم قالوا للذين كرهوا}، يعني: تركوا الإيمان، يعني: المنافقين، {ما نزل الله} من القرآن {سنطيعكم في بعض الأمر}، قالت اليهود للمنافقين في تكذيب بمحمد ﷺ وهو بعض الأمر، قالوا ذلك سرا فيما بينهم".

عن قتادة: " {ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نزلَ اللهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ

=

=

الأمْرِ}، فهؤلاء المنافقون".

قوله تعالى: {وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ} [محمد: ٢٦]، أي:" والله تعالى يعلم ما يخفيه هؤلاء ويسرونه".

عن ابن جريج:" واللهُ يَعْلَمُ إسْرارَهُمْ}، قال: ذلك سر القول".

قال مقاتل:" يعنى: اليهود والمنافقين".

قال ابن كثير:" أي: يعلم ما يسرون وما يخفون، الله مطلع عليه وعالم به، كقوله: {وَاللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ} [النساء: ٨١]".

قال الطبري: يقول:" والله يعلم إسرار هذين الحزبين المتظاهرين من أهل النفاق، على خلاف أمر الله وأمر رسوله، إذ يتسارّون فيما بينهم بالكفر بالله ومعصية الرسول، ولا يخفى عليه ذلك ولا غيره من الأمور كلها".

قرأته عامة قرّاء أهل المدينة والبصرة: «أَسْرَارَهُمْ» بفتح الألف من أسرارهم على وجه جماع سرّ. وقرأ ذلك عامة قرّاء الكوفة {إِسْرَارَهُمْ} بكسر الألف على أنه مصدر من أسررت إسرارا.

قال الزجاج:" فمن قرأ «أَسْرَارَهُمْ» - بالفتح - فهُو جمعُ: سِرٍّ وأسرار، مثل: حمل وأحمال، ومن قرأ: {إِسْرَارَهُمْ}، فهو مصدر: أَسْرَرْتُ إسرَارا".

قوله: (فَكَيْفَ) ترى حالهم الشنيعة، ورؤيتهم الفظيعة.

(إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلائِكَةُ) الموكلون بقبض أرواحهم، وهم ملك الموت وأعوانه.

(يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ) بالمقامع الشديدة عند الموت.

كما قال تعالى (وَلَوْ تَرَى إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ).

وقال تعالى (وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلائِكَةُ بَاسِطُو أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ) فقوله (بَاسِطُو أَيْدِيهِمْ) أي: بالضرب

=

=

المذكور.

وقيل: لا يتوفى أحد على معصية إلا وتضرب الملائكة في وجهه ودبره، وقيل: ذلك عند القتال؛ نصرة من الملائكة لرسول الله ﷺ، فيضربون وجوههم عند الطلب، وأدبارهم عند الهرب، وقيل: ذلك يوم القيامة عند سوقهم إلى النار، والأول أولى، ويؤيده الآية السابقة (وَلَوْ تَرَى إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ...).

- قوله تعالى (على وجوههم) أي: يضربون وجوههم التي ولوها عن الله إلى أعداء الله. (وأدبارهم) التي ولوها عن الأعداء إلى الله.

قال الطبري: يقول:" والله يعلم إسرار هؤلاء المنافقين، فكيف لا يعلم حالهم إذا توفتهم الملائكة، وهم يضربون وجوههم وأدبارهم، يقول: فحالهم أيضا لا يخفى عليه في ذلك الوقت ويعني بالأدبار: الأعجاز".

قال النحاس:" فيه حذف، أي: فكيف تكون حالهم {يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ}".

قال ابن كثير:" أي: كيف حالهم إذا جاءتهم الملائكة لقبض أرواحهم وتعصت الأرواح في أجسادهم، واستخرجتها الملائكة بالعنف والقهر والضرب، كما قال: {وَلَوْ تَرَى إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ} الآية [الأنفال: ٥٠]، وقال: {وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ}، أي: بالضرب {أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنْتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ} [الأنعام: ٩٣]".

قال ابن أبي زمنين: "المعنى: فكيف تكون حالهم إذا فعلت الملائكة هذا بهم؟!".

وفي قوله تعالى: {فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ} [محمد: ٢٧]، وجهان من التفسير:

=

أحدهما: بقبض الأرواح عند الموت، يعني: ملك الموت وحده. قاله ابن جريج، ومقاتل.

الثاني: بالقتال نصرة لرسول الله -ﷺ-. قاله ابن عباس، مجاهد.

قال ابن عباس:" إذا أقبل المشركون بوجوههم إلى المسلمين، ضربوا وجوههم بالسيوف. وإذا ولّوا، أدركتهم الملائكة فضربوا أدبارهم".

عن الحسن قال: "قال رجل: يا رسول الله، إني رأيت بظهر أبي جهل مثل الشراك! قال: ما ذاك؟ قال: ضربُ الملائكة".

عن مجاهد: "أن رجلا قال للنبي ﷺ: إني حملت على رجل من المشركين فذهبت لأضربه، فنَدَرَ رأسُه؟ فقال: سبقك إليه الملك".

وفي قوله تعالى: {يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ} [محمد: ٢٧]، وجهان من التفسير

أحدهما: يضربون وجوههم في القتال عند الطلب وأدبارهم عند الهرب.

الثاني: يضربون وجوههم عند الموت بصحائف كفرهم، وأدبارهم في القيامة عند سوقهم إلى النار.

عن الحسن: {توفتهم الْمَلَائِكَة}،حشرتهم إلى النار، {يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وأدبارهم} في النار".

قال الزجاج:" يفعلون بهم ذلك في نار جهنم - والله أعلم - ويكون المعنى فكيف يكون حالهم إذا توفتهم الملائكة وهم يضربون وجوههم وأدبَارَهم".

عن مجاهد، قوله:" {يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وأدبارهم}، قال: وأستاههم، ولكنه كريم يَكْنِي".

(ذَلِكَ) العذاب الذي استحقوه عند الوفاة من الضرب على الوجوه والأدبار.

(بِـ) سبب.

=

(أَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللهَ) أي: اتبعوا ما أغضب الله، من الكفر وطاعة الكفار الكارهين لما نزل به، ومعصية الله.

- والإسخاط استجلاب السخط، وهو الغضب هنا.

(وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ) أي: وكرهوا كل ما يرضي الله من الإيمان والجهاد وغيرهما من الطاعات، ورضوان الله في العمل فيما نزل، فمن أطاع من كره ما أنزل الله فقد كره رضوان الله.

(فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ) أي: أبطلها وأذهبها، لأن الكفر سيئة لا تنفع معها حسنة، والمراد أعمالهم التي صورتها صورة الطاعة، وإلا فلا عمل للكافر، أو أحبط ما عملوه قبل الردة من أعمال الخير.

قال الشنقيطي: والتحقيق الذي لا شك فيه أن هذه الآيات عامة في كل ما يتناوله لفظها، وأن كل ما فيها من الوعيد عام لمن أطاع من كره ما نزل الله. [قاله الشنقيطي].

قوله تعالى: {ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللهَ} [محمد: ٢٨]، أي:" ذلك العذاب الذي استحقوه ونالوه؛ بسبب أنهم اتبعوا ما أسخط الله عليهم من طاعة الشيطان".

قال الطبري: يقول:" تفعل الملائكة هذا الذي وصفت بهؤلاء المنافقين من أجل أنهم اتبعوا ما أسخط الله، فأغضبه عليهم من طاعة الشيطان".

قال الزجاج:" المعنى - والله أعلم -: ذلك جزاؤهم بأنهم اتبعوا الشيء الذي أسخط الله، أي: اتبعوا مَن خالف النبي ﷺ ومن خالف الشريعة وكرهوا الإيمان بالنبي ﷺ واتباع شريعته".

قال النحاس:" أي: ذلك جزاؤهم بأنّهم اتّبعوا الشيء أسخط الله من ترك متابعة النبيّ ﷺ".

عن ابن عباس:" {بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا ما أَسْخَطَ اللهَ} بما كتموا مِن التوراة، وكفروا

=

أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَنْ لَنْ يُخْرِجَ اللهُ أَضْغَانَهُمْ (٢٩).

{أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبهمْ مَرَض أَنْ لَنْ يُخْرِج الله أَضْغَانهمْ} يُظْهِر أَحْقَادهمْ عَلَى النَّبِيّ ﷺ وَالْمُؤْمِنِينَ.

وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِيمَاهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ وَاللهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ (٣٠).

=

بمحمد - ﷺ".

قوله تعالى: {وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ} [محمد: ٢٨]، أي:" وكرهوا ما يرضيه عنهم من العمل الصالح، ومنه قتال الكفار بعدما افترضه عليهم".

قال الطبري:" يقول: وكرهوا ما يرضيه عنهم من قتال الكفار به، بعد ما افترضه عليهم".

قال الزجاج:" وكرهوا الإيمان بالنبي ﷺ واتباع شريعته".

قال النحاس:" أي: اتّباع شريعته والإيمان".

قال ابن الجوزي:" أي: كَرِهوا ما فيه الرِّضوان، وهو الإيمان والطّاعة".

قوله تعالى: {فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ} [محمد: ٢٨]، أي:" فأبطل الله ثواب أعمالهم من صدقة وصلة رحم وغير ذلك".

قال الطبري:" يقول: فأبطل الله ثواب أعمالهم وأذهبه، لأنها عملت في غير رضاه ولا محبته، فبطلت، ولم تنفع عاملها".

قال الزجاج:" أي: ما كان من عمل خيرٍ نحو صلة رحم أَوْ برٍ أو صَدَقةٍ، أحبط الله ذلك بكفرهم بما أتى به النبي ﷺ".

قال النحاس:" أي: فأحبط ذلك، ويجوز أن يكون المعنى: فأحبط الله جلّ وعزّ ما عملوا من خير بكفرهم".

{ولو نشاء لأريناكهم} عرفناكم وَكُرِّرَتْ اللَّام فِي {فَلَعَرَفْتهمْ بِسِيمَاهُمْ} عَلَامَتهمْ {وَلَتَعْرِفَنهُمْ} الْوَاو لِقَسَمٍ مَحْذُوف وَمَا بَعْدهَا جَوَابه {فِي لَحْن الْقَوْل} أَيْ مَعْنَاهُ إذَا تَكَلَّمُوا عِنْدك بِأَنْ يَعْرِضُوا بِمَا فِيهِ تَهْجِين أَمْر الْمُسْلِمِينَ {والله يعلم أعمالكم.

وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ (٣١).

{وَلَنَبْلُوَنَّكُم} نَخْتَبِرَنَّكُمْ بِالْجِهَادِ وَغَيْره {حَتَّى نَعْلَم} عِلْم ظُهُور {الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ} فِي الْجِهَاد وَغَيْره {وَنَبْلُو} نُظْهِر {أَخْبَاركُمْ} مِنْ طَاعَتكُمْ وَعِصْيَانكُمْ فِي الْجِهَاد وَغَيْره بِالْيَاءِ وَالنُّون فِي الْأَفْعَال الثَّلَاثَة(١).

---

(١) قوله تعالى: (أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَنْ لَنْ يُخْرِجَ اللهُ أَضْغَانَهُمْ) أي: أيعتقد المنافقون أن الله لا يكشف أمرهم لعباده المؤمنين؟ بل سيوضح أمرهم ويجليه حتى يفهمهم ذوو البصائر.

- الأضغان جمع ضغن: وهو ما في النفوس من الحسد والحقد للإسلام وأهله والقائمين بنصره.

- وقد أنزل الله تعالى في ذلك سورة (براءة) فبيّن فيها فضائحهم وما يعتمدونه من الأقوال الدالة على نفاقهم، ولهذا إنما كانت تسمى (الفاضحة).

قوله تعالى: {أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ} [محمد: ٢٩]، أي:" بل أحسب أولئك المنافقون الذين في قلوبهم حقد وعداوة للمؤمنين".

قال الطبري: يقول:" أحسب هؤلاء المنافقون الذين في قلوبهم شكٌّ في دينهم، وضعف في يقينهم، فهم حيارى في معرفة الحقّ".

قال مقاتل:" يعني: الشك بالقرآن، وهم المنافقون".

قوله تعالى: {أَنْ لَنْ يُخْرِجَ اللهُ أَضْغَانَهُمْ} [محمد: ٢٩]، أي:" أن الله لن يُخرِج ما =

=

في قلوبهم من الحسد والحقد للإسلام وأهله؟".

قال الطبري: يقول:" أن لن يُخرج الله ما في قلوبهم من الأضغان على المؤمنين، فيبديه لهم ويظهره، حتى يعرفوا نفاقهم، وحيرتهم في دينهم".

قال مقاتل:" يعني: أن لن يظهر الله الغش الذي في قلوبهم للمؤمنين".

قال الفراء:" يقول: أن لن يبدى الله عداوتهم وبغضهم لمحمد ﷺ".

قال ابن كثير:" أي: اعتقد المنافقون أن الله لا يكشف أمرهم لعباده المؤمنين؟ بل سيوضح أمرهم ويجليه حتى يفهمهم ذوو البصائر، وقد أنزل تعالى في ذلك سورة "براءة"، فبين فيها فضائحهم وما يعتمدونه من الأفعال الدالة على نفاقهم؛ ولهذا إنما كانت تسمى الفاضحة. والأضغان: جمع ضغن، وهو ما في النفوس من الحسد والحقد للإسلام وأهله والقائمين بنصره".

عن السدي:" {أَنْ لَنْ يُخْرِجَ اللهُ أَضْغَانَهُمْ} : غشهم".

قال ابن عباس:" هم أهل النفاق".

قال عبيد: "سمعت الضحاك يقول في قوله {أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ} ... الآية، هم أهل النفاق".

عن ابن عباس، قوله:" {أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَرَضٌ أَنْ لَنْ يُخْرِجَ اللهُ أَضْغَانَهُمْ} ، قال: أعمالهم خبثهم، والحسد الذي في قلوبهم، ثم دل الله النبي ﷺ بعد على المنافقين فكان يدعو باسم الرجل من أهل النفاق".

(ولَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِيمَاهُمْ) أي: ولو نشاء يا محمد لأريناك أشخاصهم فعرفتهم عيانًا، ولكن لم يفعل تعالى ذلك في جميع المنافقين سترًا منه على خلقه، وحملًا للأمور على ظاهر السلامة، ورد السرائر إلى عالمها كما قال عثمان: ما أسر أحد سريرة إلا أبداها الله على صفحات وجهه.

(وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ) أي: لابد أن يظهر ما في قلوبهم، ويتبين بفلتات

=

=

ألسنتهم، فإن الألسن مغارف القلوب، يظهر منها ما في القلوب من الخير والشر؟ وإلى هذا المعنى ذهب المفسرون؛ فبه قال أبو عبيدة معمر بن المثنى، والطبري، والنحاس، والسمعاني، والماوردي، والبغوي، والشوكاني.

(وَاللهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ) لا تخفى عليه منها خافية فيجازيكم بها، وفيه وعيد شديد.

قوله تعالى: {وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِيمَاهُمْ} [محمد: ٣٠]، أي:" ولو نشاء -أيها النبي- لأريناك أشخاصهم، فلعرفتهم بعلامات ظاهرة فيهم".

قال الطبري: يقول:" ولو نشاء يا محمد لعرّفناك هؤلاء المنافقين حتى تعرفهم من قول القائل: سأريك ما أصنع، بمعنى سأعلمك".

قال الفراء:" يريد: لعرفناكهم، تقول للرجل: قد أريتك كذا وكذا، ومعناه عرفتكه وعلمتكه".

قال الزجاج:" المعنى: لو نشاء لجعلنا على المنافقين علامة وهي السيمياء، {فَلَعَرَفْتَهُمْ} بتلك العلامة".

قال ابن كثير:" يقول تعالى: ولو نشاء يا محمد لأريناك أشخاصهم، فعرفتهم عيانا، ولكن لم يفعل تعالى ذلك في جميع المنافقين سترا منه على خلقه، وحملا للأمور على ظاهر السلامة، ورد السرائر إلى عالمها".

قال السعدي:" أي: بعلاماتهم التي هي كالوسم في وجوههم".

قال ابن عباس:" هم أهل النفاق، وقد عرّفه إياهم في براءة، فقال: {وَلا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ}، وقال: {فَقُلْ لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَنْ تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا}".

قال الضحاك:" {فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِيمَاهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ}، فعرّفه الله إياهم في سوره براءة، فقال: {وَلا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا}، وقال: «قل لهم لن تَنْفِرُوا معي أبدا ولن تقاتلوا معي عدوا»".

=

=

قال ابن زيد:" هؤلاء المنافقون، قال: وقد أراه الله إياهم، وأمر بهم أن يخرجوا من المسجد، قال: فأبوا إلا أن تمسكوا بلا إله إلا الله؛ فلما أبوا إلا أن تمسكوا بلا إله إلا إلله حُقِنت دماؤهم، ونكحوا ونوكحوا بها".

قوله تعالى: {وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ} [محمد: ٣٠]، أي:" ولتعرفنَّهم فيما يبدو من كلامهم الدال على مقاصدهم".

عن ابن زيد، في قوله: " {فِي لَحْنِ الْقَوْلِ}، قال: قولهم".

قال ابن عباس: "في معنى القول".

قال الحسن:" في فحواه".

وقال القرظي: "في مقصده ومغزاه".

قال الطبري:" يقول: فلتعرفهم بعلامات النفاق الظاهرة منهم في فحوى كلامهم وظاهر أفعالهم ثم إن الله تعالى ذكره عرفه إياهم".

قال الفراء:" فِي نحو القول، وفي معنى القول".

قال ابن كثير:" أي: فيما يبدو من كلامهم الدال على مقاصدهم، يفهم المتكلم من أي الحزبين هو بمعاني كلامه وفحواه، وهو المراد من لحن القول، كما قال أمير المؤمنين عثمان بن عفان، رضي الله عنه: ما أسر أحد سريرة إلا أبداها الله على صفحات وجهه، وفلتات لسانه. وفي الحديث: «ما أسر أحد سريرة إلا كساه الله جلبابها، إن خيرا فخير، وإن شرًّا فشر»".

قال الزجاج:" أي: في فحوى القَوْلِ. فدلَّ بهذا والله أعلم - على أن قول القائل وفعله يدُلُّ على نِيَّته، وقولُ الناس: قد لَحَنَ فلانٌ، تأويله: قد أَخذ في ناحية عن الصواب، وَعدَلَ عن الصواب إِليها، وقول الشاعر:

مَنطِقٌ صائِبٌ وَتَلَحَنُ أَحْيَانًا... وَخَيرُ الحَدِيْثِ مَا كَانَ لَحْنَا

تأويله: خير الحديث من مِثْل هذه ما كان لا يعرفه كلُّ أحد، إِنما يُعْرَفُ قولها في

=

=

أنحاء قولها".

قال السعدي:" أي: لا بد أن يظهر ما في قلوبهم، ويتبين بفلتات ألسنتهم، فإن الألسن مغارف القلوب، يظهر منها ما في القلوب من الخير والشر".

قوله تعالى: {وَاللهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ} [محمد: ٣٠]، أي:" والله تعالى لا تخفى عليه أعمال مَن أطاعه ولا أعمال من عصاه، وسيجازي كلا بما يستحق".

قال الطبري:" لا يخفى عليه العامل منكم بطاعته، والمخالف ذلك، وهو مجازي جميعكم عليها".

(وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ) أي: ولنختبركم بالأوامر والنواهي والتكاليف كالجهاد في سبيل الله وغيره.

(حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ) أي: لكي يتميز بذلك الصادق من الكاذب، والمؤمن من المنافق.

كما قال تعالى (أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللهِ أَلا إِنَّ نَصْرَ اللهِ قَرِيبٌ).

وقال تعالى (ألم. أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ. وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ).

وقال تعالى (مَا كَانَ اللهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ). المعنى: لن يترك الله المؤمنين مختلطين بالمنافقين حتى يبتليهم فيفصل بين هؤلاء وهؤلاء كما فعل في غزوة أحد حيث ظهر أهل الإيمان وأهل النفاق، قال ابن كثير: أي لا بد أن يعقد شيئًا من المحنة يظهر فيها وليه ويُفضح بها عدوه، يعرف بها المؤمن الصابر من المنافق الفاجر، كما ميّز بينهم يوم أحد.

=

=

- وقوله تعالى (حَتَّى نَعْلَمَ..) المراد علمًا يترتب عليه الثواب والعقاب، فلا ينافي أنه كان عالمًا به قبل ذلك، وفائدة الاختبار ظهور الأمر للناس، قال القرطبي: هذا العلم هو العلم الذي يقع عليه به الجزاء، لأنه إنما يجازيهم بأعمالهم لا بعلمه القديم عليهم.

(وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ) أي: نظهرها ونبرزها للناس، كما قال تعالى (مَا كَانَ اللهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ) لأن المراد بميز الخبيث من الطيب ظهور ذلك للناس.

قوله تعالى: {وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ} [محمد: ٣١]، أي:" ولنختبرنكم -أيها المؤمنون- بالقتال والجهاد لأعداء الله حتى يظهر ما علمه سبحانه في الأزل؛ لنميز أهل الجهاد منكم والصبر على قتال أعداء الله".

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره لأهل الإيمان به من أصحاب رسول الله ﷺ: {وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ} أيها المؤمنون بالقتل، وجهاد أعداء الله، حتى يعلم حزبي وأوليائي أهل الجهاد في الله منكم، وأهل الصبر على قتال أعدائه، فيظهر ذلك لهم، ويعرف ذوو البصائر منكم في دينه من ذوي الشكّ والحيرة فيه وأهل الإيمان من أهل النفاق ونبلو أخباركم، فنعرف الصادق منكم من الكاذب".

قال النسفي:" {ولنبلونكم} بالقتال إعلاما لا استعلاما أو نعاملكم معاملة المختبر ليكون أبلغ في إظهار العدل {حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين} على الجهاد أي نعلم كائنا ما علمناه أنه سيكون".

قال السمعاني:" أي: نعلم علم الشهادة، وهو العلم الذي يقع عليه الوعد والوعيد. ويقال: لنعاملكم معاملة من يريد أن يعلم أعمالكم. ويقال معناه: حتى تعلموا أنا علمنا أعمالكم".

قال ابن كثير:" أي: ولنختبرنكم بالأوامر والنواهي، {حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ

=

=

وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ} . وليس في تقدم علم الله تعالى بما هو كائن أنه سيكون شك ولا ريب، فالمراد: حتى نعلم وقوعه؛ ولهذا يقول ابن عباس في مثل هذا: إلا لنعلم، أي: لنرى".

قال الزجاج:" معنى {لَنَبْلُوَنَّكُمْ} لنختبرنكم بالحرب. {حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ}، وهو ﷻ قَدْ عَلِمَ قَبْلَ خَلْقِهِم المجاهدين منهم والصابرين، ولكنه أراد العلم الذي يقع به الجزاء، لأنه إنما يجازيهم على أعمالهم. فتأويله: حتى يعلم المجاهدين علم شهادة، وقد علم ﷻ الغيب، ولكن الجزاء بالثواب والعقاب يقع على علم شهادة".

قال ابن أبي زمينين:" {وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ} وهذا علم الفعال".

قال النحاس:" الابتلاء -في اللغة-: الاختبار فقيل: المعنى: لنشدّدنّ عليكم في التعبّد، وذلك في الأمر بالجهاد، والنهي عن المعاصي. يدلّ على ذلك حتّى نعلم المجاهدين منكم والصابرين".

عن ابن زيد، قوله:" {وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ}، قال: نختبركم، البلوى: الاختبار. وقرأ: {الم أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ) قال: لا يختبرون (وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ} ... الآية".

قال ابن عباس:" أخبر الله سبحانه المؤمنين أن الدنيا دار بلاء، وأنه مبتليهم فيها، وأمرهم بالصبر، وبشَّرهم فقال: {وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ} ثم أخبرهم أنه هكذا فعل بأنبيائه، وصفوته لتطيب أنفسهم، فقال: {مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا} فالبأساء: الفقر، والضّراء: السقم، وزُلزلوا بالفتن وأذى الناس إياهم".

قوله تعالى: {وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ} [محمد: ٣١]، أي:" ونختبر أقوالكم وأفعالكم، فيظهر الصادق منكم من الكاذب".

=

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللهِ وَشَاقُّوا الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى لَنْ يَضُرُّوا اللهَ شَيْئًا وَسَيُحْبِطُ أَعْمَالَهُمْ (٣٢).

{إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيل الله} طَرِيق الْحَقّ {وَشَاقُّوا الرَّسُول} خَالَفُوهُ {مِنْ بَعْد مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ الْهُدَى} هُوَ مَعْنَى سَبِيل الله {لَنْ يَضُرُّوا الله شَيْئًا وَسَيُحْبِطُ أَعْمَالهمْ} يُبْطِلهَا مِنْ صَدَقَة وَنَحْوهَا فَلَا يَرَوْنَ لَهَا فِي الْآخِرَة ثَوَابًا نَزَلَتْ فِي الْمُطْعِمِينَ مِنْ أَصْحَاب بَدْر أَوْ فِي قُرَيْظَة وَالنَّضِير.

يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ (٣٣).

{يَا أَيّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا الله وَأَطِيعُوا الرَّسُول وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالكُمْ} بِالْمَعَاصِي مَثَلًا.

=

قال النسفي: أي: "أسراركم".

قال الواحدي:" أي: نظهرها، ونكشفها، بإباء من يأبى القتال، ولا يصبر على الجهاد".

قال النحاس:" أي: ما عملتم فيما تعبّدتم به".

قال ابن أبي زمينين:" أي: نختبركم؛ فنعلم من يصدق فيما أعطي من الإيمان ومن يكذب".

قال الشَّافِعِي رَحِمَهُ اللهُ: "ومنه: ما فرض الله على خلقه الاجتهاد في طلبه، وابتلى طاعتهم في الاجتهاد، كما ابتلى طاعتهم في غيره مما فرض عليهم، فإنه يقول تبارك وتعالى: {وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ}، الآية".

قال إبراهيم بن الأشعث: "كان الفضل إذا قرأ هذه الآية بكى، وقال: اللهم لا تبلنا، فإنّك إن بلوتنا هتكت أستارنا، وفضحتنا".

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللهِ وَشَاقُّوا الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى لَنْ يَضُرُّوا اللهَ شَيْئًا وَسَيُحْبِطُ أَعْمَالَهُمْ (٣٢).

{إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيل الله} طَرِيقه وَهُوَ الْهُدَى {ثُمَّ مَاتُوا وَهُمْ كُفَّار فَلَنْ يَغْفِر الله لَهُمْ} نَزَلَتْ فِي أَصْحَاب القليب.

فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ وَاللهُ مَعَكُمْ وَلَنْ يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ (٣٥).

{فَلَا تَهِنُوا} تَضْعُفُوا {وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْم} بِفَتْحِ السِّين وَكَسْرهَا أَيْ الصُّلْح مَعَ الْكُفَّار إِذَا لَقِيتُمُوهُمْ {وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ} حُذِفَ مِنْهُ وَاو لَام الْفِعْل الْأَغْلَبُونَ الْقَاهِرُونَ {وَاَللَّه مَعَكُمْ} بِالْعَوْنِ وَالنَّصْر {وَلَنْ يَتِرَكُمْ} يُنْقِصكُمْ {أَعْمَالكُمْ} أَيْ ثَوَابهَا[1].

---

(١) ذكر سبب النزول.

عن أبي العالية؛ قال: كان أصحاب رسول الله ﷺ يرون أنه لا يضر مع لا إله إلا الله ذنب، كما لا ينفع مع الشرك عمل؛ فنزلت: {أَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ}؛ فخافوا أن يبطل الذنب العمل.

أخرجه محمد بن نصر المروزي في "تعظيم قدر الصلاة" (٢/ ٦٤٥، ٦٤٦ رقم ٦٩٨) من طريق وكيع ثنا أبو جعفر الرازي عن الربيع بن أنس عن أبي العالية به.

وهذا سند ضعيف؛ فيه علل:

الأولى: الإرسال؛ ومراسيل أبي العالية كالريح.

الثانية: أبو جعفر الرازي؛ صدوق سيئ الحفظ.

الثالثة: قال ابن حبان في "الثقات" (٤/ ٢٢٨): "الناس يتقون حديثه -يعني: الربيع بن أنس- ما كان من رواية أبي جعفر عنه؛ لأن فيها اضطرابًا كثيرًا".

=

=

والحديث ذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٧/ ٥٠٤) وزاد نسبته لعبد بن حميد وابن أبي حاتم.

* قوله تعالى: (إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا) بآيات الله، والكفر في اللغة الستر، ومنه الكُفُرّى وهو وعاء طلع النخل، واصطلاحًا: جحد ما جاء به النبي ﷺ أو جحد بعضه أو ترك ما يستلزم الكفر بتركه مثل الصلاة.

(وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللهِ) أي: صدوا غيرهم عن سبيل الله الذي هو الإسلام، فهم ضالون مضلون.

(وَشَاقُّوا الرَّسُولَ) أي: خالفوا محمدًا مخالفة شديدة.

(مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى) أي: علموا أنه نبي من عند الله بما شاهدوا من المعجزات الواضحة والحجج القاطعة.

(لَنْ يَضُرُّوا اللهَ شَيْئًا) بل يضرون أنفسهم، لأنه سبحانه غني لذاته الغنى المطلق، وفي الحديث القدسي. قال تعالى (إنكم لن تبلغوا ضري فتضروني) رواه مسلم.

- وقوله (شيئًا..) نكرة في سياق النفي، والنكرة في سياق النفي تفيد العموم، أي: لن يضروا الله أي شيء في ذاته ولا في ملكه ولا في أسمائه وصفاته ولا في غير ذلك.

- فإن قيل: قد ثبت أن الله يؤذى، كما في قوله تعالى (إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُهِينًا) وقال ﷺ في الحديث القدسي (قال تعالى: يؤذيني ابن آدم يسب الدهر وأنا الدهر) متفق عليه. فالله يؤذى: فيصفونه بما هو منزه عنه، وما لا يليق به، ومن ذلك جعل الشركاء له، ووصفه بالنقص كالفقر والتعب؟

فالجواب: لا يلزم من الأذية الضرر، فقد يتأذى الإنسان بالشيء ولا يتضرر به، أرأيت لو صلى إلى جانبك أو جلس إلى جانبك رجل قد أكل بصلًا أو ثومًا فإنك تتأذى برائحته ولكن لا تتضرر، فلا يلزم من الأذية الضرر، وحينئذ لا معارضة بين

=

=

نفي الضرر عن الله وإثبات الأذية.

(وَسَيُحْبِطُ أَعْمَالَهُمْ) لأنهم كفار، والكافر لا يقبل عمله، لأن من شرط قبول العمل الإيمان كما قال تعالى (مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ).

قوله تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا} [محمد: ٣٢]، أي:" إن الذين جحدوا أن الله هو الإله الحق وحده لا شريك له".

قال الطبري: يقول:" إن الذين جحدوا توحيد الله".

قوله تعالى: {وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللهِ} [محمد: ٣٢]، أي:" وصدوا الناس عن دينه".

قال الطبري: يقول:" وصدوا الناس عن دينه الذي ابتعث به رسله".

قال السمعاني:" أي: منعوا الناس عن الإيمان بالله".

قوله تعالى: {وَشَاقُّوا الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى} [محمد: ٣٢]، أي:" وخالفوا رسول الله ﷺ، فحاربوه من بعد ما جاءتهم الحجج والآيات أنه نبي من عند الله".

قال الطبري: " يقول: وخالفوا رسوله محمدا ﷺ، فحاربوه وآذوه من بعد ما علموا أنه نبيّ مبعوث، ورسول مرسل، وعرفوا الطريق الواضح بمعرفته، وأنه لله رسول".

قال السمعاني:" أي: خالفوا الرسول من بعد ما تبين لهم الهدى".

قال السعدي:" أي: عاندوه وخالفوه عن عمد وعناد، لا عن جهل وغي وضلال".

قال القرطبي:" {شاقوا الرسول}، أي: عادوه وخالفوه".

قال أبو هلال العسكري: «الهدى» -هنا-" يعني: ما بين الله في التوراة والإنجيل من أمر محمد ﷺ".

=

=

قال البيضاوي:" هم قريظة والنضير أو المطعمون يوم بدر".

عن ابن عبّاس: "هم المطعمون يوم بدر".

قوله تعالى: {لَنْ يَضُرُّوا اللهَ شَيْئًا} [محمد: ٣٢]، أي:" لن يضروا دين الله شيئًا".

قال الطبري: " لأن الله بالغ أمره، وناصر رسوله، ومُظهره على من عاداه وخالفه".

قال السمعاني:" أي: [لن] ينقصوا الله شيئا".

قال السعدي:" فلا ينقص به ملكه".

قال البيضاوي:" {لَنْ يَضُرُّوا اللهَ شَيْئًا} بكفرهم وصدهم، أو لن يضروا رسول الله ﷺ بمشاقته وحذف المضاف لتعظيمه وتفظيع مشاقته".

قال ابن كثير:" وإنما يضر نفسه ويخسرها يوم معادها".

قوله تعالى: {وَسَيُحْبِطُ أَعْمَالَهُمْ} [محمد: ٣٢]، أي:" وسيُبْطِل ثواب أعمالهم التي عملوها في الدنيا؛ لأنهم لم يريدوا بها وجه الله تعالى".

قال الطبري: " يقول: وسيذهب أعمالهم التي عملوها في الدنيا فلا ينفعهم بها في الدنيا ولا الآخرة، ويبطلها إلا مما يضرهم".

قال ابن كثير:" وسيحبط الله عمله فلا يثيبه على سالف ما تقدم من عمله الذي عقبه بردته مثقال بعوضة من خير، بل يحبطه ويمحقه بالكلية، كما أن الحسنات يذهبن السيئات".

قال الزمخشري:" {وَسَيُحْبِطُ أَعْمَالَهُمْ} التي عملوها في دينهم يرجون بها الثواب، لأنها مع كفرهم برسول الله ﷺ باطلة، وهم قريظة والنضير. أو سيحبط أعمالهم التي عملوها، والمكايد التي نصبوها في مشاقة الرسول، أي: سيبطلها فلا يصلون منها إلى أغراضهم، بل يستنصرون بها ولا يثمر لهم إلا القتل والجلاء عن أوطانهم. وقيل هم رؤساء قريش، والمطعمون يوم بدر".

قال السعدي:" أي: مساعيهم التي بذلوها في نصر الباطل، بأن لا تثمر لهم إلا

=

=

الخيبة والخسران، وأعمالهم التي يرجون بها الثواب، لا تقبل لعدم وجود شرطها".

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا) صدر سبحانه هذا الحكم بهذا النداء (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا) وذلك لأمور ثلاثة: الأول: أن تصدير الحكم بهذا النداء يدل على العناية به، الثاني: أن ما يذكر فيه من مقتضيات الإيمان، فمن قام به فهو من إيمانه، الثالث: أن عدم القيام به نقص في الإيمان، لأنك إذا قلت للمؤمن: يا مؤمن افعل كذا ولم يفعل، فإنه لابد أن ينقص إيمانه.

- قوله تعالى (آمَنُوا) أي: آمنوا بالله وبما يجب الإيمان به، وأركان الإيمان ستة: الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره.

(أَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ) الطاعة: موافقة الأمر، وذلك بفعل الأمر، وترك المحظور، ولهذا أخذتْ من المطاوعة وهي الانقياد.

- قوله تعالى (وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ) الرسول هنا محمد ﷺ و (أل) للعهد الذهني أي: الرسول المعهود محمدًا، والرسول تعريفه: هو من أوحي إليه بشرع وأمر بتبليغه.

- قوله تعالى (وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ) ولم يقل (وأطيعوا الله والرسول) إشارة إلى أن طاعة الرسول ﷺ تجب استقلالًا، بمعنى: أن طاعته تجب فيما أمر به مما لم يأت في القرآن الكريم.

(وَلا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ) وإبطال الأعمال يكون: بالردة، ويكون بالرياء، ويكون بالمنّ، فهو يشمل النهي عن كل سبب من الأسباب التي توصل إلى بطلان الأعمال كائنًا ما كان من غير تخصيص بنوع معين.

قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا} [محمد: ٣٣]، أي:" يا أيها الذين صدَّقوا الله ورسوله وعملوا بشرعه".

=

=

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا} بالله ورسوله".

قال ابن عباس:" ما أنزل الله آية في القرآن، يقول فيها: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا}، إلا كان على شريفها وأميرها".

قال ابن مسعود رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: "إذا سمعت الله يقول: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا} فأرعها سمعك [يعني: استمع لها]؛ فإنه خير يأمر به، أو شر ينهى عنه".

قوله تعالى: {أَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ} [محمد: ٣٣]، أي:" أطيعوا الله وأطيعوا الرسول في أمرهما ونهيهما".

قال التستري:" أي: في تعظيم الله".

قال الطبري: أي:" في أمرهما ونهيهما".

قال عطاء بن ابي رباح:" طاعة الله: إتباع كتابه، وطاعة الرسول: اتباع سنته.

قال الشَّافِعِي رَحِمَهُ اللهُ: "فأخبر النبي ﷺ أن الاجتهاد بعد أن لا يكون كتاب الله ولا سنة رسوله، ولقول الله ﷻ: {أَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ} الآية، وما لم أعلم فيه مخالفًا من أهل العلم، ثم ذلك موجود في قوله ﷺ "إذا اجتهد"؛ لأن الاجتهاد ليس بعين قائمة، وإنما هو شيء يحدثه من قبل نفسه، فإذا كان هذا هكذا فكتاب الله، والسنة، والإجماع أولى - به - من رأي نفسه، ومن قال الاجتهاد أولى خالف الكتاب والسنة برأيه".

قوله تعالى: {وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ} [محمد: ٣٣]، أي:" ولا تبطلوا ثواب أعمالكم بالكفر والمعاصي".

قال يحيى بن سلام:" يعني: بالمن".

قال مقاتل: أي:" بالمن، ولكن أخلصوها لله تعالى".

قال عطاء: "بالشك والنفاق".

قال الكلبي: "بالرياء والسمعة".

=

=

قال الحسن: "بالمعاصي والكبائر".

قال التستري:" أي: برؤيتها من أنفسكم ومطالبة الأعواض من ربكم، فإن العمل الخالص الذي لم يطلب به العوض".

قال الطبري:" يقول: ولا تبطلوا بمعصيتكم إياهما، وكفركم بربكم ثواب أعمالكم فإن الكفر بالله يحبط السالف من العمل الصالح".

قال ابن كثير:" أمر تعالى عباده المؤمنين بطاعته وطاعة رسوله التي هي سعادتهم في الدنيا والآخرة، ونهاهم عن الارتداد الذي هو مبطل للأعمال؛ ولهذا قال: {وَلا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ}، أي: بالردة".

قال قتادة:" من استطاع منكم أن لا يبطل عملا صالحا عمله بعمل سيئ فليفعل، ولا قوة إلا بالله، فإن الخير ينسخ الشر، وإن الشر ينسخ الخير، وإن ملاك الأعمال خواتيمها".

قال الجصاص:" قوله تعالى: {ولا تبطلوا أعمالكم} يحتج به في أن كل من دخل في قربة لا يجوز له الخروج منها قبل إتمامها لما فيه من إبطال عمله، نحو الصلاة والصوم والحج وغيره".

قال ابن العربي: "اختلف العلماء فيمن افتتح نافلة من صوم أو صلاة، ثم أراد تركها، قال الشافعي: له ذلك. وقال مالك وأبو حنيفة: ليس له ذلك لأنه إبطال لعمله الذي انعقد له، وقال الشافعي هو تطوّع فإلزامه إياه يخرجه عن الطواعية. قلنا: إنما يكون ذلك قبل الشروع في الفعل، فإذا شرع لزمه كالشروع في المعاملات. ولا تكون عبادة ببعض ركعة ولا ببعض يوم في صوم، فإذا قطع في بعض الركعة أو في بعض اليوم إن قال: إنه يعتد به فقد ناقض الإجماع، وإن قال: إنه ليس بشيء فقد نقض الإلزام. وذلك مستقصى في مسائل الخلاف".

(إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللهِ ثُمَّ مَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يَغْفِرَ اللهُ لَهُمْ) هذه

=

=

الآية تتضمن أن من مات على الكفر لن يغفر الله له، لأن النار وجبت له بموته على الكفر، كما جاء موضحًا في آيات كثيرة.

قال الطبري: يقول: " إن الذين أنكروا توحيد الله، وصدوا من أراد الإيمان بالله وبرسوله عن ذلك، ففتنوهم عنه، وحالوا بينهم وبين ما أرادوا من ذلك، ثم ماتوا وهم على ذلك من كفرهم".

قوله تعالى: {فَلَنْ يَغْفِرَ اللهُ لَهُمْ} [محمد: ٣٤]، أي:" فلن يغفر الله لهم، وسيعذبهم عقابًا لهم على كفرهم، ويفضحهم على رؤوس الأشهاد".

قال الطبري: " يقول: فلن يعفو الله عما صنع من ذلك، ولكنه يعاقبه عليه، ويفضحه به على رءوس الأشهاد".

قال الزجاج:" أعلم ﷻ أنه لا يغفر لمن مات على الكفر".

قال الثعلبي:" هم أصحاب القليب، وحكمها عام".

قال الزمخشري:" قيل، هم أصحاب القليب، والظاهر العموم".

(فَلا تَهِنُوا) أي: لا تضعفوا عن الأعداء.

(وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ) أي: إلى المهادنة والمسالمة، ووضع القتال بينكم وبين الكفار في حال قوتكم وكثرة عددكم وعُدَدِكم.

(وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ) أي: في حال علوكم على عدوكم.

(وَاللهُ مَعَكُمْ) هذه بشارة عظيمة بالنصر والظفر على الأعداء، لأن من كان الله معه هو الأعلى وهو الغالب، وهو القاهر المنصور الموعود بالثواب.

ومما يدل على ذلك قوله تعالى (وَإِنَّ جُنْدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ) وقوله تعالى (إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ).

- واعلم أنه لا معارضة بين هذه الآية وبين آية الأنفال (وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا) حتى يقال: إن إحداهما ناسخة للأخرى، بل هما محكمتان، وكل واحدة

=

=

منزلة على حال غير الحال التي نزلت عليه الأخرى:
فالنهي في هذه الآية: إنما هو عن الابتداء بطلب السلم، والأمر بالجنوح إلى السلم في آية الأنفال، قيل: محله فيما إذا ابتدأ الكفار بطلب السلم والجنوح لها، وقيل: إذا كان الكفار فيهم قوة وكثرة بالنسبة إلى جميع المسلمين، ورأى الإمام في المعاهدة والمهادنة مصلحة، فله أن يفعل ذلك، كما فعل رسول الله ﷺ حين صده كفار قريش عن مكة، ودعوه إلى الصلح ووضع الحرب بينهم وبينه عشر سنوات، فأجابهم إلى ذلك.
(وَلَنْ يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ) أي: ولن يحبطها ويسلبكم إياها، بل يوفيكم ثوابها ولا ينقصكم منها شيئًا.
قوله تعالى: {فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ} [محمد: ٣٥]، أي:" فلا تضعفوا -أيها المؤمنون بالله ورسوله- عن جهاد المشركين، وتجْبُنوا عن قتالهم، وتدعوهم إلى الصلح والمسالمة، وأنتم القاهرون لهم والعالون عليهم".
قال الفراء: "يقول: لا تدعوا إلى السلم، وهو الصلح، وأنتم الأعلون، أنتم الغالبون آخر الأمر لكم".
قال الطبري: " يقول تعالى ذكره: فلا تضعفوا أيها المؤمنون بالله عن جهاد المشركين وتجبُنوا عن قتالهم، لا تضعفوا عنهم وتدعوهم إلى الصلح والمسالمة، وأنتم القاهرون لهم والعالون عليهم".
قال ابن كثير:" أي: لا تضعفوا عن الأعداء، {وَتَدْعُوا إِلَى} المهادنة والمسالمة، ووضع القتال بينكم وبين الكفار في حال قوتكم وكثرة عَدَدِكم وعُدَدِكُمْ في حال علوكم على عدوكم، فأما إذا كان الكفار فيهم قوة وكثرة بالنسبة إلى جميع المسلمين، ورأى الإمام في المعاهدة والمهادنة مصلحة، فله أن يفعل ذلك، كما فعل رسول الله ﷺ حين صده كفار قريش عن مكة، ودعوه إلى الصلح ووضع

=

=

الحرب بينهم وبينه عشر سنين، فأجابهم إلى ذلك".
قال القاسم بن سلام البغدادي:" {تَهِنُوا}: تضعفوا بلغة قريس وكنانة".
عن مجاهد: " {فَلا تَهِنُوا}، قال: لا تضعفوا".
قال ابن زيد:" لا تضعف أنت".
عن قتادة، قوله: " {فَلا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ}، قال: لا تكونوا أولى الطائفتين صرعت لصاحبتها، ودعتها إلى الموادعة، وأنتم أولى بالله منهم والله معكم".
وفي قوله تعالى: {وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ} [محمد: ٣٥]، ثلاثة وجوه من التفسير:
أحدها: معناه: وأنتم أولى بالله منهم. قاله قتادة.
قال ابن الجوزي:" وفي هذا دلالة على أنه لا يجوز طلب الصّلح من المشركين، ودلالة على أنّ النبيّ ﷺ لم يدخل مكة صلحًا، لأنه نهاه عن الصُّلح".
الثاني: معناه: وأنتم الغالبون الأعزّ منهم. قاله مجاهد، وابن زيد، ومقاتل.
قال مجاهد:" يعني: الغالبين مثل يوم أحد، أي: تكون عليهم الدائرة".
قال مقاتل:" يقول: وأنتم الغالبون عليهم، وكان هذا يوم أحد".
قال ابن زيد، فى قوله: " {فَلا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَأَنْتُمُ الأعْلَوْنَ}، قال: هذا منسوخ، قال: نسخه القتال والجهاد، يقول: لا تضعف أنت وتدعوهم أنت إلى السلم وأنت الأعلى، قال: وهذا حين كانت العهود والهدنة فيما بينه وبين المشركين قبل أن يكون القتال، يقول: لا تهن فتضعف، فيرى أنك تدعو. إلى السلم وأنت فوقه، وأعزّ منه {وَأَنْتُمُ الأعْلَوْنَ} أنتم أعزّ منهم، ثم جاء القتال بعد فنسخ هذا أجمع، فأمره بجهادهم والغلظة عليهم".
الثالث: معناه: وأنتم الغالبون آخر الأمر، وإن غلبوكم في بعض الأوقات، وقهروكم في بعض الحروب. حكاه الطبري.
قال ابن الجوزي:" أي: أنتم أعزُّ منهم، والحُجَّة لكم، وآخِرُ الأمر لكم وإِن

=

=

غَلَبوكم في بعض الأوقات".

قال الجصاص:" فنهى عن المسالمة عند القوة على قهر العدو وقتلهم وكذلك قال أصحابنا إذا قدر بعض أهل الثغور على قتال العدو ومقاومتهم لم تجز لهم مسالمتهم ولا يجوز لهم إقرارهم على الكفر إلا بالجزية، وإن ضعفوا عن قتالهم جاز لهم مسالمتهم كما سالم النبي صلى الله عليه وآله وسلم كثيرا من أصناف الكفار وهادنهم على وضع الحرب بينهم من غير جزية أخذها منهم، قالوا فإن قووا بعد ذلك على قتالهم نبذوا إليهم على سواء ثم قاتلوهم قالوا وإن لم يمكنهم دفع العدو عن أنفسهم إلا بما يبذلونه لهم جاز لهم ذلك، لأن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قد كان صالح عيينة بن حصن وغيره يوم الأحزاب على نصف ثمار المدينة حتى لما شاور الأنصار، قالوا: يا رسول الله هو أمر أمرك الله به أم الرأي والمكيدة؟ فقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: لا، بل هو رأي، لأني رأيت العرب قد رمتكم عن قوس واحدة فأردت أن أدفعهم عنكم إلى يوم ما. فقال السعدان بن عبادة وسعد بن معاذ: والله يا رسول الله إنهم لم يكونوا يطعمون فيها منا إلا قرى وشرى ونحن كفار فكيف وقد أعزنا الله بالإسلام لا نعطيهم إلا بالسيف وشقاء الصحيفة، فهذا يدل على أنهم إذا خافوا المشركين جاز لهم أن يدفعوهم عن أنفسهم بالمال فهذه أحكام بعضها ثابت بالقرآن وبعضها بالسنة وهي مستعملة في الأحوال التي أمر الله تعالى بها واستعملها النبي صلى الله عليه وآله وسلم فيها".

قوله تعالى: {وَاللَّهُ مَعَكُمْ} [محمد: ٣٥]، أي:" والله تعالى معكم بنصره وتأييده".

قال الطبري:" يقول: والله معكم بالنصر لكم عليهم".

قال ابن كثير:" قوله: {وَاللَّهُ مَعَكُمْ} فيه بشارة عظيمة بالنصر والظفر على

=

إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلَا يَسْأَلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ (٣٦).

{إِنَّمَا الْحَيَاة الدُّنْيَا} أَيْ الِاشْتِغَال فِيهَا {لَعِب وَلَهْو وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا} الله وَذَلِكَ مِنْ أُمُور الْآخِرَة {يُؤْتِكُمْ أُجُوركُمْ وَلَا يَسْأَلكُمْ أَمْوَالكُمْ} جميعها بل الزكاة المفروضة فيها.

إِنْ يَسْأَلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا وَيُخْرِجْ أَضْغَانَكُمْ (٣٧).

=

الأعداء".

قوله تعالى: {وَلَنْ يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ} [محمد: ٣٥]، أي:" ولن يُنْقصكم الله ثواب أعمالكم".

قال الطبري:" يقول: ولن يظلمكم أجور أعمالكم فينقصكم ثوابها، من قولهم: وترت الرجل إذا قتلت له قتيلا فأخذت له مالا غصبا".

قال ابن كثير:" أي: ولن يحبطها ويبطلها ويسلبكم إياها، بل يوفيكم ثوابها ولا ينقصكم منها شيئا".

قال ابن عباس:" يقول: لن يظلمكم أجور أعمالكم".

قال قتادة:" أي: لن يظلمكم أعمالكم". وروي عن الضحاك مثله.

قال ابن زيد:" لن يظلمكم، أعمالكم. ذلك: {يَتِرَكُمْ}".

قال مجاهد:" لن ينقصكم".

ومنه قول النبي -ﷺ-: "من فاتته صلاة العصر فكأنما وتر ماله وأهله".

قال الفراء: " وترت الرجل، إِذَا قتلت لَهُ قتيلًا، أَوْ أخذت لَهُ مالًا فقد وترته. وجاء فِي الحديث: «من فاتته العصر فكأنما وتر أهله وماله» قَالَ الفراء، وبعض الفقهاء يَقُولُ: أوتر، والصواب وتر".

{وإن يَـسْأَلْكُمُوهَا فَـيُحْفِكُمْ} يُبَـالِغ فِـي طَلَبهَـا {تَبْخَلُـوا وَيُخْـرِج} الْبُخْـل {أَضْغَانكُمْ} لِدِينِ الْإِسْلَام.

هَاأَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تُدْعَوْنَ لِتُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللهِ فَمِنْكُمْ مَـنْ يَبْخَـلُ وَمَـنْ يَبْخَـلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَنْ نَفْسِهِ وَاللهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الْفُقَـرَاءُ وَإِنْ تَتَوَلَّـوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًـا غَيْـرَكُمْ ثُـمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ (٣٨).

{هَا أَنْتُمْ} يَا {هَؤُلَاءِ تُدْعَوْنَ لِتُنْفِقُوا فِي سَبِيل الله} مَا فُـرِضَ عَلَـيْكُمْ {فَمِنْكُمْ مَنْ يَبْخَل وَمَنْ يَبْخَل فَإِنَّمَا يَبْخَل عَنْ نَفْسه} يُقَال بَخِلَ عَلَيْـهِ وَعَنْـهُ {وَاَلله الْغَنِيّ} عَـنْ نَفَقَـتكُمْ {وَأَنْـتُمْ الْفُقَـرَاء} إلَيْـهِ {وَإِنْ تَتَوَلَّـوْا} عَـنْ طَاعَتـه {يَـسْتَبْدِل قَوْمًـا غَيْركُمْ} أَيْ يَجْعَلهُمْ بَدَلكُمْ {ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالكُمْ} فِي التَّـوَلِّي عَـنْ طَاعَتـه بَـلْ مُطِيعِينَ لَهُ ﷻ[1].

(١) قوله تعالى: (إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ) (إنما) أداة حصر، أي: ما الحياة الـدنيا إلا مجرد لعب ولهو، لعب بالأبدان والجوارح، ولهو وغفلة بالقلوب.

- قولـه تعـالى (الْحَيَـاةُ الـدُّنْيَا) هـي هـذه الحيـاة التـي نعيـشها التـي قبـل الآخـرة، وسميت دنيا لسببين:

السبب الأول: لأنها قبل الآخرة في الزمن.

السبب الثاني: لدناءتها وحقارتها بالنسبة للآخرة. كما قـال تعـالى (فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ) وقال تعالى (وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَاعٌ) وقال ﷺ (لو كانت الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة ما سقى منها كافرًا شربة ماء) رواه الترمذي، وقال ﷺ (لموضع سوط أحدكم في الجنة خير من الدنيا وما فيها) رواه البخاري.

قال ابن القيم: لا تدخل محبة الله في قلب فيه حب الدنيا إلا كما يدخل الجمـل في =

=

سم الإبرة.

وقال: الدنيا كامرأة بغي لا تثبت مع زوج، والسير في طلبها كالسير في أرض مسبعة - أي كثيرة السباع - السباحة فيها كالسباحة في غدير التمساح.

(وَإِنْ تُؤْمِنُوا) بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر.

(وَتَتَّقُوا) الله بفعل أوامره واجتناب نواهيه ومساخطه.

(يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ) أي: جزاء وثواب ذلك في الآخرة، والأجر الثواب على الطاعة.

- سمى الله الثواب أجرًا، لأنه سبحانه وتعالى التزم على نفسه أن يجزي به كالتزام المستأجر بدفع الأجرة للأجير.

(وَلا يَسْأَلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ) قيل: لا يسألكم أموالكم أجرًا على تبليغ الرسالة كما في قوله تعالى (قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ)، وقيل: لا يأمركم بإخراجها جميعها في الزكاة وسائر وجوه الطاعات، بل أمركم بإخراج القليل منها وهو الزكاة ورجحه الشوكاني، وقيل: لا يسألكم أموالكم وإنما يسألكم أمواله لأنه أملك لها.

قوله تعالى: {إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ} [محمد: ٣٦]، أي:" إنما الحياة الدنيا لعب وغرور".

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره: حاضا عباده المؤمنين على جهاد أعدائه، والنفقة في سبيله، وبذل مهجتهم في قتال أهل الكفر به: قاتلوا أيها المؤمنون أعداء الله وأعداءكم من أهل الكفر، ولا تدعكم الرغبة في الحياة إلى ترك قتالهم، فإنما الحياة الدنيا لعب ولهو، إلا ما كان منها لله من عمل في سبيله، وطلب رضاه. فأما ما عدا ذلك فإنما هو لعب ولهو، يضمحلّ فيذهب ويندرس فيمرّ، أو إثم يبقى على صاحبه عاره وخزيه".

قال ابن كثير:" يقول تعالى تحقيرًا لأمر الدنيا وتهوينا لشأنها: {إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا

=

=

لَعِبٌ وَلَهْوٌ}، أي: حاصلها ذلك إلا ما كان منها لله ﷻ".

قال مجاهد:" اللهو: الطبل".

قال مجاهد:" كلُّ لَعِبٍ لَهْوٌ".

قوله تعالى: {وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ} [محمد: ٣٦]، أي:" إن تؤمنوا بالله ورسوله، وتتقوا الله بأداء فرائضه واجتناب معاصيه، يؤتكم ثواب أعمالكم".

قال الطبري:" يقول: وإن تعملوا في هذه الدنيا التي ما كان فيها مما هو لها، فلعب ولهو، فتؤمنوا به وتتقوه بأداء فرائضه، واجتناب معاصيه، وهو الذي يبقى لكم منها، ولا يبطل بطول اللهو واللعب، ثم يؤتكم ربكم عليه أجوركم، فيعوّضكم منه ما هو خير لكم منه يوم فقركم، وحاجتكم إلى أعمالكم".

قوله تعالى: {وَلَا يَسْأَلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ} [محمد: ٣٦]، أي:" ولا يسألكم إخراج أموالكم جميعها في الزكاة، بل يسألكم إخراج بعضها".

قال الزمخشري:" أي: ولا يسألكم جميعها، إنما يقتصر منكم على ربع العشر".

قال الطبري:" يقول: ولا يسألكم ربكم أموالكم، ولكنه يكلفكم توحيده، وخلع ما سواه من الأنداد، وإفراد الألوهية والطاعة له".

قال النحاس:" المعنى: ولا يأمركم أن تنفقوا أموالكم كلّها في الجهاد ومواساة الفقراء".

قال ابن كثير:" أي: هو غني عنكم لا يطلب منكم شيئا، وإنما فرض عليكم الصدقات من الأموال مواساة لإخوانكم الفقراء، ليعود نفع ذلك عليكم، ويرجع ثوابه إليكم".

(إِنْ يَسْأَلْكُمُوهَا) أي: جميعها.

(فَيُحْفِكُمْ) قال المفسرون: يجهدكم ويلحف عليكم بمسألة جميعها.

(تَبْخَلُوا) أي: إن يأمركم بإخراج جميع أموالكم تبخلوا بها وتمتنعوا من الامتثال.

=

=

(وَيُخْرِجْ أَضْغَانَكُمْ) أي: ويخرج ما في قلوبكم من البخل وكراهة الإنفاق، لأن الإنسان جبل على محبة الأموال، ومن نوزع في حبيبه ظهرت سرائره، فمن رحمته تعالى على عباده عدم التشديد عليهم في التكاليف.

قوله تعالى: {إِنْ يَسْأَلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا} [محمد: ٣٧]،

قال الطبري:" يقول جلّ ثناؤه: إن يسألكم ربكم أموالكم فيجهدكم بالمسألة، ويلحّ عليكم بطلبها منكم فيلحف، تبخلوا بها وتمنعوها إياه، ضنا منكم بها، ولكنه علم ذلك منكم، ومن ضيق أنفسكم فلم يسألكموها".

قال ابن كثير:" {إِنْ يَسْأَلْكُمُوهَا} يحرجكم تبخلوا".

قال الزجاج:" أي إن يجهدكُمْ بالمسألة، {تَبْخَلُوا}".

قال الفراء: " أي: يجهدكم تبخلوا.. أحفيت الرجل: أجهدته".

قال ابن زيد:" الإحفاء: أن تأخذ كل شيء بيديك".

قال ابن منظور:" أحفى فلان فلانا: إذا برج به في الإلحاف عليه، أو سأله فأكثر عليه في الطلب".

قال الزمخشري:" الإحفاء: المبالغة وبلوغ الغاية في كل شيء، يقال: أحفاه في المسألة إذا لم يترك شيئا من الإلحاح. وأحفى شاربه: إذا استأصله".

قوله تعالى: {وَيُخْرِجْ أَضْغَانَكُمْ} [محمد: ٣٧]، أي:" ويظهر ما في قلوبكم من الحقد إذا طلب منكم ما تكرهون بذله".

قال الفراء: " ويخرج ذَلِكَ البخل عداوتكم، ويكون: يخرج الله أضغناكم".

قال الطبري:" يقول: ويخرج جلّ ثناؤه لو سألكم أموالكم بمسألته ذلك منكم أضغانكم قال: قد علم الله أن في مسألته المال خروج الأضغان".

قال الزمخشري:" تضطغنون على رسول الله ﷺ، وتضيق صدوركم لذلك، وأظهرتم كراهتكم ومقتكم لدين يذهب بأموالكم، والضمير في {يُخْرِجْ} لله ﷻ،

=

=

أى: يضغنكم بطلب أموالكم. أو للبخل، لأنه سبب الاضطغان".
قال معمر: "تلا قتادة: {إِنْ يَسْأَلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا وَيُخْرِجْ أَضْغَانَكُمْ} [محمد: ٣٧] قال: «قد علم الله في مسألة، خروج الأضغان»".
(هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تُدْعَوْنَ لِتُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللهِ) أي: ها أنتم هؤلاء أيها المؤمنون تدعون لتنفقوا في الجهاد وفي طريق الخير، الذي فيه مصلحتكم الدينية والدنيوية.
(فَمِنْكُمْ مَنْ يَبْخَلُ) أي: لا يجيب إلى ذلك، قال السعدي: أي: فكيف لو سألكم، وطلب منكم أموالكم في غير أمر ترونه مصلحة عاجلة؟ أليس من باب أولى وأحرى امتناعكم من ذلك؟
ثم بيّن تعالى عاقبة البخل فقال:
(وَمَنْ يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَنْ نَفْسِهِ) أي: ومن بخل عن الإنفاق في سبيل الله فإنه يعود ضرر بخله عليه، لأنه يمنع نفسه الأجر والثواب.
(وَاللهُ الْغَنِيُّ) عن كل ما سواه، غني في نفسه لكثرة ما عنده، غني عن خلقه، كما قال تعالى (فَإِنَّ اللهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ). له ملك السموات والأرض، وخزائن السموات والأرض كلها بيده، كما قال تعالى (وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ) وقال تعالى (وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ)، فخزائنه ﷻ ملأ، لا يغيضها كثرة الإنفاق، وليس بحاجة إلى خلقه، لا تنفعه طاعة الطائعين، ولا تضره معصية العاصين، وكل شيء فقير إليه، ولهذا قال: (وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ) أي: بالذات إليه، فوصفه بالغني وصف لازم له، ووصف الخلق بالفقر وصف لازم لهم لا ينفكون عنه، بل الخلق مفتقر بعضهم إلى بعض كما قال تعالى (نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا).
(وَإِنْ تَتَوَلَّوْا) عن طاعته واتباع شرعه.

=

=

(يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ) أي: يأتي بآخرين مكانكم يكونون أطوع لله منكم، يكونون سامعين مطيعين لله تعالى كما قال تعالى (إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ وَكَانَ اللهُ عَلَى ذَلِكَ قَدِيرًا) (يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ) أي: يعدمكم حتى لا تكونوا في الوجود، وفي هذا تهديد من الله شديد لمن يخالف أمره.

(ثُمَّ لا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ) في التولي عن الإيمان والتقوى، ومن ذلك البخل في سبيل الله.

قوله تعالى: {هَاأَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تُدْعَوْنَ لِتُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللهِ} [محمد: ٣٨]، أي:" ها أنتم -أيها المؤمنون- تُدْعَون إلى النفقة في جهاد أعداء الله ونصرة دينه".

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره للمؤمنين: {ها أَنْتُمْ} أيها الناس، تدعون إلى النفقة في جهاد أعداء الله ونُصرة دينه".

قوله تعالى: {فَمِنْكُمْ مَنْ يَبْخَلُ} [محمد: ٣٨]، أي:" فمنكم مَن يَبْخَلُ بالنفقة في سبيل الله".

قال ابن كثير:" أي: لا يجيب إلى ذلك".

قال الطبري: أي:" بالنفقة فيه".

قال مقاتل: أي:" بالنفقة في سبيل الله".

قال الزمخشري:" قيل: هي النفقة في الغزو. وقيل: الزكاة، كأنه قيل: الدليل على أنه لو أحفاكم لبخلتم وكرهتم العطاء واضطغنتم أنكم تدعون إلى أداء ربع العشر، فمنكم ناس يبخلون به".

قوله تعالى: {وَمَنْ يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَنْ نَفْسِهِ} [محمد: ٣٨]، أي:" ومن بخل عن الإنفاق في سبيل الله فإنما يعود ضرر بخله على نفسه، لأنه يمنعها الأجر والثواب".

قال الطبري: يقول:" ومن يبخل بالنفقة في سبيل الله، فإنما يبخل عن بخل نفسه،

=

=

لأن نفسه لو كانت جوادا لم تبخل بالنفقة في سبيل الله، ولكن كانت تجود بها".

قال النحاس:" أي: إنما يعود الضرر عليه والعقوبة".

قال القشيري:" لأنه لو لم يفعل ذلك لحصل له الثراء- هكذا يظن".

قال ابن كثير:"أي: إنما نقص نفسه من الأجر، وإنما يعود وبال ذلك عليه".

قال مقاتل: " لأنه لو أنفق في حق الله أعطاه الله الجنة في الآخرة".

قوله تعالى: {وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ} [محمد: ٣٨]، أي:" والله تعالى هو الغنيُّ عنكم وأنتم الفقراء إليه".

قال مقاتل: " {وَاللَّهُ الْغَنِيُّ} عما عندكم من الأموال، {وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ} إلى ما عنده من الخير والرحمة والبركة".

قال الطبري: يقول تعالى ذكره: ولا حاجة لله أيها الناس إلى أموالكم ولا نفقاتكم، لأنه الغنيّ عن خلقه والخلق الفقراء إليه، وأنتم من خلقه، فأنتم الفقراء إليه، وإنما حضكم على النفقة في سبيله، ليُكسبكم بذلك الجزيل من ثوابه".

قال ابن كثير:" {وَاللَّهُ الْغَنِيُّ}، أي: عن كل ما سواه، وكل شيء فقير إليه دائما؛ ولهذا قال: {وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ}، أي: بالذات إليه. فوصفه بالغنى وصف لازم له، ووصف الخلق بالفقر وصف لازم لهم، أي لا ينفكون عنه".

قال ابن زيد:" ليس بالله تعالى ذكره إليكم حاجة وأنتم أحوج إليه".

قال النحاس:" أي: فلم يكلّفكم ذلك لمّا علمه منكم".

قال التستري:" معرفة السر كله في الفقر، وهو سر الله، وعلم الفقر إلى الله تعالى تصحيح علم الغنى بالله ﷻ".

قوله تعالى: {وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ} [محمد: ٣٨]، أي:" وإن تتولوا عن الإيمان بالله وامتثال أمره يهلكُّم، ويأت بقوم آخرين".

قال الطبري: يقول:" وإن تتولوا أيها الناس عن هذا الدين الذي جاءكم. به محمد

=

=

ﷺ، فترتدّوا راجعين عنه يهلككم ثم يجيء بقوم آخرين غيركم بدلا منكم يصدّقون به، ويعملون بشرائعه".

قال مقاتل: " يقول: [وَإِنْ] تعرضوا عما افترضت عليكم من حقي، {يَسْتَبْدِلْ} بكم {قَوْمًا غَيْرَكُمْ}، يعني: أمثل منكم وأطوع لله منكم".

قال ابن كثير:": {وَإِنْ تَتَوَلَّوْا}، عن طاعته واتباع شرعه {يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ}، أي: ولكن يكونون سامعين مطيعين له ولأوامره".

قال قتادة:" يقول: إن توليتم عن كتابي وطاعتي أستبدل قوما غيركم. قادر والله ربنا على ذلك على أن يهلكهم، ويأتي من بعدهم من هو خير منهم".

وفي قوله تعالى: {يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ} [محمد: ٣٨]، أربعة أقوال:

أحدها: أنهم أهل اليمن وهم الأنصار، قاله شريح بن عبيد، ومقاتل.

الثاني: أنهم الفرس.

عن أبي هريرة، قال:" تلا رسول الله ﷺ يوما هذه الآية: {وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُم}، قالوا: ومن يستبدل بنا؟ قال: فضرب رسول الله ﷺ على منكب سلمان ثم قال: هذا وقومه هذا وقومه". وفي رواية:" لو كان الدين عند الثريا لتناوله رجال من فارس".

الثالث: فارس والرُّوم. قاله عكرمة.

وعن الحسن:" {وإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ} هم العَجَم".

الرابع: أنهم من شاء من سائر الناس، قاله مجاهد.

قال الزجاج:" جاء في التفسير: إن تَوَلَّى العِبَادُ استَبْدَلَ الله بِهِمُ المَلَائِكَة. وجاء أيضًا: إن تَوَلَّى أهل مكَّةَ استبدل الله بهم أهل المدينة. وجاء أيضا - يَستَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكمْ مِن أهل فَارِسَ. فأما ما جاء أنه يستبدل بهم الملائكة، فهو في اللغةِ عَلَى مَا أَتوَهَّم فيه بُعْدٌ لأنه لا يقال للملائكة قومٌ، إِنما يقال قوم لِلآدَميينَ. والمعنى - والله

=

=

أعلم -:وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يستَبْدِل قَومًا أطْوَعَ مِنكم، كما قال ﷻ {عَسَى رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُبْدِلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِنْكُنَّ}. إلى آخر القصة، فلم يتولَّ جَميعَ النَّاسِ - والله أعلم".

قوله تعالى: {ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ} [محمد: ٣٨]، أي:" ثم لا يكونوا أمثالكم في التولي عن أمر الله، بل يطيعونه ويطيعون رسوله، ويجاهدون في سبيله بأموالهم وأنفسهم".

قال مقاتل: أي:" في المعاصي، بل يكونوا خيرا منكم وأطوع".

قال الطبري: " يقول: ثم لا يبخلوا بما أُمروا به من النفقة في سبيل الله، ولا يضيعون شيئا من حدود دينهم، ولكنهم يقومون بذلك كله على ما يُؤمرون به".

قال الواحدي:" {ثم لا يكونوا} في الطَّاعة {أمثالكم} بل يكونوا أطوع منكم وهذا الخطاب للعرب".

قال البغوي: قوله:" {وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ}، هذا في الإخبار عن القدرة لأنه ليس في الوجود أمة خير من أمة محمد ﷺ".

(تتمة): قال الغرناطي في ملاك التأويل القاطع: الآية الأولى منها: غ - قوله تعالى: (ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنْزَلَ اللهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ) (محمد: ٩)، وفيما بعد من هذه السورة: (ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ) (محمد: ٢٦)، للسائل أن يسأل عن وجه ورود (أنزل) في الأولى وفي الثانية (نزّل) مضعفًا؟

والجواب، والله أعلم: أن ذلك مفهوم مما تقدم في (أول) سورة آل عمران باعتبار ما يخص هذه السورة، وهو أن المتقدم من أول هذه السورة إلى قوله بعد الآية المتكلم فيها: (وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ) (محمد: ١١) يقصد ممن تضمنته هذه الآي من الكفار غير مشركي العرب من قريش وغيرهم، ولا شك أن كفرهم

=

=

منسحب على كل المنزل من القرآن وما تقدم نزوله من التوارة وغيرها من الكتب، فلم يكن ليلائم ذلك عبارة نزّل المبينة عن تنجيم المنزّل، ولم ينزّل كذلك غير القرآن، وهم ينكرون كل الكتاب المنزلة ويكرهونها فقيل هنا: (كَرِهُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ).

أما الآية الثانية فالمراد بها ذوو النفاق والمرتدون على أدبارهم، ويبين ذلك ما تقدمها من قوله تعالى: (رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ) (محمد: ٢٠)، وهؤلاء هم المنافقون، ولم يقع فيما بعد عدول عنهم إلى قوله: (إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِهِمْ) (محمد: ٢٥) وإنما هؤلاء قوم كفروا بعد؟ إسلامهم، وهم القائلون بمقتضى نفاقهم وما أبطنوه من الكفر لغيرهم (سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ) (محمد: ٢٦)، ولهؤلاء اطلاع على المنزّل من القرآن وخصوص كراهية له، وهي المهيجة لنفاقهم، فهو الذي كرهوه حقيقة فقيل هنا: (كَرِهُوا مَا نَزَّلَ الله) بلفظ التضعيف إذ الإشارة إلى القرآن، وهذه صفته أعني ما يشير إليه التضعيف من التنجيم في النزول، فكل من الموضعين وارد على أنسب نظام وأتمه.

الآية الثانية: غ - قوله تعالى: (وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَا) (محمد: ٢٠)، (ثم قال): (فَإِذَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ)، فورد الفعل ألولًا مضاعفًا وثانيًا غير مضعف؟

ووجه ذلك، والله أعلم: أن المؤمنين هم الذين يودون نزول السورة، وطلبهم نزلوها إنما هو على ما اعتادوه جاريًا في غيرها من التنجيم وتفصيل النزول، فالملائم هنا عبارة التضعيف. وقوله: (فَإِذَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ) إنما المراد تحصيلها بجملتها بعدكمالها وذلك مفهوم من سياق الكلام، والملائم - لما تحصّل وتم - عبارة الإنزال من غير تضعيف. فكل من الموضعين وارد على أنسب نظم،
=

سُورَة الفتح(١)

=

والعكس غير ملائم، والله أعلم. ا.هـ من ملاك التأويل (٢/ ٤٤٣-٤٤٤).

(١) قال القرطبي:" سورة الفتح مدنية بإجماع، نزلت ليلا بين مكة والمدينة في شأن الحديبية".

قال الحافظ ابن حجر:" واختلف في المكان الذي نزلت فيه، فوقع عند محمد بن سعد: «بضجنان»، وهي: بفتح المعجمة وسكون الجيم ونون خفيفة، وعند الحاكم في الإكليل «بكراع الغميم»، وعن أبي معشر: «بالجحفة».. والأماكن الثلاثة متقاربة".

وروى البخاري أن النبي ﷺ قال:"- وهو في بعض أسفاره- لعمر: لقد أنزلت علي الليلة سورة، لهي أحب إلي مما طلعت عليه الشمس".

وأخرج أيضا عن عبد الله بن مغفل قال: "قرأ النبي ﷺ يوم فتح مكة سورة الفتح، فرجع فيها".

الثاني: أنها أنزلت بالمدينة. قاله ابن عباس، وابن الزبير.

قال ابن عطية:" الأول أصح، ويشبه أن منها بعضا نزل بالمدينة، وأما صدر السورة ومعظمها فكما قلنا، ويقضي بذلك قول النبي عليه السلام لعمر وهما في تلك السفرة: «لقد نزلت عليّ الليلة سورة هي أحب إليّ من الدنيا وما فيها»".

قال الشوكاني-بعد أن ذكر القولين-:"وهذا لا ينافي الإجماع على كونها مدنية، لأن المراد بالسور المدنية النازلة بعد الهجرة من مكة".

قال ابن عاشور:" هي مدنية على المصطلح المشهور في أن المدني ما نزل بعد الهجرة ولو كان نزوله في مكان غير المدينة من أرضها أو من غيرها. وهذه السورة نزلت بموضع يقال له «كراع الغميم» بضم الكاف من: كراع، وبفتح الغين

=

=

المعجمة وكسر الميم من: «الغميم»، موضع بين مكة والمدينة وهو واد على مرحلتين من مكة وعلى ثلاثة أميال من عسفان، وهو من أرض مكة، وقيل نزلت: بـ «ضجنان»، وهو جبل قرب مكة ونزلت ليلا فهي من القرآن الليلي. ونزولها سنة ست بعد الهجرة منصرف النبيء ﷺ من الحديبية وقبل غزوة خيبر".

قال ابن الجوزي:" هي مدنيّة كلّها بإجماعهم".

قال الفيروزآبادي:" السورة مدنية إجماعا".

والظاهر- والله اعلم- أن السورة نزلت على رسول الله ﷺ مرجعه من الحديبية، وكان موضوعها على تلك القضية يدور بما فيها من قصص وأحداث متفرقة وذلك لصحة أسانيد الأحاديث في ذلك، وصراحة ألفاظها، واتفاق المفسرين عليها.

* آياتها تسع وعشرون. وكلماتها خمسمائة وستّون. وحروفها أَلفان وأَربعمائة وثمان وثلاثون. وفواصل آياتها على الأَلف.

* أسماء السورة.

تسمى سورة «سورة الفتح» اشتهرت تسميتها بـ «سورة الفتح، وجاءت في كلام الصحابة -رضوان الله عليهم-، وبذلك كتبت في المصاحف وكتب التفسير والسنة.

ووجه التسمية أنها تضمنت حكاية فتح متجه الله للنبيء ﷺ، إذ افتتحت السورة ببشرى الفتح للمؤمنين، وتكرر فيها لفظ: «فتحا»، في قوله تعالى: {إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا}، {وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا، {فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا}.

قال المهايمي:"سميت لدلالتها على فتح البلاد والنصر العزيز، وكل هذه أمور جليلة.

وتسمى «سورة إِنَّا فتحْنا لَكَ» من باب تسمية السورة بأول جملة افتتحت بها، وقد

=

=

وردت هذه التسمية عند يحيى بن سلام، والفخر الرازي.

وهي تسمية اجتهادية أظنها جاءت للتفرقة بينها وبين «سورة النصر»، إذ أن الأخيرة معنونة في «سنن الترمذي» بـ «سورة الفتح»، لوقوع هذا اللفظ فيها، فيكون هذا الاسم مشتركا بينها وبين سورة: «إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا» -والله أعلم-.

* معظم مقصود السّورة؛ وَعْد الرسول ﷺ بالفتح والغفران، وإِنزال السَّكِينة على أَهل الإِيمان، وإِيعاد المنافقين بعذاب الجحيم، ووعد المؤمنين بنعيم الجِنَان، والثناءُ على سيّد المرسلين، وذكر العهد، وبَيْعة الرّضوان، وذكر ما للمنافقين من الخِذلان، وبيان عُذْر المعذورين، والمنَّة على الصّحابة بعدم الظفر عليهم من أَهل مكة ذوى الطغيان، وصدق رؤيا سيّد المرسلين على حَقِّيّة الرّسالة، وشهادة الملِك الدّيّان، وتمثيل حال النبىّ والصّحابة بالزَّرع والزُّرَّاع فى البهجة والنضارة وحسن الشان.

* المتشابهات: قوله: {وَلِلَّهِ جُنُودُ السماوات والأرض وَكَانَ الله عَلِيمًا حَكِيمًا} وبعد: {عَزِيزًا حَكِيمًا} لأَنَّ الأَوّل متَّصل بإِنزال السّكينة، وازدياد إِيمان المؤمنين، (وكان) الموضع علم وحكمة. وقد تقدّم ما اقتضاه الفتح عند قوله: {وَيَنْصُرُكَ الله} وأَمَّا الثانى والثالث الذى بعد فمتصلان بالعذاب والغضب وسلب الأَموال والغنائم (وكان الموضع) موضع عِزّ وغلبة وحكمة.

قوله: {قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُمْ مِّنَ الله شَيْئًا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا}، وفى المائدة: {فَمَن يَمْلِكُ مِنَ الله شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ المسيح} زاد فى هذه السّورة (لكم) لأَنَّ ما فى هذه السّورة نزلت فى قوم بأَعيانهم وهم المخلَّفون، وما فى المائدة عامّ لقوله: {أَن يُهْلِكَ المسيح ابن مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَن فِي الأرض جَمِيعًا}.

قوله: {كذلكم قَالَ الله} بلفظ الجميع، وليس له نظير. وهو خطاب للمضمرين فى قوله {لَنْ تَتَّبِعُوْنَا} ا. هـ من بصائر ذوي التمييز (١/ -٤٣٢ - ٤٣٣).

بسم الله الرحمن الرحيم[١]

إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا (١).

{إِنَّا فَتَحْنَا لَك} قَضَيْنَا بِفَتْحِ مَكَّة وَغَيْرهَا فِي الْمُسْتَقْبَل عِنْوَة بِجِهَادِك {فَتْحًا مُبِينًا} بَيِّنًا ظاهرا.

لِيَغْفِرَ لَكَ اللهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا (٢).

{لِيَغْفِر لَك الله} بِجِهَادِك {مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبك وَمَا تَأَخَّرَ} مِنْهُ لِتُرَغِّب أُمَّتك فِي الْجِهَاد وَهُوَ مُؤَوَّل لِعِصْمَةِ الْأَنْبِيَاء عَلَيْهِمْ الصَّلَاة وَالسَّلَام بِالدَّلِيلِ الْعَقْلِيّ الْقَاطِع مِنْ الذُّنُوب وَاللَّام للعلة الغائبة فَمَدْخُولهَا مُسَبَّب لَا سَبَب {وَيُتِمّ} بِالْفَتْحِ الْمَذْكُور {نِعْمَته} إنْعَامه {عَلَيْك وَيَهْدِيك} بِهِ {صِرَاطًا} طَرِيقًا {مُسْتَقِيمًا} يُثَبِّتك عَلَيْهِ وَهُوَ دِين الْإِسْلَام.

وَيَنْصُرَكَ اللهُ نَصْرًا عَزِيزًا (٣).

{وَيَنْصُرك الله} بِهِ {نَصْرًا عَزِيزًا} ذَا عِزّ لَا ذُلّ لَهُ[٢].

---

(١) تقدم تفسير البسملة في أول سورة الفاتحة.

(٢) ذكر سبب النزول.

عن زيد بن أسلم عن أبيه: أن رسول الله ﷺ كان يسير في بعض أسفاره وعمر بن الخطاب يسير معه ليلًا، فسأله عمر بن الخطاب عن شيء؛ فلم يجبه رسول الله ﷺ، ثم مسألة؛ فلم يجبه، ثم سألة فلم يجبه فقال عمر بن الخطاب: ثكِلَتْ أم عمر، نزرت رسول الله ﷺ ثلاث مرات كل ذلك لا يجيبك، قال عمر: فحركت بعيري ثم تقدمت أمام الناس، وخشيت أن ينزل فيّ القرآن، فما نشبت أن سمعت =

=

صارخًا يصرخ بي، فقلت: لقد خشيت أن يكون نزل فيّ قرآن، فجئت رسول الله ﷺ فسلمت عليه، فقال: "لقد أنزلت عليَّ الليلة سورة لهي أحب إليّ مما طلعت عليه الشمس"، ثم قرأ: {إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا (١)}.

أخرجه البخاري في "صحيحه" (رقم ٤١٧٧، ٤٨٣٣، ٥٠١٢).

قال الحافظ ابن حجر في "فتح الباري" (٧/ ٤٥٣): "هذا صورته مرسل، ولكن بقيته تدل على أنه عن عمر؛ لقوله في أثنائه: قال عمر: فحركت بعيري إلخ، وقد أشبعت القول فيه في المقدمة".

قلنا: وقد أخرجه الإمام أحمد في "المسند" (١/ ٣١)، والترمذي (رقم ٣٢٦٢)، والنسائي في "تفسيره" (٢/ ٣٠١ رقم ٥١٩)، والبزار في "البحر الزخار" (١/ ٣٨٨، ٣٨٩ رقم ٢٦٤، ٢٦٥) وغيرهم من طريق عبد الرحمن بن غزوان ومحمد بن خالد بن عثمة كلاهما عن مالك عن زيد بن أسلم عن أبيه عن عمر موصولًا.

وانظر للاستزادة: "علل الدارقطني" (رقم ١٧١)، والتعليق على "البحر الزخار".

وعن حبيب بن أبي ثابت؛ قال: أتيت أبا وائل أسأله، فقال: كنا بصفين، فقال رجل: ألم تر إلى الذين يُدْعَون إلى كتاب الله؟ فقال علي: نعم، فقال سهل بن حنيف: اتهموا أنفسكم؛ فلقد رأيتُنا يوم الحديبية؛ يعني: الصلح الذي كان بين النبي ﷺ والمشركين -ولو نرى قتالًا لقاتلنا- فجاء عمر فقال: ألسنا على الحق، وهم على الباطل؟ أليس قتلانا في الجنة، وقتلاهم في النار؟ قال: "بلى"، فقال: ففيم نعطي الدنية في ديننا، ونرجع ولما يحكم الله بيننا؟ فقال: "يا ابن الخطاب! إني رسول الله، ولن يضيعني الله أبدًا"؛ فرجع متغيظًا فلم يصبر، حتى جاء أبا بكر فقال: يا أبا بكر! ألسنا على الحق وهم على الباطل؟ قال: يا ابن الخطاب إنه رسول الله ﷺ، ولن يضيّعه الله أبدًا؛ فنزلت سورة الفتح.

أخرجه البخاري في "صحيحه" (رقم ٤٨٤٤)، ومسلم في "صحيحه" (رقم

=

=

١٧٥٨).

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه: أنها نزلت على النبي ﷺ مرجعه من الحديبية، وأصحابه يخالطون الحزن والكآبة، وقد حيل بينهم وبين مساكنهم ونحروا الهدي بالحديبية: {إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا (١)} إلى قوله: {صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا}، قال: "لقد أنزلت عليّ آيتان هما أحب إليّ من الدنيا جميعًا"، قال: فلما تلاهما؛ قال رجل: هنيًا مريئًا يا نبي الله! قد بيّن الله لك ما يفعل بك، فما يفعل بنا؟ فأنزل الله عز وجل الآية التي بعدها: {لِيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ} حتى ختم الآية.

أخرجه عبد الرزاق في "تفسيره" (٢/ ٢٢٥)، وعبد بن حميد في "تفسيره"؛ كما في "الدر المنثور" (٧/ ٥١٥) -وعنه الترمذي (٥/ ٣٨٥، ٣٨٦ رقم ٣٢٦٣)-، وأحمد في "المسند" (٣/ ١٣٤، ١٩٦، ٢١٥، ٢٥٢)، وابن حبان في "صحيحه" (رقم ١٧٦٠ - موارد)، والطبري في "جامع البيان" (٢٦/ ٤٣، ٤٤)، والحاكم في "المستدرك" (٢/ ٤٥٩، ٤٦٠)، والنسائي في "التفسير" (٢/ ٣٠٤ رقم ٥٢٢)، والواحدي في "أسباب النزول" (ص ٢٥٥، ٢٥٦)، و"الوسيط" (٤/ ١٣٢، ١٣٣)، والبيهقي في "السنن الكبرى" (٥/ ٢١٧، ٩/ ٢٢٢)، و"دلائل النبوة" (٤/ ١٥٨)، وأبو نعيم في "معرفة الصحابة" (١/ ١٢٤، ١٢٥ رقم ٢٥)، وأبو يعلى في "المسند" (٥/ ٣٠٨ رقم ٢٩٣٢، ص ٣٨٥ رقم ٣٠٤٥، ص ٤٧٣ رقم ٣٢٠٤، ٦/ ٢١ رقم ٣٢٥٢)، والطحاوي في "مشكل الآثار" (١٤/ ٤٧٤ رقم ٥٧٦٦، ص ٤٧٦ رقم ٥٧٦٧)، والبغوي في "شرح السنة" (١٤/ ٢٢٢ رقم ٤٠١٩)، و"معالم التنزيل" (٧/ ٢٩٥) من طرق عن قتادة عن أنس.

قال الترمذي: "حديث حسن صحيح".

وقال الحاكم: "هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه بهذا

=

=

السياق" ووافقه الذهبي، وهو كما قالا على تفصيل.

فقد أخرجه البخاري في "صحيحه" (٧/ ٤٥٠، ٤٥١ رقم ٤١٧٢)، والبيهقي "في الدلائل" (٤/ ١٥٧، ١٥٨)، وأحمد (٣/ ١٧٣)، وأبو يعلى (٦/ ٢١ رقم ٣٢٥٢) وغيرهم من طريق شعبة عن قتادة عن أنس رضي الله عنه: {إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا (١)}؛ قال: الحديبية، قال أصحابه: هنيئًا مريئًا، فما لنا؟ فأنزل الله: {لِيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ}، قال شعبة: فقدمت الكوفة فحدثت بهذا كله عن قتادة ثم رجعت فذكرت له، فقال: {إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ}؛ فعن أنس، وأما هنيئًا فعن عكرمة.

فهذا يبين أن قوله: هنيئًا مريئًا إلخ من قول عكرمة، فهي ضعيفة؛ لإرسالها، وَحَكَمَ شيخنا أبو عبد الرحمن الألباني رحمه الله عليها بالشذوذ؛ كما في "صحيح الترمذي" (رقم ٢٦٠١).

وأخرجه مسلم في "صحيحه" (رقم ١٧٨٦) بنحوه، لكن ليس عنده سبب نزول الآية.

وأخرجه ابن أبي شيبة في "المصنف" (١٤/ ٤٢٩ رقم ١٨٦٨٥)، والبخاري في "صحيحه" (رقم ٤٨٣٤) وغيرهما كثير من طريق شعبة عن قتادة عن أنس؛ {إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا (١)}، قال: الحديبية.

وأخرجه الطبري في "جامع البيان" (٢٦/ ٤٤): ثنا محمد بن بشار ومحمد بن المثنى قالا: ثنا شعبة عن قتادة عن عكرمة؛ قال: لما نزلت هذه الآية: {إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا (١) لِيَغْفِرَ لَكَ اللهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا (٢)}؛ قالوا: هنيئًا مريئًا لك يا رسول الله! فماذا لنا؟ فنزلت: {لِيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ}. وهذا سند صحيح إلى عكرمة، وهو يؤكد أنه من

=

=

مرسل عكرمة؛ كما بيّناه سابقًا، ولله الحمد والمنة على الفهم للإسلام والسنة.

والحديث ذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٧/ ٥١٥) وزاد نسبته لسعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن مردويه.

وعن مجمع بن جارية؛ قال: شهدنا الحديبية مع رسول الله ﷺ، فلما انصرفنا عنها؛ إذا الناس يهزون الأباعر، فقال بعض الناس لبعض: ما للناس؟ قالوا: أوحي إلى رسول الله ﷺ؛ فخرجنا مع الناس نوجف، فوجدنا النبي ﷺ واقفًا على راحلته عند كراع الغميم، فلما اجتمع عليه الناس؛ قرأ عليهم: {إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا (١)}؛ فقال رجل: يا رسول الله! أفتح هو؟ قال: "نعم، والذي نفس محمد بيده إنه لفتح"؛ فقسمت خيبر على أهل الحديبية، فقسمها رسول الله ﷺ على ثمانية عشر سهمًا، وكان الجيش ألفًا وخمسمائة، فيهم ثلثمائة فارس؛ فأعطى الفارس سهمين، وأعطى الراجل سهمًا.

أخرجه أبو داود (٣/ ٧٦ رقم ٢٧٣٦، ص ١٦٠ رقم ٣٠١٥)، وابن أبي شيبة في "المصنف" (١٢/ ٤٠٠، ٤٠١ رقم ١٥٠٣١، ١٤/ ٤٣٧، ٤٣٨ رقم ١٨٦٩٢)، وابن سعد في "الطبقات الكبرى" (٢/ ١٠٥)، والطبري في "جامع البيان" (٢٦/ ٤٤، ٤٥)، وأحمد في "المسند" (٣/ ٤٢٠)، والطبراني في "المعجم الكبير" (١٩/ ٣٧٩، ٣٨٠ رقم ١٠٨٢) -ومن طريقه المزي في "تهذيب الكمال" (٣٢/ ٣٦٤) -، والحاكم في "المستدرك" (٢/ ١٥٦، ١٥٧) من طريق مجمع بن يعقوب عن أبيه عن عمه عبد الرحمن بن يزيد عن مجمع بن جارية به.

ولم يذكر الطبراني ولا الحاكم عن عمه عبد الرحمن.

والحديث حسن الإسناد؛ مداره على يعقوب بن مجمع الأنصاري؛ وثقه الذهبي وابن حبان، وروى عنه أكثر من واحد -والله أعلم-.

وقال الحاكم: "هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه"، وتعقبه

=

=

الذهبي بقوله: "قلت: لم يرو مسلم لمجمع شيئًا، ولا لأبيه وهما ثقتان".
والحديث ضعفه شيخنا أبو عبد الرحمن الألباني في الموضع الأول من "سنن أبي داود"، وحسنه في الموضع الثاني، وهو الأقرب للصواب -والله أعلم-.
وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه؛ قال: أقبلنا مع رسول الله ﷺ زمن الحديبية، فذكروا أنهم نزلوا دهاسًا من الأرض؛ يعني بالدهاس: الرمل، فقال رسول الله ﷺ: "من يكلؤنا؟ "؛ فقال بلال: أنا، فقال رسول الله ﷺ: "إذًا تنام"، قال: فناموا حتى طلعت الشمس، فاستيقظ الناس فيهم فلان وفلان وفيهم عمر، قال: فقلنا: اهضبوا؛ يعني: تكلموا، قال: فاستيقظ النبي ﷺ، فقال: "افعلوا كما كنتم تفعلون"، قال: ففعلنا، قال: فقال: "كذلك فافعلوا لمن نام أو نسي"، قال: وضلت ناقة رسول الله ﷺ؛ فطلبتها، فوجدت حبلها قد تعلق بشجرة، فجئت بها إلى النبي ﷺ، فركب فسرنا، قال: وكان النبي ﷺ إذا نزل عليه الوحي اشتد ذلك عليه؛ وعرفنا ذلك فيه، قال: فتنحى منبذًا خلفنا، قال: فجعل يغطي رأسه بثوبه واشتد ذلك عليه حتى عرفنا أنه قد أنزل عليه؛ فأتانا، فأخبرنا أنه قد أنزل عليه: {إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا (١)}.
أخرجه ابن أبي شيبة في "المصنف" (١٢/ ١٦١ رقم ١٧٩٤٥، ١٤/ ٤٥٣، ٤٥٤ رقم ١٨٧٠٩)، وأحمد في "المسند" (١/ ٣٨٦، ٤٦٤) -ومن طريقه المزي في "تهذيب الكمال" (١٧/ ٢٩٢، ٢٩٣) -، والطيالسي في "المسند" (١/ ٧٧ رقم ٣٢١ - منحة)، والبخاري في "التاريخ الكبير" (٥/ ٢٥١، ٢٥٢)، وأبو داود (١/ ١٢٢ رقم ٤٤٧)، والنسائي في "السير"؛ كما في "تحفة الأشراف" (٧/ ٧٧، ٧٨ رقم ٩٣٧١)، والطبري في "جامع البيان" (٢٦/ ٤٣)، والبزار في "مسنده" (١/ ٢٠٢، ٢٠٣ رقم ٤٠٠ - كشف)، والبيهقي في "دلائل النبوة" (٤/ ١٥٦) من طرق عن شعبة عن جامع بن شداد عن عبد الرحمن بن علقمة الثقفي عن ابن
=

=

مسعود به.

وهذا سند صحيح رجاله ثقات.

وقال الشيخ أحمد شاكر في "تحقيق المسند" (٥/ ٢٤٠ رقم ٣٦٥٧): "إسناده صحيح".

وصححه العلامة الألباني رَحِمَهُ اللَّهُ في "صحيح أبي داود".

وأخرجه النسائي في "الكبرى" (رقم ٨٨٥٤)، وأحمد (١/ ٣٩١)، والطبراني في "الكبير" (١٠/ ٢٢٥ رقم ١٠٥٤٨)، والطيالسي (١/ ٧٧ رقم ٣٢١ - منحة)، وأبو يعلى في "المسند" (٩/ ١٨٧، ١٨٨ رقم ٥٢٨٥)، والهيثم بن كليب في "مسنده" (رقم ٨٤٠، ٨٤١)، والبيهقي في "الدلائل" (٤/ ١٥٥)، و"السنن الكبرى" (٢/ ٢١٨) من طريق المسعودي عن جامع بن شداد عن عبد الرحمن عن ابن مسعود؛ قال: لما انصرفنا من غزوة الحديبية؛ قال رسول الله ﷺ: "من يحرسنا الليلة؟ "، قال عبد الله: أنا؛ فقال: "إنك تنام"، ثم أعاد: "من يحرسنا الليلة؟ "؛ فقلت: أنا، حتى عاد مرارًا، قلت: أنا يا رسول الله! قال: "فأنت إذًا"، قال: فحرستهم، حتى إذا كان وجه الصبح؛ أدركني قولُ رسولِ الله ﷺ: "إنك تنام"، فنمت، فما أيقظنا إلا حرّ الشمس في ظهورنا، فقام رسول الله ﷺ، وصنع كما كان يصنع من الوضوء وركعتي الفجر، ثم صلّى بنا الصبح، فلما انصرف؛ قال: "إن الله ﷻ لو أراد أن لا تناموا عنها لم تناموا، ولكن أراد أن تكونوا لمن بعدكم؛ فهكذا لمن نام أو نسي"، قال: ثم إن ناقة رسول الله ﷺ وإبل القوم تفرقت؛ فخرج الناس في طلبها، فجاؤوا بإبلهم إلا ناقة رسول الله ﷺ، فقال عبد الله: قال لي رسول الله ﷺ: "خذها هنا"؛ فأخذت حيث قال لي، فوجدت زمامها قد التوى على شجرة، ما كانت لتحلها إلا يد، قال: فجئت بها النبي ﷺ، فقلت: يا رسول الله! والذي بعثك بالحق نبيًا؛ لقد وجدت زمامها ملتويًا على شجرة، ما

=

=

كانت لتحلها إلا يد، قال: ونزلت على رسول الله ﷺ سورة الفتح: {إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا (١)}.

قلنا: وسنده ضعيف؛ المسعودي اختلط.

وقال الهيثمي في "مجمع الزوائد" (١/ ٣١٩): "وفيه عبد الرحمن بن عبد الله المسعودي وقد اختلط في آخر عمره".

وعن عُروة؛ قال: وأقبل رسول الله ﷺ من الحديبية راجعًا، فقال رجالٌ من أصحاب رسول الله ﷺ: ما هذا بفتح؛ لقد صُددنا عن البيت وصُدَّ هديُنا. وعكف رسول الله ﷺ بالحديبية، ورَدّ رسول الله ﷺ رجلين من المسلمين خَرجَا، فبلغ رسول الله ﷺ قول رجال من أصحابه: إن هذا ليس بفتح، فقال رسول الله ﷺ: "بئس الكلام! هذا أعظم الفتح؛ لقد رضي المشركون أن يدفعوكم بالراح عن بلادهم، ويسألونكم القضية، ويرغبون إليكم في الأمان، وقد رأوا منكم ما كرهوا وقد أظفركم الله ﷻ عليهم، وردكم سالمين غانمين مأجورين؛ فهذا أعظم الفتوح، أنسيتم يوم أحد: {إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُونَ عَلَى أَحَدٍ} [آل عمران: ١٥٣]، وأنا أدعوكم في أُخراكم، أنسيتم يوم الأحزاب {إِذْ جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا (١٠)} [الأحزاب: ١٠]؟ "، قال المسلمون: صدق الله ورسوله، هو أعظمُ الفتوح، والله يا نبي الله! ما فكرنا فيما فكرت فيه، ولأنت أعلم بالله ﷻ وبالأمور منا، وأنزل الله ﷻ سورة الفتح: {إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا (١)} إلى قوله: {صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا}؛ فبشَّر الله ﷻ نبيه ﷺ بمغفرته، وتمام نعمته، وفي طاعة من أطاع، ونفاق من نافق، ثم ذكر ما المنافقون معتلون به إذا أتوا رسول الله ﷺ، وأخبرهم أنهم يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم، وإنما منعهم من الخروج معه أنَّهم ظنوا أن لَنْ يرجع الرسول والمؤمنون إلى أهليهم أبدًا، وظنوا السوء، ثم ذكر أنهم إذا انطلقوا إلى

=

=

مغانم ليأخذوها؛ التمسوا الخروج معهم لعرض الدنيا، ثم ذكر أن المنافقين سيدعون إلى قوم أولي بأس شديد، يقاتلونهم أو يسلمون ما يبتليهم، فإن أطاعوا؛ أثابوا على الطاعة، وإن تولوا كفعلهم أول مرة؛ عذبهم عذابًا أليمًا، ثم ذكر من بايع تحت الشجرة، ثم ذكر ما أثابهم على ذلك من الفتح، والمغانم الكثيرة، وعجّل لهم مغانم كثيرة، ثم ذكر نعمته عليهم بكف أيدي العدو عنهم، ثم بشّره ﷺ بمكة أنه قد أحاط بها، ثم ذكر أن لو قاتلهم الذين كفروا؛ لولّوا الأدبار، ثم لا يجدون وليًا ولا نصيرًا، ولأعطينكم النصر والظفر عليهم.

ثم ذكر المشركين وصدهم المسلمين عن البيت الحرام والهدي معكوفًا أن يبلغ محله، وأخبر أن: {وَلَوْلَا رِجَالٌ مُؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُؤْمِنَاتٌ لَمْ تَعْلَمُوهُمْ أَنْ تَطَئُوهُمْ فَتُصِيبَكُمْ مِنْهُمْ مَعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ} لو كان قتال، ثم قال: {لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا}.

ثم ذكر الحمية التي جعلها الله في قلوبهم حين أبَوْا أن يقروا لله تبارك وتعالى باسمه، وللرسول باسمه، وذكر الذي أنزل الله -تعالى- على رسوله ﷺ وعلى المؤمنين من السكينة؛ حتى لا يحموا كما حمى المشركون لوقع القتال، فيكون فيه معرّة، ثم ذكر أنه قد صدق رسوله الرؤية بالحق: {لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ الله آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ} إلى {فَتْحًا مُبِينًا}.

أخرجه البيهقي في "دلائل النبوة" (٤/ ١٦٠، ١٦١) من طريق ابن لهيعة عن أبي الأسود عن عروة به. ومن طريق موسى بن عقبة عن الزهري عن عروة به. وهذا مرسل صحيح الإسناد.

وعن الشعبي؛ قال: نزلت {إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا} بالحديبية، وأصاب في تلك الغزوة ما لم يصبه في غزوة؛ أصاب أن بويع بيعة الرضوان، وغفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، وظهرت الروم على فارس، وبلغ الهدي محله، وأطعموا نخل

=

=

خيبر، وفرح المؤمنون بتصديق النبي ﷺ وبظهور الروم على فارس، وقوله -تعالى-: {وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ}: بإظهاره إياك على عدوك، ورفعه ذكرك في الدنيا، وغفرانك ذنوبك في الآخرة {وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا} يقول: ويرشدك طريقًا من الدين لا اعوجاج فيه؛ يستقيم بك إلى رضا ربك {وَيَنْصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا (٣)} يقول: وينصرك على سائر أعدائك ومن ناوأك نصرًا لا يغلبه غالب ولا يدفعه دافع للبأس الذي يؤيدك الله به والظفر الذي يمدك به.

أخرجه سعيد بن منصور في "سننه"؛ كما في "الدر المنثور" (٧/ ٥٠٩) -ومن طريقه البيهقي في "دلائل النبوة" (٤/ ١٦٢، ١٦٣) -، وعبد الرزاق في "تفسيره" (٢/ ٢٢٥)، والطبري في "جامع البيان" (٢٦/ ٤٥)، وابن المنذر في "التفسير"؛ كما في "الدر المنثور" (٧/ ٥٠٩) من طرق عن مغيرة بن مقسم عن الشعبي به.

وسنده ضعيف؛ لإرساله.

وعن مجاهد في قوله: {إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا}؛ قال: إنا قضينا لك قضاءً بينًا، نزلت عام الحديبية؛ للنحر الذي بالحديبية، وحلقه رأسه.

ذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٧/ ٥٠٩) ونسبه لعبد بن حميد والطبري وابن المنذر.

والذي رأيناه عند الطبري في "جامع البيان" (٢٦/ ٤٣) من طريقين عن ابن أبي نجيح عن مجاهد؛ قال: نحوه بالحديبية وحلقه فقط. وهذا سند ضعيف؛ لإرساله.

وأخرجه ابن سعد في "الطبقات الكبرى" (٢/ ١٠٤): ثنا الفضل بن دكين نا شريك عن ليث عن مجاهد؛ قال: نزلت عام الحديبية. وهذا سند ضعيف؛ فيه ثلاث علل:

الأولى: الإرسال.

الثانية: ليث وابن أبي سليم؛ ضعيف.

=

=

الثالثة: شريك هو ابن عبد الله النخعي القاضي؛ ضعيف -أيضًا-.
وعن الشعبي: أن رجلًا سأل النبي ﷺ يوم الحديبية: أفتح هذا؟ قال: وأنزلت عليه: {إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا}، فقال النبي ﷺ: "نعم، عظيم"، قال: وكان فصل ما بين الهجرتين فتح الحديبية، قال: {لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ} [الحديد: ١٠] الآية.
ذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٧/ ٥١٠) ونسبه لعبد بن حميد. وسنده ضعيف؛ لإرساله.
وعن علي رضي الله عنه؛ قال: صلى بنا رسول الله ﷺ الفجر ذات يوم بغلس، وكان يغلس ويسفر ويقول: "ما بين هذين وقت؛ لكيلا يختلف المؤمنون"، فصلّى بنا ذات يوم بغلس، فلما قضى الصلاة؛ التفت إلينا كأن وجهه ورقة مصحف، فقال: "أفيكم من رأى الليلة شيئًا؟ "، قلنا: لا يا رسول الله! قال: "لكني رأيت ملكين أتياني الليلة؛ فأخذا بضبعي، فانطلقا بي إلى السماء الدنيا، فمررت بَمَلك وأمامه آدمي وبيده صخرة فيضرب بهامة الآدمي؛ فيقع دماغه جانبًا، وتقع الصخرة جانبًا، قلت: ما هذا؟ قالا لي: امض؛ فمضيت، فإذا أنا بملك وأمامه آدمي وبيد الملك كلوب من حديد فيضعه في شدقه الأيمن فيشقه حتى ينتهي إلى أذنه ثم يأخذ في الأيسر فيلتئم الأيمن، قلت: ما هذا؟ قالا: امض؛ فمضيت، فإذا أنا بنهر من دم يمور كمور المرجل، على فيه قوم عراة على حافة النهر ملائكة بأيديهم مدرتان، كما طلع طالع قذفوه بمدرة؛ فيقع في فيه ويسيل إلى أسفل ذلك النهر، قلت: ما هذا؟ قالا: امض؛ فمضيت، فإذا أنا ببيت أسفله أضيق من أعلاه، فيه قوم عراة توقد من تحتهم النار، أمسكت على أنفي من نتن ما أجد من ريحهم، قلت: من هؤلاء؟ قالا: امض؛ فمضيت، فإذا أنا بتل أسود عليه قوم مخبلون تنفخ النار في أدبارهم فتخرج من أفواههم ومناخرهم وآذانهم وأعينهم، قلت: ما هذا؟ قالا: امض؛

=

=

فمضيت، فإذا أنا بنار مطبقة موكل بها ملك لا يخرج منها شيء إلا أتبعه حتى يعيده فيها، قلت: ما هذا؟ قالا لي: امض؛ فمضيت، فإذا أنا بروضة وإذا فيها شيخ جميل لا أجمل منه، وإذا حوله الولدان وإذا شجرة ورقها كآذان الفيلة، فصعدت ما شاء الله من تلك الشجرة وإذا أنا بمنازل لا أحسن منها من زمردة جوفاء وزبرجدة خضراء وياقوتة حمراء، قلت: ما هذا؟ قالا: امض؛ فمضيت، فإذا أنا بنهر عليه جسران من ذهب وفضة، على حافتي النهر منازل لا منازل أحسن منها من درة جوفاء وياقوتة حمراء، وفيه قدحان وأباريق تطرد، قلت: ما هذا؟

قالا لي: أنزل؛ فنزلت، فضربت بيدي إلى إناء منها، فغرفت ثم شربت؛ فإذا هو أحلى من العسل، وأشد بياضًا من اللبن، وألين من الزبد، فقالا لي: أما صاحب الصخرة التي رأيت يضرب بها هامته فيقع دماغه جانبًا وتقع الصخرة جانبًا؛ فأولئك الذين كانوا ينامون عن صلاة العشاء الآخرة، يصلون الصلاة لغير مواقيتها، يضربون بها حتى يصيروا إلى النار، وأما صاحب الكلوب الذي رأيت ملكًا موكلًا بيده كلوب من حديد يشق شدقه الأيمن حتى ينتهي إلى أذنه ثم يأخذ في الأيسر فيلتئم الأيمن؛ فأولئك الذين كانوا يمشون بين المؤمنين بالنميمة، فيفسدون بينهم؛ فهم يعذبون بها حتى يصيروا إلى النار، وأما ملائكة بأيديهم مدرتان من النار كلما طلع طالع قذفوه بمدرة فتقع في فيه فينفتل إلى أسفل ذلك النهر؛ فأولئك أكلة الربا يعذبون حتى يصيروا إلى النار، وأما البيت الذي رأيت أسفله أضيق من أعلاه فيه قوم عراة تتوقد من تحتهم النار أمسكت على أنفك من نتن ما وجدت من ريحهم؛ فأولئك الزناة، وذلك نتن فروجهم يعذبون حتى يصيروا إلى النار، وأما التل الأسود الذي رأيت عليه قومًا مخبلين تنفخ النار في أدبارهم فتخرج من أفواههم ومناخرهم وأعينهم وآذانهم؛ فأولئك الذين يعملون عمل قوم لوط الفاعل والمفعول به، فهم يعذبون حتى يصيروا إلى النار، وأما النار

=

=

المطبقة التي رأيت ملكًا موكلًا بها كلما خرج منها شيء أتبعه حتى يعيده فيها؛ فتلك جهنم تفرق بين أهل الجنة وأهل النار، وأما الروضة التي رأيت؛ فتلك جنة المأوى، وأما الشيخ الذي رأيت ومن حوله من الولدان؛ فهو إبراهيم وهم بنوه، وأما الشجرة التي رأيت فطلعت إليها؛ فيها منازل لا منازل أحسن منها من زمردة وزبرجدة خضراء وياقوتة حمراء؛ فتلك منازل أهل عليين من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، وحسن أولئك رفيقًا، وأما النهر؛ فهو نهرك الذي أعطاك الله: الكوثر، وهذه منازلك وأهل بيتك، قال: فنوديت من فوقي: يا محمد! سل تعطه؛ فارتعدت فرائصي، ورجف فؤادي، واضطرب كل عضو مني، ولم أستطع أن أجيب شيئًا، فأخذ أحد الملكين بيده اليمنى فوضعها في يدي، والآخر يده اليمنى فوضعها بين كتفي فسكن ذلك مني، ثم نوديت من فوقي: يا محمد! سل تعط.

قال: قلت: اللهم إني أسألك أن تثبت شفاعتي، وأن تلحق بي أهل بيتي، وأن ألقاك ولا ذنب لي، قال: ثم ولي بي"، ونزلت عليه هذه الآية: {إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا (١) لِيَغْفِرَ لَكَ اللهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا (٢)} فقال رسول الله ﷺ: "فكما أعطيت هذه كذلك أعطانيها إن شاء الله -تعالى-".

ذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٧/ ٥١٠ - ٥١١) وقال: أخرج ابن عساكر من طريق أبي خالد الواسطي عن زيد بن علي بن الحسين عن أبيه عن جده عن علي.

وهذا سند ضعيف جدًا، بل موضوع؛ فيه أبو خالد الواسطي واسمه عمرو بن خالد؛ متروك والحديث، ورماه وكيع بالكذب.

وعن مجمع بن جارية؛ قال: لما كنا بضجنان، رأيت الناس يركضون، وإذا هم يقولون: أنزل على رسول الله ﷺ، فركضت مع الناس حتى توافينا مع رسول الله

=

=

ﷺ، فإذا هو يقرأ: {إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا (١)}، فلما نزل بها جبريل عليه السلام؛ قال: "ليهنك يا رسول الله! "، فلما هنأه جبريل عليه السلام؛ هنأه المسلمون.

ذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٧/ ٥١٢) ونسبه لابن سعد في "الطبقات الكبرى".

هو فيه (٢/ ٩٨) بنحوه دون سند.

وعن قتادة؛ قال: نزلت على النبي ﷺ: {لِيَغْفِرَ لَكَ اللهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ} مرجعه من الحديبية، فقال النبي ﷺ: "لقد نزلت عليَّ آية أحب إليَّ مما على الأرض"، ثم قرأها عليهم، فقالوا: هنيئًا مرئيًا يا نبي الله! قد بيّن الله -تعالى ذكره- لك ماذا يفعل بك، فماذا يفعل بنا؟ فنزلت عليه: {لِيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ} إلى قوله: {فَوْزًا عَظِيمًا}.

أخرجه الطبري في "جامع البيان" (٢٦/ ٤٤): ثنا محمد بن عبد الأعلى؛ قال: ثنا محمد بن ثور عن معمر عن قتادة به. وهذا مرسل رجاله ثقات.

* قوله تعالى: (إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا) اختلف العلماء ما المراد بهذا الفتح، فقيل: المراد به فتح مكة، وقيل: المراد به صلح الحديبية، وهذا قول الأكثر ورجحه ابن كثير والشوكاني والشنقيطي.

لأن هذا الصلح - صلح الحديبية - هو السبب الذي تهيأ به للمسلمين أن يجتمعوا بالكفار فيدعوهم إلى الإسلام ويبينوا لهم محاسنه، فدخل كثير من قبائل العرب بسبب ذلك في الإسلام.

ومما يوضح ذلك: أن الذين شهدوا صلح الحديبية مع النبي ﷺ في ذي القعدة عام (٦) كانوا ألفًا وأربعمائة، ولما أراد النبي ﷺ غزو مكة حين نقض الكفار العهد، كان خروجه إلى مكة في رمضان عام ثمان، وكان معه عشرة آلاف مقاتل.

وذلك يوضح أن الصلح المذكور من أعظم الفتوح، لكونه سببًا لقوة المسلمين

=

=

وكثرة عددهم.

ولأن ظاهر القرآن يدل عليه، لأن سورة الفتح هذه نزلت بعد صلح الحديبية في طريقة ﷺ راجعًا إلى المدينة ولفظ الماضي في قوله (إنا فتحنا) يدل على أن ذلك الفتح قد مضى.

وفي سبب نزول الآيات: [١ - ٥]، وجهان:

أحدهما: أنها نزلت على رسول الله ﷺ بين مكة والمدينة في شأن الحديبية، وفي ذلك أحاديث كثيرة عن الصحابة-رضوان الله عليهم- تقتضي صحته.

عن زيد بن أسلم عن أبيه: «أن رسول الله ﷺ كان يسير في بعض أسفاره وعمر بن الخطاب يسير معه ليلًا، فسأله عمر بن الخطاب عن شيء؛ فلم يجبه رسول الله ﷺ، ثم مسألة؛ فلم يجبه، ثم سألة فلم يجبه فقال عمر بن الخطاب: ثَكِلَتْ أم عمر، نزرت رسول الله ﷺ ثلاث مرات كل ذلك لا يجيبك، قال عمر: فحركت بعيري ثم تقدمت أمام الناس، وخشيت أن ينزل فيّ القرآن، فما نشبت أن سمعت صارخًا يصرخ بي، فقلت: لقد خشيت أن يكون نزل فيّ قرآن، فجئت رسول الله ﷺ فسلمت عليه، فقال: "لقد أنزلت عليَّ الليلة سورة لهي أحب إليّ مما طلعت عليه الشمس"، ثم قرأ: {إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا}».

عن حبيب بن أبي ثابت؛ قال: "أتيت أبا وائل أسأله، فقال: كنا بصفين، فقال رجل: ألم تر إلى الذين يُدْعَون إلى كتاب الله؟ فقال علي: نعم، فقال سهل بن حنيف: اتهموا أنفسكم؛ فلقد رأيتُنا يوم الحديبية؛ يعني: الصلح الذي كان بين النبي ﷺ والمشركين -ولو نرى قتالًا لقاتلنا- فجاء عمر فقال: ألسنا على الحق، وهم على الباطل؟ أليس قتلانا في الجنة، وقتلاهم في النار؟ قال: "بلى"، فقال: ففيم نعطي الدنية في ديننا، ونرجع ولما يحكم الله بيننا؟ فقال: "يا ابن الخطاب! إني رسول الله، ولن يضيعني الله أبدًا"؛ فرجع متغيظًا فلم يصبر، حتى جاء أبا بكر

=

=

فقال: يا أبا بكر! ألسنا على الحق وهم على الباطل؟ قال: يا ابن الخطاب إنه رسول الله ﷺ، ولن يضيّعه الله أبدًا؛ فنزلت سورة الفتح".

عن أنس بن مالك -رضي الله عنه-: أنها نزلت على النبي ﷺ مرجعه من الحديبية، وأصحابه يخالطون الحزن والكآبة، وقد حيل بينهم وبين مساكنهم ونحروا الهدي بالحديبية: {إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا} إلى قوله: {صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا}، قال: "لقد أنزلت عليّ آيتان هما أحب إليّ من الدنيا جميعًا"، قال: فلما تلاهما؛ قال رجل: هنيًا مرئيًا يا نبي الله! قد بيّن الله لك ما يفعل بك، فما يفعل بنا؟ فأنزل الله -عز وجل- الآية التي بعدها: {لِيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ} حتى ختم الآية".

الثاني: وقال عطاء عن ابن عباس: "إن اليهود شتموا النبي ﷺ والمسلمين لما نزل قوله: {وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُم} [الأحقاف: ٩]، وقالوا: كيف نتبع رجلا لا يدري ما يفعل به، فاشتد ذلك على النبي ﷺ فأنزل الله تعالى: {إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا لِيَغْفِرَ لَكَ اللهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ..} [الفتح: ١ - ٢]".

وهذا الخبر ضعيف لا يثبت، والمتن فيه نكاره، فإن الآية المذكورة في الخبر مكية، عند الجمهور وسورة الفتح مدنية.

وذكر مقاتل نحوه قائلا:" وذلك أن الله تعالى أنزل بمكة على نبيه ﷺ... {وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلا بِكُمْ} [الأحقاف: ٩]، ففرح كفار مكة بذلك، وقالوا: واللات والعزى ما أمره وأمرنا عند إلهه الذي يعبده إلا واحد ولولا أنه ابتدع هذا الأمر من تلقاء نفسه لكان ربه الذي بعثه يخبره بما يفعل به وبمن اتبعه كما فعل بسليمان بن داود، وبعيسى بن مريم والحواريين، وكيف أخبرهم بمصيرهم؟ فأما محمد فلا علم له بما يفعل به ولا بنا إن هذا لهو الضلال كل الضلال، فشق على المسلمين نزول هذه الآية فقال أبو بكر وعمر- رضي الله عنهما- للنبي ﷺ: ألا تخبرنا ما الله

=

=

فاعل بك؟ فقال: ما أحدث الله إلي أمر بعد. فلما قدم المدينة، قال عبد الله بن أبي رأس المنافقين: كيف تتبعون رجلا لا يدري ما يفعل الله به، ولا بمن اتبعه؟ وضحكوا من المؤمنين وعلم الله ما في قلوب المؤمنين من الحزن وعلم فرح المشركين من أهل مكة، وفرح المنافقين من أهل المدينة، فأنزل الله تعالى بالمدينة بعد ما رجع النبي ﷺ من الحديبية: {إِنَّا فَتَحْنا لَكَ..}".

واختلف أهل التفسير في قوله تعالى: {إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا}، على ثلاثة أقوال: أحدها: إنا أعلمناك علمًا مبينًا فيما أنزلناه عليك من القرآن وأمرناك به من الدين، وقد يعبر عن العلم بالفتح كقوله: {وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ} [الأنعام: ٥٩]، أي: علم الغيب، وكقوله: {إِن تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَآءَكُمُ الْفَتْحُ} [الأنفال: ١٩] أي: إن أردتم العلم فقد جاءكم العلم. حكاه الماوردي عن ابن بحر.

وقال سهل بن عبد الله:" يعني: أسرار العلوم في قلبك حتى ظهر عليك آثارها، وهي من أعلام المحبة وتمام النعمة".

الثاني: إنا قضينا لك قضاء بينًا، يعني: الإسلام. قاله قتادة، ومجاهد، ومقاتل، وبه قال الطبري، والزجاج.

قال الزمخشري:" فتح الله له بالإسلام والنبوّة والدعوة بالحجة والسيف، ولا فتح أبين منه وأعظم، وهو رأس الفتوح كلها، إذ لا فتح من فتوح الإسلام إلا وهو تحته ومتشعب منه".

قال الخازن:" الخطاب للنبي ﷺ وحده والمعنى: إنا قضينا وحكمنا لك فتحا مبينا ظاهرا بغير قتال ولا تعب".

قال ابن قتيبة:" أي: قضينا لك قضاءً عظيمًا. ويقال للقاضي: الفتاح"، " وقال أعرابي لآخر ينازعه: بيني وبينكم الفتاح، يعني الحاكم.".

وقال ابن عباس في قول الله تعالى: {إِنَّا فَتَحْنا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا} [الفتح: ١]:" كنت

=

=
أقرؤها ولا أدري ما هي، حتى تزوجت بنت مشرح، فقالت: فتح الله بيني وبينك، أي حكم الله بيني وبينك".
قال ابن عطية:" والفتاح: القاضي بلغة اليمن".
قال الزجاج:" معنى: {فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا} - وَاللهُ أعلَمُ - هو الهداية إلى الإِسْلاَمِ، وجاء في التفسير: قضينا لكَ قضاء مُبِينًا، أي: حكمنا لك بإظهار دين الإسلام والنصرة على عدوك".
قال الطبري:" يقول: إنا حكمنا لك يا محمد حكما لمن سمعه أو بلغه على من خالفك وناصبك من كفار قومك، وقضينا لك عليهم بالنصر والظفر، لتشكر ربك، وتحمده على نعمته بقضائه لك عليهم، وفتحه ما فتح لك، ولتسبحه وتستغفره".
قال قتادة:" الفتح: القضاء".
قال مقاتل:" يعني: قضينا لك قضاء بينا، يعني: الإسلام".
وقال الضحاك: " {إِنَّا فَتَحْنا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا} بغير قتال، وكان الصلح من الفتح".
وقال الحسن: "فتح الله عليه بالإسلام".
الثالث: إنا يسّرنا لك يسرا بيّنا. قاله مقاتل بن حيان.
قال ابن عطية:" وقال جمهور الناس: والصحيح الذي تعضده قصة الحديبية أن قوله: {إِنَّا فَتَحْنا لَكَ}، إنما معناه: إن ما يسر الله لك في تلك الخرجة فتح مبين تستقبله، ونزلت السورة مؤنسة للمؤمنين، لأنهم كانوا
استوحشوا من رد قريش لهم ومن تلك المهادنة التي هادنهم النبي عليه السلام فنزلت السورة مؤنسة لهم في صدهم عن البيت ومذهبه: ما كان في قلوبهم".
قال أبو حيان:" وأضاف ﷻ الفتح إلى نفسه، إشعارا بأنه من عند الله، لا بكثرة عدد ولا عدد، وأكده بالمصدر، ووصفه بأنه مبين، مظهر لما تضمنه من النصر
=

=

والتأييد".

وفي المراد بهذا الفتح أربعة أقوال:

أحدها: أنه فتح خيبر، قاله مجاهد، والعوفي، وابن زيد.

الثاني: أنه فتح الروم. حكاه الزمخشري.

الثالث: أنه فتح مكة، وعده الله به قبل أن يكون، وذكره بلفظ الماضي لتحققه، رواه مسروق عن عائشة، وبه قال السدي، واختاره الزمخشري.

قال الزمخشري:" هو فتح مكة، وقد نزلت مرجع رسول الله ﷺ عن مكة عام الحديبية عدة له وجيء به على لفظ الماضي على عادة رب العزة سبحانه في أخباره، لأنها في تحققها وتيقنها بمنزلة الكائنة الموجودة، وفي ذلك من الفخامة والدلالة على علو شأن المخبر ما لا يخفى. فإن قلت: كيف جعل فتح مكة علة للمغفرة؟ قلت: لم يجعل علة للمغفرة، ولكن لاجتماع ما عدّد من الأمور الأربعة: وهي المغفرة وإتمام النعمة وهداية الصراط المستقيم والنصر العزيز، كأنه قيل: يسرنا لك فتح مكة، ونصرناك على عدوّك، لنجمع لك بين عز الدارين وأغراض العاجل والآجل. ويجوز أن يكون فتح مكة- من حيث إنه جهاد للعدوّ- سببا للغفران والثواب والفتح والظفر بالبلد عنوة أو صلحا بحرب أو بغير حرب، لأنه منغلق ما لم يظفر به، فإذا ظفر به وحصل في اليد فقد فتح".

قال الجصاص:" الأظهر أنه فتح مكة بالغلبة والقهر، لأن القضاء لا يتناوله الإطلاق وإذا كان المراد فتح مكة فإنه يدل على أنه فتحها عنوة إذ كان الصلح لا يطلق عليه اسم الفتح وإن كان قد يعبر مقيدا، لأن من قال فتح بلد كذا عقل به الغلبة والقهر دون الصلح ويدل عليه قوله في نسق التلاوة {وَيَنْصُرَكَ اللهُ نَصْرًا عَزِيزًا} [الفتح: ٣]، وفيه الدلالة على أن المراد فتح مكة وأنه دخلها عنوة، ويدل عليه قوله تعالى: {إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللهِ وَالْفَتْحُ} [النصر: ١]، لم يختلفوا أن المراد:

=

=

فتح مكة، ويدل عليه قوله تعالى {إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ} [الفتح: ١]، وقوله تعالى: {هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ} [الفتح: ٤]، وذكره ذلك في سياق القصة يدل على ذلك، لأن المعنى: سكون النفس إلى الإيمان بالبصائر التي بها قاتلوا عن دين الله حتى فتحوا مكة".

قال أبو حيان:" الظاهر أن هذا الفتح هو فتح مكة، وقال الكلبي، وجماعة: وهو المناسب لآخر السورة التي قبل هذه لما قال: {هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تُدْعَوْنَ} [محمد: ٣٨]، الآية، بين أنه فتح لهم مكة، وغنموا وحصل لهم أضعاف ما أنفقوا ولو بخلوا، لضاع عليهم ذلك، فلا يكون بخلهم إلا على أنفسهم. وأيضا لما قال: {وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ وَاللهُ مَعَكُم} [محمد: ٣٥]، بين برهانه بفتح مكة، فإنهم كانوا هم الأعلين. وأيضا لما قال: {فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ} [محمد: ٣٥]، كان فتح مكة حيث لم يلحقهم وهن، ولا دعوا إلى صلح، بل أتى صناديد قريش مستأمنين مستسلمين مسلمين. وكانت هذه البشرى بلفظ الماضي، وإن كان لم يقع، لأن إخباره تعالى بذلك لا بد من وقوعه".

وضعّف النحاس هذا القول، قائلا:" الفتح -هاهنا- فتح الحديبيّة. وقد توهّم قوم أنه فتح مكّة ممّن لا علم لهم بالآثار".

الرابع: أن «الفتح»: هو صلح الحديبية. قاله جابر، وأنس، والبراء، وابن عباس، وسهل بن حنيف، وعامر الشعبي، ومجاهد، وهو قول الأكثرين.

قال ابن عاشور:" وما يندرج في هذا التفسير أن يكون المراد بالفتح صلح الحديبية تشبيها له بفتح مكة لأنه توطئة له".

قال ابن جزى: قيل:" أنه ما جرى في الحديبية من بيعة الرضوان، ومن الصلح الذي عقده رسول الله ﷺ مع قريش، وهو على هذا بمعنى: الحكم، أو بمعنى العطاء، ويدل على صحة هذا القول: أنه لما وقع صلح الحديبية، شق ذلك على

=

=

بعض المسلمين لشروط كانت فيه، حتى أنزل الله هذه السورة، ويتبين أن ذلك الصلح له عاقبة محمودة، وهذا هو الأصح".

قال ابن كثير:" قوله: {إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا}، أي: بينا ظاهرا، والمراد به صلح الحديبية فإنه حصل بسببه خير جزيل، وآمن الناس واجتمع بعضهم ببعض، وتكلم المؤمن مع الكافر، وانتشر العلم النافع والإيمان".

قال الفراء:" كَانَ فتح وفيه قتال قليل مراماة بالحجارة، فالفتح قَدْ يكون صلحًا، ويكون أخذ الشيء عنوة، ويكون القتال، إنما أريد به يوم الحديبية".

قال الزمخشري:" قيل: هو فتح الحديبية، ولم يكن فيه قتال شديد، ولكن ترام بين القوم بسهام وحجارة".

وعن ابن عباس رضى الله عنه: "رموا المشركين حتى أدخلوهم ديارهم".

وعن الكلبي: "ظهروا عليهم حتى سألوا الصلح".

وعن موسى بن عقبة: "أقبل رسول الله ﷺ من الحديبية راجعا، فقال رجل من أصحابه: ما هذا بفتح، لقد صدّونا عن البيت وصد هدينا، فبلغ النبي ﷺ فقال: «بئس الكلام هذا، بل هو أعظم الفتوح، وقد رضى المشركون أن يدفعوكم عن بلادهم بالراح، ويسألوكم القضية، ويرغبوا إليكم في الأمان، وقد رأوا منكم ما كرهوا».

قال الواحدي:" ذهب الأكثرون إلى أن الآية نزلت في صلح الحديبية، والمراد بالفتح ذلك الصلح... ومعنى الفتح في اللغة: فتح المنغلق، والصلح الذي حصل بينه وبين المشركين في ذلك اليوم كان مسدودًا عليه متعذرًا حتى فتحه الله ذلك اليوم ويسره، ودخل بعد ذلك ناس كثير في الإسلام".

قال الزجاج:" وأكثَر ما جاء في التفسير أنه فتح الحُدَيْبِيةِ، وكان في فتح الحديبية آية عظيمة من آيات النبي ﷺ، وذلك أنها بئر فاسْتُقِيَ جميعُ ما فيها من الماء حتى

=

=

نَزَحَت ولم يبق فيها ماء، فتمضمض رسول الله ﷺ ثم مَجَّهُ فيها فدرت البئر بالماء حتى شَرِبَ جميع من كان مع النبي ﷺ. وليس يخرج هذا من معنى فتحنا لك فتحًا مبينًا أنه يُعْنَى به الهداية إلى الإِسْلاَم، ودليل ذلك قوله {لِيَغْفِرَ لَكَ اللهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا} [الفتح: ٢]، فالمعنى: فتحنا لك فتحًا في الدين لتَهْتَدِيَ بِهِ أنت والمُسْلِمونَ".

قال السمعاني:" معنى القضاء هو الحكم بالنصرة على الأعداء، والفتح في اللغة هو انفتاح المنغلق، وقيل: هو الفرح المزيل الهم، ومنه انفتاح المسألة، وهو انكشاف البيان الذي يؤدي إلى البغية، وأما معنى ما وقع عليه اسم الفتح، فالأكثرون من العلماء والمفسرين على أنه صلح الحديبية، فإن قيل: كيف يكون الصلح فتحا؟ وإن كان فتحا للمسلمين فهو فتح للكفار أيضا؛ لأن الصلح يشتمل على الجانبين، والجواب عنه: أنه قد أشكل هذا على عمر، " فإنه لما أنزل الله تعالى هذه السورة، قال عمر: «يا رسول الله، أفتح هو؟ قال: نعم»، وقيل: إنه أعظم فتح كان في الإسلام؛ لأنه لما صالح مع المشركين ووداعهم فكان قد صالح على وضع الحرب عشر سنين، فاختلط المشركون مع المسلمين بعد ذلك، وسمعوا القرآن، ورأوا ما عليه رسول الله وأصحابه فرغبوا في الإسلام، وأسلم في مدة الصلح من المشركين أكثر مما كان أسلم في مدة الحرب، وكثر سواد الإسلام، وأسلم في هذه المدة: خالد بن الوليد، وعمرو بن العاص، وعثمان بن طلحة العبدري، وكثير من وجوه المشركين، وقد كان في غزوة الحديبية بيعة الرضوان، ووعد فتح خيبر وظهور الروم على الفرس، وكان ذلك من معجزات الرسول، وكان ذلك مما سر المسلمين وساء المشركين؛ لأن المسلمين كانوا يودون ظهور أهل الكتاب، والمشركون كانوا يودون ظهور الفرس والعجم فحقق الله ما يوده المسلمون وكان المشركون قالوا حين ظهرت الفرس على الروم كما ظهر الفرس

=

=

على الروم كذلك نحن نظهر عليكم، فحين أظهر الله الروم على الفرس كان ذلك علامة لظهور المسلمين على المشركين".

قال الزهري: "ما كان في الإسلام فتح أعظم من صلح الحديبية، وذلك أن المشركين اختلطوا بالمسلمين فسمعوا كلامهم فتمكن الإسلام في قلوبهم، وأسلم في ثلاث سنين خلق كثير وكثر بهم سواد الإسلام".

قال جابر:" ما كنا نعد الفتح إلا يوم الحديبية". وفي رواية:" ما كنا نعدّ فتح مكة إلا يوم الحديبية". قال ابن عاشور:" يريد: أنهم أيقنوا بوقوع فتح مكة بهذا الوعد".

قال البراء:" تعدّون أنتم الفتح فتح مكة، وقد كان فتح مكة فتحا، ونحن نعدّ الفتح بيعة الرضوان يوم الحديبية، كنا مع رسول الله ﷺ خمس عشرة مِئة".

عن مجاهد: " {إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا}، قال: نحرُه بالحديبية وحَلْقُه رأسه".

عن عامر: " {إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا}، قال: الحديبية".

قال عامر الشعبي:" نزلت: {إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا} بالحديبية، وأصاب في تلك الغزوة ما لم يصبه في غزوة، أصاب أن بُويع بيعة الرضوان، وغفر له ما تقدّم من ذنبه وما تأخر، وظهرت الروم على فارس، وبلغ الهَدْيُ مَحِله، وأطعموا نخل خبير، وفرح المؤمنون بتصديق النبيّ ﷺ، وبظهور الروم على فارس".

قال عبد الله بن مسعود: " لما أقبلنا من الحُديبية أعرسنا فنمنا، فلم نستيقظ إلا بالشمس قد طلعت، فاستيقظنا ورسول الله ﷺ نائم، قال: فقلنا أيقظوه، فاستيقظ رسول الله ﷺ فقال: افْعَلُوا كمَا كُنتُمْ تَفْعَلُونَ، فكذلك من نام أو نسي قال: وفقدنا ناقة رسول الله ﷺ، فوجدناها قد تعلّق خطامها بشجرة، فأتيته بها، فركب فبينا نحن نسير، إذ أتاه الوحي، قال: وكان إذا أتاه اشتدّ عليه؛ فلما سري عنه أخبرنا أنه أُنزل عليه: {إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا}".

قال أنس بن مالك، قال: "لما رجعنا من غزوة الحديبية، وقد حيل بيننا وبين

=

=

نسكنا، قال: فنحن بين الحزن والكآبة، قال: فأنزل الله ﷻ: {إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا لِيَغْفِرَ لَكَ اللهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا}، أو كما شاء الله، فقال نبيّ الله ﷺ: «لَقَدْ أُنزلَتْ عَليَّ آيَةٌ أَحَبُّ إلي مِنَ الدُّنْيَا جَمِيعا»".

و «الحديبية»: بالتخفيف والتشديد، قرية متوسطة ليست بالكبيرة، سميت ببئر هناك عند مسجد الشجرة التي بايع رسول الله ﷺ تحتها، وبين الحديبية ومكة مسافة (٢٥) كم تقريبًا، ويقع بعضها في الحل وبعضها في الحرم، وتعرف الآن باسم الشميسي، وتقع في طريق مكة جدة القديم، وصلح الحديبية كان في سنة لست من الهجرة حين منع المشركون رسول الله ﷺ ومعه أصحابه وكانوا ١٤٠٠ وقيل: ١٥٠٠، ثم تصالحوا الصلح المعروف، ولم يقع فيه قتال، وفيه أنزل الله: {إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا}.

قال الماوردي:" والحديبية:" بئر، وفيها تمضمض رسول الله -ﷺ-، وقد غارت فجاشت بالرواء".

قال النحاس:" الحديبية: بئر سمي المكان باسمها قال أبو جعفر ولا أعرف أحدا من أهل اللغة يشدد الياء منها وكان في فتحها أعظم الآيات لأن النبي ﷺ فيما روي ورد على هذه البئر وقد نزف ماؤها فتمضمض ﷺ وتفل فيها فأقبل الماء حتى شرب كل من كان معه ولم يكن بينهم إلا ترام حتى كان الفتح".

قال الزمخشري:" وكان في فتح الحديبية آية عظيمة. وذلك أنه نزح ماؤها حتى لم يبق فيها قطرة، فتمضمض رسول الله ﷺ ثم مجه فيها، فدرت بالماء حتى شرب جميع من كان معه، وقيل: فجاش الماء حتى امتلأت ولم ينفد ماؤها بعد".

(لِيَغْفِرَ لَكَ اللهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ) هذا من خصائصه ﷺ التي لا يشاركه فيها غيره، وهذا فيه تشريف عظيم لرسول الله ﷺ.

=

=

وقد جاء في الصحيحين عن المغيرة بن شعبة قال (كان النبي ﷺ يصلي حتى ترم قدماه، فقيل له: أليس قد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ فقال: أفلا أكون عبدًا شكورًا) متفق عليه.

(وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ) أي: ويكمّل نعمته عليك بإعزاز دينك، ونصرك على أعدائك، واتساع كلمتك.

(وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا) أي: يدلك ويوفقك إلى الطريق الموصل إلى جنات النعيم، التي فيها السعادة الأبدية.

(وَيَنْصُرَكَ اللهُ نَصْرًا عَزِيزًا) أي: قويًا غالبًا منيعًا لا يتبعه ذل.

قوله تعالى: {لِيَغْفِرَ لَكَ اللهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ} [الفتح: ٢]، أي:" فتحنا لك ذلك الفتح، ويسَّرناه لك؛ ليغفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؛ بسبب ما حصل من هذا الفتح من الطاعات الكثيرة وبما تحملته من المشقات".

عن قتادة، قال:" نزلت على النبي عليه السلام: {لِيَغْفِرَ لَكَ اللهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ} [الفتح: ٢] بين مكة والحديبية".

وفي نوع «اللام» في قوله تعالى: {لِيَغْفِرَ لَكَ اللهُ} [الفتح: ٢]، قولان:

أحدهما: أنها لام القسم، المعنى: ليغفرن لك الله، فلما أسقط النون خفض اللام. وهذا قول أبي حاتم السجستاني.

الثاني: أنها لام «كي»، والمعنى: وقع الفتح لك يا محمد لتقع لك المغفرة. قاله ثعلب، وابن كيسان، والنحاس.

قال ثعلب معناه: "كي يغفر الله لك، فاللام بمعنى «كي»، قال: وحقيقة المعنى هو أنه يجمع لك المغفرة مع الفتح، فيتم عليك النعمة بها".

قال أبو الحسن بن كيسان:" لا يجوز أن تكون إلا «لام كي»، قال الله جل وعز: {إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللهِ وَالْفَتْحُ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللهِ أَفْوَاجًا فَسَبِّحْ بِحَمْدِ

=

=

رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا} [النصر: ١ - ٣]، فأمر الله أن يستغفره إذا كان الفتح ووعده بالمغفرة فكان قوله: {إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ} [الفتح: ١ - ٢] متعلقا بذاك".

قال ابن الجوزي:" المعنى: لكي يجتمع لك مع المغفرة تمام النِّعمة في الفتح، فلمّا انضمَّ إلى المغفرة شيءٌ حادِثٌ، حَسُنَ معنى «كي»".

قال ابن عاشور:" جعلت مغفرة الله للنبيء ﷺ علة للفتح لأنها من جملة ما أراد الله حصوله بسبب الفتح، وليست لام التعليل مقتضية حصر الغرض من الفعل المعلل في تلك العلة، فإن كثيرا من الأشياء تكون لها أسباب كثيرة فيذكر بعضها مما يقتضيه المقام وإذ قد كان الفتح لكرامة النبيء ﷺ على ربه تعالى كان من علته أن يغفر الله لنبيئه ﷺ مغفرة عامة إتماما للكرامة فهذه مغفرة خاصة بالنبيء ﷺ هي غير المغفرة الحاصلة للمجاهدين بسبب الجهاد والفتح. فالمعنى: أن الله جعل عند حصول هذا الفتح غفران جميع ما قد يؤاخذ الله على مثله رسله حتى لا يبقى لرسوله ﷺ ما يقصر به عن بلوغ نهاية الفضل بين المخلوقات. فجعل هذه المغفرة جزاء له على إتمام أعماله التي أرسل لأجلها من التبليغ والجهاد والنصب والرغبة إلى الله".

وفي قوله تعالى: {لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ} [الفتح: ٢]، خمسة أقوال:

أحدها: {مَا تَقَدَّمَ} قبل الفتح، {وَمَا تَأَخَّرَ} بعد الفتح. قاله الطبري.

الثاني: {ما تَقَدَّمَ} قبل نزول هذه الآية {وَمَا تَأَخَّرَ} بعدها. أفاده الماوردي.

الثالث: {ما تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ} قبل الرسالة، {وَما تَأَخَّرَ}: إلى وقت نزول هذه السورة. حكاه بعض المفسرين.

الرابع: {مَا تَقَدَّمَ} من ذنب أبيك آدم صلوات الله عليه وأنت في صلبه، {وَمَا

=

=
تَأَخَّرَ} من ذنوب أمتك، إذ كنت قائدهم ودليلهم. قاله سهل بن عبد الله. وروي عن عطاء نحوه.

قال عطاء بن أبي مسلم الخرساني: " {ما تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ}، يعني: ذنب أبويك آدم وحوّاء ببركتك، {وَما تَأَخَّرَ} ديوان أمّتك بدعوتك".

الخامس: {مَا تَقَدَّمَ} من ذنب أبيك إبراهيم، {وَمَا تَأَخَّرَ} من ذنوب النبيين. حكاه القرطبي.

السادس: {مَا تَقَدَّمَ} من حديث مارية، {وَمَا تَأَخَّرَ} من امرأة زيد. حكاه الزمخشري.

وقال الزمخشري:" يريد: جميع ما فرط منك".

السابع: معناه: ما وقع وما لم يقع، على طريق الوعد بأنه مغفور إذا كان. وهو معنى قول أبي علي الروذباري.

قال القاسم النصرآبادي: "سمعت أبا علي الروذباري بمصر يقول في قول الله تعالى: {لِيَغْفِرَ لَكَ اللهُ ما تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَما تَأَخَّرَ}، قال: لو كان لك ذنب قديم أو حديث لغفرناه".

الثامن: {ما تَقَدَّمَ} هو قوله يوم بدر: «اللهم إن تهلك هذه العصابة لن تعبد». {وَما تَأَخَّرَ} هو قول بعض الصحابة يوم حنين: «لن نغلب اليوم من قلة». حكاه بعض المفسرين.

التاسع: {مَا تَقَدَّمَ}، أي: ما كان في الجاهلية، {وَمَا تَأَخَّرَ}: ما كان في الإسلام مما لم تعمله بعد. قاله ابن عباس، وسفيان.

قال سفيان:" {ما تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ} ما عملت في الجاهلية، {وَما تَأَخَّرَ} كلّ شيء لم تعمله".

قال ابن الجوزي:" وهذا على سبيل التأكيد، كما تقول: فلان يَضْرِب من يلقاه
=

=

ومن لا يلقاه".

العاشر: {مَا تَقَدَّمَ} قبل النبوة، {وَمَا تَأَخَّرَ} بعد النبوة. قاله مجاهد، والشعبي، ومقاتل.

قال ابن عطية:" وهذا ضعيف، وإنما المعنى التشريف بهذا الحكم ولو لم تكن له ذنوب البتة، وأجمع العلماء على عصمة الأنبياء عليهم السلام من الكبائر ومن الصغائر التي هي رذائل، وجوز بعضهم الصغائر التي ليست برذائل، واختلفوا هل وقع ذلك من محمد عليه السلام أو لم يقع".

قال ابن كثير:" قوله: {لِيَغْفِرَ لَكَ اللهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ}: هذا من خصائصه - صلوات الله وسلامه عليه - التي لا يشاركه فيها غيره. وليس صحيح في ثواب الأعمال لغيره غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر. وهذا فيه تشريف عظيم لرسول الله ﷺ، وهو - صلوات الله وسلامه عليه - في جميع أموره على الطاعة والبر والاستقامة التي لم ينلها بشر سواه، لا من الأولين ولا من الآخرين، وهو أكمل البشر على الإطلاق، وسيدهم في الدنيا والآخرة. ولما كان أطوع خلق الله لله، وأكثرهم تعظيما لأوامره ونواهيه. قال حين بركت به الناقة: «حبسها حابس الفيل»، ثم قال: «والذي نفسي بيده، لا يسألوني اليوم شيئا يعظمون به حرمات الله إلا أجبتهم إليها»، فلما أطاع الله في ذلك وأجاب إلى الصلح، قال الله له: {إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا لِيَغْفِرَ لَكَ اللهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ}".

قال القرطبي:" واختلف العلماء في هذا الباب هل وقع من الأنبياء -صلوات الله عليهم أجمعين- صغائر من الذنوب يؤاخذون بها ويعاتبون عليها أم لا؟ بعد اتفاقهم على أنهم معصومون من الكبائر ومن كل رذيلة فيها شين ونقص إجماعا عند القاضي أبي بكر، وعند الأستاذ أبي إسحاق أن ذلك مقتضى دليل المعجزة،

=

=

وعند المعتزلة أن ذلك مقتضى دليل العقل على أصولهم، فقال الطبري وغيره من الفقهاء والمتكلمين والمحدثين: تقع الصغائر منهم. خلافا للرافضة حيث قالوا: إنهم معصومون من جميع ذلك، واحتجوا بما وقع من ذلك في التنزيل وثبت من تنصلهم من ذلك في الحديث، وهذا ظاهر لا خفاء فيه. وقال جمهور من الفقهاء من أصحاب مالك وأبي حنيفة والشافعي: إنهم معصومون من الصغائر كلها كعصمتهم من الكبائر أجمعها، لأنا أمرنا باتباعهم في أفعالهم وآثارهم وسيرهم أمرا مطلقا من غير التزام قرينة، فلو جوزنا عليهم الصغائر لم يمكن الاقتداء بهم، إذ ليس كل فعل من أفعالهم يتميز مقصده من القربة والإباحة أو الحظر أو المعصية، ولا يصح أن يؤمر المرء بامتثال أمر لعله معصية، لاسيما على من يرى تقديم الفعل على القول إذا تعارضا من الأصوليين. قال الأستاذ أبو إسحاق الإسفراييني: واختلفوا في الصغائر، والذي عليه الأكثر أن ذلك غير جائز عليهم، وصار بعضهم إلى تجويزها، ولا أصل لهذه المقالة. وقال بعض المتأخرين ممن ذهب إلى القول الأول: الذي ينبغي أن يقال: إن الله تعالى قد أخبر بوقوع ذنوب من بعضهم ونسبها إليهم وعاتبهم عليها، وأخبروا بها عن نفوسهم وتنصلوا منها وأشفقوا منها وتابوا، وكل ذلك ورد في مواضع كثيرة لا يقبل التأويل جملتها وإن قبل ذلك آحادها، وكل ذلك مما لا يزري بمناصبهم، وإنما تلك الأمور التي وقعت منهم على جهة الندور وعلى جهة الخطأ والنسيان، أو تأويل دعا إلى ذلك فهي بالنسبة إلى غيرهم حسنات وفي حقهم سيئات بالنسبة إلى مناصبهم وعلو أقدارهم إذ قد يؤاخذ الوزير بما يثاب عليه السائس، فأشفقوا من ذلك في موقف القيامة مع علمهم بالأمن والأمان والسلامة. قال: وهذا هو الحق. ولقد أحسن الجنيد حيث قال: حسنات الأبرار سيئات المقربين. منهم- صلوات الله وسلامه عليهم- وإن كان قد شهدت النصوص بوقوع ذنوب منهم فلم يخل ذلك

=

=

بمناصبهم ولا قدح في رتبهم، بل قد تلافاهم واجتباهم وهداهم ومدحهم وزكاهم واختارهم واصطفاهم، صلوات الله عليهم وسلامه".

قوله تعالى: {وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ} [الفتح: ٢]، أي:" ويتم نعمته عليك بإظهار دينك ونصرك على أعدائك".

قال الطبري: أي:" بإظهاره إياك على عدوّك، ورفعه ذكرك في الدنيا، وغفرانه ذنوبك في الآخرة".

قال ابن كثير:" أي: في الدنيا والآخرة".

قال النحاس:" يتم نعمته عليه في الدنيا بالنصر وفي الآخرة بالثواب".

قال ابن عطية:" إتمام النعمة عليه، هو إظهاره وتغلبه على عدوه والرضوان في الآخرة".

قال أبو معشر القرظي:"كنت إذا سمعت شيئا من أصحاب النبي ﷺ التمسته في القرآن فوجدته؛ قال الله لنبيه: {إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا لِيَغْفِرَ لَكَ اللهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ} [الفتح: ١ - ٢]، فعرفت أن الله لم يتم عليه النعمة حتى غفر له؛ قال: ثم قرأت الآية التي في سورة المائدة: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ} [المائدة: ٦]، حتى بلغ: {وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُم} [المائدة: ٦]، فعرفت أن الله لم يتم النعمة عليهم حتى غفر لهم".

قوله تعالى: {وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا} [الفتح: ٢]، أي:" ويرشدك طريقًا مستقيمًا من الدين لا عوج فيه".

قال مقاتل:" يعنى: دينا مستقيما".

قال الطبري: "يقول: ويرشدك طريقا من الدين لا اعوجاج فيه، يستقيم بك إلى رضا ربك".

قال ابن الجوزي:" أي: ويُثبِّتك عليه، وقيل: ويَهدي بك".

=

هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللهُ عَلِيمًا حَكِيمًا (٤).

{هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ} الطُّمَأْنِينَة {فِي قُلُوب الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانهمْ} بِشَرَائِع الدِّين كُلَّمَا نَزَلَ وَاحِدَة مِنْهَا آمَنُوا بِهَا وَمِنْهَا الْجِهَاد {وَلِلَّهِ جُنُود

=

قال ابن كثير:" أي: بما يشرعه لك من الشرع العظيم والدين القويم".

قال النحاس:" قيل: طريق الجنة".

قال محمد بن يزيد: "الصراط المنهاج الواضح".

قوله تعالى: {وَيَنْصُرَكَ اللهُ نَصْرًا عَزِيزًا} [الفتح: ٣]، أي:" وينصرك الله نصرًا قويًّا لا يَضْعُف فيه الإسلام".

قال ابن جريج:" يريد بذلك فتح مكة وخيبر والطائف".

قال الطبري:" يقول: وينصرك على سائر أعدائك، ومن ناوأك نصرا، لا يغلبه غالب، ولا يدفعه دافع، للبأس الذي يؤيدك الله به، وبالظفر الذي يمدّك به".

قال مقاتل:" يقول: ولكي ينصرك الله بالإسلام على عدوك {نَصْرًا عَزِيزًا}، يعني: منيعا فلا تذل".

قال الزجاج:" نَصْرًا ذا عِزٍّ لا يقع معه ذُل".

قال الزمخشري: أي:" فيه عز ومنعة- أو وصف بصفة المنصور إسنادا مجازيا أو عزيزا صاحبه".

قال ابن كثير:" أي: بسبب خضوعك لأمر الله يرفعك الله وينصرك على أعدائك، كما جاء في الحديث الصحيح: «وما زاد الله عبدا بعفو إلا عزا، وما تواضع أحد لله إلا رفعه الله». وعن عمر بن الخطاب -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- أنه قال: «ما عاقبت - أي: في الدنيا والآخرة - أحدا عصى الله تعالى فيك بمثل أن تطيع الله فيه»".

السَّمَاوَات وَالْأَرْض} فَلَوْ أَرَادَ نَصْر دِينه بِغَيْرِكُمْ لَفَعَلَ {وَكَانَ الله عَلِيمًا} بِخَلْقِهِ {حَكِيمًا} فِي صُنْعه أَيْ لَمْ يَزَلْ متصفا بذلك.

لِيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَكَانَ ذَلِكَ عِنْدَ اللهِ فَوْزًا عَظِيمًا (٥).

{ليدخل} متعلق بمحذوف أي أمر بالجهاد {الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَات جَنَّات تَجْرِي مِنْ تَحْتهَا الْأَنْهَار خَالِدِينَ فِيهَا ويكفر عنهم سيئاتهم وكان ذلك عند الله فوزا عظيما}

وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّانِّينَ بِاللهِ ظَنَّ السَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَغَضِبَ اللهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا (٦).

{وَيُعَذِّب الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَات وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَات الظَّانِّينَ بِاَللهِ ظَنّ السَّوْء} بِفَتْحِ السِّين وَضَمّهَا فِي الْمَوَاضِع الثَّلَاثَة ظَنُّوا أَنَّهُ لَا يَنْصُر مُحَمَّدًا ﷺ وَالْمُؤْمِنِينَ {عَلَيْهِمْ دَائِرَة السَّوْء} بِالذُّلِّ وَالْعَذَاب {وَغَضِبَ الله عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ} أَبْعَدَهُمْ {وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّم وَسَاءَتْ مَصِيرًا} مَرْجِعًا.

وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللهُ عَزِيزًا حَكِيمًا (٧).

{وَلِلَّهِ جُنُود السَّمَاوَات وَالْأَرْض وَكَانَ الله عَزِيزًا} فِي مُلْكه {حَكِيمًا} فِي صُنْعه أَيْ لَمْ يَزَلْ مُتَّصِفًا بِذَلِكَ[1].

---

(١) قوله تعالى: (هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ) يخبر تعالى عن منته على المؤمنين بإنزال السكينة في قلوبهم، وهي السكون والطمأنينة، والثبات عند نزول المحن المقلقة، والأمور الصعبة، التي تشوش القلوب، وتزعج الألباب، =

=

وتضعف النفوس، فالصحابة لما جرى ما جرى بين رسول الله ﷺ والمشركين من تلك الشروط التي ظاهرها أنها غضاضة عليهم، وحط من أقدارهم، وتلك لا تكاد تصبر عليها النفوس، فلما ثبتهم الله، وأنزل السكينة ووطنوا أنفسهم لها، وانقادوا لحكم الله ورسوله.

(لِيَزْدَادُوا) بهذه السكينة.

(إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ) كان ذلك سببًا في زيادة إيمانهم وثباتهم ويقينهم.

وهذه الآية من الأدلة على أن الإيمان يزيد وينقص كما هو معتقد أهل السنة والجماعة.

(وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ) أي: ولله - جلت عظمته - كل جنود السماوات والأرض من الملائكة والجن والحيوانات والصواعق المدمرة والزلازل والخسف والغرق، جنود لا تحصى ولا تُغلب.

(وَكَانَ اللهُ عَلِيمًا) فيه إثبات اسم من أسماء الله وهو العليم، ومعناه: العليم بكل شيء، الذي لا تخفي عليه خافية.

(حَكِيمًا) فيه إثبات اسم من أسماء الله وهو: الحكيم، وهو متضمن لصفة الحكمة.

قال ابن جرير: هو الذي لا يدخل تدبيره خلل ولا زلل، وقال ابن كثير: الحكيم في أفعاله وأقواله فيضع الأشياء في محالها بحكمته وعدله.

قوله تعالى: {هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ} [الفتح: ٤]، أي:" هو الله الذي أنزل الطمأنينة في قلوب المؤمنين بالله ورسوله يوم «الحديبية» فسكنت، ورسخ اليقين فيها".

وفي معنى «السكينة»، أقوال:

أحدها: أنها الرحمة، قاله ابن عباس، والربيع ابن أنس، وعلي بن عيسى.

=

=

الثاني: أنها الوقار، قاله قتادة، والحسن.

قال الزجاج:" أي: أسْكَنَ قُلوبَهم التعظيم للهِ ولرسوله، والوقار".

الثالث: أنها شيء يسكن الله به قلوبهم، قاله الحسن، وعطاء.

الرابع: أنها الطمأنينة. قاله الضحاك، وهو مروي عن ابن عباس أيضا، وبه قال مقاتل، وابن قتيبة، والطبري، و النحاس.

قال ابن عبّاس: "كلّ سكينة في القرآن فهي الطمأنينة إلّا التي في البقرة".

قال الطبري: يقول:" الله أنزل السكون والطمأنينة في قلوب المؤمنين بالله ورسوله إلى الإيمان".

قال الواحدي: أي:" الطمأنينة والوقار، لئلا تنزعج نفوسهم بما يرد عليهم، وذلك لأنهم يجدون برد اليقين في قلوبهم".

قال ابن جزى:" يعني: سكونهم في صلح الحديبية وتسليمهم بفعل رسول الله ﷺ".

قال سهل بن عبد الله:" يعني الطمأنينة. فأول ما كاشف الله به عباده المعارف، ثم الوسائل، ثم السكينة، ثم البصائر. فمن كاشفه الحق بالبصائر عرف الأشياء بما فيها من الجواهر، كأبي بكر الصديق رضي الله عنه ما أخطأ في نطق".

قال الجصاص: المعنى: "سكون النفس إلى الإيمان بالبصائر التي بها قاتلوا عن دين الله حتى فتحوا مكة".

والراجح-والله أعلم- أن «السكينة»، هي: السكون والطمأنينة.

قوله تعالى: {لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ} [الفتح: ٤]، أي:" ليزدادوا تصديقًا لله واتباعًا لرسوله مع تصديقهم واتباعهم".

قال الثعلبي:" أي: تصديقا بشرائع الإيمان مع تصديقهم بالإيمان".

قال الضحاك: "يقينا مع يقينهم".

=

=

قال الواحدي: " وهو أنهم كلما أمروا بشيء من الشرائع والفرائض، كالصلاة، والصيام، والصدقة صدقوا به، فازدادوا تصديقا، وذلك السكينة التي أنزلها الله في قلوبهم".

قال ابن عباس:" إن الله جلّ ثناؤه بعث نبيه محمدا ﷺ بشهادة أن لا إله إلا الله، فلما صدّقوا بها زادهم الصلاة، فلما صدّقوا بها زادهم الصيام، فلما صدّقوا به زادهم الزكاة، فلما صدّقوا بها زادهم الحجّ، ثم أكمل لهم دينهم، فقال: {الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي}، قال ابن عباس: فأوثق إيمان أهل الأرض وأهل السموات وأصدقه وأكمله شهادة أن لا إله إلا الله".

قال الطبري:" يقول: ليزدادوا بتصديقهم بما جدّد الله من الفرائض التي ألزمهموها، التي لم تكن لهم لازمة {إيمانا مع إيمانهم}، يقول: ليزدادوا إلى إيمانهم بالفرائض التي كانت لهم لازمة قبل ذلك".

وقال الكلبي: "هذا في أمر الحديبية حين صَدَقَ اللهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيا بِالْحَقّ".

قوله تعالى: {وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ} [الفتح: ٤]، أي:" ولله سبحانه وتعالى جنود السموات والأرض ينصر بهم عباده المؤمنين".

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره: ولله جنود السموات والأرض أنصار ينتقم بهم ممن يشاء من أعدائه".

قال الزجاج:" تأويله – والله أعلم – أن جميع ما خلق الله في السَّمَاوَات والأرض جنود له، لأن ذلك كله يدل على أنه واحد وأنه لا يَقْدِرُ أحدٌ أنْ يأتِيَ بمثل شيء واحد مما خلق الله في السَّمَاوَاتِ والْأَرْضِ. ومن الدليل أيضًا على أن معنى قوله: {إِنَّا فتحنا لك}، أي: إنَّا أرشدناك إلى الإسلام وفتحنا لك أمر الدينِ".

قال النحاس:" أي: كل ما فيها يدل على أن له خالقا وأنه واحد".

قال ابن الجوزي:" يريد أن جميع أهل السموات والأرض مُلْكٌ له، لو أراد نُصرة

=

نبيِّه بغيركم لَفَعَل، ولكنه اختاركم لذلك، فاشكُروه".
قوله تعالى: {وَكَانَ اللهُ عَلِيمًا حَكِيمًا} [الفتح: ٤]، أي:" وكان الله عليمًا بمصالح خلقه، حكيمًا في تدبيره وصنعه".
قال الطبري:" يقول تعالى ذكره: ولم يزل الله ذا علم بما هو كائن قبل كونه، وما خلقه عاملوه، حكيما في تدبيره".
عن محمد بن إسحاق، قوله: " {عليم}، أي: عليم بما تخفون"، "قوله: {حكيم}، في عذره وحجته إلى عباده".
عن أبي العالية في قوله: " {حكيم}، قال: حكيم في أمره".
قوله تعالى: (لِيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ) أصح الأقوال: أن (اللام) في قوله
(ليدخل) متعلقة بقوله (هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ) وإيضاح المعنى (هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ) أي: السكون والطمأنينة إلى الحق (فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا) بذلك (إيمانًا) لأجل أن يدخلهم بالطمأنينة إلى الحق وازدياد الإيمان (جنات تجري من تحتها الأنهار).
- قوله تعالى (جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ) جنات جمع: جنة، والجنة في لغة العرب: البستان، لأن أشجاره الملتفة تجن الداخل فيه، وجاء إطلاق الجنة على البستان في القرآن في قوله (إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ) أي البستان، وفي قوله (وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ). وأما في الاصطلاح: فهي الدار التي أعدها الله لأوليائه، فيها مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر.
- قوله تعالى (تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ) أي من تحت أشجارها، قال ابن القيم: وهذا يدل على أمور:
أحدها: وجود الأنهار فيها. الثاني: أنها جارية لا واقفة. الثالثة: أنها تحت غرفهم =

=

وقصورهم وبساتينهم كما هو المعهود في أنهار الدنيا.

قوله تعالى (خَالِدِينَ فِيهَا) أي: مقيمين فيها إقامة أبدية لا تحول ولا تزول، فلا يموتون ولا يفنون ولا يخرجون منها.

وذكر من نعيم الجنة الخلود، لأنه أعظم النعيم، لأن أكبر ما ينكد اللذائذ، وينغص اللذات، أن يعلم صاحبها أنه زائل عنها، وأنها زائلة عنه، فكل نعيم بعده موت فليس بنعيم، والنعيم إذا تيقن صاحبه الانتقال عنه صار غمًا.

فالفكرة بالزوال تكدر اللذات الحاضرة، ولذا كان النبي ﷺ يأمرهم أن يكثروا من ذكر الموت، ويقال للموت: هاذم اللذات، لأن من تذكره ضاعت عليه لذته التي هو فيها، لأنه يقطعها، ولهذا قال (خالدين فيها) لا يزول عنهم ذلك النعيم فتتكدر غبطتهم.

(وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ) أي: ونستر عنهم سيئاتهم وذنوبهم ونمحوها ونتجاوز عنها.

- قوله تعالى (يكفر) يستر، مأخوذة من (الكَفْر) بفتح الكاف وسكون الفاء، وهو الستر، ومنه سميت الكفارة، لأنها تستر الذنب، وسمي الزارع كافرًا لأنه يستر الحب في الأرض، وسمي الليل كافرًا لأنه يستر الكون بظلامه، وسمي الشخص الكافر لأنه ستر نعمة الله عليه.

قوله تعالى (سَيِّئَاتِهِمْ) جمع سيئة، سميت بذلك لأنها سيئة بنفسها وقبيحة.

ولأنها أيضًا تسوء مرتكبها حالًا ومآلًا، وربما تسوء غيره بأن يتعدى ضررها إلى الغير مباشرة، أو بأن يكون لها أثرها السيء على البلاد والعباد عامة بمحق البركات وقلة الخيرات.

(وَكَانَ ذَلِكَ عِنْدَ اللهِ فَوْزًا عَظِيمًا) أي: وكان ذلك الإدخال في الجنات، والتكفير عن السيئات، فوزًا كبيرًا عظيمًا، كما قال تعالى (فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ

=

=

الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ).

والفوز معناه: السلامة من المرهوب، والحصول على المطلوب، والنجاة من النار، ودخول الجنة.

قوله تعالى: {لِيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ} [الفتح: ٥]، أي:" ليدخل الله المؤمنين والمؤمنات جنات تجري مِن تحت أشجارها وقصورها الأنهار".

قال الطبري: يقول: "إنا فتحنا لك فتحا مبينا، لتشكر ربك، وتحمده على ذلك، فيغفر لك ما تقدّم من ذنبك وما تأخر، وليحمد ربهم المؤمنون بالله، ويشكروه على إنعامه عليهم بما أنعم به عليهم من الفتح الذي فتحه، وقضاه بينهم وبين أعدائهم من المشركين، بإظهاره إياهم عليهم، فيدخلهم بذلك جنات تجري من تحتها الأنهار".

قال مقاتل:" لكي يدخل المؤمنين والمؤمنات بالإسلام {جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ}، من تحت البساتين".

عن السدي:" {جنات}، قال: البساتين".

قال مجاهد:" الجنات: حوائط".

عن أبي مالك قوله: " {تجري من تحتهم الأنهار}، يعني: تحت منازلهم وأرضهم".

قال مسروق: "أنهار الجنة تجري في غير أخدود، ثمرها كالقلال، كلما نزعت ثمرة عادت مثلها أخرى، والعنقود اثنا عشر ذراعا".

قوله تعالى: {خَالِدِينَ فِيهَا} [الفتح: ٥]، أي:" ماكثين فيها أبدًا".

قال الطبري: يقول: "ماكثين فيها إلى غير نهاية".

قال مقاتل:" لا يموتون".

=

=

عن سعيد بن جبير: " {خَالِدِينَ فِيهَا}، يعني: لا يموتون".

قوله تعالى: {وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ} [الفتح: ٥]، أي:" ويمحو عنهم سيِّئ ما عملوا، فلا يعاقبهم عليه".

قال الطبري: يقول: " وليكفر عنهم سيئ أعمالهم بالحسنات التي يعملونها شكرا منهم لربهم على ما قضى لهم، وأنعم عليهم به".

قال مقاتل:" يعني: يمحو عنهم ذنوبهم".

قوله تعالى: {وَكَانَ ذَلِكَ عِنْدَ اللهِ فَوْزًا عَظِيمًا} [الفتح: ٥]، أي:" وكان ذلك الجزاء عند الله نجاة من كل غم، وظَفَرًا بكل مطلوب".

قال الطبري: يقول: "وكان ما وعدهم الله به من هذه العدة، وذلك إدخالهم جنات تجري من تحتها الأنهار، وتكفيره سيئاتهم بحسنات أعمالهم التي يعملونها عند الله لهم، ظفرا منهم بما كانوا تأمَّلوه ويسعون له، ونجاة مما كانوا يحذرونه من عذاب الله عظيما".

قال سعيد بن جبير: " يعني: ذلك الثواب الفوز العظيم".

قوله تعالى: (وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ) وهم الذين يظهرون الإيمان ويبطنون الكفر.

(وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ) وهم الذين أشركوا مع الله غيره في العبادة، أو عبدوا غير الله.

(الظَّانِّينَ بِاللهِ ظَنَّ السَّوْءِ) أي: يتهمون الله في حكمه، ويظنون بالرسول وأصحابه أن يقتلوا ويذهبوا بالكلية.

قال القرطبي: ظنوا أن النبي ﷺ لا يرجع إلى المدينة ولا أحد من أصحابه حين خرج إلى الحديبية، وما ظنوه حكاه الله عنهم بقوله (بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَى أَهْلِيهِمْ أَبَدًا).

=

=

- قال ابن القيم: فمن ظن بالله بأنه لا ينصر رسوله، ولا يتم أمره، ولا يؤيده، ويؤيد حزبه ويعليهم، ويُظفرهم بأعدائه، ويظهرهم عليه، وأنه لا ينصر دينه وكتابه، وأنه يُديل الشرك على التوحيد، والباطل على الحق إدالة مستقرة يضمحل معها التوحيد والحق اضمحلالًا لا يقوم بعده أبدًا، فقد ظن بالله ظن السوْء، ونسبه إلى خلاف ما يليق بكماله وجلاله، وصفاته ونعوته.

ومن ظنّ به أن يترك خلقه سدى، معطلين عن الأمر والنهي، ولا يُرسل إليهم رسله، ولا ينزّل عليهم كتبه، بل يتركهم هملًا كالأنعام، فقد ظنّ به ظنّ السوء.

ومن ظنّ أنه لن يجمع عبيده بعد موتهم للثواب والعقاب في دار يجازي المحسن فيها بإحسانه، والمسئ بإساءته، فقد ظنّ به ظن السوء.

ومن ظن أنه له ولدًا، أو شريكًا، أو أحدًا يشفع عنده بدون إذنه، فقد ظنّ به أقبح الظن وأسوأه.

ومن ظن به أنه إذا تركَ لأجله شيئًا لم يعوضه خيرًا منه، أو من فعل لأجله شيئًا لم يعطه أفضل منه، فقد ظنّ به ظن السوء.

(عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ) أي: عليهم ما يظنونه ويتربصونه بالمؤمنين من الهلاك والدمار.

(وَغَضِبَ اللهُ عَلَيْهِمْ) فيه إثبات الغضب لله، وهو غضب يليق بجلاله سبحانه، قال الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ: والغضب أبلغ من العقوبة، لأن الله إذا غضب لا يكلم من غضبه عليه، ولا يرحمه كما يرحم غيره، وينتقم منه بما يقتضيه ذنبه، كما قال تعالى (فَلَمَّا آسَفُونَا انْتَقَمْنَا مِنْهُمْ) أي: لما أغضبونا انتقمنا منهم.

(وَلَعَنَهُمْ) أي: وأبعدهم من رحمته.

(وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ) أي: وهيأ لهم جهنم، وهي النار التي أعدها الله للكافرين.

- وجهنم سميت بذلك لجهمتها وظلمتها وبعد قعرها.

=

=

(وَسَاءَتْ مَصِيرًا) أي: وساءت النار مرجعًا ومردًا لأهل الكفر والنفاق.

قوله تعالى: {وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ} [الفتح: ٦]، أي:" ويعذب الله المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات".

قال الطبري: " يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: إنا فتحنا لك فتحا مبينا ليغفر لك الله، وليدخل المؤمنين والمؤمنات جنات تجري من تحتها الأنهار، وليعذّب المنافقين والمنافقات، بفتح الله لك يا محمد، ما فتح لك من نصرك على مشركي قريش، فيكبتوا لذلك ويحزنوا، ويخيب رجاؤهم الذي كانوا يرجون من رؤيتهم في أهل الإيمان بك من الضعف والوهن والتولي عنك في عاجل الدنيا، وصلي النار والخلود فيها في آجل الآخرة، وليعذب كذلك أيضا المشركين والمشركات".

قال الزجاج:" كانوا يظنون أن لن يَعودَ الرسول والمؤمِنونَ إلى أهْليهم أبدًا وَزينَ ذلك

في قلوبِهِمْ، فجعل الله دائرة السَّوْءِ عَلَيْهم".

قوله تعالى: {الظَّانِّينَ بِاللهِ ظَنَّ السَّوْءِ} [الفتح: ٦]، أي:" الذين يظنون ظنًا سيئًا بالله أنه لن ينصر نبيه والمؤمنين معه على أعدائهم، ولن يُظهر دينه".

قال الطبري: أي: " {الظَّانِّينَ بِاللهِ} أنه لن ينصرك، وأهل الإيمان بك على أعدائك، ولن يظهر كلمته فيجعلها العليا على كلمة الكافرين به، وذلك كان السوء من ظنونهم التي ذكرها الله في هذا الموضع".

وفي قوله تعالى: {الظَّانِّينَ بِاللهِ ظَنَّ السَّوْءِ} [الفتح: ٦]، وجوه:

أحدها: هو ظنهم أن لله شريكًا.

الثاني: أن الله لا ينصُر محمدًا وأصحابه.

الثالث: ظنُّوا أن الله لا يبعث الموتى.

=

=

الرابع: أنهم ظنُّوا أنهم ورسول الله ﷺ بمنزلة واحدة عند الله. وهذا قول مقاتل.
قال مقاتل:" وكان ظنهم حين قالوا: واللات والعزى ما نحن وهو عند الله إلا بمنزلة واحدة، وأن محمد ألا ينصر. فبئس حين ما ظنوا".
الخامس: أنهم ظنُّوا به حين خرج إلى الحديبية أنه سيُقْتَل أو يهزم ولا يعود ظافرا.
وحكي الزجاج عن الخليل وسيبويه، معناه: "الظانين باللهِ ظَنَّ الفَسَادِ، وهو ما ظَنُّوا أن الرسول عليه السلام ومن معه لا يَرْجِعونَ".
قال الضحاك: ظنت أسد وغطفان في رسول الله -ﷺ- حين خرج إلى الحديبية أنه سيقتل أو ينهزم ولا يعود إلى المدينة سالمًا، فعاد ظافرًا.
قال السمعاني:" معنى ظن السوء هاهنا: هو أنهم كانوا قد ظنوا على أن أمر محمد لا يتم، ويضمحل عن قريب. ويقال: إن الرسول لما توجه إلى مكة عام الحديبية مع أصحابه معتمرين، ولم يحمل معه من السلاح إلا السيوف في القراب، قال المنافقون وسائر الكفار: إن محمدا لا يرجع عن وجهه هذا أبدا وأنه يهلك هو وأصحابه، فهو معنى: ظن السوء".
قوله تعالى: {عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ} [الفتح: ٦]، أي:" فعلى هؤلاء تدور دائرة العذاب وكل ما يسوءهم".
قال الطبري: يقول:" على المنافقين والمنافقات، والمشركين والمشركات الذين ظنوا هذا الظن دائرة السوء، يعني دائرة العذاب تدور عليهم به".
قال السمعاني:" أي: عليهم عاقبة الهلاك وقيل معناه: لهم سوء العاقبة لا للرسول".
قال الزجاج:" أي: الفساد والهلاك يقع بهم".
قال السجستاني:" أي: عليهم يدور من الدهر ما يسوءهم".
قال أبو عبيدة:" تدور عليهم قال حميد:

=

=

وَدَائِرَاتِ الدَّهْرِ أَنْ تَدُورَا".

وقرئ: «دائِرَةُ السُّوء»، بضم السين.

قوله تعالى: {وَغَضِبَ اللهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ} [الفتح: ٦]، أي:" وغضب الله عليهم، وطردهم من رحمته".

قال الطبري:" يقول: ونالهم الله بغضب منه، وأبعدهم فأقصاهم من رحمته".

قال القشيري:" أبعدهم عن فضله، وحقت فيهم كلمته، وما سبقت لهم- من الله سبحانه- قسمته".

قال الماتريدي:" أخبر ﷻ أنهم استوجبوا غضب الله ولعنه بالذي كان منهم من سوء ظنهم بالله ورسوله".

قوله تعالى: {وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا} [الفتح: ٦]، أي:" وأعدَّ لهم نار جهنم، وساءت منزلا يصيرون إليه".

قال الطبري:" يقول: وأعدّ لهم جهنم يصلونها يوم القيامة، وساءت جهنم منزلا يصير إليه هؤلاء المنافقون والمنافقات، والمشركون والمشركات".

قال الماتريدي: " وأعد لهم جهنم بذلك، وساءت مصيرًا لهم".

قال مقاتل:" {وَأَعَدَّ لَهُمْ} في الآخرة {جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا}، يعني: وبئس المصير".

قال السمعاني:" أي: بئس المنقلب".

(وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ) من الملائكة والإنس والجن وغيرهم، وكرر هذه الآية لقصد التأكيد.

(وَكَانَ اللهُ عَزِيزًا حَكِيمًا)) فيه اسم من أسماء الله وهو: العزيز، وهو متضمن لصفة العزة الكاملة لله، وهي ثلاثة أنواع: عزة القدْر: بمعنى أن الله ذو قدْر شريف عظيم، كما قال النبي ﷺ (السيد الله).

=

=

وعزة القهر: بمعنى أن الله القاهر لكل شيء، لا يُغلب، كما قال تعالى (وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ).

وعزة الامتناع: بمعنى أنه يمتنع أن يناله أحد بسوء أو نقص.

قوله تعالى: {وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ} [الفتح: ٧]، أي:" ولله سبحانه وتعالى جنود السموات والأرض يؤيد بهم عباده المؤمنين".

قال الطبري:" يقول جلّ ثناؤه: ولله جنود السماوات والأرض أنصارا على أعدائه، إن أمرهم بإهلاكهم أهلكوهم، وسارعوا إلى ذلك بالطاعة منهم له".

قال السمعاني:" معناه: أن الظفر من قبلي، والجنود كلها لي، فمن شئت أن أنصره لم يعسر ذلك علي، قل أعداؤه أو كثر".

قوله تعالى: {وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا} [الفتح: ٧]، أي:" وكان الله عزيزًا على خلقه، حكيمًا في تدبير أمورهم".

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره: ولم يزل الله ذا عزّة، لا يغلبه غالب، ولا يمتنع عليه مما أراده به ممتنع، لعظم سلطانه وقدرته، حكيم في تدبيره خلقه".

قال الزجاج:" عَالِيًا حَكيمًا فِيما دَبَّرَه".

قال محمد بن إسحاق: " العزيز: في نصرته ممن كفر به إذا شاء"، الحكيم: في عذره وحجته إلى عباده".

قال أبو العالية:" {عزيز} في نقمته إذا انتقم". وروي عن قتادة والربيع بن أنس نحو ذلك.

عن أبي العالية:" {حكيم}، قال: حكيم في أمره".

قال محمد بن جعفر بن الزبير" الحكيم في عذره، وحجته إلى عباده".

قال الماتريدي: " ذكر على إثر ما ذكر {عَزِيزًا حَكِيمًا}؛ ليعلم أن عزه ليس بما ذكر من الجنود الذين له في السماوات والأرض، ولكنه عزيز بذاته، له العز الذاتي

=

إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا (٨).

{إِنَّـا أَرْسَـلْنَاك شَـاهِدًا} عَلَـى أُمَّتـك فِـي الْقِيَامَـة {وَمُبَـشِّرًا} لَهُـمْ فِـي الـدُّنْيَا {وَنَذِيرًا} مُنْذِرًا مُخَوِّفًا فِيهَا مَنْ عَمِلَ سُوءًا بِالنَّارِ.

لِتُؤْمِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا (٩).

{لِيُؤْمِنُوا بِاَللهِ وَرَسُوله} بِالْيَاءِ وَالتَّاء فِيهِ وَفِي الثَّلَاثَة بَعْده {وَيُعَزِّرُوهُ} يَنْصُرُوهُ وَقُـرِئَ بِـزَايَيْنِ مَـعَ الفوقانيـة {ويـوقروه} يعظمـوا وضـميرها لله أو لرسـوله {ويسبحوه} أي لله {بُكْرَة وَأَصِيلًا} بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيّ.

إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللهَ يَدُ اللهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا (١٠).

{إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَك} بَيْعَة الرِّضْـوَان بِالْحُدَيْبِيَـةِ {إِنَّمَـا يُبَـايِعُونَ الله} هُـوَ نَحْـو {مَنْ يُطِعِ الرَّسُول فَقَدْ أَطَاعَ الله} {يَد الله فَوْق أَيْدِيهمْ} الَّتِي بَـايَعُوا بِهَـا النَّبِيّ أَيْ هُوَ تَعَالَى مُطَّلِع عَلَى مُبَايَعَتهمْ فَيُجَازِيهِمْ عَلَيْهَا {فَمَنْ نَكَثَ} نَقَضَ الْبَيْعَة {فَإِنَّمَـا يَنْكُث} يَرْجِع وَبَال نَقْضه {عَلَى نَفْسه وَمَـنْ أَوْفَـى بِمَـا عَاهَـدَ عَلَيْـهِ الله فسيؤتيه} بالياء والنون {أجرا عظيما}[1].

=

الأزلي".

(١) قوله تعالى: (إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا) يقول تعالى لنبيه ﷺ (إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا) على الخلق يوم القيامة، وكذلك هو شاهد على من سبقه من الأمم في تبليغ رسالات الرسل، وفي تكذيب قومهم لهم، كما قال الله تعالى (وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا).

فهو ﷺ شاهد على من أُرسِل إليهم، وشاهد على من سبقه من الأمم.

=

=

(وَمُبَشِّرًا) أي: وأرسلناك مبشرًا للمؤمنين بالجنة، والتبشير: هو الإخبار بما يسر.

- فهناك: مبشر: وهو الرسول ﷺ، والمبشَّر: هم المؤمنون العاملون الصالحات الذين اتبعوا الرسول وآمنوا به، والمبشَّر به: وهي الجنة، والعمل الموصل لذلك: وهو الإيمان والعمل الصالح.

كما قال تعالى (وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ).

وقال تعالى (وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُمْ مِنَ اللهِ فَضْلًا كَبِيرًا).

(وَنَذِيرًا) للكافرين بالنار، ونقول فيها كما قلنا في التبشير، لابد فيها من: منذِر، ومنذَر، ومنذَر به، وأسباب توصل إلى ذلك.

قال ابن كثير:" يقول تعالى لنبيه محمد - صلوات الله وسلامه عليه: {إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا}، أي: على الخلق، {وَمُبَشِّرًا}، أي: للمؤمنين، {وَنَذِيرًا}، أي: للكافرين".

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ {إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ} يا محمد {شَاهِدًا} على أمتك بما أجابوك فيما دعوتهم إليه، مما أرسلتك به إليهم من الرسالة، ومبشرا لهم بالجنة إن أجابوك إلى ما دعوتهم إليه من الدين القيم، ونذيرا لهم عذاب الله إن هم تولَّوْا عما جئتهم به من عند ربك".

قال قتادة:" يقول: شاهدا على أمته على أنه قد بلغهم ومبشرا بالجنة لمن أطاع الله، ونذيرا من النار".

قال سهل بن عبد الله:" شاهدًا عليهم بالتوحيد، ومبشرًا لهم بالمعونة والتأييد، ومحذرًا عن البدع والضلالات".

(لِتُؤْمِنُوا بِاللهِ) الإيمان بالله يتضمن الإيمان بوجوده والإيمان بربوبيته والإيمان بألوهيته والإيمان بالأسماء والصفات.

=

=

(وَرَسُولِهِ) وذلك بتصديقه ومتابعته.

(وَتُعَزِّرُوهُ) أي: تعظموه وتفخموه، والتعزير: التعظيم والتوقير، والضمير عائد للنبي ﷺ على أحد الأقوال.

ذهب أبو عبيد القاسم بن سلام إلى أن المراد بالتعزير: التعظيم والتبجيل.

وهذا القول مروي عن ابن عباس - رضي الله عنهما - والضحاك، وبه قال: أبو عبيدة معمر بن المثنى، والسمعاني، والقرطبي.

وروي عن عبدالرحمن بن زيد بن أسلم أن المعنى: تطيعوه.

وروي عن قتادة، وعكرمة أن المعنى: تنصروه. وبه قال: السمرقندي، والثعلبي، والبغوي.

قال الطبري: (وهذه الأقوال متقاربات المعاني، وإن اختلفت ألفاظ أهلها بها، ومعنى التعزير في هذا الموضع التقوية بالنصرة والمعونة، ولا يكون ذلك إلا بالطاعة والتعظيم والإجلال).

(وَتُوَقِّرُوهُ) من التوقير وهو الاحترام والإجلال والإعظام، والضمير عائد للنبي ﷺ، وقيل الضمير عائد إلى الله ويكون معنى (تعزروه وتوقروه) تثبتون له التوحيد وتنفون عنه الشركاء.

(وَتُسَبِّحُوهُ) التسبيح: تنزيه الله عن كل عيب ونقص، والمراد تسبيح الله تعالى.

(بُكْرَةً وَأَصِيلًا) أي: أول النهار وآخره.

- قال السعدي: ذكر تعالى في هذه الآية الحق المشترك بين الله ورسوله، وهو الإيمان بهما، والمختص بالرسول: وهو التعزير والتوقير، والمختص بالله: وهو التسبيح.

- قد وقع خلاف في مرجع الضمير في قوله (وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ) على قولين:

فذهب بعض العلماء إلى أن مرجع الضمير إلى الرسول كما سبق في الشرح قبل

=

=

قليل، وقيل: الضمير في قوله (وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ) عائد إلى الله تعالى ورجحه بعض العلماء.

وقد استشكل بعض الناس مرجع الضمائر الثلاثة في الأفعال (وتعزروه وتوقروه وتسبحوه) هل هي عائدة إلى الله، أم إلى الرسول، أم ماذا؟

ووجه الإشكال في الآية كما يتوهمه البعض، أن الضمائر إذا عادت إلى الرسول ﷺ فإن ذلك يؤدي إلى اضطراب في معنى الآية، ولا يكون المعنى مستقيمًا ولا سليمًا؛ لأن معنى الآية على هذا: أمر المسلمين بالتسبيح للرسول ﷺ !!

أما إذا عادت الضمائر الثلاثة إلى الله تعالى، فإن المعنى أيضًا يكون مضطربًا؛ لأن الله ليس بحاجة إلى من يعزره ويقويه وينصره، ولأنه هو القوي العزيز.

وكلام المفسرين حول هذه الآية الكريمة، يكشف لنا أن الآية مستقيمة في تركيبها، وصحيحة في معناها؛ وذلك أن الضمائر في قوله تعالى (وتعزروه وتوقروه) تعود إلى الرسول ﷺ؛ فيكون معنى قوله سبحانه

(وتعزروه) أي: تعظموه وتكبروه، كما قال ابن عباس رضي الله عنهما؛ وقال قتادة معناه: تنصروه بالجهاد معه، والدعوة إلى شريعته؛ ويكون معنى (وتوقروه) من التوقير: وهو الاحترام والإجلال والإعظام. والآية على هذا تأمر المسلمين باحترام الرسول وتعظيمه باتباع ما أمر به، والنهي عما نهى عنه.

أما الضمير في قوله تعالى (وتسبحوه) فيعود إلى الله تعالى، أي: تسبحون الله بكرة وأصيلًا، يعني: أول النهار وآخره.

ومن الجائز في لغة القرآن أن يكون بعض الكلام راجعًا إلى الله تعالى، وبعضه راجعًا إلى رسوله ﷺ، ولهذا أمثلة، قال تعالى (ومن يطع الله ورسوله ويخش الله ويتقه فأولئك هم الفائزون) فالطاعة لله ولرسوله، والخشية والتقوى لله وحده.

وعلى هذا التوجيه للآية، استحسن بعض القراء الوقف في الآية على قوله سبحانه

=

=

(وتعزروه وتوقروه) ثم يكون الابتداء من قوله تعالى (وتسبحوه بكرة وأصيلًا) وقد نقل ابن الجزري هذا الاستحسان، ثم قال: لئلا يوهم اشتراك عود الضمائر على شيء واحد، فإن الضميرين الأول والثاني، عائدان على النبي ﷺ، والضمير الثالث عائد على الله ﷻ.

وهذا التوجيه للآية الكريمة هو الذي ذهب إليه جمهور المفسرين، كالطبري، و القرطبي، وابن كثير وغيرهم.

لكن فريقًا آخر من المفسرين، رأى أن الضمائر الثلاثة في الآية ترجع إلى الله سبحانه، ويكون المراد بتعزير الله تعالى على هذا الرأي: تعظيم دينه بالعمل به، واحترام رسوله ﷺ بالاقتداء بهديه، والتزام سنته؛ وكل هذا يدخل في قوله تعالى (وتعزروه وتوقروه) ويمكن حمل الآية عليه. وإلى هذا التوجيه للآية ذهب الزمخشري و الألوسي من المفسرين.

فالآية على كلا التوجهين صحيحة مستقيمة لا إشكال فيها، سواء أعدنا الضمائر كلها إلى الله، أم أعدنا الضمير الأول والثاني على الرسول، والثالث على الله.

قال الطبري: أي:" لتؤمنوا بالله ورسوله أنتم أيها الناس".

قوله تعالى: {وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ} [الفتح: ٩]، أي:" وتنصروه على عدوه بالسيف، وتعظموا النبي ﷺ".

وفي تفسير قوله تعالى: {وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ} [الفتح: ٩]، وجوه:

أحدها: معناه: تجلوه، وتعظموه. قاله ابن عباس، والضحاك.

عن ابن عباس: " {وَتُعَزِّرُوهُ}، يعني: الإجلال، {وَتُوَقِّرُوهُ}، يعني: التعظيم".

قال الضحاك:" كل هذا تعظيم وإجلال".

قال أبو عبيدة:" {تُعَزِّرُوهُ}: تعظّموه".

قال ابن كثير:" {وَتُعَزِّرُوهُ}، قال ابن عباس، وغير واحد: يعظموه، {وَتُوَقِّرُوهُ}

=

=
من التوقير وهو الاحترام والإجلال والإعظام".
قال ابن أبي زمنين:" أي: وتنصروه وتعظموه؛ يعني: النبي ﷺ".
الثاني: وينصروه، ويفخموه. قاله قتادة، ومقاتل، وعن عكرمة نحوه.
عن قتادة، قوله، " {وَتُعَزِّرُوهُ}، ينصروه، {وَتُوَقِّرُوهُ}، أمر الله بتسويده وتفخيمه".
وقال قتادة:"ينصروه، ويوقروه: أي: ليعظموه".
قال مقاتل:" {وَتُعَزِّرُوهُ}، يعني: تنصروه وتعاونوه على أمره كله، {وَتُوَقِّرُوهُ}، يعني: وتعظموا النبي ﷺ".
وقال ابن حيان: "تشرفوه وتبجلوه وتجلوه".
عن عكرِمة:" {وَتُعَزِّرُوهُ}، قال: يقاتلون معه بالسيف".
وروى الحجاج بن أرطأة عنه قال: "قلت لابن عباس: ما قوله: {وَتُعَزِّرُوهُ}؟ قال: الضرب بين يدي النبي -ﷺ- بالسيف".
قال الفراء:" {وَتُعَزِّرُوهُ}: تنصروه بالسيف. كذلك ذكره عَنِ الكلبي".
قال غلام ثعلب:" التعزير: النصرة بالسيف واللسان".
قال الزجاج:" معنى: {تُعَزِّرُوهُ}: تنصروه، يقال: عزرته أعزره، أي: نصرته مرة بعد مرة.. وجاء في التفسير لتنصروه بالسيف، ونصرة النبي ﷺ هي نصرة الله ﷻ".
قال النحاس:" أصل التعزير -في اللغة-: المنع، ومنه: عزرت فلانا، أي: أنزلت به ما يمتنع من أجله من المعاودة، كما تقول: نكلت به، أي: أنزلت به ما ينكل به عن العودة".
الثالث: معناه: ويعظموه. قاله ابن زيد، وعلي بن عيسى.
عن ابن زيد، قوله: " {وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ}، قال: الطاعة لله".
واخرج عبدالرزاق عن قتادة، في قوله: {وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ}، قال: «أي: تعظموه».
=

=

قال الطبري:" وهذه الأقوال متقاربات المعنى، وإن اختلفت ألفاظ أهلها بها. ومعنى التعزير في هذا الموضع: التقوية بالنُّصرة والمعونة، ولا يكون ذلك إلا بالطاعة والتعظيم والإجلال، فأما التوقير: فهو التعظيم والإجلال والتفخيم".

وفي عود الضمير في قوله تعالى: {وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ} [الفتح: ٩]، وجهان:

أحدهما: أنها راجعة إلى الرسول، والمراد: أن يعزروه ويوقروه لأنه قد تقدم ذكرها، فجاز أن يكون بعض الكلام راجعًا إلى الله وبعضه راجعًا إلى رسوله، قاله الضحاك.، وهو قول الجمهور.

قال الماوردي:" فعلى هذا يكون تأويل: {تُوَقِّرُوهُ}، أي: تدعوه بالرسالة والنبوة لا بالاسم والكنية".

قال ابن عطية:" قال الجمهور: {تُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ} هما للنبي ﷺ، {وَتُسَبِّحُوهُ} هي لله".

الثاني: أنها راجعة إلى الله تعالى، أي: "تعزروا الله وتوقروه، لأن قوله: {وَتُسَبِّحُوهُ}، راجع إلى الله وكذلك ما تقدمه.

قال الماوردي:" فعلى هذا يكون تأويل قوله: {وَتُوَقِّرُوهُ}، أي: تثبتوا له صحة الربوبية وتنفوا عنه أن يكون له ولد أو شريك".

قال الزمخشري:" الضمائر لله ﷻ والمراد بتعزير الله: تعزير دينه ورسوله ﷺ. ومن فرق الضمائر فقد أبعد".

قوله تعالى: {وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا} [الفتح: ٩]، أي:" وتسبحوا ربكم أول النهار وآخره".

قال الطبري:" يقول: وتصلوا لله بالغدوات والعشيات".

قال ابن كثير:" أي: يسبحون الله أول النهار وآخره".

قال الضحاك:" يقول: يسبحون الله رجع إلى نفسه".

=

=

قال الزجاج:" معنى: يسبحون الله، أي: يصلون له. والتسبيح -في اللغة-: تعظيم الله وتنزيهه عن السوء".

قال السمعاني:" التسبيح بالبكرة وهو صلاة الصبح، وبالأصيل صلاة الظهر والعصر".

وقرئ «وَيُسَبِحُوا الله بُكْرَةً وَأَصِيلا».

وقرأ أبو جعفر وأبو عمرو: «لِيُؤْمِنُوا»، «وَيُعَزِّرُوهُ»، «وَيُوَقِّرُوهُ»، «وَيُسَبِّحُوهُ»، كلُّهن بالياء، والباقون: بالتاء، على معنى: قل لهم: إنّا أرسلناك، لتؤمنوا، وقرأ علي بن أبي طالب وابن السّميقع: «ويُعَزِّزوه» بزاءين، أي: تقدموا بما يكون عزا له.

- ثم قال تعالى لرسوله ﷺ تشريفًا له وتعظيمًا وتكريمًا:

(إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللهَ) أي: إن الذين يبايعونك - أيها الرسول - والمراد بها بيعة الرضوان بالحديبية، إنما يبايعون الله على نصر دينه، وهذه كقوله تعالى (مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللهَ)، وذلك لأنهم باعوا أنفسهم من الله بالجنة.

وكانت هذه البيعة، هي بيعة الرضوان بالحديبية، فإنهم بايعوا تحت الشجرة على قتال قريش على الموت، كما قال سلمة بن الأكوع (بايعنا رسول الله ﷺ على الموت) متفق عليه، وسميت بيعة الرضوان لقوله تعالى (لَقَدْ رَضِيَ اللهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ).

- ومن شدة تأكد هذا العقد قال تعالى: (يَدُ اللهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ) أي: هو حاضر معهم يسمع أقوالهم، ويرى مكانهم، ويعلم ضمائرهم وظواهرهم، فهو تعالى هو المبايع بواسطة رسوله ﷺ كقوله تعالى (إِنَّ اللهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ).

=

=

(فَمَنْ نَكَثَ) فلم يفِ بما عاهد الله عليه.

(فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ) أي: لأن وبال ذلك راجع إليه، وعقوبته واصلة له.

(وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللهَ) أي: ثبت على الوفاء بما عاهد الله عليه في البيعة لرسوله.

(فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا) أي: سيعطيه ثوابًا عظيمًا لا يقدر عظمته إلا الله، وهو الحنة، وما فيها من النعيم ورؤية العزيز الحكيم، مما لا يقدر عظمته إلا من وصفه بأنه عظيم، كما قال تعالى (فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)، قال رسول الله ﷺ (قال تعالى: أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، اقرؤوا إن شئتم: فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) متفق عليه.

- سمي الثواب أجرًا: لأنه سبحانه التزم على نفسه أن يجزي به كالتزام المستأجر بدفع الأجرة للأجير.

قوله تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللهَ}.

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: {إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ} بالحديبية من أصحابك على أن لا يفرّوا عند لقاء العدوّ، ولا يولُّوهم الأدبار، إنما يبايعون ببيعتهم إياك الله، لأن الله ضمن لهم الجنة بوفائهم له بذلك".

قال الزجاج:" أي: أخذك عليهم البيعة عقد لله ﷻ عليهم".

قال الماتريدي:" أجمع أهل التأويل أو عامتهم على أن المبايعة المذكورة في هذه الآية هي البيعة التي كانت بالحديبية، بايعوه على ألا يفروا إذا لقوا عدو، والمبايعة هي المعاهدة".

عن مجاهد، قوله: " {إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ}، قال: يوم الحديبية".

قال قتادة:" وهم الذين بايعوا يوم الحديبية".

=

=

قال مقاتل:" وهي بيعة الرضوان، كان المسلمون يومئذ ألفا وأربعمائة رجل، فبايعوا النبي ﷺ على أن يقاتلوا ولا يفروا من العدو، فقال: {إنما يبايعون الله}".

عن معقل بن يسار، قال: "لقد رأيتني يوم الشجرة، والنبي ﷺ يبايع الناس وأنا رافع غصنا من أغصانها عن رأسه ونحن أربع عشرة مائة، قال: لم نبايعه على الموت ولكن بايعناه على أن لا نفر".

عن جابر، قال: "بايعنا رسول الله ﷺ يوم الحديبية على أن لا نفر، ولم نبايعه على الموت".

عن سلمة، ابن الأكوع، قال: "بايعت رسول الله ﷺ تحت الشجرة، قال يزيد قلت: يا أبا مسلم على أي شيء كنتم تبايعون يومئذ؟ قال: على الموت".

وعن سلمة بن الأكوع، قال:" بايعت رسول الله ﷺ يوم الحديبية، ثم تنحيت، فقال: يا سلمة ألا تبايع؟ قلت: قد بايعت، قال: أقبل فبايع، قال: فدنوت فبايعته، ثم قلت: على ما بايعته يا سلمة؟ قال: على الموت".

وعن إياس بن سلمة، عن أبيه، قال: "قدمنا الحديبية مع رسول الله ﷺ، ونحن أربع عشرة مائة وعليها خمسون شاة لا ترويها. فقعد رسول الله ﷺ على جباها - يعني: الركية-، فإما دعا وإما بسق فيها فجاشت، فسقينا واستقينا. قال: ثم إن رسول الله ﷺ دعانا إلى البيعة في أصل الشجرة فبايعه أول الناس، ثم بايع وبايع، حتى إذا كان في وسط الناس، قال: «بايعني يا سلمة!» قال: قلت يا رسول الله قد بايعتك أول الناس، قال وأيضا، قال: ورآني رسول الله ﷺ عزلا فأعطاني حجفة أو درقة، ثم بايع حتى إذا كان في آخر الناس قال ألا تبايع يا سلمة قال: قلت يا رسول الله قد بايعتك في أول الناس وأوسطهم، قال: وأيضا فبايعته الثالثة فقال: يا سلمة أين حجفتك أو درقتك التي أعطيتك، قال: قلت يا رسول الله لقيني عامر عزلا فأعطيتها إياه فضحك رسول الله ﷺ ثم قال: إنك كالذي قال الأول: اللهم ابغني

=

=

حبيبا هو أحب إلي من نفسي، ثم إن المشركين من أهل مكة راسلونا الصلح حتى مشى بعضنا في بعض فاصطلحنا، قال: وكنت خادما لطلحة بن عبيد الله أستقي فرسه وأحسه، وآكل من طعامه، وتركت أهلي ومالي مهاجرا إلى الله ورسوله، قال: فلما اصطلحنا نحن وأهل مكة واختلط بعضنا بعضا أتيت شجرة فكسحت شوكها واضطجعت في أصلها فأتاني أربعة من أهل مكة من المشركين، فجعلوا يقعون في رسول الله ﷺ فأبغضتهم ثم فتحولت إلى شجرة أخرى فعلقوا سلاحهم واضطجعوا فبينما هم كذلك إذ نادى مناد من أسفل الوادي المهاجرين قتل ابن زنيم قال فاخترطت سيفي، فشددت على أولئك الأربعة وهم رقد، فأخذت سلاحهم فجعلته ضغثا في يدي ثم قلت والذي كرم وجه محمد ﷺ لا يرفع أحد منكم رأسه إلا ضربت الذي في عيناه، قال: ثم جئت بهم أسوقهم إلى رسول الله ﷺ. قال: وجاء عمي عامر برجل من العبلات يقال له: مكرز، من المشركين يقوده على فرس مجفف حتى وقفنا بهم على رسول الله ﷺ في سبعين من المشركين فنظر إليهم رسول الله ﷺ فقال دعوهم يكون لهم بدء الفجور وثناه، فعفا عنهم رسول الله ﷺ، فأنزل الله ﷻ: {وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ} الآية [الفتح: ٢٤] الآية".

وعن جابر، عن رسول الله ﷺ أنه قال: "لا يدخل النار أحد ممن بايع تحت الشجرة".

عن أبي الزبير، أنه سمع جابرا يقول: "أخبرتني أم مبشر أنها سمعت رسول الله ﷺ يقول عند حفصة: "لا يدخل النار - إن شاء الله - من أصحاب الشجرة الذين بايعوا تحتها أحد". قالت: بلى يا رسول الله. فانتهرها، فقالت لحفصة: {وَإِنْ مِنْكُمْ إِلا وَارِدُهَا} [مريم: ٧١]، فقال النبي ﷺ: "قد قال الله: {ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا} [مريم: ٧٢]".

=

=

عن جابر:"أن عبدًا لحاطب بن أبي بلتعة جاء يشكو حاطبا، فقال: يا رسول الله، ليدخلن حاطب النار، فقال رسول الله ﷺ: "كذبت، لا يدخلها؛ فإنه قد شهد بدرا والحديبية".

قوله تعالى: {يَدُ اللهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ} [الفتح: ١٠]، أي:" يد الله فوق أيديهم، فهو معهم يسمع أقوالهم، ويرى مكانهم، ويعلم ضمائرهم وظواهرهم".

وفي قوله تعالى: {يَدُ اللهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ} [الفتح: ١٠]، وجوه من التفسير:

أحدها: قوة الله ونصرته فوق قوتهم ونصرتهم. قاله ابن كيسان، وسهل بن عبد الله.

قال سهل:" قوّة الله فوق قوّتهم في نصرة رسوله ﷺ، لأنهم إنما بايعوا رسول الله ﷺ على نُصرته على العدو".

قال سهل:" أي: حول الله وقوته فوق قوتهم وحركتهم، وهو قولهم للرسول ﷺ عند البيعة: «بايعناك على أن لا نفر ونقاتل لك»".

قال الواحدي:" أي: ثق بنصرة الله لك، لا بنصرتهم وإن بايعوك".

الثاني: يد الله في المنة عليهم في الهداية لبيعتهم وثوابه لهم فوق بيعتهم وطاعتهم لك. ذكره سهل بن عبد الله-أيضا-، وعن الكلبي نحوه.

قال الكلبي: "معناه: نعمة الله عليهم فوق ما صنعوا من البيعة".

وقال القشيري:" أي: {يَدُ اللهِ}: في المنة عليهم بالتوفيق والهداية: {فَوْقَ أَيْدِيهِمْ} بالوفاء حين بايعوك".

الثالث: يَدُ الله في الوَفَاء فَوْقَ أَيْدِيهم. قاله ابن عباس، ومقاتل، والفراء.

قال الفراء:" قوله: {يَدُ اللهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ}، بالوفاء والعهد".

قال مقاتل:" يد الله بالوفاء لهم بما وعدهم من الخير فوق أيديهم حين قالوا النبي ﷺ إنا نبايعك على ألا نفر ونقاتل فاعرف لنا ذلك".

الرابع: يد الله فوق أيديهم عند البيعة، لأنهم كانوا يبايعون الله ببيعتهم نبيه ﷺ.

=

=

حكاه الثعلبي عن السدي، وحكاه الطبري دون نسبة.
قال الشافعي:" فأعلمهم أن بيعتهم رسوله بيعته، وكذلك أعلمهم أن طاعتهم طاعته".

قال ابن كثير:" أي: هو حاضر معهم يسمع أقوالهم ويرى مكانهم، ويعلم ضمائرهم وظواهرهم، فهو تعالى هو المبايع بواسطة رسوله ﷺ كقوله: {إِنَّ اللهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ} [التوبة: ١١١]".

قوله تعالى: {فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ} [الفتح: ١٠]، أي:" فمن نقض بيعته فإنما يعود وبال ذلك على نفسه".

قال الطبري: يقول: " فمن نكث بيعته إياك يا محمد، ونقضها فلم ينصرك على أعدائك، وخالف ما وعد ربه، فإنما ينقض بيعته، لأنه بفعله ذلك يخرج ممن وعده الله الحنة بوفائه بالبيعة، فلم يضرّ بنكثه غير نفسه، ولم ينكث إلا عليها، فأما رسول الله ﷺ فإن الله تبارك وتعالى ناصره على أعدائه، نكث الناكث منهم، أو وفى ببيعته".

قال ابن كثير:" أي: إنما يعود وبال ذلك على الناكث، والله غني عنه".

قال القشيري:" أي: عذاب النكث عائد عليه".

قال الزجاج:" النكث -في اللغة-: نقض ما تعقده، وما تصلحه. وجاء في التفسير: ثلاثة أشياء ترجع على أهلها. أحدها النكث. والبغي والمكر. قال الله ﷻ {إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَى أَنْفُسِكُم} [يونس: ٢٣]، والمكر قال الله ﷻ: {وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ} [فاطر: ٤٣]، وقوله: {فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ} [الفتح: ١٠]".

=

=

قوله تعالى: {وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا} [الفتح: ١٠]، أي:" ومن أوفى بما عاهد الله عليه من الصبر عند لقاء العدو في سبيل الله ونصرة نبيه محمد ﷺ، فسيعطيه الله ثوابًا جزيلا وهو الجنة".

قال الطبري: يقول: " ومن أوفى بما عاهد الله عليه من الصبر عند لقاء العدوّ في سبيل الله ونُصرة نبيه ﷺ على أعدائه، فسيعطيه الله ثوابا عظيما، وذلك أن يُدخله الجنة جزاء له على وفائه بما عاهد عليه الله، ووثق لرسوله على الصبر معه عند البأس بالمؤكدة من الأيمان".

قال القشيري:" أي: من قام بما عاهد الله عليه على التمام فسيؤتيه أجرا عظيما".

عن قتادة: " {فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا}، وهي الجنة".

قال الواحدي:" يعني: الجنة فما فوقها".

قال ابن كثير:" أي: ثوابًا جزيلا. وهذه البيعة هي بيعة الرضوان، وكانت تحت شجرة سَمُر بالحديبية، وكان الصحابة الذين بايعوا رسول الله ﷺ يومئذ قيل: ألف وثلثمائة. وقيل: أربعمائة. وقيل: وخمسمائة. والأوسط أصح".

عن جابر قال: كنا يوم الحديبية ألفا وأربعمائة".

وقال جابر:" كنا يومئذ ألفا وأربعمائة، ووضع يده في ذلك الماء، فنبع الماء من بين أصابعه، حتى رووا كلهم".

وفي رواية: " فقيل لجابر: كم كنتم يومئذ؟ قال: كنا ألفا وأربعمائة، ولو كنا مائة ألف لكفانا".

وفي رواية في الصحيحين عن جابر: أنهم كانوا "خمس عشرة مائة".

وفي حديث قتادة:" قلت لسعيد بن المسيب: كم كان الذين شهدوا بيعة الرضوان؟ قال: خمس عشرة مائة. قلت: فإن جابر بن عبد الله، رضي الله عنهما، قال: كانوا أربع عشرة مائة. قال رحمه الله: وهم، هو حدثني أنهم كانوا خمس عشرة مائة".

=

سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا بَلْ كَانَ اللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا (١١).

{سَيَقُولُ لَك الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَاب} حَوْل الْمَدِينَة أَيْ الَّذِينَ خَلَّفَهُمْ الله عَنْ صُحْبَتك لَمَّا طَلَبْتهمْ لِيَخْرُجُوا مَعَك إِلَى مَكَّة خَوْفًا مِنْ تَعَرُّض قُرَيْش لَك عَام الْحُدَيْبِيَة إِذَا رَجَعْت مِنْهَا {شَغَلَتْنَا أَمْوَالنَا وَأَهْلُونَا} عَنْ الْخُرُوج مَعَك {فَاسْتَغْفِرْ لَنَا} الله مِنْ تَرْك الْخُرُوج مَعَك قَالَ تَعَالَى مُكَذِّبًا لَهُمْ {يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِمْ} أَيْ مِنْ طَلَب الِاسْتِغْفَار وَمَا قَبْله {مَا لَيْسَ فِي قُلُوبهمْ} فَهُمْ كَاذِبُونَ فِي اعْتِذَارهمْ {قُلْ فَمَنْ} اسْتِفْهَام بِمَعْنَى النَّفْي أَيْ لَا أَحَد {يَمْلِك لَكُمْ مِنَ الله شَيْئًا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا} بِفَتْحِ الضَّاد وَضَمّهَا {أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا بَلْ كَانَ الله بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا} أَيْ لَمْ يَزَلْ مُتَّصِفًا بِذَلِكَ.

بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَى أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَنْتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ وَكُنْتُمْ قَوْمًا بُورًا (١٢).

{بَلْ} فِي الْمَوْضِعَيْنِ لِلِانْتِقَالِ مِنْ غَرَض إِلَى آخَر {ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْقَلِب

=

قال البيهقي: "هذه الرواية تدل على أنه كان في القديم يقول: خمس عشرة مائة، ثم ذكر الوهم فقال: أربع عشرة مائة".

عن المسور بن مخرمة، ومروان بن الحكم، قالا: " خرج رسول الله ﷺ عام الحديبية يريد زيارة البيت، لا يريد قتالا وساق معه الهدي سبعين بدنة، وكان الناس سبعمائة رجل، كل بدنة عن عشرة نفر، وكان جابر بن عبد الله فيما بلغني عنه يقول: كنا أصحاب الحديبية أربع عشرة مائة".

الرَّسُـول وَالْمُؤْمِنُـونَ إِلَـى أَهْلِـيهِمْ أَبَـدًا وَزُيِّـنَ ذَلِـكَ فِـي قُلُـوبكُمْ} أَيْ أَنَّهُـمْ يُسْتَأْصَلُونَ بِالْقَتْلِ فَلَا يَرْجِعُونَ {وَظَنَنْتُمْ ظَنّ السَّوْء} هَذَا وَغَيْره {وَكُنْتُمْ قَوْمًا بُورًا} جَمْع بَائِر أَيْ هَالِكِينَ عِنْد الله بِهَذَا الظن.

وَمَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِاللهِ وَرَسُولِهِ فَإِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَعِيرًا (١٣).

{وَمَنْ لَمْ يُؤْمِن بِاَللهِ وَرَسُوله فَإِنَّا أَعْتَدْنَا للكافرين سعيرا} نارا شديدة.

وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَكَانَ اللهُ غَفُورًا رَحِيمًا (١٤).

{ولله ملك السماوات وَالْأَرْض يَغْفِر لِمَنْ يَشَاء وَيُعَذِّب مَنْ يَشَاء وَكَانَ الله غَفُورًا رَحِيمًا} أَيْ لَمْ يَزَلْ مُتَّصِفًا بِمَا ذُكِرَ[1].

---

(١) قوله تعالى: (سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ) أي: سيقول لك يا محمد المنافقون الذين تخلفوا عن الخروج معك عام الحديبية من أعراب المدينة.

- المخلفون: جمع المخلف وهو المتروك.

(شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا) أي: منعنا من الخروج معك مالنا من الأموال والنساء والذراري، وليس لنا من يقوم بهم ويخلفنا عليهم.

(فَاسْتَغْفِرْ لَنَا) أي: اطلب من الله أن يغفر لنا ما وقع منا من التخلف عنك بهذا السبب، والمغفرة: ستر الذنب والتجاوز عنه.

وهذا القول منهم ليس عن اعتقاد بل عن استهزاء وتقية، وبواطنهم مخالفة لظواهرهم قال الله:

(يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ) وهذا هو صنيع المنافقين، يظهرون ما لا يبطنون، ومن أعظم صفات المنافقين الكذب.

(قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللهِ شَيْئًا) أي: فمن يمنعكم مما أراده الله بكم من خير أو =

=

شر.

(إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا) أي: إنزال ما يضركم من ضياع الأموال وهلاك الأهل.

(أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا) أي: نصرًا وغنيمة.

- قال القرطبي: وهذا رد عليهم حين ظنوا أن التخلف عن رسول الله ﷺ يدفع عنهم الضر، ويعجل لهم النفع.

(بَلْ كَانَ اللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا) أي: ليس الأمر كما زعتم بل هو سبحانه العليم بالسرائر والضمائر، وقد علم الله أن تخلفكم كان للشك والنفاق.

والخبير اسم من أسماء الله، ومعناه العليم ببواطن الأمور.

قوله تعالى: {سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ} [الفتح: ١١]، أي:" سيقول لك -أيها النبي- الذين تخلَّفوا من الأعراب عن الخروج معك إلى «مكة» إذا عاتبتهم".

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: سيقول لك يا محمد الذين خلفهم الله في أهليهم عن صحبتك، والخروج معك في سفرك الذي سافرت، ومسيرك الذي سرت إلى مكة معتمرا، زائرا بيت الله الحرام إذا انصرفت إليهم، فعاتبتهم على التخلف عنك".

قال مقاتل:" وهم مزينة وجهينة وأسلم وغفار وأشجع، وكانت منازلهم بين مكة والمدينة".

قال الفراء: أي:"الَّذِينَ تخلفوا عَنِ الحديبية.. وهم أعراب: أسلم، وجهينة، ومزينة، وغِفَار- ظنوا أن لن ينقلب رَسُول الله ﷺ، فتخلفوا".

قال الحسن:" يعني: المنافقين المتخلفين عن الجهاد".

قوله تعالى: {شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا} [الفتح: ١١]، أي:" شغلتنا أموالنا وأهلونا، فاسأل ربك أن يغفر لنا تخلُّفنا".

=

=

قال الطبري: أي:" شغلتنا عن الخروج معك معالجة أموالنا، وإصلاح معايشنا وأهلونا، فاستغفر لنا ربنا لتخلُّفنا عنك.. وكان رسول الله ﷺ فيما ذُكر عنه حين أراد المسير إلى مكة عام الحُديبية معتمرا استنفر العرب ومن حول مدينته من أهل البوادي والأعراب ليخرجوا معه حذرا من قومه قريش أن يعرضوا له الحرب، أو يصدّوه عن البيت، وأحرم هو ﷺ بالعمرة، وساق معه الهدي، ليعلم الناس أنه لا يريد حربا، فتثاقل عنه كثير من الأعراب، وتخلَّفوا خلافه فهم الذين عَنَى الله تبارك وتعالى بقوله: {سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الأعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا} ... الآية".

عن مجاهد، قوله: " {سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الأعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا}، قال: أعراب المدينة: جهينة ومزينة، استتبعهم لخروجه إلى مكة، قالوا: نذهب معه إلى قوم قد جاءوه، فقتلوا أصحابه فنقاتلهم! فاعتلوا بالشغل".

قال الزجاج:" {شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا}، أي: ليس لنا من يقوم بها، {وَأَهْلُونَا}، أي: وشغلتنا أهلونا، ليس لنا من يخلفنا فيهم".

قال النحاس:" أي: ليس لنا من يحفظ أموالنا ويقوم بأهالينا".

قال ابن أبي زمنين: أي:" خفنا عليهم الضيعة، فذلك الذي منعنا أن نكون معك في الجهاد".

قال سهل:" اعتذروا به، فحكاه الله لك لتعلم أن الإقبال على الله ﷻ بترك الدنيا وما فيها، فإنها تشغل عن الله ألا ترى المنافقين كيف اعتذروا بقولهم: {شَغَلَتْنا أَمْوالُنا وَأَهْلُونا}".

قوله تعالى: {يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ} [الفتح: ١١]، أي:" يقولون ذلك بألسنتهم، ولا حقيقة له في قلوبهم".

قال الطبري:" قال الله جل ثناؤه مكذبهم في قيلهم ذلك: يقول هؤلاء الأعراب

=

المخلَّفون عنك بألسنتهم ما ليس في قلوبهم، وذلك مسألتهم رسول الله ﷺ الاستغفار لهم، يقول: يسألونه بغير توبة منهم ولا ندم على ما سلف منهم من معصية الله في تخلفهم عن صحبة رسول الله ﷺ والمسير معه".

قال مقاتل:" لا يبالون استغفر لهم النبي ﷺ أم لا".

قال ابن كثير:" ذلك قول منهم لا على سبيل الاعتقاد، بل على وجه التقية والمصانعة".

قال ابن أبي زمنين: " أي: يعتذرون بالباطل".

قوله تعالى: {قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا} [الفتح: ١١]، أي:" قل لهم: فمن يملك لكم من الله شيئًا إن أراد بكم شرًا أو خيرًا؟".

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره لنبيه: قل لهؤلاء الأعراب الذين يسألونك أن تستغفر لهم لتخلفهم عنك: إن أنا استغفرت لكم أيها القوم، ثم أراد الله هلاككم أو هلاك أموالكم وأهليكم، أو أراد بكم نفعا بتثميره أموالكم وإصلاحه لكم أهليكم، فمن ذا الذي يقدر على دفع ما أراد الله بكم من خير أو شرّ، والله لا يعازّه أحد، ولا يغالبه غالب".

قال مقاتل:" {إن أراد بكم ضرا}، يعنى: الهزيمة، {أو أراد بكم نفعا}، يعني: الفتح والنصر،.. يقول: فمن يملك دفع الضر عنكم، أو منع النفع غير الله".

قال ابن أبي زمنين: " {أراد بكم ضرا}، أن يهلككم بنفاقكم فيدخلكم النار، {أو أراد بكم نفعا}، أن يرحمكم بإيمان يمن به عليكم، وقد أخبر نبيه بعد هذه الآية أنه لا يتوب عليهم في قوله: {لَنْ يَغْفِرَ اللهُ لَهُم} [المنافقون: ٦]".

قال ابن كثير:" أي: لا يقدر أحد أن يرد ما أراده فيكم تعالى وتقدس".

قوله تعالى: {بَلْ كَانَ اللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا} [الفتح: ١١]، أي:" ليس الأمر كما

=

ظن هؤلاء المنافقون أن الله لا يعلم ما انطوت عليه بواطنهم من النفاق، بل إنه سبحانه كان بما يعملون خبيرًا، لا يخفى عليه شيء من أعمال خلقه".

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره: ما الأمر كما يظن هؤلاء المنافقون من الأعراب أن الله لا يعلم ما هم عليها منطوون من النفاق، بل لم يزل الله بما يعملون من خير وشرّ خبيرا، لا تخفى عليه شيء من أعمال خلقه، سرّها وعلانيتها، وهو محصيها عليهم حتى يجازيهم بها".

قال مقاتل:" {خبيرا} في تخلفكم وقولكم: إن محمدا وأصحابه كلفوا شيئا لا يطيقونه، ولا يرجعون أبدا".

قال ابن كثير: أي:" وهو العليم بسرائركم وضمائركم، وإن صانعتمونا وتابعتمونا".

قوله تعالى: (بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَى أَهْلِيهِمْ أَبَدًا) أي: لم يكن تخلفكم تخلف معذور ولا عاص، بل تخلف نفاق، أي: بل اعتقدتم أن محمدًا وأصحابه يقتلون، وتستأصل شأفتهم، وتستباد خضراؤهم، ولا يرجع منهم مخبر، وهذا هو ظن السوء الذي سبق في قوله (وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّانِّينَ بِاللهِ ظَنَّ السَّوْءِ).

(وَزُيِّنَ ذَلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ) أي: زيّن ذلك الضلال في قلوبكم.

- والمزين هو الشيطان كما قال تعالى (وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) وقال تعالى (وَعَادًا وَثَمُودَ وَقَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ مِنْ مَسَاكِنِهِمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ).

(وَظَنَنْتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ) أن الله سبحانه لا ينصر رسوله، وهذا هو الظن الأول، والتكرير للتأكيد والتوبيخ.

(وَكُنْتُمْ قَوْمًا بُورًا) أي: هلكى بهذا الاعتقاد الفاسد.

=

=

قوله تعالى: {بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَى أَهْلِيهِمْ أَبَدًا} [الفتح: ١٢]، أي:" وليس الأمر كما زعمتم من انشغالكم بالأموال والأهل، بل إنكم ظننتم أن رسول الله ﷺ ومن معه من أصحابه سيَهْلكون، ولا يَرْجعون إليكم أبدًا".

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره لهؤلاء الأعراب المعتذرين إلى رسول الله ﷺ عند منصرَفه من سفره إليهم بقولهم: {شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا} ما تخلفتم خلاف رسول الله ﷺ حين شخص عنكم، وقعدتم عن صحبته من أجل شغلكم بأموالكم وأهليكم، بل تخلفتم بعده في منازلكم، ظنا منكم أن رسول الله ﷺ ومن معه من أصحابه سيهلكون، فلا يرجعون إليكم أبدا باستئصال العدوّ إياهم".

قال ابن كثير:" أي: لم يكن تخلفكم تخلف معذور ولا عاص، بل تخلف نفاق، {بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَى أَهْلِيهِمْ أَبَدًا}، أي: اعتقدتم أنهم يقتلون وتستأصل شأفتهم وتستباد خضراؤهم، ولا يرجع منهم مخبر".

قال الزجاج:" أعلم الله ﷻ أنهم تخلفوا عن الخروج مع النبي ﷺ بظنهم ظن السوء، فأطلع الله نبيه على ذلك".

قال قتادة:" ظنوا بنبيّ الله ﷺ وأصحابه أنهم لن يرجعوا من وجههم ذلك، وأنهم سيهلكون، فذلك الذي خلفهم عن نبيّ الله ﷺ".

قال ابن جريج:" نافق القوم".

قوله تعالى: {وَزُيِّنَ ذَلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ} [الفتح: ١٢]، أي:" وحسَّن الشيطان ذلك في قلوبكم".

قال الطبري: أي:" وحسَّن الشيطان ذلك في قلوبكم، وصححه عندكم حتى حسُن عندكم التخلف عنه، فقعدتم عن صحبته".

قال الكرماني:" زينه الشيطان، وقيل: قوي في قلوبكم".

=

=

قال الرازي:" يعني ظننتم أولا، فزين الشيطان ظنكم عندكم حتى قطعتم به، وذلك لأن الشبهة قد يزينها الشيطان، ويضم إليها مخايلة يقطع بها الغافل، وإن كان لا يشك فيها العاقل".

قوله تعالى: {وَظَنَنْتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ} [الفتح: ١٢]، أي:" وظننتم ظنًا سيئًا أن الله لن ينصر نبيه محمدًا ﷺ وأصحابه على أعدائهم".

قال الطبري:" يقول: وظننتم أن الله لن ينصر محمدا ﷺ وأصحابه المؤمنين على أعدائهم، وأن العدوّ سيقهرونهم ويغلبونهم فيقتلونهم".

قال مقاتل:" حين زين لهم في قلوبهم وأيأسهم أن محمدا وأصحابه لا يرجعون أبدا نظيرها في الأحزاب: {وَتَظُنُّونَ بِاللهِ الظُّنُونَا} [الأحزاب: ١٠]، يعني: الإياسة من النصير".

عن ابن جريج:" {وظَنَنْتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ} أن لن ينقلب الرسول".

قوله تعالى: {وَكُنْتُمْ قَوْمًا بُورًا} [الفتح: ١٢]، أي:" وكنتم قومًا هَلْكى لا خير فيكم".

قال الطبري: " يقول: وكنتم قوما هَلْكى لا يصلحون لشيء من خير".

قال مقاتل:" يعني: هلكى بلغة عمان، مثل قوله: {وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ} [إبراهيم: ٢٨]، أي: دار الهلاك، ومثل قوله: {تِجَارَةً لَنْ تَبُورَ} [فاطر: ٢٩]، يعني: لن تهلك".

قال ابن كثير:" {قَوْمًا بُورًا}، أي: هلكى".

عن مجاهد، قوله: " {وَكُنْتُمْ قَوْمًا بُورًا}، قال: هالكين".

عن قتادة، قوله: " {وَكُنْتُمْ قَوْمًا بُورًا}، قال: فاسدين".

قال ابن عباس: "البور -في لغة أزد عمان-: الفاسد.

قال الزجاج:" أي: هالكين عند الله ﷻ فاسدين في علمه".

=

=

قال ابن زيد:" البور: الذي ليس فيه من الخير شيء".

قال السمعاني:" قيل: بورا: فاسدة قلوبهم، لا محسنين ولا متقين".

قال الفراء: "البور في كلام العرب: لا شيء، يقال: أصبحت أعمالهم بورا، ومساكنهم قبورا".

قال ابن أبي زمنين:" البور في بعض اللغات: الفاسد، يقال: أصبحت أعمالهم بورا؛ أي: مبطلة، وأصبحت ديارهم بورا؛ أي: معطلة خرابا".

قوله تعالى: (وَمَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِاللهِ) أي: لم يأتي بما يجب الإيمان به.

(وَرَسُولِهِ) أي: ولم يؤمن بالرسول بأنه رسول الله ويجب تصديقه وطاعته فيما أمر واجتناب ما نهى عنه وزجر.

(فَإِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَعِيرًا) أي: فقد هيأنا لمن كفر سعيرًا، أي: نارًا مستعرة متوقدة مشتعلة، تسعّر بهم يوم القيامة، وهم من وقودها كما قال تعالى (فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ).

قوله تعالى: {وَمَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِاللهِ وَرَسُولِهِ} [الفتح: ١٣]، أي:" ومن لم يصدِّق بالله وبما جاء به رسوله ﷺ ويعمل بشرعه، فإنه كافر مستحق للعقاب".

قال مقاتل:" يعني: بصدق بتوحيد الله ورسوله محمدا ﷺ".

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره لهؤلاء المنافقين من الأعراب، ومن لم يؤمن أيها الأعراب بالله ورسوله منكم ومن غيركم، فيصدّقه على ما أخبر به، ويقرّ بما جاء به من الحقّ من عند ربه".

قال ابن كثير:" أي: من لم يخلص العمل في الظاهر والباطن لله".

قوله تعالى: {فَإِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَعِيرًا} [الفتح: ١٣]، أي:" فإنا أعددنا للكافرين عذاب السعير في النار".

قال الطبري: يقول: " فإنا أعددنا لهم جميعا سعيرا من النار تستعر عليهم في جهنم

=

=

إذا وردوها يوم القيامة؛ يقال من ذلك: سعرت النار: إذا أوقدتها، فأنا أسعرها سعرا؛ ويقال: سعرتها أيضا إذا حرّكتها. وإنما قيل للمِسْعر مِسْعر، لأنه يحرّك به النار، ومنه قولهم: إنه لمِسْعر حرب: يراد به موقدها ومهيجها".

قال ابن كثير: أي: " فإن الله تعالى سيعذبه في السعير، وإن أظهر للناس ما يعتقدون خلاف ما هو عليه في نفس الأمر".

قال مقاتل: {سعيرا} " يعني: وقودا".

عن أبي مالك قوله: " {سعيرا}، يعني: وقودا".

قال سعيد بن جبير: "السعير: وادي من فيح في جهنم".

قال ابن عباس: "السعير: هو الطبق السادس من جهنم".

قوله تعالى: (وَلِلَّهِ) لا لغيره.

(مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ) أي: خلقًا وملكًا وتدبيرًا، فهو سبحانه مالك الأعيان، ومالك التصرف فيها

- فإن قال قائل: ابن آدم يملك؟ فالجواب: أن ملكنا ليس ملكًا عامًا، فملكي ليس ملك لك، وملكك ليس ملكًا لي، ثم نحن لا نملك التصرف فيها، فتصرفنا محدود حسب الشريعة، فلو أراد الإنسان أن يحرق ماله فإنه هذا ممنوع ولا يجوز، فملك غير الله قاصر وغير شامل.

- والفائدة من إيماننا بأن لله ملك السموات والأرض يفيد فائدتين عظيمتين:

الفائدة الأولى: الرضا بقضاء الله، وأن الله لو قضى عليك مرضًا فلا تعترض، ولو قضى عليك فقرًا فلا تعترض، لأنك ملكه يتصرف فيك كما يشاء..

الفائدة الثانية: الرضا بشرعه وقبوله والقيام به.، لأنك ملكه.

- قوله تعالى (السَّمَاوَاتِ) هذا جمع، وقد صرح الله في القرآن بأن السموات سبع كما قال تعالى (هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ

=

فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ) وقال تعالى (الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا).

- قوله تعالى (والأرض) جاء في القرآن التلميح بأنها سبع في قوله تعالى (اللهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ) أي في العدد، وجاءت في السنة التصريح بأنها سبع في قوله ﷺ (من ظلم قيد شبر طوقه من سبع أراضين) متفق عليه.

(يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ) المغفرة: هي ستر الذنب والتجاوز عنه، فالله تعالى يغفر لمن يشاء من عباده، وهذه الآية مقيدة بالحكمة، أي: من اقتضت حكمته أن يغفر له غفر له، لأن جميع أفعال الله لحكمة، لأن الفعل لغير حكمة نقص وعبث والله منزه عن كل نقص وعبث.

وأيضًا مقيدة بما عدا الشرك، فإن الله يقول (إِنَّ اللهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ).

(وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ) يعني من يستحق التعذيب.

(وَكَانَ اللهُ غَفُورًا) الغفور اسم من أسماء الله تعالى، فيجب إثبات ذلك، وهو أيضًا دال على صفة المغفرة الواسعة لله تعالى كما قال سبحانه (إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ)، والمغفرة - كما سبق - ستر الذنب عن الخلق والتجاوز عن عقوبته، كما في حديث ابن عمر في المناجاة، أن رسول الله ﷺ قال (يدنى المؤمن يوم القيامة من ربه، حتى يضع عليه كنفه - أي ستره ورحمته - فيقرره بذنوبه فيقول: أتعرف ذنب كذا؟ أتعرف ذنب كذا؟ فيقول: نعم، أي ربي، حتى إذا قرره بذنوبه ورأى في نفسه أنه هلك قال الله ﷻ: سترتها عليك في الدنيا وأنا أغفرها لك اليوم) متفق عليه.

ومنه سمي المغفر، وهو البيضة التي توضع على الرأس تستره وتقيه السهام.

(رَحِيمًا) الرحيم اسم من أسماء الله، فيجب إثبات ذلك، وهو متضمن لصفة الرحمة الواسعة كما قال تعالى (فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ)، وقال

=

تعالى (وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ) وقال تعالى (ورحمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ).

ورحمته سبحانه وتعالى تنقسم إلى قسمين:

رحمة ذاتية ثابتة لله تعالى.

ورحمة فعليه يوصلها من شاء من عباده كما قال تعالى (يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ)، والرحمة الفعلية تنقسم أيضًا إلى قسمين:

رحمة عامة لجميع الخلق في الدنيا والآخرة.

ورحمة خاصة بالمؤمنين في الدنيا والآخرة كما قال تعالى (وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا) ومن رحمته بهم عدم المؤاخذة على الخطأ.

قوله تعالى: {وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ} [الفتح: ١٤]، أي:" ولله ملك السموات والأرض وما فيهما".

قال الطبري: يقول: " ولله سلطان السموات والأرض".

قال مقاتل:" فعظم نفسه وأخبر أنه غني عن عباده".

قال ابن كثير: "بيّن تعالى أنه الحاكم المالك المتصرف في أهل السموات والأرض".

عن ابن عباس:" قال جبريل عليه السلام: يا محمد لله الخلق كله، والسموات كلهن ومن فيهن، والأرضون كلهن ومن فيهن، ومن بينهن مما يعلم ومما لا يعلم". وروي عن عثمان بن سعيد مثله.

قوله تعالى: {يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ} [الفتح: ١٤]، أي:" يتجاوز برحمته عمن يشاء فيستر ذنبه، ويعذِّب بعدله من يشاء".

قال مجاهد:" يغفر لمن يشاء الكبير من الذنوب، يعذب من يشاء على الصغير".

قال سفيان:" يغفر لمن يشاء العظيم، ويعذب من يشاء على الصغير".

قال الطبري: يقول: " وهذا من الله جلّ ثناؤه حثّ لهؤلاء الأعراب المتخلفين عن

=

سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انْطَلَقْتُمْ إِلَى مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللهِ قُلْ لَنْ تَتَّبِعُونَا كَذَلِكُمْ قَالَ اللهُ مِنْ قَبْلُ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا بَلْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا (١٥).

{سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ} الْمَذْكُورُونَ {إِذَا انْطَلَقْتُمْ إِلَى مَغَانِم} هِيَ مَغَانِم خَيْبَر {لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا} اُتْرُكُونَا {نَتَّبِعكُمْ} لِنَأْخُذ مِنْهَا {يُرِيدُونَ} بِذَلِكَ {أَنْ يُبَدِّلُوا كَلَام الله} وَفِي قِرَاءَة كَلِم الله بِكَسْرِ اللَّام أَيْ مَوَاعِيده بِغَنَائِم خَيْبَر أَهْل الْحُدَيْبِيَة خَاصَّة {قل لن تتبعونا كذالكم قَالَ الله مِنْ قَبْل} أَيْ قَبْل عَوْدنَا {فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا} أَنْ نُصِيب مَعَكُمْ مِنْ الْغَنَائِم فَقُلْتُمْ ذَلِكَ {بَلْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ} مِنْ الدِّين {إِلَّا قَلِيلًا} مِنْهُمْ(١).

=

رسول الله ﷺ على التوبة والمراجعة إلى أمر الله في طاعة رسوله ﷺ، يقول لهم: بادروا بالتوبة من تخلفكم عن رسول الله ﷺ، فإن الله يغفر للتائبين".

قوله تعالى: {وَكَانَ اللهُ غَفُورًا رَحِيمًا} [الفتح: ١٤]، أي:" وكان الله سبحانه وتعالى غفورًا لمن تاب إليه، رحيمًا به".

قال الطبري: " يقول: ولم يزل الله ذا عفو عن عقوبة التائبين إليه من ذنوبهم".

قال ابن كثير: " أي: لمن تاب إليه وأناب، وخضع لديه".

قال ابن إسحاق: {والله غفور رحيم}، " أي: يغفر الذنوب، ويرحم العباد، على ما فيهم".

قال سلمة بن وهرام صاحب طاووس:" أن الله تبارك وتعالى إنما سمى نفسه «العفو»، ليعفو، و «الغفور»، ليغفر".

(١) قوله تعالى: (سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انْطَلَقْتُمْ إِلَى مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا) أي: سيقول الذين تخلفوا عن الخروج مع رسول الله ﷺ في عمرة الحديبية، عند ذهابكم إلى

=

=

مغانم خيبر لتحصلوا عليها.

(ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ) أي: اتركونا نخرج معكم إلى خيبر لنقاتل معكم،، وقد تخلفوا عن وقت محاربة الأعداء ومجالدتهم ومصابرتهم.

(يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلامَ اللهِ) وهو الوعد الذي وعد الله أهل الحديبية، فإن الله تعالى وعد أهل الحديبية بمغانم خيبر وحدهم لا يشاركهم فيها غيرهم من الأعراب المتخلفين.

قال القرطبي: إن الله جعل لأهل الحديبية غنائم خيبر عوضًا عن فتح مكة إذ رجعوا من الحديبية على صلح.

وهذا القول اختاره الطبري وعليه عامة أهل التأويل.

وقال ابن زيد: هو قوله تعالى (فَاسْتَأْذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُلْ لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَنْ تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا) واعترض هذا ابن جرير وغيره بأن غزوة تبوك كانت بعد فتح خيبر وبعد فتح مكة.

(قُلْ) لهم.

(لَنْ تَتَّبِعُونَا) هذا النفي هو في معنى النهي، والمعنى: لا تتبعونا.

(كَذَلِكُمْ قَالَ اللهُ مِنْ قَبْلُ) أي: كذلك حكم الله تعالى بأن غنيمة خيبر لمن شهد الحديبية ليس لغيرهم فيها نصيب قبل رجوعنا منها.

(فَسَيَقُولُونَ) يعني المنافقين عند سماع هذا القول.

(بَلْ تَحْسُدُونَنَا) أي: بل ما يمنعكم من خروجنا معكم إلا الحسد لئلا نشارككم في الغنيمة.

والحسد: هو تمني زوال النعمة عن الغير، سواء تمنى أن تزول إلى شخص أو أن تزول مطلقًا، وهذا هو الحسد عند جمهور العلماء، واختار شيخ الإسلام ابن تيمية: أن الحسد كراهة ما أعطى الله هذا الرجل من فضله سواء تمنى زواله أم لم

=

=

يتمنى زواله، فإذا كرهت ما ينعم الله به على غيرك فهذا هو الحسد.

- وقد رد الله على هؤلاء فقال تعالى:

(بَلْ كَانُوا لا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا) أي: ليس الأمر كما زعموا، ولكن لا فهم لهم، وفي الحديث قال ﷺ: (خصلتان لا تجتمعان في منافق: حسن سمت، ولا فقه في الدين).

قوله تعالى: {سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انْطَلَقْتُمْ إِلَى مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ} [الفتح: ١٥]، أي:" سيقول المخلَّفون، إذا انطلقت -أيها النبي- أنت وأصحابك إلى غنائم «خيبر» التي وعدكم الله بها، اتركونا نذهب معكم إلى «خيبر»".

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: سيقول يا محمد المخلفون في أهليهم عن صحبتك إذا سرت معتمرا تريد بيت الله الحرام، إذا انطلقت أنت ومن صحبك في سفرك ذلك إلى ما أفاء الله عليك وعليهم من الغنيمة {لِتَأْخُذُوهَا} وذلك ما كان الله وعد أهل الحديبية من غنائم خيبر {ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ} إلى خيبر، فنشهد معكم قتال أهلها".

قال ابن أبي زمنين:" وهذا حين أرادوا أن يخرجوا إلى خيبر أحبوا الخروج ليصيبوا من الغنيمة، وقد كان الله وعدها النبي ﷺ فلم يترك ﷺ أحدا من المنافقين يخرج معه إلى خيبر أمره الله بذلك، وإنما كانت لمن شهد بيعة الرضوان يوم".

قال القشيري:" وذلك أن النبي ﷺ والمؤمنين لما رجعوا من الحديبية وعدهم الله خيبر، وأنّ فيها سيظفر بأعدائه، فلمّا همّ بالخروج أراد هؤلاء المخلفون أن يتبعوه لما علموا في ذلك من الغنيمة".

قال مجاهد:" ورجع النبي ﷺ وقد وعده الله ﷻ مغانم كثيرة، وعجل له خيبر، وقال المخلفون: ذرونا نتبعكم، وهي المغانم التي قال الله ﷻ: {إذا انطلقتم إلى

=

=

مغانم لتأخذوها ذرونا نتبعكم} [الفتح: ١٥]".

قال سفيان:" أعراب مزينة وجهينة".

قوله تعالى: {يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللهِ} [الفتح: ١٥]، أي:" يريدون أن يغيِّروا بذلك وعد الله لكم".

قال الطبري:" يقول: يريدون أن يغيروا وعد الله الذي وعد أهل الحديبية، وذلك أن الله جعل غنائم خيبر لهم، ووعدهم ذلك عوضا من غنائم أهل مكة إذا انصرفوا عنهم على صلح، ولم يصيبوا منهم شيئا".

وفي قوله تعالى: {يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللهِ} [الفتح: ١٥]، وجهان من التفسير:

أحدهما: ما وعد الله نبيّه من النصرة والفتح حين ظنوا ظن السوء بأنه يهلك أو لا يظفر، قاله مجاهد، وقتادة، ومقسم.

قال الزمخشري: أي: " أن يغيروا موعد الله لأهل الحديبية، وذلك أنه وعدهم أن يعوّضهم من مغانم مكة مغانم خيبر إذا قفلوا موادعين لا يصيبون منهم شيئا".

قال مجاهد:" رجع، يعني رسول الله ﷺ عن مكة، فوعده الله مغانم كثيرة، فعجلت له خيبر، فقال المخلفون: {ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلامَ اللهِ} وهي المغانم ليأخذوها، التي قال الله جلّ ثناؤه: {إِذَا انْطَلَقْتُمْ إِلَى مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا} وعرض عليهم قتال قوم أولي بأس شديد".

قال مقسم: "لما وعدهم الله أن يفتح عليهم خيبر، وكان الله قد وعدها من شهد الحديبية لم يعط أحدا غيرهم منها شيئا، فلما علم المنافقون أنها الغنيمة قالوا: {ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلامَ اللهِ}، يقول: ما وعدهم".

قال قتادة:" وهم الذين تخلفوا عن رسول الله ﷺ من الحديبية. ذُكر لنا أن المشركين لما صدّوا رسول الله ﷺ من الحديبية عن المسجد الحرام والهدي، قال المقداد: يا نبيّ الله، إنا والله لا نقول كالملأ من بني إسرائيل إذ قالوا لنبيهم:

=

{فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا إِنَّا هَا هُنَا قَاعِدُونَ}، ولكن نقول: اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون؛ فلما سمع ذلك أصحاب نبيّ الله ﷺ تبايعوا على ما قال؛ فلما رأى ذلك نبيّ الله ﷺ صالح قريشا، ورجع من عامه ذلك".

الثاني: يعني: قوله: {لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَنْ تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا} [التوبة: ٨٣]، حين سألوه الخروج معه لأجل المغانم بعد امتناعهم منه وظن السوء، قاله ابن زيد، وبه قال الزجاج.

قال الزجاج:" ولو كان الكلام نهيا لقال: قل لا تتبعونا".

قال ابن زيد:" أرادوا أن يغيروا كلام الله الذي قال لنبيه ﷺ ويخرجوا معه، وأبى الله ذلك عليهم ونبيه ﷺ".

قال الطبري:" وهذا الذي قاله ابن زيد قول لا وجه له، لأن قول الله ﷻ: {فَاسْتَأْذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُلْ لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَنْ تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا} إنما نزل على رسول الله ﷺ مُنْصَرَفَه من تَبوك، وعُنِي به الذين تخلَّفوا عنه حين توجه إلى تبوك لغزو الروم، ولا اختلاف بين أهل العلم بمغازي رسول الله ﷺ أن تبوك كانت بعد فتح خيبر وبعد فتح مكة أيضا، فكيف يجوز أن يكون الأمر على ما وصفنا معنيا بقول الله {يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلامَ اللهِ} وهو خبر عن المتخلفين عن المسير مع رسول الله ﷺ، إذ شخص معتمرا يريد البيت، فصدّه المشركون عن البيت، الذين تخلَّفوا عنه في غزوة تبوك، وغزوة تبوك لم تكن كانت يوم نزلت هذه الآية، ولا كان أُوحِيَ إلى رسول الله ﷺ قوله: {فَاسْتَأْذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُلْ لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَنْ تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا}، فإذ كان ذلك كذلك، فالصواب من القول في ذلك: ما قاله مجاهد وقتادة".

وقرئ «كَلِمَ اللهِ» بغير ألف، بمعنى جمع كلمة.

قوله تعالى: {قُلْ لَنْ تَتَّبِعُونَا كَذَلِكُمْ قَالَ اللهُ مِنْ قَبْلُ} [الفتح: ١٥]، أي:" قل لهم:

=

لن تخرجوا معنا إلى «خيبر»؛ لأن الله تعالى قال لنا من قبل رجوعنا إلى «المدينة»: إن غنائم «خيبر» هي لمن شهد «الحديبية» معنا".

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: قل لهؤلاء المخلفين عن المسير معك يا محمد: لن تتبعونا إلى خيبر إذا أردنا السير إليهم لقتالهم، كذا قال الله لنا من قبل مَرْجِعنا إليكم، إن غنيمة خيبر لمن شهد الحديبية معنا، ولستم ممن شهدها، فليس لكم أن تَتَّبعونا إلى خيبر، لأن غنيمتها لغيركم".

قال قتادة:" أي: إنما جعلت الغنيمة لأهل الجهاد، وإنما كانت غنيمة خيبر لمن شهد الحديبية ليس لغيرهم فيها نصيب".

قوله تعالى: {فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا} [الفتح: ١٥]، أي:" فسيقولون: ليس الأمر كما تقولون، إن الله لم يأمركم بهذا، إنكم تمنعوننا من الخروج معكم حسدًا منكم؛ لئلا نصيب معكم الغنيمة".

قال الطبري: أي:" أن نصيب معكم مغنما إن نحن شهدنا معكم، فلذلك تمنعوننا من الخروج معكم".

قال ابن أبي زمنين: أي:" إنما تمنعوننا من الخروج معكم للحسد".

قال القشيري:" فقال المتخلفون: إنما يقول المؤمنون ذلك حسدا لنا وليس هذا من قول الله! فأنزل الله تعالى ذلك لتكذيبهم، ولبيان حكمه ألا يستصحبهم فهم أهل طمع، وكانت عاقبتهم أنهم لم يجدوا مرادهم، وردّوا بالمذلة وافتضح أمرهم".

عن ابن زيد، قوله:" {فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا}، أن نصيب معكم غنائم".

قوله تعالى: {بَلْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا} [الفتح: ١٥]، أي:" وليس الأمر كما زعموا، بل كانوا لا يفقهون عن الله ما لهم وما عليهم من أمر الدين إلا يسيرًا".

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره لنبيه ﷺ وأصحابه: ما الأمر كما يقول هؤلاء

=

قُلْ لِلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَى قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ فَإِنْ تُطِيعُوا يُؤْتِكُمُ اللهُ أَجْرًا حَسَنًا وَإِنْ تَتَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُمْ مِنْ قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (١٦).

{قُلْ لِلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَاب} الْمَذْكُورِينَ اخْتِبَارًا {سَتُدْعَوْنَ إِلَى قَوْم أُولِي} أَصْحَاب {بَأْس شَدِيد} قِيلَ هُمْ بَنُو حَنِيفَة أَصْحَاب الْيَمَامَة وَقِيلَ فَارِس وَالرُّوم {تُقَاتِلُونَهُمْ} حَال مُقَدَّرَة هِيَ الْمَدْعُوّ إلَيْهَا فِي الْمَعْنَى {أَوْ} هُمْ {يُسْلِمُونَ} فَلَا تُقَاتِلُونَ {فَإِنْ تُطِيعُوا} إلَى قِتَالهمْ {يُؤْتِكُمْ الله أَجْرًا حَسَنًا وَإِنْ تَتَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُمْ مِنْ قَبْل يُعَذِّبكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا} مُؤْلِمًا.

لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَمَنْ يُطِعِ اللهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَنْ يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا (١٧).

=

المنافقون من الأعراب من أنكم إنما تمنعونهم من اتباعكم حسدا منكم لهم على أن يصيبوا معكم من العدوّ مغنما، بل كانوا لا يفقهون عن الله ما لهم وعليهم من أمر الدين إلا قليلا يسيرا، ولو عقلوا ذلك ما قالوا لرسول الله والمؤمنين به، وقد أخبروهم عن الله تعالى ذكره أنه حرمهم غنائم خيبر، إنما تمنعوننا من صحبتكم إليها لأنكم تحسدوننا".

قال الزمخشري: أي:" لا يفهمون إلا فهما قَلِيلًا وهو فطنتهم لأمور الدنيا دون أمور الدين، كقوله تعالى: {يَعْلَمُونَ ظاهِرًا مِنَ الْحَياةِ الدُّنْيا}".

قال الماتريدي:" الفقه: هو الاستدلال بما عرفوه وشهدوه على الذي لم يعلموه وغاب عنهم؛ يخبر أن هَؤُلَاءِ لا يعرفون الاستدلال، وقَالَ بَعْضُهُمْ: الفقه هو معرفة الشيء بنظيره الدال على غيره".

{لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَج وَلَا عَلَى الْأَعْرَج حَرَج وَلَا عَلَى الْمَرِيض حَرَج} فِي تَرْك الْجِهَاد {وَمَنْ يُطِعِ الله وَرَسُوله يُدْخِلهُ} بِالْيَاءِ وَالنُّون {جَنَّات تَجْرِي مِنْ تَحْتهَا الْأَنْهَار وَمَنْ يتول يعذبه} بالياء والنون {عذابا أليما}(١).

(١) ذكر سبب النزول.

عن زيد بن ثابت رضي الله عنه؛ قال: كنت أكتب لرسول الله ﷺ، وإني لواضع القلم على أذني إذ أمر بالقتال؛ إذ جاء أعمى، فقال: كيف بي وأنا ذاهب البصر؟! فنزلت: {لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَمَنْ يُطِعِ اللهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَنْ يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا (١٧)}.

أخرجه الطبراني في "المعجم الكبير" (٥/ ١٥٥ رقم ٤٩٢٦) من طريق لوين ثنا محمد بن جابر عن أبي فروة عن عبد الرحمن بن أبي ليلى عن زيد بن ثابت به.

وهذا سند ضعيف؛ فيه محمد بن جابر اليمامي؛ قال الحافظ في "التقريب" (٢/ ١٤٩): "صدوق، ذهبت كتبه؛ فساء حفظه، وخلط كثيرًا، وعمي؛ فصار يلقن".

قال الحافظ الهيثمي في "مجمع الزوائد" (٧/ ١٠٧): "فيه محمد بن جابر السحيمي وهو ضعيف يكتب حديثه، وبقية رجاله رجال الصحيح". اهـ.

وقال السيوطي في "الدر المنثور" (٧/ ٥٢١): "أخرج الطبراني بسند حسن".

* قوله تعالى: (قُلْ لِلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ) وهم المذكورون سابقًا.

- وكرر وصفهم بهذا الاسم إظهارًا لشناعته ومبالغة في ذمهم.

(سَتُدْعَوْنَ إِلَى قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ) أي: ستدعون إلى حرب قوم أشداء، واختلف المفسرون في هؤلاء القوم الذين يدعون إليهم، الذين هم أولو بأس شديد على أقوال:

قيل: هم هوازن وثقيف، وقيل: بنو حنيفة أهل اليمامة أصحاب مسيلمة، وحكاه =

=

الواحدي عن أكثر المفسرين، وقيل: هم رجال أولو بأس شديد ولم يعين فرقة واختاره ابن جرير.

(تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ) أي: يكون أحد أمرين: إما المقاتلة أو الإسلام لا ثالث لهما، وهذا حكم الكفار الذين لا تؤخذ منهم الجزية.

(فَإِنْ تُطِيعُوا) أي: تستجيبوا وتنفروا في الجهاد وتؤدوا الذي عليكم فيه.

(يُؤْتِكُمُ اللهُ أَجْرًا حَسَنًا) وهو الغنيمة في الدنيا والجنة في الآخرة.

(وَإِنْ تَتَوَلَّوْا) أي: تعرضوا.

(كَمَا تَوَلَّيْتُمْ مِنْ قَبْلُ) وذلك عام الحديبية، حيث دعيتم فتخلفتم.

(يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا) بالقتل والأسر والقهر في الدنيا، وبعذاب النار في الآخرة.

قوله تعالى: {قُلْ لِلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَى قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ} [الفتح: ١٦]، أي:" قل للذين تخلَّفوا من الأعراب -وهم البدو- عن القتال: ستُدْعون إلى قتال قوم أصحاب بأس شديد في القتال".

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ {قُلْ} يا محمد {لِلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الأعْرَابِ} عن المسير معك، {سَتُدْعَوْنَ إِلَى} قتال {قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ} في القتال {شَدِيدٍ}".

قال ابن الجوزي: أي: " إن كنتم تريدون الغزو والغنيمة فستُدْعَون إلى جهاد قوم أُولِي بَأْسٍ شَدِيد".

قال ابن عطية:" أمر الله نبيه عليه السلام بالتقدمة إلى هؤلاء المخلفين بأنهم سيؤمرون بقتال عدو بئيس، وهذا يدل على أنهم كانوا يظهرون الإسلام، وإلا فلم يكونوا أهلا لهذا الأمر".

قال الزجاج:" المعنى: أن كل من ظاهره الإسلام فعلى أصحاب النبي ﷺ أن يدعوهم إلى الجهاد، والصحابة لم يطلعوا في وقت الجهاد على من يقاتل ومن لا

=

=

يقاتل، ولا على من ينافق ومن لا ينافق، لأن الإظهار على ذلك من آيات الأنبياء عليهم السلام".

واختلف أهل التفسير في القوم المشار إليهم في قوله تعالى: {سَتُدْعَوْنَ إِلَى قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ} [الفتح: ١٦]، على أقوال:

أحدها: أنهم أهل فارس، قاله ابن عباس، ومجاهد، وعطاء بن أبي رباح، وعطاء الخراساني، وعبد الرحمن بن أبي ليلى، وابن جريج، ومجاهد.

قال ابن جريج:": دعاهم عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إلى قتال فارس".

قال القشيري:" قيل هم أهل فارس- وقد دعاهم عمر بن الخطاب وحاربهم فالآية تدل على صحة إمامته. وصحة إمامته تدل على صحة إمامة أبى بكر".

الثاني: أنهم الروم. قاله كعب.

قال ابن عطية:"وهم الذين خرج إليهم رسول الله ﷺ عام تبوك والذين بعث إليهم في غزوة مؤتة".

قال السمعاني:" ومعهم الملحمة الكبرى في آخر الزمان".

الثالث: فارس والروم، قاله الحسن، ومجاهد، وعبد الرحمن بن أبي ليلى، وابن زيد.

قال الحسن:" دُعُوا إلى فارس والروم".

قال الزجاج:" وذلك في أيام أبي بكر وعمر رحمة الله عليهما ومن بعدهم".

الرابع: أنهم أهل الأوثان. رواه ليث عن مجاهد.

الخامس: هوازن. قاله عكرمة.

السادس: هوازن وثقيف. قاله سعيد بن جبير، وعكرمة، وقتادة.

قال قتادة:" فدعوا يوم حُنين إلى هوازن وثقيف فمنهم من أحسن الإجابة ورغب في الجهاد".

=

=

السابع: هَوازن وغَطَفان يوم حُنين. قاله قتادة.

الثامن: بنو حنيفة مع مسيلمة الكذاب، قاله الزهري، ومقاتل.

قال مقاتل:" يعني: أهل اليمامة، بني حنيفة: مسيلمة بن حبيب الكذاب الحنفي وقومه، دعاهم أبو بكر- رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- إلى قتال أهل اليمامة يعني هؤلاء الأحياء الخمسة جهينة ومزينة وأشجع وغفار وأسلم".

قال السمعاني:" أصح الأقاويل أنهم بنو حنيفة، لأن الله تعالى يقول: {تقاتلونهم أو يسلمون}، ومعناه: أو يسلموا، وهذا إنما يكون في المرتدين الذين لا يجوز أخذ الجزية منهم، فأنما المجوس والنصارى فيجوز أخذ الجزية منهم.. وكان ذلك الحرب حربا شديدا على المسلمين، استشهد فيه كثير من الصحابة، ويقال: استشهد فيه سبعمائة نفر من أصحاب رسول الله فيهم زيد بن الخطاب أخو عمر بن الخطاب وعكاشة بن محصن".

قال رافع بن خديج: "والله لقد كنا نقرأ هذه الآية فيما مضى: {ستدعون إلى قوم أولي بأس شديد}، فلا نعلم من هم حتى دعا أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إلى قتال بني حنيفة، فعلمنا أنهم هم".

قال الماتريدي:" قوله - تعالى -: {قُلْ لِلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَى قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ فَإِنْ تُطِيعُوا يُؤْتِكُمُ اللهُ أَجْرًا حَسَنًا}: يدل على إمامة أبي بكر - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - لأنه كان الداعي إلى حرب أهل الردة".

قال القشيري:" جاء في التفاسير أنهم أهل اليمامة أصحاب مسيلمة- وقد دعاهم أبوبكر وحاربهم، فالآية تدل على إمامته".

التاسع: أنهم قوم لم يأتوا بعد، قاله أبو هريرة، والزهري.

قال أبو هريرة:" لم تأت هذه الآية".

العاشر: أنهم البارزون، أي: الأكراد. قاله أبو هريرة.

=

=

عن ابن أبي خالد عن أبيه قال: "نزل علينا أبو هريرة ففسر قول رسول الله ﷺ: «تقاتلون قومًا نعالهم الشَّعْر»، قال: هم البارزون، يعني: الأكراد".

وعن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: "لا تقوم الساعة حتى تقاتلوا قوما صغار الأعين، ذلف الآنف، كأن وجوههم المجانّ المطرقة". قال سفيان: هم الترك".

قال الطبري:" وأولى الأقوال في ذلك بالصواب أن يقال: إن الله تعالى ذكره أخبر عن هؤلاء المخلَّفين من الأعراب أنهم سيدعون إلى قتال قوم أولي بأس في القتال، ونجدة في الحروب، ولم يوضع لنا الدليل من خبر ولا عقل على أن المعنيَّ بذلك هوازن، ولا بنو حنيفة ولا فارس ولا الروم، ولا أعيان بأعيانهم، وجائز أن يكون عني بذلك بعض هذه الأجناس، وجائز أن يكون عُنِي بهم غيرهم، ولا قول فيه أصحّ من أن يُقال كما قال الله جلّ ثناؤه: إنهم سيدعون إلى قوم أولي بأس شديد".

قال السمعاني:" فإن قيل: ذكر في هذه الآية قوله: {سَتُدْعَوْنَ إِلَى قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ} [الفتح: ١٦]، وقال في آية أخرى: {لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَنْ تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا} [التوبة: ٨٣]، وإنما قاتلوا مع أبي بكر وعمر ولم يقاتلوا مع الرسول".

قوله تعالى: {تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ} [الفتح: ١٦]، أي:" تقاتلونهم أو يسلمون من غير قتال".

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره للمخلَّفين من الأعراب تقاتلون هؤلاء الذين تُدعون إلى قتالهم، أو يسلمون من غير حرب ولا قتال".

قال ابن أبي زمنين:" أي: تقاتلونهم على الإسلام".

قال البيضاوي:" أي: يكون أحد الأمرين إما المقاتلة أو الإسلام لا غير".

قال ابن كثير:" يعني: يشرع لكم جهادهم وقتالهم، فلا يزال ذلك مستمرا عليهم، ولكم النصرة عليهم، أو يسلمون فيدخلون في دينكم بلا قتال بل باختيار".

=

=

وقرئ: «تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يَسْلِمُوا».

قوله تعالى: {فَإِنْ تُطِيعُوا يُؤْتِكُمُ اللهُ أَجْرًا حَسَنًا} [الفتح: ١٦]، أي:" فإن تطيعوا الله فيما دعاكم إليه مِن قتال هؤلاء القوم يؤتكم الجنة".

قال الطبري:" فإن تطيعوا الله في إجابتكم إياه إذا دعاكم إلى قتال هؤلاء القوم الأولي البأس الشديد، فتجيبوا إلى قتالهم والجهاد مع المؤمنين، يعطكم الله على إجابتكم إياه إلى حربهم الجنة، وهي الأجر الحسن".

قال الزجاج:" أي: إن تبتم وتركتم النفاق وجاهدتم. يؤتكم الله أجرا حسنا".

قال مقاتل:" {فإن تطيعوا} أبا بكر إذا دعاكم إلى قتالهم {يؤتكم الله أجرا حسنا} في الآخرة، يعني: جزاء كريما في الجنة".

قال القشيري:" فإن أطعتم استوجبتم الثواب، وإن تخّلفتم استحققتم العقاب".

قال ابن كثير:" فَإِنْ تُطِيعُوا}، أي: تستجيبوا وتنفروا في الجهاد وتؤدوا الذي عليكم فيه، {يُؤْتِكُمُ اللهُ أَجْرًا حَسَنًا}".

قوله تعالى: {وَإِنْ تَتَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُمْ مِنْ قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا} [الفتح: ١٦]، أي:" وإن تعصوه كما فعلتم حين تخلفتم عن السير مع رسول الله ﷺ إلى «مكة»، يعذبكم عذابًا موجعًا".

قال الطبري:" يقول: وإن تعصوا ربكم فتدبروا عن طاعته وتخالفوا أمره، فتتركوا قتال الأولي البأس الشديد إذا دُعيتم إلى قتالهم كما عصيتموه في أمره إياكم بالمسير مع رسول الله ﷺ إلى مكة، من قبل أن تُدعَوا إلى قتال أولي البأس الشديد {يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا} يعني: وجيعا، وذلك عذاب النار على عصيانكم إياه، وترككم جهادهم وقتالهم مع المؤمنين".

قال الزجاج:" وإن توليتم فأقمتم على نفاقكم، وأعرضتم عن الإيمان والجهاد كما توليتم على عهد رسول الله ﷺ يعذبكم عذابا أليما".

=

=

قال البغوي:" {وإن تتولوا} تعرضوا {كما توليتم من قبل} عام الحديبية، {يعذبكم عذابا أليما} وهو النار".

عن الكلبي:" {وإن تتولوا كما توليتم من قبل}، قال: يوم الحديبية".

قال ابن كثير:" يعني: زمن الحديبية، حيث دعيتم فتخلفتم".

ثم ذكر تعالى الأعذار في ترك الجهاد فقال:

(لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ) الأعمى هو فاقد البصر، والحرج في اللغة: الضيق، والمراد به في الآية: الإثم والذنب، والمعنى: ليس على فاقد البصر إثم وذنب في ترك الجهاد لعدم استطاعته.

(وَلا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ) الأعرج هو: هو الذي لا يمشي مشيًا مستقيمًا، والمعنى: وليس على الأعرج إثم وذنب في ترك الجهاد لمرضه وعدم استطاعته.

(وَلا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ) المريض: من به علة، أي: من خرجت صحته عن الاعتدال، والمعنى: وليس على المريض إثم وذنب في ترك الجهاد لمرضه.

كما قال تعالى (لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلا عَلَى الْمَرْضَى وَلا عَلَى الَّذِينَ لا يَجِدُونَ مَا يُنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ).

(وَمَنْ يُطِعِ اللهَ وَرَسُولَهُ) تقدم.

(يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ) تقدم.

(وَمَنْ يَتَوَلَّ) أي: ينكل عن الجهاد، ويقبل على المعاش.

(يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا) في الدنيا في الذلة، وفي الآخرة في النار.

قال تعالى (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرَضِيتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ. إِلاّ تَنْفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلا تَضُرُّوهُ شَيْئًا وَاللهُ

=

=

عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ).

وقال ﷺ (إذا تركتم الجهاد وتبايعتم بالعينة وأخذتم أذناب البقر سلط الله عليكم ذلًا لا ينزعه عنكم حتى ترجعوا عن دينكم) رواه أبوداود.

وقال ﷺ (مَنْ لم يغزُ، أوْ يُجهِّزْ غازيًا، أوْ يَخْلُفْ غازيًا في أهْلِهِ بِخَيرٍ أصابَهُ الله بِقَارِعةٍ قَبْلَ يوْمِ القِيامةِ).

عن زيد بن ثابت -رضي الله عنه-؛ قال: "كنت أكتب لرسول الله ﷺ، وإني لواضع القلم على أذني إذ أمر بالقتال؛ إذ جاء أعمى، فقال: كيف بي وأنا ذاهب البصر؟! فنزلت: {لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَمَنْ يُطِعِ اللهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَنْ يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا} [الفتح: ١٧]". وسنده ضعيف.

والصحيح ما جاء عن زيد بن ثابت، قال: كنت أكتب لرسول الله ﷺ فقال: "اكتب {لا يستوي القاعدون} [النساء: ٩٥] {والمجاهدون في سبيل الله} [النساء: ٩٥] " فجاء عبد الله ابن أم مكتوم، فقال: يا رسول الله، إني أحب الجهاد في سبيل الله، ولكن بي من الزمانة، وقد ترى، وذهب بصري. قال زيد: فثقلت فخذ رسول الله ﷺ على فخذي، حتى خشيت أن ترضها فقال: "اكتب {لا يستوي القاعدون من المؤمنين غير أولي الضرر والمجاهدون في سبيل الله} [النساء: ٩٥]".

قوله تعالى: {لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ} [الفتح: ١٧]، أي:" ليس على الأعمى منكم -أيها الناس- إثم، ولا على الأعرج إثم، ولا على المريض إثم، في أن يتخلَّفوا عن الجهاد مع المؤمنين؛ لعدم استطاعتهم".

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره: ليس على الأعمى منكم أيها الناس ضيق، ولا على الأعرج ضيق، ولا على المريض ضيق أن يتخلفوا عن الجهاد مع المؤمنين،

=

=

وشهود الحرب معهم إذا هم لقوا عدوّهم، للعلل التي بهم، والأسباب التي تمنعهم من شهودها".

قال البغوي:" يعني: في التخلف عن الجهاد".

قال الزمخشري:" نفى الحرج عن هؤلاء من ذوى العاهات في التخلف عن الغزو".

قال ابن كثير:" ذكر الأعذار في ترك الجهاد، فمنها لازم كالعمى والعرج المستمر، وعارض كالمرض الذي يطرأ أياما ثم يزول، فهو في حال مرضه ملحق بذوي الأعذار اللازمة حتى يبرأ".

عن ابن زيد، قول: " {لَيْسَ عَلَى الأعْمَى حَرَجٌ وَلا عَلَى الأعْرَجِ حَرَجٌ وَلا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ}، قال: في الجهاد في سبيل الله".

عن الضحاك، قوله: " {لَيْسَ عَلَى الأعْمَى حَرَجٌ}،... الآية، يعني في القتال".

عن قتادة: " {لَيْسَ عَلَى الأعْمَى حَرَجٌ وَلا عَلَى الأعْرَجِ حَرَجٌ وَلا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ}، قال: هذا كله في الجهاد".

قال قتادة:" ثُمَّ عذر الله أهل العذر من الناس، فقال: {لَيْسَ عَلَى الأعْمَى حَرَجٌ وَلا عَلَى الأعْرَجِ حَرَجٌ وَلا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَج}".

قال ابن عطية:" لما بالغ ﷻ في عتب هؤلاء المتخلفين من القبائل المجاورة للمدينة لجهينة ومزينة وغفار وأسلم وأشجع، عقب ذلك بأن عذر أهل الأعذار من العرج والعمى والمرض جملة ورفع الحرج عنهم والضيق والمأثم، وهذا حكم هؤلاء المعاذير في كل جهاد إلى يوم القيامة، إلا أن يحزب حازب في حضرة ما، فالفرض متوجه بحسب الوسع، ومع ارتفاع الحرج فجائز لهم الغزو وأجرهم فيه مضاعف، لأن الأعرج أحرى الناس بالصبر وأن لا يفر، وقد غزا ابن أم مكتوم، وكان يمسك الراية في بعض حروب القادسية".

=

=

قوله تعالى: {وَمَنْ يُطِعِ اللهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ} [الفتح: ١٧]، أي:" ومن يطع الله ورسوله يدخله جنات تجري مِن تحت قصورها وأشجارها الأنهار".

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره: ومن يُطع الله ورسوله فيجيب إلى حرب أعداء الله من أهل الشرك، وإلى القتال مع المؤمنين ابتغاء وجه الله إذا دعي إلى ذلك، يُدخله الله يوم القيامة جنَّات تجري من تحتها الأنهار".

قال عطاء بن ابي رباح:" طاعة الله: إتباع كتابه، وطاعة الرسول: اتباع سنته.

عن السدي:" {جنات}، قال: البساتين".

قال مجاهد:" الجنات: حوائط".

عن أبي مالك قوله: " {تجري من تحتهم الأنهار}، يعني: تحت منازلهم وأرضهم".

قال مسروق: "أنهار الجنة تجري في غير أخدود، ثمرها كالقلال، كلما نزعت ثمرة عادت مثلها أخرى، والعنقود اثنا عشر ذراعا".

قوله تعالى: {وَمَنْ يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا} [الفتح: ١٧]، أي:" ومن يعص الله ورسوله، فيتخلَّف عن الجهاد مع المؤمنين، يعذبه عذابًا مؤلمًا موجعًا".

قال الطبري:" يقول: ومن يعص الله ورسوله، فيتخلَّف عن قتال أهل الشرك بالله إذا دعي إليه، ولم يستجب لدعاء الله ورسوله يعذّبه عذابا موجعا، وذلك عذاب جهنم يوم القيامة".

قال ابن كثير:" {وَمَنْ يَتَوَلَّ}، أي: ينكل عن الجهاد، ويقبل على المعاش {يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا} في الدنيا بالمذلة، وفي الآخرة بالنار".

قال أبو العالية:" الأليم: الموجع في القرآن كله"، وروي عن سعيد بن جبير، وأبي مالك، والضحاك، وقتادة، وأبي عمران الجوني، نحو ذلك.

=

لَقَدْ رَضِيَ اللهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا (١٨).

{لَقَدْ رَضِيَ الله عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَك} بِالْحُدَيْبِيَةِ {تَحْت الشَّجَرَة} هِيَ سَمُرَة وَهُمْ أَلْف وثلاثمائة أَوْ أَكْثَر ثُمَّ بَايَعَهُمْ عَلَى أَنْ يُنَاجِزُوا قُرَيْشًا وَأَنْ لَا يَفِرُّوا مِنْ الْمَوْت {فَعَلِمَ} الله {مَا فِي قُلُوبهمْ} مِنْ الصِّدْق وَالْوَفَاء {فَأَنْزَلَ السَّكِينَة عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا} هُوَ فَتْح خَيْبَر بَعْد انْصِرَافهمْ مِنْ الْحُدَيْبِيَة.

وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا وَكَانَ اللهُ عَزِيزًا حَكِيمًا (١٩).

{وَمَغَانِم كَثِيرَة يَأْخُذُونَهَا} مِنْ خَيْبَر {وَكَانَ الله عَزِيزًا حَكِيمًا} أَيْ لَمْ يَزَلْ مُتَّصِفًا بِذَلِكَ[1].

=

قرأ الجمهور من القراء: «يدخله» بالياء. وقرأ ابن عامر ونافع وأبو جعفر والأعرج والحسن وشيبة وقتادة: «ندخله» بالنون، وكذلك «نعذبه» و: «يعذبه».

(١) ذكر سبب النزول.

عن سلمة بن الأكوع رضي الله عنه؛ قال: بعثت قريش خارجة بن كرز يطلع عليهم طليعة، فرجع حامدًا يحسن الثناء، فقالوا له: إنك أعرابي قعقعوا لك السلاح؛ فطار فؤادك؛ فما دريت ما قيل لك وما قلت، ثم أرسلوا عروة بن مسعود فجاءه، فقال: يا محمد! ما هذا الحديث؟ تدعو إلى ذات الله، ثم جئت قومك بأوباش الناس، من تعرف ومن لا تعرف؛ لتقطع أرحامهم، وتستحل حرمتهم ودماءهم وأموالهم، فقال: "إني لم آت قومي إلا لأصل أرحامهم، يبدلهم الله بدين خير من دينهم، ومعائش خير من معائشهم"؛ فرجع حامدًا يحسن الثناء، قال: قال إياس بن سلمة بن الأكوع عن أبيه: فاشتد البلاء على من كان في يد المشركين من المسلمين، قال: فدعا رسول الله ﷺ عمر فقال: "يا عمر! هل أنت مبلغ عني إخوانك من

=

=

أسارى المسلمين؟ "، فقال: بلى يا نبي الله! والله ما لي بمكة من عشيرة، غيري أكثر عشيرة مني، فدعا عثمان؛ فأرسله إليهم، فخرج عثمان على راحلته حتى جاء عسكر المشركين، فعتبوا به وأساؤوا له القول، ثم أجاره أبان بن سعيد بن العاص ابن عمه وحمله على السرج وردفه، فلما قدم؛ قال: يا ابن عم! ما لي أراك متخشعًا أسبل؟ قال: وكان إزاره إلى نصف ساقيه، فقال له عثمان: هكذا إزرة صاحبنا، فلم يدع أحدًا بمكة من أسارى المسلمين إلا أبلغهم ما قال رسول الله ﷺ، قال سلمة: فبينما نحن قائلون؛ نادى منادِ رسول الله ﷺ: أيها الناس! البيعة البيعة، نزل روح القدس، قال: فثرنا إلى رسول الله ﷺ -وهو تحت شجرة سمرة فبايعناه، وذلك قول الله: {لَقَدْ رَضِيَ اللهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ}، قال: فبايع لعثمان إحدى يديه على الأخرى، فقال الناس: هنيئًا لأبي عبد الله! يطوف بالبيت ونحن ههنا، فقال رسول الله ﷺ: "لو مكث كذا وكذا سنة ما طاف حتى أطوف".

أخرجه ابن أبي شيبة في "المصنف" (١٤/ ٤٤٢، ٤٤٣ رقم ١٨٦٩٩)، والطبري في "جامع البيان" (٢٦/ ٥٤)، وابن أبي حاتم في "تفسيره"؛ كما في "تفسير القرآن العظيم" (٤/ ٢٠٥) من طريق عبيد الله بن موسى نا موسى بن عبيدة ثني إياس بن سلمة بن الأكوع عن أبيه به.

وهذا سند ضعيف؛ موسى بن عبيدة الربذي ضعيف.

* قوله تعالى: (لَقَدْ رَضِيَ اللهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ) يخبر تعالى عن رضاه عن المؤمنين الذين بايعوا رسول الله ﷺ تحت الشجرة، وكان عددهم ألف وأربعمائة.

قال المفسرون: كان سبب هذه البيعة أن رسول الله ﷺ لما بلغ الحديبية، أرسل عثمان بن عفان إلى أهل مكة يخبرهم أنه إنما جاء معتمرًا، وأنه لا يريد حربًا، فلما ذهب عثمان حبسوه عندهم، وجاء الخبر إلى رسول الله ﷺ أن عثمان قد قتل،

=

=

فدعا رسول الله ﷺ الناس البيعة على أن يدخلوا مكة حربًا، وبايعوه على الموت، فكانت بيعة الرضوان، فلما بلغ المشركين ذلك أخذهم الرعب، وأطلقوا عثمان، وطلبوا الصلح من رسول الله ﷺ على أن يأتي في العام القابل، ويدخلها ويقيم فيها ثلاثة أيام، وكانت هذه البيعة تحت شجرة سمر بالحديبية، وقد سميت (بيعة الرضوان) وكان عدد الذين بايعوا رسول الله ﷺ ألفًا وأربعمائة رجل.

- في الآية فضل أهل بيعة الرضوان حيث رضي الله عنهم، ففيها شهادة من الله تعالى بأن كل من بايع تحت الشجرة فهو مؤمن مرضي عنه، وممن بايع: أبو بكر وعمر وعثمان وعلي.

ومن فضلهم قوله ﷺ (لا يدخل النار أحد بايع تحت الشجرة) رواه مسلم.

- وفي الآية كفر الرافضة، حيث كفروا أكثر الصحابة الذين أثنى الله عليهم في القرآن، وفي هذا تكذيب للقرآن، ومن كذّب بشيء من القرآن فقد كفر.

قال تعالى (وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ).

وقال تعالى (لَقَدْ تَابَ اللهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ).

مسألة: قال العلامة العثيمين في مجموع فتاواه: قوله: (رضي الله عنهم ورضوا عنه) هذه من آيات الرضى، فالله سبحانه وتعالى موصوف بالرضى، وهو يرضى عن العمل، ويرضى عن العامل. يعني: أن رضى الله متعلق بالعمل وبالعامل أما بالعمل، فمثل قوله تعالى: (وإن تشكروا يرضه لكم) [الزمر: ٧]، أي: يرض الشكر لكم. وكما في قوله تعالى: (ورضيت لكم الإسلام دينًا) [المائدة: ٣]. وكما

=

=

في الحديث الصحيح: "إن الله يرضى لكم ثلاثًا، ويكره لكم ثلاثًا... ") فهذا الرضى متعلق بالعمل. ويتعلق الرضى أيضًا بالعامل، مثل هذه الآية التي ساقها المؤلف: (رضي الله عنهم ورضوا عنه) [المائدة: ١١٩].

فرضى الله صفة ثابتة لله ﷻ، وهي في نفسه، وليست شيئًا منفصلًا عنه: كما يدعيه أهل التعطيل. ولو قال لك قائل: فسر لي الرضى. لم تتمكن من تفسيره، لأن الرضى صفة في الإنسان غريزية، والغرائز لا يمكن لإنسان أن يفسرها بأجلي وأوضح من لفظها فنقول: الرضى صفة في الله ﷻ، وهي صفة حقيقية، متعلقة بمشيئته، فهي من الصفات الفعلية، يرضى عن المؤمنين وعن المتقين وعن المقسطين وعن الشاكرينن ولا يرضى عن القوم الكافرين، ولا يرضى عن القوم الفاسقين، ولا يرضى عن المنافقين، فهو سبحانه وتعالى يرضى عن أناس ولا يرضى عن أناس، ويرضى أعمالًا ويكره أعمالًا.

وقال الشيخ محمد أمان بن علي جامي في الصفات الإلهية في الكتاب والسنة (ص ٢٨٩): الصفة الثامنة: صفة الرضا: هذه الصفة واحدة من صفات الأفعال التي فصلنا فيها القول سابقًا مثل المعية والمحبة وغيرها، وهي ثابتة بالكتاب والسنة وإجماع العلماء الذين يعتد بإجماعهم من الأئمة الأربعة وغيرهم ممن هم في طبقتهم أو بعدهم من الذين ينهجون منهج السلف الصالح.

بل هذه الصفة هي مطلب كل عابد، وغاية كل سالك من طاعتهم وعباداتهم. ومن الأدعية المأثورة التي يدعو بها طلاب الرضا في أرجى الأوقات ومظان إجابة الدعاء "اللهم إنا نسألك رضاك والجنة، ونعوذ بك من سخطك والنار" فالرضى عنهم في دار الكرامة وعدم السخط عليهم بعد الرضى مطلب ليس بعده مطلب.

وقد تضافرت الأدلة من القرآن والسنة بذكر الرضى، أي رضى رب العالمين عن عباده المؤمنين لإيمانهم وطاعتهم وحسن عبادتهم، وإخلاص العبادة له سبحانه

=

=

وعدم الالتفات إلى سواه ﷻ. كما أخبر الله في كتابه عن رضى عباده المؤمنين عن ربهم حين يتفضل عليهم فيدخلهم الجنة ويحل عليهم رضوانه الذي لا يعقبه السخط أبدًا.

فلنذكر بعض تلك النصوص المشار إليها فيما يلي:

١ - {رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ}.

٢ - {رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ}.

٣ - {لَقَدْ رَضِيَ اللهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ}.

٤ - "اللهم إني أعوذ بك برضاك من سخطك، وبمعافاتك من عقوبتك، وأعوذ بك منك".

٥ - " رضى الله في رضى الوالدين، وسخطه في سخطهما".

فإيماننا بهذه النصوص من الكتاب والسنة يجعلنا نجزم بأن السلف يثبتون هذه الصفة كغيرها من صفات ربنا تعالى، لأن النصوص المذكورة لا تتحمل التأويل إلا بنوع من التكلف، وقد نهينا عن التكلف كما نهينا عن القول على الله بغير علم.

وأما الخلف فقد قالوا في هذه الصفة قولهم في جميع صفات الأفعال والصفات الخبرية وهي وجوب تأويلها بدعوى أن الرضا انفعال نفس وتغير من حال إلى حال، فذلك لا يليق بالله تعالى، وإنما المراد لازمه أو إرادة لازمه. ولازمه هو العطاء أو الإنعام، أو الثواب الجزيل، وسبق أن ناقشنا موقفهم هذا في غير موضع في صفة المحبة وصفة الرحمة وغيرهما من صفات الأفعال التي سبق الكلام فيها فلا نرى لزومًا لإعادة ذلك.

قوله تعالى: (فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ) من الصدق والوفاء والسمع والطاعة.

(فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ) وهي الطمأنينة وسكون النفس عند البيعة، شكرًا لهم على ما في قلوبهم، زادهم هدى.

=

=

(وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا) وهو فتح خيبر، وما فيها من النصر والغنائم، زيادة على ثواب الآخرة، لم يحضره سوى أهل الحديبية.

(وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا) أي: وأثابكم مغانم كثيرة وهي غنائم خيبر.

(وَكَانَ اللهُ عَزِيزًا) تقدم.

(حَكِيمًا) في أحكامه وأفعاله (وتقدم الكلام على هذا الاسم ومعناه).

قوله تعالى: {لَقَدْ رَضِيَ اللهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ} [الفتح: ١٨]، أي:" لقد رضي الله عن المؤمنين حين بايعوك -أيها النبي- تحت الشجرة -وهذه هي بيعة الرضوان في «الحديبية»".

قال مقاتل:" يقول: رضي ببيعتهم إياك".

قال الطبري:" حين بايعوه على مناجزة قريش الحرب، وعلى أن لا يفرّوا، ولا يولوهم الدبر تحت الشجرة، وكانت بيعتهم إياه هنالك فيما ذكر تحت شجرة".

قال قتادة:" بايعوا النبي -ﷺ- على أن لا يفروا، وهم يومئذ ألف وأربع مائة، وبايعوه على أن لا يفروا".

عن جابر قال: "كنا أصحاب الحُديبية أربع عشرة مئة".

وقال ابن عباس:" كان أهل البيعة تحت الشجرة ألفا وخمس مئة وخمسة وعشرين".

قال قتادة:" الذين بايعوا رسول الله ﷺ تحت الشجرة، فجعلت لهم مغانم خيبر كانوا يومئذ خمس عشرة مئة، وبايعوا على أن لا يفرّوا عنه".

وقال عبد الله بن أبي أوفى: "كانوا يوم الشجرة ألفا وثلاث مئة، وكانت أسلم يومئذ من المهاجرين".

قوله تعالى: {فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ} [الفتح: ١٨]، أي:" فعلم الله ما في قلوب هؤلاء المؤمنين من الإيمان والصدق والوفاء".

=

=

وفي قوله تعالى: {فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ} [الفتح: ١٨]، وجهان:

أحدهما: من صدق النية والإخلاص، قاله الطبري، والزجاج، والنحاس.

قال الزجاج:" أي: علم أنهم مخلصون".

قال الطبري:" فعلم ربك يا محمد ما في قلوب المؤمنين من أصحابك إذ يبايعونك تحت الشجرة، من صدق النية، والوفاء بما يبايعونك عليه، والصبر معك".

قال الجصاص:" أخبر أنه علم من قلوبهم صحة البصيرة وصدق النية، وأن ما أبطنوه مثل ما أظهروه".

الثاني: من كراهة البيعة على أن يقاتلوا معه على الموت، قاله مقاتل.

قوله تعالى: {فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ} [الفتح: ١٨]، أي:" فأنزل الله الطمأنينة عليهم وثبَّت قلوبهم".

قال الطبري: "يقول: فأنزل الطمأنينة، والثبات على ما هم عليه من دينهم وحُسن بصيرتهم بالحقّ الذي هداهم الله له".

عن قتادة، قوله: " {فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ}، أي: الصبر والوقار".

قوله تعالى: {وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا} [الفتح: ١٨]، أي:" وعوَّضهم عمَّا فاتهم بصلح «الحديبية» فتحًا قريبًا، وهو فتح «خيبر»".

قال الطبري:" يقول: وعوّضهم في العاجل مما رجوا الظفر به من غنائم أهل مكة بقتالهم أهلها فتحا قريبا، وذلك فيما قيل: فتح خيبر".

عن ابن أبي ليلى: " {وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا}، قال: خيبر".

عن قتادة: " {وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا}، وهي خيبر". وفي رواية:" بلغني أنها خيبر".

عن الشعبي:" {وأثابهم فتحا قريبا} قال: فتح خيبر".

قوله تعالى: {وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا} [الفتح: ١٩]، أي:" ومغانم كثيرة

=

وَعَدَكُمُ اللهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَـٰذِهِ وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنْكُمْ وَلِتَكُونَ آيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا (٢٠).

{وَعَدَكُمْ الله مَغَانِم كَثِيرَة تَأْخُذُونَهَا} مِنْ الْفُتُوحَات {فَعَجَّلَ لَكُمْ هَـٰذِهِ} غَنِيمَة خَيْبَر {وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاس عَنْكُمْ} فِي عِيَالكُمْ لَمَّا خَرَجْتُمْ وَهَمَّتْ بِهِمْ

=

تأخذونها من أموال يهود «خيبر»".

قال الطبري: يقول:" وأثاب الله هؤلاء الذين بايعوا رسول الله ﷺ تحت الشجرة، مع ما أكرمهم به من رضاه عنهم، وإنزاله السكينة عليهم، وإثابته إياهم فتحا قريبا، معه مغانم كثيرة يأخذونها من أموال يهود خيبر، فإن الله جعل ذلك خاصة لأهل بيعة الرضوان دون غيرهم".

قوله تعالى: {وَكَانَ اللهُ عَزِيزًا حَكِيمًا} [الفتح: ١٩]، أي:" وكان الله عزيزًا في انتقامه من أعدائه، حكيمًا في تدبير أمور خلقه".

قال الطبري:" يقول: وكان الله ذا عزّة في انتقامه ممن انتقم من أعدائه، حكيما في تدبيره خلقه وتصريفه إياهم فيما شاء من قضائه".

قال مقاتل:" {عزيزا}، يعني: منيعا، {حكيما}، في أمره، فحكم على أهل خيبر القتل والسبي".

قال محمد بن إسحاق: " العزيز: في نصرته ممن كفر به إذا شاء"، الحكيم: في عذره وحجته إلى عباده".

قال أبو العالية:" {عزيز} في نقمته إذا انتقم". وروي عن قتادة والربيع بن أنس نحو ذلك.

عن أبي العالية:" {حكيم}، قال: حكيم في أمره".

قال محمد بن جعفر بن الزبير" الحكيم في عذره، وحجته إلى عباده".

الْيَهُود فَقَذَفَ الله فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْب {وَلِتَكُونَ} أَيْ الْمُعَجَّلَة عَطْف عَلَى مُقَدَّر أَيْ لِتَشْكُرُوهُ {آيَة لِلْمُؤْمِنِينَ} فِي نَصْرهمْ {وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا} أَيْ طَرِيق التَّوَكُّل عَلَيْهِ وَتَفْوِيض الْأَمْر إليه تعالى.

وَأُخْرَى لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللهُ بِهَا وَكَانَ اللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا (٢١).

{وَأُخْرَى} صِفَة مَغَانِم مُقَدَّرًا مُبْتَدَأ {لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا} هِيَ مِنْ فَارِس وَالرُّوم {قَدْ أَحَاطَ الله بِهَا} عَلِمَ أَنَّهَا سَتَكُونُ لَكُمْ {وَكَانَ الله عَلَى كُلّ شَيْء قَدِيرًا} أَيْ لَمْ يَزَلْ مُتَّصِفًا بِذَلِكَ.

وَلَوْ قَاتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوُا الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا (٢٢).

{وَلَوْ قَاتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا} بِالْحُدَيْبِيَةِ {لَوَلَّوُا الْأَدْبَار ثم لا يجدون وليا} يحرسهم {ولا نصيرا}.

سُنَّةَ اللهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَبْدِيلًا (٢٣).

{سُنَّة الله} مَصْدَر مُؤَكِّد لِمَضْمُونِ الْجُمْلَة قَبْله مِنْ هَزِيمَة الْكَافِرِينَ وَنَصْر الْمُؤْمِنِينَ أَيْ سَنَّ الله ذَلِكَ سُنَّة {الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْل وَلَنْ تَجِد لِسُنَّةِ الله تَبْدِيلًا} مِنْهُ.

وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا (٢٤).

{وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيهمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَّة} بِالْحُدَيْبِيَةِ {مِنْ بَعْد أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ} فَإِنَّ ثَمَانِينَ مِنْهُمْ طَافُوا بِعَسْكَرِكُمْ لِيُصِيبُوا مِنْكُمْ فَأُخِذُوا وَأُتِيَ بِهِمْ إِلَى رَسُول الله ﷺ فَعَفَا عَنْهُمْ وَخَلَّى سَبِيلهمْ فَكَانَ ذَلِكَ سَبَب الصُّلْح

{وَكَانَ الله بما يعملون بَصِيرًا} بِالْيَاءِ وَالتَّاء أَيْ لَمْ يَزَلْ مُتَّصِفًا بذلك[1].

---

(١) ذكر سبب النزول.

عن أنس رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: أن ثمانين رجلًا من أهل مكة هبطوا على رسول الله ﷺ من جبل التنعيم متسلحين، يريدون غرة النبي ﷺ وأصحابه، فأخذهم سلمًا فاستحياهم؛ فأنزل الله عَزَّ وَجَلَّ: {وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكَانَ الله بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا (٢٤)}.

أخرجه مسلم في "صحيحه" (رقم ١٨٠٨/ ١٣٣) وغيره.

وعن المسور بن مخرمة ومروان بن الحكم يصدق -كل واحد منهما حديث صاحبه-؛ قالا: خرج رسول الله ﷺ زمن الحديبية، حتى إذا كانوا ببعض الطريق؛ قال النبي ﷺ: "إن خالد بن الوليد بالغميم في خيل لقريش طليعة، فخذوا ذات اليمين"، فوالله ما شعر بهم خالد حتى إذا هم بقترة الجيش، فانطلق يركض نذيرًا لقريش، وسار النبي ﷺ، حتى إذا كان بالثنية التي يهبط عليهم منها؛ بركت به راحلته، فقال الناس: حل حل. فألحت. فقالوا: خلأت القصواء، فقال النبي ﷺ: "ما خلأت القصواء، وما ذاك لها بخلق، ولكن حبسها حابس الفيل"، ثم قال: "والذي نفسي بيده؛ لا يسألونني خطة يعظمون فيها حرمات الله إلا أعطيتهم إياها"، ثم زجرها فوثبت، قال: فعدل عنهم حتى نزل بأقصى الحديبية على ثمد قليل الماء يتبرضه الناس تبرضًا، فلم يلبثه الناس حتى نزحوه، وشُكِيَ إلى رسول الله ﷺ العطش، فانتزع سهمًا من كنانته، ثم أمرهم أن يجعلوه فيه، فوالله ما زال يجيش لهم بالري حتى صدروا عنه، فبينما هم كذلك؛ إذ جاء بديل بن ورقاء الخزاعي في نفر من قومه من خزاعة -وكانوا عيبة نصح رسول الله ﷺ من أهل تهامة- فقال: إني تركت كعب بن لؤي وعامر بن لؤي نزلوا أعداد مياه الحديبية، ومعهم العوذ المطافيل، وهم مقاتلوك وصادوك عن البيت، فقال رسول الله ﷺ:
=

=

"إنا لم نجئ لقتال أحد؛ ولكنا جئنا معتمرين، وإن قريشًا قد نهكتهم الحرب وأضرت بهم؛ فإن شاءوا ماددتهم مدة ويخلوا بيني وبين الناس، فإن أظهر؛ فإن شاءوا أن يدخلوا فيما دخل فيه الناس فعلوا، وإلا؛ فقد جموا، وإن هم أبوا؛ فوالذي نفسي بيده، لأقاتلنهم على أمري هذا حتى تنفرد سالفتي، ولينفذن الله أمره"، فقال بديل: سأبلّغهم ما تقول، قال: فانطلق حتى أتى قريشًا، قال: إنّا جئناكم من عند هذا الرجل، وسمعناه يقول قولًا، فإن شئتم أن نعرضه عليكم؛ فعلنا، فقال سفهاؤهم: لا حاجة لنا أن تخبرونا عنه بشيء، وقال ذوو الرأي منهم: هات ما سمعته يقول، قال: سمعته يقول كذا وكذا، فحدثهم بما قال النبي ﷺ، فقام عروة بن مسعود فقال: أي قوم! ألستم بالوالد؟ قالوا: بلى، قال: أوَلست بالولد؟ قالوا: بلى، قال: فهل تتهموني؟ قالوا: لا، قال: ألستم تعلمون أني استنفرت أهل عكاظ، فلما بلحوا عليّ؛ جئتكم بأهلي وولدي ومن أطاعني؟ قالوا: بلى، قال: فإن هذا قد عرض عليكم خطبة رشد اقبلوها ودعوني آتِهِ، قالوا: ائته، فأتاه، فجعل يكلم النبي ﷺ، فقال النبي ﷺ نحوًا من قوله لبديل.

فقال عروة عند ذلك: أي محمد! أرأيت إن استأصلت أمر قومك، هل سمعت بأحد من العرب اجتاح أهله قبلك؟ وإن تكن الأخرى؛ فإني والله لا أرى وجوهًا، وإني لأرى أشوابًا من الناس خليقًا أن يفروا ويدعوك، فقال أبو بكر: امصص بظر اللات، أنحن نفِرّ عنه وندعه؟ فقال: من ذا؟ قالوا: أبو بكر، قال: أما والذي نفسي بيده؛ لولا يد كانت لك عندي لم أجزك بها لأجبتك، قال: وجعل يكلم النبي ﷺ، فكلما تكلم كلمة؛ أخذ بلحيته، والمغيرة بن شعبة قائم على رأس النبي ﷺ ومعه السيف وعليه المغفر، فكلما أهوى عروة بيده إلى لحية النبي ﷺ؛ ضرب يده بنعل السيف، وقال له: أخّر يدك عن لحية رسول الله ﷺ، فرفع عروة رأسه؛ فقال: من هذا؟ قال: المغيرة بن شعبة، فقال: أي غُدر! ألستُ أسعى في غدرتك؟ وكان

=

المغيرة صحب قومًا في الجاهلية فقتلهم وأخذ أموالهم، ثم جاء فأسلم، فقال النبي ﷺ: "أمّا الإسلام؛ فأقبل، وأما المال؛ فلست منه في شيء"، ثم إن عروة جعل يرمق أصحاب النبي ﷺ بعينيه.

قال: فوالله ما تنخم رسول الله ﷺ نخامة إلا وقعت في كف رجل منهم؛ فدلك بها وجهه وجلده، وإذا أمرهم؛ ابتدروا أمره، وإذا توضأ؛ كادوا يقتتلون على وضوئه، وإذا تكلموا؛ خفضوا أصواتهم عنده، وما يُحدون إليه النظر تعظيمًا له، فرجع عروة إلى أصحابه فقال: أي قوم! والله؛ لقد وفدت على الملوك، ووفدت على قيصر وكسرى والنجاشي، والله؛ إن رأيت مليكًا قط يعظمه أصحابه ما يعظم أصحاب محمد محمدًا، والله إن يتنخم نخامة إلا وقعت في كف رجل منهم فدلك بها وجهه وجلده، وإذا أمرهم ابتدروا أمره، وإذا توضأ كادوا يقتتلون على وضوئه، وإذا تكلموا خفضوا أصواتهم عنده، وما يحدون إليه النظر تعظيمًا له، وإنه قد عَرَضَ عليكم خطبة رشد فاقبلوها، فقال رجل من بني كنانة: دعوني آتيه، فقالوا: ائته، فلما أشرف على النبي ﷺ وأصحابه؛ قال رسول الله ﷺ: "هذا فلان! وهو من قوم يعظمون البُدن؛ فابعثوها له"؛ فبعثت له، واستقبله الناس يلبون، فلما رأى ذلك؛ قال: سبحان الله، ما ينبغي لهؤلاء أن يُصدوا عن البيت، فلما رجع إلى أصحابه؛ قال: رأيت البُدن قد قُلدت وأُشعرت، فما أَرى أن يُصدوا عن البيت، فقام رجل منهم يقال له: مِكرَزُ بن حفص فقال: دعوني آته؛ فقالوا: ائته، فلما أشرف عليهم؛ قال النبي ﷺ: "هذا مِكْرَزٌ، وهو رجل فاجر"، فجعل يكلم النبي ﷺ، فبينما هو يكلمه؛ إذ جاء سهيل بن عمرو.

قال معمر: فأخبرني أيوب عن عكرمة أنه لما جاء سهيل بن عمرو قال النبي ﷺ: "قد سهل لكم من أمركم"، قال معمر: قال الزهري في حديثه: فجاء سهيل بن عمرو فقال: هاتِ اكتب بيننا وبينكم كتابًا، فدعا النبي ﷺ الكاتب، فقال النبي

=

ﷺ: "بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ"، فقال سهيل: أما الرحمن؛ فوالله ما أدري ما هي، ولكن اكتب: باسمك اللهم، كما كنت تكتب، فقال المسلمون: والله لا نكتبها إلا بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، فقال النبي ﷺ: "اكتب: باسمك اللهم"، ثم قال: "هذا ما قاضى عليه محمد رسول الله"؛ فقال سهيل: والله لو كنا نعلم أنك رسول الله! ما صددناك عن البيت ولا قاتلناك، ولكن اكتب: محمد بن عبد الله، فقال النبي ﷺ: "والله إني لرسول الله وإن كذبتموني، اكتب: محمد بن عبد الله"، قال الزهري: وذلك بقوله: "لا يسألونني خطبة يعظمون فيها حرمات الله إلا أعطيتهم إياها"، فقال له النبي ﷺ: "على أن تخلوا بيننا وبين البيت فنطوف به"، فقال سهيل: والله لا تتحدث العرب أنا أُخذنا ضغطة، ولكن ذلك من العام المقبل، فكتب، فقال سهيل: وعلى أنه لا يأتيك منا رجل -وإن كان على دينك- إلا رددته إلينا، قال المسلمون: سبحان الله! كيف يرد إلى المشركين وقد جاء مسلمًا؟ فبينما هم كذلك؛ إذ دخل أبو جندل بن سهيل بن عمرو يَرْسُفُ في قيوده، وقد خرج من أسفل مكة حتى رمى بنفسه بين أظهر المسلمين، فقال سهيل: هذا يا محمد! أول من أقاضيك عليه أن ترده إلي، فقال النبي ﷺ: "إنا لم نقض الكتاب بعد"، قال: فوالله إذًا لم أصالحك على شيء أبدًا، قال النبي ﷺ: "فأجزه لي"، قال: ما أنا بمجيزه لك، قال: "بلى فافعل"، قال: ما أنا بفاعل، قال مكرز: بل قد أجزناه لك، قال أبو جندل: أي معشر المسلمين! أُرد إلى المشركين وقد جئت مسلمًا؟ ألا ترون ما قد لقيت؟ وكان قد عذب عذابًا شديدًا في الله، قال: فقال عمر بن الخطاب: فأتيت نبي الله ﷺ، فقلت: ألست نبي الله حقًا؟ قال: "بلى"، قلت: ألسنا على الحق وعدونا على الباطل؟ قال: "بلى"، قلت: فلم نعطي الدنية في ديننا إذًا؟ قال: "إني رسول الله ولست أعصيه، وهو ناصري"، قلت: أوَليس كنت تحدثنا أنا سنأتي البيت فنطوف به؟ قال: "بلى، فأخبرتك أنا نأتيه العام؟ "، قال:

=

=

قلت: لا، قال: "فإنك آتيه ومطوف به"، قال: فأتيت أبا بكر، فقلت: يا أبا بكر! أليس هذا نبي الله حقًا؟ قال: بلى، قلت: ألسنا على الحق وعدونا على الباطل؟ قال: بلى، قلت: فلم نعطي الدنية في ديننا إذًا؟ قال: أيها الرجل! إنه لرسول الله ﷺ، وليس يعصي ربه، وهو ناصره، فاستمسك بغرزه؛ فوالله إنه على الحق، قلت: أليس كان يحدثنا أنّا سنأتي البيت ونطوف به؟ قال: بلى، أفأخبرك أنك تأتيه العام؟ قلت: لا، قال: فإنك آتيه ومطوف به.

قال الزهري: قال عمر: فعملت لذلك أعمالًا، قال: فلما فرغ من قضية الكتاب؛ قال رسول الله ﷺ لأصحابه: "قوموا فانحروا ثم احلقوا"، قال: فوالله ما قام منهم رجل، حتى قال ذلك ثلاث مرات، فلما لم يقم منهم أحد؛ دخل على أم سلمة فذكر لها ما لقي من الناس، فقالت أم سلمة: يا نبي الله! أتحب ذلك؟ اخرج، ثم لا تكلم أحدًا منهم كلمة حتى تنحر بدنك، وتدعو حالقك فيحلقك، فخرج فلم يكلم أحدًا منهم حتى فعل ذلك: نحو بدنه، ودعا حالقه فحلقه، فلما رأوا ذلك؛ قاموا فنحروا، وجعل بعضهم يحلق بعضًا، حتى كاد بعضهم يقتل بعضًا غمًا، ثم جاءه نسوة مؤمنات؛ فأنزل الله -تعالى-: {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ} -حتى بلغ- {بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ} [الممتحنة: ١٠]؛ فطلق عمر يومئذ امرأتين كانتا له في الشرك، فتزوج إحداهما معاوية بن أبي سفيان والأخرى صفوان بن أمية، ثم رجع النبي ﷺ إلى المدينة، فجاءه أبو بصير رجل من قريش وهو مسلم، فأرسلوا في طلبه رجلين فقالوا: العهد الذي جعلت لنا، فدفعه إلى الرجلين، فخرجا به حتى بلغا ذا الحليفة، فنزلوا يأكلون من تمر لهم، فقال أبو بصير لأحد الرجلين: والله إني لأرى سيفك هذا يا فلان جيدًا، فاستلّه الآخر فقال: أجل، والله إنه لجيد، لقد جربت به ثم جربت به ثم جربت به، فقال أبو بصير: أرني أنظر إليه، فأمكنه منه، فضربه حتى برد، وفر الآخر حتى أتى

=

=

المدينة، فدخل المسجد يعدو، فقال رسول الله ﷺ حين رآه: "لقد رأى هذا ذعرًا"، فلما انتهى إلى النبي ﷺ؛ قال: قتل والله صاحبي وإني لمقتول، فجاء أبو بصير، فقال: يا نبي الله! قد والله أوفى الله ذمتك قد رددتني إليهم، ثم أنجاني الله منهم.

قال النبي ﷺ: "ويل أمه! مسعر حرب لو كان له أحد"، فلما سمع ذلك؛ عرف أنه سيرده إليهم؛ فخرج حتى أتى سيف البحر، قال: وينفلت منهم أبو جندل بن سهيل فلحق بأبي بصير، فجعل لا يخرج من قريش رجل قد أسلم إلا لحق بأبي بصير، حتى اجتمعت منهم عصابة، فوالله ما يسمعون بعير خرجت لقريش إلى الشام إلا اعترضوا لها، فقتلوهم وأخذوا أموالهم، فأرسلت قريش إلى النبي ﷺ تناشده الله والرحم: لما أرسل فمن أتاه؛ فهو آمن، فأرسل النبي ﷺ إليهم؛ فأنزل الله -تعالى-: {وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ} حتى بلغ {الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ} وكانت حميتهم أنهم لم يقروا أنه نبي الله، ولم يقروا بِبِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، وحالوا بينهم وبين البيت.

أخرجه البخاري في "صحيحه" (رقم ٢٧٣١، ٢٧٣٢) وغيره عنهما به.

وعن سلمة بن الأكوع؛ قال: قدمنا الحديبية مع رسول الله ﷺ ونحن أربع عشرة مائة، وعليها خمسون شاة لا ترويها، قال: فقعد رسول الله ﷺ على جبا الركية؛ فإما دعا، وإما بصق فيها، قال: فجاشت؛ فسقينا واستقينا، قال: ثم إن رسول الله ﷺ دعانا للبيعة في أصل الشجرة، قال: فبايعته أول الناس، ثم بايع وبايع، حتى إذا كان في وسط من الناس؛ قال: "بايع يا سلمة! "، قال: قلت: قد بايعتك يا رسول الله! في أول الناس، قال: "وأيضًا"، قال: ورآني رسول الله ﷺ عزلًا؛ (يعني: ليس معه سلاح)، قال: فأعطاني رسول الله ﷺ حجفة أو درقة ثم بايع، حتى إذا كان في آخر الناس؛ قال: "ألا تبايعني يا سلمة؟!".

=

=

قال: قلت: قد بايعتك يا رسول الله! في أول الناس، وفي أوسط الناس، قال: "وأيضًا"، قال: فبايعته الثالثة، ثم قال لي: "يا سلمة! أين حجفتك أو درقتك التي أعطيتك؟ "، قال: قلت: يا رسول الله! لقيني عمي عامر عزلًا، فأعطيته إياها، قال: فضحك رسول الله ﷺ، وقال: "إنك كالذي قال الأول: اللهم أبغني حبيبًا هو أحب إليّ من نفسي".

ثم إن المشركين راسلونا الصلح حتى مشى بعضنا في بعض واصطلحنا، قال: وكنت تبيعًا لطلحة بن عبيد الله: أسقى فرسه، وأحسه، وأخدمه، وآكل من طعامه، وتركت أهلي ومالي مهاجرًا إلى الله ورسوله ﷺ، قال: فلما اصطلحنا نحن وأهل مكة، واختلط بعضنا ببعض؛ أتيت شجرة فكسحت شوكها، فاضطجعت في أصلها، قال: فأتاني أربعة من المشركين من أهل مكة فجعلوا يقعون في رسول الله ﷺ؛ فأبغضتهم؛ فتحولت إلى شجرة أخرى، وعلقوا سلاحهم واضطجعوا، فبينما هم كذلك؛ إذ نادى مناد من أسفل الوادي: يا للمهاجرين! قتل ابن زنيم، قال: فاخترطت سيفي، ثم شددت على أولئك الأربعة وهم رقود، فأخذت سلاحهم، فجعلته ضغثًا في يدي، قال: ثم قلت: والذي كرم وجه محمد! لا يرفع أحد منكم رأسه إلا ضربت الذي فيه عيناه، قال: ثم جئت بهم أسوقهم إلى رسول الله ﷺ، قال: وجاء عمي عامر برجل من العبلات يقال له: مكرز يقوده إلى رسول الله ﷺ على فرس مجفف في سبعين من المشركين، فنظر إليهم رسول الله ﷺ؛ فقال: "دعوهم يكن لهم بدء الفجور وثناه"، فعفا عنهم رسول الله ﷺ، وأنزل الله: {وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا (٢٤)}، قال: ثم خرجنا راجعين إلى المدينة فنزلنا منزلًا، بيننا وبين بني لحيان جبل، وهم المشركون، فاستغفر رسول الله ﷺ لمن رقى هذا الجبل الليلة، كأنه طليعة النبي ﷺ وأصحابه.

=

=

قال سلمة: فرقيت تلك الليلة مرتين أو ثلاثًا، ثم قدمنا المدينة، فبعث رسول الله ﷺ بظهره مع رباح غلام رسول الله ﷺ وأنا معه، وخرجت معه بفرس طلحة، أنديه مع الظهر، فلما أصبحنا؛ إذا عبد الرحمن الفزاري قد أغار على ظهر رسول الله ﷺ؛ فاستاقه أجمع، وقتل راعيه، قال: فقلت: يا رباح! خذ هذا الفرس فأبلغه طلحة بن عبيد الله، وأخبر رسول الله ﷺ أن المشركين قد أغاروا على سرحه، قال: ثم قمت على أكمة فاستقبلت المدينة؛ فناديت ثلاثًا: يا صباحاه! ثم خرجت في آثار القوم أرميهم بالنبل، وأرتجز أقول:

أنا ابن الأكوع ... واليوم يوم الرضع

فألحق رجلًا منهم، فأصك سهمًا في رحله، حتى خلص نَصْلُ السهم إلى كتفه، قال: قلت: خذها.

وأنا ابن الأكوع ... واليوم يوم الرضع

قال: فوالله! ما زلت أرميهم وأعقر بهم، فإذا رجع إليّ فارس أتيت شجرة فجلست في أصلها، ثم رميته، فعقرت به، حتى إذا تضايق الجبل فدخلوا في تضايقه، علوت الجبل، فجعلت أرديهم بالحجارة، قال: فما زلت كذلك أتبعهم حتى ما خلق الله من بعير من ظهر رسول الله ﷺ إلا خلفته وراء ظهري، وخلوا بيني وبينه، ثم اتبعتهم أرميهم، حتى ألقوا أكثر من ثلاثين بردة وثلاثين رمحًا يستخفون ولا يطرحون شيئًا إلا جعلت عليه آرامًا من الحجارة يعرفها رسول الله ﷺ وأصحابه، حتى أتوا متضايقًا من ثنية فإذا اهم قد أتاهم فلان بن بدر الفزاري فجلسوا يتضحّون؛ (يعني: يتغدون)، وجلست على رأس قرن.

قال الفزاري: ما هذا الذي أرى؟ قالوا: لقينا من هذا البرح، والله! ما فارقنا منذ غلس، يرمينا حتى انتزع كل شيء في أيدينا، قال: فليقم إليه نفر منكم أربعة، قال: فصعد إليّ منهم أربعة في الجبل، قال: فلما أمكنوني من الكلام؛ قال: قلت: هل

=

=

تعرفوني؟ قالوا: لا، ومن أنت؟ قال: قلت: أنا سلمة بن الأكوع، والذي كرّم وجه محمد ﷺ لا أطلب رجلًا منكم إلا أدركته، ولا يطلبني رجل منكم فيدركني، قال أحدهم: أنا أظن، قال: فرجعوا فما برحت مكاني حتى رأيت فوارس رسول الله ﷺ يتخللون الشجر، قال: فإذا أولهم الأخرم الأسدي على إثره أبو قتادة الأنصاري وعلى إثره المقداد بن الأسود الكندي، قال: فأخذت بعنان الأخرم، قال: فولوا مدبرين، قلت: يا أخرم! احذرهم، لا يقتطعوهم حتى يلحق رسول الله ﷺ وأصحابه، قال: يا سلمة! إن كنت تؤمن بالله واليوم الآخر، وتعلم أن الجنة حق والنار حق؛ فلا تحل بيني وبين الشهادة، قال: فخليته، فالتقى هو وعبد الرحمن، قال: فعقر بعبد الرحمن فرسه، وطعنه عبد الرحمن فقتله، وتحول على فرسه.

ولحق أبو قتادة فارس رسول الله ﷺ بعبد الرحمن؛ فطعنه، فقتله، فوالذي كرّم وجه محمد ﷺ لتبعتهم أعدو على رجلي حتى ما أرى ورائي من أصحاب محمد ﷺ ولا غبارهم شيئًا، حتى يعدلوا قبل غروب الشمس إلى شعب فيه ماء، يقال له: ذا قرد؛ ليشربوا منه وهم عطاش، قال: فنظروا إليّ أعدو وراءهم فحليتهم عنه؛ (يعني: أجليتهم عنه) فما ذاقوا منه قطرة، قال: ويخرجون فيشتدون في ثنية، قال: فأعدو فألحق رجلًا منهم، فأصكه بسهم في نُغض كتفه، قال: قلت: خذها وأنا ابن الأكوع واليوم يوم الرضع، قال: يا ثكلته أمه! أكوعه بُكرة، قال: قلت: نعم، يا عدو نفسه! أكوعك بكرة، قال: وأردوا فرسين على ثنية، قال: جئت بهما أسوقهما إلى رسول الله ﷺ، قال: ولحقني عامر بسطيحة فيها مذقة من لبن وسطيحة فيها ماء، فتوضأت وشربت، ثم أتيت رسول الله ﷺ وهو على الماء الذي حلأتهم عنه، فإذا رسول الله ﷺ قد أخذ تلك الإبل، وكل شيء استنقذته من المشركين وكل رمح وبردة، وإذا بلال نحر ناقة من الإبل الذي استنقذت من القوم، وإذا هو يشوي

=

=

لرسول الله ﷺ من كبدها وسنامها.

قال: قلت: يا رسول الله! خلني فأنتخب من القوم مائة رجل؛ فأتبع القوم؛ فلا يبقى منهم مخبر إلا قتلته، قال: فضحك رسول الله ﷺ حتى بدت نواجذه في ضوء النار، فقال: "يا سلمة! أتراك كنت فاعلًا؟ "، قلت: نعم، والذي أكرمك! فقال: "إنهم الآن لَيُقْرَوْنَ في أرض غطفان"، قال: فجاء رجل من غطفان فقال: نحر لهم فلان جزورًا، فلما كشفوا جلدها؛ رأوا غبارًا، فقالوا: أتاكم القوم فخرجوا هاربين، فلما أصبحنا؛ قال رسول الله ﷺ: "كان خير فرساننا اليوم أبو قتادة، وخير رجّالتنا سلمة"، قال: ثم أعطاني رسول الله ﷺ سهمين: سهم الفارس وسهم الراجل فجمعها لي جميعًا، ثم أردفني رسول الله ﷺ وراءه على العضباء راجعين إلى المدينة، قال: فبينما نحن نسير؛ قال: وكان رجل من الأنصار لا يسبق شدًا، قال: فجعل يقول: ألا مسابق إلى المدينة؟ هل من مسابق؟ فجعل يعيد ذلك، قال: فلما سمعت كلامه؛ قلت: أما تكرم كريمًا، ولا تهاب شريفًا؟ قال: لا؛ إلا أن يكون رسول الله ﷺ، قال: قلت: يا رسول الله! بأبي وأمي! ذرني فلأسابق الرجل، قال: "إن شئت"، قال: قلت: اذهب إليك، وثنيت رجلي فطفرت فعدوت، قال: فربطت عليه شرفًا أو شرفين أستبقي نفسي، ثم عدوت في إثره، فربطت عليه شرفًا أو شرفين، ثم إني رفعت حتى ألحقه، قال: فأصكه بين كتفيه، قال: قلت: قد سبقت والله! قال: أنا أظن، قال: فسبقته إلى المدينة، قال: فوالله! ما لبثنا إلا ثلاث ليال حتى خرجنا إلى خيبر مع رسول الله ﷺ، قال: فجعل عمّي عامر يرتجز القوم:

تالله! لولا الله ما اهتدينا ... ولا تصدقنا ولا صلينا

ونحن عن فضلك ما استغنينا ... فثبت الأقدام إن لاقينا

وأنزلن سكينة علينا

=

=

فقال رسول الله ﷺ: "من هذا؟ "، قال: أنا عامر، قال: "غفر لك ربك"، قال: وما استغفر رسول الله ﷺ لإنسان يخصه إلا استشهد، قال: فنادى عمر بن الخطاب، وهو على جمل له: يا نبي الله! لولا ما متعتنا بعامر، قال: فلما قدمنا خيبر؛ قال: خرج ملكهم مرحب يخطر بسيفه ويقول:

قد علمت خيبر أني مرحب ... شاكي السلاح بطل مجرب

إذا الحروب أقبلت تلهب

قال: وبرز له عمي عامر، فقال:

قد علمت خيبر أني عامر ... شاكي السلاح بطل مغامر

قال: فاختلفا ضربتين، فوقع سيف مرحب في ترس عامر، وذهب عامر يسفل له؛ فرجع سيفه على نفسه؛ فقطع أكحله، فكانت فيها نفسه.

قال سلمة: فخرجت؛ فإذا نفر من أصحاب النبي ﷺ يقولون: بطل عَمَلُ عامر؛ قتل نفسه، قال: فأتيت النبي ﷺ وأنا أبكي، فقلت: يا رسول الله! بطل عمل عامر؟ قال رسول الله ﷺ: "من قال ذلك؟ "، قال: قلت: ناس من أصحابك، قال: "كذب من قال ذلك، بل له أجره مرتين"، ثم أرسلني إلى علي وهو أرمد، فقال: "لأعطين الراية رجلًا يحب الله ورسوله، أو يحبه الله ورسوله"، قال: فأتيت عليًا فجئت به أقوده وهو أرمد، حتى أتيت به رسول الله ﷺ، فبصق في عينيه؛ فبرأ، وأعطاه الراية، وخرج مرحب فقال:

قد علمت خيبر أني مرحب ... شاكي السلاح بطل مجرب

إذا الحروب أقبلت تلهب

فقال علي:

أنا الذي سمتني أمي حيدره ... كلَيْثِ غابات كريه المنظره

أوفيهم بالصاع قيل السندره

=

=

قال: فضرب رأس مرحب؛ فقتله، ثم كان الفتح على يديه.
أخرجه مسلم في "صحيحه" (رقم ١٨٠٧).
وعن عبد الله بن مغفل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ قال: كنا مع رسول الله ﷺ بالحديبية في أصل الشجرة التي قال الله تعالى في القرآن، وكأني بغصن من أغصان تلك الشجرة على ظهر رسول الله ﷺ فرفعته في ظهره، وعلي بن أبي طالب وسهيل بن عمرو بين يديه، فقال رسول الله ﷺ لعلي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: "اكتب: باسم الله الرحمن الرحيم"؛ فأخذ سهيل يده، فقال: ما نعرف الرحمن الرحيم، اكتب في قضيتنا ما نعرف؛ فقال: "اكتب: باسمك اللهم، هذا ما صالح عليه محمد رسول الله ﷺ أهل مكة"، فأمسك بيده، فقال: لقد ظلمناك إن كنت رسولًا، اكتب في قضيتنا ما نعرف، فقال: "اكتب: هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله بن عبد المطلب، وأنا رسول الله"، قال: فكتب، فبينما نحن كذلك؛ إذ خرج علينا ثلاثون شابًا عليهم السلاح، فثاروا في وجوهنا، فدعا عليهم النبي ﷺ؛ فأخذ الله بأبصارهم؛ فقمنا إليهم، فأخذناهم، فقال لهم رسول الله ﷺ: "هل جئتم في عهد أحد، أو هل جعل لكم أحد أمانًا"، فقالوا: لا، فخلى سبيلهم؛ فأنزل الله عَزَّ وَجَلَّ: {وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ} إلى {بَصِيرًا}.
أخرجه أحمد في "المسند" (٤/ ٨٦، ٨٧)، والنسائي في "تفسيره" (٢/ ٣١٢، ٣١٤ رقم ٥٣١)، والطبري في "جامع البيان" (٢٦/ ٥٨، ٥٩)، والآجري في "الشريعة" (٢/ ٢٨١ رقم ١٠٦٠)، والحاكم في "المستدرك" (٢/ ٤٦٠، ٤٦١)، والبيهقي في "السنن الكبرى" (٦/ ٣١٩)، والواحدي في "الوسيط" (٤/ ١٤٢) من طريق حسين بن واقد عن ثابت البناني ثني عبد الله بن مغفل المزني به. وهذا سند حسن.
قال الحاكم: "هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه"، ووافقه
=

=

الذهبي.

قلنا: لم يخرج البخاري للحسين بن واقد.

وقال الهيثمي في "مجمع الزوائد" (٦/ ١٤٥): "رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح".

وقال الحافظ ابن حجر في "فتح الباري" (٥/ ٣٥١): "وأخرجه أحمد والنسائي من حديث عبد الله بن مغفل بسند صحيح".

وذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٧/ ٥٣٢) وزاد نسبته لأبي نعيم في "الدلائل" وابن مردويه.

وانظر ما قاله الحافظ في الجمع بين هذه الأحاديث في "الفتح" (٥/ ٣٥١).

وعن ابن أبزى؛ قال: لما خرج النبي ﷺ وبالهدي وانتهى إلى ذي الحليفة؛ قال له عمر: يا نبي الله! تدخل على قوم لك حرب بغير سلاح ولا كراع، قال: فبعث إلى المدينة فلم يدع بها كراعًا ولا سلاحًا إلا حمله، فلما دنا من مكة؛ منعوه أن يدخل، فسار حتى أتى منى، فنزل بمنى؛ فأتاه عينه: أن عكرمة بن أبي جهل قد خرج علينا في خمسمائة، فقال لخالد بن الوليد: "يا خالد! هذا ابن عمك قد أتاك في الخيل"، فقال خالد: أنا سيف الله وسيف رسوله؛ فيومئذ سُمّي سيف الله، يا رسول الله! ارم بي حيث شئت، فبعثه على خيل؛ فلقي عكرمة في الشعب، فهزمه حتى أدخله حيطان مكة، ثم عاد في الثانية فهزمه حتى أدخله حيطان مكة، ثم عاد في الثالثة حتى أدخله حيطان مكة؛ فأنزل الله: {وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ} إلى قوله: {عَذَابًا أَلِيمًا}، قال: فكف الله النبيّ عنهم من بعد أن أظفره عليهم لبقايا من المسلمين كانوا بقوا فيها من بعد أن أظفره عليهم؛ كراهية أن تطأهم الخيل بغير علم، وقوله: {وَكَانَ اللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا}، يقول -تعالى ذكره-: وكان الله بأعمالكم وأعمالهم بصير لا يخفى عليه منها شيء.

=

=

أخرجه الطبري في "جامع البيان" (٢٦/ ٥٩، ٦٠): ثنا ابن حميد قال: ثنا يعقوب القمي عن جعفر بن أبي المغيرة عن ابن أبزى. وسنده ضعيف جدًا؛ لضعف ابن حميد، وإرساله.

وقال الحافظ ابن كثير في "تفسير القرآن العظيم" (٤/ ٢٠٧): "وهذا السياق فيه نظر...".

وقال الحافظ ابن حجر في "الكاف الشاف" (ص ١٥٣): "والحديث في صحته نظر".

وعن قتادة؛ قوله: {وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ} الآية؛ قال: بطن مكة: الحديبية، ذكر لنا: أن رجلًا من أصحاب رسول الله ﷺ يقال له: زنيم، اطلع الثنية من الحديبية، فرماه المشركون بسهم؛ فقتلوه؛ فبعث رسول الله ﷺ خيلًا، فأتوه باثني عشر فارسًا من الكفار، فقال لهم نبي الله ﷺ: "هل لكم عليّ عهد، هل لكم عليّ ذمة؟ "، قالوا: لا؛ فأرسلهم؛ فأنزل الله في ذلك القرآن: {وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ} إلى قوله: {بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا}.

أخرجه الطبري في "جامع البيان" (٢٦/ ٥٩): ثنا بشر بن معاذ العقدي ثنا يزيد بن زريع ثنا سعيد بن أبي عروبة عن قتادة به. وهذا مرسل صحيح الإسناد.

وعن عكرمة؛ قال: إن قريشًا بعثوا أربعين رجلًا منهم أو خمسين، وأمروهم أن يطيفوا بعسكر رسول الله ﷺ؛ ليصيبوا من أصحابه أحدًا، فأخذوا أخذًا؛ فأتي بهم رسول الله ﷺ؛ فعفا عنهم وخلى سبيلهم، وقد كانوا رموا إلى عسكر رسول الله ﷺ بالحجارة والنبل.

ذكره الحافظ ابن كثير في "تفسير القرآن العظيم" (٤/ ٢٠٧)، وقال: "وقال ابن إسحاق: حدثني من لا أتهم عن عكرمة مولى ابن عباس قال: (فذكره)". وهذا سند ضعيف؛ فيه علتان:

=

=

الأولى: الإرسال.

الثانية: جهالة شيخ ابن إسحاق.

* قوله تعالى: (وَعَدَكُمُ اللهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا) أي: وعدكم الله معشر المؤمنين - على جهادكم وصبركم - الفتوحات الكثيرة، والغنائم الوفيرة تأخذونها من أعدائكم.

قال مجاهد: هي جميع المغانم إلى يوم القيامة.

(فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ) أي: غنيمة خيبر، أي: فلا تحسبوها وحدها، بل ثَمَّ شيء كثير من الغنائم سيتبعها.

(وَ) واحمدوا الله إذ:

(كَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنْكُمْ) أي: لم ينلكم سوء مما كان أعداؤكم أضمروه لكم من المحاربة والقتال.

قيل: كف أيدي قريش عنكم يوم الحديبية بالصلح، وقيل: كف أهل خيبر وأنصارهم عن قتالكم وقذف في قلوبهم الرعب، وقيل: كف أيدي اليهود عن المدينة بعد خروج النبي ﷺ إلى الحديبية وخيبر، ورجح هذا ابن جرير.

(وَلِتَكُونَ آيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ) أي: يعتبرون بذلك، فإن الله حافظهم وناصرهم على سائر الأعداء مع قلة عددهم، وعلامة صدق الرسول ﷺ.

(وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا) أي: ويهديكم تعالى إلى الطريق القويم، الموصل إلى جنات النعيم بجهادكم وإخلاصكم.

- وفي الآية إشارة إلى أن ما أعطاهم من الفتح والمغانم، ليس هو كل الثواب، بل الجزاء أمامهم، وإنما هو شيء عاجل عجّله لهم لينتفعوا به، ولتكون آية لمن بعدهم من المؤمنين، تدل على صدق وعد الله في وصول ما وعدهم به كما وصل إليكم.

=

=

قوله تعالى: {وَعَدَكُمُ اللهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا} [الفتح: ٢٠]، أي:" وعدكم الله مغانم كثيرة تأخذونها في أوقاتها التي قدَّرها الله لكم".

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره لأهل بيعة الرضوان: {وَعَدَكُمُ اللهُ} أيها القوم، {مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا}".

وفي قوله تعالى: {وَعَدَكُمُ اللهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا} [الفتح: ٢٠]، وجهان:

أحدهما: هي مغانم خيبر، قاله زيد بن أسلم وابنه، و مقاتل.

قال ابن عطية:" هذِهِ إشارة إلى البيعة والتخلص من أمر قريش".

الثاني: هو كل مغنم غنمه المسلمون، قاله مجاهد.

قال مجاهد:" المغانم الكثيرة التي وعدوا: ما يأخذونها إلى اليوم".

قال ابن عطية:" الآية مخاطبة للمؤمنين ووعد بجميع المغانم التي أخذها المسلمون ويأخذونها إلى يوم القيامة".

قال الطبري:" فهي سائر المغانم التي غنمهموها الله بعد خيبر، كغنائم هوازن، وغطفان، وفارس، والروم، وإنما قلنا ذلك كذلك دون غنائم خيبر، لأن الله أخبر أنه عجل لهم هذه التي أثابهم من مسيرهم الذي ساروه مع رسول الله ﷺ إلى مكة، ولما علم من صحة نيتهم في قتال أهلها، إذ بايعوا رسول الله ﷺ، على أن لا يفرّوا عنه، ولا شكّ أن التي عجلت لهم غير التي لم تُعجَّل لهم".

قوله تعالى: {فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ} [الفتح: ٢٠]، أي:" فعجَّل لكم غنائم «خيبر»".

وفي قوله تعالى: {فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ} [الفتح: ٢٠]، وجهان:

أحدهما: مغانم خيبر، قاله مجاهد، وقتادة.

قال عطية:" فتْح خَيْبَر".

قال عطاء الخراساني:" يُقال: خَيْبَر. ويُقال أيضًا: فَدك".

الثاني: صلح الحديبية، قاله ابن عباس.

=

=

قال الطبري:" وأولى الأقوال في تأويل ذلك بالصواب ما قاله مجاهد، وهو أن الذي أثابهم الله من مسيرهم ذلك مع الفتح القريب المغانم الكثيرة من مغانم خيبر، وذلك أن المسلمين لم يغنموا بعد الحديبية غنيمة، ولم يفتحوا فتحا أقرب من بيعتهم رسول الله ﷺ بالحديبية إليها من فتح خيبر وغنائمها".

قوله تعالى: {وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنْكُمْ} [الفتح: ٢٠]، أي:" وكفَّ أيدي الناس عنكم، فلم ينلكم سوء مما كان أعداؤكم أضمروه لكم من المحاربة والقتال، ومن أن ينالوا ممن تركتموهم وراءكم في «المدينة»".

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره لأهل بيعة الرضوان: وكفّ الله أيدي المشركين عنكم".

قال ابن كثير:" أي: لم ينلكم سوء مما كان أعداؤكم أضمروه لكم من المحاربة والقتال. وكذلك كف أيدي الناس عنكم الذين خلفتموهم وراء أظهركم عن عيالكم وحريمكم".

وفي قوله تعالى: {وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنْكُمْ} [الفتح: ٢٠]، ثلاثة وجوه:

أحدها: أنهم اليهود، كف أيديهم عن بيوتهم، وعيالهم بالمدينة عند خروجهم إلى الحديبية وخيبر. قاله قتادة.

واختاره الطبري، قائلا:" والذي قاله قتادة في ذلك عندي أشبه بتأويل الآية، وذلك أن كفّ الله أيدي المشركين من أهل مكة عن أهل الحُديبية قد ذكره الله بعد هذه الآية في قوله: {وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ} فعلم بذلك أن الكفّ الذي ذكره الله تعالى في قوله: {وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنْكُمْ} غير الكفّ الذي ذكر الله بعد هذه الآية في قوله: {وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَّة}".

الثاني: أنهم أهل مكة، كف أيديهم عن المدينة عند خروجهم إلى الحديبية. قاله

=

=

الثعلبي.

الثالث: يعني: وكف اليهود من خيبر، وحلفاءهم من أسد، وغطفان، عن بيضتكم، وعيالكم، وأموالكم بالمدينة، وذلك أن مالك بن عوف النصري، وعيينة بن حصن الفزاري، ومن معهما من بني أسد وغطفان جاءوا لنصرة أهل خيبر فقذف الله تعالى في قلوبهم الرعب فانصرفوا. حكاه الثعلبي عن قتادة.

قال ابن عطية:" يريد من ولي عورة المدينة بعد خروج النبي ﷺ والمؤمنين منها، وذلك أنه كان من أحياء العرب ومن اليهود من يعادي وكانت قد أمكنتهم فرصة فكفهم الله عن ذراري المسلمين وأموالهم، وهذه للمؤمنين العلامة على أن الله ينصرهم ويلطف لهم".

قوله تعالى: {وَلِتَكُونَ آيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ} [الفتح: ٢٠]، أي:" ولتكون هزيمتهم وسلامتكم وغنيمتكم علامة تعتبرون بها، وتستدلون على أن الله حافظكم وناصركم".

قال الطبري:" يقول: وليكون كفه تعالى ذكره أيديهم عن عيالهم آية وعبرة للمؤمنين به فيعلموا أن الله هو المتولي حياطَتهم وكلاءتهم في مشهدهم ومغيبهم، ويتقوا الله في أنفسهم وأموالهم وأهليهم بالحفظ وحُسن الولاية ما كانوا مقيمين على طاعته، منتهين إلى أمره ونهيه".

قال قتادة:" يقول: وذلك آية للمؤمنين، كفّ أيدي الناس عن عيالهم".

قال الثعلبي:" ولتكون هزيمتهم، وسلامتكم آية للمؤمنين ليعلموا أن الله هو المتولي حياطتهم، وحراستهم في مشهدهم ومغيبهم".

قال ابن كثير:" أي: يعتبرون بذلك، فإن الله حافظهم وناصرهم على سائر الأعداء، مع قلة عددهم، وليعلموا بصنيع الله هذا بهم أنه العليم بعواقب الأمور، وأن الخيرة فيما يختاره لعباده المؤمنين وإن كرهوه في الظاهر، كما قال: {وَعَسَى أَنْ

=

=

تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ} [البقرة: ٢١٦]".

قوله تعالى: {وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا} [الفتح: ٢٠]، أي:" ويرشدكم طريقا مستقيما لا اعوجاج فيه".

قال الطبري:" يقول: ويسدّدكم أيها المؤمنون طريقا واضحا لا اعوجاج فيه، فيبينه لكم، وهو أن تثقوا في أموركم كلها بربكم، فتتوكلوا عليه في جميعها، ليحوطكم حياطته إياكم في مسيركم إلى مكة مع رسول الله ﷺ في أنفسكم وأهليكم وأموالكم، فقد رأيتم أثر فعل الله بكم، إذ وثقتم في مسيركم هذا".

قال ابن كثير:" أي: بسبب انقيادكم لأمره واتباعكم طاعته، وموافقتكم رسوله".

قال الثعلبي:" {ويهديكم صراطا مستقيما} طريق التوكل، والتفويض حتى تتقوا في أموركم كلها بربكم، وتتوكلوا عليه، وقيل: يثبتكم على الإسلام، ويزيدكم بصيرة ويقينا بصلح الحديبية، وفتح خيبر، وذلك أن رسول الله ﷺ لما رجع من غزوة الحديبية إلى المدينة، أقام بها بقية ذي الحجة، وبعض المحرم، ثم خرج في بقية المحرم سنة سبع إلى خيبر، واستخلف على المدينة سماع بن عرفطة الغفاري".

قوله تعالى: (وَأُخْرَى لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا) أي: وغنيمة أخرى وفتحًا آخر معينًا لم تكونوا تقدرون عليها، قد يسرها الله عليكم.

وقد اختلف المفسرون في المراد بهذه الأخرى، فقيل: المراد فتح مكة، وهذا اختيار ابن جرير، وقيل: هي خيبر، وقيل: هي فارس والروم.

(قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا) قيل: معنى أحاط: أي علم أنها ستكون لهم، وقيل: المعنى أنه أعدها لهم وجعلها كالشيء الذي قد أحيط به من جميع جوانبه، فهو محصور لا يفوت منه شيء، فهم وإن لم يقدروا عليها في الحال فهي محبوسة لهم لا تفوتهم.

(وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا) فلا يعجزه شيء، ولا تختص قدرته ببعض

=

=

المقدورات دون بعض.

الآية عامة، فالله على كل شيء قدير، على ما شاءه وما لم يشأه.

- وجرت العادة بذكر قدرته عند الأمور التي لا يستطيعها البشر، كما ذكر ذلك عند نصره لعباده الضعفاء المتمسكين بدينه كقوله تعالى في الأحزاب (وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَمْ تَطَأُوهَا وَكَانَ اللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا) وقال في الحديبية (وَأُخْرَى لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللهُ بِهَا وَكَانَ اللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا).

ومن قدرته أنه سبحانه يعز من يشاء ويذل من يشاء ويؤتي الملك من يشاء وينزعه ممن يشاء كما قال تعالى (قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ).

- قال الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ: الآية عامة، فهو قدير على كل شيء، على ما شاءه وما لم يشأه، وبهذا نعرف أن تقييد بعض الناس القدرة بالمشيئة خطأ، لأن الله قادر على ما يشاء وعلى ما لا يشاء، وأما قوله تعالى (وَهُوَ عَلَى جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ) فالمشيئة هنا ليست عائدة على القدرة، ولكنها عائدة على الجمع، يعني: إذا أراد جمعهم وشاء جمعهم فهو قدير عليه لا يعجزه شيء.

قوله تعالى: {وَأُخْرَى لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللهُ بِهَا} [الفتح: ٢١]، أي:" وقد وعدكم الله غنيمة أخرى لم تقدروا عليها، الله سبحانه وتعالى قادر عليها، وهي تحت تدبيره وملكه، وقد وعدكموها، ولا بد مِن وقوع ما وعد به".

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره ووعدكم أيها القوم ربكم فتح بلدة أخرى لم تقدروا على فتحها، قد أحاط الله بها لكم حتى يفتحها لكم".

قال ابن كثير:" أي: وغنيمة أخرى وفتحا آخر معينا لم تكونوا تقدرون عليها، قد

=

=

يَسَّرها الله عليكم، وأحاط بها لكم، فإنه تعالى يرزق عباده المتقين له من حيث لا يحتسبون".

وفي قوله تعالى: {وَأُخْرَى لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللهُ بِهَا} [الفتح: ٢١]، ثلاثة أقوال:

أحدها: هي أرض فارس والروم. قاله ابن عباس-في رواية-، وابن أبي ليلى، والحسن.

قال ابن عطية:" وهذا ضعيف، وإنما الإشارة إلى العدو الأحضر".

وروي عن مجاهد، قوله: " {وَأُخْرَى لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا}، ما فتحوا حتى اليوم".

وقال ابن عباس:" هذه الفتوح التي تفتح إلى اليوم".

الثاني: هي أرض خيبر، قاله ابن عباس-في رواية أخرى-، والضحاك، وابن زيد، وابن إسحاق.

قال الضحاك:" يعني خيبر، بعثهم رسول الله ﷺ يومئذ، فقال: ولا تُمَثِّلُوا وَلا تَغُلُّوا، ولا تَقْتُلُوا وَلِيدًا".

عن ابن زيد، قوله: " {وَأُخْرَى لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللهُ بِهَا}، قال: خيبر، قال: لم يكونوا يذكرونها ولا يرجونها حتى أخبرهم الله بها".

قال ابن كثير:" وهذا على قوله في قوله تعالى: {فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ} إنها صلح الحديبية".

الثالث: هي مكة، قاله قتادة.

قال قتادة:" بلغنا أنها مكة".

قال ابن عطية:" وهذا هو القول الذي يتسق معه المعنى ويتأيد، وقوله: قَدْ أَحَاطَ اللهُ بِها معناه بالقدرة والقهر لأهلها، أي قد سبق في علمه ذلك وظهر فيها أنهم لم يقدروا عليها".

=

=

قال الطبري:" وهذا القول الذي قاله قتادة أشبه بما دلّ عليه ظاهر التنزيل، وذلك أن الله أخبر هؤلاء الذين بايعوا رسول الله ﷺ تحت الشجرة، أنه محيط بقرية لم يقدروا عليها، ومعقولٌ أنه لا يقال لقوم لم يقدروا على هذه المدينة، إلا أن يكونوا قد راموها فتعذّرت عليهم، فأما وهم لم يروموها فتتعذّر عليهم فلا يقال: إنهم لم يقدروا عليها. فإذ كان ذلك كذلك، وكان معلوما أن رسول الله ﷺ لم يقصد قبل نزول هذه الآية عليه خيبر لحرب، ولا وجه إليها لقتال أهلها جيشا ولا سرية، علم أن المعنيّ بقوله: {وَأُخْرَى لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا} غيرها، وأنها هي التي قد عالجها ورامها، فتعذّرت فكانت مكة وأهلها كذلك، وأخبر الله تعالى ذكره نبيه ﷺ والمؤمنين أنه أحاط بها وبأهلها، وأنه فاتحها عليهم".

قوله تعالى: {وَكَانَ اللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا} [الفتح: ٢١]، أي:" وكان الله على كل شيء قديرًا لا يعجزه شيء".

قال الطبري: يقول:" وكان الله على كلّ ما يشاء من الأشياء ذا قُدرة، لا يتعذّر عليه شيء شاءه".

قال ابن إسحاق:" أي: إن الله على كل شيء ما أراد بعباده من نقمة أو عفو فهو قدير".

قوله تعالى: (وَلَوْ قَاتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوُا الْأَدْبَارَ) يقول تعالى مبشرًا لعباده المؤمنين: بأنه لو ناجزهم المشركون لنصر الله رسوله وعباده المؤمنين عليهم، ولانهزم جيش الكفار فارًا مدبرًا.

(ثُمَّ لا يَجِدُونَ) هؤلاء الكفار.

(وَلِيًّا وَلا نَصِيرًا) وليًا يتولى أمرهم وينفعهم ولا نصيرًا ينصرهم، فالنصير: هو الذي ينصرك عند ملاقاة الأعداء.

(سُنَّةَ اللهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ) أي: تلك طريقة الله وعادته التي سنّها فيمن مضى

=

=

من الأمم، من هزيمة المشركين ونصر المؤمنين، كما قال تعالى (كَتَبَ اللهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ).

- خلت: أي مضت.

- وسنة الله تنقسم إلى قسمين: شرعية، وكونية، أما السنة الشرعية فإنها تكون بحسب مصالح العباد، وتختلف باختلاف الأمم، كما قال تعالى (كُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا) وإن كانت هذه الشرائع كلها تتفق في أصول التوحيد، أما السنة الكونية: فهي ما يجريه الله تعالى قدرًا من العقوبات وغيرها، وهذه السنة لا تتبدل ولا تتغير، وإن كان الله قد يضاعف العقوبة على بعض الناس دون بعض، وقد يجزي الله بعض العاملين على العمل أكثر من البعض الآخر، كما في هذه الأمة، فإنها أعطيت كفلين من الأجر على من سبقها من الأمم.

(وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَبْدِيلًا) وذلك في السنن الكونية، أما الشرعية فيمحو الله ما يشاء ويثبت وربما تبدل، لكن سنة الله الكونية لن تجد لها تبديلًا، لا منه ولا من غيره، في إنزال العقوبة بمن يستحقها، كما قال تعالى (اسْتِكْبَارًا فِي الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ وَلا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللهِ تَبْدِيلًا وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللهِ تَحْوِيلًا).

(تَبْدِيلًا) برفعها (تَحْوِيلًا) بتغييرها إلى قوم آخرين، يعني أن سنة الله ستقع في أعيان الذين يستحقونها، فلن تبدل فترفع، ولن تحول إلى قوم آخرين فيسلم منها من استحقوها، بل هي واقعة على من استحقوها عينًا.

لأن الله ﷻ كامل العدل والحكمة، كامل الحكمة: فلن يبدل النقمة بنعمة على من استحقها، وكامل العدل: لا يمكن أن يحول الانتقام إلى قوم آخرين لا يستحقونه.

قوله تعالى: {وَلَوْ قَاتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوُا الْأَدْبَارَ} [الفتح: ٢٢]، أي:" ولو قاتلكم كفار قريش بـ «مكة» لانهزموا عنكم وولوكم ظهورهم، كما يفعل المنهزم

=

=
في القتال".
قال الطبري:" يقول تعالى ذكره للمؤمنين به من أهل بيعة الرضوان: {وَلَوْ قَاتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا} بالله أيها المؤمنون بمكة لانهزموا عنكم، فولوكم أعجازهم، وكذلك يفعل المنهزم من قرنه في الحرب".
قال ابن كثير:" يقول تعالى مبشرا لعباده المؤمنين: بأنه لو ناجزهم المشركون لنصر الله رسوله وعباده المؤمنين عليهم، ولانهزم جيش الكفار فارا مدبرا لا يجدون وليا ولا نصيرا؛ لأنهم محاربون لله ولرسوله ولحزبه المؤمنين".
عن قتادة، قوله: " {وَلَوْ قَاتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوُا الأَدْبَارَ}، يعني: كفار قريش".
قال ابن عطية:" إشارة إلى قريش ومن والاها في تلك السنة.. وفي هذا تقوية لنفوس المؤمنين".
قوله تعالى: {ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا} [الفتح: ٢٢]، أي:" ثم لا يجدون لهم من دون الله وليًا يواليهم على حربكم، ولا نصيرًا يعينهم على قتالكم".
قال الطبري:" يقول: ثم لا يجد هؤلاء الكفار المنهزمون عنكم، المولوكم الأدبار، وليا يواليهم على حربكم، ولا نصيرا ينصرهم عليكم، لأن الله تعالى ذكره معكم، ولن يغلب حزب الله ناصره".
قال قتادة: "قال الله: {ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا} ينصرهم من الله".
قوله تعالى: {سُنَّةَ اللهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ} [الفتح: ٢٣]، أي:" سنة الله التي سنَّها في خلقه من قبل بنصر جنده وهزيمة أعدائه".
قال محمد بن إسحاق:" يعني: قريشًا في المواطن التي كانت قبل ذلك".
قال القشيري:" أي: سنّة الله خذلانهم".
قال الطبري: يقول:" سننت فيهم الهزيمة والخذلان".
قال الشوكاني: أي:" طريقته وعادته التي قد مضت في الأمم من نصر أوليائه على
=

=

أعدائه".

قال الماتريدي:" أي: جعل عاقبة الأمر للمؤمنين".

قال ابن كثير:" أي: هذه سنة الله وعادته في خلقه، ما تقابل الكفر والإيمان في موطن فيصل إلى نصر الله الإيمان على الكفر، فرفع الحق ووضع الباطل، كما فعل تعالى يوم بدر بأوليائه المؤمنين نصرهم على أعدائه من المشركين، مع قلة عدد المسلمين وعُدَدهم، وكثرة المشركين وعددهم".

قال ابن عطية:" إشارة إلى وقعة بدر، وقيل إشارة إلى عادة الله من نصر الأنبياء قديما".

قوله تعالى: {وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَبْدِيلًا} [الفتح: ٢٣]، أي:" ولن تجد -أيها النبي- لسنة الله تغييرًا".

عن محمد بن إسحاق:" يقول: الذي وعد من النصر".

قال يحيى:" لا تبدل بها غيرها".

قال القشيري:" أي: ولن تجد لسنة الله تحويلا".

قال السمعاني: أي: تغييرا".

قال الطبري: يقول:" ولن تجد يا محمد لسنة الله التي سنها في خلقه تغييرا، بل ذلك دائم للإحسان جزاءه من الإحسان، وللإساءة والكفر العقاب والنكال".

قال الشوكاني: أي:" لن تجد لها تغييرا، بل هي مستمرة ثابتة".

قال الماتريدي:" في أمتك، ولكن جعل عاقبة الأمر لهم كما جعل عاقبة الأمر في سائر الأمم للمؤمنين".

قال ابن فورك:" السنة التي أراد الله أن يسنها في عباده، لا يتهيأ لأحد تغييرها ولا قلبها عن وجهها".

قال ابن جريج:" سُنَّة الله في الذين خَلَوا من قبل أن لن يُقاتِل أحدٌ نبيَّه إلا خذله الله؛

=

=
فقتله أو رَعَّبه فانهزم، ولن يسمع به عدوٌّ إلا انهزموا واستسلموا".
قال ابن عباس في هذه الآية: "يريد: هذه سنتي في أهل طاعتي وأوليائي، وهذه سنتي في أعدائي وأهل معصيتي، يريد: أنصرُ أوليائي وأخذل أهل معصيتي".
(وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ) قال ابن كثير: هذا امتنان من الله تعالى على عباده المؤمنين، حين كف أيدي المشركين عنهم، فلم يصل إليهم منهم سوء، وكفّ أيدي المؤمنين عن المشركين فلم يقاتلوهم عند المسجد الحرام، بل صان كلًا من الفريقين وأوجد بينهم صلحًا، فيه خيرة للمؤمنين وعاقبة لهم في الدنيا والآخرة.
- قوله تعالى (بِبَطْنِ مَكَّةَ) وهو الحديبية.
(مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ) أي: من بعد ما أخذتموهم أسارى وتمكنتم منهم، قال أهل التفسير: وذلك أن ثمانين من المشركين طافوا بعسكر المؤمنين ليصيبوا منهم، فأخذوا وأتيَ بهم إلى رسول الله ﷺ فعفا عنهم وخلي سبيلهم، فكان ذلك سبب الصلح.
(وَكَانَ اللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا) أي: لا يخفى عليه شيء من أعمال البشر، وهذا يشمل بصر النظر فلا يغيب عن نظره شيء، وبصر علم، فلا يغيب عنه مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض، ولا أصغر من ذلك ولا أكبر، فالله محيط بالعباد علمًا ورؤية.
عن أنس بن مالك، " أن ثمانين رجلا من أهل مكة هبطوا على رسول الله ﷺ من جبل التنعيم متسلحين، يريدون غرة النبي ﷺ وأصحابه، فأخذهم سلما فاستحياهم، فأنزل الله ﷻ: {وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ} [الفتح: ٢٤]".
وعن سلمة بن الأكوع؛ قال: قدمنا الحديبية مع رسول الله ﷺ ونحن أربع عشرة
=

=

مائة، وعليها خمسون شاة لا ترويها، قال: فقعد رسول الله ﷺ على جبا الركية؛ فإما دعا، وإما بصق فيها، قال: فجاشت؛ فسقينا واستقينا، قال: ثم إن رسول الله ﷺ دعانا للبيعة في أصل الشجرة، قال: فبايعته أول الناس، ثم بايع وبايع، حتى إذا كان في وسط من الناس؛ قال: "بايع يا سلمة! "، قال: قلت: قد بايعتك يا رسول الله! في أول الناس، قال: "وأيضا"، قال: ورآني رسول الله ﷺ عزلا؛ (يعني: ليس معه سلاح)، قال: فأعطاني رسول الله ﷺ حجفة أو درقة ثم بايع، حتى إذا كان في آخر الناس؛ قال: "ألا تبايعني يا سلمة؟!".

قال: قلت: قد بايعتك يا رسول الله! في أول الناس، وفي أوسط الناس، قال: "وأيضا"، قال: فبايعته الثالثة، ثم قال لي: "يا سلمة! أين حجفتك أو درقتك التي أعطيتك؟ "، قال: قلت: يا رسول الله! لقيني عمي عامر عزلا، فأعطيته إياها، قال: فضحك رسول الله ﷺ، وقال: "إنك كالذي قال الأول: اللهم أبغني حبيبا هو أحب إلي من نفسي".

ثم إن المشركين راسلونا الصلح حتى مشى بعضنا في بعض واصطلحنا، قال: وكنت تبيعا لطلحة بن عبيد الله: أسقى فرسه، وأحسه، وأخدمه، وآكل من طعامه، وتركت أهلي ومالي مهاجرا إلى الله ورسوله ﷺ، قال: فلما اصطلحنا نحن وأهل مكة، واختلط بعضنا ببعض؛ أتيت شجرة فكسحت شوكها، فاضطجعت في أصلها، قال: فأتاني أربعة من المشركين من أهل مكة فجعلوا يقعون في رسول الله ﷺ؛ فأبغضتهم؛ فتحولت إلى شجرة أخرى، وعلقوا سلاحهم واضطجعوا، فبينما هم كذلك؛ إذ نادى مناد من أسفل الوادي: يا للمهاجرين! قتل ابن زنيم، قال: فاخترطت سيفي، ثم شددت على أولئك الأربعة وهم رقود، فأخذت سلاحهم، فجعلته ضغثا في يدي، قال: ثم قلت: والذي كرم وجه محمد! لا يرفع أحد منكم رأسه إلا ضربت الذي فيه عيناه، قال: ثم جئت بهم أسوقهم إلى رسول الله ﷺ،

=

=

قال: وجاء عمي عامر برجل من العبلات يقال له: مكرز يقوده إلى رسول الله ﷺ على فرس مجفف في سبعين من المشركين، فنظر إليهم رسول الله ﷺ؛ فقال: "دعوهم يكن لهم بدء الفجور وثناه"، فعفا عنهم رسول الله ﷺ، وأنزل الله: {وهو الذي كف أيديهم عنكم وأيديكم عنهم ببطن مكة من بعد أن أظفركم عليهم وكان الله بما تعملون بصيرا (٢٤)} .... الحديث.

قوله تعالى: {وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ} [الفتح: ٢٤]، أي:" وهو الذي كفَّ أيدي المشركين عنكم، وأيديكم عنهم ببطن «مكة»".

قال الطبري:" يعني: أن الله كفّ أيدي المشركين الذين كانوا خرجوا على عسكر رسول الله ﷺ، بالحديبية يلتمسون غِرَّتَهُمْ ليصيبوا منهم، فبعث رسول الله ﷺ فأتى بهم أسرى، فخلى عنهم رسول الله ﷺ، ومنّ عليهم ولم يقتلهم فقال الله للمؤمنين: وهو الذي كفّ أيدي هؤلاء المشركين عنكم، وأيديكم عنهم ببطن مكة".

قال الشوكاني: أي: كف أيدي المشركين عن المسلمين وأيدي المسلمين عن المشركين لما جاءوا يصدون رسول الله ﷺ ومن معه عن البيت عام الحديبية، وهي: المراد ببطن مكة".

قال ابن كثير:" هذا امتنان من الله على عباده المؤمنين حين كف أيدي المشركين عنهم، فلم يصل إليهم منهم سوء، وكفّ أيدي المؤمنين من المشركين فلم يقاتلوهم عند المسجد الحرام، بل صان كلا من الفريقين، وأوجد بينهم صلحا فيه خيَرَةٌ للمؤمنين، وعاقبة لهم في الدنيا والآخرة".

قوله تعالى: {مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ} [الفتح: ٢٤]، أي:" من بعد ما قَدَرْتم عليهم، فصاروا تحت سلطانكم".

قال ابن جزي:" يعني: من بعد ما أخذتموهم أسارى".

=

=

وفي قوله تعالى: {مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ} [الفتح: ٢٤]، وجوه من التفسير:
أحدها: أظفركم عليهم بفتح مكة. ذكره الماوردي.
قال الماوردي:" وتكون، هذه نزلت بعد فتح مكة، وفيها دليل على أن مكة فتحت صلحًا لقوله: {كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وأَيْدِيَكُمْ عَنهُم}".
قال القرطبي:" الصحيح أن هذه الآية نزلت في الحديبية قبل فتح مكة".
الثاني: أظفركم عليهم بقضاء العمرة التي صدوكم عنها. ذكره الماوردي.
الثالث: أظفركم عليهم بما روي ثابت عن أنس:"أن ثمانين رجلا من أهل مكة، هبطوا على رسول الله ﷺ وأصحابه من جبل التنعيم عند صلاة الفجر ليقتلوهم، فأخذهم رسول الله ﷺ فأعتقهم، فأنزل الله: {وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ} ... إلى آخر الآية". وروي عن عبد الله بن مغفل، وابن أبزى، وقتادة سياقات قريبة من قول أنس، كما أشرنا إليها في سبب نزول الآية.
وقال مجاهد:" أقبل معتمرا نبيّ الله، فأخذ أصحابه ناسا من أهل الحرم غافلين، فأرسلهم النبيّ ﷺ، فذلك الإظفار ببطن مكة".
قال محمد بن إسحاق:" كان رسول الله صلي الله عليه ظفر بهم وتجاوز عنهم، وكانوا أربعين رجلًا من قريش خرجوا يتجسسون الأخبار، ورسول الله ﷺ بالحديبية فأخذوا فأتي بهم فتجاوز عنهم".
وروي عن محمد بن إسحاق قال:" حدثني -من لا أتهم - عن عكرمة، مولى ابن عباس، أن قريشا كانوا بعثوا أربعين رجلا منهم أو خمسين، وأمروهم أن يطيفوا بعسكر رسول الله ﷺ، ليصيبوا من أصحابه أحدا، فأخذوا أخذا، فأُتي بهم رسول الله ﷺ، فعفا عنهم، وخلى سبيلهم، وقد كانوا رموا في عسكر رسول الله ﷺ بالحجارة والنبل. قال ابن حميد، قال سلمة، قال ابن إسحاق: ففي ذلك قال: {وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ} ... الآية".

=

هُـمُ الَّـذِينَ كَفَـرُوا وَصَـدُّوكُـمْ عَـنِ الْمَسْجِدِ الْحَـرَامِ وَالْهَـدْيَ مَعْكُوفًـا أَنْ يَبْلُـغَ مَحِلَّهُ وَلَوْلَا رِجَـالٌ مُؤْمِنُـونَ وَنِسَاءٌ مُؤْمِنَـاتٌ لَـمْ تَعْلَمُـوهُمْ أَنْ تَطَـئُوهُمْ فَتُـصِيبَكُمْ مِنْهُمْ مَعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ لِيُدْخِلَ اللهُ فِي رَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّـذِينَ كَفَـرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (٢٥).

{هُـمُ الَّـذِينَ كَفَـرُوا وَصَـدُّوكُـمْ عَـنِ الْمَسْجِد الْحَـرَام} أَيْ عَـنْ الْوُصُـول إلَيْـهِ {وَالْهَـدْي} مَعْطُـوف عَلَـى كـم {مَعْكُـوفًـا} مَحْبُوسًـا حَـال {أَنْ يَبْلُـغ مَحِلّـه} أَيْ مَكَانه الَّذِي يُنْحَر فِيهِ عَادَة وَهُوَ الْحَرَم بَدَل اشْتِمَال {وَلَوْلَا رِجَال مُؤْمِنُونَ وَنِسَاء

=

وقال مقاتل:" {ببطن مكة}: يوم الحديبية، يعني: ببطن أرض مكة كلها والحرم كله مكة {من بعد أن أظفركم عليهم}، وقد كانوا خرجوا يقاتلون النبي ﷺ فهزمهم النبي ﷺ بالطعن والنبل حتى أدخلهم بيوت مكة".

قال الواحدي:" يريد: أن الظفر كان للنبي -ﷺ- على أهل مكة، والمعنى: أن الله تعالى يذكر منته بحجزه بين الفريقين حتى لم يقتتلا، وحتى اتفق بينهم الصلح الذي كان أعظم من الفتح، وسلم للرجل من بينه وبينه قرابة، ومن هو مؤمن من أهل مكة أن يصاب، وهذا قول عامة المفسرين".

قوله تعالى: {وَكَانَ اللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا} [الفتح: ٢٤]، أي:" وكان الله بأعمالكم بصيرًا، لا تخفى عليه خافية".

قال الشوكاني: أي:" لا يخفى عليه من ذلك شيء".

قال الطبري: يقول:" وكان الله بأعمالكم وأعمالهم بصيرا لا يخفى عليه منها شيء".

قال ابن عطية:" الآية تحريض على العمل الصالح، لأن من استشعر أن الله يبصر عمله أصلحه".

مُؤْمِنَات} مَوْجُودُونَ بِمَكَّة مَعَ الْكُفَّار {لَمْ تَعْلَمُوهُمْ} بصفة الإيمان {أن تطؤوهم} أَيْ تَقْتُلُوهُمْ مَعَ الْكُفَّار لَوْ أُذِنَ لَكُمْ فِي الْفَتْح بَدَل اشْتِمَال مِنْ هُمْ {فَتُصِيبكُمْ مِنْهُمْ مَعَرَّة} أَيْ إثْم {بِغَيْرِ عِلْم} مِنْكُمْ بِهِ وَضَمَائِر الْغِيبَة لِلصِّنْفَيْنِ بِتَغْلِيبِ الذُّكُور وَجَوَاب لَوْلَا مَحْذُوف أَيْ لَأُذِنَ لَكُمْ فِي الْفَتْح لَكِنْ لَمْ يُؤْذَن فِيهِ حِينَئِذٍ {لِيُدْخِل الله فِي رَحْمَته مَنْ يَشَاء} كَالْمُؤْمِنِينَ الْمَذْكُورِينَ {لَوْ تَزَيَّلُوا} تَمَيَّزُوا عَنْ الْكُفَّار {لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ} مِنْ أَهْل مَكَّة حِينَئِذٍ بِأَنْ نَأْذَن لَكُمْ فِي فَتْحهَا {عَذَابًا أَلِيمًا} مُؤْلِمًا.

إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ فَأَنْزَلَ اللهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا وَكَانَ اللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا (٢٦).

{إذْ جَعَلَ} مُتَعَلِّق بِعَذَّبْنَا {الَّذِينَ كَفَرُوا} فَاعِل {فِي قُلُوبهمْ الْحَمِيَّة} الْأَنَفَة مِنْ الشَّيْء {حَمِيَّة الْجَاهِلِيَّة} بَدَل مِنْ الْحَمِيَّة وَهِيَ صَدّهمْ النَّبِيّ وَأَصْحَابه عَنْ الْمَسْجِد الْحَرَام {فَأَنْزَلَ الله سَكِينَته عَلَى رَسُوله وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ} فَصَالَحُوهُمْ عَلَى أَنْ يَعُودُوا مِنْ قَابِل وَلَمْ يَلْحَقهُمْ مِنْ الْحَمِيَّة مَا لَحِقَ الْكُفَّار حَتَّى يُقَاتِلُوهُمْ {وَأَلْزَمَهُمْ} أَيْ الْمُؤْمِنِينَ {كَلِمَة التَّقْوَى} لَا إلَه إلَّا الله مُحَمَّد رَسُول الله وَأُضِيفَتْ إلَى التَّقْوَى لِأَنَّهَا سَبَبهَا {وَكَانُوا أَحَقّ بِهَا} بِالْكَلِمَةِ مِنْ الْكُفَّار {وَأَهْلهَا} عَطْف تَفْسِيرِيّ {وَكَانَ الله بِكُلِّ شَيْء عَلِيمًا} أَيْ لَمْ يَزَلْ مُتَّصِفًا بِذَلِكَ وَمِنْ مَعْلُومه تَعَالَى أَنَّهُمْ أَهْلهَا[1].

---

(١) ذكر سبب النزول.

عن أبي جمعة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ؛ قال: قاتلت النبي ﷺ أول النهار كافرًا، وقاتلت معه آخر =

=

النهار مسلمًا، وكنا ثلاثة رجال وسبع نسوة، وفينا أنزلت: {وَلَوْلَا رِجَالٌ مُؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُؤْمِنَاتٌ}.

أخرجه أبو يعلى في "المسند" (٣/ ١٢٩ رقم ١٥٦٠)، و"المفاريد" (ص ٧١، ٧٢ رقم ٧٢) -ومن طريقه ابن الأثير في "أسد الغابة" (٥/ ٥٢، ٥٣) -، والطبراني في "المعجم الكبير" (٢/ ٢٩٠ رقم ٢٢٠٤، ٣/ ٢٤ رقم ٢٥٤٣) -وعنه أبو نعيم في "معرفة "الصحابة" (٢/ ٦١١ رقم ١٦٦٠) -، وابن قانع في "معجم "الصحابة" (١/ ١٨٨)، وابن أبي حاتم في "تفسيره"؛ كما في "تفسير القرآن العظيم" (٤/ ٢٠٨)، وابن عبد البر وأبو موسى المديني؛ كما في "أسد الغابة" (٥/ ٥٣) من طريق أبي سعيد مولى بني هاشم عن أبي خلف عن عبد الله بن عوف؛ قال: سمعت أبا جمعة به. وسنده حسن -إن شاء الله-.

قال الهيثمي في "مجمع الزوائد" (٧/ ١٠٧): "رواه الطبراني بإسنادين رجال أحدهما ثقات".

وقال في (٩/ ٣٩٨): "رواه أبو يعلى ورجاله ثقات".

وقال السيوطي في "الدر المنثور" (٧/ ٥٣٤) بعد أن زاد نسبته للحسن بن سفيان وابن المنذر والبارودي وابن مردويه: "بسند جيد".

وعن الأجلح؛ قال: كان حمزة بن عبد المطلب رجلًا حسن الشعر، حسن الهيئة، صاحب صيد، وإن رسول الله ﷺ مر على أبي جهل فولع به وآذاه، فرجع حمزة من الصيد وامرأتان تمشيان خلفه؛ فقالت إحداهما: لو علم ذا ما صنع بابن أخيه؛ أقصر عن مشيته؛ فالتفت إليهما، فقال: وما ذاك؟ قالت: أبو جهل فعل بمحمد كذا وكذا، فدخلته الحمية، فجاء حتى دخل المسجد وفيه أبو جهل فعلا رأسه بقوسه، ثم قال: ديني دين محمد إن كنتم صادقين، فامنعوني؛ فقامت إليه قريش، فقالوا: يا أبا يعلى؛ فأنزل الله -تعالى-: {إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ} إلى قوله:

=

{وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى}؛ قال: حمزة بن عبد المطلب.
ذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٧/ ٥٣٦) ونسبه لابن أبي حاتم. وسنده ضعيف؛ لإعضاله.

* قوله تعالى: (هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا) يقول تعالى مخبرًا عن الكفار من مشركي العرب من قريش ومن مالأهم على نصرتهم على رسول الله ﷺ (هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا) أي: هم الكفار دون غيرهم.

(وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ) أي: ومنعوكم عن المسجد الحرام لأداء العمرة، وأنتم أحق به، وأنتم أهله في نفس الأمر.

(وَالْهَدْيَ مَعْكُوفًا أَنْ يَبْلُغَ مَحِلَّهُ) أي: وصدوا الهدي - وهو ما يهدى لبيت الله لفقراء الحرم - معكوفًا أي: محبوسًا عن أن يبلغ مكانه الذي يذبح فيه وهو الحرم.

قال القرطبي: يعني أن قريشًا منعوا المسلمين من دخول المسجد الحرام عام الحديبية، حين أحرم رسول الله ﷺ مع أصحابه بالعمرة، ومنعوا الهدي وحبسوه عن أن يبلغ محله.

(وَلَوْلا رِجَالٌ مُؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُؤْمِنَاتٌ) أي: بين أظهرهم ممن يكتم إيمانه ويخفيه منهم خيفة على أنفسهم من قومهم، لكنا سلطناكم عليهم فقتلتموهم وأبدتم خضراءهم، ولكن بين أفنائهم من المؤمنين والمؤمنات أقوام لا تعرفونهم حالة القتل، ولهذا قال: (لَمْ تَعْلَمُوهُمْ أَنْ تَطَأُوهُمْ فَتُصِيبَكُمْ مِنْهُمْ مَعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ) المعرة: الإثم والغرامة، قال القرطبي: أي يقول المشركون: قد قتلوا أهل دينهم، وقيل: المعنى يصيبكم من قتلهم ما يلزمكم من أجله كفارة قتل الخطأ، لأن الله أوجب على قاتل المؤمن في دار الحرب إذا لم يكن هاجر منها ولم يعلم بإيمانه الكفارة دون الدية كما سبق في تفسير سورة النساء (فَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ عَدُوٍّ لَكُمْ وَهُوَ

=

مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ).

- قوله تعالى (بِغَيْرِ عِلْمٍ) فيه تفضيل للصحابة وإخبار عن صفتهم الكريمة من العفة عن المعصية والعصمة عن التعدي، حتى لو أنهم أصابوا من ذلك أحدًا لكان عن غير قصد، وهذا كما وصفت النملة عن جند سليمان في قولها (لا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ).

قوله تعالى: (لِيُدْخِلَ اللهُ فِي رَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ) أي: لم يأذن لكم في القتال ورضي لكم بالصلح ليدخل في رحمته من يشاء، فالمؤمنون نالتهم رحمة الله إذ لم يؤذوا بدخولكم مكة فاتحين، والمشركون قد يكون تأخر الفتح سببًا في إسلام من شاء الله تعالى له الإسلام، لا سيما عندما رأوا رحمة الإسلام تتجلى في ترك القتال رحمة بالمؤمنين والمؤمنات حتى لا يتعرضوا للأذى، فدِين يراعي هذه الأخوة دين لا يحرم منه عاقل.

(لَوْ تَزَيَّلُوا) أي: لو تميز الكفار من المؤمنين الذين بين أظهرهم.

(لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا) أي: لسلطناكم عليهم فلقتلتموهم قتلًا ذريعًا.

* عن أبي جمعة -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ-؛ قال: "قاتلت النبي ﷺ أول النهار كافرًا، وقاتلت معه آخر النهار مسلمًا، وكنا ثلاثة رجال وسبع نسوة، وفينا أنزلت: {وَلَوْلَا رِجَالٌ مُؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُؤْمِنَاتٌ}".

قوله تعالى: {هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ} [الفتح: ٢٥]، أي:" كفار قريش هم الذين جحدوا توحيد الله، وصدُّوكم يوم «الحديبية» عن دخول المسجد الحرام".

قال مقاتل:" {هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا} يعني: كفار مكة، {وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ} أن تطوفوا به".

=

=

قال الطبري: يقول:" هؤلاء المشركون من قريش هم الذين جحدوا توحيد الله، وصدوكم أيها المؤمنون بالله عن دخول المسجد الحرام".

قال ابن كثير:" أي: هم الكفار دون غيرهم، {وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ}، أي: وأنتم أحق به، وأنتم أهله في نفس الأمر".

قوله تعالى: {وَالْهَدْيَ مَعْكُوفًا أَنْ يَبْلُغَ مَحِلَّهُ} [الفتح: ٢٥]، أي:" ومنعوا الهدي، وحبسوه أن يبلغ محل نحره، وهو الحرم".

قال الطبري: يقول:" وصدوا الهدي محبوسًا عن أن يبلغ محل نحره، وذلك دخول الحرم، والموضع الذي إذا صار إليه حلّ نحره".

قال مقاتل:" وصدوا الهدي في عمرتكم يوم الحديبية {معكوفا}، يعني: محبوسا، وكان النبي- ﷺ أهدى عام الحديبية في عمرته مائة بدنة، ويقال سبعين بدنة فمنعوه أن يبلغ الهدى محله، يعني: منحره".

قال ابن كثير:" أي: وصدوا الهدي أن يصل إلى محله، وهذا من بغيهم وعنادهم، وكان الهديُ سبعين بدنة، كما سيأتي بيانه".

قال ابن زيد:" كان الهدي بذي طوى، والحُديبية خارجة من الحرم، نزلها رسول الله ﷺ حين غوَّرت قريش عليه الماء".

عن المِسْوَر بن مخرمة ومروان بن الحكم أنهما، قالا: " خرج رسول الله ﷺ عام الحُديبية يريد زيارة البيت، لا يريد قتالا وساق الهَدي معه سبعين بدنة وكان الناس سبعَ مئة رجل، فكانت كلّ بدنة عن عشرة".

عن قتادة:" {هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدْيَ مَعْكُوفًا}، أي: محبوسا {أَنْ يَبْلُغَ مَحِلَّهُ}، وأقبل نبيّ الله ﷺ وأصحابه معتمرين في ذي القعدة، ومعهم الهدي، حتى إذا كانوا بالحُديبية، صدّهم المشركون، فصالحهم نبيّ الله ﷺ على أن يرجع من عامه ذلك، ثم يرجع من العام المقبل، فيكون بمكة

=

ثلاث ليال، ولا يدخلها إلا بسلاح الراكب، ولا يخرج بأحد من أهلها، فنحروا الهدي، وحلقوا، وقصَّروا، حتى إذا كان من العام المقبل، أقبل نبيّ ﷺ وأصحابه حتى دخلوا مكة معتمرين في ذي القعدة، فأقام بها ثلاث ليال، وكان المشركون قد فجروا عليه حين ردّوه، فأقصه الله منهم فأدخله مكة في ذلك الشهر الذي كانوا ردّوه فيه، فأنزل الله: {الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ}".

عن مجاهد: "أن النبيّ ﷺ اعتمر ثلاث عمر، كلها في ذي القعدة، يرجع في كلها إلى المدينة، منها العمرة التي صدّ فيها الهدي، فنحره في محله، عند الشجرة، وشارطوه أن يأتي في العام المقبل معتمرا، فيدخل مكة، فيطوف بالبيت ثلاثة أيام، ثم يخرج، ولا يحبسون عنه أحدا قدم معه، ولا يخرج من مكة بأحد كان فيها قبل قدومه من المسلمين؛ فلما كان من العام المقبل دخل مكة، فأقام بها ثلاثا يطوف بالبيت ؛ فلما كان اليوم الثالث قريبا من الظهر، أرسلوا إليه: إن قومك قد آذاهم مقامك، فنُودي في الناس: لا تغرب الشمس وفيها أحد من المسلمين قَدم مع رسول الله ﷺ".

قال الطبري: يقول:" ولولا رجال من أهل الإيمان ونساء منهم أيها المؤمنون بالله أن تطئوهم بخيلكم ورجلكم لم تعلموهم بمكة، وقد حبسهم المشركون بها عنكم، فلا يستطيعون من أجل ذلك الخروج إليكم فتقتلوهم، فتصيبكم منهم معرّة بغير علم لأذن الله لكم أيها المؤمنون في دخول مكة، ولكنه حال بينكم وبين ذلك".

قال ابن كثير:" أي: بين أظهرهم ممن يكتم إيمانه ويخفيه منهم خيفة على أنفسهم من قومهم، لكنا سَلَّطناكم عليهم فقتلتموهم وأبدتم خضراءهم، ولكن بين أفنائهم من المؤمنين والمؤمنات أقوام لا تعرفونهم حالة القتل؛ ولهذا قال: {لَمْ تَعْلَمُوهُمْ أَنْ تَطَئُوهُمْ فَتُصِيبَكُمْ مِنْهُمْ مَعَرَّةٌ}، أي: إثم وغرامة {بِغَيْرِ عِلْمٍ}".

=

قال قتادة:" هذا حين رد محمد وأصحابه أن يدخلوا مكة، فكان بها رجال مؤمنون ونساء مؤمنات، فكره الله أن يؤذوا أو يوطئوا بغير علم، فتصيبكم منهم معرّة بغير علم".

قال جنيد بن سبع: "قاتلت رسول الله ﷺ أول النهار كافرا، وقاتلت معه آخر النهار مسلما، وفينا نزلت: {وَلَوْلا رِجَالٌ مُؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُؤْمِنَاتٌ} قال: كنا تسعة نفر: سبعة رجال وامرأتين".

وفي قوله تعالى: {وَلَوْلَا رِجَالٌ مُؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُؤْمِنَاتٌ لَمْ تَعْلَمُوهُمْ أَنْ تَطَئُوهُمْ} [الفتح: ٢٥]، وجهان من التفسير:

أحدهما: أن تطئوهم بخيلكم وأرجلكم فتقتلوهم، قاله ابن أبزى، وابن عباس، وبه قال الطبري.

الثاني: لولا من في أصلاب الكفار وأرحام نسائهم من رجال مؤمنين ونساء مؤمنات لم يعلموهم أن يطئوا آباءهم فيهلك أبناؤهم، قاله الضحاك.

وفي قوله تعالى: {تَطَئُوهُمْ فَتُصِيبَكُمْ مِنْهُمْ مَعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ} [الفتح: ٢٥]، وجوه:

أحدها: الإثم بغير علم، قاله ابن زيد.

الثاني: غرم الدية، قاله ابن إسحاق، والفراء.

عن ابن إسحاق: " {فَتُصِيبَكُمْ مِنْهُمْ مَعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ} فتخرجوا ديته، فأما إثم فلم يحسبه عليهم".

قال الزجاج:" قيل: لولا أن يقتلوا منهم قوما مؤمنين خطأ فتلزمكم الديات، والمعنى - والله أعلم - لولا كراهة أن يلحقكم عنت بأن قتلتم من هو على دينكم إذ أنتم مختلطون بهم لعذبنا الذين كفروا منهم عذابا أليما".

قال الواحدي:" أما غرم الدية فهو قول محمد بن إسحاق بن يسار، وهو غلط لأن الله تعالى لم يوجب على قاتل المؤمن خطأ في دار الحرب الدية، وإنما أوجب

=

=

الكفارة في قوله: {فَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ عَدُوٍّ لَكُمْ} [النساء: ٩٢]، فالصحيح أن يقال: غرم الكفارة".

الرابع: الشدة، قاله قطرب.

الخامس: الغم. حكاه الماوردي.

السادس: كفارة قتل الخطأ، قاله الكلبي، والطبري.

قال الطبري:" المعرّة: هي المفعلة من: العرّ، وهو الجرب، وإنما المعنى: فتصيبكم من قبلهم معرّة تعرّون بها، يلزمكم من أجلها كفّارة قتل الخطأ، وذلك عتق رقبة مؤمنة، من أطاق ذلك، ومن لم يطق فصيام شهرين، وإنما اخترت هذا القول..، لأن الله إنما أوجب على قاتل المؤمن في دار الحرب إذا لم يكن هاجر منها، ولم يكن قاتله علم إيمانه الكفارة دون الدية، فقال: {فَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ عَدُوٍّ لَكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ} لم يوجب على قاتله خطأ ديته".

السابع: أن المعرة: العيب. قاله ابن قتيبة، والنحاس.

قال النحاس:" يقول المشركون قتلوا أهل دينهم ولو فعلتم لأدخلهم الله في رحمته".

قال ابن قتيبة:" كان بمكة قوم مؤمنون مختلطون بالمشركين غير متميزين ولا معروفي الأماكن، فلما صد المشركون رسول الله، ﷺ، عن المسجد الحرام وعكفوا الهدي أن يبلغ محله. قال الله سبحانه: لولا أن بمكة رجالا مؤمنين ونساء مؤمنات لا تعرفونهم فتطئوهم لو دخلتموها، أي تقتلوهم ليدخلهم الله في رحمته لو فعلتم فتصيبكم من قتلهم بغير علم معرة، أي: يعيبكم المشركون بذلك ويقولون: قد قتلوا أهل دينهم وعذبوهم كما فعلوا بنا، وتلزمكم الديات".

قوله تعالى: {لِيُدْخِلَ اللهُ فِي رَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ} [الفتح: ٢٥]، أي:" لكنّا سلّطناكم عليهم؛ ليدخل الله في رحمته من يشاء فيَمُنَّ عليهم بالإيمان بعد الكفر".

=

=

قال الطبري:" يقول: ليدخل الله في الإسلام من أهل مكة من يشاء قبل أن تدخلوها، وحذف جواب لولا استغناء بدلالة الكلام عليه".

قال ابن كثير:" أي: يؤخر عقوبتهم ليخلص من بين أظهرهم المؤمنين، وليرجع كثير منهم إلى الإسلام".

قال مقاتل:" منهم: عياش بن أبي ربيعة، وأبو جندل ابن سهيل بن عمرو، والوليد بن الوليد بن المغيرة، وسلمة بن هشام بن المغيرة، كلهم من قريش وعبد الله بن أسد الثقفي".

قوله تعالى: {لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا} [الفتح: ٢٥]، أي:" لو تميَّز هؤلاء المؤمنون والمؤمنات عن مشركي «مكة» وخرجوا من بينهم، لعذَّبنا الذين كفروا وكذَّبوا منهم عذابًا مؤلمًا موجعًا".

قال الفراء: أي:"لو تميز وخلص الكفار من المؤمنين، لأنزل الله بهم القتل والعذاب".

قال الطبري:" يقول: لو تميز الذين في مشركي مكة من الرجال المؤمنين والنساء المؤمنات الذين لم تعلموهم منهم، ففارقوهم وخرجوا من بين أظهرهم، لقتلنا من بقي فيها بالسيف، أو لأهلكناهم ببعض ما يؤلمهم من عذابنا العاجل".

قال مقاتل:" يقول: لو اعتزل المؤمنون الذين بمكة من كفارهم {لعذبنا الذين كفروا منهم}، يعني: كفار مكة {عذابا أليما}، يعني: وجيعا وهو القتل بالسيف".

قال ابن كثير:" أي: لو تميز الكفار من المؤمنين الذين بين أظهرهم {لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا}، أي: لسلطناكم عليهم فلقتلتموهم قتلا ذريعا".

عن الضحاك، قوله: " {لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ}، يعني: أهل مكة كان فيهم مؤمنون مستضعفون: يقول الله لولا أولئك المستضعفون لو قد تزيَّلوا، لعذّبنا الذين كفروا منهم عذابا أليما".

=

=

قال أبو عبيدة:" {لَوْ تَزَيَّلُوا}: لو انمازوا".

عن قتادة، قوله: " {لَوْ تَزَيَّلُوا} ... الآية، إن الله يدفع بالمؤمنين عن الكفار".

عن ابن زيد، قوله: " {لَوْ تَزَيَّلُوا}: لو تفرّقوا، فتفرّق المؤمن من الكافر، لعذّبنا الذين كفروا منهم عذابا أليما".

قال ابن عباس:" يقول: لو تزيل الكفار من المؤمنين، لعذبهم الله عذابا أليما بقتلهم إياهم".

(فائدة): كان في مكة مسلمون يكتمون إسلامهم؛ منعهم من الهجرة والخروج العذر؛ فبين الله أنه لم يسلط المؤمنين على الكافرين في مكة فيستبيحوهم قتلا وتشريدا بسبب طائفة مؤمنة تكتم إيمانها خوفا ورهبة، وبين الله أن هؤلاء المؤمنين مختفون؛ {لم تعلموهم}، وأنكم لو أصبتموهم، أصبتموهم بغير علم.

وفي هذا تعظيم دم المسلم وبيان شديد حرمته، فأخر الله قتال النبي ﷺ للمشركين؛ حتى تتحقق من ذلك مصالح؛ منها خلاص المسلمين بأنفسهم فيلحقون بالمؤمنين، وكذلك من كان في ريب من المشركين وتردد، وكتب الله عليه الرحمة: أن يلحق بالمؤمنين.

وفد بين الله تعالى أنه إنما أخر الأمر بالقتال لأجل ذلك، فقال: {لو تزيلوا لعذبنا الذين كفروا منهم عذابا أليما (٢٥)}؛ يعني: لو تمايزوا وخرج المؤمنون عن الكافرين، لاستحقوا القتال والنكال والعذاب بأيدي المؤمنين.

وقد صح عن قتادة؛ أنه قال: "هذا حين رد محمد وأصحابه أن يدخلوا مكة، فكان بها رجال مؤمنون ونساء مؤمنات، فكره الله أن يؤذوا أو يوطؤوا بغير علم، فتصيبكم منهم معرة بغير علم".

وقد روي أن عدد أولئك المؤمنين المختلطين بالمشركين ومن قصد الله بالرحمة قليل؛ حتى قيل: إنهم تسعة نفر؛ كما روى الطبراني؛ من حديث عبد الله بن عوف؛

=

=

قال: "سمعت جنيد بن سبع يقول: قاتلت رسول الله ﷺ أول النهار كافرا، وقاتلت معه آخر النهار مسلما، وفينا نزلت: {ولولا رجال مؤمنون ونساء مؤمنات}، قال: كنا تسعة نفر: سبعة رجال وامرأتين".

وروي أنهم ثلاثة رجال، وتسع نسوة.

وقوله تعالى: {فتصيبكم منهم معرة بغير علم}؛ المعرة: الإثم، وهو مشتق من العار، وهو العيب.

وأخذ منه بعضهم وجوب الدية عند قتلهم؛ كما قاله ابن إسحاق، والأظهر: عدم وجوب الدية؛ لأن الله أسقط الدية وأوجب الكفارة في قتل المؤمن الذي يكون في صف المشركين ولا يعلم له؛ كما قال تعالى: {فإن كان من قوم عدو لكم وهو مؤمن فتحرير رقبة مؤمنة} [النساء: ٩٢]، وقال تعالى: {والذين آمنوا ولم يهاجروا ما لكم من ولايتهم من شيء حتى يهاجروا} [الأنفال: ٧٢].

ولم يأمر النبي أسامة بدية من قتله لما تشهد وهو في صف المشركين، والحديث في "الصحيحين"، وقد تقدم الكلام على هذه المسألة عند قوله تعالى: {فإن كان من قوم عدو لكم وهو مؤمن فتحرير رقبة مؤمنة} [النساء: ٩٢].

* حكم تترس المشركين بالمسلمين:

التترس مأخوذ من الترس، وهو نوع من السلاح يتوقى به، وتترس الرجل بالترس؛ يعني: أنه توقى به.

ومسألة تترس الكفار بالمسلمين من المسائل المعروفة عند السلف والفقهاء، والكلام فيها ليس على باب واحد أو نوع متحد؛ وإنما هي على أحوال؛ وذلك أنه لا يخلو الجهاد غالبا من ذلك، خاصة في الزمن المتأخر في زمن تكاثر الشعوب والأمم واختلاطها، وتترس الكفار بالمسلمين على أقسام:

القسم الأول: أن يتترس الكفار بفئة من المسلمين، ومرادهم حماية أنفسهم فقط،

=

=

ولا خوف ولا ضرر على جماعة المسلمين من ترك أولئك الكافرين وإمهالهم حتى ينجو المؤمنون ولو طال الأمد، فلا يجوز رمي المشركين بما يقتل به المسلمون؛ وذلك كحال النبي ﷺ مع قريش؛ إذ منعه الله من دخول مكة بقتال يوم الحديبية؛ لأن في ذلك وطئا للمسلمين المتخفين بإيمانهم وسط المشركين، فيقتلون من حيث لا يعلم المؤمنون، وإلى هذا ذهب جمهور العلماء، خلافا للحنفية؛ فقد أجازوا الضرب بكل حال مع عدم قصد المسلمين عند الرمي، ولو أصابوهم، فلا شيء عليهم.

القسم الثاني: أن يترس الكفار بفئة من المسلمين، وليس مرادهم حماية أنفسهم فقط، بل للإضرار بالمسلمين، وبترك قتال المشركين يلحق المسلمين ضرر؛ وذلك كأن يترس الكفار بالمسلمين ويتخذوهم دروعا ليتقدموا ويقتلوا ويصيبوا المسلمين برميهم الرصاص والقذائف والسهام، فيظفروا بالمسلمين وحرماتهم، فإن امتنع المسلمون عن رميهم، تضرر المسلمون، وإن صدوهم، قتلوا المسلمين مع الكافرين، فلا يخلو الضرر الذي يلحق المؤمنين من حالين:

الأولى: أن يكون رمي المشركين يحقق ضررا بالمسلمين المترسين أشد من الضرر اللاحق لجماعة المسلمين عند رمي العدو لهم، كأن تكون الجماعة المترس بها كثيرة كألف رجل وامرأة من المسلمين، ولو رماهم المسلمون، لقتلوهم جميعا، ولو تركوا العدو يرميهم، فإنه لا يصيب منهم إلا قدرا يسيرا لا يذكر، فلا يجوز قتل المسلمين الذين يترس بهم العدو على الأرجح؛ وهذا كما تترس الباطنيون هذه الأيام من النصيرية بألفين من المسلمين في بعض نواحي الشام يحتمون بهم، وما يلحق أهل السنة من رميهم أقل من عشر معشار ما لو رموهم وقتلوهم مع المسلمين، فيجب عليهم عدم رميهم؛ حتى لا يصاب المسلمون لكثرتهم؛ وإنما يحاصرونهم حتى ينجي الله المؤمنين ويدفع شر

=

=

الباطنيين.

الثانية: أن يكون رمي المشركين يدفع عن المسلمين ضررا أشد من الضرر الذي يلحق المسلمين الذين تترس بهم العدو؛ كأن يتترس العدو بعدد قليل، ويقوم برمي المسلمين بما يمكنه من القذائف، فيصيب منهم ويقتل أكثر مما يقتله المسلمون من إخوانهم الذين يتترس بهم العدو، ولو ترك العدو لأجل تترسه لتقدم وأثخن بالمؤمنين واستباح الدماء والأعراض.

فيجوز رمي المشركين ولو قتلوا معهم من تترسوا بهم من المؤمنين، وقد حكى الاتفاق على جواز ذلك جماعة من العلماء كالقرطبي، وابن تيمية، وقد ذكر النووي وجها للشافعية بالمنع.

وبعض الفقهاء يجعل مناط المنع والجواز هو ضرر المسلمين من غير تفصيل، والصحيح التفصيل، والحاجة ماسة إليه، خاصة في زمننا؛ لكثرة المسلمين وتسلط الكفار والمشركين، فقد يحيط المشركون ويتترسون بأهل قرية كاملة من المسلمين، وفيها آلاف المسلمين، والمشركون قليل؛ ولكنهم تمكنوا منهم بقوة سلاح معهم، كما تترس الباطنيون وهم قليل في الشام بسجن فيه عشرة آلاف مسلم من أهل السنة؛ فلا يجوز ولا يصح أن يقال: إن كان في هؤلاء المشركين ضرر ولو قليلا على جماعة المسلمين المقاتلة، فإنه يجوز لهم أن يبيدوا المشركين ومن تترسوا به من أهل القرية جميعا، وأسلحة اليوم ليست كأسلحة السابقين، والتترس اليوم ليس كالتترس السابق؛ وإنما الواجب التفصيل في مقدار الضرر في التترس اللاحق من جهتي المسلمين المتترس بهم والمقاتلة.

وقد جاء عن مالك؛ أنه سئل عن قوم من المشركين في البحر في مراكبهم أخذوا أسارى المسلمين، فأدركهم أهل الإسلام وأرادوا أن يحرقوهم ومراكبهم بالنار ومعهم الأسارى في مراكبهم؟ قال مالك: لا أرى أن تلقى عليهم النار، ونهى عن

=

=

ذلك وقال: يقول الله تبارك وتعالى في كتابه لأهل مكة: {لو تزيلوا لعذبنا الذين كفروا منهم عذابا أليما}.

ويجب أن يعلم أن العلماء حينما ينصون على جواز قتل المترس به عند وجود الضرر بالمسلمين، فإنهم يتكلمون على ضرر متحقق، لا ظني متوهم.

القسم الثالث: الترس الذي يكون حال القتال وبتركه يتعطل الجهاد؛ وذلك أنه لا يتعلق بجهة أو بقعة وجماعة معينة؛ وإنما يتعطل به سير الجهاد، ولا يتقدم المسلمون له إلا بالرمي؛ ففي المسألة قولان قويان:

ذهب الشافعي: إلى جواز الرمي ولو قتل المترس بهم؛ لأن حرمة تعطيل الجهاد أعظم وأشد.

وذهب الأوزاعي والليث: إلى المنع.

ومن قال بالجواز احتج بأن الله حرم قتل النساء والصبيان والشيوخ من المشركين، ولكن إن كان لا يستمر الجهاد ولا يتمكن من العدو إلا بذلك، جاز فعله من غير قصدهم؛ كما جاء في حديث الصعب بن جثامة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ قال: سئل رسول الله عن أهل الدار يبيتون من المشركين، فيصاب من نسائهم وذراريهم؟ قال. (هم منهم)، وفى رواية: (هم من آبائهم).

ولكن حديث الصعب في حرمات ذراري المشركين ونسائهم وشيوخهم، لا في حرمة المسلمين؛ لتفاوت الحرمتين، فالله لما منع نبيه ﷺ من قتال قريش خشية إصابة المسلمين فيهم، لم يذكر نساء المشركين وذراريهم.

(إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا) أي: اذكر وقت جعل الذين كفروا، وهم كفار قريش.

(فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ) الحمية: الأنفة، أي: جعلوها ثابتة راسخة في قلوبهم، والجعل بمعنى: الإلقاء، والحمية: وذلك حين أبوا أن يكتبوا (بسم الله الرحمن الرحيم) وأبوا أن يكتبوا (هذا ما قاضى عليه محمد رسول الله).

=

=

ففي صحيح البخاري - في حديث صلح الحديبية - (.... فَجَاءَ سُهَيْلُ بْنُ عَمْرٍو فَقَالَ هَاتِ، اكْتُبْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ كِتَابًا، فَدَعَا النَّبِيُّ ﷺ الْكَاتِبَ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ «بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ». قَالَ سُهَيْلٌ أَمَّا الرَّحْمَنُ فَوَاللهِ مَا أَدْرِى مَا هُوَ وَلَكِنِ اكْتُبْ بِاسْمِكَ اللَّهُمَّ. كَمَا كُنْتَ تَكْتُبُ. فَقَالَ الْمُسْلِمُونَ وَاللهِ لاَ نَكْتُبُهَا إِلاَّ بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ. فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ «اكْتُبْ بِاسْمِكَ اللَّهُمَّ». ثُمَّ قَالَ «هَذَا مَا قَاضَى عَلَيْهِ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ». فَقَالَ سُهَيْلٌ وَاللهِ لَوْ كُنَّا نَعْلَمُ أَنَّكَ رَسُولُ اللهِ مَا صَدَدْنَاكَ عَنِ الْبَيْتِ وَلاَ قَاتَلْنَاكَ، وَلَكِنِ اكْتُبْ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللهِ. فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ «وَاللهِ إِنِّى لَرَسُولُ اللهِ وَإِنْ كَذَّبْتُمُونِى. اكْتُبْ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللهِ». قَالَ الزُّهْرِىُّ وَذَلِكَ لِقَوْلِهِ «لاَ يَسْأَلُونِى خُطَّةً يُعَظِّمُونَ فِيهَا حُرُمَاتِ اللهِ إِلاَّ أَعْطَيْتُهُمْ إِيَّاهَا» فَقَالَ لَهُ النَّبِىُّ ﷺ «عَلَى أَنْ تُخَلُّوا بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْبَيْتِ فَنَطُوفَ بِهِ». فَقَالَ سُهَيْلٌ وَاللهِ لاَ تَتَحَدَّثُ الْعَرَبُ أَنَّا أُخِذْنَا ضُغْطَةً وَلَكِنْ ذَلِكَ مِنَ الْعَامِ الْمُقْبِلِ فَكَتَبَ. فَقَالَ سُهَيْلٌ وَعَلَى أَنَّهُ لاَ يَأْتِيكَ مِنَّا رَجُلٌ، وَإِنْ كَانَ عَلَى دِينِكَ، إِلاَّ رَدَدْتَهُ إِلَيْنَا. قَالَ الْمُسْلِمُونَ سُبْحَانَ اللهِ كَيْفَ يُرَدُّ إِلَى الْمُشْرِكِينَ وَقَدْ جَاءَ مُسْلِمًا.

(فَأَنْزَلَ اللهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ) أي: أنزل الطمأنينة والوقار على رسوله وعلى المؤمنين حيث لم يدخلهم ما دخل أهل الكفر من الحمية، وثبتهم على الرضا والتسليم والاستجابة لأمر الرسول ﷺ، حيث أن شروط صلح الحديبية في ظاهرها غضاضة على المسلمين، لكن الله ثبتهم وطمأنهم واستجابوا لأمر الرسول ﷺ.

(وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى) وهي: لا إله إلا الله، وهذا قول الجمهور، وقيل: طاعتهم وثباتهم وعدم معصيتهم لرسول ﷺ عندما كتبتْ بنود الصلح وكانت مجحفة في حقوق المسلمين في الظاهر.

(وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا) أي: وكانوا أحق بهذه الفضيلة من كفار مكة، لأن الله

=

=

اختارهم لدينه وصحبة نبيه.

(وَكَانَ اللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا) فلا يخفى عليه شيء، عليم بمن يستحق الخير وبمن يستحق الشر.

وفي هذا دليل على أن المسلم أن يتقي الله ظاهرًا وباطنًا، لأن الله مطلع عليه لا تخفى عليه خافية.

قوله تعالى: {إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ} [الفتح: ٢٦]، أي:" إذ جعل الذين كفروا في قلوبهم الأَنَفَة أَنَفَة الجاهلية؛ لئلا يقروا برسالة محمد ﷺ".

وفي «حمية الجاهلية»، ثلاثة أقوال:

أحدها: العصبية لآلهتهم التي كانوا يعبدونها من دون الله، والأنفة من أن يعبدوا غيرها، قاله ابن بحر.

الثاني: أنهم لم يقرّوا «بسم الله الرحمن الرحيم»، وحالوا بينهم وبين البيت، قال الزهري.

قال ابن كثير:" وذلك حين أبوا أن يكتبوا: «بسم الله الرحمن الرحيم»، وأبوا أن يكتبوا: «هذا ما قاضى عليه محمد رسول الله»".

قال الطبري: يعني:" حين جعل سُهيل بن عمرو في قلبه الحمية، فامتنع إن يكتب في كتاب المقاضاة الذي كتب بين يدي رسول الله ﷺ والمشركين: بسم الله الرحمن الرحيم، وأن يكتب فيه: محمد رسول الله، وامتنع هو وقومه من دخول رسول الله ﷺ عامه ذلك.. وقال {حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ}، لأن الذي فعلوا من ذلك كان جميعه من أخلاق أهل الكفر، ولم يكن شيء منه مما أذن الله لهم به، ولا أحد من رسله".

عن سعيد بن المسيب:" أن أبا هريرة أخبره أن رسول الله ﷺ قال: «أُمِرْتُ أَنْ

=

=
أُقَاتِلَ النَّاسَ حتى يَقُولُوا لا إِلَهَ إلا اللهُ، فَمَنْ قال لا إِلَه إلا اللهُ فَقَدْ عَصَمَ مِنِّي مالَهُ وَنَفْسَهُ إلا بِحَقِّهِ وَحِسابُهُ على الله". وأنزل الله في كتابه، فذكر قوما استكبروا فقال: {إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لا إِلَهَ إلا اللهُ يَسْتَكْبِرُونَ} وقال الله {إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ فَأَنزلَ اللهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا}، وهي لا إله إلا الله محمد رسول الله، استكبر عنها المشركون يوم الحُدَيبية، يوم كاتبهم رسول الله ﷺ على قضية المدّة»".

الثالث: حموا أنفا أن يدخلها عليهم رسول الله ﷺ. قاله مقاتل، والفراء.

قال مقاتل:" وذلك أن النبي ﷺ قدم عام الحديبية في ذي القعدة معتمرا ومعه الهدى، فقال كفار مكة: قتل آباءنا وإخواننا ثم أتانا يدخل علينا في منازلنا ونساءنا، وتقول العرب: إنه دخل على رغم آنافنا، والله لا يدخلها أبدا علينا، فتلك الحمية التي في قلوبهم".

عن أبي بن كعب:" أنه كان يقرأ: {إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ} [الفتح: ٢٦]، ولو حميتم كما حموا لفسد المسجد الحرام. فبلغ ذلك عمر فأغلظ له، فقال: إنك لتعلم أني كنت أدخل على رسول الله ﷺ فيعلمني مما علمه الله. فقال عمر: بل أنت رجل عندك علم وقرآن، فاقرأ وعلم مما علمك الله ورسوله".

قوله تعالى: {فَأَنْزَلَ اللهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ} [الفتح: ٢٦]، أي:" فأنزل الله الطمأنينة على رسوله وعلى المؤمنين معه".

قال الطبري: يقول:" فأنزل الله الصبر والطمأنينة والوقار على رسوله وعلى المؤمنين، إذ حمى الذين كفروا حمية الجاهلية، ومنعوهم من الطواف بالبيت، وأبوا أن يكتبوا في الكتاب بينه وبينهم بسم الله الرحمن الرحيم، ومحمد رسول
=

=

الله".

قال الزجاج:" أنزل الله عليهم الوقار والهيبة".

وقال الفراء:" يقول: أذهب الله عن المؤمنين أن يدخلهم ما دخل أولئك من الحمية، فيعصوا الله ورسوله".

قوله تعالى: {وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى} [الفتح: ٢٦]، أي:" وألزمهم قول «لا إله إلا الله» التي هي رأس كل تقوى".

قال الطبري:"يقال: ألزمهم قول لا إله إلا الله التي يتقون بها النار، وأليم العذاب".

وفي قوله تعالى: {وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى} [الفتح: ٢٦]، وجوه:

أحدها: أنها قول لا إله إلا الله، قاله ابن عباس، وجماعة، وهو يروي عن النبي -ﷺ-.

قال ابن عباس:" يقول: شهادة أن لا إله إلا الله، فهي كلمة التقوى، يقول: فهي رأس التقوى".

وقال عطاء الخراسانيّ:" لا إله إلا الله محمد رسول الله".

قال مقاتل:" يعني: كلمة الإخلاص، وهي- لا إله إلا الله-".

عن مجاهد: " {وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى}، قال: لا إله إلا الله".

قال قتادة:" وهي: شهادة إن لا إله إلا الله".

قال عكرمة:" شهادة أن لا إله إلا الله".

قال الضحاك، وابن زيد:" هي لا إله إلا الله".

عن عمرو بن ميمون: "أنه كان يقول في هذه الآية {وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى}، قال: لا إله إلا الله".

عن عمرو بن ميمون: " {وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى}، قال: لا إله إلا الله".

عن علي -رضي الله عنه-، قوله: " {وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى}، قال: لا إله إلا الله".

=

=

عن عليّ الأزدي، قال:" كنت مع ابن عمر بين مكة ومنى بالمأزمين، فسمع الناس يقولون: لا إله إلا الله، والله أكبر، فقال: هي هي، فقلت: ما هي؟ قال: {وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى} الإخلاص {وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا}".

عن الطفيل، عن أبيه، سمع رسول الله ﷺ يقول: " {وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى}، قال: «لا إلَه إلا اللهُ»".

قال مقاتل:" يعني: كلمة الإخلاص وهي- لا إله إلا الله-".

الثاني: أنها: قول: «لا إله إلا الله، والله أكبر». وهذا مروي عن علي بن أبي طالب- أيضا، وابن عمر.

الثالث: أنها قول: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كل شيء قدير. قاله عطاء.

وعن المسور:" {وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى} قال: لا إله إلا الله، وحده لا شريك له".

الرابع: الإخلاص، قاله مجاهد.

عن مجاهد: " {وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى}، قال: الإخلاص"، وفي رواية:" كلمة الإخلاص".

الخامس: أنها: قول: «بسم الله الرحمن الرحيم»، قاله الزهري.

السادس: أنها: لا إله إلا الله والجهاد في سبيله. قاله سعيد بن جبير.

السابع: قولهم: «سمعنا وأطعنا» بعد خوضهم. وسميت كلمة التقوى لأنهم يتقون بها غضب الله. حكاه الماوردي.

قوله تعالى: {وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا} [الفتح: ٢٦]، أي:" وكان الرسول ﷺ والمؤمنون معه أحق بكلمة التقوى من المشركين، وكانوا كذلك أهل هذه الكلمة دون المشركين".

قال ابن كثير:" كان المسلمون أحق بها، وكانوا أهلها".

=

لَقَدْ صَدَقَ اللهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا (٢٧).

{لَقَدْ صَدَقَ الله رَسُوله الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ} رَأَى رَسُول الله ﷺ فِي النَّوْم عَام الْحُدَيْبِيَة قَبْل خُرُوجه أَنَّهُ يَدْخُل مَكَّة هُوَ وَأَصْحَابه آمِنِينَ وَيَحْلِقُونَ وَيُقَصِّرُونَ فَأَخْبَرَ بِذَلِكَ أَصْحَابه فَفَرِحُوا فَلَمَّا خَرَجُوا مَعَهُ وَصَدَّهُمْ الْكُفَّار بِالْحُدَيْبِيَةِ وَرَجَعُوا وَشَقَّ عَلَيْهِمْ ذَلِكَ وَرَابَ بَعْض الْمُنَافِقِينَ نَزَلَتْ وَقَوْله بِالْحَقِّ مُتَعَلِّق

=

قال الطبري: يقول:" وكان رسول الله ﷺ: والمؤمنون أحقّ بكلمة التقوى من المشركين وأهلها: يقول: وكان رسول الله ﷺ والمؤمنون أهل كلمة التقوى دون المشركين".

قال الزجاج:" أي: كانوا أحق بها من غيرهم، لأن الله - جل وعز - اختار لنبيه ﷺ ولدينه أهل الخير ومستحقيه، ومن هو أولى بالهداية من غيره".

قال قتادة:" وكان المسلمون أحقّ بها، وكانوا أهلها: أي التوحيد، وشهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمدا عبده ورسوله".

وفي قراءة عبد الله: «وكانُوا أهْلَها وأحَقَّ بها».

قوله تعالى: {وَكَانَ اللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا} [الفتح: ٢٦]، أي:" وكان الله بكل شيء عليمًا لا يخفى عليه شيء".

قال ابن كثير:" أي: هو عليم بمن يستحق الخير من يستحق الشر".

قال الطبري: يقول:" ولم يزل الله بكل شيء ذا علم، لا يخفى عليه شيء هو كائن، ولعلمه أيها الناس بما يحدث من دخولكم مكة وبها رجال مؤمنون، ونساء مؤمنات لم تعلموهم، لم يأذن لكم بدخولكم مكة في سفرتكم هذه".

بِصَدَقَ أو حال من الرؤيا وما بعدها تفسيرها {لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللهُ} لِلتَّبَرُّكِ {آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ} أَيْ جَمِيع شُعُورهَا {وَمُقَصِّرِينَ} بَعْض شُعُورهَا وَهُمَا حَالَانِ مُقَدَّرَتَانِ {لَا تَخَافُونَ} أبدا {فعلم} في الصلح {ما لا تَعْلَمُوا} مِنْ الصَّلَاح {فَجَعَلَ مِنْ دُون ذَلِكَ} أَيْ الدُّخُول {فَتْحًا قَرِيبًا} هُوَ فَتْح خَيْبَر وَتَحَقَّقَتْ الرُّؤْيَا فِي الْعَام الْقَابِل[1].

---

(١) ذكر سبب النزول.

عن مجاهد؛ قال: أُري رسول الله ﷺ وهو بالحديبية أنه يدخل مكة وهو وأصحابه آمنين محلقين رؤوسهم ومقصرين، فقال له أصحابه -حين نحر بالحديبية-: أين رؤياك يا رسول الله ﷺ؟! فأنزل الله ﷻ: {لَقَدْ صَدَقَ اللهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ} إلى قوله: {فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا}؛ يعني: النحر بالحديبية، ثم رجعوا ففتحوا خيبر، ثم اعتمر بعد ذلك، فكان تصديق رؤياه في السنة المقبلة.

أخرجه الطبري في "جامع البيان" (٢٦/ ٦٨)، والبيهقي في "دلائل النبوة" (٤/ ١٦٤) من طرق عن ابن أبي نجيح عنه به. وهذا مرسل صحيح الإسناد.

وذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٧/ ٥٣٨) وزاد نسبته للفريابي وعبد بن حميد وابن المنذر.

وعن عطاء؛ خرج النبي ﷺ معتمرًا، حتى أتى الحديبية، فخرجت إليه قريش، فردوه عن البيت، حتى كان بينهم كلام وتنازع؛ حتى كاد يكون بينهم قتال، قال: فبايع النبيَّ ﷺ أصحابُهُ، وعدتهم ألف وخمس مئة تحت الشجرة، وذلك يوم بيعة الرضوان، فقاضاهم النبي ﷺ، فقالت قريش: نقاضيك على أن تنحر الهدي مكانه، وتحلق وترجع، حتى إذا كان العام المقبل؛ نخلي لك مكة ثلاثة أيام، ففعل. قال: فخرجوا إلى عكاظ، فأقاموا فيها ثلاثًا، واشترطوا عليه أن لا يدخلها =

=

بسلاح إلا بالسيف، ولا تخرج بأحد من أهل مكة إن هرج معك، فنحر الهدي مكانه وحلق ورجع، حتى إذا كان في قابل تلك الأيام؛ دخل مكة، وجاء بالبدن معه، وجاء الناس معه، فدخل المسجد الحرام؛ فأنزل الله عليه: {لَقَدْ صَدَقَ اللهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللهُ آمِنِينَ}، قال: وأنزل عليه: {الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ} [البقرة:١٩٤]، فإن قاتلوكم في المسجد الحرام فقاتلوهم، فأحل لهم إن قاتلوهم في المسجد الحرام أن يقاتلوهم.

فأتاه أبو جندل بن سهل بن عمرو، وكان موثقًا، أوثقه أبوه، فرده إلى أبيه.

أخرجه ابن أبي شيبة في "المصنف" (١٤/ ٤٣٤ - ٤٣٥/ ١٨٦٩٠): حدثنا عبد الرحيم بن سليمان، عن أشعث بن سوّار، عن عطاء به. وهذا سند ضعيف؛ فيه علتان:

الأولى: الإرسال.

الثانية: أشعث بن سوار؛ ضعيف.

* قوله تعالى: (لَقَدْ صَدَقَ اللهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيا بِالْحَقِّ) (اللام) موطئة للقسم، و (قد) للتحقيق، أي: والله لقد (جعل الله رؤيا رسوله صادقة محققة لم يدخلها الشيطان لأنها رؤيا حق.

ففي البخاري - في حديث صلح الحديبية - (..... فَقَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ فَأَتَيْتُ نَبِيَّ اللهِ ﷺ فَقُلْتُ أَلَسْتَ نَبِيَّ اللهِ حَقًّا؟ قَالَ «بَلَى». قُلْتُ أَلَسْنَا عَلَى الْحَقِّ وَعَدُوُّنَا عَلَى الْبَاطِلِ؟ قَالَ «بَلَى». قُلْتُ فَلِمَ نُعْطِى الدَّنِيَّةَ فِى دِينِنَا إِذًا؟ قَالَ «إِنِّى رَسُولُ اللهِ، وَلَسْتُ أَعْصِيهِ وَهْوَ نَاصِرِى». قُلْتُ أَوَلَيْسَ كُنْتَ تُحَدِّثُنَا أَنَّا سَنَأْتِى الْبَيْتَ فَنَطُوفُ بِهِ؟ قَالَ «بَلَى، فَأَخْبَرْتُكَ أَنَّا نَأْتِيهِ الْعَامَ». قَالَ قُلْتُ لاَ. قَالَ «فَإِنَّكَ آتِيهِ وَمُطَّوِّفٌ بِهِ». قَالَ فَأَتَيْتُ أَبَا بَكْرٍ فَقُلْتُ يَا أَبَا بَكْرٍ، أَلَيْسَ هَذَا نَبِيَّ اللهِ حَقًّا؟ قَالَ بَلَى. قُلْتُ أَلَسْنَا

=

عَلَى الْحَقِّ وَعَدُوُّنَا عَلَى الْبَاطِلِ؟ قَالَ بَلَى. قُلْتُ فَلِمَ نُعْطِى الدَّنِيَّةَ فِى دِينِنَا إِذًا؟ قَالَ أَيُّهَا الرَّجُلُ، إِنَّهُ لَرَسُولُ اللهِ ﷺ وَلَيْسَ يَعْصِى رَبَّهُ وَهْوَ نَاصِرُهُ، فَاسْتَمْسِكْ بِغَرْزِهِ، فَوَاللهِ إِنَّهُ عَلَى الْحَقِّ. قُلْتُ أَلَيْسَ كَانَ يُحَدِّثُنَا أَنَّا سَنَأْتِى الْبَيْتَ وَنَطُوفُ بِهِ؟ قَالَ بَلَى، أَفَأَخْبَرَكَ أَنَّكَ تَأْتِيهِ الْعَامَ قُلْتُ لاَ. قَالَ فَإِنَّكَ آتِيهِ وَمُطَّوِّفٌ بِهِ).

ولما رجعوا من الحديبية ولم يدخلوا مكة قال المنافقون: والله ما حلقنا ولا قصرنا ولا دخلنا المسجد الحرام، فأنزل الله هذه الآية.

(لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللهُ) أي: لتدخلن يا محمد أنت وأصحابك المسجد الحرام بمشيئة الله.

قوله تعالى (إِنْ شَاءَ اللهُ) كيف يستثنى الله تعالى وهو العليم؟ قيل: لتعليم العباد لما يجب أن يقولوه كما في قوله تعالى (وَلا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا. إلا أَنْ يَشَاء الله)، وقال ثعلب: إن الله استثنى فيما يعلم ليستثني الخلق فيما لا يعلمون، وقيل: إنها حكاية ما قيل للنبي ﷺ في منامه، خوطب في منامه بما جرت به العادة.

(آمِنِينَ) أي: في حال دخولكم.

(مُحَلِّقِينَ رُؤُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ) أي: بعد دخولكم، أي: وتؤدون مناسك العمرة ثم يحلق بعضكم رأسه، ويقصر البعض، والحلق أفضل لدعاء النبي ﷺ فقد قال (اللهم ارحم المحلقين ثلاثًا).

قال الجصاص: (المقصد إخبارهم بأنهم يدخلون المسجد الحرام آمنين متقربين بالإحرام، فلما ذكر معه الحلق والتقصير: دل على أنهما قربة في الإحرام، وأن الإحلال بهما يقع، لولا ذلك ما كان للذكر ههنا وجه.. وهذا أيضا يدل على أنهما قربة ونسك عند الإحلال من الإحرام).

وقال ابن قدامة في الاستدلال على وجوب الحلق أو التقصير: (لأن الله تعالى وصفهم به، بقوله سبحانه: {محلقين رءوسكم ومقصرين} [الفتح:٢٧] ولو لم

=
يكن من المناسك لما وصفهم به).
وقال ابن النجار: (وإن كنى الشارع عن عبادة ببعض ما فيها، نحو: التعبير عن الإحرام بالنسك بأخذ الشعر في قوله تعالى: {محلقين رءوسكم ومقصرين} [الفتح:٢٧] دل على فرضية المكنى به عن تلك العبادة. فيدل قوله تعالى: {محلقين رءوسكم} على فرضية الحلق في الحج؛ لأن العرب لا تكني عن الشيء إلا بالأخص به. وكذا قوله تعالى: {وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل الغروب (٣٩)} [ق:٣٩] يدل على وجوب التسبيح في الصلاة. ذكره القاضي وابن عقيل) شرح الكوكب المنير ١/ ٢٥٦ بتصرف.
(لا تَخَافُونَ) ليس تكرار لقوله (آمنين) وإنما المعنى: نفي عنهم الخوف حال استقرارهم في البلد لا يخافون من أحد.
- وهذا كان في عمرة القضاء في ذي القعدة سنة سبع.
(فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا) أي: فعلم الله تعالى من الخيرة والمصلحة في صرفكم عن مكة ودخولكم إليها عامكم ذلك ما لم تعلموه أنتم.
قال القرطبي: أي علم ما في تأخير الدخول من الخير والصلاح ما لم تعلموه أنتم، وذلك أنه ﷺ لما رجع مضى منها إلى خيبر فافتتحها، ورجع بأموال خيبر وأخذ من العدة والقوة أضعاف ما كان فيه في ذلك العام، وأقبل إلى مكة على أهبة وقوة وعدة بأضعاف ذلك.
(فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ) أي: قبل دخولكم الذي وعدتم به في رؤيا النبي ﷺ.
(فَتْحًا قَرِيبًا) وهو صلح الحديبية، قال القرطبي: قاله أكثر المفسرين، وسمي فتحًا لما ترتب عليه من الآثار الجليلة، والعواقب الحميدة، ولهذا روى البخاري عن البراء قال (تعدون أنتم الفتح - فتح مكة - وقد كان فتح مكة فتحًا، ونحن نعد الفتح بيعة الرضوان يوم الحديبية)، قال الزهري: ما فتح الله في الإسلام كان أعظم
=

=

من صلح الحديبية، وقيل: المراد فتح خيبر.

قوله تعالى: {لَقَدْ صَدَقَ اللهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ} [الفتح: ٢٧]، أي:" لقد صدق الله رسوله محمدًا ﷺ رؤياه التي أراها إياه بالحق أنه يدخل هو وأصحابه بيت الله الحرام آمنين، لا تخافون أهل الشرك، محلِّقين رؤوسكم ومقصِّرين".

قال الطبري: يقول: " لقد صدق الله رسوله محمدا رؤياه التي أراها إياه أنه يدخل هو وأصحابه بيت الله الحرام آمنين، لا يخافون أهل الشرك، مقصِّرا بعضهم رأسه، ومحلِّقا بعضهم".

قال ابن عباس:" هو دخول محمد ﷺ البيت والمؤمنون، محلقين رءوسهم ومقصرين".

قال مجاهد:" أُرِيَ بالحُديبية أنه يدخل مكة وأصحابه محلقين، فقال أصحابه حين نحر بالحُديبية: أين رؤيا محمد ﷺ؟".

قال قتادة:" رأى رسول الله ﷺ أنه يطوف بالبيت وأصحابه، فصدّق الله رؤياه، فقال: {لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللهُ آمِنِينَ}... حتى بلغ: {لا تَخَافُونَ}".

قال قتادة:" أُري في المنام أنهم يدخلون المسجد الحرام، وأنهم آمنون محلِّقين رءوسهم ومقصِّرين".

قال ابن زيد:" قال لهم النبي ﷺ: «إنّي قَدْ رأَيْتُ أنَّكُمْ سَتَدْخُلُونَ المَسْجِدَ الحَرَام مُحَلِّقِينَ رُءوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ»، فلما نزل بالحُديبية ولم يدخل ذلك العام طعن المنافقون في ذلك، فقالوا: أين رؤياه؟ فقال الله: {لَقَدْ صَدَقَ اللهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ}، فقرأ حتى بلغ: {وَمُقَصِّرِينَ لا تَخَافُونَ} إني لم أره يدخلها هذا العام، وليكوننّ ذلك".

قال ابن إسحاق:" لرؤيا رسول الله ﷺ التي أريها أنه سيدخل مكة آمنا لا يخاف،

=

يقول: محلقين ومقصرين لا تخافون".

قال ابن كثير:" كان رسول الله ﷺ قد أُرِيَ في المنام أنه دخل مكة وطاف بالبيت فأخبر أصحابه بذلك وهو بالمدينة، فلما ساروا عام الحديبية لم يشك جماعة منهم أن هذه الرؤيا تتفسر هذا العام، فلما وقع ما وقع من قضية الصلح ورجعوا عامهم ذلك على أن يعودوا من قابل، وقع في نفوس بعض الصحابة من ذلك شيء، حتى سأل عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، في ذلك، فقال له فيما قال: أفلم تكن تخبرنا أنا سنأتي البيت ونطوف به؟ قال: "بلى، أفأخبرتك أنك تأتيه عامك هذا" قال: لا قال: "فإنك آتيه ومطوف به". وبهذا أجاب الصديق، رضي الله عنه، أيضا حَذْو القُذَّة بالقُذَّة؛ ولهذا قال تعالى: {لَقَدْ صَدَقَ اللهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللهُ}، وقوله: {آمِنِينَ}، أي: في حال دخولكم. وقوله: {مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ}، حال مقدرة؛ لأنهم في حال حرمهم لم يكونوا محلقين ومقصرين، وإنما كان هذا في ثاني الحال، كان منهم من حلق رأسه ومنهم من قصره، وثبت في الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال: "رحم الله المحلقين"، قالوا: والمقصرين يا رسول الله؟ قال: "رحم الله المحلقين". قالوا: والمقصرين يا رسول الله؟ قال: "رحم الله المحلقين". قالوا: والمقصرين يا رسول الله؟ قال: "والمقصرين" في الثالثة أو الرابعة».

قال ابن كثير:"... وقوله: {لا تَخَافُونَ}: حال مؤكدة في المعنى، فأثبت لهم الأمن حال الدخول، ونفى عنهم الخوف حال استقرارهم في البلد لا يخافون من أحد. وهذا كان في عمرة القضاء في ذي القعدة سنة سبع، فإن النبي ﷺ لما رجع من الحديبية في ذي القعدة رجع إلى المدينة فأقام بها ذا الحجة والمحرم، وخرج في صفر إلى خيبر ففتحها الله عليه بعضها عنوة وبعضها صلحا، وهي إقليم عظيم كثير النخل والزروع، فاستخدم من فيها من اليهود عليها على الشطر، وقسمها بين

=

أهل الحديبية وحدهم، ولم يشهدها أحد غيرهم إلا الذين قدموا من الحبشة، جعفر بن أبي طالب وأصحابه، وأبو موسى الأشعري وأصحابه، ولم يغب منهم أحد، قال ابن زيد: إلا أبا دجانة سِمَاك بن خَرَشَة، كما هو مقرر في موضعه ثم رجع إلى المدينة، فلما كان في ذي القعدة في سنة سبع خرج إلى مكة معتمرا هو وأهل الحديبية، فأحرم من ذي الحليفة، وساق معه الهدي، قيل: كان ستين بدنة، فلبى وسار أصحابه يلبون. فلما كان قريبا من مر الظهران بعث محمد بن مسلمة بالخيل والسلاح أمامه، فلما رآه المشركون رعبوا رعبا شديدا، وظنوا أن رسول الله ﷺ يغزوهم، وأنه قد نكث العهد الذي بينه بينهم من وضع القتال عشر سنين، وذهبوا فأخبروا أهل مكة، فلما جاء رسول الله ﷺ فنزل بمر الظهران حيث ينظر إلى أنصاب الحرم، بعث السلاح من القسي والنبل والرماح إلى بطن يأجج، وسار إلى مكة بالسيف مغمدة في قربها، كما شارطهم عليه. فلما كان في أثناء الطريق بعثت قريش مِكْرَز بن حفص فقال: يا محمد، ما عرفناك تنقض العهد. قال: "وما ذاك؟ " قال: دخلت: علينا بالسلاح والقسي والرماح. فقال: "لم يكن ذلك، وقد بعثنا به إلى يأجج"، فقال: بهذا عرفناك، بالبر والوفاء. وخرجت رؤوس الكفار من مكة لئلا ينظروا إلى رسول الله -ﷺ- ولا إلى أصحابه غيظا وحنقا، وأما بقية أهل مكة من الرجال والنساء والولدان فجلسوا في الطرق وعلى البيوت ينظرون إلى رسول الله ﷺ وأصحابه، فدخلها عليه الصلاة والسلام، وبين يديه أصحابه يلبون، والهدي قد بعثه إلى ذي طوى، وهو راكب ناقته القصواء التي كان راكبها يوم الحديبية، وعبد الله بن رواحة الأنصاري آخذ بزمام ناقة رسول الله ﷺ يقودها، وهو يقول:

باسم الذي لا دين إلا دينُه... باسم الذي محمدٌ رسوله
خَلُّوا بني الكُفَّار عَنْ سَبِيله... اليوم نضربكم على تَأْويله

=

=

كما ضربناكم على تنزيله... ضربًا يزيلُ الهام عَن مَقِيله
ويُذْهِل الخليل عن خليله... قد أنزل الرحمن في تنزيله
في صُحف تتلى على رسُوله... بأن خير القَتْل في سبيله
يا رب إني مؤمن بقيله
فهذا مجموع من روايات متفرقة".

وفي قوله تعالى: {لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ} [الفتح: ٢٧]، ثلاثة وجوه:

أحدها: أن «إن» بمعنى: «إذ»، والمعنى: إذ شاء الله، كقوله: {إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِين} [البقرة: ٢٧٨]، {إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا} [النور: ٣٣]. وهذا قول أبي عبيدة، واختاره القشيري.

الثاني: أن الاستثناء من الدخول، ومعناه: إن شاء الله في دخول جميعكم أو بعضكم، ولأنه علم أن بعضهم يموت، قاله الحسين بن الفضل، وحكاه النحاس وحسّنه.

قال الحسين بن الفضل: "يجوز أن يكون الاستثناء من الدخول، لأن بين الرؤيا وتصديقها سنة، ومات في تلك السنة ناس فمجاز الآية: لتدخلن المسجد الحرام كلكم إن شاء الله".

قال النحاس:" ومن حسن ما فيه: أن يكون الاستثناء لمن قتل منهم أو مات".

الثالث: أن الاستثناء واقع على الأمن لا على الدخول، لأن الدخول لم يكن فيه شك، كقول النبي ﷺ عند دخول المقبرة: «وإنا إن شاء الله بكم لاحقون»، فالاستثناء راجع إلى اللحوق لا إلى الموت. حكاه النحاس، والبغوي.

الرابع: أن قوله: {لَتَدْخُلُنَّ} [الفتح: ٢٧] من قول رسول الله ﷺ لأصحابه حكاية عن رؤياه، فأخبر الله عن رسوله أنه قال ذلك، وإنما استثنى مع علمه بدخولها

=

=

بإخبار الله تعالى، تأدبا بآداب الله، حيث قال له: {وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا (٢٣) إِلَّا أَنْ يَشَاءَ} [الكهف: ٢٣ - ٢٤]. هذا قول ابن كيسان، وحسّنه الواحدي.

قال الواحدي:" والاستثناء بالمشيئة على هذا القول حسن، لأنه من كلام رسول الله -ﷺ-، ثم معنى الاستثناء بالمشيئة يجوز أن يعود إلى الدخول، ويجوز أن يعود إلى الأمن، أي: لتدخلنه إن شاء الله الدخول، أو لتدخلنه آمنين إن شاء الله الأمن".

الخامس: معناه: لتدخلن إن أمركم الله، فالمشيئة هاهنا بمعنى الأمر؛ لأنه إذا شاء أمر. ذكره الزجاج.

السادس: أن يكون {إن شاء الله} على ما أمر الله به في كلِّ ما يُتوقع فقال: {وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا (٢٣) إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ} [الكهف: ٢٣]،. ذكره الزجاج.

وهذا معنى ما روي عن أبي العباس أنه سئل عن هذا، فقال: "استثنى الله فيما يعلم، ليستثني الخلق فيما لا يعلمون".

قال سهل بن عبد الله:" قيل: ما هذا الاستثناء؟ قال: هذا تعليم للعباد وتأديب لهم بشدة الافتقار إليه في كل وقت وحال وتأكيد، فإن الحق إذا استثني مع كمال علمه لم يكن لأحد من عباده مع قصور علمهم أن يحكم في شيء من غير استثناء".

قال ابن كثير: قوله: " {لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ}: لتحقيق الخبر وتوكيده، وليس هذا من الاستثناء في شيء".

قوله تعالى: {فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا} [الفتح: ٢٧]، أي:" فعلم الله من الخير والمصلحة -في صرفكم عن «مكة» عامكم ذلك ودخولكم إليها فيما بعد- ما لم تعلموا أنتم".

=

=

قال الطبري: يقول:" فعلم الله جلّ ثناؤه ما لم تعلموا، وذلك علمه تعالى ذكره بما بمكة من الرجال والنساء المؤمنين، الذين لم يعلمهم المؤمنون، ولو دخلوها في ذلك العام لوطئوهم بالخيل والرَّجل، فأصابتهم منهم معرّة بغير علم، فردّهم الله عن مكة من أجل ذلك".

قال الثعلبي: " {فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا} أن الصلاح كان في الصلح، وهو قوله: {وَلَوْلَا رِجَالٌ مُؤْمِنُون..} [الفتح: ٢٥] الآية".

قال الفراء:" {فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا} من تأخير تأويل الرؤيا".

قال السمعاني:" أي: وقت ظهور الرؤيا".

قال مقاتل:" " {فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا} أنه يفتح عليهم خيبر قبل ذلك".

قال ابن أبي زمنين: أي:" فتح خيبر".

عن ابن عباس، قوله: " {فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا}، يقول: إن ذلك الدخول أي سنة؟ ولم تعلموا أنتم".

قال ابن زيد:" ردّه لمكان من بين أظهرهم من المؤمنين والمؤمنات، وأخره ليدخل الله في رحمته من يشاء من يريد أن يهديه".

قوله تعالى: {فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا} [الفتح: ٢٧]، أي:" فجعل مِن دون دخولكم «مكة» الذي وعدتم به، فتحًا قريبًا، وهو هدنة «الحديبية» وفتح «خيبر»".

وفي قوله تعالى: {فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا} [الفتح: ٢٧]، ثلاثة وجوه:

أحدها: أنه الصلح الذي جرى بين رسول الله -ﷺ- وقريش بالحديبية، قاله مجاهد، والزهري، وابن إسحاق.

قال مجاهد:" يعني: النحر بالحديبية، ثم رجعوا ففتحوا خيبر، ثم اعتمر بعد ذلك فكان تصديق رؤياه في السنة المقبلة".

=

=

عن الزهريّ، قوله: " {فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا}، يعني: صلح الحُديبية، وما فتح في الإسلام فتح كان أعظم منه، إنما كان القتال حيث ألتقى الناس؛ فلما كانت الهدنة وضعت الحرب، وأمن الناس كلهم بعضهم
بعضا، فالتقَوا فتفاوضوا في الحديث والمنازعة، فلم يكلم أحد بالإسلام يعقل شيئا إلا دخل فيه، فلقد دخل في تينك السنتين في الإسلام مثل من كان في الإسلام قبل ذلك وأكثر".

قال الثعلبي:" أي: " {فَجَعَلَ مِنْ دُونِ} دخولهما المسجد الحرام، وتحقيق رؤيا رسول الله فتحا قريبا وهو صلح الحديبية عن أكثر المفسرين".

الثاني: أنه فتح خيبر. قاله ابن زيد.

عن ابن زيد، قوله: " {فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا}، قال: خيبر، حين رجعوا من الحُديبية، فتحها الله عليهم، فقسمها على أهل الحديبية كلهم إلا رجلا واحدا من الأنصار، يقال له: أبو دجانة سماك بن خرشة، كان قد شهد الحديبية وغاب عن خَيبر".

الثالث: فتح مكة، قاله الضحاك.

قال الطبري:" وأولى الأقوال في ذلك بالصواب أن يقال: إن الله أخبر أنه جعل لرسوله والذين كانوا معه من أهل بيعة الرضوان فتحا قريبا من دون دخولهم المسجد الحرام، ودون تصديقه رؤيا رسول الله ﷺ وكان صلح الحُديبية وفتح خيبر دون ذلك، ولم يخصص الله تعالى ذكره خبره ذلك عن فتح من ذلك دون فتح، بل عمّ ذلك، وذلك كله فتح جعله الله من دون ذلك.

والصواب أن يعمه كما عمه، فيقال: جعل الله من دون تصديقه رويا رسول الله ﷺ بدخوله وأصحابه المسجد الحرام محلّقين رءوسهم ومقصّرين، لا يخافون المشركين صلح الحُديبية وفتح خيبر".

هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَى بِاللهِ شَهِيدًا (٢٨).

{هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُوله بِالْهُدَى وَدِين الْحَقّ لِيُظْهِرهُ} أَيْ دِين الْحَقّ {عَلَى الدِّين كُلّه} عَلَى جَمِيع بَاقِي الْأَدْيَان {وَكَفَى بِاَللهِ شَهِيدًا} أَنَّك مُرْسَل بِمَا ذُكِرَ كَمَا قَالَ الله تعالى[1].

---

(١) قوله تعالى: (هُوَ) أي: الله ﷻ.

(الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ) وهو محمد ﷺ.

والرسول من أوحي إليه بشرع وأمر بتبليغه.

(بِالْهُدَى) أي: بالقرآن الفارق بين الحق والباطل، كما قال تعالى (شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدىً لِلنَّاسِ).

(وَدِينِ الْحَقِّ) وهو دين الإسلام، الذي لا يقبل الله غيره كما قال تعالى (إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللهِ الْإِسْلامُ) وقال تعالى (ومنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ).

(لِيُظْهِرَهُ) اللام للتعليل، ومعنى (ليظهره) أي: يعليه وينصره، لأن الظهور بمعنى العلو، واختلف في مرجع الضمير على قولين: فقيل: الضمير عائد إلى الرسول ﷺ، أي: أرسله بهذا الهدى ليظهره على جميع الأديان، وقيل: الضمير يعود للدين، أي: ليظهر دين الإسلام، وهذا قول الأكثر.

(عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ) أي: على جميع أهل الأديان من سائر الأرض، وهذا الإعلاء يدخل فيه إظهاره بالحجة والبرهان، فبراهينه قاطعة، وحججه ساطعة، وكتابه محفوظ.

(وَكَفَى بِاللهِ شَهِيدًا) أي: وكفى بالله شاهدًا على أن محمدًا رسوله.

قوله تعالى: {هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ} [الفتح: ٢٨]، أي:" هو
=

=

الذي أرسل رسوله محمدًا ﷺ، بالبيان الواضح ودين الإسلام".

قال الطبري: يعني:" الذي أرسل رسوله محمدا ﷺ بالبيان الواضح، وَدِين الحَق، وهو الإسلام؛ الذي أرسله داعيا خلقه إليه".

قال ابن كثير:" أي: بالعلم النافع والعمل الصالح؛ فإن الشريعة تشتمل على شيئين: علم وعمل، فالعلم الشرعي صحيح، والعمل الشرعي مقبول، فإخباراتها حق وإنشاءاتها عدل".

قال السعدي:" {بِالْهُدَى} الذي هو العلم النافع، الذي يهدي من الضلالة، ويبين طرق الخير والشر، {وَدِينِ الْحَقِّ} أي: الدين الموصوف بالحق، وهو العدل والإحسان والرحمة، وهو كل عمل صالح مزك للقلوب، مطهر للنفوس، مرب للأخلاق، معل للأقدار".

قوله تعالى: {لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ} [الفتح: ٢٨]، أي:" ليُعْليه على الملل كلها".

قال مقاتل:" يعني: على ملة أهل الأديان كلها، ففعل الله ذلك به حتى قتلوا وأقروا بالخراج، وظهر الإسلام على أهل كل دين".

قال الطبري: يعني:" ليبطل به الملل كلها، حتى لا يكون دين سواه، وذلك كان كذلك حتى ينزل عيسى ابن مريم، فيقتل الدجال، فحينئذ تبطل الأديان كلها، غير دين الله الذي بعث به محمدا ﷺ، ويظهر الإسلام على الأديان كلها".

قال ابن كثير:" أي: على أهل جميع الأديان من سائر أهل الأرض، من عرب وعجم ومليين ومشركين".

قال السعدي:" {لِيُظْهِرَهُ} بما بعثه الله به {عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ} بالحجة والبرهان، ويكون داعيا لإخضاعهم بالسيف والسنان".

قال الفراء:" يقال: لا تذهب الدنيا حتى يغلب الإسلام على أهل كل دين، أو

=

=

يؤدوا إليهم الجزية، فذلك قوله {لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ}".

عن مجاهد: {لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ}، قال: " لا يكون ذلك حتى لا يبقى يهودي ولا نصراني ولا صاحب ملة إلا الإسلام وحتى تأمن الشاة الذئب والبقرة الأسد، والإنسان الحية وحتى لا تقرض فأرة جرابا وحتى توضع الجزية ويكسر الصليب ويقتل الخنزير فهو قوله: ليظهره على الدين كله".

وروي عن الضحاك، أنه قال: "يظهر الإسلام على الدين كل دين".

عن أبي جعفر:" {ليظهره على الدين كله}، قال: إذا خرج عيسى عليه السلام، اتبعه أهل كل دين".

عن أبي هريرة، أن النبي -صلي الله عليه وسلم - قال: "إذا هلك كسرى فلا كسرى بعده، وإذا هلك قيصر فلا قيصر بعده، والذي نفس محمَّد بيده، لتنفقن كنوزهما في سبيل الله".

قال عبد الله بن مسعود:" إذا أنزل عليهم ابن مريم لم يكن في الأرض دين إلا دين الإسلام. قال: فذلك قوله عز وجل: {ليظهره على الدين كله}".

قوله تعالى: {وَكَفَى بِاللهِ شَهِيدًا} [الفتح: ٢٨]، أي:" وحسبك -أيها الرسول- بالله شاهدًا على أنه ناصرك ومظهر دينك على كل دين".

قال الطبري:" يقول جلّ ثناؤه لنبيه صلى الله عليه وسلم: أشهدك يا محمد ربك على نفسه، أنه سيظهر الدين الذي بعثك به وحسبك به شاهدا.. وهذا إعلام من الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم، والذين كرهوا الصلح يوم الحديبية من أصحابه، أن الله فاتح عليهم مكة وغيرها من البلدان، مسليهم بذلك عما نالهم من الكآبة والحزن، بانصرافهم عن مكة قبل دخولهموها، وقبل طوافهم بالبيت".

قال الحسن:" يقول: أشهد لك على نفسه أنه سيظهر دينك على الدين كله".

قال ابن كثير:" أي: أنه رسوله، وهو ناصره".

=

مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا (٢٩).

{مُحَمَّد} مُبْتَدَأ {رَسُول الله} خَبَره {وَالَّذِين مَعَهُ} أَيْ أَصْحَابه مِنْ الْمُؤْمِنِينَ مُبْتَدَأ خَبَره {أَشِدَّاء} غِلَاظ {عَلَى الْكُفَّار} لَا يَرْحَمُونَهُمْ {رُحَمَاء بَيْنهمْ} خَبَر ثَانٍ أَيْ مُتَعَاطِفُونَ مُتَوَادُّونَ كَالْوَالِدِ مَعَ الْوَلَد {تَرَاهُمْ} تُبْصِرهُمْ {رُكَّعًا سُجَّدًا} حَالَانِ {يَبْتَغُونَ} مُسْتَأْنَف يَطْلُبُونَ {فَضْلًا مِنْ الله وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ} عَلَامَتهمْ مُبْتَدَأ {فِي وُجُوههمْ} خَبَره وَهُوَ نُور وَبَيَاض يُعْرَفُونَ بِهِ فِي الْآخِرَة أَنَّهُمْ سَجَدُوا فِي الدُّنْيَا {مِنْ أَثَر السُّجُود} مُتَعَلِّق بِمَا تَعَلَّقَ بِهِ الْخَبَر أَيْ كَائِنَة وَأُعْرِبَ حَالًا مِنْ ضَمِيره الْمُنْتَقِل إلَى الْخَبَر {ذَلِكَ} الْوَصْف الْمَذْكُور {مَثَلهمْ} صِفَتهمْ مُبْتَدَأ {فِي التَّوْرَاة} خَبَره {وَمَثَلهمْ فِي الْإِنْجِيل} مُبْتَدَأ خَبَره {كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ} بِسُكُونِ الطَّاء وَفَتْحهَا فِرَاخه {فَآزَرَهُ} بِالْمَدِّ وَالْقَصْر قَوَّاهُ وَأَعَانَهُ {فَاسْتَغْلَظَ} غَلُظَ {فَاسْتَوَى} قَوِيَ وَاسْتَقَامَ {عَلَى سُوقه} أُصُوله جَمْع سَاق {يُعْجِب

=

قال مقاتل:" فلا شاهد أفضل من الله تعالى بأن محمدا ﷺ رسول الله، فلما كتبوا الكتاب يوم الحديبية، وكان كتبه علي بن أبي طالب- عليه السلام- فقال سهيل بن عمرو وحو يطب بن عبد العزى: لا نعرف أنك رسول الله، ولو عرفنا ذلك لقد ظلمناك إذا حين نمنعك عن دخول بيته. فلما أنكروا أنه رسول الله، أنزل الله تعالى: {هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدى} من الضلال، {وَدِينِ الْحَقِّ} إلى آخر السورة".

الزُّرَّاع} أَيْ زُرَّاعه لِحُسْنِهِ مِثْل الصَّحَابَة ﭫ بذلك لأنهم بدأوا فِي قِلَّة وَضَعْف فَكَثُرُوا وَقَوُوا عَلَى أَحْسَن الْوُجُوه {لِيَغِيظَ بِهِمْ الْكُفَّار} مُتَعَلِّق بِمَحْذُوفٍ دَلَّ عَلَيْهِ مَا قَبْله أَيْ شُبِّهُوا بِذَلِكَ {وَعَدَ الله الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَات مِنْهُمْ} الصَّحَابَة وَمِنْ لِبَيَانِ الْجِنْس لَا لِلتَّبْعِيضِ لِأَنَّهُمْ كُلّهمْ بِالصِّفَةِ الْمَذْكُورَة {مَغْفِرَة وَأَجْرًا عَظِيمًا} الْجَنَّة وَهُمَا لِمَنْ بَعْدهمْ أَيْضًا فِي آيَات[1].

---

(١) قوله تعالى: (مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ) يخبر تعالى عن محمد ﷺ أنه رسوله حقًا بلا شك ولا ريب.

- قوله تعالى (رسول الله) الرسول: هو من أوحي إليه بشرع وأمر بتبليغه.

- قوله تعالى (محمد) هو محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم وهاشم من قريش، وهذا الاسم - محمد - هو اسمه الأشهر وذكر في القرآن في أربع مرات: قال تعالى (وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ).

وقال تعالى (مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ....).

وقال تعالى (وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ).

(وَالَّذِينَ مَعَهُ) وهم صحابته.

- والصحابي: هو من لقي النبي ﷺ مؤمنًا ومات على ذلك ولو تخللته ردة.

(أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ) أي: أغلاظ عليهم كما يغلظ الأسد على فريسته لا يرحمونهم، وذلك لأسباب:

أولًا: لأنهم كفروا بالله وعادوه ولم يؤمنوا به ولم يجيبوه، والثاني: أن الغلظة والشدة قد تكون سببًا في هدايتهم، لأنهم يتألمون بها، ويرون خلافها مع المسلمين فيسلمون فيرحمون ويفوزون.

- من علامات الإيمان - بل من أعظم علامات الإيمان - مغايظة الكفار =

=

ومراغمتهم وبغضهم، وهي من علامات المحبة الصادقة.

(رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ) أي: فيما بينهم، يتعاطفون ويتراحمون ويحب بعضهم بعضًا.

وهذه من أعظم صفات المؤمن الصادق: أن يكون عنيفًا على الكفار، رحيمًا برًا بالأخيار، غضوبًا عبوسًا في وجه الكافر، ضحوكًا بشوشًا في وجه أخيه المؤمن.

كما قال تعالى (فَسَوْفَ يَأْتِي اللهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ).

وقال تعالى (يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ).

وقال تعالى (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً).

وقال ﷺ (مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى) متفق عليه.

وقال ﷺ (المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضًا) متفق عليه.

- فمن علامات المحبة الصادقة حب ما يحب الله وبغض ما يبغضه الله.

قال ابن القيم: فالولاية عبارة عن موافقة الولي الحميد في محابه ومساخطه، وليست بكثرة صوم ولا صلاة.

وقال رَحِمَهُ اللهُ - لما ذكر أنواع المحبة - قال: محبة ما يحبه الله، وهذه هي التي تدخله في الإسلام وتخرجه من الكفر، وأحب الناس إلى الله أقومهم بهذه المحبة وأشدهم فيها.

وقال ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ: وليعلم أن المؤمن تجب موالاته وإن ظلمك واعتدى عليك، والكافر تجب معاداته وإن أعطاك وأحسن إليك.

(تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا) أي: تراهم أيها السامع راكعين ساجدين من كثرة صلاتهم

=

=

وعبادتهم، رهبان بالليل أسود بالنهار.
(يَبْتَغُونَ) أي: يطلبون بصلاتهم بعد إيمانهم وتعاونهم وتحاببهم وتعاطفهم، يطلبون بذلك:
(فَضْلًا مِنَ اللهِ) الفضل في الأصل: الزيادة، أي: يطلبون الفضل من الله الذي هو خالقهم ومالكهم ومدبرهم، ومن أعظم فضل الله دخول الجنة، كما قال تعالى (فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ).
(وَرِضْوَانًا) أي: ويطلبون رضا الله تبارك وتعالى، بأن يرضى عنهم، فإذا رضي عنهم وأحبهم كتب لهم القبول في السماء والأرض، فأحبهم الناس ورضوا عنهم.
- وفي هذا إشارة إلى أهمية الإخلاص لله في جميع العبادات والطاعات.
(سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ) السيما العلامة، أي: وعلامتهم وسمتهم كائنة في وجوههم من كثرة السجود.
واختلف في هذه العلامة، فقيل: السمت الحسن، وقيل: الخشوع والتواضع.
قال بعض العلماء: إن للحسنة نورًا في القلب، وضياء في الوجه، وسعة في الرزق، ومحبة في قلوب الناس.
(ذَلِكَ) ما تقدم من الصفات الجليلة.
(مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ) أي: وصْفهم الذي وصفوا به في التوراة.
(وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ) أي: أن المتقدم هو مثلهم في التوراة، فأما مثلهم في الإنجيل فهو قوله:
(كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ) أي: فروخه وفروعه (يعني الغصن الثاني غير الغصن الأم).
(فَآزَرَهُ) أي: قواه وأعانه.
(فَاسْتَغْلَظَ) أي: غلظ واستوى أي: قوي، أي صار ذلك الزرع غليظًا بعد ان كان دقيقا

=

=

(فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ) فاستقام على أعواده.

(يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ) أي: يعجب هذا الزرع زارعه لقوته وحسن منظره.

ثم ذكر الله علة تكثير أصحاب النبي ﷺ وتقويته لهم فقال:

(لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ) ليكونوا غيظًا للكافرين.

قال ابن كثير: فكذلك أصحاب محمد ﷺ أزروه وأيدوه ونصروه، فهم معه كالشطء مع الزرع.

(وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ) تقدم.

(مَغْفِرَةً) المغفرة: ستر الذنب والتجاوز عنه.

(وَأَجْرًا عَظِيمًا) الأجر: الثواب، أي: وثوابًا عظيمًا، وهو الجنة، ووصفه بالعظم لما في الجنة من عظيم الشأن، لأن الله يقول فيها (فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)، ولأجل هذا وصِف هذا الجزاء بالعظم، وقد جاء مفصلًا في القرآن جميع ملاذه، كالمناكح في النساء التي هن في غاية الجمال، والملابس التي هي في غاية الجمال، والمشارب، والأواني والحلي والولدان وغيرها من النعيم.

قوله تعالى: {مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ} [الفتح: ٢٩]، أي:" هذا الرسول المسمَّى محمدًا هو رسولُ الله حقًا لا كما يقول المشركون".

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره: محمد رسول الله".

قال ابن كثير:" يخبر تعالى عن محمد صلوات الله عليه، أنه رسوله حقا بلا شك ولا ريب، فقال: {مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ}، وهذا مبتدأ وخبر، وهو مشتمل على كل وصف جميل".

قال مقاتل:" ثم قال تعالى للذين أنكروا أنه رسول: {مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللّه}".

قوله تعالى: {وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ} [الفتح: ٢٩]، أي:"

=

=

والذين معه على دينه أشداء على الكفار، رحماء فيما بينهم".

قال الطبري: يقول:" وأتباعه من أصحابه الذين هم معه على دينه، غليظة على الكفار قلوبهم، قليلة بهم رحمتهم، رقيقة قلوب بعضهم لبعض، لينة أنفسهم لهم، هينة عليهم لهم".

قال مقاتل:" {وَالَّذِينَ مَعَهُ} من المؤمنين {أَشِدَّاء}، يعني: غلظاء {عَلَى الْكُفَّارِ رُحَماءُ بَيْنَهُمْ}، يقول متوادين بعضهم لبعض".

قال الزجاج:" وصفهم الله بأن بعضهم متحنن على بعض، وأن عليهم السكينة والوقار، وبعضهم يخلص المودة لبعض، وهم أشداء على الكفار".

قال السعدي:" يخبر تعالى عن رسوله ﷺ وأصحابه من المهاجرين والأنصار، أنهم بأكمل الصفات، وأجل الأحوال، وأنهم {أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ} أي: جادون ومجتهدون في عداوتهم، وساعون في ذلك بغاية جهدهم، فلم يروا منهم إلا الغلظة والشدة، فلذلك ذل أعداؤهم لهم، وانكسروا، وقهرهم المسلمون، {رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ}، أي: متحابون متراحمون متعاطفون، كالجسد الواحد، يحب أحدهم لأخيه ما يحب لنفسه، هذه معاملتهم مع الخلق".

قال ابن كثير:" ثنى بالثناء على أصحابه فقال: {وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ}، كما قال تعالى: {فَسَوْفَ يَأْتِي اللهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ} [المائدة: ٥٤] وهذه صفة المؤمنين أن يكون أحدهم شديدا عنيفًا على الكفار، رحيما برًا بالأخيار، غضوبًا عبوسًا في وجه الكافر، ضحوكا بشوشًا في وجه أخيه المؤمن، كما قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً} [التوبة: ١٢٣]، وقال النبي ﷺ: «مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم كمثل الجسد الواحد، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمّى والسّهر»، وقال: «المؤمن للمؤمن كالبنيان

=

=

يشد بعضه بعضا" وشبك بين أصابعه»".

عن قتادة: " {رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ}، ألقى الله في قلوبهم الرحمة، بعضهم لبعض".

عن ابن عباس، قوله: " {مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ}، أصحابه مثلهم، يعني: نعتهم مكتوبا في التوراة والإنجيل قبل أن يخلق السموات والأرض".

قوله تعالى: {تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا} [الفتح: ٢٩]، أي:" تراهم ركعًا سُجَّدًا لله في صلاتهم".

قال مقاتل:" يقول إذا رأيتهم تعرف أنهم أهل ركوع وسجود في الصلوات".

قال الفراء: أي:" في الصلاة".

قال الطبري: "يقول: تراهم ركعا أحيانا لله في صلاتهم سجدا أحيانا".

قال ابن كثير:" وصفهم بكثرة العمل وكثرة الصلاة، وهي خير الأعمال".

قال السعدي:" وأما معاملتهم مع الخالق فإنك {تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا} أي: وصفهم كثرة الصلاة، التي أجل أركانها الركوع والسجود".

قوله تعالى: {يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللهِ وَرِضْوَانًا} [الفتح: ٢٩]، أي:" يرجون ربهم أن يتفضل عليهم، فيدخلهم الجنة، ويرضى عنهم".

قال الطبري: "يقول: يلتمسون بركوعهم وسجودهم وشدّتهم على الكفار ورحمة بعضهم بعضا، فضلا من الله، وذلك رحمته إياهم، بأن يتفضل عليهم، فيُدخلهم جنته، وأن يرضى عنهم ربهم".

قال ابن أبي زمنين: " {يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللهِ وَرِضْوَانًا} " بالصلاة والصوم والدين كله".

قال السعدي:" {يَبْتَغُونَ} بتلك العبادة {فَضْلا مِنَ اللهِ وَرِضْوَانًا} أي: هذا مقصودهم بلوغ رضا ربهم، والوصول إلى ثوابه".

قال ابن كثير:" ووصفهم بالإخلاص فيها لله، ﷻ، والاحتساب عند الله جزيل

=

=

الثواب، وهو الجنة المشتملة على فضل الله، وهو سعة الرزق عليهم، ورضاه، تعالى، عنهم وهو أكبر من الأول، كما قال: {وَرِضْوَانٌ مِنَ اللهِ أَكْبَرُ} [التوبة: ٧٢]".

قوله تعالى: {سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ} [الفتح: ٢٩]، أي:" علامة طاعتهم لله ظاهرة في وجوههم من أثر السجود والعبادة".

قال الطبري: "يقول: علامتهم في وجوههم من أثر السجود في صلاتهم".

قال السعدي:" أي: قد أثرت العبادة -من كثرتها وحسنها- في وجوههم، حتى استنارت، لما استنارت بالصلاة بواطنهم، استنارت بالجلال ظواهرهم".

وفي قوله تعالى: {سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ} [الفتح: ٢٩]، وجوه من التفسير:

أحدها: أنه ثرى الأرض وندى الطهور، قاله سعيد بن جبير، وعكرمة.

قال عكرمة:" هو أثر التراب".

قال مالك:" يقال ذلك مما يتعلق بجباههم من الأرض عند السجود".

قال الأوزاعي: "بلغني أنه ما حمَلَتْ جباهُهم من الأرض".

قال أبو العالية: "يسجدون على التراب لا على الأثواب".

قال الثعلبي:" وبلغنا في بعض الأخبار إن الله تعالى يقول يوم القيامة: يا نار أنضجي، يا نار أحرقي، وموضع السجود فلا تقربي".

الثاني: أن ذلك علامة يجعلها الله في وجوه المؤمنين يوم القيامة، يعرفون بها لما كان من سجودهم له في الدنيا. قاله ابن عباس، والحسن، وعطية العوفي، والزهري. وآخرون.

قال ابن عباس:" صلاتهم تبدو في وجوههم يوم القيامة".

قال الحسن:" بياضا في وجوههم يوم القيامة".

=

=

قال خالد الحنفي:" "يعرف ذلك يوم القيامة في وجوههم من أثر سجودهم في الدنيا، وهو كقوله: {تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ}".

قال عطية:" مواضع السجود من وجوههم يوم القيامة أشد وجوههم بياضا".

قال شهر بن حوشب: "تكون مواضع السجود من وجوههم، كالقمر ليلة البدر".

وعن مقاتل بن حيان، قوله:" {سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ}، قال: النور يوم القيامة".

قال الزجاج:" أي: في وجوههم علامة السجود، وهي علامة الخاشعين لله المصلين".

الثالث: أنهم يُبْعَثون غُرًا محجَّلين من أثر الطَّهور، ذكره الزجاج.

قال الزجاج:" قيل: يبعثون يوم القيامة غرا محجلين من أثر الطهور، وهذا يجعله الله لهم يوم القيامة علامة وهي السيماء يبين بها فضلهم على غيرهم".

الرابع: أن ذلك سيما الإسلام وَسمْته وخشوعه، يرى من ذلك عليهم في الدنيا.

عن ابن عباس، قوله:" {سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ}، قال: السَّمْت الحَسَن".

عن ابن عباس، قوله:" {سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ}، قال: أما إنه ليس بالذي ترون، ولكنه سيما الإسلام وسَحْنته وسَمته وخشوعه".

وعن ابن عباس، عن النبي ﷺ، قال: "إن الهدي الصالح، والسمت الصالح، والاقتصاد جزء من خمسة وعشرين جزءا من النبوة".

قال ابن كثير:" فالصحابة رضي الله عنهم خلصت نياتهم وحسنت أعمالهم، فكل من نظر إليهم أعجبوه في سمتهم وهديهم".

الخامس: أن ذلك من أثر صلاة الليل، فإذا أصبحوا رؤي ذلك في وجوههم. قاله سفيان، وآخرون.

قال سفيان الثوري: "يصلون بالليل، فإذا أصبحوا رؤي ذلك في وجوههم، بيانه:

=

=

قوله: ﷺ: «من كثرت صلاته بالليل حسن وجهه بالنهار»".

قيل للحسن رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "ما بال المتهجدين من أحسن الناس وجوها؟ قال: لأنهم خلوا بالرحمن فألبسهم من نوره نورا".

وقال السدي: "الصلاة تحسن وجوههم".

قال عطاء الخراساني: "دخل في هذه الآية كل من حافظ على الصلوات الخمسة".

وقال بعضهم: "إن للحسنة نورا في القلب، وضياء في الوجه، وسعة في الرزق، ومحبة في قلوب الناس".

وقال بعض السلف: "من كثرت صلاته بالليل حسن وجهه بالنهار".

عن جابر قال: قال رسول الله -ﷺ-: "من كَثُرَتْ صلاته بالليل حسن وجهه بالنهار".

وقال أمير المؤمنين عثمان: "ما أسر أحد سريرة إلا أبداها الله على صَفَحَات وجهه، وفَلَتَات لسانه".

وروي عن قتادة: " {سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ}، يقول: عَلَامَتُهُمُ الصَّلَاةُ أو أعلمتهم الصلاة". وفي رواية:" نعتوا بالصلاة"، قال النحاس: أي: يعرفون بالصلاة".

قال ابن كثير:" الغرض أن الشيء الكامن في النفس يظهر على صفحات الوجه، فالمؤمن إذا كانت سريرته صحيحة مع الله أصلح الله ظاهره للناس، كما روي عن عمر بن الخطاب، رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، أنه قال: «من أصلح سريرته أصلح الله علانيته»".

عن جُنْدَب بن سفيان البَجَلي قال: قال النبي ﷺ: "ما أسر أحد سريرة إلا ألبسه الله رداءها، إن خيرا فخير، وإن شرا فشر".

عن أبي سعيد، عن رسول الله ﷺ، أنه قال: "لو أن أحدكم يعمل في صخرة صماء ليس لها باب ولا كوة، لخرج عمله للناس كائنا ما كان".

=

=

السادس: الخشوع والتواضع، قاله مجاهد.

وروي عن مجاهد، في هذه الآية: {سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ}، قال: السَّحْنة".

عن منصور، عن مجاهد: {سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ} قال: الخشوع. قلت: ما كنت أراه إلا هذا الأثر في الوجه، فقال: ربما كان بين عيني من هو أقسى قلبا من فرعون".

وفي رواية:" عن مجاهد، في قوله: {سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ}، قال: هو الخشوع، فقلت: هو أثر السجود، فقال: إنه يكون بين عينيه مثل ركبة العنز وهو كما شاء الله".

السابع: هو أن يسهر الليل فيصبح مصفرًا، قاله الحسن، والضحاك، والفراء.

قال عطية:" تهيج في الوجه من سهر الليل".

وقال سمرة بن عطية: هو البهج، والصفرة في الوجوه، وأثر السهرة".

قال الحسن: "إذا رأيتهم حسبتهم مرضى، وما هم بمرضى".

وقال الضحاك: أما إنه ليس بالندب في الوجوه، ولكنه الصفرة".

الثامن: أنه الوقار، والبهاء. قاله ابن جريج.

قال النحاس:" أصح ما قيل فيه أنهم يوم القيامة يعرفون بالنور الذي في وجوههم".

قال الطبري:" وأولى الأقوال في ذلك بالصواب أن يقال: إن الله تعالى ذكره أخبرنا أن سيما هؤلاء القوم الذين وصف صفتهم في وجوههم من أثر السجود، ولم يخصّ ذلك على وقت دون وقت. وإذ كان ذلك كذلك، فذلك على كلّ الأوقات، فكان سيماهم الذي كانوا يعرفون به في الدنيا أثر الإسلام، وذلك خشوعه وهديه وزهده وسمته، وآثار أداء فرائضه وتطوّعِه، وفي الآخرة ما أخبر أنهم يعرفون به،

=

=

وذلك الغرّة في الوجه والتحجيل في الأيدي والأرجل من أثر الوضوء، وبياض الوجوه من أثر السجود".

قوله تعالى: {ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ} [الفتح: ٢٩]، أي:" هذه صفتهم في التوراة".

قال مقاتل:" يقول ذلك الذي ذكر من نعت أمة محمد ﷺ في التوراة".

قال يحيى بن سلام:" يعني: شبههم فِي التَّوْراة".

قال الطبري:" يقول: هذه الصفة التي وصفت لكم من صفة أتباع محمد ﷺ الذين معه صفتهم في التوراة".

قال ابن كثير:" قال مالك-رَحِمَهُ اللَّهُ-: بلغني أن النصارى كانوا إذا رأوا الصحابة الذين فتحوا الشام يقولون: «والله لهؤلاء خير من الحواريين فيما بلغنا». وصدقوا في ذلك، فإن هذه الأمة معظمة في الكتب المتقدمة، وأعظمها وأفضلها أصحاب رسول الله ﷺ، وقد نوه الله بذكرهم في الكتب المنزلة والأخبار المتداولة؛ ولهذا قال هاهنا: {ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ}".

قوله تعالى: {وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ} [الفتح: ٢٩]، أي:" وصفتهم في الإنجيل كصفة زرع أخرج ساقه وفرعه، ثم تكاثرت فروعه بعد ذلك، وشدت الزرع، فقوي واستوى قائمًا على سيقانه جميلا منظره، يعجب الزُّرَّاع؛ ليَغِيظ بهؤلاء المؤمنين في كثرتهم وجمال منظرهم الكفار".

قال الطبري:" يقول: وصفتهم في إنجيل عيسى صفة زرع أخرج شطأه، وهو فراخه، فقوّاه وأعانه، فغلظ الزرع، {فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ}، جمع ساق، وساق الزرع والشجر: حاملته، يعجب هذا الزرعُ الذي استغلظ فاستوى على سوقه في تمامه وحُسن نباته، وبلوغه وانتهائه الذين زرعوه {لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ}، يقول:

=

=

فكذلك مثل محمد ﷺ وأصحابه، واجتماع عددهم حتى كثروا ونموا، وغلظ أمرهم كهذا الزرع الذي وصف جلّ ثناؤه صفته، فإن الله تعالى فعل ذلك بمحمد ﷺ وأصحابه ليغيظ بهم الكفار".

قال الفراء:" «شطؤه»: السنبل تنبت الحبة عشرا وثمانيا وسبعا، فيقوى بعضه ببعض، فذلك قوله: {فآزره}، فأعانه وقواه، فاستغلظ ذلك فاستوى، ولو كانت واحدة لم تقم على ساق، وهو مثل ضربه الله ﷻ للنبي ﷺ إذ خرج وحده ثم قواه بأصحابه، كما قوى الحبة بما نبت منها. آزرت، أؤازره، مؤازرة: قويته، وعاونته، وهي المؤازرة".

قال أبو عبيدة:" {أَخْرَجَ شَطْأَهُ}: أخرج فراخه، يقال: قد أشطأ الزرع فهو مشطئ إذا فرّخ، {فَآزَرَهُ}: ساواه، صار مثل الأمّ. {فَاسْتَغْلَظَ}: غلظ، {فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ}: الساق حاملة الشجرة".

قال ابن كثير:" أي: فكذلك أصحاب محمد ﷺ آزروه وأيدوه ونصروه فهم معه كالشطء مع الزرع، {لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ}، ومن هذه الآية انتزع الإمام مالك – رحمه الله، في رواية عنه – بتكفير الروافض الذين يبغضون الصحابة، قال: لأنهم يغيظونهم، ومن غاظ الصحابة فهو كافر لهذه الآية. ووافقه طائفة من العلماء على ذلك. والأحاديث في فضائل الصحابة والنهي عن التعرض لهم بمساءة كثيرة، ويكفيهم ثناء الله عليهم، ورضاه عنهم".

قال السعدي:" كذلك الصحابة رضي الله عنهم، هم كالزرع في نفعهم للخلق واحتياج الناس إليهم، فقوة إيمانهم وأعمالهم بمنزلة قوة عروق الزرع وسوقه، وكون الصغير والمتأخر إسلامه، قد لحق الكبير السابق ووازره وعاونه على ما هو عليه، من إقامة دين الله والدعوة إليه، [ص:٧٩٦] كالزرع الذي أخرج شطأه، فآزره فاستغلظ، ولهذا قال: {لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ} حين يرون اجتماعهم وشدتهم على

=

=

دينهم، وحين يتصادمون هم وهم في معارك النزال، ومعامع القتال".

وفي قوله تعالى: {ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَه} [الفتح: ٢٩]، قولان:

أحدهما: أن مثلهم في التوراة بأن سيماهم في وجوههم. ومثلهم في الإنجيل كزرع أخرج شطأه. قاله الضحاك، وقتادة.

عن الضحاك: " {مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ} ... إلى قوله: {ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ}، ثم قال: {وَمَثَلُهُمْ فِي الإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ} ... الآية".

عن الضحاك، في قوله: " {سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ}، يعني: السيما في الوجوه مثلهم في التوراة، وليس بمثلهم في الإنجيل، ثم قال ﷻ: {وَمَثَلُهُمْ فِي الإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ} ... الآية، هذا مثلهم في الإنجيل".

عن الضحاك في قول الله: " {مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ} ... الآية، قال: هذا مثلهم في التوراة، ومثل آخر في الإنجيل {كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ} - الآية".

عن قتادة: " {ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ}، أي: هذا المثل في التوراة، {وَمَثَلُهُمْ فِي الإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ}، فهذا مثل أصحاب رسول الله ﷺ في الإنجيل".

الثاني: أن كلا الأمرين مثلهم في التوراة ومثلهم في الإنجيل. وهذا قول مجاهد.

قال أبو عبيدة:" العرب قد تبدأ بالشيء ثم تجيء ما يكون قبله بعده، قال لبيد:

فوضعت رحلى والقراب ونمرقى... ومكانهن الكور والنّسعان".

قال الطبري:" وأولى القولين في ذلك بالصواب قول من قال: مثلهم في التوراة، غير مثلهم في الإنجيل، وإن الخبر عن مثلهم في التوراة متناه عند قوله: {ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ}، وذلك أن القول لو كان كما قال مجاهد من أن مثلهم في

=

التوراة والإنجيل واحد، لكان التنزيل: ومثلهم في الإنجيل، وكزرع أخرج شطأه، فكان تمثيلهم بالزرع معطوفا على قوله: {سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ}، حتى يكون ذلك خبرا عن أن ذلك مَثلهم في التوراة والإنجيل، وفي مجيء الكلام بغير واو في قوله: {كَزَرْعٍ} دليل بَيِّن على صحة ما قُلْنا، وأن قولهم: {وَمَثَلُهُمْ فِي الإنْجِيلِ} خبر مبتدأ عن صفتهم التي هي في الإنجيل دون ما في التوراة منها".

قال الطبري:" وإنما مثلهم بالزرع المشطئ، لأنهم ابتدءوا في الدخول في الإسلام، وهم عدد قليلون، ثم جعلوا يتزايدون، ويدخل فيه الجماعة بعدهم، ثم الجماعة بعد الجماعة، حتى كثر عددهم، كما يحدث في أصل الزرع الفرخ منه، ثم الفرخ بعده حتى يكثر وينمي".

قال مقاتل:" فأما شطأه فهو محمد ﷺ خرج وحده كما خرج النبت وحده، وأما الوابلة التي تنبت حول الشطأة فاجتمعت فهم المؤمنون كانوا في قلة كما كان أول الزرع دقيقا، ثم زاد نبت الزرع فغلظ فآزره فاستغلظ كما آزر المؤمنون بعضهم بعضا حتى إذا استغلظوا واستووا على أمرهم كما استغلظ هذا الزرع فاستوى على سوقه يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار فكما يعجب الزراع حسن زرعه حين استوى قائما على سوقه، فكذلك يغيظ الكفار كثرة المؤمنين واجتماعهم".

قال الماوردي:" ووجه ضرب المثل بهذا الزرع الذي أخرج شطأه، هو أن النبي ﷺ حين بدأ بالدعاء إلى دينه كان ضعيفًا، فأجابه الواحد حتى كثر جمعه وقوي أمره كالزرع يبدو بعد البذر ضعيفًا فيقوى حالا بعد حال حتى يغلظ ساقه وأفراخه فكان هذا من أصح مثل وأوضح بيان".

قال ابن عباس:" فهو مثل ضربه لأهل الكتاب إذا خرج قوم ينبتون كما ينبت الزرع فيبلغ فيهم رجال يأمرون بالمعروف، وينهون عن المنكر، ثم يغلظون، فهم

=

أولئك الذين كانوا معهم وهو مثل ضربه الله لمحمد ﷺ يقول: بعث الله النبي ﷺ وحده، ثم اجتمع إليه ناس قليل يؤمنون به، ثم يكون القليل كثيرا، ويستغلظون، ويغيظ الله بهم الكفار".

عن خيثمة، قال: "بينا عبد الله يقرئ رجلا عند غروب الشمس، إذ مرّ بهذه الآية {كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ}، قال: أنتم الزرع، وقد دنا حصادكم".

عن حُمَيد الطويل، قال: "قرأ أنس بن مالك: {كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ}، قال: تدرون ما شطأه؟ قال: نباته".

عن ابن عباس، قوله: " {ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ}، قال: سنبله حين يتسلع نباته عن حباته"، " {فَآزَرَهُ}، يقول: نباته مع التفافه حين يسنبل"، {لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ}، يقول الله: مثلهم كمثل زرع أخرج شطأه فآزره، فاستغلظ، فاستوى على سوقه، حتى بلغ أحسن النبات، يُعْجِب الزرّاع من كثرته، وحُسن نباته".

عن قتادة والزهريّ: " {كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ}، قالا: أخرج نباته"، {فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ}، يقول: فتلاحق".

عن مجاهد، قوله: " {كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ}، قال: ما يخرج بجنب الحقلة فيتمّ وينمي"، " {فَآزَرَهُ}، قال: فشدّه وأعانه، قوله: {عَلَى سُوقِهِ}، قال: أصوله".

عن ابن زيد، قوله: " {كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ}، أولاده، ثم كثرت أولاده"، " {فَآزَرَهُ}: اجتمع ذلك فالتفتّ؛ قال: وكذلك المؤمنون خرجوا وهم قليل ضعفاء، فلم يزل الله يزيد فيهم، ويؤيدهم بالإسلام، كما أيّد هذا الزرع بأولاده، فآزره، فكان مثلا للمؤمنين"، {يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ}، قال: يعجب الزرّاع حُسنه، {لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ} بالمؤمنين، لكثرتهم، فهذا مثلهم في الإنجيل".

قال قتادة:" هذا مثل أصحاب محمد ﷺ في الإنجيل، قيل لهم: إنه سيخرج قوم

=

ينبتون نبات الزرع، منهم قوم يأمرون بالمعروف، وينهوْن عن المنكر".
قال الضحاك:" يعني: أصحاب محمد ﷺ، يكونون قليلا ثم يزدادون ويكثرون ويستغلظون".
عن الضحاك: " {كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ}، يقول: حبّ برّ نثر متفرّقا، فتنبت كلّ حبة واحدة، ثم أنبتت كل واحدة منها، حتى استغلظ فاستوى على سوقه؛ قال: يقول: كان أصحاب محمد ﷺ قليلا ثم كثروا، ثم استغلظوا {لِيَغِيظَ} الله {بِهِمُ الْكُفَّار}".
روي عن الحسن:" في قوله تعالى: {مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ}، قال: هو محمد ﷺ والذين معه أبو بكر الصديق رضي الله عنه، {أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّار}: عمر بن الخطاب رضي الله عنه، {رُحَماءُ بَيْنَهُم}: عثمان بن عفان رضي الله عنه، {تَراهُمْ رُكَّعًا سُجَّدا}: علي بن أبي طالب رضي الله عنه، {يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللهِ وَرِضْوانًا}: والزبير، وعبد الرحمن بن عوف، وسعد، وسعيد، وأبو عبيدة الجراح، {سِيماهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ}: قال: المبشرون عشرة أولهم أبو بكر، وآخرهم أبو عبيدة الجراح، {ذلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْراةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ}، قال: نعتهم في التوراة والإنجيل، {كمثل زرع}، قال: الزرع محمّد ﷺ، {أَخْرَجَ شَطْأَهُ}: أبو بكر الصدّيق، {فَآزَرَهُ}: عمر بن الخطّاب، {فَاسْتَغْلَظَ}: عثمان بن عفّان، يعني: استغلظ بعثمان الإسلام، {فَاسْتَوى عَلى سُوقِهِ}: علي بن أبي طالب، يعني: استقام الإسلام بسيفه، {يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ}، قال: المؤمنون، {لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ}، قال: قول عمر لأهل مكّة: لا نعبد الله سرّا بعد هذا اليوم".
قوله تعالى: {وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا} [الفتح: ٢٩]، أي:" وعد الله الذين آمنوا منهم بالله ورسوله وعملوا ما أمرهم الله به، واجتنبوا ما نهاهم عنه، مغفرة لذنوبهم، وثوابًا جزيلا لا ينقطع، وهو الجنة".

=

قال الطبري: يقول: " وعد الله الذين صدّقوا الله ورسوله وعملوا بما أمرهم الله به من فرائضه التي أوجبها عليهم ممن يدخل في دين محمد ﷺ إلى يوم القيامة بعد الجماعة الذين وصف الله صفتهم، عفوا عما مضى من ذنوبهم، وسيئ أعمالهم بحسنها، وثوابا جزيلا وذلك الجنة".

قال ابن كثير:" «مِنْ» هذه لبيان الجنس، {مَغْفِرَةً}، أي: لذنوبهم. {وَأَجْرًا عَظِيمًا}، أي: ثوابا جزيلا ورزقا كريما، ووعد الله حق وصدق، لا يخلف ولا يبدل، وكل من اقتفى أثر الصحابة فهو في حكمهم، ولهم الفضل والسبق والكمال الذي لا يلحقهم فيه أحد من هذه الأمة، رضي الله عنهم وأرضاهم، وجعل جنات الفردوس مأواهم، وقد فعل".

قال السعدي:" فالصحابة رضي الله عنهم، الذين جمعوا بين الإيمان والعمل الصالح، قد جمع الله لهم بين المغفرة، التي من لوازمها وقاية شرور الدنيا والآخرة، والأجر العظيم في الدنيا والآخرة".

عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: "لا تسبوا أصحابي، فوالذي نفسي بيده لو أن أحدكم أنفق مثل أحدٍ ذهبا ما أدرك مد أحدهم ولا نصيفه".

مسألة: خصائص إيمان الصحابة في الصفات الإلهية.

لقد نزل الكتاب العزيز وجاء النبي الخاتم عليه الصلاة والسلام بالصورة الصحيحة الكاملة عن الإله الحق سبحانه وجاءت النصوص القرآنية والنبوية بأحسن ما يمكن أن تأتي به واضحة لا لبس ولا غموض فيها، وفي ذلك يقول المولى: جل جلاله: وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ العَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ [الزمر:٥٥]، وإن من غاية الحسن في هذا الكتاب والسنة المطهرة ما وصف به الرب سبحانه من صفات الكمال والجلال التي تعهد الله بحفظها فكانت هذه الصفات الربانية تامة كاملة، وقد اختص الله بها خير خلقه

=

=

وصفوته من البشرية جمعاء صحابة رسول الله ﷺ، الذين نزل عليهم الوحي غضًّا طريًّا، فعاصروا أحداثه وأسباب نزوله، ففهموا مراد ربهم سبحانه ومراد رسوله ﷺ، فكان ذلك الجيل المبارك خير من سمع، وخير من آمن، وخير من فهم، وخير من بلغ لمن بعده تمام التبليغ، فلا عجب أن تتطلع الأعناق إلى مستواهم، أو تنسب إليهم، وتتلمس منهجهم الحق في كل مسائل الاعتقاد...

وقد وصف القرآن الكريم عميق إيمانهم، وتأثرهم بالوحي المنزل على رسولهم ﷺ فقال سبحانه وتعالى: اللهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللهِ ذَلِكَ هُدَى اللهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاء وَمَن يُضْلِلْ اللهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ [الزمر:٢٣] وقال تعالى: مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاء عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاء بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا [الفتح:٢٩].

وقد أخبر النبي ﷺ أن أصحابه أمنة لهذه الأمة بما يحملون من سلامة المعتقد الحق، والاستقامة الصادقة على أمر الله تعالى: فعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: (صلينا المغرب مع رسول الله ﷺ. ثم قلنا: لو جلسنا حتى نصلي معه العشاء! قال: فجلسنا. فخرج علينا. فقال: ما زلتم ههنا؟ قلنا: يا رسول الله، صلينا معك المغرب. ثم قلنا: نجلس حتى نصلي معك العشاء. قال: أحسنتم أو أصبتم قال: فرفع رأسه إلى السماء. وكان كثيرًا مما يرفع رأسه إلى السماء. فقال: النجوم أمنة للسماء. فإذا ذهبن النجوم أتى السماء ما توعد. وأنا أمنة لأصحابي. فإذا ذهبت أتى أصحابي ما يوعدون. وأصحابي أمنة لأمتي. فإذا ذهب أصحابي أتى

=

=

أمتي ما يوعدون)

قال الإمام النووي: (قال العلماء معنى الحديث: أن النجوم ما دامت باقية فالسماء باقيـة، فـإذا انكـدرت النجـوم وتنـاثرت يـوم القيامـة، وهنـت الـسماء فـانفطرت، وانشقت، وذهبت، وقوله ﷺ: وأنـا أمنة لأصـحابي فـإذا ذهبـت أتـى أصـحابي مـا يوعدون) أي: مـن الفـتن والحـروب، وارتـداد مـن ارتـد مـن الأعـراب، واخـتلاف القلـوب ونحـو ذلـك ممـا أنـذر بـه صـريحًا، وقـد وقـع كـل ذلـك. وقولـه ﷺ: (وأصحابي أمنة لأمتي؛ فإذا ذهب أصحابي، أتى أمتي مـا يوعـدون) معنـاه: ظهـور البدع، والحوادث في الدين، والفتن فيه، وطلوع قرن الشيطان، وظهور الروم)

وقـد كـان الـصحابة رضـوان الله علـيهم أمنـة للأمـة في صـفاء عقيـدتها وجميـع تصوراتها، حيث عاش من عـاش مـنهم، ونـشروا العلـم، وبلغـوا للتـابعين أحاديـث رسـول الله ﷺ في كل مسائل العقيدة والشريعة، وساد عصرهم الوفاق العقدي بـين الأمة، وفي أواخر عصرهم برزت المرجئة والجهمية، وغيرها وكان علماء الـسلف يعتدون في إبطال البدع بما تلقوه عنهم من أحاديث رسـول الله ﷺ، ومـن أقـوالهم في تفسير كتـاب الله، ومـن قبـل هـذا، وكلـه مـن نـصوص الكتـاب والـسنة، فكـانوا رضوان الله عليهم أمنة للأمـة مـن المعطلـة، والنفـاة، والمـشبهة، ومـن جميـع أهـل البدع، فهم المنارة التي يهتدى بها في الظلمات.

وقد كان عبدالله بـن مـسعود رضي الله عنه وغيـره مـن الـصحابة الكـرام ينبهـون النـاس إلـى ضـرورة اتبـاع مـنهج الـصحابة رضـوان الله علـيهم حيـث يقـول: (مـن كـان مـنكم متأسيًا، فليتأس بأصحاب محمد ﷺ، فإنهم كـانوا أبـر هـذه الأمـة قلوبًـا، وأعمقهـا علمًا، وأقلها تكلفًا، وأقومها هديًا، وأحسنها حالًا، قومًا اختـارهم الله لـصحبه نبيـه ﷺ، وإقامـة دينـه، فـاعرفوا لهـم فـضلهم، واتبعـوهم في آثـارهم؛ فـإنهم كـانوا علـى الهدى المستقيم)

=

=

وكان حذيفة بن اليمان ﵁ - يدخل المسجد فيقف على الحلق فيقول: (يا معشر القراء، اسلكوا الطريق فلئن سلكتموها لقد سبقتم سبقًا بعيدًا، ولئن أخذتم يمينًا وشمالًا لقد ضللتم ضلال بعيدًا).

وكان معاذ بن جبل ﵁ لا يجلس مجلسًا إلا ويحذر من الابتداع في الدين، فيقول: (الله حكم قسط هلك المرتابون، إن وراءكم فتنًا يكثر فيها المال، ويفتح فيها القرآن حتى يأخذه المؤمن، والمنافق، والرجل، والمرأة، والصغير، والكبير، والعبد، والحر، فيوشك قائل أن يقول للناس: ألا تتبعوني، وقد قرأت القرآن؟ ما هم بمتبعي حتى أبتدع لهم غيره، فإياكم وما ابتدع فإن ما ابتدع ضلالة، وأحذركم زيغة الحكيم، فإن الشيطان قد يقول كلمة الضلالة على لسان الحكيم، ويقول المنافق كلمة الحق).

وقد بلغ من صفات عقيدتهم، وسلامة سلوكهم أنهم كانوا يقارنون الأحوال التي عاشوها مع رسول الله ﷺ، وأحوال عصرهم المتأخر؛ حيث يقول أنس ﵁: (إنكم لتعملون أعمالًا هي أدق في أعينكم من الشعر، إن كنا لنعدها على عهد النبي ﷺ من الموبقات) قال أبو عبدالله: (يعني بذلك المهلكات).

لقد كان العهد الذي عاشوه مع رسول الله ﷺ يمثل الكمال كله في مسائل العقيدة والشريعة، فلما ظهرت الفتن والأحداث العظيمة وأطلت البدع برأسها في أواخر حياتهم كانوا هم المرجع الذي رجع إليه علماء السلف في رد البدع، وأقوال أربابها المخالفة لمنهجهم الحق، ويمكننا إعطاء هذه الصورة الموجزة عن طبيعة البيان القرآني والنبوي في عرض الصفات الإلهية التي آمن بها الصحابة الكرام واعتقدوها الاعتقاد الحق؛ وهو المعتقد الحق الذي اعتقده التابعون وتابعوهم بإحسان إلى يوم الدين، وهو المنهج الذي هيمن على جمهور الأمة بالرغم من كثرة فرق الابتداع التي طرحت بدعها المخالفة لهذا المنهج طرحًا معاديًا لمعتقدهم وما أثر

=

=

عنهم.

- شمولية النصوص القرآنية لمسائل الأسماء والصفات:

لقد حفل القرآن الكريم بذكر أسماء الله وصفاته وكمالاته إلى حد يفوق الحصر؛ فلا تكاد تخلو الآلاف من الآيات القرآنية من ذكر هذه الصفات والكمالات في أوائلها أوأثنائها، أو أواخرها، إما متناثرة في تلك الآيات، وإما بجمع بعضها لهذه الآيات وتلك، وبأساليب متنوعة، واحتفال القرآن بذكر صفات الله وكمالاته على هذه النحو حقيقة لا يخطئها من يقرأ القرآن ويتدبر آياته؛ بحيث لا يحتاج هذا الأمر إلى ذكر نماذج لهذه الحقيقة القرآنية لأنها تنتظم معظم آيات القرآن الكريم ولا يقتصر ذكر القرآن للصفات الإلهية على الآيات التي يكون موضوعها الحديث عن ذات الله وصفاته، بل كثيرًا ما تختم بهذه الصفات الآيات التي يكون موضوعها الدعوة إلى عبادة الله تعالى وبيان هذه العبادات وآثارها الفردية والاجتماعية.

أو الدعوة إلى الأخلاق الإسلامية الكريمة، والحض عليها، وبيان نتائجها، وأثارها، وكذلك الآيات التي تتناول نظام المجتمع في مختلف جوانبه السياسية، والاقتصادية، والاجتماعية، والتشريعية، فلا تكاد تخلو أغلب آيات القرآن الكريم التي ترافق عرض هذه الموضوعات من التذكير بصفات الله تعالى التي ينبني عليها ضرورة التمسك بهذه التوجيهات الإلهية والتحذير من مخالفتها، هذا بالإضافة إلى الآيات التي تتحدث عن اليوم الآخر بكل ما فيه من البعث، والحشر، والعرض، والجزاء، والجنة، والنار ترغيبًا في ثواب الله ورضاه، وتحذيرًا من غضبه، وعقابه، فعلى أساس الكثير من الصفات الإلهية التي تذكر في هذه الآيات يقوم الترغيب والترهيب وإثبات كل ما يتناوله اليوم الآخر من معتقدات.

- إن هذا العرض الموسع للصفات الإلهية في الكتاب العزيز جعل الإيمان بها،

=

=

وفهم المراد الإلهي منها مسألة بدهية، لا تحتاج إلى خوض فيها، أو شرح وزيادة بيان، وقد أوقف القرآن الكريم والسنة النبوية هذا العرض عند حدود معينة؛ حيث فيها إثبات للصفات بمعانيها المعروفة لغة، ولم يتعد ذلك إلى الكشف عن الكيفية، فالتزم الصحابة رضوان الله عليهم، بالمنهج القرآني والنبوي ولم يقعوا في النفي والتشبيه كما وقع غيرهم ممن لم يلتزم بهذا المنهج الرباني فاعتقدوا - رضوان الله عليهم- المعتقد الحق في الصفات الإلهية، وورث هذا المنهج الحق منهم التابعون وتابعوهم بإحسان.

- يلاحظ في العرض القرآني، والنبوي أن الإثبات جاء بصورة واسعة النطاق، وأن النفي جاء في مسائل محدودة لتنزيه الرب - سبحانه - عن النقائص التي نسبها إليه أهل الأديان السابقة والمشركون، فالإثبات مفصل، والنفي مجمل، وقد وضع القرآن الكريم الأساس المتين للصحابة رضوان الله عليهم، بتحذيرهم من حماقات الأمم السابقة، فقال سبحانه وتعالى: مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلِهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللهَ عَلَىَ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللهِ مِن وَلِيٍّ وَلاَ نَصِيرٍ [البقرة:١٠٦ - ١٠٧]

وهذا المعتقد أي الإثبات المفصل للصفات الإلهية هو الذي اعتقده الصحابة والتابعون وتابعوهم بخلاف المبتدعة الذين امتدت ألسنتهم الآثمة إلى الصفات الإلهية بالتعطيل، والتأويل، والتشبيه، وفي هذا يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ: (وقد علم النبي ﷺ أمته هذا التوحيد والقران مملوء منه، ولم يقل لهم كلمة واحدة تتضمن نفي الصفات، ولا قال ذلك أحد من الصحابة، والتابعين، وأئمة الدين، مع العلم الضروري بأنهم كانوا أعلم بمعاني القرآن منا، وإن ادعى مدع تقدمه في الفلسفة عليهم، فلا يمكنه أن يدعي تقدمه في معرفة ما أريد به القرآن

=

=

عليهم، وهم الذين تعلموا من الرسول ﷺ لفظه ومعناه، وهم الذين أدوا ذلك إلى من بعدهم قال أبو عبدالرحمن السلمي- ت:٧٤هـ -: حدثنا الذين كانوا يقرءون القرآن، عثمان بن عفان، وعبدالله بن مسعود وغيرهما أنهم كانوا إذا تعلموا من رسول الله ﷺ عشر آيات لم يجاوزوها حتى يتعلموا ما فيها من العلم والعمل، قالوا: فتعلمنا القرآن، والعلم، والعمل).

- فالإثبات المفصل هو ما قررناه من هيمنة الصفات الإلهية على معظم آيات الكتاب العزيز، والنفي المجمل يبين محدوديته هذا العرض الذي اقتبسناه من القرآن الكريم والسنة المطهرة، فقد عرض القرآن الكريم للتصورات الباطلة لليهود، والنصارى، والمشركين عن الله تعالى فقال سبحانه وتعالى عن بعض حماقات اليهود: وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُواْ بِمَا قَالُواْ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاء [المائدة:٦٤]، وزعمت اليهود أن لله ولدًا - سبحانه وتعالى عن قولهم- فقال سبحانه: وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللهِ [التوبة:٣٠]، وزعموا - لعنهم الله - أن الله فقير وهم أغنياء، قال تعالى: لَّقَدْ سَمِعَ اللهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُواْ إِنَّ اللهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاء سَنَكْتُبُ مَا قَالُواْ [آل عمران:١٨١] وقال تعالى ردًا على مزاعم اليهود الذين قالوا: إنه استراح يوم السبت - سبحانه - عن ذلك: وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ [ق:٣٨]، وقال تعالى ردًا على شبه النصارى وأكاذيبهم: لَّقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَآلُواْ إِنَّ اللهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ اللهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَن فِي الأَرْضِ جَمِيعًا وَلِلّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَاء وَاللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ [المائدة:٧٢]، وقال سبحانه ردًا على هذه المزاعم الباطلة: مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ [مريم:٣٥] وقال تعالى: بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُ

=

=

صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ [الأنعام:١٠١]، وأبطل القرآن تصورات المشركين عن الإله الحق، فقال سبحانه: وَيَجْعَلُونَ لِلّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ [النحل:٥٧]، وقال تعالى: فَاسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبَنُونَ [الصافات:١٤٩] وقال تعالى: أَمْ لَهُ الْبَنَاتُ وَلَكُمُ الْبَنُونَ [الطور:٣٩].

وقال تعالى: أَمْ خَلَقْنَا الْمَلائِكَةَ إِنَاثًا وَهُمْ شَاهِدُونَ أَلا إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ وَلَدَ اللهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ أَفَلا تَذَكَّرُونَ أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُّبِينٌ فَأْتُوا بِكِتَابِكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَبًا وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ سُبْحَانَ اللهِ عَمَّا يَصِفُونَ إِلاَّ عِبَادَ اللهِ الْمُخْلَصِينَ فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ بِفَاتِنِينَ إِلاَّ مَنْ هُوَ صَالِ الْجَحِيمِ وَمَا مِنَّا إِلاَّ لَهُ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ وَإِنْ كَانُوا لَيَقُولُونَ لَوْ أَنَّ عِندَنَا ذِكْرًا مِّنْ الأَوَّلِينَ لَكُنَّا عِبَادَ اللهِ الْمُخْلَصِينَ فَكَفَرُوا بِهِ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّى حِينٍ وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَاء صَبَاحُ الْمُنذَرِينَ وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّى حِينٍ وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ وَسَلامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ [الصافات: ١٥٠ – ١٨٢] وقال تعالى: وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لاَ يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ وَكَفَى بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا [الفرقان:٥٨]

وقال تعالى: لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ [الشورى:١١] وقال تعالى: اللهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لاَ تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلاَ نَوْمٌ لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلاَ يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلاَّ بِمَا شَاء وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَلاَ يَؤُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ [البقرة:٢٥٥] وقال تعالى: قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ اللهُ الصَّمَدُ

=

=

لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ [الإخلاص: ١ - ٤]

والسنة المطهرة اتبعت القرآن الكريم في الإثبات المفصل والنفي المجمل، فعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: (قام فينا رسول الله ﷺ فقال: إن الله عز وجل لا ينام ولا ينبغي له أن ينام يخفض القسط ويرفعه، يرفع إليه عمل الليل قبل عمل النهار، وعمل النهار قبل عمل الليل حجابه النور لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصرة من خلقه).

وعن عبدالله بن عمر رضي الله عنهما قال: (ذكر الدجال عند النبي ﷺ فقال: إن الله لا يخفى عليكم، إن الله ليس بأعور، وأشار بيده إلى عينه وإن المسيح الدجال أعور عين اليمنى كأن عينه عنبة طافية).

- وقد آمن الصحابة رضوان الله عليهم، من خلال هذا العرض المفصل الواسع بأن آيات الصفات هي من المحكم وليست من المتشابه كما افترى المبتدعة فيما بعد، وهذا الإحكام جاء من خلال سهولة معانيها وإن السلف تعرضوا لتفسيرها التفسير الذي يثبت الصفة، ولا يتعرض لبيان الكيفية، يقول شيخ الإسلام بعد أن يعرض قول الرازي حول سورة الإخلاص يقول الرازي: (هذه السورة يجب أن تكون من المحكمات لا من المتشابهات، ولأنه تعالى جعلها جوابًا عن سؤال السائل عند الحاجة وذلك يقتضي كونها من المحكمات لا من المتشابهات، وإذا ثبت هذا وجب الجزم بأن كل مذهب يخالف هذه السورة كان باطلًا قلت-شيخ الإسلام- كون هذه السورة من المحكمات، وكون كل مذهب يخالفها باطل هو حق لا ريب فيه، بل هذه السورة تعدل ثلث القرآن، كما ثبت ذلك في الأحاديث الصحيحة، وهي صفة الرحمن كما ثبت ذلك في الحديث الصحيح، وعليها اعتمد الأئمة في تنزيه الله كما ذكره الفضيل بن عياض، والإمام أحمد، وغيرهم من أئمة الإسلام... لكن سائر الآيات المذكورة فيها أسماء الله وصفاته؛ مثل آية الكرسي،

=

=

وأول الحديد، وآخر الحشر ونحو ذلك هي كذلك- كل ذلك من الآيات المحكمات لكن هذه السورة ذكر فيها ما لم يذكر في غيرها من اسمه الأحد الصمد، ومثل نفي الأصول والفروع، والنظراء جميعًا، وإلا فاسمه الرحمن أنزله الله لما أنكر المشركون هذا الاسم، فأثبته الله لنفسه ردًا عليهم، وهذا أبلغ في كونه محكمًا من هذه السورة إذ الرد على المنكر أبلغ في إثبات نقيض قوله من جواب السائل الذي لم يرد عليه بنفي ولا إثبات)

ويقول شيخ الإسلام أيضًا إن آيات الصفات من المحكم وليست من المتشابه: (إن الصحابة رضي الله عنهم، فسروا للتابعين القرآن كما قال مجاهد: عرضت المصحف على ابن عباس من أوله إلى آخره أُوقفُه عند كل آية منه وأسأله عنها؛ ولهذا قال سفيان الثوري: إذا جاءك التفسير عن مجاهد فحسبك به، وكان ابن مسعود يقول: (لو أعلم أحدًا أعلم بكتاب الله مني تبلغه الإبل لأتيته) وكل واحد من أصحاب ابن مسعود وابن عباس نقلوا عنه من التفسير ما لم يحصه إلا الله، والنقول بذلك عن الصحابة والتابعين ثابتة معروفة عند أهل العلم بها)

أما آيات الصفات فقد تعرض السلف لتفسير معناها المفهوم لغة، ووقفوا عند المعنى اللغوي ولم يتعدوه إلى الخوض في الكنه، أو القول بالنفي والتعطيل، فآيات الصفات إذًا هي من المحكم الذي فهم الصحابة معناه.

ومن الملاحظ على بعض آيات الصفات أنها عرضت بصورة مميزة، وذلك من خلال وقائع وأحداث عاصرها الصحابة رضوان الله عليهم، فكانت تلك التعقيبات التي تربط الحديث بالصفات الإلهية مصدر إيمان، ويقين، وفهم كامل لمراد الله عز وجل.

وسوف نعرض لجملة من هذه الأحاديث التي عرضت فيها الصفات الإلهية وكان للصحابة منها مواقف وتعقيبات تنم عن تمام الفهم، واليقين الكامل بها، فقد روى

=

=

مسلم عن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: (لما نزلت على رسول الله ﷺ: لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنْ تُبْدُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللهُ فَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَاللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ [البقرة: ٢٨٤]، قال: فاشتد ذلك على أصحاب رسول الله ﷺ، فأتوا رسول الله ﷺ. ثم بركوا على الركب. فقالوا: أي رسول الله! كلفنا من الأعمال ما نطيق. الصلاة، والصيام، والجهاد، والصدقة. وقد أنزلت عليك هذه الآية. ولا نطيقها. قال رسول الله ﷺ: أتريدون أن تقولوا كما قال أهل الكتابين من قبلكم: سمعنا وعصينا؟ بل قولوا: سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير. فلما اقترأها القوم ذلت بها ألسنتهم. فأنزل الله في إثرها: آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ [البقرة:٢٨٥] فلما فعلوا ذلك نسخها الله تعالى. وأنزل الله عَزَّ وَجَلَّ: لَا يُكَلِّفُ اللهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا، قال: نعم، رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا، قال: نعم، رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ، قال: نعم، وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ [البقرة: ٢٨٦] قال: نعم)

لقد كان هذا الفهم منبعه التأثر بصفة من أعظم صفاته سبحانه وهي العلم، علمه بما يبدون، وما يكتمون، فخافوا من ذلك أشد الخوف، وهذا يبين عمق الفهم للمعاني وملاحظتها بما يخصهم في دينهم، وما يرضي ربهم، فلما علم سبحانه، منهم هذا الإيمان الصادق زادهم إيمانًا ويقينًا به، فقد روى مسلم عن ابن عباس قال: (لما نزلت هذه الآية: لِّلَّهِ ما فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَإِن تُبْدُواْ مَا فِي أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ اللهُ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَاء وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاء وَاللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ [البقرة:٢٨٤]. قال: دخل قلوبهم منها شيء لم يدخل قلوبهم من شيء،

=

=

فقال النبي ﷺ: قولوا: سمعنا وسلمنا، قال: فألقى الله الإيمان في قلوبهم..).

وروى البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (اشتد غضب الله على قوم فعلوا بنبيه - يشير إلى رباعيته -، اشتد غضب الله على رجل يقتله رسول الله ﷺ في سبيل الله).

وروى البخاري ذلك الخبر أيضًا على لسان ابن عباس - رضي الله عنهما - أنه قال: (اشتد غضب الله على من قتله النبي ﷺ) فأي فهم يكون من هؤلاء الصحابة - رضوان الله عليهم- في هذه الساعات العصيبة من المفهوم اللغوي للعبارة، ولكنه غضب يليق بجلاله وكماله، فلم يخطر على بالهم تشبيه ذلك بغضب المخلوقين، أو خطر على بالهم أن يؤولوه، أو يعطلوه، رضوان الله عليهم.

ويوجه النبي ﷺ أصحابه إلى معنى صفة السمع، وأن الله سبحانه سميع قريب، فقد روى البخاري ومسلم عن أبي موسى رضي الله عنه قال: (كنا مع النبي ﷺ في سفر: فكنا إذا علونا كبرنا، فقال: أربعوا على أنفسكم؛ فإنكم لا تدعون أصمَّ، ولا غائبًا، تدعون سميعًا قريبًا) وفي رواية مسلم قال: (إن الذي تدعون أقرب إلى أحدكم من عنق راحلته).

ومن تمام فهم الصحابة للصفات الإلهية أن عائشة رضي الله عنها قالت: (الحمد لله الذي وسع سمعه الأصوات، لقد جاءت المجادلة تشكو إلى رسول الله ﷺ وأنا في ناحية البيت ما أسمع ما تقول، فأنزل الله عز وجل: قَدْ سَمِعَ اللهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللهِ وَاللهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ [المجادلة: ١]).

فكان هذا التعجب نابعًا من وصف الرب سبحانه بأعظم صفات الكمال، وهذا هو التفريق بين الصفات الإلهية وصفات المخلوقين على لسان هذه الصحابية الجليلة التي تمثل هذا الجمع الكبير الذي يؤمن بالصفات الإلهية هذا الإيمان الحق، وكانوا رضوان الله عليهم يحبون صفات ربهم، ويتقربون إليه بهذا الحب،

=

=

فقد روى البخاري ومسلم عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا (أن رسول الله ﷺ بعث رجلًا على سرية، فكان يقرأ لأصحابه في صلاتهم فيختم بـ قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ [الإخلاص:١]، فلما رجعوا ذكروا ذلك لرسول الله ﷺ فقال: سلوه لأي شيء يصنع هذا فسألوه فقال: لأنها صفة الرحمن، فأنا أحب أن أقرأ بها، فقال رسول الله ﷺ: أخبروه أن الله – عَزَّ وَجَلَّ – يحبه) وعن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال النبي ﷺ لأبي بن كعب: (إن الله أمرني أن أقرأ عليك: لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ [البينة:١] قال: وسماني؟ قال: نعم، فبكى)

وروى البخاري عن أنس قال: (جاء زيد بن حارثة يشكو، فجعل النبي ﷺ يقول: اتق الله وأمسك عليك زوجك، قال أنس: لو كان رسول الله ﷺ كاتمًا شيئًا لكتم هذه، فكانت زينب تفخر على أزواج النبي ﷺ تقول زوجكن أهاليكن، وزوجني الله تعالى من فوق سبع سموات)

ومما يبين عمق الفهم، وسرعة التفاعل مع الصفات التي أثرت في إيمان وحياة الصحابة رضوان الله عليهم، ما أخرجهالبخاري ومسلم في حديث الإفك عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: (فلما أنزل الله هذا في براءتي قال أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وكان ينفق على مسطح بن أثاثة لقرابته منه، والله لا أنفق على مسطح شيئًا بعد ما قاله لعائشة، فأنزل الله تعالى: وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُوا الْفَضْلِ مِنكُمْ وَالسَّعَةِ أَن يُؤْتُوا أُوْلِي الْقُرْبَى وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللهُ لَكُمْ وَاللهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ [النور:٢٢] فقال أبو بكر الصديق: بلى والله إني لأحب أن يغفر الله لي، فرجع إلى مسطح الذي كان يجري عليه)

وهكذا لو بحثنا عن مواقف الصحابة لوجدناها قد ألمت إلمامًا كبيرًا في الصفات ومعانيها، وظهرت آثارها على حياتهم وجميع تصرفاتهم، ولعل الوقائع العظيمة من الغزوات التي غزاها الصحابة مع رسول الله ﷺ والآيات التي نزلت بشأنها

=

=

والتي تنتهي تعقيباتها بالصفات الإلهية، هي من هذا الجانب الذي نرى أنها هيمنت عليه، فكانوا بأعلى درجات الفهم والإيمان واليقين، وعندما تجلى هذا الجانب في تصوراتهم بهذه الضخامة والشمول استغنوا عن السؤال والبحث والتنقير عنه، ومع ضخامة هذا العرض وشموليته في القرآن والسنة فقد غشيت أبصار المبتدعة عنه تمامًا، وقاموا بالبحث والتنقير على غير الهدى الرباني، وفتحوا أبواب الشرور على الأمة في أخص مسائل الألوهية، وهي مسائل الصفات التي حسمت مادة الاعتقاد بها على الصورة التي وقف عندها الصحابة، والتابعون، وتابعوهم الذين يمتدح طريقتهم الخليفة الزاهد عمر بن عبدالعزيز رَحِمَهُ ٱللَّهُ فيقول: (قف حيث وقف القوم، فإنهم عن علم وقفوا، وببصر نافذ قد كفوا، وإنهم على كشفها كانوا أقوى، وبالفضل لو كان فيها أحرى، فلئن قلتم حدث بعدهم فما أحدثه إلا من سلك غير سبيلهم، ورغب بنفسه عنهم، ولقد تكلموا منه بما يكفي، ووصفوا منه ما يشفي، فما دونه مقصر، وما فوقهم مجسر، لقد قصر عنهم قوم فجفوا، وطمح آخرون عنهم فغلوا، وإنهم فيما بين ذلك لعلى هدى مستقيم) وكانوا - رضوان الله عليهم- يكرهون التعمق والتكلف؛ فقد روى البخاري عن أنس بن مالك رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: (كنا عند عمر، فقال: نهينا عن التكلف) فإذا كان عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ يروي النهي عن التكلف فمن باب أولى أن ينتهوا عن الخوض في الصفات بما لا يحل، وإنما وقفوا عند الحد الذي وقف عنده الكتاب والسنة بعيدًا عن القول بالوصف والكيفية، أو النفي والتعطيل.

ويوضح ابن الوزير كيف أن الصحابة فهموا الصفات الإلهية من خلال تعليم الرسول ﷺ لهم حيث يقول: (التسليم لقول الله تعالى ولحديث رسول الله ﷺ ولأصحابه، وتابعيهم الناقلين إلينا شريعته عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، وأن لا نتهم منهم أحدًا لثبوت عدالتهم في سائر لوازم الشريعة، فإنهم نقلوها عن معدن النبوة، وعنصر الرسالة،

=

=

ولنعلم أن البيان لا يجوز تأخيره عند الحاجة، وقد بين لهم رسول الله ﷺ جميع ما أرسله الله تعالى به حتى قال فلان: (علمكم نبيكم كل شيء حتى الخراءة، فقال الصحابي: أجل لقد نهانا أن نستقبل القبلة لغائط أو بول، أو أن نستنجي باليمين، أو أن نستنجي بأقل من ثلاثة أحجار، أو أن نستنجي برجيع أو بعظم) وحتى قال ﷺ في خطبة الوداع: (إن الزمان استدار كهيئته يوم خلق السموات والأرض السنة اثنا عشر شهرًا منها أربعة حرم، ثلاثة متواليات، ذو القعدة، وذو الحجة، ومحرم، ورجب – مضر – الذي بين جمادي وشعبان) هذا فيما لا يضر جهله كيف في أمر التوحيد، فلو علم أن الحاجة داعية إلى تأويل صفات الله، وأنه يلزم الخلق كيفية معرفتها لما وسعه إلا البيان، وفي عدم ذلك دليل على كذب مدعيه، فلا يرفع أحد طرفه إلى كيفية معرفة صفات الله تعالى من قبل عقله إلا غضه الدهش والحيرة، فانقلب إليه البصر خاسئًا وهو حسير، فهذا ما يجب على المسلمين أن يؤمنوا به جملة، وأن يحيطوا به تفصيلًا).

– ومن خصائص إيمان الصحبة رضوان الله عليهم، بجانب فهمهم الواضح لها أنهم لم يتنازعوا بأي منها، وقد تنازعوا في آيات الأحكام، ولم يؤثر وجود أي نزاع بينهم في الصفات الإلهية، وهذا راجع إلى كمال فهمهم لها، يقول ابن القيم رحمه الله: (وقد تنازع الصحابة في تأويل قوله تعالى: أَوْ يَعْفُوَ الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ [البقرة:٢٣٧]، هل هو الأب، أو الزوج، وتنازعوا في تأويل قوله تعالى: أَوْ لاَمَسْتُمُ النِّسَاء [النساء:٤٣] هل هو الجماع، أو اللمس باليد، والقبلة ونحوها، وتنازعوا في تأويل قوله تعالى: وَلاَ جُنُبًا إِلاَّ عَابِرِي سَبِيلٍ هل هو المسافر يصلي بالتيمم مع الجنابة، أوالمجتاز بمواضع الصلاة، كالمساجد وهو جنب، وتنازعوا في تأويل ذوي القربى المستحقين الخمس هل هم قرابة رسول الله ﷺ، أو قرابة الإمام، وتنازعوا في تأويل قوله تعالى: وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُواْ لَهُ وَأَنصِتُواْ

=

=

لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ [الأعراف:٢٠٤] ، هل يدخل فيه قراءة الصلاة الواجبة أم لا، وتنازعوا في تأويل قوله: وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا [البقرة:٢٣٤] هل يتناول اللفظ الحال، أو هل للحمل فقط، وتنازعوا في قوله: حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ [المائدة:٣] هل يدخل فيه ما مات في البحر أم لا، وتنازعوا في تأويل الكلالة، وفي تأويل قوله تعالى: فَإِن كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلأُمِّهِ [النساء:١١]، وأمثال ذلك، ولم يتنازعوا في تأويل آيات الصفات وأخبارها في موضع واحد، بل اتفقت كلمتهم وكلمة التابعين بعدهم على إقرارها وإمرارها، مع فهم معانيها وإثبات حقائقها، وهذا يدل على أنها أعظم النوعين بيانًا، وأن العناية ببيانها أهم لأنها من تمام تحقيق الشهادتين، وإثباتها من لوازم التوحيد، فبينها الله ورسوله بيانًا شافيًا لا يقع فيه لبس ولا إشكال يوقع الراسخين في العلم في منازعة ولا اشتباه، ومن شرح الله لها صدره، ونور لها قلبه يعلم أن دلالتها على معانيها أظهر من دلالة كثير من آيات الأحكام على معانيها، ولهذا فإن آيات الأحكام لا يكاد يفهم معانيها إلا الخاصة من الناس، وأما آيات الأسماء والصفات فيشترك في فهمها الخاص والعام، أعني فهم أصل المعنى لا فهم الكنه، والكيفية، ولهذا أشكل على بعض الصحابة قوله: حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ [البقرة:١٨٧] ولم يشكل عليه ولا على غيره قوله: وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُواْ لِي وَلْيُؤْمِنُواْ بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ [البقرة:١٨٦]، وأمثالها من آيات الصفات، وأشكل على عمر بن الخطاب آية الكلالة، ولم يشكل عليه أول الحديد، وآخر الحشر، وأول سورة طه، ونحوها من آيات الصفات، وأيضًا فإن بعض آيات الأحكام مجملة عرف بيانها بالسنة كقوله تعالى: فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ [البقرة:١٩٦] ، فهذا مجمل في قدر الصيام والإطعام، فبينته السنة بأنه صيام ثلاثة

=

=
أيام، أو إطعام ستة مساكين، أو ذبح شاة، وكذلك، قوله: وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ [الحج:٢٩] مجمل في مقدار الطواف فبينته السنة بأنه سبع، ونظائره كثيرة كآية السرقة، وآية الزكاة، وآية الحج، وليس في آيات الصفات، وأحاديثها مجمل يحتاج إلى بيان من خارج بل بيانها فيها، وإن جاءت السنة بزيادة في البيان، والتفصيل؛ فلم تكن آيات الصفات مجملة محتملة لا يفهم المراد منها إلا بالسنة بخلاف آيات الأحكام).

مسألة: من الأمور الهامة التي تستوقف الباحث أن أول من أظهر الطعن على رسول الله ﷺ وأصحابه من المنتسبين لهذه الأمة هم المنافقون الذين ظهرت من خلالهم فرق الابتداع والمبتدعة، وأولهم ذو الخويصرة أول الخوارج؛ الذي خرج من ضئضئه حرقوص بن زهير، وذي الثدية، وجمهور الخوارج الذين خرجوا على عثمان رضي الله عنه، ثم على علي رضي الله عنه، وقالوا بتكفيرهم، وتكفير الصحابة، ثم عبدالله بن سبأ وأتباعه السبئية الذين اتخذوا شعار التشيع؛ حيث قالت الخوارج بتكفير عثمان، وعلي، وطلحة، والزبير، وعائشة ومن عاش في زمانهم من الصحابة فاستدركت عليهم الشيعة، فتناولت أبا بكر، وعمر، وجمهور الصحابة، ولتغطية سؤتها في كراهيتهم تولت أربعة منهم فقط بجوار علي رضي الله عنه.

ثم عندما برز قرن المرجئة المبتدعة خاضوا في الأحداث التي وقعت بين الصحابة رضوان الله عليهم، مخالفين لجمهور الأمة، وقالوا بالتوقف فيهم، ثم عندما ظهرت المعتزلة على يد واصل بن عطاء، وقرينه في الضلالة عمرو بن عبيد قالوا: بتفسيق الصحابة عليهم رضوان الله، وصار مثل هؤلاء الحيارى المتهوكون يطلقون ألسنتهم العلية للطعن على خير خلق الله ﷺ، حتى أن عمرو بن عبيد كان يقول عن عبدالله بن عمر إنه حشوي، ثم تعمقت خطة أعداء الأمة ببروز الجعدية، والجهمية، وغلاة الشيعة، والقرامطة، وفلاسفة المعتزلة الذين توجهوا للعقائد
=

=

التي اعتقدها الصحابة بصفاء وكمال تام، فقاموا بالإنكار والطعن وإلصاق الأباطيل بهم، والزعم بأنهم كانوا لا يفهمون معاني الصفات، فقام هؤلاء المبتدعة بالتأويل والتعطيل، والنفي والتشبيه لإثارة الشكوك والبلبلة في صفوف الأمة، حتى قيض الله لهم من رد هجمتهم الظالمة التي كانت تهدف إلى تجريد معاني الألوهية من نفوس المسلمين، والعمل على سيادة منهجها الظالم عندما استخدمت المأمون، والمعتصم، والواثق، في امتحان علماء الأمة طمعًا منهم في زعزعة قداسة القرآن من نفوس المسلمين، وإعادتهم إلى الجاهلية، ولكن الله ﷻ أعز دينه بصمود علماء السلف وعلى رأسهم إمام أهل السنة الإمام أحمد رَحِمَهُ اللهُ وجزاه الله خيرًا، - فعاد الخزي والعار على المعتزلة ومن شايعهم من فرق الضلال.

ومن هنا، فإن أغلب الأفكار الخاطئة التي أثيرت قديمًا وحديثًا عن عقيدة الصحابة رضوان الله عليهم، فهي تنبع من هذه المستنقعات العفنة من المعتزلة، والشيعة، والخوارج، والمرجئة، والمشبهة، والقدرية، الذين انبرى لمناصرتهم فئة من الكتّاب المعاصرين تحت مسميات براقة، وكأن المغيرين تداعوا من جديد عندما شاهدوا الصحوة الإسلامية تنمو وتتلمس طريق السلف في المعتقد والسلوك، فقاموا بإشاعة أباطيل الفرق الضالة في قوالب جديدة، وأصبح الشباب المسلم في حيرة واضطراب، ولكن الله ﷻ منجز وعده وناصر دينه، بإذنه تعالى: وَاللهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ [يوسف:٢١]

وقد سبق أن تعرضت لعقيدة الصحابة في الصفات، وأنهم كانوا أعظم الناس فهمًا، وسوف نعرض فيما يلي لجملة من الشبه التي أثارها أعداء الصحابة لإبطالها، وبيان زيفها، وأهداف القائلين بها، وذلك أن هؤلاء المبتدعة عندما ألجأتهم بدعهم المنحرفة لمثل هذه المقالات أرادوا تسويقها بين الناس، فقاموا بإلصاقها بالصحابة، وحاشاهم رضوان الله عليهم، أن يميلوا عن الطريق القويم الذي اختطه

=

=

لهم رسول الله ﷺ.

مسألة: وظيفة العقل في باب الصفات.

من تمام تكريم الإسلام للعقل إعماله فيما خلق له، وهيئ من أجله، وحجبه عن التهوك والخوض فيما لا سبيل له ولا قدرة عليه.

وباب الصفات يتضمن علومًا ضرورية، وعلومًا نظرية، وعلومًا غيبية، فالعلوم الضرورية يتفق عليها جميع العقلاء. والعلوم النظرية يتفاوت الناس في إدراكها بحسب ما أتوا من قدرات ذهنية وتدبر ونظر، وأما العلوم الغيبية فتعلق العقل بها من جهتين:

أولًا: العلم بها: وهذا لا يستقل به العقل، ولا يهتدي إليه من حيث هو إلا أن يهدى إليه بخبر الصادق، فيعلمه حينئذ علمًا معنويًا عامًا مبنيًا على الاشتراك الذهني مع ما يوافقه في عالم الشهادة.

ثانيا: إدراك تفاصيلها وكيفياتها: وهذا لا سبيل إليه مطلقًا، إذ أنه قاصر قصورًا ذاتيًا عن بلوغ دركه والإحاطة بعلمه.

ومع كون العقل لا يستقل بالعلم بباب الصفات على سبيل التفصيل، فضلًا عن إدراك كيفية جميع الصفات، فإنه لا يحيل ذلك ولا يمنعه كما يمنع المستحيلات العقلية، مثل اجتماع النقيضين في محل واحد، أو ارتفاعهما عنه معًا، بل يقف من هذه النصوص الغيبية الخبرية موقف التسليم إذا صح النقل وسلمت الرواية. قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (والرسل جاءت بما يعجز العقل عن دركه، ولم تأت بما يعلم بالعقل امتناعه)، وقال أيضًا: (فإن الرسول لا يجوز عليه أن يخالف شيئًا من الحق، ولا يخبر بما تحيله العقول وتنفيه. لكن يخبر بما تعجز العقول عن معرفته فيخبر بمحارات العقول، لا بمحالات العقول. ولهذا قال الإمام أحمد في رسالته في السنة، التي أخرجها عبدوس بن مالك العطار، قال: (ليس في السنة

=

=

قياس، ولا يضرب لها الأمثال، ولا تدرك بالعقول)، هذا قوله وقول سائر أئمة المسلمين، فإنهم متفقون على أن ما جاء به الرسول ﷺ لا تدركه كل الناس بعقولهم، ولو أدركوه بعقولهم لاستغنوا عن الرسول).

والعقل الصريح السالم من الشبهات والشهوات لا يمكن أن يخالف النقل الصحيح السالم من العلل والقوادح في سنده ومتنه. وسر ذلك أن كلًا منهما من الله، فالعقل خلقه والنقل خبره وأمره، ﴿أَلاَ لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ﴾ [الأعراف: ٥٤]. فكيف يختلفان! قال تعالى: ﴿أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ اخْتِلاَفًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢]. ولهذا فإن العلاقة بين العقل والشرع لها حالان لا ثالث لهما:

- فإما أن يؤيد العقل الشرع ويصدقه ويدل عليه.
- وإما أن يسلم له، ويجوز ما جاء به.

ولا يمكن أن يكون الثالث: وهو أن يعارضه ويخالفه.

وهذه الموافقة بين العقل الصريح والنقل الصحيح تقع من الطرفين، بحيث يصدق أحدهما الآخر، أو لا يعارضه. قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ: (.. كل ما يدل عليه الكتاب والسنة فإنه موافق لصريح المعقول، وإن العقل الصريح لا يخالف النقل الصحيح، ولكن كثيرًا من الناس يغلطون إما في هذا وإما في هذا، فمن عرف قول الرسول ومراده كان عارفًا بالأدلة الشرعية، وليس في المعقول ما يخالف المنقول.. وكذلك (العقليات الصريحة) إذا كانت مقدماتها وترتيبها صحيحًا لم تكن إلا حقًا، لا تناقض شيئًا مما قاله الرسول).

ولما كان (النقل الصحيح) معصومًا محفوظًا، وكان العقل عرضة للزلل والانحراف، كان للنقل على العقل وصاية وحماية. فلا قياس في مقابلة النص، وإذا قدر ظهور تعارض بين العقل والنقل الصحيح، فالنقل ثابت والعقل متهم.

=

=

فالنقل يحوط العقل ويسوسه ويوجهه الوجهة الصحيحة، ويحفظه من الزيغ.

كما أن النقل الصحيح ينير الطريق للعقل، ويوفر عليه الجهد، كما مثل شيخ الإسلام ابن تيمية فيما تقدم أثر النقل على العقل بقوله: (إن اتصل به نور الإيمان والقرآن كان كنور العين إذا اتصل به نور الشمس والنار. وإن انفرد بنفسه لم يبصر الأمور التي يعجز وحده عن دركها).

مسألة: تفاضل صفات الله.

قال شيخ الإسلام في جواب أهل العلم والإيمان (ص٤٢): والنصوص والآثار في تفضيل كلام الله - بل وتفضيل بعض صفاته - على بعض متعددة. وقول القائل " صفات الله كلها فاضلة في غاية التمام والكمال ليس فيها نقص " كلام صحيح لكن توهمه أنه إذا كان بعضها أفضل من بعض كان المفضول معيبا منقوصا خطأ منه فإن النصوص تدل على أن بعض أسمائه أفضل من بعض ولهذا يقال دعا الله باسمه الأعظم. وتدل على أن بعض صفاته أفضل من بعض وبعض أفعاله أفضل من بعض ففي الآثار ذكر اسمه العظيم واسمه الأعظم واسمه الكبير والأكبر كما في السنن وأخرجه أحمد وابن حبان في صحيحه {عن ابن بريدة عن أبيه قال: دخلت مع رسول الله ﷺ المسجد فإذا رجل يصلي يدعو: اللهم إني أسألك بأني أشهد أنك أنت الله لا إله إلا أنت الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد. فقال النبي ﷺ والذي نفسي بيده لقد سأل الله باسمه الأعظم الذي إذا سئل به أعطى وإذا دعي به أجاب}. {وعن أنس قال: كنت جالسا مع رسول الله ﷺ في الحلقة ورجل قائم يصلي فلما ركع وسجد تشهد ودعا فقال في في دعائه: اللهم إني أسألك بأن لك الحمد لا إله إلا أنت المنان بديع السموات والأرض يا ذا الجلال والإكرام يا حي يا قيوم فقال النبي ﷺ والذي نفسي بيده لقد دعا باسم الله الأعظم الذي إذا دعي به أجاب وإذا سئل به أعطى}. وقد ثبت في الصحيح عن

=

=

أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال {إن الله كتب في كتاب فهو موضوع عنده فوق العرش: إن رحمتي تغلب غضبي} وفي رواية {سبقت رحمتي غضبي} فوصف رحمته بأنها تغلب وتسبق غضبه وهذا يدل على فضل رحمته على غضبه من جهة سبقها وغلبتها وقد ثبت في صحيح مسلم {عن عائشة عن النبي ﷺ أنه كان يقول في سجوده اللهم إني أعوذ برضاك من سخطك وبمعافاتك من عقوبتك وأعوذ بك منك} . وروى الترمذي أنه كان يقول ذلك في وتره لكن هذا فيه نظر. وقد ثبت في الصحيح والسنن والمسانيد من غير وجه الاستعاذة بكلماته التامات كقوله {أعوذ بكلمات الله التامة من غضبه وعقابه ومن شر عباده ومن همزات الشياطين وأن يحضرون} . وفي صحيح مسلم عن خولة أنه قال ﷺ {من نزل منزلا فقال: أعوذ بكلمات الله التامة لم يضره شيء حتى يرتحل منه} . وفي الصحيح أنه قال لعثمان بن أبي العاص: {قل: أعوذ بعزة الله وقدرته من شر ما أجد وأحاذر} . ومعلوم أن المستعاذ به أفضل من المستعاذ منه فقد استعاذ برضاه من سخطه وبمعافاته من عقوبته. وأما استعاذته به منه فلا بد أن يكون باعتبار جهتين: يستعيذ به باعتبار تلك الجهة ومنه باعتبار تلك الجهة ليتغاير المستعاذ به والمستعاذ منه إذ أن المستعاذ منه مخوف مرهوب منه والمستعاذ به مدعو مستجار به ملتجأ إليه والجهة الواحدة لا تكون مطلوبة مهروبا منها لكن باعتبار جهتين تصح كما في الحديث الذي في الصحيحين عن البراء بن عازب {أن النبي ﷺ علم رجلا أن يقول عند النوم اللهم أسلمت نفسي إليك ووجهت وجهي إليك وألجأت ظهري إليك وفوضت أمري إليك رغبة ورهبة إليك لا منجا ولا ملجأ منك إلا إليك. آمنت بكتابك الذي أنزلت وبنبيك الذي أرسلت} فبين أنه لا ينجي منه إلا هو ولا يلتجأ منه إلا إليه. وأعمل الفعل الثاني لما تنازع الفعلان في العمل. ومعلوم أن جهة كونه منجيا غير جهة كونه منجيا منه وكذلك جهة كونه ملتجأ إليه غير كونه ملتجأ منه سواء قيل إن

=

=

ذلك يتعلق بمفعولاته أو أفعاله القائمة به أو صفاته أو بذاته باعتبارين. وفي صحيح مسلم عن عبد الله بن عمر عن النبي ﷺ أنه قال {المقسطون عند الله على منابر من نور عن يمين الرحمن وكلتا يديه يمين: الذين يعدلون في حكمهم وأهلهم وما ولوا} . وقد جاء ذكر اليدين في عدة أحاديث ويذكر فيها أن كلتاهما يمين مع تفضيل اليمين. قال غير واحد من العلماء لما كانت صفات المخلوقين متضمنة للنقص فكانت يسار أحدهم ناقصة في القوة ناقصة في الفعل بحيث تفعل بمياسرها كل ما يذم - كما يباشر بيده اليسرى النجاسات والأقذار - بين النبي ﷺ أن كلتا يمين الرب مباركة ليس فيها نقص ولا عيب بوجه من الوجوه كما في صفات المخلوقين مع أن اليمين أفضلهما كما في حديث آدم قال {اخترت يمين ربي وكلتا يدي ربي يمين مباركة} فإنه لا نقص في صفاته ولا ذم في أفعاله بل أفعاله كلها إما فضل وإما عدل. وفي الصحيحين عن أبي موسى عن النبي ﷺ قال: {يمين الله ملأى لا يغيضها نفقة سحاء الليل والنهار أرأيتم ما أنفق منذ خلق السموات والأرض فإنه لم يغض ما في يمينه. والقسط بيده الأخرى يرفع ويخفض} فبين ﷺ أن الفضل بيده اليمنى والعدل بيده الأخرى. ومعلوم أنه مع أن كلتا يديه يمين فالفضل أعلى من العدل وهو سبحانه كل رحمة منه فضل وكل نقمة منه عدل ورحمته أفضل من نقمته. ولهذا كان المقسطون على منابر من نور عن يمين الرحمن ولم يكونوا عن يده الأخرى. وجعلهم عن يمين الرحمن تفضيل لهم كما فضل في القرآن أهل اليمين وأهل الميمنة على أصحاب الشمال وأصحاب المشأمة وإن كانوا إنما عذبهم بعدله. وكذلك الأحاديث والآثار جاءت بأن أهل قبضة اليمين هم أهل السعادة وأهل القبضة الأخرى هم أهل الشقاوة. ومما يبين هذا أن الشر لم يرد في أسمائه وإنما ورد في مفعولاته ولم يضف إليه إلا على سبيل العموم وأضافه إلى السبب المخلوق أو بحذف فاعله وذلك كقوله

=

=

تعالى: {الله خالق كل شيء} و {من شر ما خلق} وكأسمائه المقترنة مثل المعطي المانع الضار النافع المعز المذل الخافض الرافع وكقوله: {وإذا مرضت فهو يشفين} وكقوله: {صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين} وكقول الجن: {وأنا لا ندري أشر أريد بمن في الأرض أم أراد بهم ربهم رشدا}. وقد ثبت في صحيح مسلم عن {النبي ﷺ أنه كان يقول في دعاء الاستفتاح والخير بيديك والشر ليس إليك} وسواء أريد به: أنه لا يضاف إليك ولا يتقرب به إليك أو قيل إن الشر إما عدم وإما من لوازم العدم وكلاهما ليس إلى الله فهذا يبين أنه سبحانه إنما يضاف إليه الخير وأسماؤه تدل على صفاته وذلك كله خير حسن جميل ليس فيه شر وإنما وقع الشر في المخلوقات...

مسألة: بطلان مقولة: مذهب السلف أسلم ومذهب الخلف أحكم.

درج المفوضة والمتكلمة من الأشاعرة على وصف مذهب التفويض بـ (السلامة) مبررين بذلك - حسب فهمهم الخاطئ - اختيار السلف لهذا السبيل لكونهم أقرب إلى الورع والاحتياط في الدين. وانساق كثير من الناس وراء هذا التبرير الذي يظهر منه - بادئ الرأي - إجلال السلف، وإضفاء مسحة الورع عليهم بتعظيمهم لجانب الرب، وعدم الخوض في هذه المزالق.

وصار بعض من ينتحل السلف ومذهبهم يلوح بهذه اللافتة (السلامة) للترويج لمذهب التجهيل. ولما كانت (السلامة) كلمة مقابلة لكلمة (الهلاك) أو حتى كلمة (المخاطرة) فقد استمالت النفوس والقلوب طلبًا للحذر من الوقيعة في مقام دحض مزلة.

فاجتمع في دعوى التفويض المزعومة أمران حبيبان إلى النفوس:

- نسبته إلى السلف...
- تضمنه للسلامة المنافية للخطر والهلكة.

=

=

ولذلك قيل: (مذهب السلف أسلم، ومذهب الخلف أعلم وأحكم).

وقد تتابع المتأخرون على ترديد هذه المقالة بلفظها أو مضمونها...

- قول بدر الدين بن جماعة: (وقد رجح قوم من الأكابر الأعلام قول السلف لأنه أسلم، وقوم منهم قول أهل التأويل للحاجة إليه)

- وقال سعد الدين التفتازاني بعد ذكر نصوص الصفات: (إنها ظنيات سمعية في معارضة قطعيات عقلية، فيقطع بأنها ليست على ظواهرها، ويفوض العلم بمعانيها إلى الله - تعالى -، مع اعتقاد حقيقتها، جريًا على الطريق الأسلم الموافق للوقف على (إلا الله) في قوله تعالى: وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللهُ، أو تأول تأويلات مناسبة موافقة لما دلت عليه الأدلة العقلية على ما ذكر في كتب التفسير، وشروح الحديث سلوكًا للطريق الأحكم، الموافق للعطف في (إلا الله، والراسخون في العلم)

- قول أحمد الدردير: (وأجاب أئمتنا، سلفهم، بأن الله تعالى منزه عن صفات الحوادث، مع تفويض معاني هذه النصوص إليه تعالى إيثارًا للطريق الأسلم: وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللهُ، وخلفهم، بتعيين محامل صحيحة إبطالًا لمذهب الضالين، وإرشادًا للقاصدين.. نظرًا إلى الطريق الأحكم، وذهابًا إلى أن الوقف في الآية: وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ. ومن ثم قيل: إن طريق السلف أسلم، وطريق الخلف أعلم)

ومثل هذا في كتب المتأخرين كثير. وسبب ذلك كما يبين شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ: (اعتقادهم أنه ليس في نفس الأمر صفة دلت عليها هذه النصوص بالشبهات الفاسدة، التي شاركوا فيها إخوانهم من الكافرين؛ فلما اعتقدوا انتفاء الصفات في نفس الأمر، وكان مع ذلك لا بد للنصوص من معنى، بقوا مترددين بين الإيمان باللفظ وتفويض المعنى - وهي التي يسمونها طريقة السلف - وبين صرف اللفظ

=

=

إلى معان بنوع تكلف - وهي التي يسمونها طريقة الخلف - فصار هذا الباطل مركبًا من فساد العقل والكفر بالسمع.. الخ).

نقض شبهتهم:

بعد هذا العرض والاستذكار لدعوى المفوضة، والمسوغين للتفويض بأن التفويض أسلم، ننقض هذه الدعوى بما يلي:

أولًا: أن هذه (السلامة) المزعومة سلامة في مقابلة (العلم) و (الحكمة). فنصيب السلف: (السلامة) دون (العلم) و (الحكمة)، ونصيب الخلف (العلم) و (الحكمة) دون (السلامة)، وتلك قسمة ضيزى، وتحكم بلا دليل. فهذه الأمور الثلاثة متلازمة، لا يتصور انفكاكها. فإقرارهم بأن السلف لا يتميزون بالعلم والحكمة لعدم تعيينهم المراد من النصوص يتسلزم نفي السلامة عن طريقتهم. والأمر خلاف ذلك، بل على النقيض تمامًا.

قال العلامة العثيمين في بيان بطلان هذا الزعم: (.. إن كون طريقة السلف أسلم من لوازم كونها أعلم وأحكم، إذ لا سلامة إلا بالعلم والحكمة. العلم بأسباب السلامة، والحكمة في سلوك تلك الأسباب، وبهذا يتبين أن طريق السلف (أسلم، وأعلم، وأحكم).

والسلامة التي يمكن إثباتها في مذهب أهل التفويض هي السلامة من التحريف الذي تقوله المتكلمون على الله بغير علم، بصرف معاني النصوص إلى استعمالات مجازية. ولا ريب أن هذا لون من السلامة، لكن قابله الوقوع في هلكة التجهيل، بتفريغ تلك النصوص من أي معنى يفهمه السامع، فكانوا كما قيل:

المستجير بعمرو حال كربته... كالمستجير من الرمضاء بالنار

ثانيًا: أن هذه (السلامة) المدعاة، المبنية على الجهل، لن تصل بأصحابها إلى شاطئ الأمان، وبر الطمأنينة إلا من ابتلي بالإعراض والصدود ولم يشتغل قلبه

=

=

بمعالي الأمور. أما النفوس الزكية، والقلوب الحية فلا يمكن أن تحال على مجهولات، وطلاسم، ومعميات ثم تركن إليها. (لأنه لا يمكن لأي قلب فيه حياة ووعي وطلب للعلم ونهمة في العبادة إلا أن يكون أكبر همه هو البحث في الإيمان بالله تعالى، ومعرفته بأسمائه وصفاته، وتحقيق ذلك علمًا واعتقادًا) وبالتالي يظل معتنق التفويض يعيش في حيرة، واضطراب، وتناقض، وحسبه بذلك بعدًا عن السلامة المزعومة.

(تتمة): قال الغرناطي في ملاك التأويل القاطع: الآية الأولى منها - قوله: (هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللهُ عَلِيمًا حَكِيمًا) (الفتح: ٤)، ثم قال بعد: (وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللهُ عَزِيزًا حَكِيمًا) (الفتح: ٧)، للسائل أن يسأل عن تعقيب جنود السماوات في الآية الأولى بقوله: (وَكَانَ اللهُ عَلِيمًا حَكِيمًا) وتعقيب الثانية بقوله: (وَكَانَ اللهُ عَزِيزًا حَكِيمًا)؟

والجواب عن ذلك، والله أعلم: أن الآية الثانية لما تقدمها قوله تعالى: (لِيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَكَانَ ذَلِكَ عِنْدَ اللهِ فَوْزًا عَظِيمًا * وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّانِّينَ بِاللهِ ظَنَّ السَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَغَضِبَ اللهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا) (الفتح: ٥ - ٦)، ناسب هذا المتقدم، من فعله تعالى بالفريقين، من مجازاة المؤمنين بالنعيم المقيم، وتعذيب المنافقين وغضبه عليهم ولعنهم وإعداده لهم جنهم، وَصفُه تعالى بالعزة ليعلم أنه سبحانه لا مغالب له وأن الكل تحت قهره، إذ لعزته يفعل في الكل ما يريده وما تقتضيه حكمته، إذ هو العزيز في ملكه الحكيم في أفعاله.

ولما لم يتقدم لآية المتقدمة ما يقتضي القصر كهذه، وإنما قبلها قوله سبحانه:

=

=

(هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ) (الفتح: ٤)، وهذا تعريف بإنعامه سبحانه ورحمته، فأعلم سبحانه أنه العليم بمن يرحمه، كما قال تعالى: (رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ) (الإسراء: ٥٤)، وقال تعالى: (وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ) (النحل: ١٢٥)، وقال تعالى: (اللهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ) (الأنعام: ١٢٤)، وجاء كل من الآيتين على ما يجب، والله أعلم.

الآية الثانية: غ - قوله تعالى: (سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا) (الفتح: ١١)، وفيما بعد منها: (سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انْطَلَقْتُمْ إِلَى مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ) (الفتح: ١٥)، ففي الآية الأولى إفراده، عَلَيْهِ السَّلَامُ، بخطابهم له في قوله تعالى افصاحًا بحرف الخطاب: (لك) ولم يرد ذلك في الثانية؟

ووجه ذلك أن المخبر عنهم من المخلفين طلبوا منه ﷺ الاستغفار لهم لتخلفهم عنه، وأفردوه بخطابهم إذ ليس ذلك من مطلوبهم لغيره فوردت العبارة عن ذلك بإفراد الخطاب. وأعلم تعالى نبيه ﷺ بنفاقهم وكذبهم في اعتذارهم فقال تعالى: (يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ) (الفتح: ١١).

وأما الآية الثانية فليس قولهم: (ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ) خطابًا خاصًا له ﷺ، بل هو خطاب له وللمؤمنين، والسياق يفصح بذلك، وما أمره به، عَلَيْهِ السَّلَامُ، من مجاوبتهم في قوله لهم: (لن تتبعونا) فلم يرد هنا إفراده ﷺ بخطابهم له كما ورد في الأولى، وجاء كل على ما يناسب.

فإن قيل: إن خطابهم له خاص كالأول ولكن خاطبوه مخاطبة التعظيم بقولهم: (ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ)، قلت: وعلى (فرض) هذا فمراعاة الألفاظ في التعظيم أكيدة جدًا وبها إحرازه، وعلى هذا لايلائم هنا الخطاب كيف ما قدر إلا بصورة ما للجميع، والله أعلم بما أرد.

=

سُورَةُ الْحُجُرَاتِ(١)

=

الآية الثالثة من سورة الفتح - قوله تعالى: (قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا بَلْ كَانَ اللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا) (الفتح: ١١)، ثم قال فيما بعد: (وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا) (الفتح: ٢٤)، للسائل أن يسأل عن وجه اختلاف الوصفين الواقع بهما ختام الآيتين وهما (خبير) في الأولى و (بصير) في الثانية؟

والجواب عنه: أنه قد تقدم قبل الآية الأولى قوله تعالى: (سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ) (الفتح: ١١) فناسب هذا وصفه تعالى بالخبير لأن الخبير هو العليم بما خفي وبطن، فتأمل مناسبة هذا لقوله: (يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ).

وأما الآية الثانية فتقدمها قوله تعالى: (وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ) (الفتح: ٢٤) وليس في هذا إبطان شيء أظهر خلافه، فكان إيراد وصفه سبحانه ببصير أنسب، وورد كل على ما يجب. ا.هـ من ملاك التأويل (٢/ ٤٤٥-٤٤٦).

(١) السّورة مَدَنِيّة.

قال ابن عاشور:" هي مدنية باتفاق أهل التأويل، أي: مما نزل بعد الهجرة، وحكى السيوطي في «الإتقان» قولا شاذا أنها مكية، ولا يعرف قائل هذا القول، وفي أسباب النزول للواحدي أن قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى} [الحجرات: ١٣]، الآية نزلت بمكة في يوم فتح مكة، ولم يثبت أن تلك الآية نزلت بمكة كما سيأتي. ولم يعدها في «الإتقان» في عداد السور المستثنى بعض

=

=

آياتها".

قال ابن عطية:" هي مدنية بإجماع من أهل التأويل رضي الله عنهم".

قال ابن الجوزي:" هي مدنيّة بإجماعهم".

قال ابن قتيبة:" مدنية كلها".

قال القرطبي:" مدنية بإجماع".

* وآياتها ثمان عشرة. وكلماتها ثلاثمائة وثلاث وأربعون. وحروفها ألف وأربعمائة وأربع وسبعون. مجموع فواصل آياتها (من)

* أسماء السورة.

تسمى «سورة الحجرات» سميت في جميع المصاحف وكتب السنة والتفسير: «سورة الحجرات»، وليس لها اسم غيره، ووجه تسميتها: أنها ذكر فيها لفظ «الحجرات»، قال تعالى {إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ} [الحجرات: ٤]: إذ نزلت في قصة نداء بني تميم رسول الله ﷺ من وراء حجراته، فعرفت بهذه الإضافة.

* معظم مقصود السورة: محافظة أَمر الحقّ تعالى، ومراعاة حُرْمة الأَكابر، والتُّؤدة فى الأُمور، والاجتناب عن التَّهور، والكوْن فى إِغاثة المظلوم، والاحتراز عن السخرية بالخَلْق، والحذر عن التجسّس والغِيبة، وترك الفخر بالأَحساب والأَنساب، والتحاشى عن المنَّة على الله بالطَّاعة، وإِحالة علم الغَيْب إِلى الله - تعالى - فى قوله: {إِنَّ اللهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السماوات والأرض}.

* المتشابهات: قوله تعالى: {ياأيها الذين آمَنُوا} مذكور فى السّورة خمس مرات، والمخاطبون المؤمنون، والمخاطب به أَمر ونهى، وذكر فى السّادس {ياأيها الناس} فعمّ المؤمنين والكافرين، والمخاطب به قوله {إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وأنثى} لأَن النَّاس كلَّهم فى ذلك شَرع سواء. ا. هـ من بصائر ذوي التمييز (١/

=

بسم الله الرحمن الرحيم(١)

يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللهَ إِنَّ اللهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (١).

{يَا أَيّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا} مِنْ قَدَّمَ بِمَعْنَى تَقَدَّمَ أَيْ لَا تُقَدِّمُوا بِقَوْلٍ وَلَا فِعْل {بَيْن يَدَيِ الله وَرَسُوله} الْمُبَلِّغ عَنْهُ أَيْ بِغَيْرِ إِذْنهمَا {وَاتَّقُوا الله إِنَّ الله سَمِيع} لِقَوْلِكُمْ {عَلِيم} بِفِعْلِكُمْ نَزَلَتْ فِي مُجَادَلَة أَبِي بَكْر وَعُمَر رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا عِنْد النَّبِيّ ﷺ فِي تَأْمِير الْأَقْرَع بْن حَابِس أَوْ الْقَعْقَاع بْن مَعْبَد وَنَزَلَ فِيمَنْ رَفَعَ صَوْته عِنْد النَّبِيّ ﷺ(٢).

=

٤٣٥ - ٤٣٦).

(١) تقدم تفسير البسملة في أول سورة الفاتحة.

(٢) ذكر سبب النزول.

عن عبد الله بن الزبير رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: أنه قدم ركب من بني تميم على النبي ﷺ، فقال أبو بكر: أمّر القعقاع بن معبد بن زرارة، فقال عمر: بل أمِّر الأقرع بن حابس؛ قال أبو بكر: ما أردت إلا خلافي، قال عمر: ما أردت خلافك، فتماريا؛ حتى ارتفعت أصواتهما؛ فنزل في ذلك: {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللهِ وَرَسُولِهِ} حتى انقضت.

أخرجه البخاري في "صحيحه" (رقم ٤٣٦٧، ٤٨٤٧)، وسيأتي في الآية التالية.

وعن الحسن: هم قوم نحروا قبل أن يصلي النبي ﷺ، فأمرهم النبي ﷺ أن يعيدوا الذبح.

أخرجه الطبري في "جامع البيان" (٢٦/ ٧٤): ثنا محمد بن عبد الأعلى؛ قال: ثنا =

=

ابن ثور عن معمر عن قتادة؛ قال الحسن: (فذكره).

وقال: ثنا بشر بن معاذ العقدي ثنا يزيد بن زريع ثنا سعيد بن أبي عروبة عن قتادة به.

وأخرجه عبد الرزاق في "تفسيره" (٢/ ٢٣٠): نا معمر عن قتادة به، قال معمر: وقال الحسن (فذكره). وهذا مرسل رجاله ثقات.

وذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٧/ ٥٤٧) وزاد نسبته لعبد بن حميد وابن المنذر.

وأخرج ابن أبي الدنيا في "الأضاحي"؛ كما في "الدر المنثور" (٧/ ٥٤٧)، و"لباب النقول" (ص ١٩٥)، عن الحسن قال: ذبح رجل قبل الصلاة؛ فنزلت.

وعن مسروق: أنه دخل على عائشة ﵂ في اليوم الذي يُشك فيه من رمضان؛ فقالت: يا جارية! خوّصي له سويقًا؛ فقال: إني صائم؛ فقالت: تقدمت الشهر؟ فقلت: لا، ولكني صمتُ شعبان كله فوافق ذلك هذا اليوم، فقالت: إن ناسًا كانوا يتقدمون الشهر فيصومون قبل النبي ﷺ؛ فأنزل الله ﷿: {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللهَ إِنَّ اللهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (١)}.

أخرجه الطبراني في "المعجم الأوسط" (٣/ ١٣٤ رقم ٢٧١٣): ثنا إبراهيم بن أحمد الوكيعي؛ قال: نا أبي؛ قال: نا أبو أسامة، عن أبي كدينة يحيى بن المهلب عن يحيى بن الحارث التيمي عن حبال بن رفيدة عن مسروق به.

قال الطبراني: "لم يرو هذا الحديث عن أبي كدينة إلا أبو أسامة".

وأخرجه الواحدي في "الوسيط" (٤/ ١٥٠) من طريق أخرى عن التيمي.

وهذا سند ضعيف؛ فيه علتان:

الأولى: حبال بن رفيدة؛ مجهول؛ قال الذهبي في "ميزان الاعتدال" (١/ ٤٤٨): "لا يعرف".

=

=

وبه أعله الهيثمي في "مجمع الزوائد" (٣/ ١٤٨).

الثانية: التيمي هذا لم نجد له ترجمة.

والحديث ذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٧/ ٥٤٧) وزاد نسبته لابن مردويه.

وأخرجه الدارقطني في "المؤتلف والمختلف" (٢/ ٥٩٧) من طريق عبد الرحمن بن مهدي ثنا سفيان عن أبي إسحاق عن مالك بن أبي حمزة عن مسروق بنحوه.

قلنا: وإسناده صحيح؛ ورجاله ثقات، ومالك بن أبي حمزة وثقه ابن معين وابن حبان والحافظ ابن حجر، وقال الزيلعي في "تخريج الكشاف" (٣/ ٣٢٥): "ولم يذكره -يعني: الدارقطني- بجرح ولا تعديل". هذا لا يضره؛ كونه وثقه غيره على ما هو مفصل في "تهذيب التهذيب" (١٢/ ١٦٩، ١٧٠)؛ فلا وجه لتضعيفه كما فعل الزيلعي. وبالجملة؛ فالحديث بمجموع ما تقدم ثابت.

وعنها -أيضًا- رَضِيَ اللهُ عَنْهَا؛ قالت: كان أناس يتقدمون بين يدي رمضان بصيام؛ يعني: يومًا أو يومين؛ فأنزل الله -تعالى-: {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللهَ إِنَّ اللهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (١)}.

ذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٧/ ٥٤٧) ونسبه لابن النجار.

* قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا} [الحجرات: ١]، أي:" يا أيها الذين صدَّقوا الله ورسوله وعملوا بشرعه".

قال الطبري: يقول:" يا أيها الذين أقرّوا بوحدانية الله، وبنبوّة نبيه محمد ﷺ".

قال ابن عباس:" ما أنزل الله آية في القرآن، يقول فيها: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا}، إلا كان على شريفها وأميرها".

قال ابن مسعود رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: "إذا سمعت الله يقول: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا} فأرعها سمعك [يعني: استمع لها]؛ فإنه خير يأمر به، أو شر ينهى عنه".

قوله تعالى: {لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللهِ وَرَسُولِهِ} [الحجرات: ١]، أي:" لا تقضوا

=

=

أمرًا دون أمر الله ورسوله من شرائع دينكم فتبتدعوا".

قال الطبري:" يقول: لا تعجلوا بقضاء أمر في حروبكم أو دينكم، قبل أن يقضي الله لكم فيه ورسوله، فتقضوا بخلاف أمر الله وأمر رسوله، محكيّ عن العرب فلان يقدّم بين يدي إمامه، بمعنى يعجل بالأمر والنهي دونه".

قال السعدي:" هذا متضمن للأدب، مع الله تعالى، ومع رسول الله ﷺ، والتعظيم له، واحترامه، وإكرامه، فأمر الله عباده المؤمنين، بما يقتضيه الإيمان، بالله وبرسوله، من امتثال أوامر الله، واجتناب نواهيه، وأن يكونوا ماشين، خلف أوامر الله، متبعين لسنة رسول الله ﷺ، في جميع أمورهم، و أن لا يتقدموا بين يدي الله ورسوله، ولا يقولوا، حتى يقول، ولا يأمروا، حتى يأمر، فإن هذا، حقيقة الأدب الواجب، مع الله ورسوله، وهو عنوان سعادة العبد وفلاحه، وبفواته، تفوته السعادة الأبدية، والنعيم السرمدي، وفي هذا، النهي الشديد عن تقديم قول غير الرسول ﷺ، على قوله، فإنه متى استبانت سنة رسول الله ﷺ، وجب اتباعها، وتقديمها على غيرها، كائنا ما كان".

قال ابن كثير:" هذه آداب، أدب الله بها عباده المؤمنين فيما يعاملون به الرسول ﷺ من التوقير والاحترام والتبجيل والإعظام، فقال: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللهَ}، أي: لا تسرعوا في الأشياء بين يديه، أي: قبله، بل كونوا تبعا له في جميع الأمور، حتى يدخل في عموم هذا الأدب الشرعي حديث معاذ، إذ قال له النبي ﷺ حين بعثه إلى اليمن: "بم تحكم؟ " قال: بكتاب الله. قال: "فإن لم تجد؟ " قال: بسنة رسول الله. قال: "فإن لم تجد؟ " قال: أجتهد رأيي، فضرب في صدره وقال: «الحمد لله الذي وفق رسولَ رسولِ الله، لما يرضي رسول الله"» .. فالغرض منه أنه أخر رأيه ونظره واجتهاده إلى ما بعد الكتاب والسنة، ولو قدمه قبل البحث عنهما لكان من باب التقديم بين يدي الله

=

=

ورسوله".

وقد تعددت عبارات المفسرين في تفسير قوله تعالى: {لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللهِ وَرَسُولِهِ} [الحجرات: ١]، على وجوه:

أحدها: معناه: لا تقولوا خلاف الكتاب والسنّة. قاله ابن عباس.

الثاني: لا تتكلّموا بين يدي كلامه. قاله ابن عباس-أيضا-.

الثالث: أن هذه الآية نزلت ردا على أناس من المسلمين كانوا يقولون: لو أنزل في كذا، وصنع في كذا وكذا، فكره الله ذلك. قاله قتادة.

الخامس: يعني: لا تصوموا قبل أن يصوم نبيكم. رواه مسروق عن عائشة.

الثالث: يعني: في القتال وشرائع الدين، يقول: لا تقضوا أمرا دون الله ورسوله. قاله ابن عباس، وروي عن الضحاك نحوه.

قال الضحاك:" يعني: بذلك في القتال، وكان من أمورهم لا يصلح أن يقضى إلا بأمره ما كان من شرائع دينهم".

الرابع: أنه في الذبح يوم الأضحى، قاله جابر بن عبد الله، وهو قول الحسن، واختيار الزجاج.

قال الزجاج:" المعنى: إذا أمرتم بأمر فلا تفعلوه قبل الوقت الذي أمرتم أن تفعلوه فيه، وجاء في التفسير أن رجلا ذبح يوم الأضحى قبل صلاة الأضحى فتقدم قبل الوقت فاعلم الله أن ذلك غير جائز، ففي هذا دليل أنه لا يجوز أن يؤدى فرض قبل وقته ولا تطوع قبل وقته مما جاءت به السنة، وفي هذا دليل أن تقديم الزكاة قبل وقتها لا ينبغي أن يجوز، فأما ما يروى أن النبي ﷺ استسلف من العباس شيئا من الزكاة، فلا أعلم أن أحدا ممن أجاز تقديم الزكاة احتج إلا بهذا الحديث، وهذا إن صح فهو على ضربين: أحدهما أن يكون مخصوصا، والآخر: أن يكون الحاجة اشتدت فوقع اضطرار إلى استسلاف الزكاة. والإجماع أن إعطاءها في وقتها هو

=

=

الحق، وهو الفضل إن شاء الله".

الخامس: لا تستبقوا رسول الله بقول، ولا فعل حتّى يكون هو الذي يأمركم. قاله الكلبي، والسدّي.

قال الخازن:" فيه إشارة إلى احترام رسول الله ﷺ والانقياد لأوامره ونواهيه، والمعنى: لا تعجلوا بقول أو فعل قبل أن يقول رسول الله ﷺ أو قبل أن يفعله".

السادس: لا تقطعوا أمرا دون رسول الله. قاله ابن زيد.

وقال سفيان:" لا تقضوا أمرا دون رسول الله".

السابع: لا تدعوا قبل الإمام، حكاه ابن كثير عن الحسن.

الثامن: لا تمشوا بين يدي رسول الله، وكذلك بين أيدي العلماء فإنّهم ورثة الأنبياء. حكاه الثعلبي.

وفي هذا المعنى روي عن أبي الدرداء قال: "رآني النبي ﷺ وأنا أمشي أمام أبي بكر، فقال: «لم تمشي أمام من هو خير منك؟ إن أبا بكر خير من طلعت عليه الشمس، أو غربت»".

التاسع: لا تطلبوا منزلة وراء منزلته. حكاه الثعلبي.

العاشر: معناه: لا تفتاتوا على رسول الله ﷺ بشيء حتى يقضيه الله على لسانه. قاله مجاهد".

قال عبدالقاهر الجرجاني:" جمع مجاهد هذه الأقوال كلها".

قال الإمام الشافعي: {لَا تُقَدِّمُوا} " أي: لا تتقدموا: يقال: قدَّم، وتقدَّم، واستقدَم: بمعنى واحد. ومُقَدِّمة الجيش: بكسر الدال من هذا".

قال الأخفش: "تقول العرب: فلان تقدّم بين يدي أبيه، وأمّه، ويتقدّم إذا استبدّ بالأمر دونهما".

قال أبو عبيدة:" تقول العرب: فلان يقدّم بين يدى الإمام وبين يدى أبيه، يعجّل

=

=

بالأمر والنهى دونه".

قال ابن قتيبة:" أي: لا تقولوا قبل أن يقول رسول الله ﷺ. يقال: "فلا يقدم بين يدي الإمام وبين يدي أبيه"؛ أي: يُعجِّل بالأمر والنهي دونه".

قال سهل:" إن الله تعالى أدب عباده المؤمنين، أي: لا تقولوا قبل أن يقول، فإذا قال فأقبلوا عليه ناصتين له، مستمعين إليه".

قال الواحدي:" هذه عبارات المفسرين ومعناها واحد".

قال ابن الجوزي:" معنى الآية على جميع الأقوال: لا تعجلوا بقول أو فعل قبل أن يقول رسول الله ﷺ أو يفعل".

قال النحاس:" وهذه الأقوال ليست بمتناقضة بل بعضها يشد بعضا، لأن هذه الأشياء إذا كانت ونزلت الآية تأولها القوم على ظاهرها في كراهة تقديم القول بين يدي الرسول ﷺ من قبل أن يتشاوروا، وتأولها قوم على منع الذبح قبل الإمام، ودل على هذا أن فعل الطاعات قبل وقتها لا يجوز تقديم الصلاة ولا الزكاة".

قال ابن عطية:" كانت عادة العرب وهي إلى الآن الاشتراك في الآراء وأن يتكلم كل بما شاء ويفعل ما أحب، فمشى بعض الناس ممن لم تتمرن نفسه مع النبي ﷺ على بعض ذلك، قال قتادة: فربما قال قوم: لو نزل كذا وكذا في معنى كذا وكذا وينبغي أن يكون كذا، وأيضا فإن قوما ذبحوا ضحاياهم قبل النبي ﷺ، حكاه الحسن بن أبي الحسن، وقوما فعلوا في بعض حروبه وغزواته أشياء بآرائهم، فنزلت هذه الآية ناهية عن جميع ذلك".

قوله تعالى: {وَاتَّقُوا اللهَ} [الحجرات: ١]، أي:" وخافوا الله في قولكم وفعلكم أن يخالَف أمر الله ورسوله".

قال محمد بن إسحاق: {واتقوا الله}، أي: أطيعوا الله".

قال الطبري:" يقول: وخافوا الله أيها الذين آمنوا في قولكم، أن تقولوا ما لم يأذن

=

=

لكم به الله ولا رسوله، وفي غير ذلك من أموركم، وراقبوه".

قال سهل:" واتقوا الله في إهمال حقه، وتضييع حرمته".

قال ابن كثير:" أي: فيما أمركم به".

قوله تعالى: {إِنَّ اللهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ} [الحجرات: ١]، أي:" إن الله سميع لأقوالكم، عليم بنياتكم وأفعالكم".

قال محمد بن إسحاق: {واتقوا الله}، أي: أطيعوا الله".

قال الطبري: يقول: " إن الله سميع لما تقولون، عليم بما تريدون بقولكم إذا قلتم، لا يخفى عليه شيء من ضمائر صدوركم، وغير ذلك من أموركم وأمور غيركم".

قال سهل:" {إِنَّ اللهَ سَمِيعٌ} ما تقولون، {عَلِيمٌ} بما تعملون".

قال ابن كثير:" {إِنَّ اللهَ سَمِيعٌ}، أي: لأقوالكم {عَلِيمٌ} بنياتكم".

قال السعدي:" {إِنَّ اللهَ سَمِيعٌ} أي: لجميع الأصوات في جميع الأوقات، في خفي المواضع والجهات، {عَلِيمٌ} بالظواهر والبواطن، والسوابق واللواحق، والواجبات والمستحيلات والممكنات، وفي ذكر الاسمين الكريمين -بعد النهي عن التقدم بين يدي الله ورسوله، والأمر بتقواه- حث على امتثال تلك الأوامر الحسنة، والآداب المستحسنة، وترهيب عن عدم الامتثال".

قال الجصاص:" يحتج بهذه الآية في امتناع جواز مخالفة النبي ﷺ في تقديم الفروض على أوقاتها وتأخيرها عنها وفي تركها، وقد يحتج بها من يوجب أفعال النبي ﷺ؛ لأن في ترك ما فعله تقدما بين يديه، كما أن في ترك أمره تقدما بين يديه، وليس ذلك كما ظنوا؛ لأن التقدم بين يديه إنما هو فيما أراد

منا فعله ففعلنا غيره، فأما ما لم يثبت أنه مراد منه فليس في تركه تقديم بين يديه ويحتج به نفاة القياس أيضا ويدل ذلك على جهل المحتج به؛ لأن ما قامت دلالته فليس في فعله تقدم بين يديه، وقد قامت دلالة الكتاب والسنة والإجماع

=

=

على وجوب القول بالقياس في فروع الشرع، فليس فيه إذا تقدم بين يديه".

قال ابن عاشور:" هذه الآية توطئة للنهي عن رفع الأصوات عند رسول الله ﷺ والجهر له بالقول وندائه من وراء الحجرات".

وقال العثيمين: قوله تعالى: {يا أيها الذين آمنوا لا تقدموا بين يدي الله ورسوله واتقوا الله إن الله سميع عليم} . اعلم أن الله تعالى إذا ابتدأ الخطاب بقوله: {يا أيها الذين آمنوا لا تقدموا بين يدي الله ورسوله واتقوا الله إن الله سميع عليم} فإنه كما قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: إما خير تُؤمر به، وإما شر تنهى عنه، فأرعه سمعك، واستمع إليه لما فيه من الخير، وإذا صدَّر الله الخطاب بـ {يا أيها الذين آمنوا لا تقدموا بين يدي الله ورسوله واتقوا الله إن الله سميع عليم} دل ذلك على أن التزام ما خوطب به من مقتضيات الإيمان، وأن مخالفته نقص في الإيمان، يقول الله عز وجل: {لا تقدموا بين يدي الله ورسوله واتقوا الله إن الله سميع عليم} قيل: معنى {لا تقدموا بين يدي الله ورسوله واتقوا الله إن الله سميع عليم} أي: لا تتقدموا بين يدي الله ورسوله، والمراد: لا تسبقوا الله ورسوله بقولٍ أو بفعل. وقيل: المعنى لا تقدموا شيئًا بين يدي الله ورسوله. وكلاهما يصبان في مصب واحد، والمعنى: لا تسبقوا الله ورسوله بقولٍ ولا فعلٍ، وقد وقع لذلك أمثلة، فمن ذلك قول النبي ﷺ: «لا تقدموا رمضان بصوم يوم ولا يومين»

لأن الذي يتقدم رمضان بصوم يوم أو يومين كأنه تقدم بين يدي الله ورسوله، فبدأ بالصوم قبل أن يحين وقته، ولهذا قال عمار بن ياسر رضي الله عنهما: «من صام اليوم الذي يشك فيه فقد عصى أبا القاسم ﷺ». ومن التقدُّم بين يدي الله ورسوله البدع بجميع أنواعها، فإنها تقدم بين يدي الله ورسوله؛ بل هي أشد التقدم؛ لأن النبي ﷺ قال: «عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي، وإياكم ومحدثات الأمور». وأخبر بأن «كل بدعة ضلالة». وصدق عليه الصلاة والسلام

=

=

فإن حقيقة حال المبتدع أنه يستدرك على الله ورسوله ما فات، مما يدعي أنه شرع، كأنه يقول: إن الشريعة لم تكمل، وأنه كملها بما أتى به من البدعة، وهذا معارض تمامًا لقوله تعالى: {اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام دينًا فمن اضطر في مخمصة غير متجانف لإثم فإن الله غفور رحيم}.
فيقال لهذا الرجل الذي ابتدع: أهذا الذي فعلته كمال في الدين؟ إن قال: نعم، فإن قوله هذا يتضمن أو يستلزم تكذيب قوله تعالى: {اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام دينًا فمن اضطر في مخمصة غير متجانف لإثم فإن الله غفور رحيم}، وإن قال: ليس كمالًا في الدين، قلنا: إذن هو نقص؛ لأن الله يقول: {فماذا بعد الحق إلا الضلال فأنى تصرفون} فالبدعة كما أنها ضلالة في نفسها فهي في الحقيقة تتضمن الطعن في دين الله، وأنه ناقص، وأن هذا المبتدع كمله بما ادعى أنه من شريعة الله ﷻ فالمبتدعون كلهم تقدموا بين يدي الله ورسوله، ولم يبالوا بهذا النهي حتى وإن حسن قصدهم؛ فإن فعلهم ضلالة، وقد يُثاب على حسن قصده، ولكنه يؤزر على سوء فعله، ولهذا يجب على كل مبتدع علم أنه على بدعة أن يتوب منها، ويرجع إلى الله ﷻ ويلتزم سنة الرسول صلى الله عليه وعلى آله وسلم، وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعده، والبدعة أنواع كثيرة: بدع في العقيدة، وبدع في الأقوال، وبدع في الأفعال.
أما البدع في العقيدة، فإنها تدور على شيئين:
إما تمثيل، وإما تعطيل. فالتمثيل أن يثبت لله تعالى الصفات، لكن على وجه المماثلة، فإن هذا بدعة؛ لأنه لم يكن من طريق النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم وخلفائه الراشدين، فيكون بدعة، فمثلًا يثبت أن لله وجهًا ويجعله مماثلًا لأوجه المخلوقين، أو أن لله يدًا ويجعلها مماثلة لأيدي المخلوقين، وهلم جرا، فهؤلاء مبتدعة بلا شك، وبدعتهم تكذيب لقوله تعالى: {ليس كمثله شيء}
=

=

ولقوله: {ولم يكن له كفوًا أحد}. ولقوله تعالى: {هل تعلم له سميًا}.

أما التعطيل فهو أن ينكر ما وصف الله تعالى به نفسه، فإن كان إنكار جحد وتكذيب، فهو كفر، وإن كان إنكار تأويل فهو تحريف وليس بكفر إذا كان اللفظ يحتمله، فإن كان لا يحتمله فلا فرق بينه وبين إنكار التكذيب، فمثلًا إذا قال إنسان: إن الله سبحانه وتعالى قال: {بل يداه مبسوطتان} والمراد باليدين النعمة نعمة الدين ونعمة الدنيا، أو نعمة الدنيا ونعمة الآخرة، فهذا تحريف؛ لأن النعمة ليست واحدة، ولا ألف ولا ملايين، {وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها} فليست النعمة اثنتين لا بالجنس ولا بالنوع، فيكون هذا تحريفًا وبدعة، لأنه على خلاف ما تلقاه النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم وأصحابه، والأئمة الهداة من بعدهم.

أما البدعة في الأقوال: فمثل أولئك الذين يبتدعون تسبيحات أو تهليلات أو تكبيرات، لم ترد بها السنة، أو يبتدعون أدعية لم ترد بها السنة، وليست من الأدعية المباحة.

وأما بدع الأفعال: فمثل الذين يصفقون عند الذكر، أو يهزون رؤوسهم عند التلاوة تعبدًا، أو ما أشبه ذلك من أنواع البدع، وكذلك الذين يتمسحون بالكعبة في غير الحجر الأسود والركن اليماني، وكذلك الذين يتمسَّحون بحجرة النبي ﷺ، حجرة قبره الشريف، وكذلك الذين يتمسَّحون بالمنبر الذي يقال إنه منبر النبي ﷺ في المسجد النبوي، وكذلك الذين يتمسحون بجدران مقبرة البقيع أو بغير ذلك.

والبدع كثيرة: العقدية والقولية والفعلية، وكلها من التقدم بين يدي الله ورسوله، وكلها معصية لله ورسوله، فإن الله يقول: {لا تقدموا بين يدي الله ورسوله واتقوا الله إن الله سميع عليم} والنبي عليه الصلاة والسلام يقول: «إياكم ومحدثات الأمور».

=

ومن البدع ما يُصنع في رجب، كصلاة الرغائب التي تُصلَّى ليلة أول جمعة من شهر رجب، وهي صلاة ألف ركعة يتعبدون لله بذلك، وهذا بدعة لا تزيدهم من الله إلا بعدًا؛ لأن كل من تقرَّب إلى الله بما لم يشرعه فإنه مبتدع ظالم، لا يقبل الله منه تعبده، لما ثبت في الصحيحين وغيرهما عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أن رسول الله ﷺ قال: «من عمل عملًا ليس عليه أمرنا فهو رد». ومن التقدم بين يدي الله تعالى ورسوله أن يقول الإنسان قولًا يُحكم به بين عباد الله أو في عباد الله، وليس من شريعة الله، مثل أن يقول: هذا حرام، أو هذا حلال، أو هذا واجب، أو هذا مستحب بدون دليل، فإن هذا من التقدم بين يدي الله ورسوله، وعلى من قال قولًا وتبين له أنه أخطأ فيه أن يرجع إلى الحق حتى لو شاع القول بين الناس وانتشر وعَمِلَ به مَن عمل من الناس، فالواجب عليه أن يرجع وأن يُعلن رجوعه أيضًا، كما أعلن مخالفته التي قد يكون معذورًا فيها إذا كانت صادرة عن اجتهاد، فالواجب الرجوع إلى الحق، فإن تمادى الإنسان في مخالفة الحق فقد تقدم بين يدي الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وعلى آله وسلم.

{واتقوا الله} هذا تعميم بعد تخصيص؛ لأن التقدم بين يدي الله ورسوله مخالف للتقوى، لكن نص عليه وقدمه لأهميته، ومعنى {واتقوا الله} أي اتخذوا وقاية من عذاب الله عَزَّوَجَلَّ وهذا لا يتحقق إلا إذا قام الإنسان بفعل الأوامر وترك النواهي، بفعل الأوامر تقرُّبًا إلى الله تعالى، ومحبة لثوابه، وترك النواهي خوفًا من عذاب الله عَزَّوَجَلَّ، ومن الناس من إذا قيل له اتق الله أخذته العزة بالإثم، وتصاعد في نفسه وعز في نفسه، وأوغل في الإثم، وانتفخت أوداجه، وقال: أمثلي يُقال له: اتق الله! وما علم المسكين أن الله خاطب من هو أشرف منه ومن هو أتقى عباد الله لله، فأمره بالتقوى، قال الله تبارك وتعالى: {يا أيها النبي اتق الله ولا تطع الكافرين والمنافقين إن الله كان عليمًا حكيمًا}. وقال الله تعالى: {واتق الله وتخفي في

=

نفسك ما الله مبديه وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه﴾. ومن الذي لا يستحق أن يُؤمر بتقوى الله؟ فكل واحد منَّا يستحق أن يؤمر بتقوى الله ﷻ والواجب أنه إذا قيل له: اتق الله.

أن يزداد خوفًا من الله، وأن يراجع نفسه، وأن ينظر ماذا أمر به، إنه لم يؤمر أن يتقي فلانًا وفلانًا، إنما أمر أن يتقي الله ﷻ، وإذا فسرنا التقوى بأنها اتخاذ وقاية من عذاب الله بفعل أوامره، تقربًا إليه ومحبة لثوابه، وترك نواهيه خوفًا من عقابه، فإن أي إنسان يترك واجبًا فإنه لم يتق الله، وقد نقص من تقواه بقدر ما حصل منه من المخالفة، فالتقوى مخالفتها تختلف، فقد تكون مخالفتها كفرًا وقد تكون دون ذلك، فترك الصلاة مثلًا ترتفع به التقوى نهائيًا؛ لأن تارك الصلاة كافر، كما دلَّ على ذلك كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ، وأقوال الصحابة ﷺ، حتى إن بعض العلماء حكى إجماع الصحابة على أن تارك الصلاة كافر كفرًا مخرجًا عن الملة، ومنهم التابعي المشهور عبد الله بن شقيق رَحِمَهُ اللهُ حيث قال: (كان أصحاب النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم لا يرون شيئًا من الأعمال تركه كفر غير الصلاة).

وكذلك نقل إجماعهم إسحاق بن راهويه، ولم يصح عن أي صحابي أنه قال عن تارك الصلاة: إن تارك الصلاة في الجنة، أو إنه مؤمن، أو ما أشبه ذلك، والزاني لم يتق الله؛ لأنه زنا فخالف أمر الله وعصاه، والسارق لم يتق الله، وشارب الخمر لم يتق الله، والعاق لوالديه لم يتق الله، والقاطع لرحمه لم يتق الله، والأمثلة على هذا كثيرة، فقوله تعالى: ﴿واتقوا الله﴾ كلمة عامة شاملة تشمل كل الشريعة ﴿إن الله سميع عليم﴾ هذه الجملة تحذير لنا أن نقع فيما نهانا عنه من التقدُّم بين يدي الله ورسوله، أو أن نخالف ما أمر به من تقواه ﴿سميع﴾ أي سميع لما تقولون ﴿عليم﴾ أي عليم بما تقولون وما تفعلون؛ لأن العلم أشمل وأعم، إذ إن السمع يتعلق

=

=

بالمسموعات، والعلم يتعلق بالمعلومات، والله تعالى محيط بكل شيء علمًا، لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء، يقول العلماء رحمهم الله: إن السمع الذي اتصف به ربنا ﷻ ينقسم إلى قسمين: سمع إدراك وسمع إجابة، فسمع الإدراك معناه أن الله يسمع كل صوت خفي أو ظهر، حتى إنه ﷻ يقول لنبيه ﷺ: {قد سمع الله قول التى تجادلك في زوجها وتشتكي إلى الله والله يسمع تحاوركمآ إن الله سميع بصير} . قالت عائشة رضي الله عنها: (الحمد لله الذي وسع سمعه الأصوات، لقد كنت في الحجرة - أي حجرة النبي ﷺ والمرأة تجادله وهو يحاورها وإنه ليخفى عليَّ بعض حديثها).

والله - ﷻ أخبر بأنه سمع كل ما جرى بين هذه المرأة وبين رسول الله ﷺ، فهذا سمع إدراك، ثم إن سمع الإدراك قد يُراد به بيان الإحاطة والشمول، وقد يراد به التهديد، وقد يُراد به التأييد، فهذه ثلاثة أنواع.

الأول: يراد به بيان الإحاطة والشمول مثل هذه الآية.

الثاني: يُراد به التهديد مثل قوله تعالى: {لقد سمع الله قول الذين قالوا إن الله فقير ونحن أغنياء سنكتب ما قالوا وقتلهم الأَنبياء بغير حق ونقول ذوقوا عذاب الحريق} . وانظر كيف قال: {سنكتب ما قالوا} حين وصفوا الله تعالى بالنقص، قبل أن يقول: {وقتلهم الأَنبياء} مما يدلّ على أن وصف الله بالنقص أعظم من قتل الأنبياء.

الثالث: سمع يُراد به التأييد، ومنه قوله تبارك وتعالى لموسى وهارون: {لا تخافآ إننى معكمآ أسمع وأرى} ، فالمراد بالسمع هنا التأييد يعني: أسمعك وأؤيدك، يعني أسمع ما تقولان وما يُقال لكما.

أما سمع الإجابة فمعناه: أن الله يستجيب لمن دعاه، ومنه قول إبراهيم: {إن ربي لسميع الدعاء} . أي مجيب الدعاء، ومنه قول المصلي: (سمع الله لمن حمده)

=

=

يعني استجاب لمن حمده فأثابه، ولا أدري أنحن ندرك معنى ما نقوله في صلاتنا أو أننا نقوله تعبدًا ولا ندري ما المعنى؟! عندما نقول: الله أكبر، تكبيرة الإحرام يعني أن الله أكبر من كل شيء ﷻ ولا نحيط بذلك؛ لأنه أعظم من أن تحيط به عقولنا، وعندما نقول: سمع الله لمن حمده. يعني استجاب الله لمن حمده، وليس المعنى أنه يسمعه فقط، لأن الله يسمع من حمده ومن لا يحمده إذا تكلم، لكن المراد أنه يستجيب لمن حمده بالثواب، فهذا السمع يقتضي الاستجابة لمن دعاه.
أما قوله تعالى: {عليم} فالمراد أنه ذو علم واسع، قال الله تعالى: {لتعلموا أن الله على كل شيء قدير وأن الله قد أحاط بكل شيء علما} . فعندما تؤمن بأن الله سميع، وأن الله عليم، هل يمكن وأنت في عقلك الراشد أن تقول ما لا يرضيه؟ لا، لأنه يسمع، فلا ينبغي لك أن تُسمِع الله ما لا يرضاه منك، أسمِعْهُ ما يحبه ويرضاه إذا كنت مؤمنًا حقًّا بأن الله سميع، وأعتقد لو أن أباك نهاك عن قول من الأقوال فهل تتجرأ أن تسمعه ما لا يرضاه أو أن تسمعه ما نهاك عنه؟ فالله أعظم وأجلّ، فاحذر أن تسمع الله ما لا يرضاه منك، وإذا آمنت بأنه بكل شيء عليم وهذا أعم من السمع؛ لأنه يشمل القول والفعل وحديث النفس حتى ما توسوس به نفسك يعلمه ﷻ إذا علمت ذلك هل يمكن أن تفعل شيئًا لا يُرضيه؟ لا، لأنه ليس المقصود من إخبار الله لنا بأنه عليم بكل شيء، أن نعلم هذا وأن نعتقده فقط. بل المقصود هذا، والمقصود شيء آخر، وهو الثمرة والنتيجة التي تترتب على أنه بكل شيء عليم، فإذا علمنا بأنه بكل شيء عليم فهل نقول بما لا يرضى؟ لا، لأنه سوف يعلمه، وإذا علمنا بأنه على كل شيء عليم هل نعتقد ما لا يرضى؟ لا، لأننا نعلم أنه يعلم ما في قلوبنا، قال الله تعالى: {واعلموا أن الله يعلم ما في أنفسكم فاحذروه} . وقال تعالى {واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه} ، يحول بينك وبين قلبك، فيجب علينا إذا مر بنا اسم من أسماء الله تعالى، أو صفة من صفات

=

=

الله أن نؤمن بهذا الاسم، وهذه الصفة، وأن نقوم بما هو الثمرة من الإيمان بهذا الاسم، أو الصفة. وما تضمنته الآية الكريمة من أدب عظيم وجه الله تعالى عباده إليه. وهذا هو الأدب الأول.

الفهرس

إِنَّ هَؤُلَاءِ لَيَقُولُونَ (٣٤). ٥
إِنْ هِيَ إِلَّا مَوْتَتُنَا الْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُنْشَرِينَ (٣٥). ٥
فَأْتُوا بِآبَائِنَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٣٦). ٥
أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ (٣٧). ٥
وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ (٣٨). ٥
مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٣٩). ٥
إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ مِيقَاتُهُمْ أَجْمَعِينَ (٤٠). ٥
يَوْمَ لَا يُغْنِي مَوْلًىٰ عَنْ مَوْلًىٰ شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ (٤١). ٥
إِلَّا مَنْ رَحِمَ اللهُ إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (٤٢). ٦
إِنَّ شَجَرَتَ الزَّقُّومِ (٤٣). ٦
طَعَامُ الْأَثِيمِ (٤٤). ٦
كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ (٤٥). ٦
كَغَلْيِ الْحَمِيمِ (٤٦). ٦
خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَاءِ الْجَحِيمِ (٤٧). ٦
ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ (٤٨). ٦
ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ (٤٩). ٧
إِنَّ هَذَا مَا كُنْتُمْ بِهِ تَمْتَرُونَ (٥٠). ٧
إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ (٥١). ٤٣
فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (٥٢). ٤٣
يَلْبَسُونَ مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَقَابِلِينَ (٥٣). ٤٤

كَذَلِكَ وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ (٥٤).. ٤٤
يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَاكِهَةٍ آمِنِينَ (٥٥). ٤٤
لَا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَىٰ وَوَقَاهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ (٥٦). ٤٤
فَضْلًا مِنْ رَبِّكَ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (٥٧).. ٤٤
فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٥٨). ٤٤
فَارْتَقِبْ إِنَّهُمْ مُرْتَقِبُونَ (٥٩).. ٤٤
سورة الجاثية.. ٥٩
بيم الله الرحمن الرحيم ٦١
حم (١).. ٦١
تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ (٢).. ٦١
إِنَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِلْمُؤْمِنِينَ (٣).. ٦١
وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِنْ دَابَّةٍ آيَاتٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ (٤). ٦١
وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا أَنْزَلَ اللهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ رِزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ آيَاتٌ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (٥). ٦١
تِلْكَ آيَاتُ اللهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ (٦). ٧١
وَيْلٌ لِكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ (٧).. ٧١
يَسْمَعُ آيَاتِ اللهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَنْ لَمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٨).. ٧١
وَإِذَا عَلِمَ مِنْ آيَاتِنَا شَيْئًا اتَّخَذَهَا هُزُوًا أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ (٩). ٧١
مِنْ وَرَائِهِمْ جَهَنَّمُ وَلَا يُغْنِي عَنْهُمْ مَا كَسَبُوا شَيْئًا وَلَا مَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللهِ أَوْلِيَاءَ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١٠). ٧١

هَذَا هُدًىٰ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِنْ رِجْزٍ أَلِيمٌ (١١). ٧٢
اللهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (١٢). ٨٢
وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (١٣). ٨٣
قُلْ لِلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللهِ لِيَجْزِيَ قَوْمًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (١٤). ٨٣
مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ (١٥). ٨٣
وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ (١٦). ٩٣
وَآتَيْنَاهُمْ بَيِّنَاتٍ مِنَ الْأَمْرِ فَمَا اخْتَلَفُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (١٧). ٩٣
ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ (١٨). ..٩٤
إِنَّهُمْ لَنْ يُغْنُوا عَنْكَ مِنَ اللهِ شَيْئًا وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَاللهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ (١٩). ٩٤
هَذَا بَصَائِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ (٢٠). ٩٤
أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ (٢١). ١٠٩
وَخَلَقَ اللهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (٢٢). ١١٠
أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ

بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (٢٣). ١١٠
وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ (٢٤). ١١١
وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ مَا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا ائْتُوا بِآبَائِنَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٢٥). ١١١
قُلِ اللهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٢٦). ١١١
وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ الْمُبْطِلُونَ (٢٧). ١٣١
وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰ إِلَىٰ كِتَابِهَا الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٢٨). ١٣١
هَذَا كِتَابُنَا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٢٩). ١٣١
فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ (٣٠). ١٣٢
وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا أَفَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَاسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنْتُمْ قَوْمًا مُجْرِمِينَ (٣١). ١٣٢
وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُمْ مَا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ إِنْ نَظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ (٣٢). ١٣٢
وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (٣٣). ١٣٢
وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنْسَاكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَاصِرِينَ (٣٤). ١٣٢
ذَلِكُمْ بِأَنَّكُمُ اتَّخَذْتُمْ آيَاتِ اللهِ هُزُوًا وَغَرَّتْكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلَا

هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ (٣٥). ١٣٣
فَلِلَّهِ الْحَمْدُ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَرَبِّ الْأَرْضِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٣٦)................ ١٣٣
وَلَهُ الْكِبْرِيَاءُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٣٧). ١٣٣
سورة الأحقاف ١٦٢
بسم الله الرحمن الرحيم ١٦٣
حم (١) ١٦٤
تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ (٢)......................... ١٦٤
مَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُسَمًّىٰ وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنْذِرُوا مُعْرِضُونَ (٣).. ١٦٤
قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ ائْتُونِي بِكِتَابٍ مِنْ قَبْلِ هَذَا أَوْ أَثَارَةٍ مِنْ عِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٤). ... ١٦٤
وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ (٥). ١٦٤
وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ (٦). ١٦٥
وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ (٧).. ١٨٥
أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللهِ شَيْئًا هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ كَفَىٰ بِهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (٨). ١٨٥
قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعًا مِنَ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ (٩)... ١٨٥
قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللهِ وَكَفَرْتُمْ بِهِ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِ فَآمَنَ

وَاسْتَكْبَرْتُمْ إِنَّ اللهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (١٠)........................ ١٩٧
وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا مَا سَبَقُونَا إِلَيْهِ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هَذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ (١١).. ١٩٨
وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَىٰ إِمَامًا وَرَحْمَةً وَهَذَا كِتَابٌ مُصَدِّقٌ لِسَانًا عَرَبِيًّا لِيُنْذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ (١٢).. ١٩٨
إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (١٣)..... ٢١٨
أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٤).............. ٢١٨
وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ (١٥).. ٢٢٤
أُولَئِكَ الَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَنَتَجَاوَزُ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ وَعْدَ الصِّدْقِ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ (١٦).. ٢٢٤
وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَكُمَا أَتَعِدَانِنِي أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِنْ قَبْلِي وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ اللهَ وَيْلَكَ آمِنْ إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (١٧). ٢٣٨
أُولَئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ (١٨).. ٢٣٨
وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَالَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (١٩)............ ٢٥٢
وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنْتُمْ تَفْسُقُونَ (٢٠).. ٢٥٥

وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ النُّذُرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (٢١). ٢٦٦

قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ آلِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٢٢). ٢٦٧

قَالَ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللهِ وَأُبَلِّغُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ (٢٣). ... ٢٦٧

فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُمْطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ (٢٤). ٢٦٧

تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَى إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ (٢٥). ٢٦٧

وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيمَا إِنْ مَكَّنَّاكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللهِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (٢٦). ٢٨٣

وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُمْ مِنَ الْقُرَى وَصَرَّفْنَا الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٢٧). ٢٨٤

فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللهِ قُرْبَانًا آلِهَةً بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ وَذَلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ (٢٨). ٢٨٤

وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنْصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ (٢٩). ٢٩٢

قَالُوا يَاقَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ (٣٠). ٢٩٣

يَاقَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (٣١). ٢٩٣

وَمَنْ لَا يُجِبْ دَاعِيَ اللهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءُ أُولَئِكَ فِي

ضَلَالٍ مُبِينٍ (٣٢). ٢٩٣
أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ بَلَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٣٣). ٣٢٦
وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَىٰ النَّارِ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ (٣٤). ٣٣٠
فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ بَلَاغٌ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ (٣٥). ٣٣٢
سورة القتال أو محمد ٣٤٢
بسم الله الرحمن الرحيم ٣٤٤
الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ (١). ٣٤٤
وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ (٢). ٣٤٤
ذَلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِنْ رَبِّهِمْ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ (٣). ٣٤٥
فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّىٰ إِذَا أَثْخَنْتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّىٰ تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللهُ لَانْتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِنْ لِيَبْلُوَ بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ (٤). ٣٥٤
سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ (٥) ٣٥٥
وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ (٦). ٣٥٥
يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَنْصُرُوا اللهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ (٧). ٣٥٥
وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعْسًا لَهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ (٨). ٣٥٦

ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنْزَلَ اللهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ (٩)........................ ٣٥٦
أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا (١٠)... ٣٧٨
ذَلِكَ بِأَنَّ اللهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ (١١)................ ٣٧٨
إِنَّ اللهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ (١٢)............... ٣٨٣
وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِنْ قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَاهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ (١٣).. ٣٨٦
أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ كَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ (١٤)...... ٣٨٩
مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ (١٥).. ٣٩١
وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّى إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ (١٦)................ ٤٨٠
وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ (١٧)........................ ٤٨٠
فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا فَأَنَّى لَهُمْ إِذَا جَاءَتْهُمْ ذِكْرَاهُمْ (١٨).. ٤٨٧
فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَاللهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ (١٩)... ٤٨٧
وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ

الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَأَوْلَىٰ لَهُمْ (٢٠). ٥٠٣
طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَعْرُوفٌ فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللهَ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ (٢١)........ ٥٠٤
فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ (٢٢). ٥٠٤
أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰ أَبْصَارَهُمْ (٢٣). ٥٠٤
أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا (٢٤). ٥١٧
إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَىٰ الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ (٢٥). ٥٢١
ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ وَاللهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ (٢٦)........ ٥٢١
فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ (٢٧). ٥٢١
ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ (٢٨). ٥٢١
أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَنْ لَنْ يُخْرِجَ اللهُ أَضْغَانَهُمْ (٢٩). ٥٣٠
وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِيمَاهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ وَاللهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ (٣٠). ٥٣٠
وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ (٣١). ٥٣١
إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللهِ وَشَاقُّوا الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَىٰ لَنْ يَضُرُّوا اللهَ شَيْئًا وَسَيُحْبِطُ أَعْمَالَهُمْ (٣٢). ٥٣٨
يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ (٣٣)........ ٥٣٨
إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللهِ وَشَاقُّوا الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَىٰ لَنْ يَضُرُّوا اللهَ شَيْئًا وَسَيُحْبِطُ أَعْمَالَهُمْ (٣٢). ٥٣٩

فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ وَاللهُ مَعَكُمْ وَلَنْ يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ (٣٥). ٥٣٩

إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلَا يَسْأَلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ (٣٦). ٥٥٠

إِنْ يَسْأَلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا وَيُخْرِجْ أَضْغَانَكُمْ (٣٧). ٥٥٠

هَاأَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تُدْعَوْنَ لِتُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللهِ فَمِنْكُمْ مَنْ يَبْخَلُ وَمَنْ يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَنْ نَفْسِهِ وَاللهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ (٣٨). ٥٥١

سُورَة الفتح ٥٦١

بسم الله الرحمن الرحيم ٥٦٤

إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا (١). ٥٦٤

لِيَغْفِرَ لَكَ اللهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا (٢). ٥٦٤

وَيَنْصُرَكَ اللهُ نَصْرًا عَزِيزًا (٣). ٥٦٤

هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللهُ عَلِيمًا حَكِيمًا (٤). ٥٩٤

لِيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَكَانَ ذَلِكَ عِنْدَ اللهِ فَوْزًا عَظِيمًا (٥). ٥٩٥

وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّانِّينَ بِاللهِ ظَنَّ السَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَغَضِبَ اللهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا (٦). ... ٥٩٥

وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللهُ عَزِيزًا حَكِيمًا (٧). ٥٩٥

إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا (٨) ٦٠٨
لِتُؤْمِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا (٩) ٦٠٨
إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللهَ يَدُ اللهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا (١٠) ٦٠٨
سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا بَلْ كَانَ اللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا (١١) ٦٢٢
بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَنْتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ وَكُنْتُمْ قَوْمًا بُورًا (١٢) ٦٢٢
وَمَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِاللهِ وَرَسُولِهِ فَإِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَعِيرًا (١٣) ٦٢٣
وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَكَانَ اللهُ غَفُورًا رَحِيمًا (١٤) ٦٢٣
سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انْطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللهِ قُلْ لَنْ تَتَّبِعُونَا كَذَلِكُمْ قَالَ اللهُ مِنْ قَبْلُ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا بَلْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا (١٥) ٦٣٤
قُلْ لِلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ فَإِنْ تُطِيعُوا يُؤْتِكُمُ اللهُ أَجْرًا حَسَنًا وَإِنْ تَتَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُمْ مِنْ قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (١٦) ٦٤٠
لَيْسَ عَلَىٰ الْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَىٰ الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَىٰ الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَمَنْ يُطِعِ اللهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَنْ يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا (١٧). . ٦٤٠
لَقَدْ رَضِيَ اللهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ

السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا (١٨).. ٦٥١
وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا وَكَانَ اللهُ عَزِيزًا حَكِيمًا (١٩)........................ ٦٥١
وَعَدَكُمُ اللهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنْكُمْ وَلِتَكُونَ آيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا (٢٠)........................... ٦٥٨
وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللهُ بِهَا وَكَانَ اللهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا (٢١). . ٦٥٩
وَلَوْ قَاتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوُا الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا (٢٢)....... ٦٥٩
سُنَّةَ اللهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَبْدِيلًا (٢٣)................ ٦٥٩
وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا (٢٤).. ٦٥٩
هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدْيَ مَعْكُوفًا أَنْ يَبْلُغَ مَحِلَّهُ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُؤْمِنَاتٌ لَمْ تَعْلَمُوهُمْ أَنْ تَطَئُوهُمْ فَتُصِيبَكُمْ مِنْهُمْ مَعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ لِيُدْخِلَ اللهُ فِي رَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (٢٥).. ٦٨٩
إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ فَأَنْزَلَ اللهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَىٰ وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا وَكَانَ اللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا (٢٦).. ٦٩٠
لَقَدْ صَدَقَ اللهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا (٢٧).. ٧٠٩
هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَىٰ بِاللهِ شَهِيدًا (٢٨).. ٧٢١

مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا (٢٩) ٧٢٤

سُورَةَ الْحُجُرَات ٧٦٩

بسم الله الرحمن الرحيم ٧٧١

يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللهَ إِنَّ اللهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (١) ٧٧١

الفهرس ٧٨٧